المجموعة التاريخية العثمانية العربية ١٩٠٨ - ١٩١٨



مذكرات جمال باشا

تأليف : جمال باشا

اعداد : محمد السعيدي

الكتاب الاول

الفارابي
دار الفارابي

مدخل

«مذكرات أحمد جمال باشا»، الوزير والقائد العسكري التركي الشهير، تشكل مادة الجزء الأول من مجموعة اعمال تعالج قضايا مهمة في مرحلة مفصلية من تاريخ السلطنة العثمانية، وفي منعطف تاريخي بالغ الأهمية مسَّ تاريخ العرب (وعلى وجه خاص المشرق العربي) وتركيا والاقليم عموماً والعالم. إنها مرحلة نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، مرحلة النهوض القومي العربي والفارسي والتركي، ومحاولة إعادة التموضع من خلال مشاريع نهضوية حملت سمات مشتركة (المطالبة بالحياة الدستورية على سبيل المثال)، ولكنها احتكمت في النهاية للخصوصيات القومية والاجتماعية والثقافية والإثنية في كل إقليم، وهي خصوصيات نسبية على كل حال.

كما تأثرت بصورة حاسمة ولو بمستويات مختلفة بالصراعات الضارية على المنطقة، والتي خاضتها القوى العظمى آنذاك، بشراسة ودموية منقطعتي النظير، تليقان بتطور مستوى التسليح والتكتيكات العسكرية وما وفّره العلم السياسي والديبلوماسي من قدرة على المناورة والتصرف بالحقائق، وما وفرته العلوم الاجتماعية الحديثة، كعلم الإجتماع والأنثروبولوجيا الناشئين من قدرة على العبث بالخرائط الطائفية والمذهبية والإثنية، بما يعيد ترتيب الوقائع والحقائق في ما ينتظم على حساب وحدة شعوب المنطقة ومصالحها. فتمت إعادة رسم الخرائط السياسية للمنطقة، وجرى اقتسام النفوذ فيها عبر تقسيمها، ووضع الأساس لاغتصاب فلسطين والتمهيد لإنشاء دولة إسرائيل عبر وعد بلفور وانتداب بريطانيا على فلسطين.

مذكرات أحمد جمال باشا مع كتاب الإيضاحات اول كتابين من المجموعة الأولى التي تتضمن اربعة عشر جزءًا، وسوف تلي المجموعة الأولى، مجموعة ثانية تتمحور حول مذكرات سياسية وديبلوماسية صادرة في عواصم القرار الكبرى آنذاك مثل برلين وباريس ولندن وغيرها.

وعندما نعلم أنه ستنقضي شهور عدة بين صدور كتاب وآخر، ندرك أننا امام عمل موسوعي تاريخي وسياسي ضخم لن يشهد تتماته قبل سنوات، ونكون عندها قد اقتربنا من الذكرى المئوية لأحداث فاصلة في تأثيرها في شعوبنا ومنطقتنا ومنها على سبيل المثال وليس الحصر، هزيمة الإمبراطورية العثمانية وبدء تصفية تركة القرون الأربعة في هذه المنطقة وفي البلقان وأوروبا...

مع افول القرن العشرين، بقيت تركيا حاضرة في اللغة المتداولة بين الناس والعديد من العادات والتقاليد، وفي علاقات الجماعات والطوائف فيما بينها، فما علينا سوى تذكر تاريخ لبنان منذ بروتوكول ١٨٦٤ حتى الرحيل العثماني عن لبنان والمنطقة عام ١٩١٨، والتفكر بحكم المتصرفين من داود باشا إلى اوهانس باشا.

حديثاً، لعبت تركيا دوراً مؤثراً في السياسة من خلال انتظامها في الأحلاف الغربية (حلف بغداد، حلف السنتو، حلف الأطلسي) في فترة حساسة من النهوض العربي والصراع ضد الصهيونية والرغبة في التحرر من وضع اليد الأجنبية وإطلاق قوى التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الداخل العربي...

وخلال هذا القرن كانت تركيا حاضرة بصورة سلبية في يومياتنا ليس فقط باصطفافها السياسي

الذي غلب عليه التناقض مع الأهداف المعلنة للعرب في الفترة الممتدة منذ الخمسينات. ومن خلال الجاليات الأرمنية في البلدان العربية المشرقية وبخاصة لبنان وسوريا وفلسطين وعملية التماثل بين متاعب الشعوب العربية وعذاباتها تحضر تركيا والرواية الأرمنية عن عذابات الأرمن ومآسيهم في مطالع القرن العشرين.

وحضرت تركيا طويلاً من خلال نقاشات الإصلاحيين والإحيائيين العرب بشأن الخلافة الإسلامية وضرورة إحيائها أو اعتبارها صيغة لتدبر الأمر (الخلافة لم ينص عليها القرآن الكريم ولا أوحت بها السنّة)؛ ولم يقتصر هذا النقاش على الاجتهادات المتباينة أو المتناقضة، بل شهدت ولادة أحزاب اتخذت من إحياء الخلافة الإسلامية هدفاً وشعاراً استراتيجياً لها.

كما شغلتنا تركيا بعلمانيتها «المتطرفة» المفتونة بالعلمانية الأوروبية(الأورية) وخصوصاً الفرنسية والعداء لثقافة المنطقة ولثقافة تركيا ذاتها، وبخاصة من خلال ما كان يبرز من تمييز يصل حدّ الاضطهاد بوجه بعض مظاهر التدين واللباس وفي الجامعات وسواها. وقد تم التقاطها في بلادنا العربية عنواناً للتغريب.

ومنذ الانعطاف السياسي الكبير المتمثل بوصول الاسلام السياسي إلى الحكم، ممثلاً بحزب «العدالة والتنمية» عادت تركيا بالتدريج، ولكن بقوة، إلى الانهمام بمشكلات المنطقة والانفتاح على قضاياها. وبرز انفتاحها السياسي على العرب الذين يمثلون الكتلة البشرية الأكبر في المنطقة، وإبداء التضامن والتعاطف مع قضيتهم المركزية فلسطين ومع شعبها الساعي إلى حقه في تقرير مصيره على أرضه.

وأحدث هذا التحول في السياسة التركية دوياً هائلاً في المنطقة وعلى الصعيد الدولي كذلك؛ وتعددت وتباينت التفسيرات لهذا الحدث الكبير. فمنهم من رأى فيه رد فعل على رفض الاتحاد الأوروبي لتركيا في عضويته؛ ومنهم من نظر إليه كتوظيف عقلاني لإمكانات تركيا الاقتصادية المتراكمة في منطقة واسعة وذات قدرة شرائية كبيرة، يمكن للقدرة الانتاجية التركية أن تقتطع نصيباً مهماً منها. وهذا يعني ضمن أمور أخرى ان المؤسسات الصناعية وكذلك المؤسسات الزراعية والخدمية الصغيرة وخصوصاً المتوسطة، هي التي شكلت العمود الفقري لصعود الإسلام السياسي بصيغته التركية، ضغطت باتجاه الانفتاح على الأسواق العربية وتاليا على العرب وقضاياهم...

ومن دون دحض ما سبق، هناك من رأى إلى التحول التركي انه اعادة تموضع استراتيجي يستند إلى صحوة تشمل اعادة تشكل للوعي الذي يملي البحث عن دور والتزامه، والمبادرة إلى اعادة تشكيل عناصر استراتيجية جديدة. ومنهم من اطلق على هذه العملية وصف «العثمانية الجديدة». حيث إن تركيا المستعيدة لوضعها في المنطقة والمستندة إلى خبرتها الطويلة والشديدة الثراء في التعاطي مع شعوب المنطقة واثنياتها وطوائفها ومذاهبها عادت لتسبح في بحرها وتلعب فيه دورها القيادي بدرجة عالية من السلاسة والمرونة، فهي صاحبة «المشكلات صفر» في عموم الإقليم وتميل علاقاتها إلى ان تكون ودية أو طبيعية مع الجميع الخ...

ولئن أثبتت تجربة السنوات القليلة الأخيرة أن الأمور أشد تعقيداً من «تصغير المشكلات» والدليل على ذلك توترات العلاقة التركية الاسرائيلية، وانهيار العلاقة الرسمية التركية السورية، وتلبد العلاقة التركية مع العراق، والتنافس على النفوذ مع ايران في المنطقة في ظل استقالة مصر

الطويلة من دورها القيادي العربي وهي إن تكن قد طبّعت علاقاتها بدولة ارمينيا، فليس هناك ما يشير إلى تجاوز التطبيع نحو التعاون كما انها ما زالت بعيدة عن التطبيع مع الشتات الأرمني.
وإذا تجاوزنا الإطار الجيوسياسي للشرق الأوسط، نرى علاقات تركيا مرتبكة مع روسيا، ومتشنجة مع فرنسا التي تقفل في وجهها باب الاتحاد الأوروبي، واما مع اليونان فهي أسيرة صراعات الماضي وهواجسه من ناحية والجمود في المسألة القبرصية من ناحية ثانية.
ورغم كل ذلك، فان «عودة» تركيا القوية ورغبتها في لعب دور قيادي اقليمي وهذا حق لها كغيرها من الدول، مسألة لا يرقى إليها الشك، وهي إلى مشروعيتها، عنصر توازن ضروري في الإقليم.
إنها مئة سنة تقترب من نهايتها لم تغب فيها تركيا فعلاً عن منطقتنا تأثيراً وتأثراً. والإضاءة على وقائع مطلع القرن، تساعد ولا شك في الإضاءة على حاضرنا، انها عين على الماضي والحاضر، وحدس شديد الأهمية للمستقبل.
إن هذه الكتب، وهي مذكرات في معظمها، من شأنها ان تعيد تنشيط النقاش بشأن هذه المرحلة الخصبة وتداعياتها وهي سوف توفر للباحثين والدارسين مادة شديدة الغنى جرى اعدادها من دون أدنى تدخل في متون نصوصها، إلا لأغراض تحريرية وتم اللجوء إلى الهوامش من أجل التعليق والإحالات مدعّمة بالصور والتعريفات التي تم استقاؤها من أرشيفات ومراجع من صحف ومكتبات خاصة وعامة وجامعية وأديرة في بيروت ودمشق واستانبول وواشنطن.

سليمان الرياشي

كلمة شكر لا بدّ منها لمن ساعد في خروج هذا الكتاب الى النور.
كنت أود ان يكون بيننا الدكتور منير اسماعيل رحمه الله.
والاستاذ ارداشيس قيومجيان رحمه الله إذ فقدناه مبكرًا.
الشكر: للاستاذ سليمان رياشي
والآنسة سوسن ضو على العمل المضني في تنضيد المجموعة الـ ١٤جزءًا وتصحيحها، وفرز الوان الصور العتيقة أحيانا أو المتهرئة فأعادت احياءها، ساهمت في ضبط الهوامش وفي إعداد الصفحات والإخراج وسط ليالٍ سهرناها وصلناها بالنهار لانجاز المجموعة، متّعها الله بالشباب.
والاستاذ الفنان نبال الحلو على رسم وتصميم الغلاف.
والاساتذة محمد خضر عيتاني ومحمد حسين حمدان ومحمود نورالدين الذين رافقوني في تصحيح ما اعوجَّ من لغتي. والاستاذ أحمد برجاوي. والاستاذ أحمد صفاوي على رحابة صدره.
واذا كان من أخطاء في التاريخ أو في اللغة فأنا مسؤول عنها وحدي لأنها اختياري.
عسى من يحب التاريخ ان يرشدنا الى الاخطاء كي نتجنبها في طبعة ثانية.
الشكر لعائلات الشهداء في لبنان وسوريا الذين أسهموا في إنجاز هذا العمل.
رحم الله الشهداء.

إهداء

إلى شهداء الحرية في كل مكان ...

الذين لم يراهنوا على قوى أجنبية لتحرير بلادهم.

وشكر

إلى أرداشيس قيومجيان.. ومنير اسماعيل.. وسوسن ضو...

لولاهم لما كان هذا الكتاب.

هوية صاحب الخواطر



أحمد جمال باشا (١٨٧٢-١٩٢٢) Ahmed Djemal

أحد أبرز ثلاثة باشاوات في الاتحاد والترقي. وُلد في «مايتيلين» في جزيرة ليسبوس. والده محمد نسيب بك، الصيدلي العسكري. بين سنوات ١٩٠٨-١٩١٦ كان أحمد جمال من رجال الإدارة العثمانية في حكومة الاتحاديين. تخرّج من المدرسة الحربية سنة ١٨٩٠ والأكاديمية ١٨٩٣ في استانبول برتبة نقيب (يوزباشي).

الخدمة العسكرية:
بداية خدمته في الدولة كانت في القسم الأول لوزارة الحربية، ثم في «كيركيليسه» في قسم بناء الاستحكامات التابعة للجيش الثاني. سنة ١٨٩٨ عيّن في هيئة قيادة الفرقة التجهيزية في سيلانيك. هناك تعرّف على جمعية الاتحاد والترقي واطلع على مبادئها وأسباب نشوئها وأهدافها، ما أوجد عنده حالة تعاطف معها، مثله مثل آلاف الضباط والمحامين والأطباء الذين استمالتهم إليها.. هذا كان سنة ١٩٠٥، وفيها رقّيَ رائداً وعيّن مفتشاً في قسم الهندسة في سكة حديد الروملي. أيضاً في هذه السنة يتزوج أحمد جمال بـ«سنيحة هانم» ابنة أخ محمد باشا قائد فرقة في «شيريز». القرار الحسم اتخذه سنة ١٩٠٦، وينتسب إلى جمعية الحرية العثمانية، أصبح ذا نفوذ واسع في القسم العسكري في جمعية الاتحاد والترقي، وتدرج ليصبح عضواً في قيادة الجيش الثالث وعمل مع الرائد فتحي (أوكيار) ومصطفى كمال. وُوليَ أضنه سنة ١٩٠٩، فجرى تنظيم وتقوية جهاز مخابراتي للرقابة على نشاطات الأرمن الاقتصادية والثقافية وعلى كنائسهم وطقوسها وقساوستها ومواعظهم وعلى مدارسهم وبرامجها ولغتها وأنديتهم وصحافتهم وعلاقاتهم التجارية، أعيادهم، مناسباتهم الدينية واحتفالاتهم الخاصة وإجبارهم على تتريك حياتهم، ولما كانت الممانعة تمت مجزرة في حق الأرمن وإحراق أحيائهم ببيوتها وقاطنيها. كانت النتيجة أكثر من ٥٠ ألف قتيل وإحراق المدينة.

حرب البلقان:
أُرسل إلى بغداد ليتولى حاكميتها في ١٩١١/٨/٢٦، وللاتحاديين نفوذ كبير على توجه الحكومة. وعندما اشتعلت حرب البلقان الثانية سنة ١٩١٢ كان أحمد جمال لا يزال والياً على بغداد. إنما على أثر استلام الائتلافيين الصدارة والحكومة جرى استدعاؤه إلى العاصمة استانبول لأمر ما تنوي قيادة الجمعية أن تقوم به. فقدم استقالته وغادر بغداد في ١٩١٢/٨/١٧. كانت مشاركته في هذه الحرب في جهاز (السر خفية الاتحادي) الذي أعادت جمعية الاتحاد والترقي إحياءه لصالحها للتجسس والتآمر على خصومها السياسيين واغتيال من لم يوالها، وعمل معه عزمي أفندي وعزيز أفندي وجمال عزمي (بكوات لاحقاً). ورقّي إلى عقيد في نهاية هذه الحرب، وُوليَ قسم الدعاية والاستعلامات في جمعية الاتحاد والترقي ضد كل سياسي أو مفكر ومثقف وصحافي غير اتحادي، داخل السلطنة وخارجها، مروجاً ومنشئاً أقساماً وفروعاً للجمعية بتوجه طوراني عنصري ضد كل ما هو غير تركي ومشرفاً وموجهاً للشبيبة (ترك أوجاغي). شارك مع أنور وطلعت بالإشراف على توجيه الضباط والجنود في اقتحام الباب العالي ومجلس الوزراء منعقداً برئاسة الصدر الأعظم كامل باشا، وقتل وزير الحربية ناظم باشا واعتقال بقية أعضاء الحكومة وسجنهم.

حاكم استانبول:
في ١٩١٣/١/٢٣ عيّن حاكماً عسكرياً مطلق اليد للعاصمة (محافظاً/والياً) ما جعله يلاحق المعارضين لجمعية الاتحاد والترقي كالـ... المسعور، بالتهم الملفقة بطش بالمئات، منهم الداماد الأمير صالح بن خير الدين التونسي الصدر الأعظم (١٨٧٨-١٨٧٩) بتهمة أنه العقل المدبر لاغتيال الصدر الأعظم محمود شوكت باشا، التي كانت مبرراً لإعدامات كثيرة بحق معارضي جمعية الاتحاد والترقي واختفاء المئات منهم.
في جلسة خاصة لباشاوات الجمعية لاختيار صدر أعظم جديد طرح نفسه لموقع الصدارة العظمى في وجه طلعت وأنور، الأمر الذي كاد يتطور إلى إطلاق النار فيما بينهم قبل الاتفاق على الدمية الأمير سعيد حليم.
في تشرين الثاني يُضَم إلى الحكومة ويُعطَى وزارة (النافعة) الأشغال، وبسبب فشله فيها ولم يمض فيها شهراً بعد أُعْطيت لاتحادي آخر، ولم يجدوا له موقعاً غير وزارة البحرية مع رتبة الجنرال.

دور أحمد جمال في الحرب العالمية:
عشية الحرب (الأوروبية العامة) العالمية الأولى وانقسام أوروبا إلى معسكرات ومحاور، وفي جو مشحون بالانقسامات والاستقطابات حاولت الحكومة أن تستبق الأحداث وتجد لها حليفاً أو موقعاً للسلطنة، خصوصاً أنها محاطة بالأعداء الطامعين بحصص من مقاطعاتها وأراضيها، إلى جانب أن الخزينة المالية للسلطنة خاوية والأعباء العسكرية تتزايد عليها.
فارتأت الحكومة إرسال أحمد جمال باشا إلى فرنسا للتفاوض مع الحكومة الفرنسية وشرح موقف السلطنة، ذهب أحمد جمال إلى فرنسا وعرض المطالب مع المسؤولين الفرنسيين لرفع القيود الاقتصادية والسياسية والمالية (إلغاء امتيازات فرنسا) عن الدولة العثمانية، إلا أن المفاوضات لم تثمر وفشلت الخطوة.
الإنكليز بدورهم عَبْرَ سفيرهم كان لهم الموقف المشابه للموقف الفرنسي من الامتيازات والمسائل المالية والاقتصادية، إضافة إلى موقفهم من المسألة المصرية. هذا الموقف الأوروبي من تركيا دفع بالاتحاديين القابضين على زمام الحكم إلى الجنوح

نحو الحرب بعيداً عن السلم. ما دفع بالباشاوات الثلاثة أنور وطلعت وجمال أن يتوجهوا إلى حليف آخر. فكان الجناح الميال إلى ألمانيا (أنور وطلعت) وأتباعهم هو الجناح الأقوى المسيطر على التوجه السياسي للحكومة. واستمر طيلة سنوات الحرب إلى الجانب الألماني.
وأمام هذا الواقع انضم أحمد جمال باشا إلى هذا الجناح. ومارس الضغط على بقية الرفاق الاتحاديين باعتباره أحد أقوى المشاركين في رسم السياسة الداخلية والخارجية للسلطنة العثمانية الذي جلب النكبات للدولة ودمرها.
أغرتهم المساعدات المالية والعسكرية المقدمة من ألمانيا ليعقدوا تحالفاً سرياً معها. بقي أمره مكتوماً بين أنور وطلعت وخليل بك منتشة والصدر الأعظم سعيد حليم وأنتج انقساماً داخل الحكومة. وأحمد جمال باشا أمام هذه التقديمات الألمانية صار أحد مؤيدي هذا التوجه ويؤمن بأن تحقيق أهداف جمعية الاتحاد والترقي داخل تركيا وخارجها لن تتحقق إلا بالقوة وبالتعاون مع ألمانيا. فأخذ دور المقنع لبقية الوزراء بالتفاهم مع الثلاثي طلعت. أنور. خليل والتنسيق عن مبررات ذهاب تركيا إلى الحرب إلى جانب ألمانيا ومملكة النمسا-المجر.
بعد أن أعلنت السلطنة العثمانية الحرب على الحلفاء. والخطة العامة تتطلب شخصاً يكمل هذه الخطة في جنوب أملاك السلطنة بلاد الشام وتحديداً (سيناء وفلسطين) أنور باشا رشح أحمد جمال باشا لقيادة الجيش العثماني الرابع لمحاربة القوات الإنكليزية في قناة السويس في مصر. أحمد جمال تقبل المهمة. ربما تعاطي أنور بالشأن الحربي التكتيكي البحت في الميدان أفضل من أحمد جمال. إلا أن كلاهما جلب كوارث مميتة للسلطنة.

في سوريا (معارك سيناء وفلسطين):
عيّن أحمد جمال باشا قائداً للجيش الرابع مع إطلاق يده في العمل السياسي/العسكري في بلاد الشام (سوريا-فلسطين-لبنان) وصولاً إلى الحجاز. واضعاً نصب عينيه هدفين أساسيين. نزع امتيازات جبل لبنان وحكمها مباشرة من قبل الباب العالي. والهدف الثاني ضرب أي نزعة قومية لدى العرب مع تتريك شامل لبلاد الشام وقمع أي نزعة استقلالية. وأتبعت به كل الدوائر الرسمية في العاصمة ذات العلاقة ببلاد الشام.
في حملتيه الأولى والثانية على الإنكليز في قناة السويس وفي سيناء والمدن الفلسطينية. وهي جزء من مخطط جمعية الاتحاد والترقي التي بيدها زمام القيادة السياسية والعسكرية. وبفشل أهداف هذه الخطط المعلن منها والمستور. بيّنت عن مدى معرفة أحمد جمال باشا العسكرية في تقدير القوى والموقف ليتخذ قراراته الحربية منفرداً بمعزل عن ضباط أركان جيشه المحترفين ألماناً وأتراك. وكأن بلاد الشام لم يكفِها ما اقترفته سياسة أحمد جمال باشا ومارسه من اضطهاد إنساني وسياسي بحق شبابها وقيام إدارته العسكرية وجنوده من نهب اقتصادي ومالي. فقد ترافق مع أمراض فتاكة (طاعون/جدري/تيفوئيد/كوليرا). بل زاد عليهم الجفاف وضحالة إنتاج المواسم الزراعية ليفتك بها الجراد قبل أن تحصد.
في نهاية عام ١٩١٥ بدأ أحمد جمال اتصالاته السرية (مفاوضات) مع الفرنسيين بواسطة ضابط فرنسي في بيروت لإنهاء الحرب ومساعدته لأن يتولى إمارة بلاد الشام مستقلاً منفرداً بمعزل عن رفاقه الاتحاديين في استانبول. هذه المفاوضات لم تثمر. إذ لم يوافقوه على مستقبل المنطقة أو الدولة العثمانية ولم يقطعوا معه وعداً. بل أرادوه مجرد دمية.
أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع. وزير البحرية. الباشا الثالث في الاتحاد والترقي يتصل بالعدو ويتفاوض معه لمصلحته الخاصة به وليس لأجل إنقاذ السلطنة ومستقبلها التي هو أحد العاملين لأجلها.
تميزت سياسة القائد أحمد جمال باشا بالعنف الجسدي والترهيب النفسي والنهب الاقتصادي بمختلف الوسائل. حتى بات يشار إليه بالسفاح أو الجزار بسبب الإعدامات التي أمر بها بتهم سياسية طاولت مئات الشباب العرب من فلسطين وسوريا ولبنان. مدنيين وعسكريين. بينهم الصحافي والطبيب ورجال دين ورجال أعمال ومحامون وتجار ومثقفون. بينهم نواب في مجلس المبعوثان وغيرهم كثر.
فيما أعلن الشريف حسين الثورة العربية على تسلط الدولة العثمانية على بلاد العرب ودعوته الاستقلالية. شدد أحمد جمال قبضته أكثر في وجه أيٍ انتقاد أو معارضة صريحة. فكانت مخابراته نشطة في كل مجال اجتماعي واقتصادي وثقافي وديني. مسيحياً كان أو مسلماً. ترصد له أي حركة مفيدة أو غير مفيدة وأكثرها ملفقاً.
بعد فشل مفاوضاته مع الفرنسيين أمر مخابراته باقتحام مقار القنصليات الفرنسية في دمشق وبيروت للبحث عن وثائق. تمكنت مخابراته من الوصول إلى معرفة مكانها وهي تحوي معلومات في غاية السرية. وكان القنصل جورج بيكو قد أمر بإبقائها وإخفائها في القنصلية. ومن ضمن الوثائق محاضر ورسائل ورد فيها ذكر أسماء لشخصيات لبنانية كانت بعضها تتردد على القنصلية أو تراسل معها. هذه الوثائق رفعت مديرية المخابرات العثمانية عنها تقريراً يتهم فيه أصحاب الأسماء الواردة بالعمالة والتجسس لصالح العدو. هذه المعلومات استند إليها أحمد جمال ليأمر بإحالتهم على الديوان الحربي العرفي في عاليه.

وصدرت أحكام إعدام بحقهم بتهمة الخيانة للدولة العلية واتصالهم بالعدو وملاحقة كل من له علاقة بحزب اللامركزية لأنهم سبب خساراته في المعارك لإفشائهم معلومات عن قواته إلى الفرنسيين والإنكليز. أحمد جمال يطلق الأكاذيب عن الوطنيين العرب ويصدقها.

بعد الهزائم المتتالية التي نزلت بالقوات العثمانية في سيناء وفلسطين كُفّت يد جمال باشا عن قيادة القوات فأعيد توزيع المناطق والصلاحيات بين الضباط الأتراك والضباط الألمان. انحسرت صلاحيات أحمد جمال باشا الإدارية والعسكرية المعطاة له بين لبنان وجزء من سوريا حتى حلب. ما أتاح لقطعاته العسكرية المنتشرة في تلك البقعة أن تشارك في إبادة القوافل الأرمنية المهجرة من قراها في الأناضول الشرقي بأمر من أحمد جمال باشا بحكم موقعه والقيادة العامة في استانبول بالتعاون مع الضباط الألمان وتوجيهاتهم. الهزائم المتلاحقة التي أصابت الجيش العثماني وصولاً إلى داخل فلسطين توزعت الانتقادات وإلقاء المسؤوليات والأسباب. مرة على الأتراك وتارة على الشريف حسين أو بسبب خيانة اللبنانيين والسوريين لدولتهم السلطنة العثمانية. ما أدى بالقيادة إلى استدعاء أحمد جمال باشا إلى استانبول وتمت تسميته عضواً في هيئة الإدارة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٧ بعد عودته من بلاد الشام.

مع تراجع القوات التركية أمام هجمات الجيش الإنكليزي المتسارعة بقيادة الجنرال اللنبي وانسحابها إلى شمال فلسطين. أي لبنان وسوريا ثم حلب إلى تركيا. في ٧ تشرين الأول سنة ١٩١٨ كانت القيادة السياسية والعسكرية في استانبول قد هربت إلى ألمانيا ثم سويسرا. في تركيا أنشئت محكمة عسكرية حاكمت جمعية الاتحاد والترقي بأعضائها البارزين كمجرمي حرب لما اقترفوه بحق الإنسانية من جرائم ومجازر ضد العرب والأرمن والسريان وما نتج من دمار وخراب للدولة العثمانية وأودى بها أن يحتلها الأجنبي. فحكمت بالإعدام على أحمد جمال باشا. فلاحقت يد العدالة والإنسانية السفاح إلى تبليسي في جورجيا وتم إنزال عقوبة الإعدام بحقه على يد البطلين الأرمنيين بيدروس در بوغوصيان وستيبان دزاغيجيان فأردياه مع سكرتيره في ١٩٢٢/٧/٢١. كجزء من عملية «نيميسيس» التي طاولت كل مجرمي الاتحاد والترقي.



الأرمنيان بدروس دير بوغوصيان (إلى اليسار) واستيبان زاغيكيان
منفّذي العدالة اللذين قتلا أحمد جمال باشا في تبليسي عام ١٩٢٢ ثأراً لمليون وستمئة ألف شهيد أرمني.

المقدمة

الهدف من هذه الأجزاء إقامة مجموعة تاريخية عثمانية من كتب (خواطرومذكرات) لمسؤولين عثمانيين أتراك وغير أتراك (أرمن، عرب) وغير عثمانيين (إنكليز، فرنسيين، أميركيين، ألمان) منهم وغير أتراك من تلك الحقبة (المشروطية الثانية). تغطي فترة الإعلان الثاني من قبل السلطان عبد الحميد (ظل الله على الأرض) للالتزام بحيثيات الدستور في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨ مرحلة تمثل بداية نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني، وسنوات حكم جمعية الاتحاد والترقي ونهايتها من ١٩٠٨ حتى ١٩١٨.

المذكرات لدبلوماسيين وسياسيين ومسؤولين أتراك وعرب وأجانب عاشوا تلك الحقبة، كل من موقعه شارك في صناعة مستقبل المنطقة أو أثّر فيه، وكانوا شهوداً على الأحداث سياسياً وعسكرياً.

المجموعة تغطي حقبة العودة إلى الدستور (المشروطية الثانية) والانقلاب العثماني الذي قامت به جمعية تركيا الفتاة فيما بعد (جمعية الاتحاد والترقي) تحت شعار إعادة العمل بمواد الدستور العثماني وصون الحريات الخاصة والعامة للأفراد والشعوب. الهدف منها إبراز الجهود التي بذلها الاتحاديون لأجل استعادة هيبة الدولة العثمانية واستقلالها من وطأة الامتيازات الأجنبية، وتدخل الدول الأوروبية في مسار الحكم وإدارة الدولة وخسارتها ولاياتها الأوروبية (البلقانية).

الجمعية/الحزب كان صبغته قومية (طورانية) والإصلاحات الإدارية والمالية والعدلية التي أدخلوها إلى دواوين الدولة وأجهزتها ومحاولته استعادة الأراضي التي خسرتها في البلقان والقرم، كل ذلك جيد إنما بمحاولات التتريك السلبية وكبحهم تطلعات الشعوب (الإثنيات) والعناصر المكونة للسلطنة العثمانية في التحرر من كابوس مركزية الحكم العثماني التي طغت على إيجابياتهم. وكيف تفسَّر أو تبرَّر استمرار قبضتهم الحديدية والإدارة المركزية للولايات، ثم إجراءات النفي التشريد والإعدامات بحق أرمن ولبنانيين وسوريين وفلسطينيين التي أمر بها قائد الجيش الرابع وزير البحرية الفريق أحمد جمال باشا الذي قطع أشواطاً في اتصالاته بالعدو (لقاءاته بضباط فرنسيين في بيروت لمساعدته على التفرد بحكم سوريا ولبنان وفلسطين وفصلهم عن السلطنة العثمانية. «راجع مذكرات عزيز بك أحد أجزاء المجموعة»)، ولقاؤه بحاييم وايزمان ومسؤولين من الوكالة الصهيونية اليهودية). حتى نهاية عهد الاتحاديين ١٩١٨ وهروب قادة الاتحاد والترقي لدى توقيع (هدنة مودروس في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨ لوقف الأعمال الحربية في بلاد الشام) إلى ألمانيا، ومحاكماتهم ١٩١٩-١٩٢٠ وحرب التحرير الوطنية في الأناضول بعد الهدنة حتى إعلان الجمهورية التركية وإلغاء الخلافة ١٩٢٤.

إنما قبل الدخول في مطالعة أسباب إصدار هذه المجموعة التي ستغطي عشر سنوات (١٩٠٨-١٩١٨) كان لا بد من الإضاءة على بعض الأحداث التي عاشتها الإمبراطورية (عاشت ٦٢٤ سنة) بقراءة موجزة.

في تاريخ الدولة العثمانية :

عام ١٢٩٩م هو عام تأسيس الدولة العثمانية من إمارة إلى دولة ثم إمبراطورية، من زعيم قبيلة إلى أمير إلى سنة ١٥١٦ إلى سلطنة، والسلطان سليم يتوجه جنوباً نحو بلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين وباديتها الجنوبية)، وصولاً إلى مصر، ويعترف به أشراف الحجاز للحرم المكي خليفة للمسلمين وتُعطى له مفاتيح الحرمين وينفذ إلى البحر الأحمر. إلا أن عام ١٩١٨ هو تاريخ مؤكد أنه عام نهاية الإمبراطورية، وفي ١٩٢٤/٣/٣ نهاية الخلافة على يد الترك الطورانيين أنفسهم أبناء الإمبراطورية.

عاشت السلطنة حالة غزوات وتوسع في كل الاتجاهات، باتجاه جنوب حوض البحر المتوسط إلى مصر والحجاز ثم اليمن، وبلدان ساحل شمال أفريقيا (الجزائر، ليبيا، تونس)، وشمال البحر المتوسط، إلى بلاد الروملي والأفلاق والبغدان حتى ألبانيا والمجر، وصولاً إلى أسوار فيينا. مساحة كبيرة احتُلت أراضيها باسم الإسلام، ضمّت أكثر من ١٦ لغة وإثنية وأكثر من ١١ ديانة ومعتقداً. وفي الحقبة العثمانية ظهرت تيارات دينية ومذهبية، أصولية (الطوائف الصوفية، الوهابية، المهدية، الأحمدية، التيجانية، السنوسية، البكتاشية، البهائية) كان محورها السياسي السلطان، خليفة المسلمين. استمرت السلطنة ٦٢٤ سنة، تعاقب على حكمها ٣٧ سلطاناً، عاصمتها الأولى كانت «سوغوت»، «بورصة»، «أدرنة» و«الأستانة - استانبول» قبل الأفول.

للتذكير:

مع نهاية سنة ١٥٥٦ أكملت الجيوش العثمانية سيطرتها على البلاد العربية كافة باستثناء مراكش ووسط شبه الجزيرة العربية، وأوشك السلاطين العثمانيون أن ينصّبوا أنفسهم أسياداً على أوروبا. ولا يغرب عن بالنا أن العثمانيين لم يقدّموا الغوث للعرب في الأندلس عام ١٤٩٢ قبل سقوط مدينة غرناطة في يد القشتاليين الأسبان، وهي المدينة الواقعة على الباب الغربي لحوض البحر المتوسط. آنذاك لم يكترث العثمانيون لنداء الاستغاثة من الأندلس، ربما لبعدهم أو لعدم وجود المصلحة المباشرة، أو بسبب وجود أساطيل الإمارات الإيطالية المنتشرة في البحر التي تحول دون وصول المدد، أو لعدم وجود الرابط القومي الذي يشدهم على الرغم من الرابطة الدينية الأقوى من العروة القومية. على الرغم من أن أخبار انتصارات العثمانيين على أوروبا المسيحية كانت تسرّ العرب لدى سماعها، واستمرت هذه الآصرة الدينية تجذب العرب نحو العثمانيين طوال أربعة قرون، واعتُبرت الدولة العثمانية دولة إسلامية كبرى كحامية لديار المسلمين ورافعة لشأنهم في وجه الأعداء المتربصين. وفي الوقت نفسه تكونت في أوروبا الغربية حركة كان لا بد أن يكون لها تأثير شديد على الإمبراطورية العثمانية، ألا وهي الثورة العلمية.

حتى القرن التاسع عشر لم يك العثمانيون أكثر رقياً وتحضّراً من الولايات العربية، على الرغم من مرور ثلاثة قرون على حكمهم هذه المناطق، بينما قطعت مصر شوطاً كبيراً في المدنية والحضارة والثقافة، ويعود الفضل في ذلك إلى واليها محمد علي باشا السائر على طريق الاستقلال الإداري/السياسي عن السلطنة (بتشجيع فرنسي) ونظامها العسكري الأوتوقراطي، وتميزت بـ: نوع من الاستقلالية الذاتية في

عهد «محمد علي باشا» إزاء السلطنة العثمانية، والروس مع الإنكليز يراقبون بحذر طموح محمد علي وابنه إبراهيم، وتم لجم هذا الطموح بمعاهدة كوتاهية.

وكان لفتح قناة السويس عام ١٨٦٩ في عهد «الخديوي اسماعيل» (١٨٦٣-١٨٧٦)، أن دُشن عهد من التطور في ميادين نهضت بالدولة عموماً مثل: سكك الحديد، مدّ خطوط التلغراف، حفر أقنية للري ولمياه الشفة، وما تبعه من فوائد عمرانية اجتماعية اقتصادية ومضاعفة للإنتاج الزراعي، انشاء المدارس، تطور التجارة، افتتاح بورصة في الإسكندرية عام ١٨٦٦، إصلاح جامعة العلوم الدينية في الأزهر، مصانع وأحواض لبناء السفن (ترسانات)، مصانع أسلحة وذخيرتها ومدارس حربية وتنظيم الجيش وتسليحه، وإيجاد مجلس للنواب سنة ١٨٦٦ ومجلس للوزراء سنة ١٨٧٧.

كان لإرسال البعثات الجامعية إلى الخارج وعودتها قد ساعد إيجاباً على انتشار المدارس النظامية والمهنية، انتشار الفبارك الصغيرة وتنامي الحرفيين الصناعيين ونشوء شرائح اجتماعية جديدة ترتيبها وسط في السلم الاجتماعي، وامتلاك عائلة محمد علي لأفضل الأراضي الزراعية خصوبة جعلها أكبر تاجر قطن في مصر مع تنظيم للري (برك، أحواض، أقنية، سدود، قناطر، بحيرات) وتنظيم الملكية الزراعية وتنظيم الجباية الضرائبية بقوانين. مع تنظيم العدلية والقوانين المدنية الوضعية. ليجعل من مصر دولة، ويلحقها بركب الحضارة وتشهد عصر الانبعاث والنهضة خلال عهد «اسماعيل»، كان لخروج مصر من عباءة الخليفة العثماني أن ساعد على وجود أجواء حرية وديمقراطية سمحت بظهور الصحافة كحقل جديد في المجتمع المصري، الذي حدا بالعديد من رجال الأدب والفكر اللبنانيين والسوريين ومن المغرب العربي أن يسارعوا إلى المشاركة في النهضة العربية في مصر وإنشاء مصالح لهم فيها والاستقرار هناك لما وجدوه من مناخ سياسي مناسب واجتماعي في مناخ من التنافس الفرنسي الإنكليزي والتسابق لكسب ود أهالي الشام والسيطرة على الاقتصاد المصري (ص٧٥، الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، دار النهار ١٩٧٧ طبعة ثالثة. الحركة العربية، سليمان موسى، طبعة ثانية، ١٩٧٧، دار النهار، ص١٨٤، الحكم العثماني في اليمن، فاروق أباظة، دار المعارف بمصر).

بدءاً من سنة ١٥٦٦م مع حكم سليم الثاني (أمه أميرة مجرية ابنة ملك) ظهر عجز السلاطين عن إدارة دفة الحكم وتوجيهه أو كانوا غير مؤهلين، بسبب أن المُلك أصبح في أيدي النساء. ثم منذ سنة ١٦٥٦م أصبحت السلطة في أيدي كبير الوزراء (الصدر الأعظم) أو كبار القادة الإنكشاريين. مع هذه الفترة بدأت مرحلة الانحطاط السياسي والثقافي، إذ تغيرت رؤية مراكز القوى وانعكست بعد معركة فيينا، بعدما كان وضع الدولة العثمانية في حالة تأهب وغزو وهجوم ويقظة للتوسع الجغرافي تحولت إلى حالة الثبات والدفاع، إذ اكتسى الوضع الجغراسي تدريجياً حالة ترقب وحذر. فالعثمانيون المسلمون على بوابة أوروبا التي لن تسمح لهم بتجاوزها، حتى أعداء النمسا لن يسمحوا للعثمانيين بتجاوزها. يبقى الستاتيكو الأوروبي في حالة الترقب والحذر، لذا ارتدّت على العثمانيين حالة ركود وتراجع في الجهوزية القتالية تشبه السبات. بمعنى أن السلاطين عاشوا في برج عاجي لا همّ لهم إلا ملذاتهم الخاصة. السلطان تخلى

عن رئاسة مجلس الديوان أي الإشراف والمتابعة، وأن عدم متابعته لشؤون الدولة وإدارتها وصرف اهتمامه إلى الحريم، وعدم قيادته للجيش الذي أهمل كجيش محترف دائم التجدد، دفعت بالصدور العظام إلى التصرف في شؤون الدولة بمزاجهم الخاص. وقادة الجيش الكبار صرفوا اهتمامهم للاضطلاع بشؤون إقطاعاتهم، واعتمدت معيشة صغار الضباط والجنود على السلب والنهب للتعويض عما أهملته الدولة. كان ضعف الجيش من ضعف إدارة الدولة وارتباطه بالمركز وعدم الالتفات إلى حاجاته أضعف اهتمامه بالمهام الدولتية وتدهورت قدراته القتالية والإنكشارية أفضل مثال.

محاولات إصلاح السلطنة قبل الاتحاديين بقرن:

تفصيل ذلك أنه جرت إعادة النظر في الحالة التي آلت إليها الأوضاع في الدولة منذ أواخر القرن الثامن عشر، محاولات إصلاحية متواصلة متشابهة، مهمة وجدية من قبل السلاطين، عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) وتابعه في ذلك السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) ثم على يد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) وتابعها السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١) لإصلاح نظام الدولة وجعلها دولة عصرية.

إلى جانب السلاطين المصلحين، قُيِّدَ للسلطنة آنئذٍ الصدور العظام الأربعة الذين تعاقبوا على السلطة التنفيذية، ولكن الإصلاحات التي قاموا بها كانت نقلاً فوقياً على الطريقة الأوروبية، وعلى الرغم من هذه المحاولات الإصلاحية استمر وضع الدولة في التراجع. وأعلنت «التنظيمات» سنة ١٨٣٩م و«القوانين»، وكل هذا تبناه السلطان عبد المجيد الأول والسلطان عبد العزيز بتحفيز من المتنور الصدر الأعظم مدحت باشا.

إن اهتمام ومتابعة الصدور العظام، مصطفى رشيد باشا، محمد أمين عالي باشا، محمد فؤاد باشا (١٨٣٠-١٨٨٥) الذين اعتمدوا الأسلوب السلمي من دون تآمر. بينما الصدر الأعظم مدحت باشا وجد نفسه في أجواء ممهدة لتكملة المحاولات الإصلاحية، وقد أعيته الحيلة والانتظار فتآمر على السلطان عبد العزيز الأول (١٨٦١-١٨٧٦) وعلى السلطان مراد الخامس (١٨٧٦/٥/٣-١٨٧٦/٣١)، وهذا ما ميّزه عن الصدور العظام السابقين الذين جميعهم هدفوا سلمياً إلى الإصلاح السياسي، الإداري، الاجتماعي، الثقافي للمجتمع العثماني بما لا يُنقص من هيبة الدولة والمقام السامي للسلطان أو مخالفة الدين، تابعوا جهودهم بالطرق البيروقراطية وسلمياً، وحاولوا نقل النموذج الأوروبي المنبثق من المجتمع الأوروبي العاكس للتحولات الأوروبية الاجتماعية-الاقتصادية المستجدة، فالثورة الصناعية وعلاقات الإنتاج واتساع الفجوات الطبقية وتوزيع الثروة وتمركزها وتداعياتها المؤدية إلى تغيرات اجتماعية في مراكز القوى سياسية وارتباطها بفلسفة الدولة ونظامها السياسي وظهور مذاهب وتيارات سياسية سميت محافظة ومعتدلة أو متطرفة. في الثقافة، الفلسفة، الدين، الفن، الاكتشافات العلمية في الطبيعة والإنسان، مجموعة النظم الغربية هذه المنقولة هي خاصة بالمجتمع الأوروبي، وهي تطوير لقوانين يعود عمرها إلى مئات السنين في الغرب. هذه التحولات لم تحصل في السلطنة والمجتمع التركي وولاياتها الآسيوية والأوروبية مثلما حصلت في أوروبا واستمرت المحاولات بلا نتيجة، والمجتمع العثماني بما يشمل هو مجتمع شرقي بطريركي، حتى أن البعض يعتقد أن محاولة مصطفى كمال أتاتورك هي امتداد لتلك المحاولات الإصلاحية.

الإصلاحات لقيت ممانعة، بل الإصلاحات لم تك تتماشى ومصلحة الأشراف والنبلاء وكبار الإقطاعيين ملاكي الأراضي الزراعية (الآغوات) وكبار الضباط الحائزين على إقطاعات زراعية خصبة الإنتاج وكبار رجال الدولة ورجال الدين الذين تهربوا من دفع الضرائب، بل لوحق الفلاحون الصغار وعوقبوا لتأخرهم عن دفعها، إلى جانب تحصيل «الويركو» من غير المسلمين. فبقي القانون حبراً على ورق باسم الإصلاح. وبقي الفقر والتخلف. فقانون المطبوعات وتنظيم الصحافة طبق بحذافيره مثلاً لأنه لم يك يمس مصالح الشرائح الاجتماعية المتسببة للفساد.

من الطبيعي أن خزينة الدولة تبقى ناقصة والعبء الأكبر يقع على عاتق صغار المنتجين والكسبة. رجال الدين نعتوا هذه الإصلاحات والقوانين بالكفر والخروج عن الشرع الإسلامي. الإصلاح في القوانين الزراعية والتجارية لم تلامس مصلحة الشعب، والتخلف والفقر في ازدياد، والإسراف في مصاريف العائلة المالكة للقصور والإفراط في البذخ أحد الجوانب الأساسية لتدهور الحالة الاجتماعية-الاقتصادية والعسكرية للدولة، خصوصاً في عهد السلطان عبد العزيز، إلى أن حان دور السلطان (٣٤) عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) في الحكم الذي انقلب على عمه السلطان عبد العزيز ثم أخوه السلطان مراد بمساعدة ممثلوا الاتجاه الإصلاحي وعلى رأسهم الصدر الأعظم مدحت باشا (تم اغتياله في الطائف سنة ١٨٨٢) في إدارة الدولة، متبنياً تنفيذ الإصلاح كشرط لاعتلائه العرش والسير على هدي الدستور (دستور مدحت باشا)، إلا أنه بعد أشهر نكث بوعده ووجه ضربة لهذه الإصلاحات بطريقة استبدادية، بدءاً بإقالة الصدر الأعظم مدحت باشا أبو الدستور، وإقفال مجلس المبعوثان (النواب والأعيان) إطلاق يد «السرخفية» جهاز المخابرات السرية للسلطان عينه الساهرة ويده الطولى للبطش بمعارضيه من السياسيين والأدباء والشعراء والمفكرين والمصلحين، نتيجة لذلك كبر حجم المعارضة (منذ ١٨٧٦) في وجه السلطان الذي حصر السلطات كلها في يده، ما ألّب عليه كل القوى الوطنية في تركيا، ومنها من انتقل إلى العمل السياسي المعارض في أوروبا أو في مصر بعيداً عن بطش السلطان، فكان الانقلاب العثماني.

المفارقة أن في دستور مدحت باشا الذي وضع في سنة ١٨٧٦ يتبين أنه من انصار «توسيع المأذونية» المشابهة «للإدارة اللامركزية» للولايات، وكانت السلطنة تعيش حالة حروب دائمة مع الروس وانتفاضات شعوب البلقان. بينما نلاحظ أن حزب الاتحاد والترقي أراد تطبيق هذا الدستور على ما تبقى من السلطنة في العقد الثاني للقرن العشرين من دون الالتفات إلى نتائج الحروب الكارثية ومتغيراتها الجغراسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وظاهرة الحركات القومية داخل السلطنة، فإلى جانب رفع الاتحاديين لشعارات الثورة الفرنسية استوسلوا التآمر وإراقة الدماء، إنما تطبيقهم لدستور مدحت باشا في ١٩٠٩-١٩١٨ أتى في ظروف مغايرة تطور فيها مفهوم القوميات والإثنيات (برز ذلك في اختلاف وجهات النظر قبلاً بين أحمد رضا والأمير صباح الدين في الاجتماع في باريس سنة ١٩٠٢) وحزب الاتحاد والترقي رأى في «نظام الإدارة اللامركزية» تهديماً للدولة وتفكيكاً للمملكة، فيما رأى فيه العرب عنصر قوة يعزز ارتباطهم بالدولة العثمانية وتطويراً لها وليس تخريباً.

الأسباب التي فاقمت التخلف:

- شيوع الفساد الإداري في مؤسسات الدولة المترهلة أصلاً.

- تخلف الأساليب والقوانين الإدارية/السياسية السائدة منذ ٦٠٩ سنوات، والتي لم تتغير وتواكب التطورات الاقتصادية والمتغيرات الاجتماعية في الولايات (الاطراف).

- تملّك موظفي الدولة الكبار والآغوات وكبار القادة العسكريين لأخصب الأراضي الزراعية في أرجاء السلطنة.

- انتشار الجفتلك (الأراضي الأميرية الإقطاعات للأراضي الزراعية للعائلة المالكة المنتشرة في الولايات كافة). المعفاة من الضرائب.

- قمع السلطة الدموي للصراعات المحلية المتفاقمة بين الإقطاع والفلاحين وخسرانهم لأراضيهم بحجة عدم تسديد الضريبة وتسميتها بالخلافات الإثنية أحياناً والطائفية أحياناً أخرى.

- بروز قطاع عام (الدولة-السلطان) مصانع السلاح والصناعات العسكرية وملحقاتها الصناعية والعلمية مع إرسال بعثات علمية إلى أوروبا لمتابعة تطور هذه العلوم، ما أدى إلى نشوء فئات اجتماعية جديدة لها موقعها وامتيازاتها وتزايد حجمها وامتيازاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

- تضارب مصالح القوى المنتجة في الريف المؤلفة من الحرفيين الريفيين، الفلاحين الصغار ومؤسسات عائلية صغيرة إنتاجية، عمال زراعيين مع المرابين وأصحاب الأراضي الزراعية الذي يعوق تطورها الضرائب المتعددة مثل ضريبة الانتقال بين الولايات، إلى ضريبة العشر، إلى ضريبة الويركو.

- التغيرات الطبقية داخل كل بنية قومية محلية التي أفرزت زعماءها المحليين ورغبة هذه القوى في التحرر.

- مجازر عرقية، دينية، بحق الآثوريين، الأرمن، الشركس، البلغار، اليونان، الأكراد، الإيزيديين، الدروز، الشيعة. بحار من الدماء لمجرد إعلان العصيان لعدم دفع الضريبة في قرية ما. وإن لم يظهر على السطح التمايز العرقي أحياناً أو الديني على الرغم من وصول البعض إلى الصدارة العظمى أو الوزارة (أرمن، شركس، ألبان وعرب، عبد خصي.

- تكرار الحروب والغزوات أنهك خزينة الدولة وأوقعها تحت ديون تكلفتها باهظة ومرهقة للمكلف العثماني دافع الضرائب، والمعاهدات (استانبول/سان ستيفانو/برلين/لندن) التي كانت شروطها تقضم من رقعة السلطنة فترة بعد فترة ومن سيادة الدولة. إلى جانب تنامي المتغيرات الاجتماعية-الاقتصادية داخل تركيا (المركز) نفسها غير البعيدة عن حالة الولايات على الرغم من ذلك، لم يخلُ الأمر من محاولات إصلاحية من قبل أهل السلطة والنظام.

أنهكت الحروب خزينة الدولة وبذخ أهل السلطة وإسرافهم. لقد وصل العجز في الميزانية عندما انتقل الحكم من السلطان (عبد العزيز ١٨٦١-١٨٧٦) إلى السلطان (عبد الحميد ١٨٧٦-١٩٠٩)، إلى خمسة ملايين ليرة ذهبية، ودينها الخارجي إلى ١٤ مليون ليرة ذهبية، ما جعلها تخضع لشروط الدول الاستعمارية

العظمى(الدائنة) المتنافسة (بريطانيا/فرنسا/روسيا) السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية التي أطلق عليها (امتيازات أجنبية). من مستشارين ومفتشين أجانب في دوائر السلطنة في المجال الاقتصادي والعسكري ودواوينها وفي عموم البلاد. فلا غرو أن أحداث ١٨٦١- ١٨٦٤ في إمارة جبل لبنان التابعة لإدارة السلطنة العثمانية تصبح قائمقاميتين ثم متصرفية تحت إشراف دولي بسبب سوء إدارة الولاة الأتراك وتقاتل الزعماء المحليين فيما بينهم ما مكّن الدول الأوروبية أن تتدخل مباشرة في مصير الجبل مع امتيازات للأجانب. وفي الروملي أيضاً. وفي أرمينيا العثمانية. ما مكن الدول الأوروبية أن يكون لها «امتيازات».

نجد أن السلطان عبد العزيز قد قبل اقتراحات الدول الدائنة. في إعادة تشكيل المجلس العالي للتنظيمات. بحيث أصبح يضم هيئتين: الأولى ديوان الأحكام العدلية. والثانية مجلس شورى الدولة والذي ضم فيه ١٣ شخصاً غير مسلم من أصل ٥٠ عضوا. وذلك تحت ضغط الدول الدائنة

لكن هناك عوامل كانت تحول دون أن تثمر تلك المحاولات وأهمها:

- ضعف الجهاز الإداري وعدم استيعابه لتلك المحاولات

- تزوير رغبات أهالي الولايات وشكاويهم ومظالمهم وعدم إيصالها بأمانة إلى المسؤولين في الجهاز الإداري. خصوصاً حكام الولايات (الأتراك) الجاهلين للغة المحلية. وتراكمت هذه المظالم وتكرر الظلم.

- تمكن الجهات الأجنبية. خصوصاً بريطانيا وفرنسا. بعد حرب القرم ضد روسيا عام ١٨٥٦. ما أطلق يديهما في التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. في المركز والأطراف.

لقد كان الشكل العام في القرن التاسع عشر للحكم يتمحور حول السلطان العثماني (ظل الله على الأرض) المسؤول المباشر عن حكام الأقاليم والولايات. وقادة الجيوش والحاميات المرابطة في عموم الدولة العثمانية. يأتي في المرتبة الثانية شيخ الإسلام الذي كان (يبرر تصرفات السلطان) يمثل الجانب الديني والفقهي. كما كان هناك منصب (الصدر الأعظم) أي رئيس الوزراء.

وتراكمت مطالب الإصلاح والتغيير. وكثر أعداء النظام. داخلياً وخارجياً وتلاقت أهواء التغيير وتقاطعت ما بين القوى الداخلية وقوى الخارج. واستُعملت قوى الداخل مطية لأطماع خارجية (سنة ١٩٠٩). كانت علامات ضعف الدولة العثمانية قد ظهرت بوضوح في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بعد سلسلة هزائم متتالية. عندما تعرضت ولاياتها الطرفية من قبل فرنسا (مصر ١٧٩٦. الجزائر ١٨٣٢. وحفر قناة السويس وتدشينها سنة ١٨٦٩. تونس سنة ١٨٨١) ومن قبل بريطانيا (مصر ١٨٨٢) ثم ليبيا من قبل إيطاليا ١٩١٢.

السمات العامة للفكر العثماني:

الحياة الفكرية لدى العثمانيين بكل أبعادها هي استمرار للفكر الإسلامي التقليدي (بإيجابياته وسلبياته) الذي أصيب بركود منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وما تضمنه هذا الفكر من اتجاهات وتيارات ومناهج ومواضيع اشتملها تحت عناوين مختلفة. وهذه كلها كانت قد تشكلت قبل ظهور العثمانيين.

التي صارت هي قضايا الفكر العثماني ومواضيعه وبدورها صارت امتداداً للفكر الإسلامي. فرض الحكم المركزي للدولة العثمانية نفسه بشكل واسع خصوصاً على الفكر السياسي والديني. العثمانيون أصحاب السلطة المركزية المتشددة وجدوا في هذا الفكر (المعين الذي لا ينضب) لوازمهم الفكرية واسلحتهم الأيديولوجية المبررة لأي حالة سلوكية سلطانية أو ظاهرة سياسية ما للرد على خصومهم. هذه العلاقة المتبادلة بين الفكر والسلطة السياسية عزز موقعها وطال واقعها. هذه العلاقة شكلت عاملا معيقاً لتطورهما معاً للسلطة وللفكر، حتى ما يمكن أن يخدم السلطة، إلى جانب ما كان يسببه بين الفينة والفينة من ردود فعل في الجانب الديني ما يؤدي إلى تفاسير مختلفة ووجهات نظر بديلة.

ان تاريخ الفكر العثماني لم يشهد حركة فكر فلسفي كمنتج عثماني خاص به، والأعمال الفلسفية العثمانية التي ظهرت، انحصرت في علم الكلام الناقد للفكر الفلسفي ومناهجه أكثر مما هي موجهة للفلسفة وفكرها، بقدر ما الفلسفة خدمت الفكر الديني حازت الاحترام. السلطة السياسية لاستفادتها من هذه العلاقة الجدلية وما ينتج عنها، قوّت أشخاصه وقرّبتهم منها، وعملت على اقامة مؤسسات خاصة بهم، حتى النتاج الشعري انحصر بالروحانيات والأخلاق.

دور الزوايا والتكايا:

على الرغم من تركيبة الدولة وبنائها التاريخي الإقطاعي وسيادة المجتمع الزراعي الذي أنتج علاقات إنتاجية معينة في الريف المتدين المستمر في إنتاجه للوعي الاجتماعي السياسي الريفي نفسه بولائهم الكلي للسلطان كمؤسسة. أيضاً كان انتشار شبكة التكيات والزوايا الدينية في السلطنة العثمانية المشجع عليها من قبل السلطان ومن حوله طالما تفيد في نشر «الإيمان» وتعزيز الارتباط به كرئيس وخليفة والإيمان به كسلطان لا يخطئ.

فالتشجيع على المدارس الدينية المساعدة على تغذية واستمرارية إنتاج هذا الولاء (الوعي) استمر في عهد الاتحاديين لتقوية موقعهم ونفوذهم. العلاقات الإنتاجية في الريف كانت تحت تأثير تراتبية المجتمع البطريركي وواقعة تحت التأثير الديني، بينما العلاقات الإنتاجية في المدينة كانت أكثر نضجاً وساعدت على رفع نسبة الوعي الاجتماعي الذي انتج هذا الحراك السياسي الذي برز في المدن العثمانية الكبرى في داخل تركيا وولاياتها، وأدى لنشوء جمعيات وأحزاب في السلطنة باحثة عن مخرج. عودة الروح إلى الناس، عبر تنظيمات سياسية واجتماعية وثقافية. بعد محاولات سلمية جرت، دستورية، تشريعية، أزيل السلطان، واريقت دماء. إنما بقي الداء، فكيف العلاج إذاً؟

بقي الكي !! عبر عمل عسكري آخر دواء. فكان الهجوم على مقر الباب العالي ومقتل وزير الحربية، واعتقال الصدر الأعظم محمد كامل باشا مع وزرائه. والانطلاق لبناء نظام سياسي جديد.

ملاحظة: إن ٨٠٪ من الضباط الصغار في الجيش العثماني سنة ١٩٠٠ هم من أبناء الشريحة الاجتماعية البرجوازية الصغيرة، وبقية الضباط من الشريحة الاجتماعية للبرجوازية الوسطى.

دور الصحافة والحريات:

نشطت الصحافة وكان لها دور مؤثر في الحياة الفكرية والسياسية التي استفادت من أجواء الحرية التي صاحبت الامتيازات الأجنبية وأتاحتها لها (التحسينات التشريعية)، كان لوجود جريدة للدولة ومطبعة لها أثره الكبير في التشجيع لانتشار فن الطباعة في السلطنة وصدور صحف أدبية وفكرية وسياسية بين عملية قمع وأخرى. الأمر الذي سرع في عملية الاطلاع والتبادل الثقافي وانتشار الأفكار والآراء والتعرف على التيارات الفلسفية والمذاهب السياسية والفنية والأدب والشعر والمسرح وبرز فيها شخصيات مثل إبراهيم شيناسي ونامق كمال وضياء باشا وعبدالله جودت وغيرهم... ولم تعمر حرية الصحافة طويلاً. فتم تقييد الحريات من جديد، فاستعاضت عنها المعارضة بالنشاط الحزبي. وقد ظهر تنظيم (جمعية العثمانيين الجدد) الذي كان أبرز المؤثرين به نامق كمال، وتعاطف مع تلك الحركة الأمير مراد الخامس والأمير عبد الحميد الثاني. وكان هذا التنظيم يطالب بملكية دستورية.

لقد استهان السلطان عبد العزيز بكل تلك النشاطات والتململ بين مثقفي الدولة، ولكن بعد خسارة الحرب مع روسيا.. تحت ضغوط الباشاوات المحافظين تمت إقالة (الصدر الأعظم) محمود نديم باشا.. وبعدها وعلى إثر فتوى من شيخ الإسلام (حسن خيرالله أفندي) حاصر الجيش القصر وعزل السلطان عبد العزيز في ٣٠ أيار/مايو من عام ١٨٧٦م.

بعد موافقة عبد الحميد على شروط الوزراء الأحرار، تم تنصيبه سلطانا، وصدر الدستور في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر من عام ١٨٧٦. وتضمن ١١٩ مادة مقسمة في ١٢ فصلاً، ويدعو إلى اللامركزية وتحديد واجبات الحكومة، وإباحة حرية التعليم، واستقلال المحاكم، وتأسيس مجلس عمومي أي، برلمان يتألف من مجلسين: مبعوثان (النواب والأعيان) أو الشيوخ.

الجامعة الإسلامية شعار ساهم في إطالة عهد السلطان عبد الحميد:

استشعر عبد الحميد الخطر الذي يحيق بالدولة، فاتخذ فكرة إنشاء جامعة إسلامية لحشد صفوف المسلمين في وجه الأعداء «الخارجيين والداخليين» واستغل فرصة العدوان الروسي لتعطيل كل الإصلاحات وطرد مدحت باشا (الصدر الأعظم) الذي كان مهندس الانقلاب على السلطان عبد العزيز، وبهذه الإجراءات بقي السلطان عبد الحميد الثاني تلك المدة الطويلة زهاء ٣٢ عاماً. وأبرز السلطان نفسه إسلامياً جاداً بسعيه وراء الرابطة الإسلامية (الجامعة) باستقباله جمال الدين الأفغاني واقامته لديه في العاصمة واستُعْملت قوى الداخل مطية لأطماع خارجية بتنفيذ الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ إزاء إجراءات تقييد حرية الرأي المعارض في السلطنة، والملاحقات بحق كتاب وشعراء ومفكرين واساتذة، حتى من هم على قرابة نسب للسلطان لم يسلموا من ملاحقات الشرطة السرية (السرخفية) (صهره الداماد محمود جلال الدين وولداه الأميران صباح ونهاد)، لذا وجدت المعارضة متنفسها خارج السلطنة، في دول أوروبية ومصر عندما استشعرت جماعات المصلحين وتركيا الفتاة خطورة إجراءات عبد الحميد الثاني.. استجمعوا قوتهم وشكلوا الجمعيات والتنظيمات التي ستواجه تلك التهديدات، فبرزت تنظيمات داخل

الجيش، فألّف طلبة في الكلية الطبية العسكرية جمعية سرية في استانبول سنة ١٨٨٩ غايتها محاربة الاستبداد مثل الجمعية العثمانية للاتحاد والترقي.. التي قوي فرعها في سيلانيك.

قامت تلك الجمعية بالضغط على النظام، من تدبير المظاهرات في استانبول وسيلانيك، إلى الكتابة في الصحافة المحلية والأجنبية، واللجوء إلى الجبال لتنفيذ حرب عصابات من قبل الضابطين نيازي وأنور، ومطالبة النواب الاتحاديين في مجلس النواب السلطان وحضّ الحكومة على العمل بحسب مواد (شروط) الدستور. كان لتنامي الظروف الداخلية الوطنية ومواقف الدول الخارجية من السلطنة أن تشجعت القوى الوطنية على تصعيد ضغوطها. واستطاعت في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨ أن تجبر السلطان عبد الحميد على إعلان التعهد بالعمل بدستور عام ١٨٧٦ (المشروطية الأولى). إنما في (٣١ آذار/مارس ١٩٠٩-١٣ نيسان/أبريل ١٩٠٩) أي بعد ثمانية أشهر، يقوم أنصار الجمعية المحمدية مع رجال دين بالخروج إلى الشوارع والتهجم على العسكريين والنواب الاتحاديين ومؤسساتهم الصحفية ومراكز الجمعية، هذه الأعمال سميت (الفتنة الرجعية) الانقلاب المضاد الذي تم ترتيبه من قبل عناصر السلطان اضافة إلى تمرد الضباط وتشكيلهم «تنظيم ضباط الإنقاذ» مع تلامذة المدرسة العسكرية وضباط الصف (الآلايلية)، ما دفع بالاتحاديين إلى الاختباء أو الهرب إلى سيلانيك وخارج العاصمة، وقُتل منهم عدد كبير، الأمر الذي حدا بقائد الجيش الثالث (جيش الحركة) محمود شوكت باشا أمام هذه الفوضى أن يتوجه إلى العاصمة ويقمع قادة هذه الفتنة، وشمل القمع الدموي، الإعدامات لمئات العسكريين ولرجال الدين. بعدها اجتمع مجلس (المبعوثان) من جديد في ١٩٠٩/٤/٢٧ واستصدر فتوى بعزل السلطان عبد الحميد عن العرش، وتنصيب أخيه محمد رشاد الخامس(٣٥) (١٩٠٩-١٩١٨)، أيضاً شعار الجامعة الإسلامية استعمله أنور باشا محاولاً الاستفادة منه بين أتراك آسيا الوسطى والداخل. لقد سرت معالم الفرح في كل تركيا وبغداد وبيروت ودمشق ومصر وأوروبا حيث المنفيون والمضطهدون، وأخذ كل طيف يمنّي نفسه بالعهد الجديد وفق هواه.. لكن شعارات الاتحاديين (الحرية والعدالة والمساواة) طغت على كل الشعارات.. وذكّرت العالم بالثورة الفرنسية. فيما بعد قام حزب الحرية والائتلاف الذي تأسس في ١٩١١/١١/٨ بالمطالبة بحكم لا مركزي للولايات وحصر صلاحية الدفاع والخارجية بالمركز. وتعاظمت حمى التنظيم في الإدارة والتغييرات بين أهل الحكم، وازداد الصراع بينهم فتشكلت حكومات تعاقب على صدارتها العظمى:

- أحمد توفيق باشا من (١٩٠٩/٣/٣١-أيار/مايو ١٩٠٩).
- حسين حلمي باشا من (أيار/مايو ١٩٠٩ كانون الثاني/يناير ١٩١٠).
- إبراهيم حقي باشا من (١٩١٠/١/١٢- ١٩١١/٩/٢٩).
- كجك محمد سعيد باشا من (١٩١١/١٠/٤-١٩١٢/٧/١٧).
- الغازي أحمد مختار باشا من (١٩١٢/٧/٢٢-١٩١٢/١٠/٢٩). في فترته تم احتلال ليبيا من قبل الطليان.
- آخر رموز العهد الحميدي الحاكم قبل انفراد الاتحاديين بالسلطة محمد كامل باشا من (١٩١٢/١٠ حتى ١٩١٣/١/٢٣) «حكومة الائتلافيين الأحرار». عجزت حكومته عن التصرف إزاء احتلال البلغار لأدرنة، وكانت قد وعدت الولايات بإعطائها حق تطبيق اللامركزية الإدارية فيها.

إزاء تصرفات كهذه صعّدت الصراع إلى ذروته بين رؤية الاتحاديين الداعين إلى التشدد مع طموحات اللامركزيين القومية، ورؤية الائتلافيين الأحرار الذين حقاً هم مع تطبيق شعارات إصلاح جمعية الاتحاد والترقي وصداقة الحكومة للإنكليز وعدائها للطموحات الألمانية. كل هذه دفعت بالاتحاديين إلى الإسراع في إطاحة تلك الحكومة في ١٩١٣/١/٢٣ بقيادة أنور باشا وهو من أبرز شخصيات الجناح العسكري للاتحاد والترقي إلى أخذ المبادرة وحسم الموقف لصالحهم وإن اتخذ طابعاً دموياً يوم مهاجمة قصر الباب العالي ومقتل ناظم باشا وزير الحربية في ١٩١٣/١/٢٣. ثم قام الاتحاديون بتنفيذ سلسلة إجراءات انتقامية من سجن وتشريد بحق خصومهم من الائتلافيين الأحرار إن بالاغتيالات أو بتلفيق تهم وإعدامهم، وغيرهم من الديمقراطيين. وانفرد الاتحاديون بالسلطة المطلقة، داعين بصلف إلى مركزية الإدارة، وتتريك شعوب الولايات بوحي من طورانية العقيدة (هدفت هذه العقيدة المغرقة في التعصب القومي الدموي إلى توحيد المتحدرين من أصول تركية ودمجهم بأبناء عمومتهم في آسيا الوسطى وتتريك بقية العناصر القومية وإعادة أمجاد جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك) حتى لو تطلب تنفيذ ذلك الدمج الإكراه والعنف، أو بواسطة الديوان العرفي والمشانق. مثال: تهجير الأرمن ومجازر قوافل التهجير ومجازر أضنة ومجازر بحق الآثوريين، الأيزيديين، اليونانيين، البلغار، الصرب، الكروات، الأكراد، الشركس، المقدون، وإعدامات المتنورين في بلاد الشام.

ومن واضعي عقيدتها ومروّجيها (ضياء غوك آلب، عبدالله جودت، يوسف آقجورة أوغلي، إبراهيم تيمو، أحمد رضا، توفيق فكرت، علي كمال، حسين جاهد). وقد بقيت تلك الحكومة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. هذا التصعيد الذي حاول تشكيل تركيا الكبرى (الطورانية) لا ينسى دور الضباط الألمان في التوجيه والتحريض والدور المميز «للتشكيلات المخصوصة»، ونتج عن هذا الصلف والعجرفة في المقابل أن استيقظت الروح القومية لهذه الشعوب مثل اليونانية، الأرمنية، العربية ذات العراقة في الحضارة والثقافة والمدنية وتاريخ لا تدانيها ثقافة الأتراك!! أو تقاربها إذا كانت لديهم من ثقافة أو تمدن. تشكلت تنظيمات ذات مضمون قومي مثل «جمعية العربية الفتاة» و«العهد» العربيتين و«الإتنيكي هيتيريا» اليونانية و«الهنشاق» الأرمنية، معارضةً، مطالبةً بالاستقلال وباللامركزية للولايات. ولدرء خطر الانحراف جعل تلك الحكومة تمعن في قمع هؤلاء الأحرار بمبررات ملفقة حتى بلغ مجموع من أعدمتهم (لأسباب سياسية) زهاء ٤٠٠ إنسان في بلاد الشام وحدها ومعظمهم من بيروت وحلب ودمشق وفلسطين وجبل لبنان. وقد بقيت تلك الحكومة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. هذا التصعيد الذي حاول تشكيل تركيا الكبرى (الطورانية).

تركيا والحرب العالمية الأولى (نهاية السلطنة العثمانية):

كان دخول تركيا للحرب العالمية الأولى، هو المفصل الذي أنهى دولة الخلافة العثمانية وولادة دولة تركيا الحديثة.. أما ما الذي جعل تركيا تدخل تلك الحرب وكيف تم توريطها؟ ومتى تم قرارها بهذا الشأن؟ وهل كان بإمكانها عدم دخول الحرب؟

لم يكن قرار دخول الحرب إلا قبل أربعة شهور فقط بما ينسجم مع أهداف ألمانيا وطموحاتها في المنطقة. حيث اتفق قادة الاتحاد والترقي بسرية وفي مقدمهم أنور باشا (وزير الحربية) مع ألمانيا على الاشتراك في الحرب. وكان ذلك في ١٩١٤/٨/٣. والدوافع من وراء دخول الحرب من وجهة نظر أصحاب القرار آنذاك هي:

١- ممارسة التتريك في جميع أنحاء الدولة العثمانية.

٢- تحرير المناطق التي يقطنها الأتراك في (تركستان والقوقاز) وتوحيدها.

٣- استعادة الولايات التي خرجت من يد العثمانيين، مثل قبرص وكريت ومصر والجزائر وتونس وليبيا.

٤- إعادة ترسيخ سلطة الخلافة على جميع العالم الإسلامي.

٥- التحلل من المديونية الكبيرة على الدولة تجاه الدول التي وقفت تركيا ضدها في تلك الحرب.

ولما كانت ألمانيا الطامعة في طرد البريطانيين من مناطق إيران والشرق الأوسط بأن جعلت تركيا مطية لتحقيق أطماعها، فقد بادرت إلى قبول التحالف معها، وهي تعلم ضآلة إمكاناتها في ذلك، ما حدا بعشرات الضباط الألمان إلى تولي شؤون قيادة قطعات عثمانية، إضافة إلى التبعات المالية الأخرى.

توريط السلطنة في الحرب العالمية الأولى (الحرب الأوروبية العامة):

بادر الألمان العثمانيون بقصف الموانئ الروسية في البحر الأسود في ١٩١٤/١٠/٢٩ ما دفع روسيا وفرنسا وبريطانيا إلى إعلان الحرب على السلطنة العثمانية في ١٩١٤/١١/٤.

لم يكن سير العمليات الحربية يتوافق ورغبات تركيا، إذ سرعان ما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وتوغلت في العراق، والجبهة الداخلية التركية لم تكن متماسكة، فإعلان دخول تركيا الحرب دفع مجموعة من الوزراء إلى الاستقالة. كما أن الرأي العام الذي تأثر بخسارات حرب البلقان في عام ١٩١٣، لم يكن راغبا في تلك الحرب. إلا أن بعض مظاهر البطولة المحدودة قد بانت في بعض الجبهات خصوصا تلك التي كانت على مضيق (الدردنيل) تحت إمرة قائد برز نجمه خلالها وفيما بعد علا شأنه هو مصطفى كمال الذي كان قائداً لقطاع (آنافورطا) ما دفع القيادة إلى ترقيته لرتبة لواء.. واستشهاد عشرات الوف الشباب العرب كعثمانيين إلى جانب الأتراك. كما أن دخول بلغاريا إلى جانب ألمانيا وتركيا قد ساعد في اجتياح الألمان والأتراك الأراضي الصربية.

استحقاقات ما بعد الحرب العالمية الأولى (تقاسم تركة الرجل المريض):

في الوقت الذي كانت الجيوش المعادية للدولة العثمانية تسقط بغداد وتدك معاقل غزة والقدس في فلسطين، كانت الخطط والمعاهدات تتم معاكسة للمصالح العثمانية وتحاك لاقتسام ممتلكات تلك الدولة الآيلة إلى الانهيار:

اتفاقية استانبول في ١٨/٣/١٩١٥:

أطرافها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا.. مضمونها أن تأخذ روسيا المضيقين(الدردنيل والبوسفور) والعاصمة استانبول ميناء دولي حر للحلفاء، فضلاً عن الشاطئ الغربي للبوسفور وبحر مرمرة والأراضي الواقعة شمال غربي الأناضول على امتداد الساحل من نهر سقاريا إلى خليج أزمير، والجزر الواقعة في بحر مرمرة، وجزيرتي تنيدوس وأمبروز في بحر إيجه، وأن تتقاسم روسيا وبريطانيا إيران وفق معاهدة ١٩٠٧. وفصل الأراضي العربية وجعلها دولة عربية مستقلة.

معاهدة لندن ٢٦/٤/١٩١٥:

انضمت إليها إيطاليا وحصلت مقابل موقفها إلى جانب الحلفاء على ليبيا وجزر الدوديكانيز.

اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٧:

عقدت بين بريطانيا وفرنسا، وانضمت إليهما روسيا فيما بعد.. وتقضي بحصول بريطانيا على العراق وفلسطين، وفرنسا تنال سوريا ولبنان، وروسيا تحصل على أرضروم وطرابزون وتبليس وجزء كبير من كردستان لمحاذاة أراضي إيران.

اتفاقية سان جان دي موريان ١٧/٤/١٩١٧

بين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، لتصفية الخلافات فيما بينهم، واعطاء إيطاليا ما بقي من جنوب الأناضول إضافة إلى ولاية أزمير وجعْل مينائها حراً، كما وعدت بريطانيا الشريف حسين بن علي بدولة مستقلة في الشرق العربي إذا ساندها في الحرب على السلطنة العثمانية، ووعدت اليهود بوطن قومي في فلسطين (وعد بلفور).

وعد بلفور:

هو التصريح الشهير الذي أصدره وزير خارجية بريطانيا باسم الحكومة البريطانية عام ١٩١٧ تعلن فيه تعاطفها مع الأماني اليهودية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين (نسبة اليهود من مجموع السكان في فلسطين، يومئذٍ لا تتجاوز ٥٪). واتخذ الوعد شكل رسالة بعث بها لورد بلفور في ٢/١١/١٩١٧ إلى اللورد إدمون دي روتشيلد أحد زعماء الحركة الصهيونية آنذاك.

يتضح من تلك الاتفاقات، التي تمت إبان اشتعال الجبهات كيف كانت نيات الغرب نحو الدولة العثمانية، واطماعهم بالشرق الأوسط وثرواته. كانت الهزيمة السريعة لجيوش الدولة العثمانية في العراق وفلسطين وسوريا سهلت تنفيذ الاتفاقات بين فرنسا وبريطانيا وبقية الدول الأوروبية.

واكب هذه الاتفاقات والمعاهدات، نجاح البلاشفة في ثورتهم سنة ١٩١٧ على نظام القيصر في روسيا. وكان لتواطؤ بريطانيا أن شجع اليونان على غزو السواحل التركية باتجاه أزمير بذريعة حماية الأقلية اليونانية ما حضّ عشرات الآلاف من الشعب التركي أن يلتف حول مصطفى كمال ويحارب تحت قيادته (معركة الاستقلال وبريطانيا لم تضايقه براً أو بحراً) ولقي تأييداً سياسياً من روسيا ومساعدات عسكرية. بعد وفاة السلطان محمد رشاد الخامس خلفه السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) في ١٩١٨/٧/١٣ على العرش الذي وقّع تحت تأثير الحلفاء المنتصرين، على أوامر بتسريح أعداد كبيرة من الجيش، كما منع قواته من التصدي للقوات اليونانية وأرسل مصطفى كمال إلى الأناضول، قائداً عاماً للجيش الثالث المرابط في (أرضروم وسيواس) لحفظ الأمن والنظام.

مصطفى كمال وحرب الاستقلال (حرب التحرير الوطنية) ١٩١٨-١٩٢٣

وما إن وصل إلى هناك، حتى أعلن أن حكومة استانبول غير قادرة على حماية الدولة والوطن.. وانه لا يقبل أن يكون الوطن مهدداً ومعرّضاً للزوال، فدعا إلى تشكيل تنظيم قومي (مجلس نيابي وطني) للأتراك، مطالبا أهل المناطق بإرسال مندوبين سرا عن كل منطقة عنهم إلى سيواس، فاجتمع ٣٠ مندوباً.

في ١١ تموز/يوليو ١٩١٩ أصدرت حكومة استانبول برئاسة (الداماد فريد باشا) قراراً اعتبرت فيه مصطفى كمال متمرداً وخارجاً عن القانون.. في حين التف حوله آلاف المؤيدين، في اجتماع موسع بجامع مدينة (صامسون).. فدعوا ما تبقى من القوات المسلحة من الجيش التركي إلى الالتحاق بهم لطرد اليونانيين الغزاة من منطقة أزمير.. والقوات البريطانية والفرنسية المحتلة، وكان بامكان القوات الإنكليزية لوحدها من سحق مصطفى كمال وتدمير ما معه، انما تجاهلته ليطرد اليونانيين (بريطانيا خططت الغزو اليوناني) وتركته يكبر ويقوى ومن ثم يترأس الجمهورية مستقبلاً.

تتابعت اللقاءات الموسعة حتى صدر إعلان في ١٩٢٠/٣/١٩ أن الأمة التركية قد شكلت برلمانها (المجلس الوطني الكبير) والذي ضم ٣٥٠ عضوا، منهم ٢٧٠ من سكان الأناضول، و٦٨ من النواب العثمانيين السابقين، و١٢ من المعارضين الذين كانوا منفيين في مالطا.

تصاعدت اللهجة من قبل مصطفى كمال الذي انتخب رئيساً للمجلس الوطني والذي اتخذ أنقرة قاعدة ثابتة له، تصاعدت ضد الدولة المركزية في استانبول، وأخذت تلك التصريحات تأخذ شكلاً في رسم السياسة المستقبلية، وعلاقة الأتراك بالأعراق التي كانت تعيش تحت حكمهم وخصوصاً العرب منهم، وقد جاءت تلك المنهجية في بنود الميثاق الستة التي صدرت عن المجلس الوطني..

في ١٩٢٠/٥/١١ استصدرت الحكومة المركزية فتوى مصدقة من شيخ الإسلام في استانبول حكما بالإعدام على مصطفى كمال، ما حدا جماعة مصطفى كمال إلى استصدار فتوى من مفتي أنقرة تعتبر فيها فتوى استانبول باطلة..

تركيا ومعاهدتي سيفر ولوزان:

تعتبر معاهدة سيفر التي تم توقيعها في ١٩٢٠/٨/١٠ من أقسى المعاهدات في التاريخ، بين دول منتصرة ودولة مهزومة.. فقد شملت المعاهدة ١٣ فصلا و٤٣٣ بندا.. وأهم فصولها الثاني والثالث اللذان حددا في بنودهما حدود تركيا ومستقبلها الجغراسياسي. وقد أستهدفت المعاهدة التي أوضحت مطامع الدول الغربية، خصوصا أنها جاءت بعد اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت معظم ولايات الدولة العثمانية فيما بين فرنسا وبريطانيا.. بل وفوق ذلك أرادت تمزيق تركيا نفسها، فأبقت استانبول العاصمة تحت إدارة دولية مع قبول كل شروط الحلفاء، وتدويل كل الأراضي المجاورة للعاصمة. وقد ذكرت المعاهدة بثلاثة بنود هي (٦٢، ٦٣، ٦٤) المسألة الكردية بخبث شديد، فبعد أن نالت بريطانيا السيطرة على كردستان العراق، من ضمن الاتفاقية، إذ جاء في البند (٦٤) أنه إذا مرّ عام على هذه الاتفاقية وأراد الأكراد من خلال استفتاء أن يستقلوا فلهم ذلك، على أن يكونوا تحت وصاية دولية !

أما فيما يخص إدارة اليونانيين لأزمير، فقد تقرر عمل استفتاء لتقرير مصيرها بعد خمس سنوات وتضمنت المعاهدة تنازل تركيا عن بعض الأراضي والجزر لليونان وإيطاليا.. وعلى إعلان أرمينيا دولة مستقلة، وإقرار تركيا بانتداب فرنسا على سوريا ولبنان وبريطانيا على فلسطين والعراق، وقبولها باستقلال العراق ومصر والحجاز.. وتنازلها عن حقوقها في قبرص ومراكش وتونس وليبيا.. هذا وإن كانت تلك المعاهدة قد وافقت عليها الدولة العثمانية.. فقد رفضتها جبهة عريضة من الأتراك (عاصمتها أنقرة).. وبادروا إلى الاتصال بالاتحاد السوفياتي ووقعوا معه اتفاقاً عسكرياً في ١٩٢١/٣/١٢، ضمنت حكومة أنقرة الاطمئنان من الجبهة الشمالية، كما تدفقت الأسلحة السوفييتية عليها.. وهذا جعل الفرنسيين يسارعون لعقد اتفاق مع أنقرة تنازلت فيه فرنسا عن المنطقة الشرقية، ديار بكر وكيليكيا وماردين وطرسوس والإسكندرونة ومساحات لا بأس بها.

لقد كانت قضية التسابق للتنازلات لمصلحة تركيا، وعقد الاتفاقات معها، ينبع من منافسات شديدة بين الدول الاستعمارية، حتى لا يقوى طرف على آخر.. وقد استغلت حكومة أنقرة تلك التناقضات استغلالاً جيداً ما جعلها تعزل اليونان وتخوض معها حربا منفردة، ومن ثم كانت هزيمة اليونانيين على يد الجيش التركي بقيادة مصطفى كمال في أيار/مايو ١٩٢١، وأفضت كل تلك التطورات إلى معاهدة لوزان الشهيرة التي كرست الاعتراف فيها بتركيا دولة جمهورية مستقلة وذلك في ١٩٢٣/٣/٢٤ في لوزان-سويسرا، مقابل اعتراف تركيا بعدم مطالبتها بكل ولاياتها السابقة والتنازل عن العراق وفلسطين وغيرهما.

إعلان الجمهورية التركية:

بعد دخول القوات التركية استانبول في ١٩٢٣/١٠/٦، اجتمع المجلس الوطني الكبير واصدر قانونا، جعل بمقتضاه أنقرة عاصمة لتركيا بدلا من استانبول التي تحمل ذكريات الدولة العثمانية.

وفي ١٩٢٣/١٠/٢٩، اجتمع المجلس الوطني، وقرر إعلان الجمهورية التركية، وفي مساء اليوم نفسه انتخب مصطفى كمال أتاتورك، أول رئيس جمهورية، والذي كلف رفيقه عصمت باشا (اينونو) رئاسة الوزراء.

وفي ١٩٢٤/٣/٣ اجتمع المجلس الوطني الكبير، وألغى الخلافة الإسلامية، وقرر نفي الخليفة (عبد المجيد أفندي ابن السلطان عبد العزيز) الذي كان قد عينه المجلس خلفا للسلطان (محمد السادس) الذي هرب، وكان ذلك في ١٩٢٢/١١/١٩.. وكان قد منح عبد المجيد لقب (خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين).

وفي ١٩٢٤/٤/٢٠ أصدر المجلس الوطني الكبير دستورا مكونا من (١٠٥) مواد وقد اختيرت نصوص الدستور بعناية ليبرالية فائقة (يونس نادي أشرف على صياغة مواد الدستور بتكليف من مصطفى كمال). فقد منع الدستور رئيس الجمهورية من حل البرلمان تحت أي ظرف، وترك للبرلمان حل نفسه في ظروف خاصة جدا.. وما يلفت أن السلطات الثلاث توحدت في سلطة البرلمان، ولم يستطع أتاتورك تعديل مادة بالدستور، رغم تجاوزات نصوصه في كثير من الأحيان.. ولم ترد في نصوص، وكان يشبه الدساتير الليبرالية التي كانت سائدة في أوروبا في القرن التاسع عشر.. ويؤكد ي مواده (٣، ٤، ٥) أن أعلى سلطة هي الشعب ممثلاً بالمجلس الوطني الكبير (البرلمان) ويحقق المجلس الوطني السلطة التشريعية.. أما السلطة التنفيذية فتكون عن طريق رئيس الجمهورية (مادة ٧).. وقد أعطي رئيس الجمهورية صلاحيات واسعة، فهو القائد العام للقوات المسلحة، وهو الذي يوافق على الوزراء الذي اختارهم رئيس الوزراء المعين منه.. وهو الذي يوقع على نشاطات الحكومة..

لم يشر الدستور إلى المسألة الدينية، سوى أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام.

أما نحن في البلاد العربية وبقية ولايات السلطنة: أصداء هذا كله ما زلنا نعيش تداعياتها، الثقافية، السياسية، الاجتماعية، لم تنتهِ مفاعيلها بعد كما يتوهم البعض، إنها في موروثنا الفكري السياسي والاجتماعي، إنها في تشريعاتنا وقوانيننا الداخلية الروحية منها والمدنية، مثال (قانون المطبوعات) المتعلق بالصحافة اللبنانية هو تشريع عثماني ما زال سارياً حتى الآن. وفي أعرافنا وتقاليدنا من كل الطوائف وفيما بين الطوائف وفي كل المناطق ولن تزول هذه الرواسب بمرور ٩٠ سنة من جلاء المحتل التركي، إنها في مفردات لغتنا اليومية، حتى مفردات اسماء قطع الثياب المستعملة يومياً، وفي تفاصيل حياتنا اليومية. مفاعيل ومؤثرات احتلال ٤٠٠ وعامين لن تزول بمرور قرن واحد من الزمان. هذا القرن تخلله رسم خريطة سياسية جديدة للمنطقة (بلاد الشام) فيها كيانات سياسية استُحِدّث (الأردن/لبنان/إسرائيل) بتقسيم فلسطين وقضمها، لكل من الكيانات حدودها الجغرافية الطبيعية والسياسية وفي وسطها جسم غريب، ورم سُمِّيَ (إسرائيل) وانتدابين (احتلالين) إنكليزي على العراق وفلسطين وفرنسي على سوريا ولبنان.

إنها حتى في ردود أفعالنا وأغلب تصرفاتنا، في منهجية التحليل والتقدير والاستنتاج، حتى إنها لتكرارها وتراكمها صارت من البديهيات والمقدسات، إنها في التركيب البنيوي للذهنية العربية، في التركيبة السياسية للحكام والمحكومين، في القوانين الوضعية والروحية، في التقسيمات السياسية–الجغرافية، في علاقات الطوائف فيما بينها، وبين الإثنيات (حروباً أهلية تعارفوا أو اصطلحوا على تسميتها) أدركنا ذلك أم لم ندرك، وافق عليها البعض ام لم يوافق، زرعت بذورها في العهد العثماني، امتدت جذورها واينعت ثمارها في ١٨٦٤ وتابع ريَّها والعناية بها الانتدابان الإنكليزي والفرنسي ١٩٥٨ و١٩٧٥ والجمر تحت الرماد.

ففي الحالات التي يلزم فيها استخدام التفكير المنطقي العقلاني الشكاك الناقد نرى غياباً للعقل وسيطرة للغيبيات وغلبة للعواطف والغرائزلنتشابه مع كائنات أخرى تشاركنا الحياة. ليس في لبنان فقط بل في كل بلاد الشام، وصولاً إلى كل المناطق التي سادها الاستعمار التركي، حتى في مصر وشبه الجزيرة العربية.

لقد كانت بلادنا وما زالت وسطاً بين الشرق والغرب، هدف كل قوة عظمى للاستيطان أو للعبور. منذ بدء التأريخ، أي ما قبل ميلاد السيد المسيح، كان يطلق عليها بلاد اللبن والعسل، والبخور والأرز. كانت جسراً للهجوم المتبادل بين الشعوب والغزوات وهجرات الشعوب والقبائل. كانت معبراً للإسكندر اليوناني باتجاه الشرق نحو بلاد فارس والهند، وممراً للجحافل الرومانية والبيزنطية نحو بلاد الشام وفلسطين واليمن، وللآثوريين والحثيين والفرس والمغول باتجاه الغرب نحو (بلاد الفراعنة) مصر وشمال افريقيا وبلاد اليونان. والشيء نفسه يقال عن الفراعنة نحو الشرق والجميع خلّفوا وراءهم آثاراً حكت أخبارهم وعرّفت بهم.

في منتصف القرن السادس عشر في عهد السلطان العاشر سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) شهدت المنطقة غزواً تنافسياً منظماً وصل إلى حد الصدام المسلح تحت تسميات مختلفة تارةً باسم الدين وحماية الأقليات الدينية التي ضمّت (الأتراك، العرب، الروم، الأكراد، الألبان، الأرمن، الصرب، الكروات، المقدونيين، التتار، البغدان، الأفلاق، الكرج، الشركس، الآثوريين، الآذريين والغجر) وطوراً باسم حماية المصالح الاقتصادية التجارية. ومنذ اواخر القرن التاسع عشر اعتبرت بلاد الثروات ومع تطور الصناعة وتعاظم إنتاجها وتسارع التنافس الوحشي على مصادر المواد الأولية والخامات والأسواق وكشف مكامن الاحتياطات النفطية، ومع بدايات القرن العشرين اصطلح على تسميتها ببلدان أو منطقة الشرق الأوسط. وهذه التسمية تختزن وتختصر الجغرافية والسياسة والاقتصاد والتاريخ والثقافة والمجال الحيوي لكل بلد من هذه البلدان، واستعر التنافس الفرنسي - الإنكليزي - الألماني - العثماني - الروسي، وتعاظم الشعور القومي للأقليات وتأجج، ما دفع إلى قيام محاور واستقطابات سياسية دولية وتغيّر في التحالفات والمواقف شملتها معاهدات واتفاقات علنية وسرية واستمر التنافس (الصراع) حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا.

لماذا هذه المجموعة؟

* لمواجهة الحقائق ونقل المعلومات كما وردت، ثم البناء والاستنتاج منها والحكم عليها فيما بعد على نحو مستقل.

* إن كتب التاريخ الرسمية المعتمدة في التدريس والتعليم حالياً هي نتيجة:

أ- إما لجمع وتبسيط واختصار من محاضر الدروس الجامعية المنقولة عن الغرب.

ب- واما ترجمة لبعض مقررات التدريس الخاصة بمدارس البعثات الأجنبية التعليمية ما قبل الاستقلال.

ونحن في إعادة النظر والبحث الجاد في أسباب تقدم أو تخلف الشعوب العربية، والظروف التي انتجتها والمؤثرات عليها وما آلت إليه، خاصة أن المنطقة عاشت ٤٠٠ سنة تحت سيطرة العثمانيين نحاول الاستفادة منها وإعطاء الصورة الحقيقية عن كل الأطراف والقوى التي احتلت مسرح الأحداث، نرى أنه لا مناص من إعادة كتابة تاريخ تلك الحقبة في الهامش، لأجل: إظهار حقيقة دور ومواقف وأهداف الدول الأوروبية من العرب وأطماعها في بلادهم.

أسهبنا في إظهار تاريخ وحقيقة شخصيات وأعلام عرب، كانت لهم أدوارهم ومبرراتهم في تمكين الاحتلال الأجنبي واستمراره، وبعضهم كانت لهم أدوار ومبررات في المساعدة على التحرر من الاحتلال التركي وآثاره، والنتيجة كانت استبدال محتل بآخر.

وهنا لا بد من الإشارة إلى مدى الشبه بين الأمس أي العقد الأول من القرن العشرين حيث تمت لقاءات متكررة مع قيادات وفاعليات عربية في أماكن مختلفة لأهداف متشابهة، مثل:

١) الشوام «لبنانيون وسوريون» مع مندوبين رسميين فرنسيين وإنكليز في باريس والقاهرة، لصحافيين وكتاب ومفكرين بقصد الاستشارة والمساعدة على طرد المستعمر التركي من البلاد وإيصال الوطنيين (الشوام) إلى السلطة والحفاظ على المصالح الفرنسية وتطويرها.

٢) فاعليات وقيادات حجازية مثل الشريف حسين وأولاده الأمراء والأمير عبد العزيز آل سعود وإحاطتهم بمستشارين إنكليز مثل لورنس وفيلبي وبيرسي كوكس وغلوب باشا واستمرت هذه الإحاطة للأبناء والأحفاد غلوب باشا في امارة شرق نهر الأردن، ونجدية مثل آل سعود الذين أُحيطوا بمستشارين إنكليز مثل فيلبي المتعاطف مع الصهيونية وبمشاركة الصهيوني بيرسي كوكس، ومع مشايخ الخليج مثل القواسمة وآل الصباح وآل نهيان وغيرهم كثر وتابع معهم بيرسي كوكس.

واليوم في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين (في لندن وواشنطن، قبل ثلاثة اعوام أي قبل غزو الأميركيين لبغداد في آذار/مارس ٢٠٠٣ استطاعت المخابرات الأميركية أن تجمع أشتات المعارضة العراقية بمختلف طوائفها واطيافها للقوى العراقية (كردية، آثورية وعربية/مسيحية، إسلامية-عسكرية ومدنية) ورتبت أمور المستقبل لاستبدال طاغية بممثلي (طواغيت صغار) الديمقراطية، تحت شعار إعادة الديمقراطية للعراق وأبنائه، وما يجري حالياً في سوريا وليبيا واليمن، التاريخ يتكرر، متى شعوب الأمة العربية تأخذ ناصيتها بيمينها؟ ولا تكون مطية للخارج، فلا يتكرر الشريف حسين، ولا عراق صدام.

ـــ إبراز ما اندثر من التاريخ، وأن تكون مرجعاً يساعد على إعادة النظر في كتابة تاريخ هذه المنطقة والحقبة والتداعيات التي أرخت بثقلها على تطور الأحداث ومسارها، وما نتج عنها، ورفع الغبن والتلفيق والتزوير عن شهداء ظُلِموا، جمعتهم مسألة التحرر الوطني والقومي، شهداء صُوِّروا في عيون الناس يومها أنهم خونة للدين والوطن وتسليط الضوء على من عمل في الظل إما تواضعاً وإما تآمراً.

مادة هُيِّئت للدارسين والباحثين، من دون التدخل في مضمونها وترجمتها، فقط كان مجالنا الهوامش (تعليق، احالة، فهرسة أو صورة) للمساعدة على تسليط الضوء على حقبة تاريخية (١٩٠٨-١٩١٨) لبلاد الشام (فلسطين، سوريا ولبنان) في ظل سلطة الاتحاديين، وتوضح مسار العلاقة بالدولة العثمانية في

الأيام الأخيرة للسلطان عبد الحميد الثاني، وتولي رجال حزب الاتحاد والترقي مقاليد السلطة السياسية والعسكرية والإدارية للإمبراطورية، ودور هذا الحزب في بناء أمة تركية (طورانية) جديدة والعوائق التي جُبهت إزاء مصير الإمبراطورية (الأمة العثمانية). في المذكرات التي تركها بعض القادة الاتحاديين وغير الاتحاديين أو من عمل معهم وتحت إشرافهم وإدارتهم والمعايشين لهم ممن تولوا مسؤوليات وقيادة ومارسوا أدواراً مصيرية في حياة ومستقبل ومصير شعوب الولايات العثمانية الأوروبية والآسيوية واصدروا قرارات مصيرية وراقبوا وتابعوا تنفيذها وسيرورتها وكانوا على بيّنة مما قرروه وليس نتيجة أخطاء موظفين عاديين بسطاء. مع انقضاء الزمن صار ما كتبوه وثيقة على الرغم من الطابع الشخصي والفردي.

حينما تتوالى الأحداث والوقائع وتأخذ نصيبها من الاستحسان أو النقد سلباً أو إيجاباً. ويتكرر ذكرها في مذكرات وخواطر عدة، تتباين وجهات النظر أو تتشابه، كلٌّ يرى الأمور من زاويته، يقوّم الحدث بقدر قربه أو بعده أو مشاركته فيه. المعلومات الواردة طي النصوص ليست منقولة بالتواتر أو بالعنعنة، بل اصبحت في مقام الوثائق، فهي بأقلام صانعي الأحداث.

من دون أي تدخّل في مضمون النص، تركت للقارئ حرية تكوين الرأي والتصور من خلال قراءة الأجزاء بتسلسلها وترتيبها وتسليط الضوء على اشخاص أدّوا أدواراً في مصير هذه المنطقة. وضمن كتّاب هذه المجموعة دبلوماسيون أجانب مثل السفير الأميركي مورغنتو في استانبول (الأستانة)، والسفير الألماني فانغنهايم، والسفير الفرنسي بومبارد، والقنصل الروسي ماندلستام، كلهم عملوا في استانبول في الفترة نفسها، كل من زاويته كما رأى الأمور والأحداث التي عايشها وقاربها أو ساهم فيها.

* * * * *

لماذا مذكرات وخواطر وليست دراسات وتحليلاً للقضايا ورأياً في المواقف التي حصلت؟

هذا السؤال طرْحه مشروع وبديهي، الجواب بعد القراءة فنتخذ الموقف والحكم.

بداية المشروع على المجموعة بُدئ العمل به قبل عشر سنوات، تفتيشاً وبحثاً للحصول على النُّسخ باللغة العثمانية ذات الحرف العربي من حلب واستانبول وموسكو وبرلين، والتفتيش عن الترجمات التي نقلت إليها إن بالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو العربية، سواء من مكتبات خاصة أو عامة أو مراكز ثقافية، وإجراء المقارنات فيما بينها وبين النسخة العثمانية الأصلية المضي في ترجمتها إلى العربية.

مذكرات أحمد جمال باشا فيها من الافتراءات والأكاذيب والخيال ما لا نهاية له، والصورة مقلوبة، السفاح يصبح إنساناً حضارياً والمجني عليه (العرب/الأرمن) يصبح همجياً وخائناً، والعكس صحيح.

العمل يضم ١٤ جزءاً، وهي لسبع شخصيات تركية، وعربيين اثنين، وأرمني واحد، وأميركي وألماني:

- مذكرات أحمد جمال باشا، مترجمة عن (العثمانية)
- الإيضاحات، أحمد جمال باشا (العثمانية)
- عمل المخابرات التركية في بلاد الشام (مذكرات عزيز بك (العثمانية)
- مذكرات أوهانس باشا (الفرنسية)

- مذكرات عربي شاهد على الأحداث (أسعد مفلح داغر)
- الثورة العربية (أسعد مفلح داغر)
- مذكرات عارف بك النعماني (العربية)
- كيف دخلت تركيا الحرب (العثمانية)
- كيف غزونا مصر (العثمانية)
- كيف جلت الجيوش العثمانية عن البلاد العربية (العثمانية)
- مذكرات أنور باشا في ليبيا (العثمانية)
- مذكرات هنري مورغنتو السفير الأميركي في استانبول (عن الإنكليزية)
- الدروس المستخلصة من معارك الإنكليز.. الأتراك في سيناء وفلسطين وبلاد الشام في الحرب العالمية الأولى لمجموعة عسكريين عن (الإنكليزية/التركية/الألمانية/الفرنسية/العربية) نسقت بتصرف.
- خمس سنوات في تركيا، مذكرات ليمان فون ساندرس (عن الإنكليزية).

في دراسة متمعنة لتاريخ السلطنة العثمانية المترامية الأطراف وأهميتها السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية والدور الذي لعبته في القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين التي أدت إلى نهاية الخلافة أي نهاية «السلطنة» وتحولها إلى جمهورية وليس نهاية «الدولة» وأثر ذلك في تطور ومستقبل الشعوب المختلفة الإثنيات والمعتقدات وتغير الخارطة السياسية لمنطقة «الشرق الأوسط» المصطلح الجغراسي الجديد الذي يوجز رؤية أوروبا السياسية الاقتصادية وأهدافها والمصالح الأوروبية وبشكل خاص البريطانية تحديداً. فظهرت دول جديدة. وتم استجلاب «لقطاء» أناس جدد من أوروبا ومناطق عربية وزرعهم في فلسطين (أرض الميعاد) وتسميته «إسرائيل» وطناً لهم.

وما آلت إليه الأمور نحاول إلقاء الضوء على الأسباب التي أدّت إلى نهاية الاتحاد والترقي، واستمرار للحركة الإصلاحية التي حاولها الصدر الأعظم مدحت باشا. هل محاولة مصطفى كمال أتاتورك، هي امتداد لتلك المحاولات الإصلاحية؟

مذكرات القائد الوزير أحمد جمال باشا هي الجزء الأول من المجموعة الأولى التاريخية العثمانية/العربية المؤلفة من ١٤ جزءاً التي ترجمت أجزاؤها من لغاتها الأصلية.

هذه الأجزاء هي مذكرات أو وجدانيات وخواطر كتبها أصحابها. لماذا مذكرات أحمد جمال باشا أول أجزاء المجموعة؟ بسبب شموليتها فترة حكم الاتحاد والترقي للسلطنة العثمانية من ١٩٠٩ حتى ١٩١٨.

المذكرات ستتيح للقارئ أن يتلمس مباشرة ممارسات حزب الاتحاد والترقي في تطبيق أهدافه والسبل التي اتبعها داخل تركيا وخارجها، وانسجام الشعارات التي رفعها لجذب الجماهير مع حركته بينها، وعلاقة قيادات حزب الاتحاد والترقي فيما بينها، ودور أحمد جمال باشا عضو قيادة الحزب في تركيا وممثلها في بلاد الشام.

عملنا في المجموعة التاريخية العثمانية – العربية:

أجزاء المجموعة قد تختلف أو تتقاطع قد تلتقي أو تتناقض آراء كاتبيها في بعض المواقف. لكنها رؤية كل من موقعه، وللكاتب رغباته الخاصة وطموحاته واهدافه.. المجموعة بدأ العمل عليها قبل اثنتي عشرة سنة.

* الهدف من العمل: إماطة اللثام عما ما لم تورده ما يسمى «كتب التاريخ» وندعي أننا نساعد على كشف الحقيقة.

* العمل في المذكرات:

- أ -

- الترجمة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية.
- مراجعة الترجمة.
- تصحيح اللغة العربية وصياغتها.
- إعادة المراجعة للموضوع ككل.
- الاستعانة بالنسخ الفرنسية والإنكليزية والتركية لتوحيد أسماء المدن، القرى، الأشخاص.

- ب -

- وضع هوامش للتعريف بكل ما لاحظنا أنه يحتاج إلى إيضاح أو تعليق.
- الاستعانة بمكتبات عامة وعائلية خاصة في استانبول وبيروت ودمشق.
- تزويد الكتاب بنحو مئتي صورة وخريطة ووثيقة تمكن من تقريب الفكرة أو الخبر والظروف المحيطة بحدوثه.
- تزويد الكتاب المترجم بملاحق تساعد على ملاحقة ومتابعة الأحداث بتسلسلها التاريخي.
- انشاء فهارس تسهل على القارئ حول الأعلام والمواقع والمناطق في البحث والتفتيش.
- الاستفادة من الإنترنت (صور ومعلومات) وإخضاعها للتمحيص والتدقيق والغربلة.
- زيارة من متّ بصلة إلى الشهداء العرب أو الشخصيات العربية التي ذكرت، بهدف الاقتراب من الحدث أكثر.

أسماء من ساهموا وشاركوا في العمل طيلة اثنتي عشرة سنة ستبقى مغفلة بناء لرغبتهم.

ينتمي المشاركون في إنجاز المجموعة إلى أرمن (حجن، الزيتون، أضنة، معمورة العزيز، ديار بكر) وعرب من سوريا والعراق ولبنان.

تمهيد

تبدأ مذكراتي مذ أنيطت بي مسؤولية محافظ استانبول التي أدخلتني فعلياً عالم السياسة العامة للإمبراطورية العثمانية عقب الانقلاب الحكومي[١].

عشية ذلك اليوم خرجت من هيئة تفتيش المواصلات ويمّمت وجهي شطر الباب العالي، حيث تدفقت إليه الجماهير في سيل غير منقطع. وقد عاد وقتئذٍ محمود شوكت باشا - الذي عيّن صدراً أعظم[٢] قبل بضع ساعات - من سرايا المابين[٣]، فالتقاني عند مدخل سرايا الصدر الأعظم. وما كاد بصره يقع عليّ حتى صاح بي: «هلمَّ يا جمال بك فإنني أريد أنْ تتسلم في الحال منصب محافظ استانبول، فلا تتوانَ لحظةً واحدة في اتخاذ كل الوسائل التي تظنها لازمة لحفظ النظام والثقة في العاصمة».



مقر الباب العالي

مقر مجلس الوزراء، إليه تنتهي كل شؤون السلطنة، ويسمى أحياناً «باب آصفي»، كانت تطلق على البناء الذي يسكنه الصدر الأعظم مع أسرته، ومنه كان يدير شؤون الدولة، وإن كانت الكلمة هنا تعني السلطان كمصدر للقرار ولقربه من قصر السلطان اختلط الأمر، ورويداً أخذ يفقد صفته الشخصية من حيث للصدر الأعظم.
في عام ١٧١٨ في عهد السلطان أحمد الثالث أطلق على مكتب الصدر الأعظم فقط، ومع الزمن أصبح الباب العالي يُطلق فيما بعد على الحكومة العثمانية، وحتى نهاية عهد السلطنة العثمانية كان يضم في مبناه وزارتي الداخلية والخارجية.



محمود شوكت باشا (١٨٥٧-١٩١٣)

عراقي المولد، شركسي الأرومة، عثماني الهوى، ابن الشاعر المؤرخ سليمان فائق بك الذي كتب في تاريخ بغداد، المتصرف على المنتفق في العراق، أنجب محمود وخالد ومراد وحكمت الذي تولى الوزارة إثر انقلاب بكر صدقي سنة ١٩٣٦. تخرج محمود شوكت في المدرسة الحربية في استانبول سنة ١٨٨٢، أرسل إلى مصر في عمل عسكري، بعد عودته عيّن مدرساً في مدرسة أركان حرب، رافق الجنرال فون در غولتس وساعد في ترجمة كتب عسكرية عن اللغة الألمانية إلى التركية، رقّي إلى رتبة مقدم سنة ١٨٨٦، سافر ضمن بعثة لشراء أسلحة حديثة من ألمانيا لحاجات الجيش العثماني.

عام ١٨٨٩ أرسل إلى فرنسا للاطلاع على الإنشاءات الهندسية العسكرية الدفاعية وملحقاتها من الأسلحة النارية، وتدرج إلى أن رقّي إلى فريق، بعدها أرسل إلى الحجاز للإشراف على مدّ خط برقي بين المدينة المنورة ومكة وربطهما باستانبول.

سنة ١٩٠٥ رُفع إلى رتبة فريق أول وولّي «قوصوه» أو«كوسوفو» وانتسب إلى جمعية تركيا الفتاة السرية الهادفة إلى القضاء على نظام السلطان الجائر، فعُهد إليه بقيادة الفيلق الثالث المرابط في سالونيك، ونجحت الجمعية في الضغط على السلطان عبد الحميد لإعلان تبني العمل بمواد الدستور «المشروطية الثانية».. لكن القوى الرجعية المحافظة تمكنت في ١٣ نيسان ١٩٠٩ من إحداث فتنة وأعمال شغب في العاصمة وفوضى دموية (من قتل جنود وضباط اتحاديين في الثكنات وخارجها، مهاجمة مجلس النواب، إحراق مؤسسات للاتحاديين). فأمر محمود شوكت بتحريك فيلقه من سالونيك نحو العاصمة تحت شعار تأييد الدستور وإعادة الهدوء وتثبيت الأمن في العاصمة، منذراً المشاغبين بالانسحاب وإخلاء الشوارع أو قصف العاصمة، فجرى اقتحام العاصمة وملاحقة المشاغبين، وتمت اعتقالات لسياسيين معارضين ولرجال دين ومثقفين (لا علاقة لهم بما جرى). وتمت إعدامات للمئات بين أوساط المدنيين والعسكريين، وفرض الأمن فيها بالقوة واستتب فيها الهدوء فأمر السلطان بإقالته عام ١٩٠٨م، وجرى احتلال قصر السلطان عبد الحميد الثاني وإكراهه على التنازل عن العرش، إلا أن الباشا تلقّى مهمة جديدة، مفتشاً على ثلاثة فيالق: الأول والثاني والثالث، ثم وزيراً للحربية في وزارة الصدر الأعظم إبراهيم حقي باشا سنة ١٩١٠، وشارك في وزارة الصدر الأعظم كجك محمد سعيد باشا من ١٩١١ حتى تموز ١٩١٢، وكان في هذه الفترة يشدد على العسكريين عدم التعاطي بالسياسة والابتعاد عن التدخل في عمل الحكومة، قسم كبير من الضباط الاتحاديين أنكروا عليه هذا الموقف واستغربوه، وقسم آخر كفّوا يدهم، إنما الاتحاديون لم يرتاحوا لمواقفه.

تعرّض محمود شوكت باشا للاغتيال صباح ١٥حزيران ١٩١٣م لدى تنقّله بين وزارة الحربية ومقر الباب العالي بخمس رصاصات، مِن قبل الجهات المتضررة من مواقفه، وتحت مظلة ملاحقة منفذي الاغتيال تم البطش بكل مناوئ للاتحاديين وإلغاء كل صوت ديمقراطي كان لا يزال يجهر بالحقيقة.

من مؤلفاته: مذكرات محمود شوكت باشا اليومية، اللوغارتمات وأصول الهندسة، الهندسة المجسمة، محاضرات في التعبئة العامة والأسلحة، الأزياء العسكرية والتشكيلات العثمانية، ترجم رواية (في ظلال الزيزفون) للكاتب الفرنسي ألفونس كار (١٨٠٨-١٨٩٠).

هوامش التمهيد:

(١) الانقلاب الحكومي: يوم اقتحام مقر الباب العالي ومقتل وزير الحربية ناظم باشا وإجبار الصدر الأعظم على الاستقالة والقبض على أعضاء الحكومة والتنكيل بهم. كان على رأس الاقتحام أنور بك وطلعت بك وجمال بك وضباط وجنود وطلاب ورعاع. وبسقوط أدرنة مصحوبة بتهديدات أوروبية للأتراك أعطى الاتحاديين مبرراً لاقتحام ضباطهم مقر الباب العالي أثناء انعقاد جلسة للحكومة في ١٩١٣/١/٢٣ تناقش كيفية الرد على التهديدات الأوروبية ومستقبل الولايات البلقانية ومناقشة اللائحة الإصلاحية التي قدمتها الجمعية البيروتية.
في هذا الاقتحام المدروس والمدبّر يقوم أنور بك مع صحبه بقتل الوزير وإكراه كامل باشا على الاستقالة وسوقه مع بقية الوزراء وسجنهم لفترة وتنصيب محمود شوكت باشا صدراً أعظم.

(٢) الصدر الأعظم: لقب رئيس الوزراء في السلطنة العثمانية منذ عهد السلطان سليمان القانوني ويسمى أيضاً الباب العالي ومن يُختار لهذا المنصب يحمل خاتماً ذهبياً سلطانياً. هذا اللقب أبطل استعماله في عهد الجمهورية.
من مهامه: يرأس الديوان. يعقد الاجتماعات الشهرية. يستقبل الموظفين الكبار مرتين في الاسبوع. عند عزله يسلم خاتمه في حفل عام. ومن الصدور العظام من عُزل أو نفي أو أُعدم أو توفاه الله.
بعد المشروطية الثانية ١٩٠٨ صار مسؤولاً امام البرلمان. ألغي هذا اللقب مع ألقاب أخرى مثل السلطان ولقب شيخ الإسلام والباب العالي عام ١٩٢٣ مع قيام الجمهورية (محمد جميل بيهم. فلسفة التاريخ العثماني. ص...) (المصدر: بيهم. الحصري. الصبان. صباغ).

(٣) سرايا المابين: هي الديوان السلطاني. إليه تصل القضايا المحولة من الباب العالي لعرضها على السلطان. قصر يحوي حاشية السلطان الخارجية. وهي صلة وصل بين السلطان والصدر الأعظم (الباب العالي) وبينهم فئة تتولى تنفيذ أوامر السلطان مباشرة. وفئة ثانية مهمتها حفظ حياة السلطان الخاصة (على هؤلاء كان للعابد والشيخ الصيادي الكلمة والنفوذ الأول بعد السلطان قبل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام) (فلسفة التاريخ العثماني. محمد جميل بيهم. ص٦٠).

المراجع

الكتاب	المؤلف	الناشر
- أصول التاريخ العثماني	أحمد عبد الرحيم مصطفى	دار الشروق
- أطلس العالم الإسلامي	تنسيق هاري هازارد ترجمة ابراهيم خورشيد	مكتبة النهضة المصرية
- أعلام الفكر والأدب في فلسطين	يعقوب العودات	١٩٦٦
- أعلام الوطنية والقومية العربية	مير صبري	دار الحكمة ١٩٩٩، ط١
- آل سعود ماضيهم ومستقبلهم	جبران شامية	دار الريس، ١٩٨٨
- الاتجاهات السياسية والاجتماعية	وجيه كوثراني	معهد الإنماء العربي، ط
- الإدارة العثمانية والبلاد العربية	عبد العزيز عوض	مركز دراسات الوحدة
- (أ) الأعلام (٨ مجلدات) (ب) تكملة أعلام الزركلي (٣ مجلدات)	خير الدين الزركلي	دار العلم للملايين، ١٩٧٢ دار ابن حزم
- البلاد العربية والدولة العثمانية	ساطع الحصري	دار العلم للملايين، ١٩٦٠
- بناة النهضة العربية	جرجي زيدان	دار الهلال
- بيروت في التاريخ والحضارة والعمران	طه الولي	دار العلم للملايين، ١٩٩٣
- بيروت تاريخها وآثارها	لويس شيخو	دار المشرق، ط٣، ١٩٩٣
- بيروت ولبنان في عهد آل عثمان	يوسف الحكيم	دار النهار، ١٩٩١، ط٤
- تاريخ الشعوب العربية (فصل تركيا من ص٦٨٧)	كارل بروكلمان ترجمة فارس وبعلبكي	دار العلم للملايين ١٩٨١، ط٩
- تاريخ ما اهمله التاريخ	الأب سهيل قاشا	دار السائح، ٢٠٠٦، طرابلس
- تاريخ الشرق الأوسط الحديث	دزموند ستيوارت ترجمة زهدي جارالله	دار النهار، ١٩٧٤

الكتاب	المؤلف	الناشر
- تاريخ الدولة العثمانية (المجلد الثاني)	روبير مانتران ترجمة بشير السباعي	دار الفكر للدراسات
- تاريخ الصحافة العربية (٤ مجلدات)	طرازي	١٩٣٢
- تاريخ الصحافة في سوريا (مجلدان)	جوزيف الياس	دمشق
- تاريخ الاقطار العربية الحديث	فلاديمير لوتسكي	دار الفارابي
- تاريخ العرب	فيليب حتي ترجمة جبور وجرجي	دار غندور
- تاريخ العربية السعودية	ألكسي فاسيلييف	دار التقدم، ١٩٨٥
- تاريخ لبنان	فيليب حتي ترجمة أنيس فريحة	دار الثقافة، ط ١٩٥٩
- تاريخ لبنان الحديث، ج١	منير اسماعيل وعادل اسماعيل	إصدار ١٩٩٠
- تاريخ لبنان الحديث، ج١	ملحم قربان	
- تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٧٠٠-١٩١٨)	عادل منّاع	م د ف، ٢٠٠٥
- تاريخ نجد الحديث	أمين الريحاني	دار الجيل
- تجليات الوعي القومي العربي في بعلبك (١٩٠٨-١٩٢٠)	حسين صلح	
- تركيا الفتاة	أرنست رامزور ترجمة نقولا زيادة	مكتبة الحياة، ١٩٦١
- تركيا والأرمن (٩)	يوسف الجهمي	دار حوران، طبعة ١، ٢٠٠٠
- التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ج٢	إدمون رباط	الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٢
- التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية	محمود مختار تحقيق محمد عمارة	مؤسسة الدراسات العربية

العنوان	المؤلف	الناشر
- الثورة العربية الكبرى، ج١	أمين سعيد	طبعة دار إحياء الكتب العربية
- جبل عامل بين الأتراك والفرنسيين	حسن سعد	
- جدل الهويات	سليم مطر	
- جدول السنوات الهجرية	أنطوان قيقانو	===== ===== ١٩٦٦
- حرب فلسطين	شكري محمود نديم	مكتبة الحياة، ١٩٦٥
- الحركة العربية ١٩٠٨-١٩٢٤	سليمان موسى	دار النهار، ١٩٧٧
- حقائق لبنانية، مج١	بشارة الخوري	الدار اللبنانية للنشر الجامعية
- الحكم العثماني في اليمن	فاروق أباظة	الهيئة العامة للكتاب
- الحلقة المفقودة	محمد جميل بيهم	
- حول الحركة العربية الحديثة (٧ أجزاء)	محمد عزة دروزة	المكتبة العصرية، ط٣، ١٩٥٠
- الخط الحديدي الحجازي	جوني منصور	مؤسسة الدراسات المقدسية القدس، ٢٠٠٨
- دراسات في تاريخ فلسطين	تيسير جبارة	
- دلائل العناية الصمدانية	الأب ابراهيم حرفوش	مطبعة المرسلين اللبنانيين، ٢٠٠١
- دور الشاميين المهاجرين إلى مصر	أحمد طاهر حسنين	دار الوثبة في دمشق، ط١
- الدولة العثمانية	محمد أنيس	مكتبة الأنجلو المصرية
- الدولة العثمانية دولة إسلامية دولة مفترى عليها، ج٤	عبد العزيز الشناوي	مكتبة الأنجلو المصرية الفصل ٤٨ إلى نهاية الفصل ٥٣
- الدولة والمجتمع في المشرق العربي	مسعود ضاهر	
- رياض الصلح	هلال الصلح	
- زعماء الإصلاح في العصر الحديث	أحمد أمين	مكتبة النهضة، مصر، ١٩٤٨
- زعماء وأقنعة	سيار الجميل	الأهلية للنشر عمان، ط١، ١٩٩٩

الكتاب	المؤلف	النشر
- سلسلة الدولة العثمانية تاريخ وحضارة (مجلدان)	إشراف أكمل الدين إحسان أوغلي ترجمة صالح سعداوي	استانبول، ١٩٩٨
- سوريا في العهد العثماني	يوسف الحكيم	دار النهار، ١٩٨٦
- سوريا في العهد الفيصلي	يوسف الحكيم	دار النهار، ١٩٨٦
- شبلي الملاط	إعداد وجدي الملاط	
- شخصيات بارزة	عصام كمال خليفة	توزيع نوفل
- الصحافة العربية في فلسطين	يوسف خوري	م.د.ف. ١٩٦٨، بيروت
- الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان	زين. ن. زين	دار النهار
- صنع تركيا الحديثة	د. فيروز أحمد ترجمة سلمان الواسطي وحمدي الدوري	تاريخ نشر ١٩٩٥ (غير أساسي)
- الطرد والإبادة	جستن مكارثي ترجمة فريد الغزي	دار قدمس، ط١، ٢٠٠٥
- عرب معاصرون (الفصل ١+٣ فقط)	مجيد خدوري	الدار المتحدة، ١٩٧٣
- العرب والترك (كتاب رائد وأساسي)	توفيق برو	لا ذكر لدار النشر، ١٩٦١
- عزيز علي المصري وصحبه ١٩٠٠- ١٩١٦	صبري أبو المجد	الهيئة العامة للكتاب
- عصر التكايا والرعايا (١٥١٦-١٩١٨)	شاكر النابلسي	المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٩٩
- علماء دمشق في القرن ١٣ و١٤هـ. مج١	الحافظ/أباظة/فيصل	دار الفكر، دمشق
- عهد المتصرفين في لبنان	لحد خاطر	الجامعة اللبنانية، ١٩٦٧
- الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث	ز. ليفين	دار ابن خلدون، ط١، ١٩٧٨
- الفكر العربي	ألبرت حوراني ترجمة كريم عزقول	دار النهار، ١٩٧٧
- الفكر العربي في العصر الحديث	منير موسى	دار الحقيقة، ١٩٧٣

الكتاب	المؤلف	الناشر
- فلسطين في العهد العثماني	إميل توما	الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان
- فلسفة التاريخ العثماني	محمد جميل بيهم	
- في المنفى	رشيد نخلة	المكتبة العصرية
- قاموس الصحافة اللبنانية	يوسف أسعد داغر	منشورات الجامعة اللبنانية
- القضية الفلسطينية	محمد عزة دروزة	المكتبة العصرية، ط ١٩٥٩
- القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨	بيان نويهض	الحوت م.د.ف، ١٩٨٦
- كل أثر ومكان في فلسطين	مركز الدراسات العبرية ترجمة عيد حجاج	نشر الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٠
- لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده (ج ١)	بولس مسعد	المطبعة السورية مصر الجديدة، ١٩٢٩
- لبنان منذ عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب	أحمد طربين	
- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث	علي الوردي	المجلد ٢ الفصل ٦ و٧ المجلد ٣ - المجلد ٤
- متصرفية جبل لبنان مسائل وقضايا	جوزيف أنطوان لبكي	دار الكرمة، ١٩٩٥
- المجزرة الأرمنية (وثائق من الأرشيف الدولي)	غسان العزي	مركز الدراسات الأرمنية بيروت، ١٩٩٨
- محاضرات ٣/٤/٥ في نشوء الفكرة القومية	ساطع الحصري	مركز دراسات الوحدة، ١٩٨٥
- مذكرات محمد كرد علي	الجزء الأول	مطبعة الترقي ١٩٤٨
- مذكراتي عن الثورة العربية	فائز الغصين	مطبعة الترقي، ١٩٥٦
- كل مكان وأثر في فلسطين	مركز الدراسات العبرية	الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٠
- مشاهير الشرق (مجلدان)	جرجي زيدان	مكتبة الحياة

الكتاب	المؤلف	الناشر
- مصادر الدراسات الأدبية (٦ مجلدات)	يوسف أسعد داغر	منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٦
- مصطفى كمال المثل الأعلى	داجوبرت فون ميلوش ترجمة كمال مسيحة	إدارة المكتبة الاهلية، ١٩٣٢
- معجم أسماء المدن والقرى	حسين لوباني	مركز الأبحاث للدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٤
- المعجم التركي التراثي	ش. سامي	مكتبة لبنان، ١٩٨٩
- المعجم الجامع في المصطلحات	عباس صباغ	لا دار نشر ولا تاريخ إصدار
- المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية	سهيل صابان	مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض
- ملوك العرب (جزءان)	أمين الريحاني	دار الجيل، ط٨
- الموسوعة التاريخية الجغرافية (١٠ مجلدات)	مسعود الخوند	إصدار ١٩٩٧
- موسوعة تاريخية مصورة (١٩١٤-١٩١٨)	عمر أبو النصر	منشورات المكتب التجاري، بيروت
- موسوعة رجالات من بلاد العرب (مجلدين)	د. صالح زهرالدين	المركزالعربي للأبحاث، بيروت، ط١، ٢٠٠١
- الموسوعة السياسية (٨مجلدات+ملحق)	ماهر كيالي	مؤسسة الدراسات العربية
- الموسوعة الصهيونية	عبد الوهاب المسيري	دار الشروق
- الموسوعة العسكرية (٤ مج)	بإشراف هيثم الأيوبي	مؤسسة الدراسات العربية
- الموسوعة الفلسفية (ج٣)	إشراف معن زيادة	معهد الإنماء العربي
- الموسوعة الميسّرة	إشراف محمد شفيق غربال	مؤسسة فرانكلين، ١٩٦٤
- موسوعة المعارف البريطانية Britanica		
- موسوعة ENCARTA		
- LA ROUSE		

- UNIVERSALIS
- الموسوعة الأرمنية

الكتاب	المؤلف	الناشر
- ملوك العرب (١+٢)	أمين الريحاني	دار الجيل، من دون تاريخ نشر
- المواقع الجغرافية في فلسطين الأسماء العربية والأجنبية	شكري عرّاف	مؤسسةالدراساتالفلسطينية تموز ٢٠٠٤، بيروت
- موقف المعارضة في المشرق العربي من حكم السلطان عبد الحميد	د. سعد بن سفر الغامدي	مؤسسة الرسالة
- النزعات الكيانية	عبد الرؤوف سنو	
- نشأة العراق الحديث (١+٢)	هنري فوستر ترجمة سليم التكريتي	الفجر للتوزيع والنشر ١٩٨٩، بغداد
- نشوء القومية العربية	زين نور الدين زين	دار النهار، ط٢، ١٩٧٢
- الهاشميون والثورة العربية الكبرى	أنيس صايغ	دار الطليعة
- الهجرة اللبنانية إلى مصر هجرة الشوام	مسعود ضاهر	الجامعة اللبنانية، ١٩٨٦
- وجه لبنان الأبيض	طوني يوسف ضو	١٩٩٧
- يقظة العرب	جورج أنطونيوس ترجمة فارس وبعلبكي	دار العلم للملايين
- اليهود في البلاد الإسلامية	صامويل اتنجر	عالم المعرفة (١٩٧)، الكويت

- الصحف السورية اللبنانية لفترة ١٩٠٩-١٩١٨:

حديقة الأخبار

الاتحاد العثماني

المشرق

البشير

البصير

المفيد

المقتبس

مجلة المنارة. أعداد ما بعد سنة ١٩٨٠ وخصوصاً أعداد ملفات الرهبنة اللبنانية والأجنبية

أكثر من ٢٥٠ مصدراً ومرجعاً استفدنا منها في إنجاز المعلومات والتدقيق فيها (أسماء لأشخاص أو لقرى والسنوات والمواقع والأماكن والمعاهدات والصور والخرائط والمعارك والحروب. وبعضها لم نجد لها مصدراً لتعريفها فتُركت كما هي. لعلنا نوفق فيما بعد. وكان لنا اتصال ببعض عائلات الشهداء. وبعائلات الذين عملوا في عملية التحضير للشنق (أبناء السائق الذي نقل الشهداء. وأبناء الذي أعدمهم) في لبنان وسوريا. بعضهم رحب وتعاون معنا ووضع بين أيدينا ما ساعدنا على العمل. كآل العريسي مشكورين والبعض أنف. وكانت هناك صدور رحبة استضافتنا وخير معين لنا من القيمين على المكتبات وما وفّروه لنا من مراجع ومصادر البحث ومخطوطات.

- المحفوظات الوطنية في البيكاديللي/الحمراء. بيروت
- مكتبة معهد الدراسات العليا للمقاصد في بيروت
- مكتبة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت
- مكتبة جامعة بيروت العربية في بيروت
- مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت
- مكتبة الأسد - دمشق
- مكتبة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية - بيروت
- مكتبة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية – استانبول
- مكتبة المطرانية الأرمنية في حلب
- مكتبة البطريركية المارونية (الأرشيف) في بكركي
- مكتبة جامعة هايكازيان/بيروت
- مكتبة المجلس النيابي اللبناني في بيروت
- بلدية مدينة عاليه

- مكتبة بعقلين الوطنية
- مكتبة البطريركية الأرمنية في أنطلياس

ننوّه بمؤلفات عارف نكد، أسعد مفلح داغر، يوسف الحكيم، أمين سعيد، إبراهيم النجار، ساطع الحصري، محمد عزة دروزة، محمد جميل بيهم، جورج أنطونيوس، عبد الرحمن الرافعي، ألبرت حوراني. والمؤرخين الأساتذة والدكاترة وأبحاثهم، علي الوردي، زين نور الدين زين، إدمون رباط، عبد العزيز الشناوي، توفيق برو، أحمد عزت عبد الكريم، نور الدين حاطوم، والمؤرخين الأحياء منهم، عادل إسماعيل، منير إسماعيل (توفيا عام ٢٠٠٩)، محمد أنيس، أحمد عبد الرحمن مصطفى، عبد الرؤوف سنو، وجيه كوثراني، مسعود ضاهر، ومحاضراتهم الجامعية وخصوصاً حول حركات التحرر الوطني لـ(لأقليات) التي هي أكثرية في بلادها، في ولايات الدولة العثمانية، لقيمتها وغنى معلوماتها ومنهجيتهم العلمية التاريخية التي اتبعوها في معالجتهم للمسائل المطروقة والتنقيب عنها وريادتهم لهذه الأبحاث وأهميتها في المكتبة التاريخية العربية، وإماطة اللثام عن حركات التحرر الوطني لهذه الشعوب في هذه المناطق، ومذكرات الرئيس سامي الصلح ومذكرات تامر تامر.

تعريف بأجزاء المجموعة

١ - الجزء الأول:

كتاب «المذكرات» للقائد العسكري الاتحادي والوزير والسياسي والإداري، أكثر الأجزاء شمولية. تطرق فيه إلى مشاكل تركيا آنذاك كافة. والقضايا التي أحاطت بها والهموم التي تحمّلها هو وشغلها قبل الحرب العالمية الأولى (والي بغداد/حاكم اطنة (أضنة)/محافظ العاصمة مدينة استانبول/وزير الأشغال. ووزير البحرية). وخلالها يُعدّ القائد أحمد جمال أحد أبرز قادة حزب الاتحاد والترقي (الاتحاديين) حتى إنه نافس على الصدارة العظمى بوجه أنور بك وكان لجمال بك رؤية خاصة وطريقة معالجة (فريدة) في حلحلة كل ما اعترضه وعارض حزب الاتحاد والترقي.

في المذكرات، لم يشر إلى حيثيات دوره في ولاية بغداد. أما دوره كوالٍ لأضنة وطريقة تصرفه مع تداعيات الهجوم على الأرمن والمحرضين على تنفيذها في أضنة، ثم تقلده مهام محافظ مدينة استانبول وكيفية تصرفه في القضايا العامة. وموقفه من المرأة. ومن الصحافة وحرية الرأي ثم وزارة الأشغال وتنكّبه إدارة وزارة البحرية وتكليفه بقيادة الهجوم على قناة السويس واحتلالها وطرد الإنكليز من مصر مع صلاحيات «مطلقة» عسكرية - سياسية - إدارية لبلاد الشام وعلاقاته مع فاعليات المنطقة السياسية والاجتماعية والدينية (الإسلامية والمسيحية). فهو في طريقة إدارته لهذه القضايا.

في هذه المذكرات نتلمس مدى إبراره بوعوده التي قدمها إلى الجماهير التي حُشدت له في محطة حيدر باشا في يوم حفل توديعه ذاهباً إلى الجبهة المصرية إما منتصراً أو ميتاً. نتلمس تحقق براعته من نتائج الحملة (التجريدة) في تعبئة القوات وسوق الجيوش وتوزيع المهام القتالية وإصداره القرارات وإدارة المعارك ومتابعتها والمحاسبة. ومدى الصعوبات والمشاق التي تحملها والمسؤوليات التي اضطلع بها ومجابهته الدائمة مع كبار الضباط الألمان. ونتلمس مشاعره الرقيقة نحو العرب والأرمن وبقية الشعوب غير التركية وميوله الطورانية.

جزء غني. تجلّت فيه بوضوح الجوانب الإنسانية والشخصية القيادية (الكاريزما) الخاصة بالقائد والوزير والحاكم بأمره في بلاد الشام.

أما الأجزاء الباقية من المجموعة فتلقي الضوء على سياسة الاتحاد والترقي، وتكشف لنا ما كان غامضاً. لا نستطيع أن نقول إننا كشفنا كل شيء. فهي مجرد مقاربة بسيطة ومحاولات لتلمس الحقيقة وسط بروباغندا القوى المسيطرة.

٢ - الجزء الثاني

«الإيضاحات»: يضيء لنا ويوضح الموقف من أهمية الجمعيات والأحزاب العربية وأعضائها ومحاولات التشويه والافتراء. وموقف قيادة الاتحاد والترقي من أهداف الجمعيات وارتباطاتها وميولها ومبادئها وأسلوب عملها. وتصرف أجهزة الأمن العثمانية (في النسخة العثمانية صور لوثائق وصفحات قيل إنها رسائل تبادلها الذين أُعدموا فيما بينهم وبين القناصل وكشفت مخططاتهم. هذه الصور حاولنا قراءة

مضمونها إنما مستحيل قراءة الممحو. لذا فإن نحواً من ٥٢ صفحة من الصور حذفناها وتغاضينا عن إيرادها ضمن جزء (الإيضاحات) لعدم وضوحها أو استعمالها للمقارنة أو الأدلة) ويوضح لنا مجريات ومسالك العدالة العثمانية.

٣ - الجزء الثالث

«مذكرات عزيز بك»: عن عملية ضبط حركة الجمعيات ومحاولات التجسس على الناس. والانتقال من الأساليب الجاسوسية الحميدية إلى أساليب القائد أحمد جمال باشا. إلى أخبار المجاعة والاضطهاد والإرهاب والسجون. كتبه رئيس جهاز الأمن العقيد عزيز بك الذي كانت له آراء وتعليقات حول قادة حزب الاتحاد والترقي تنسجم وتلتقي مع آراء أصحاب المذكرات السابقة في كلٍ من جمال وأنور وطلعت. يكتشف القارئ طموحات هؤلاء القادة ونظرة كل واحد منهم إلى الآخر.

مذكرات تنضح بالافتراءات ضد العرب والعروبيين لتبرر تصرفات قائد الجيش الرابع. ولا ننسى أن عصابة الخمسة (شيخ مشيخة الإسلام وخليل رئيس مجلس النواب وطلعت باشا (وزير داخلية أحياناً أو رئيساً لمجلس النواب) وأنور باشا (وزير الحربية الدائم ووزير البحرية) وأحمد جمال باشا شاركوا في تقرير مصير الشعب الأرمني من مجازر ونفي وتشريد وتجويع وإبادة.

إلقاء الضوء على علاقة رجال الدين اللبنانيين المسيحيين بالحاكم أحمد جمال باشا التي نجد عنها تلميحات وشذرات هنا وهناك.

٤ - الجزء الرابع

«مذكرات أوهانس باشا» (١٨٥٢-١٩٣٣): مع انتهاء عام ١٩٢١، كانت مذكّرات أوهانس باشا قيومجيان قد دوّنت في روما، حيث عاش الدبلوماسي العثماني مع زوجته خلال الحرب العالمية الأولى. ولكن يبدو أنه لم يكن ينوي نشر مذكراته في تلك الأوقات، أراد تجنّب أي مشاكل حول موضوع لا يزال النقاش حوله محتدماً. وفي أيار من عام ١٩٣٦، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة الباشا، قرّرت زوجته بردجوهي إرسال المخطوطات إلى باريس، حيث صديق العائلة. ومنحت حقوق نشر مذكرات زوجها لمكتبة «نوبار». مع التحفّظ الآتي: «إنّ حماتي لا تزال على قيد الحياة، ولطالما أراد أوهانس ألا تُنشر مذكراته الاّ بعد وفاة والدته لكي لا يتسبّب لها بأي متاعب. فلننتظر إذاً بعض الوقت».

وفي رسالة يعود تاريخها إلى ٧ آب/أغسطس من عام ١٩٣٦ كتبت قيومجيان: «لم يعد الأتراك يعترضون على نشر المذكرات (...) سأفرح جداً برؤية أمنية زوجي تتحقق قبل موتي». وعلى الرغم من الرغبات لم تنشر مذكرات أوهانس باشا قيومجيان وبقيت غير معلنة حتى يومنا هذا.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مركز التاريخ الأرمني المعاصر يحتفظ بثلاث نسخ من المذكّرات: إحداها مكتوبة وموقّعة من أوهانس باشا والأخريان مطبوعتان. والنسخة الأولى التي طُبعت تمّ الاحتفاظ بها

لوضع الشكل الحالي لنصّ المذكرات، وفقاً لتعليمات كاتبها، وخصوصاً وفقاً للملصق الموضوع على الغلاف والذي يدلّ على أن هذه النسخة «قد تمّت مراجعتها وتصحيحها». غير أننا قد حرصنا على جمع المخطوطات المكتوبة والمطبوعة التي لا تختلف كثيراً عن بعضها البعض. أما النسخة الثانية فكانت تتضمّن مزيداً من المخطوطات لم تكن موجودة في النسخة الأولى، بالإضافة إلى أجزاء كان الكاتب قد حذفها رغم التفاصيل المفيدة التي تحتوي عليها أحياناً. كما أننا أبقينا على كيفية كتابة أسماء العلم.

تسلّط مذكّرات أوهانس باشا الضوء على هذه الفترة الحسّاسة من تاريخ لبنان وعلى المشاكل الشائكة التي واجهت الحاكم الأخير على جبل لبنان. وتشهد هذه المذّكرات على قدرة التكيّف مع الوضع المحلي بغية حلّ النزاعات الداخلية والإقليمية والدولية المتمركزة في المنطقة. أما نحن في بيروت في هيئة تحرير المجموعة التاريخية العثمانية - العربية، لأهمية هذا السفر، رأينا أن نُقدم على نشره بالعربية، فتمت المراسلة مع مؤسسة نوبار في باريس صاحبة حقوق النشر. لذا طلبنا إذناً من المؤسسة التي رحبت بالسؤال والطلب وأن يكون جزءاً من المجموعة التاريخية وسمحت لنا بترجمته ونشره.

٥ - الجزء الخامس

«مذكرات شاهد عربي»: كتاب مهم جداً لغزارة معلوماته، ومقارنة بالحقائق التي كشفها، الجزءان الأول والثاني، يشكل رداً على كل الافتراءات والادعاءات التي برزت من القادة والصحف الصادرة في تركيا. تُغني وتعوّض النقص في الدفاع عن أحرار العرب الذين أُعدموا (ولن يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم). قراءته ضرورية ومهمة.

مذكرات شاهد على التاريخ، هو أسعد مفلح داغر، فيه تفاصيل عما أغفله البعض وحاولوا طمسه ٠ وهو ممن شاركوا وعايشوا الحقبة وما أعقبها من تطورات سياسية وجغرافية-سياسية وتقسيمات إدارية وسياسية، بقي اسم الكاتب مجهولاً لفترة. الكتاب هذا يُعتبر وثيقة صادقة في الردّ على افتراءات حاول الأتراك الاتحاديين تسويقها وتعميمها ضد المتنورين العرب الأحرار، والحركة القومية الأرمنية.

في هذا الجزء نحاول إعادة الاعتبار إلى قادة الفكر الحر والمتنورين العرب الذين لاحقهم إرهاب «الجزار» أحمد جمال باشا.

٦ - الجزء السادس

«الثورة العربية لأسعد مفلح داغر» (١٨٨٦-١٩٥٨): هذا الكتاب نتاج خبرة وممارسة صاحبه أسعد مفلح داغر لبناني من تنورين قضاء البترون. من الرعيل الأول للمناضلين العرب، اتصل بكل ما من شأنه أن يفيد الثورة العربية، مع الأحزاب العربية السرية والعلنية، مع أتراك وعرب مناهضين للطورانية ومؤيدين للحرية والاستقلال، أنشأ صحفاً وشارك في الصحف العربية، شارك في كل محفل رأى أنه لخدمة

القضية القومية العربية. مخضرم امتد به العمر أن يرى قيام الجامعة العربية التي حلم بها العل فيها بداية تحرر، وخدم فيها.

٧ - الجزء السابع

«مذكرات عارف بك النعماني» (١٨٨٣-١٩٥٣): هي خلاصة لقاءات كان أجراها معه الأديب محمد قره علي والسيد النعماني على فراش المرض، ونشرتها جريدة الحياة اللبنانية حلقات دورية متواترة من عدد ٢٠٨٣ حتى عدد ٢١١٨ بين أشهر شباط/فبراير وآذار/مارس ونيسان/أبريل من سنة ١٩٥٣، حكى فيها بإيجاز شديد عن قناعاته السياسية ومواقفه من أهداف جمعية/حزب الاتحاد والترقي وميوله التحررية والقومية وما بذله وما قاساه لإنجاح مقاصدها التنويرية الإنسانية والثقافية، ودور الشريف حسين وأولاده الأمراء، والحرب العالمية الأولى وموقفه من خطط الاحتلال الفرنسي والصهيونية واليهود وفلسطين وتغير سياسات الدول الأوروبية تجاه قضايا العالم العربي ومستقبل لبنان واستقلاله، ورسم خريطة العالم العربي. وتبدل مواقف الأصدقاء السياسية وميولهم الثقافية والقومية. مذكرات لشخص ساهم لإنجاح الثورة العربية بكل ما يملك. مذكرات مختصرة جداً لرجل من الجيل الأول للقوميين العرب أعطى من دون حساب. تلقي بعض الأضواء على نقاط عدة لتؤكد معلومة ما أو لتنفيها وهذه هي أهميتها.. قد يوافق عليها أحد ما أو ينفيها.

٨ - الجزء الثامن

«دخول تركيا الحرب العالمية الأولى»، واختلاق الدوافع والمبررات، وما لم يفصّله أحمد جمال باشا تم تفصيله في هذا الجزء، ونتعرف على النفوذ الذي تحلى به كلٌّ من أنور وطلعت وخليل وجمال داخل تركيا. والصراع الداخلي بين أقطاب حزب الاتحاد والترقي على المواقع القيادية والتنفيذية (أحمد جمال في وجه أنور وطلعت) وأمام اتخاذ القرارات الصعبة (سعيد حليم في وجه أنور وطلعت)، وفيه نلمس مدى هيمنة النفوذ الألماني على قرار القيادة السياسية التركية (العسكرية والسياسية) لتنفيذ الأهداف الألمانية في بلاد الشام.

٩ - الجزء التاسع

«كيف غزونا مصر»: عن محاولة اجتياز قناة السويس والتدابير والترتيبات التي أنجزها العثمانيون (الأوهام كما لو أنها نزهة) من استانبول حتى الضفة الشرقية لقناة السويس مروراً بسوريا وفلسطين وسيناء، ودور الضباط الألمان في الحملة، ومدى جاهزية القوات العثمانية وكفاءتها لهذه المهمة، وما لم يفصح عنه أحمد جمال باشا عن طموحه وأحلامه في سوريا ومصر أفصحت عنه بقية الأجزاء، طبعاً من

دون قصد الرد عليه. فهي أتت مصادفة. فالهزيمة وتغطية الخسائر صار اسمها (استطلاع هجـومي) يكلف السلطنة العثمانية وولاياتها الآسيوية (سوريا - فلسطين - لبنان - الأردن - الحجاز - اليمن - العراق) هكذا بكل استخفاف بمصير السلطنة يقال. وأنه سيصبح خديوياً على بلاد الشام ومصر. من دون أي صعوبات. فالناس تنتظر الفرج والأمل والمستقبل على يد أحمد جمال باشا.

١٠ - الجزء العاشر

«جلاء الجيوش العثمانية»: عن جلاء هذه القوات ومعاركها في فلسطين ما لم يصرح به أحمد جمال باشا القائد الملهم الفذ المحبوب. حتى هذا الجزء لم يصرح عن كيفية جلائهم من بلاد الشام بوضوح وكيف ودعتهم الناس ولاحقتهم القوات العربية والفوضى التي عاشوها. وعن أهوال المجاعة والمحل الذي أصاب الزراعة في بلاد الشام وإن لم يضع الاصبع على الأسباب الحقيقية.

١١ - الجزء الحادي عشر

«مذكرات أنورباشا» ومشاركته في ليبيا ضد الهجوم الايطالي ومحاولته تنظيم عمليات الصد والدفاع وتنظيم القوات. من دون أن يشير إلى دور الضباط الأتراك والعرب الذين ساهموا بفاعلية مؤثرة. إذ لم يك أكثر جدية مثمرة من جهد أنور باشا. مثل عزيز علي المصري وجعفر العسكري وحتى مصطفى كمال.

١٢ - الجزء الثاني عشر

«مذكرات السفير الأميركي مورغنتو Morgenthau»: فيها كل ما رفضه ودحضه أحمد جمال باشا. صوّر الوضع العام في تركيا والولايات. فيها وقائع وحقائق تلتقي مع ما كتبه الأجانب والأحرار وإن تعددت وتنوعت الغايات واللغات.

١٣ - الجزء الثالث عشر

«الدروس المستخلصة»: رؤية نقدية مقارنة بين مدرستين عسكريتين (ألمانية/إنكليزية) وشخصيات عسكرية ألمانية (فون كريس/ فالكنهاين/ فرانكنبرغ/ ليمان فون ساندرس) وشخصيات إنكليزية (كتشنر/ موراي/ اللنبي/ تاونسند/ فوشل/ لورنس) وشخصيات تركية (علي فؤاد بك (باشا فيما بعد)/ أحمد جمال باشا المرسيني)

الكتاب خلاصة دراسات وآراء قادة عسكريين ومؤرخين عرب وأتراك وإنكليز وألمان. جرى تحريرها بعين ناقدة محايدة لوقائع وتفاصيل مجريات المعارك في فلسطين وسيناء بعد فشل (الحملة) أو (التجريدة) معركة قناة السويس ضد الإنكليز في القناة. مرورا بالعريش وخان البلح وبئر السبع ويافا وحيفا وطولكرم والخليل. وصولاً إلى القدس منذ شباط/فبراير ١٩١٤ ودخول القوات العربية الفيصلية إلى دمشق وخروج القوات العثمانية من بلاد العرب. ويوضح قضايا أغمضت العين عنها سياسية/عسكرية. مهنية/عنصرية. عصبوية قومية.

هذا الكتاب يكشف الكثير عما بقي غامضاً من قراءات الأجزاء السابقة حول معارك الجيش التركي أمام الجيش البريطاني. خصوصاً معارك قناة السويس وفلسطين ودخول دمشق وحلب. ومعارك العراق وليبيا.

١٤ - الجزء الرابع عشر

«مصير الدولة العثمانية»: كتاب أعمق وأشمل لماندلستام Mandelstam Andre السكرتير الأول في السفارة الروسية في استانبول. الدكتور في القانون.

في هذا الكتاب حقائق ومعلومات تغطي حقبة تسلط حزب الاتحاد والترقي في تركيا. وأحمد جمال باشا أيضاً رفض ككل اتحادي أن يعترف بصدقية جلّ ما جاء في الكتاب من استقراء لمستقبل السلطنة وتحليل لمشاكلها. الأحكام والاستنتاجات التي اطلقها هي قريبة مما كتبه مورغنتو في مذكراته.

القسم الأول

الفصل الأول

محافظ استانبول

تسلّم زمام الحكم (يناير/كانون الثاني ١٩١٣ - نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧)

حين عهد إليّ محمود شوكت بأعباء محافظ استانبول كانت جثة ناظم باشا لا تزال مسجّاة في غرفة ياور[1] الصدر الأعظم. بينما الصدر الأسبق كامل باشا وشيخ الإسلام جمال الدين ووزير الداخلية رشيد بك ووزير المال عبد الرحمن بك قد وُضعوا في إحدى غرف الصدارة بعيداً عن الاعتداء.

فبعد محادثة قصيرة مع طلعت بك الذي عهدت إليه وزارة الداخلية موقتاً، قررنا أن تنقل جثة ناظم باشا إلى المستشفى في جيلهان وأن يرسل كامل باشا وجمال الدين أفندي إلى منزلهما، وأن نستبقي رشيد بك وعبد الرحمن بك في دار المحافظ بضعة أيام لإنقاذهما من الغضب الذي امتلأت به صدور الثوار.

وفي هذه اللحظة كان صهر كامل باشا وصديقي من أيام التلمذة الليوتنانت كولونيل ناجي بك في دار الصدارة، فالتقيته قائلاً: «هوّن عليك، فليس ثمة مجال للقلق، إن حماك في أمان ويمكنك اصطحابه إلى المنزل، فإذا أراد ألاّ تمتد إليه يد الأذى من بعض المتحمسين من عامة الشعب فخير له أن يغيب عن استانبول مدة من الزمن ويذهب إلى أوروبا».



اقتحام جلسة مجلس الوزراء في الباب العالي



وزير الحربية ناظم باشا (١٨٤٨-١٩١٣)

كان رئيس أركان حرب الجيوش العثمانية إبان الحرب البلقانية الأولى ومن مؤيدي المذهب العسكري الفرنسي (المبادأة بالهجوم) الذي طوره المارشال فوش. الجنرال الألماني كولمار در غولتس مباشرة بعد تعيينه رئيساً للأركان غيّر المذهب العسكري الذي يفترض بالجيش العثماني اعتناقه والعمل بمندرجاته في التكتيك والاستراتيجيا. وبدأت عملية إعادة التنظيم والتأهيل للجيش العثماني وتحديثه ليتناسب مع متطلبات الحروب المقبلة المطلوب منه خوضها بمقتضيات المصالح للأمة الألمانية. اعتمد الجنرال غولتس مبدأ الدفاع في حالة حرب البلقان. إن في الوردار الجبهة الشرقية أو في تراقيا الجبهة الغربية.

في خطته العملانية لحرب البلقان الأولى لم يعر ناظم باشا اهتماماً لمبدأ غولتس في الدفاع الذي هو أقرب إلى الواقع. على الرغم من أن الجيش العثماني لا يُتوقع منه أن يعبّئ نصف مليون جندي واعتقاداً من ناظم باشا بتفعيل خطة هجومية تشمل عملياتها كلا الجبهتين. خصوصاً بعد هزيمة الجيش العثماني في الحرب الصربية-البلغارية. فخطته تقضي بالهجوم على الجيش الصربي المنتصر ثم بلغاريا. تقديرات واستطلاع الجيش العثماني الخاطئة عن موازين القوى بين جيوش البلقان (الصرب/المقدون/الألبان/البلغار) في البلقان جعلته يعطي قرارات خاطئة والنتائج كانت مكلفة جداً للأتراك بالأرواح والأرض. ما دفعت بخصومه إلى أن ينقلبوا على الحكومة ويبرروا تصرفهم بأخطاء ناظم باشا خصوصاً.

تولى ولاية بغداد من ١٩١٠/٥/٦ إلى ١٩١١/٣/١٦.

تولى وزارة الحربية في حكومة كامل باشا في ١٩١٢/٧/٢٢ حتى مقتله في ١٩١٣/١/٢٣.



Le Petit Journal

ADMINISTRATION

5 CENT. SUPPLÉMENT ILLUSTRÉ 5 CENT.

ABONNEMENTS

24me Année — Numéro 1.160

DIMANCHE 9 FÉVRIER 1913

UN COUP D'ÉTAT A CONSTANTINOPLE

Meurtre de Nazim Pacha

مصرع ناظم باشا في ١٩١٣/١/٢٣

فشكرني ناجي بك بحرارة، ووصل كامل باشا وجمال الدين أفندي كل إلى منزله سالمين. أما رشيد وعبد الرحمن فقد جيء بهما إلى المحافظة. كما نقلت جثة ناظم باشا إلى المستشفى في جيلهان. وقد ذهبت بنفسي إلى المحافظة حيث قضيت سواد الليل وأنا مشتغل باتخاذ كل الوسائل التي اقتضتها الحال لحفظ النظام.



الصدر الأعظم كامل محمد باشا (القبرصلي) (١٨٣٢-١٩١٣)

الصدر الاعظم الـ٢٧. تولى رئاسة الصدارة أربع مرات: مرتين في نهاية القرن التاسع عشر. الأولى من ١٨٨٥/٩/٢٥-١٨٩١/٩/٤. الثانية من ١٨٩٥/١٠/٢-١٨٩٥/١١/٧. ومرتين في بداية القرن العشرين. الثالثة من ١٩٠٨/٨/٥ -١٩٠٩/٢/١٤ في ظل المشروطية الثانية للدستور. الرابعة من ١٩١٢/١٠/٢٩-١٩١٣/١/٢٣ في ظل مشروطية الدستور وحكم السلطان محمد رشاد الخامس. أسقطت آخر وزارة له بعد شهرين و٢٥ يوماً على تأليفها في حادث اقتحام الباب العالي. وبعد أشهر عدة توفي عن ٨١ سنة. مجموع صداراته الأربعة ٦ سنوات و٣ أشهر و٢٠ يوماً. كان من أهم رجال السياسة المعدودين وأقدرهم حنكة. وُلد في ليفكوشا في قبرص سنة ١٨٣٢. أبوه القبطان صالح آغا. درس في القاهرة. زار بريطانيا سنة ١٨٥١ بمعية ابن (خديوي) والي مصر لحضور معرض لندن الذي ترك في نفسه انطباعاً بقي معه حتى مماته. في رؤيته السياسية لنظام الحكم وإدارة السلطنة العثمانية. والميل نحو الإنكليز أيضاً. بعد انقضاء عشر سنوات على وجوده في مصر في خدمة عباس الأول. عاد إلى استانبول مكتسباً خبرة, متقناً لغات أجنبية. ليتقلب في مناصب إدارية ومواقع مختلفة. عيّن والياً على الروملي الشرقية ثم ولاية الهرتسك ثم كوسوفو (قوصوه) وقبرص. وعندما ظهرت الاتحاد والترقي بشعاراتها عن الحريات والقيم الإنسانية. أيّد المبادئ وترقب تحقيقها كغيره من العثمانيين الليبراليين الراغبين في أن تعم الديمقراطية السلطنة. ليرى هؤلاء الشبان المتهورون ومعهم الألمان إلى أي مصير سيأخذون السلطنة. عارض إدارة حزب الاتحاد والترقي في تفرّدهم بالسلطة والتعسف في الكثير من قراراتهم وعدم إخلاصهم لشعاراتهم. ترأس الائتلافيين المعارضين من عرب وأرمن وأروام وألبان وتحالف مع حزب الأحرار ليؤلفوا جبهة معارضة موحدة قوية في وجه الاتحاديين ويتغلبوا عليهم في الانتخابات النيابية. إنما المؤامرات توالت عليه من الاتحاديين فلفقوا له التهم, ولعبت صحافة الاتحاد والترقي (طنين) بشخص رئيس تحريرها النائب حسين جاهد دوراً كبيراً في تأليب الرأي العام عليه. وهددوا بعض النواب بالقتل إن هم منحوه ثقتهم, وليتخلصوا منه, ففي ٢٣ كانون الأول سنة ١٩١٣ اقتحمت مجموعة ضباط مقر الصدر الأعظم بقيادة طلعت وأنور وأحمد جمال وغيرهم من الضباط الاتحاديين إبان اجتماع كامل باشا مع أعضاء الحكومة للتدارس موقف تركيا من شروط بلغاريا في حربها مع تركيا (الحرب البلقانية). وقام الضابط يعقوب جميل أحد ضباط أنور بإطلاق النار على وزير الحربية ناظم باشا وأصاب فيه مقتلاً, واعتقل الصدر الأعظم وأعضاء حكومته, بعضهم وُضع في الإقامة الجبرية وقسم آخر نُفي. في أيار ١٩١٣ عاد محمد كامل باشا القبرصلي إلى مسقط رأسه بعد غياب طال ٤٩ عاماً ليتوفى فيها.

ولئلا أثقل قصتي بالتفاصيل التافهة لا أراني في حاجة إلى وصف تلك الوسائل وصفاً تاماً. ثم طلبت إلى أطباء المستشفى أن يوافوني بتقرير عن حالة ناظم باشا. كما أمرت بإعداد تقرير مفصل عن حادث مقتله.

تشييع ناظم باشا:

وفي اليوم الثاني وُوريَ ناظم باشا في الثرى تنفيذاً للتعليمات التي أصدرتها. واهتممت بأن تكون الجنازة في منتهى التعظيم والإكبار. فلذا أصررتُ على أن يشترك في تشييعها كبار الضباط والوزراء والموظفون الرسميون المدنيون. وكذلك الملحقون العسكريون الأجانب.

وكان الجو رديئاً ذلك اليوم. وكنت في أشد حالات الانقباض والكآبة. فالبلغار كانوا مرابطين أمام خطوطنا في شطالجة. والأسطول اليوناني كان محاصراً الدردنيل. فيما كانت السفن الحربية للدول العظمى راسية أمام بكشطاش متأهبة لاحتلال استانبول في أي لحظة. أما نحن الذين لم نستطع. لسوء الحظ. أن ننزع بالقانون مقاليد الحكم من تلك الأيدي الضعيفة. فقد رأينا أنفسنا مرغمين إرغاماً على القيام بانقلاب حكومي أطيحت فيه. ويا للأسف. روح وزير الحربية الأسبق وقائد جيشنا العام. وبالرغم من كل مجهوداتنا وتضحياتنا العظيمة كان مستقبل وطننا لا يزال محفوفاً بأشد الأخطار. ذلك هو ما جال في خاطري حين شيعت جثمان ناظم باشا إلى مثواه الأخير.

وفيما نحن نخترق ميدان جامع آيا صوفيا التفتُّ عفواً إلى الملحق العسكري الفرنسي الميجور موكور. وكان سائراً بجانبي. وقلت له: «انظر يا صاح! إن الأوروبيين هم وحدهم المسؤولون عن هذه الضحية. فإن سلسلة أعمال الجور والإجحاف التي قمتم بها حرضت الشعب التركي على دخول المعمعة ودفعته إلى القتال ليعيش عيشةً حرة وينجو من العبودية والذل. وليت شعري هل ندري كم جنازة أخرى سنشيّعها؟ ولا غرابة أن تسير في الغد خلف نعشي».

وقد تظاهر بعدم فهم ما أقصد. وسألني أن أزيد المراد إيضاحاً. فلم أشأ أن أعرج على الدسائس الفرنسية مجاملة. وأفضتُ في شرح الدسائس الإنكليزية والإيطالية وخصوصاً الروسية. وأثار هذا روح الثورة في جميع أطراف البلاد.

فشرحت له كيف دفعت هذه الدسائس بلاد البلقان إلى عقد تحالف. وأضفت إلى ذلك قولي: والآن حيث لا يزال ممكناً أن تنقذنا أي مساعدة أياً كانت ولو طفيفة. سواء من إنكلترا أو من فرنسا. فهما لم تكتفيا بأن تضنّا فقط بها بل نراهما لا تحجمان عن التشهير بنا على ألسنة رؤساء حكومتيهما. وهذا دفع أولئك الأتراك المساكين بعد توالي هذه المحن والضربات إلى قتل بعضهم بعضاً.

وكان الملحق العسكري الإنكليزي تيريل يتتبع مناقشتنا باهتمام زائد ولو أنه لم يشترك فيها. فأجاب موكور: «إنك لعلى صواب». وكان جوابه بلهجة لم يخامرني شك في صدقه. ثم عدنا إلى سكوتنا وتبعنا ناظم باشا إلى مثواه الأخير.



آيا صوفيا أو (الحكمة المقدسة)

هي بناء كنيسة في الأصل. استغرق بناؤها ثماني سنوات. لها قبة عظيمة كبيرة. بُنيت في عهد جوستنيان (٥٣٢-٥٣٧). بعد الفتح العثماني للقسطنطينية عام ١٤٥٣ تم تحويلها إلى مسجد. أجريت عليها تجديدات وأضيفت إليها ثماني قباب (قبتين وسط وست قباب صغيرة مدعّمة بأعمدة وركائز بإشراف المهندس سنان باشا). وبعد عام ١٩٢٣حُوّل المسجد إلى متحف بأمر من مصطفى كمال أتاتورك.

العفو العام عن المعارضين:

عشية الانقلاب الحكومي احتاط رئيس الشرطة للأمر، فقبض على أشهر أعضاء المعارضة وجاء بهم إلى دارة الشرطة، وطبعاً كان ينبغي أن يصدر بحقهم قرار معجل، وخصوصاً أن رشيداً وعبد الرحمن كانا لا يزالان محجوزين في دار الحاكم العسكري.

فبعد بحث المسألة مع عدد من الأصدقاء، وخصوصاً مع طلعت، قررنا ألا نتخذ في حقهم إجراءات رادعة، وكذلك قررنا أن نسعى للوصول إلى تفاهم معهم، وقد أيد محمود شوكت باشا ذلك القرار تأييداً كلياً.

وعلى ذلك أرسلت في طلب عبد الرحمن بك الذي شاء محادثتي، فأكدت له ولإخوانه أن لا خطر عليهم وأن اعتقالهم موقت لحمايتهم من أن يعتدي أحد على أرواحهم ليس إلا وأنهم سيعودون إلى منازلهم بعد يوم أو يومين، وزدت على ما تقدم نصحي لهم بمغادرة استانبول والإقامة في الخارج حتى إشعار آخر، وسمحت لهم بإحضار الفراش والطعام من منازلهم. وبعد يومين أصدرت تعليمات بنقلهم إلى منازلهم بحراسة ثلة من رجال الشرطة، وبعد يوم غادروا استانبول كما غادرها كامل باشا وجمال الدين أفندي.

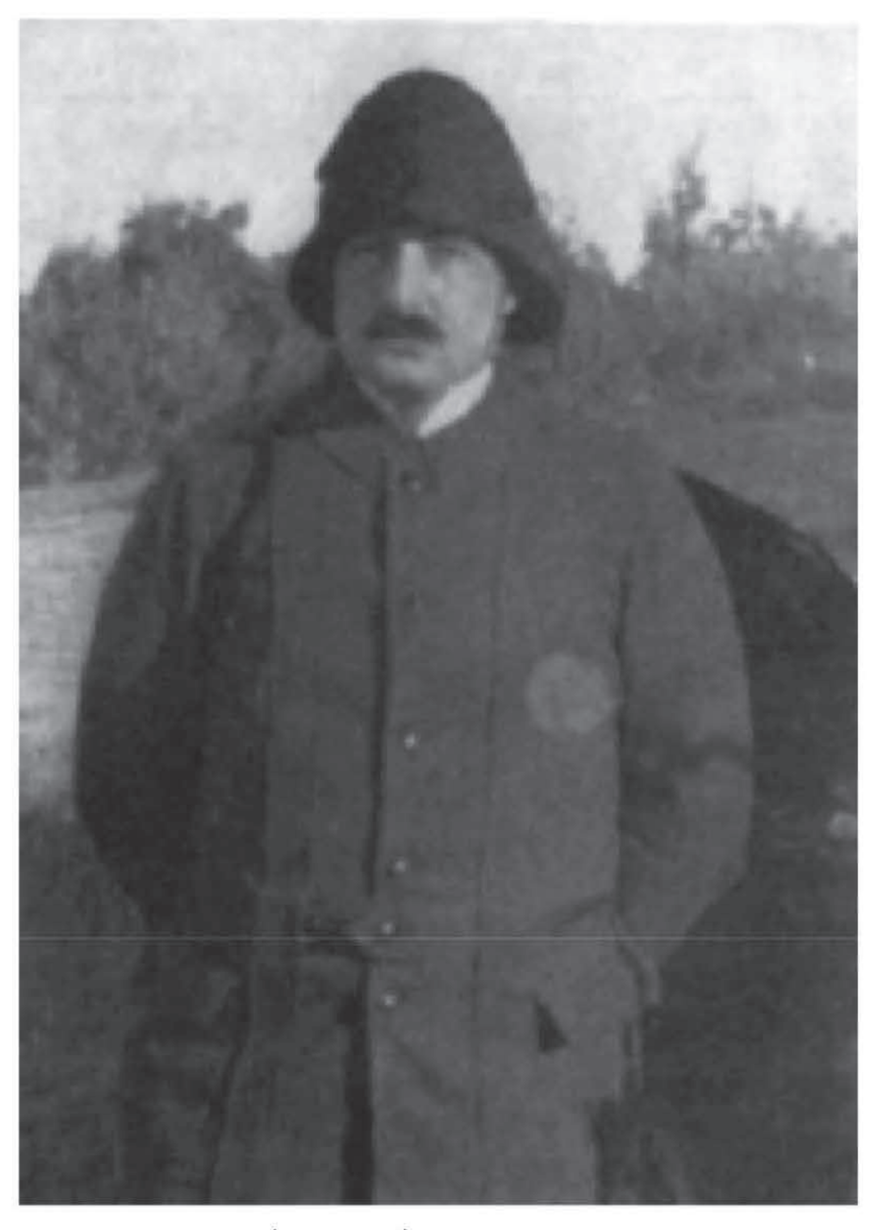
وفي اليوم التالي لتقلّدي منصب المحافظ ذهبت إلى الدار التي كانت الحامية ترابط فيها، وزرت علي كمال بك ورضا نور وإسماعيل كمال بك نواب سينوب[٢]، وكانوا معتقلين هناك، فأكدت لهم كل التأكيد أن لا خطر عليهم إذا أقلعوا عن فكرة المعارضة في غير أوانها، وقلت لهم إن الوطن في هذه الظروف الحرجة ينتظر مساعدة كل العقلاء ذوي النيات الحسنة، وإنهم إذا وثقوا بحسن نيتي فسيجدون بما أستطيعه ميداناً شريفاً للعمل.

فطلب علي كمال بك تعيينه في أحد المناصب في أوروبا، وسألني الدكتور رضا نور أن أمده بالمال اللازم لإتمام دراسته الطبية في باريس، أما إسماعيل بك فأقسم بشرفه أنه لو سمح له بالإقامة في البلاد لأحجم عن معارضة الحكومة إلى أن تعود الأحوال العادية.

ثم أرسلت الدكتور رضا نور إلى باريس بعد الموافقة اللازمة على النفقات التي طلبها، أما كمال فأرسلته إلى فيينا بعدما دفعت له تعويضاً مالياً عن نقله، وقد وصلتني منه بضع مراسلات.

ولم تمر خمسة أيام على هذه المفاوضات مع زعماء المعارضين حتى صفا الجو السياسي، وأمكن وزارة محمود شوكت أن تستقر وتوجه اهتمامها إلى المجهود الهائل الذي كان ينتظرها.

وكوني محافظاً لاستانبول أصبح حتماً عليّ شغل منصب القائد المشرف على أعمال قاعدة الجيش المرابط في شطالجة، ولكي أقوم بأعباء هذين المنصبين جعلت همي الأول حفظ النظام في المدينة ومنع تكرار الانقلاب الحكومي على وزارة محمود شوكت باشا مهما كلفني ذلك من جهد.



محمد طلعت بك (١٨٧٤-١٩٢١)

عضو لجنة ثلاثية قادت الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى مع أنور وجمال. القادة العلنيين للجنة الاتحاد والترقي. من الذين أعلنوا على الملأ عزمهم على إبادة الأرمن في عهد الإمبراطورية العثمانية. اعتزم الجريمة المنظمة. وأشرف على جميع مراحل تنفيذها.

ولد في أدرنة. تعلم في مدرسة بلدته العسكرية ولم يتابع العمل في الحقل العسكري بحجة أنه لا يستطيع العمل بإمرة ضابط. عمل في البريد ثم في ادارتها. درّس اللغة العثمانية في مدرسة يهودية. وفي الوقت نفسه تعلّم الفرنسية من ابنة مسؤول المدرسة.

سنة ١٨٩٥ أُوقف محمد طلعت بحجة قيامه بأعمال مخلة بالنظام العام وسجن سنتين وشهر أطلق بعفو شاهنشاهي. تابع العمل في البريد كساعي متجول بين مدينتي سيلانيك ومو ناستير. لاحقاً أصبح مسؤولاً عن إدارة بريد سيلانيك.

حاول متابعة دراسة الحقوق إنما لسنتين فقط. سنة ١٩٠٦ محمد طلعت أسس مع بعض أصدقائه جمعية الحرية العثمانية التي اندمجت في ما بعد مع جمعية الإتحاد والترقي وفي الوقت نفسه أعلن عضواً في جمعية «البنائين الأحرار» الماسونية. وبسبب نشاطاته كان مُراقبَاً من قبل المخابرات في استانبول التي أمرت بنقله للعمل في الأناضول. طلعت سرعان ما التمس طالباً السماح له بالعودة للعمل في سيلانيك شاكراً لتدخل الصدر الأعظم حسين حلمي باشا. واشتغل مسؤولاً عن مدرسة.

سنة ١٩٠٨ وقبل إعلان المشروطية الثانية الدستورية، ذهب الى استانبول وافتتح فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي.
في اول انتخابات برلمانية ترشح عن ادرنة وصار عضوا في مجلس النواب. في ٢٣ كانون ثاني ١٩٠٨ تسلق المراتب القيادية بسرعة واختيرَ رئيساً للبرلمان. وكان رئيس كتلة جمعية الاتحاد والترقي فيه التي بسرعة انتشر نفوذها في العاصمة وكل السلطنة.
بعد إطاحة السلطان عُيّن حسين حلمي باشا للصدارة واستقال وعيّن كجك محمد سعيد باشا ليشغلها. عين طلعت وزيراً للبريد والبرقيات واشتعلت الحرب البلقانية الثانية التي سرّعت بوصول جمعية الاتحاد والترقي للتربع على السلطة. عين وزيراً للداخلية بين سنوات ١٩٠٩-١٩١١ ثم وزير البريد والبرق ١٩١٢ ثم من جديد وزيراً للداخلية بين ١٩١٣ حتى ١٩١٧.
طلعت وأنور سوية كانا من ضمن الأدوات المنفذة للجمعية في اقتحام الباب العالي في ١٣ كانون أول ١٩١٣ في هذا الاقتحام اغتيل ناظم باشا وزير الحربية واعتقل كامل باشا الصدر الأعظم وجرت اعتقالات لمئات من الشخصيات المعارضة للاتحاديين ونفيهم واضطهادهم. ونصّبوا محمود شوكت باشا للصدارة العظمى. وما هي الا بضعة أشهر تخلصوا منه في ١٥ حزيران ١٩١٣ وشكلت حكومة جديدة برئاسة الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم باشا وكل وزراءها من أعضاء الجمعية. طلعت أخذ وزارة الداخلية.
والحرب البلقانية لم تنته فصولها بعد فكانت له مشاركة في تحرير ادرنة. ودوراً في مفاوضات الصلح التركية/البلغارية التي جرت في استانبول.
طلعت باشا مع أنور باشا وزيراً للحربية وأحمد جمال باشا وزيراً للبحرية الفوا ثالوثاً اتحادياً حديدياً. الذين كان لهم دوراً رئيساً في أخذ الدولة الى الحرب (إنهاء الامبراطورية) ولم تخلُ العلاقة بينهما من مشاكل ورؤية مختلفة للحكم والإدارة. اذا كان طلعت باشا قد استطاع ان يسيطر على الجانب المدني في جمعية الاتحاد والترقي. فان انور واحمد جمال في الجانب العسكري لم يجلبوا للجمعية إلا الكراهية حتى في الجيش أو في ادارة الحرب ونتائجها. طلعت أخذ على عاتقه مسؤولية حل قضية الشعب الأرمني. بنقلهم من مدنهم وقراهم في الاناضول الشرقي الى الموصل في شمال العراق عبر مدينة حلب والقامشلي. ويعتبر المسؤول الرئيسي عن الابادة الجماعية للارمن بين اعوام ١٩١٥-١٩١٧ فكانت مذبحة للشعب الأرمني ١,٦٠٠,٠٠٠ عدا مئات الالوف التي انتشرت في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق وإيران والبلاد الاوروبية واميركا وروسيا. بعدها استقال الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم باشا في شباط ١٩١٧ من مسؤولية الصدارة فكان طلعت باشا لهذا الموقع بالانتظار. وكانت لطلعت مشاركة في التوقيع على معاهدة بريست ليتوفسك في آذر ١٩١٨ رئيساً للوفد التركي في المفاوضات الى الجانب الالماني بوجه الروس.
وقبل هدنة مودروس التي وقعت في ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٨ قام السلطان محمد وحيد الدين الذي لم يك يحب الجمعية والاتحاديين بإقالة طلعت من الصدارة في ١٠/٨.
الجمعية عقدت آخر مؤتمر لها في ١/١١/١٩١٨ في ليلة المؤتمر نفسها طلعت مع ٦ قادة باشاوات الجمعية قرروا الهرب من تركيا على ظهر مركب أوصلهم الى غواصة ألمانية ثم الى برلين. لم ينقطع الاتصال بينه وبين انور وأحمد جمال. سنة ١٩١٩ حضر مؤتمر الاشتراكية الدولية في هولندا متنكراً باسم سعيد بك. أيضاً بقي على اتصال مع مصطفى كمال باشا الذي قام بتنظيم المقاومة في الاناضول ومركزه انقرة.
تابع العمل السياسي حول الرابطة الاسلامية والرابطة التركية. أقام اتصالات مع البريطانيين. أبرز نفسه في برلين انه ممثلاً لإتحاد الجمعيات الثورية الاسلامية. كان ذهنه مشغولاً نحو ثلاثة اتجاهات:
- الأول أهدافه ودوره في برلين.
- الثاني باخبار أنور ونتائج تنقلاته بين موسكو والقوقاز.
- الثالث باخبار مقاومة مصطفى كمال في أنقرة/تركيا.
كان لديه مشروع اسلامي كما ادعى الا ان هذا لم يرَ النور لأنه قتل في ١٥ آذار/مارس سنة ١٩٢١ إذ تم اغتياله في برلين على يد سوغومون تيهليريان مقابل بيته في شارع شارلوت برغ في برلين. أصيب في رأسه من الخلف ومات فوراً. وفيما القاتل يحاول الفرار أمسك به أحد المارة وبتحقيق الشرطة معه أجاب أنه قام بهذا العمل انتقاماً لشعبه الأرمني وثأراً لأهله. ابان المحاكمة الألمانية السريعة التي لَمْ تَسْمعُ الشهودَ برّأتْ تيهليريان اما في استانبول حوكم طلعت غيابيا من قبل المحكمة العسكرية بالاعدام. طلعت باشا كان أول مسؤول تركي يدفن في برلين/المانيا.
في ٢٥ شباط/فبراير ١٩٤٣ تم نقل رفاته الى استانبول.
طلعت باشا دفن باعتباره بطلاً قومياً في الكابيتول هيل في شيشلي في استانبول مع آخرين مثله. واليوم يوجد في أنقرة شارع يحمل اسمه.



علي كمال بك (١٨٦٧-١٩٢٣)

صحافي سياسي ليبرالي تركي، نُفي إلى حلب في عهد السلطان عبد الحميد ثم هرب إلى أوروبا طلباً للحرية وتجنباً لاضطهاد «السر خفية» واعتقالها له.. بعد إعلان المشروطية الثانية عاد إلى العاصمة استانبول (١٩٠٨) كغيره من آلاف العثمانيين اللاجئين إلى الخارج. استشرف أملاً بالنظام الجديد. إنما ممارسات الاتحاديين السياسية والإدارية وهم في السلطة، خيبت آماله كما خيبت آمال مئات الألوف مثله، فأصدر جريدة «بيام» مؤيداً حزب الائتلاف المعارض للاتحاديين، فاضحاً بقلمه الواقعي واتجاهه المباشر في كشف الحقائق السياسية (تزوير انتخابات، اغتيالات واعتقالات أو اختفاء خصوم سياسيين) والفساد الإداري-الاقتصادي-المالي. إلى جانب أنه كان عضو مجلس المبعوثان أيضاً ما حدا بالاتحاديين إلى أن ينفوه خارج البلاد (١٩١٣). حتى عام هزيمة ألمانيا وحلفائها ١٩١٨ وسقوط حكم جمعية الاتحاد والترقي في تركيا. عاد علي كمال بك إلى الوطن وعاود الكتابة في صحيفته لصالح الائتلافيين، ولدى تأليف الداماد فريد باشا الحكومة عيّن علي كمال بك وزيراً للمعارف ثم وزيراً للداخلية الذي من صلاحيات وزارته ملاحقة قياديي الاتحاديين أمثال (طلعت باشا وأنور باشا وبهاء الدين شاكر والدكتور ناظم وجمال عزمي) والقبض عليهم وتقديمهم كمجرمي حرب إلى المحكمة لينالوا جزاء ما اقترفوا من جرائم بحق الإنسانية (مجازر ضد الأرمن/إعدامات أحرار العرب/اغتيالات واعتقالات بحق متنوري الأتراك) الذين جرت حمايتهم والتغطية عليهم ثم تهريبهم إلى خارج تركيا. اعترض علي كمال على سياسة مصطفى كمال «أتاتورك» في التغطية على مفتعلي المجازر ضد الأرمن وعارض سلطته في الصحافة وفي لقاءات عامة. اتهمه الكماليون بالخيانة، ففي ١٩٢٢/١١/٤ قامت مجموعة بخطفه من دكان الحلاق ونُقل بواسطة زورق بخاري سريع إلى القسم الآسيوي من العاصمة وهناك جرى تعذيبه وتشويهه بإشراف ومعرفة مصطفى كمال والجنرال نور الدين في مؤامرة زعموا أنه مشارك فيها ضد الزعيم مصطفى كمال فاغتالوه.



الدكتور رضا نور (١٨٧٩-١٩٤٢)

ولد في سينوب في ٨/٣٠ وتوفي في استانبول في ٩/٨. سياسي تركي وكاتب. بعد تخرّجه من المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٩٠١ عمل جراحاً المستشفى العسكري في جيلهان، ثم رجع سنة ١٩٠٧ إلى المدرسة الطبية العسكرية للتعليم فيها. تعاطى الشأن السياسي بعد إعلان المشروطية الثانية، ولدى تبيان الموقف العام له، من انفراد الاتحاد والترقي بالسلطة في حكم تركيا والقمع الممارس ضد كل من هو غير اتحادي، سُجن بسبب إعلان مواقفه وانضمامه إلى المعارضة (الائتلافيين-الأحرار). وعلى الرغم من السجن والنفي بقي على مواقفه السياسية حتى خارج البلاد. رجع إلى تركيا سنة ١٩١٩ مع سقوط الاتحاديين وانتُخب ليرأس الهيئة الوطنية العليا التشريعية وهو مؤسس فيها. مع قيام الحكومة سنة ١٩٢٠ عيّن وزيراً للتربية الوطنية، ثم عام ١٩٢١ وزيراً للصحة ثم للشؤون الخارجية. ساهم بفعالية في توقيع «معاهدة موسكو» سنة ١٩١٢ وفي «مؤتمر لوزان». أثناء المؤتمر فجّر رضا نور مسألة «يونانيي البنط» مع رئيس وزراء اليونان أليفثيريوس فنزيلوس. غادر تركيا سنة ١٩٢٦ إلى باريس بعد محاولة اغتيال مصطفى كمال ولم يرجع إلا بعد وفاته في ١١/١٠. فأصدر سنة ١٩٣٨ جريدة (تانريداجي) Tanridagi التي كانت تدعم التوجه الطوراني. توفي عن ٦٣ عاماً في استانبول.



اسماعيل كمال بك (١٨٤٤/١/١٦ - ١٩١٩/١/٢٤)

زعيم الحركة الوطنية الالبانية، مؤسس لدولة البانيا الحديثة وأول رئيس لحكومتها. ينتمي إلى عائلة نبلاء.
ولد في فلورا. أنهى تعليمه الابتدائي في بلدته. سنة ١٨٥٩ أرسل إلى عاصمة السلطنة ليتابع تعليمه العالي. من ثم عمل في الخدمة العامة كموظف حكومي في فترة الصدر الاعظم مدحت باشا الاصلاحي المتحرر. تولى قائممقامية وحاكم لولايات عدة في البلقان. إبان عمله صرف جهوداً عظيمة محاولاً إيجاد ما يوحد الأبجدية الالبانية في نسق فرد وتأسيس هيئة ثقافية البانية. في سنة ١٨٧٧ عندما بدا لاسماعيل انه صار قريباً من المناصب العالية في إدارة الدولة العثمانية. يبادر السلطان العثماني إلى عزل الصدر الاعظم مدحت باشا عن الصدارة. لم يك مطمئناً له. لما يشكل هذا الرجل خطورة على موقع السلطان. وان مصيره لن يكون أفضل من السلطانين مراد وعبدالعزيز بسبب اقتراب الإصلاحات من جوهر حكم السلطان وصلاحياته ودوره وموقعه. أيضاً اسماعيل نال نصيبه فنفي الى غرب الاناضول. بعد فترة استُدعي اسماعيل الى «الما بين» ليتسلم قرار تعيينه والياً على بيروت. تعليماته الادارية في تسهيل إنجاز مصالح المواطنين وتحرره من قيودها ألّبت عليه منافسيه ليوغروا صدر السلطان عليه فيأمر بعزله مرة أخرى. في ايار سنة ١٩٠٠ ينفى ويبقى في الخارج ثماني سنوات يعود بعد إسقاط السلطان عن العرش. في المنفى قضى اوقاته يعمل على انشاء دستور الدولة العثمانية وتحرر البانيا. مثل بقية الناس والأمم ظن ان الحرية والقانون والمساواة والاخوة بين الشعوب ستقوم دولتها بنجاح جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ ووصولهم الى السلطة. شارك في الحياة البرلمانية مع رفاق آخرين ممثلين لألبانيا في المجلس. شعارات الجمعية بقيت مجرد شعارات. انطلق اسماعيل بك مع شخصيات تركية وعثمانية بعدما أيقنوا أنهم لن يحصلوا على ما توقعوه الى تأسيس حزب معارض (الائتلافيين الأحرار) التقت فيه شخصيات عربية وتركية وأرمنية ومقدونية كلهم عثمانيين بوجه جمعية الاتحاد والترقي وانتخب رئيساً للبرلمان العثماني. ولكن بعد المشادة والصفعة التي تلقاها من نائب اتحادي أرغن استقال من عضوية المجلس. تولى قيادة الحركة الوطنية الألبانية مشكلاً حكومة استقلالية في ١٩١٢/١١/٢٨ أنهت ٥٠٠ سنة حكم عثماني. رفع العلم الألباني مع عيسى بولتيني ولويجي غوراكوكي في فلورا حيث أعلن استقلال البانيا أمام الجماهير الألبانية المسيحية/المسلمة. وكان أول رئيس لحكومة ألبانيا من ١٩١٢ حتى ١٩١٤. قضى اسماعيل كمال ايام الحرب العالمية الاولى في منفاه باريس في حالة مادية صعبة مع علاقة واسعة بالصحافة DAILY MAIL ومتعاوناً مع مراسل جريدة الـSomerville story كتب سيرته الذاتية التي نشرت بعد وفاته وهي آخر مذكرات كتبها سياسي عثماني. وهي تسجيل فريد لشخص متعدد الثقافات امام إمبراطورية في طريق الزوال. سنة ١٩١٨ سافر إلى إيطاليا للترويج لحركته الوطنية في البانيا. في ايطاليا منع من مغادرتها وجرى حجزه في فندق كضيف. ذات مساء أصيب بنوبة قلب مميتة.

من أجل الذكرى، تكريماً لجهوده من أجل استقلال ألبانيا، واعترافاً بدوره، جرى طبع صورته على ورق النقد الألباني.



الصدر الأعظم كامل محمد باشا مع الملكة البريطانية ماري والملك جورج ووزير الحرب كتشنر

إجراءات محلية:

ويجب ألاّ أغفل هنا ذكر أمرين احتياطيين، رأيت ضرورياً اتخاذهما. الأول: كان في استانبول رهط من المهربين يبيعون التبغ المهرب (في علب حكومية) في شوارع المدينة في جهات حمام السلطان وسركهجي وتل محمود باشا وميدان بايزيد. فلحظت علناً إفلاس سلطة الحكومة في صيحة هؤلاء المهربين وندائهم «أبو قرشين بقرش». أضف إلى ذلك أن هؤلاء الناس تجرأوا على عرض بضاعتهم في علب يستطيع الإنسان أن يرى محتواها، ولو على نحو غير واضح، خيوط التبغ الأصفر. فلكي أظهر للسكان المحليين بأس الحكومة لجأت إلى السلطة التي خولتها الأحكام العرفية للحاكم المحافظ، وأصدرت منشوراً هددت فيه كل من يتعاطى تجارة محظورة بالقبض عليه ونفيه من استانبول. وفي الأسبوع التالي أبعدت خمسة على الأكثر من المخالفين. وأصدرت المحكمة العسكرية حكمها على بعض المهربين الذين ضبطوا متلبسين بجريمتهم في كشك لا يبعد كثيراً عن السرايا. وكانت النتيجة أن أصبح النصب والاحتيال اللذان كانا من الأمور العادية من الشواذ. ثم أمكن لسكان استانبول والضواحي أن يتمتعوا بالطمأنينة التامة.



سركهجي محطة للنقل البحري

الأمر الآخر، كان في استانبول عدد من الناس تمكنت من نفوسهم تلك العادة الخبيثة، عادة إلقاء نظرات غرامية على السيدات المسلمات كلما مررن بهن في المنارة أو في الفلك أو على القناطر أو في الطرق أو في الأسواق، وكان من بينهن بعض النسوة الطاعنات في السن اللائي لم يحجمن عن التلفظ بعبارات غير لائقة بل أمسكن بتلابيب السيدات المتأنقات ذوات المظهر الحسن.

وكنت أبغض كل البغض مضايقة السيدات، كما أنني لم أستطع فهم السر في إغفال اتخاذ الوسائل الشديدة لوقفه من قبل، والحقيقة أن انتشار هذه الرذيلة واختفاءها كانا متناسبين على الدوام مع ضعف الحكومة وقوتها، فلما أصبحت محافظاً طلب إليّ عدد من الآباء الذين لهم الحق في الشكوى أن أتخذ الخطوات اللازمة لتغيير هذه الحال.

ولما كان قانوننا الجنائي لا يكفي لمكافحة هذا الداء، رأيت نفسي مضطراً مرة أخرى للالتجاء إلى السلطة المخولة من الأحكام العرفية للمحافظ، فأصدرت منشوراً هددت فيه الرجال الذين يستعملون ألفاظاً مهينة أو يضايقون السيدات بالنفي إلى داخل البلاد، وبعد التمثيل بأربعة أو خمسة منهم أصبحت نساؤنا حرائر في عبور الطرق من دون أن يخشين أي اعتداء، وكانت هذه أول خطوة معينة أُخذت في سبيل وضع تحرير المرأة التركية على أساس ثابت.



ميدان بايزيد وخلف القوس وزارة الحربية
يقع في وسط مدينة استانبول. وهو ميدان رئيسي حالياً تنتشر فيه المكتبات ودكاكين التحف والفنادق والمؤسسات التجارية

وقد برهنت في خلال تقلّدي منصب المحافظ على أنني من أشد أنصار تحرير المرأة. أو بالأحرى أنني شديد الاعتقاد بأهمية الدور الذي يُطلب من المرأة أن تؤديه في الحياة الاجتماعية فحسب بل في الشؤون العامة. والحقيقة أن تأييدي لذلك التحرير استهدفني لنمائم عديدة مشى بها أشخاص معينون فيما بعد. ومع ذلك فإن الحركة النسوية التي بدأت في عهدي لم تعش فقط بمرور الزمن. بل انتشرت وتطورت باستمرار وأدت أكبر خدمة للوطن في خلال الحرب. وإنني مقتنع تماماً بأن خير الوسائل وأسرعها لنشر عوامل التمدن في أي بلد من البلاد لا يتأتى إلا عن تحرير المرأة. وإن الشعوب التي تبقي نساءها في حالة العبودية والاسترقاق إنما تخطو خطوات واسعة في سبيل الانحلال الذي لا مفرَّ منه.

كشف محاولة قلب الحكومة:

وبعد تعييني محافظاً لاستانبول دعوت محرري الصحف الهامة التي تصدر في العاصمة إلى مقابلتي، وأخبرتهم أن صحفهم ستوضع تحت الرقابة المخففة. هذا إذا تعهدوا ألاّ ينشروا مقالات تخل بالنظام العام. وطلبت إليهم أن يكتبوا مقالات عامة باعثة على المساعدة وأن ينيروا الطريق للرأي العام ويستثيروا القوات الجديدة التي يحتاج الوطن إليها للخلاص من الأخطار المحدقة به.

ولقد سمحت حتى بظهور إحدى الصحف المعارضة لهجةً منذ الوزارة السابقة. وقد تجاوزت صحف المعارضة أحياناً التعليمات الصادرة إليها. ولكن قصرت نفسي على لفت انتباه محرريها أو مديريها المسؤولين.

وقد عملت الحكومة بهمة وعزم على بعث الروح العسكرية في نفس الشعب وإنشاء جيش يتمكن من صد البلغاريين المرابطين أمام خط شطالجة في الحرب الثانية على الحلفاء البلقانيين. فأسست من جهة لجنة الدفاع القومي. وسعيت لحشد كل ما أمكن من المواد والموارد العسكرية. وعملت من جهة أخرى لرفع مستوى القوة المعنوية في الجيش. وبذلت كل جهد في إيجاد رأي عام لمصلحة تركيا بين الدول العظمى. وفي ذلك الوقت. واصل الساسة الإنكليز والفرنسيون والروس الذين جاؤوا إلى استانبول خصيصاً. مساعيهم لحملنا على عقد الصلح مع دول البلقان على أساس قبولنا بخط إينوس ميديا[٣] والتخلي عن جزر الأرخبيل.

ولما ذهبت يوماً لزيارة السفارة الفرنسية اختار السفير السيد بومبار. الذي كانت علاقتي به ودية منذ كنت والي أضنة. أن يجعل هذا موضوع مناقشتنا. فالتفت إليّ قائلاً: «عزيزي جمال بك. لِمَ كل ذلك الإصرار في سبيل الاحتفاظ بأدرنة والجزر؟ لقد نجحتم في قلب الحكومة وأصبحتم القابضين على مقاليد الحكم. إننا نعلم جيداً أن حزبكم هو أقوى الأحزاب في البلاد العثمانية. وأنكم على نقيض الحكومة السابقة لا تترددون في اتخاذ القرارات وتنفيذها التي نظنها نحن أنها تخدم مصالح تركيا أجلّ الخدمة. فعليكم أن تهتموا الآن أكثر من اهتمامكم في الماضي بتوطيد أركان السلام والنظام في بلادكم. ألا تظن أن الحكمة تقضي أن توجهوا الموارد المادية والأدبية التي تنوون بعثرتها للاحتفاظ بأدرنة في سبيل الإصلاحات التي ترقبون تطبيقها؟ إن كل ما لديكم في تلك المدينة لا يتعدى بضعة مساجد تاريخية شهيرة. أما الجزر فقد كان سكانها على الدوام يونانيين فقط».

وهنا شرعت أجيب السفير عن أسئلته. فأخذته من يده وذهبت به إلى الحائط حيث علقت عليه خريطة للإمبراطورية العثمانية. فبيّنت له أن الدفاع عن استانبول لا يتأتى إلا بالإشراف على قطعة أرض دفاعية تمتد إلى أدرنة. كما أن حماية الأناضول من هجمات اللصوص اليونانيين تقتضي حتماً الاستيلاء على الجزر القريبة من شواطئنا.

ثم ختمت جوابي بهذه العبارة: «عزيزي سيد بومبار. إننا نعتبر مسألة أدرنة والجزر مسألة حياة أو موت لمستقبلنا. وسنكون إلى الأبد مدينين بالجميل لأي دولة أوروبية تنهض لمساعدتنا في هذا الأمر. بل إن مثل تلك الدولة يمكنها دوماً أن تعتمد على صداقتنا. إن ذلك يكون انقلاباً عظيماً تتمكن بواسطته فرنسا من إحراز السيطرة الأدبية في الشرق».

وهكذا. فبينما كانت الحكومة تواصل السعي لإنقاذ أدرنة. كانت الأخبار تردني كل يوم دالّة على أن المعارضين يدبرون انقلاباً حكومياً. وفي النهاية. أصبحت تلك الأخبار متعددة وخطيرة. حتى رأيت نفسي مضطراً إلى القيام بعمل حاسم في هذا الصدد.

فساق القدر إلى أيدينا ذات يوم شخصاً يدعى سردار صدقي أفندي من أرضروم. وقد قبض على هذا الرجل وآخر معه متلبّسَين بطبع منشورات في إحدى المطابع في حي بيرا. وكان زعماء هذه العصابة يعملون تحت رعاية البرنس صباح الدين بك. ويتلقون تعليماتهم مباشرة من أمين سره الخاص صدفت لطفي بك. وهو من أهالي البوسنة. أما غايتهم فكانت قلب الحكومة وجعل البرنس صباح الدين بك صدراً أعظم. فقبضنا عليهم أجمعين. ولم نعثر على صدفت لطفي بك إلا بعد مضي زمن. فوجدناه أخيراً في منزل سكرتير قنصلية النمسا والمجر السيد لازار. فأمرت بالقبض عليه واعتقاله.

ولما كانت هذه الإجراءات مخالفة للامتيازات(٤)، رأيت نفسي مضطراً إلى الحصول من محمود شوكت باشا على الأوامر اللازمة. فذهبت بصفتي أكبر ممثل مسؤول للسلطات التنفيذية للعاصمة إلى سفارة النمسا والمجر مرتدياً ثيابي العسكرية. وقدمت اعتذاري إلى الكونت بلافيسيني. وقد دوّنت هذه الحادثة في السجلات وكان عنوانها «محاولة قلب الحكومة». أما الوثائق الرسمية التي وضعت بكل عناية ودقة فمحفوظة في دار (الحاكم) المحافظ ورئيس البوليس ووزارة الحربية.



عجوزاً — الأمير صباح الدين بك (١٨٧٧-١٩٤٧) — شاباً

أبوه الداماد الوزير محمود جلال الدين آصاف باشا (١٨٥٤-١٩٠٣) زوج السلطانة سنيحة (١٨٥١-١٩٣١) ابنة السلطان عبد المجيد الأول. شقيقة السلطان عبد الحميد الثاني. سافر الأمير صباح الدين مع أبيه الداماد محمود باشا هرباً من بطش السلطان عبد الحميد إلى بلجيكا. وفي أوروبا كان على اتصال بالعثمانيين المعارضين. شارك في المؤتمر المنعقد في باريس سنة ١٩٠٥. اتخذ موقفاً دعا فيه إلى إعطاء الشعوب والقوميات حق تقرير مصيرها الذاتي داخل السلطنة العثمانية. واستطاع أن يشكل تياراً وافقت عليه غالبية المؤتمرين (إدارة لا مركزية) مقابل تيار قومي تركي متشدد رافض لآراء البرنس. سنة ١٩١٣ وبعد اغتيال الصدر الأعظم محمود شوكت باشا وجّه الاتحاديون أصابع الاتهام إلى البرنس بضلوعه في المؤامرة.

أما المعتقلون فصدرت بحقهم أحكام مختلفة. وقد تركت الأمير صباح الدين جانباً موقتاً لأن طلعت بك، الذي كان وقتئذٍ سكرتيراً عاماً لجمعية الاتحاد والترقي والذي كان باذلاً كل جهد للوصول إلى تفاهم مع الأمير، فقد طلب إليّ أن أؤجل القبض عليه ريثما نحصل على بيّنة لا تقبل الجدل في تهمته.

لكن الأمير صباح الدين بك، على الرغم من العقاب الذي حاق بصدفت لطفي بك وشركائه، واصل دسائسه[٥]، وقد أفضى هذه المرة إلى صديقه الحميم الدكتور نهاد رشاد بك بالقيام بتدبير الخطط اللازمة. فبادر نهاد بك إلى الاتصال بطلعت بك للوصول إلى حل وسط بين حزبنا وحزب الأمير صباح الدين، وفي الوقت نفسه كان يدبر مؤامرة تهدف إلى قتل طلعت بك ومحمود شوكت باشا وأشخاص آخرين. بيد أن المعلومات عن دسائسه كانت تردني كل يوم، وهكذا كنت أرقب أعماله خطوةً خطوة. أما لعبة الدكتور المزدوجة فكانت مختفية تحت مظهره الأنيق، حتى إن طلعت بك الذي كان يتفاوض معه لم يستطع أن يقتنع بدسائس هذا السيد، على الرغم من أنني كشفت له الستار عن سائر تفاصيلها، بل إنه اتهم قلم الاستعلامات[٦] التابع لإدارتي بالرغبة في خديعتي، إلى أن أقنعته تماماً في النهاية ببيّنة دامغة لا تقبل جدلاً.

ففي ذات يوم تقرر أن يجتمع طلعت بالدكتور، وقد سبق هذا الاجتماع اجتماع آخر رتّبه الدكتور مع شركائه. وكأنما الدكتور ارتاح كثيراً لمسار التفاوض مع أصدقائه، حتى إنه لما استأذن منهم في الانصراف ابتسم لهم ابتسامة ماكيافيلية وقال: «الآن سنحادث طلعت في صدد التفاهم». وقد عنيت جد العناية أن يرى هذا المنظر شخص لا يرتاب طلعت بك في صدقه بل يثق فيه كل الثقة. ومنذ تلك اللحظة ما عاد طلعت بك يشك في أقوالي.

ولا ريب في أن الخبر نُميَ إلى الدكتور نهاد ففرّ قبل أن ألقي القبض عليه أيضاً. ولكنني أمرت بالقبض على بعض أتباعه فكانوا ثاني عصابة مثلت أمام المحكمة العسكرية.

ثم اختفى الأمير صباح الدين من على المسرح. وقد علمت فيما بعد أنه تمكّن بفضل حماية السكرتير الأول للسفارة الإنكليزية السيد فتز موريس والملحق العسكري الميجور تيريل من الالتجاء إلى دار أسرة إنكليزية. فأصبحت أيدينا مغلولة. ولم أستطع أن أفهم كيف اختفى الأمير فجأة وتعلّق بأذيال الفرار، مع أنه هو الذي دبّر هذه المؤامرة وبكل جرأة.

وبينما كنت عائداً مع طلعت بك من سياحتنا في برلين إلى استانبول، وقد شرع يتكلم عن هذه الحادثة إذ ابتسم في وجهي وقال: «لما جئتني بالبيّنة الدامغة على دسائس الدكتور والأمير تحققت أنك لا بدّ أن تُصدر الأمر بالقبض عليهما. فحذرت الأمير بواسطة بعض كاتمي أسراره ونصحت له بأن يختفي سريعاً. ذلك هو السر في فراره».

ومن عجائب الاتفاق أنني أنا الذي أطلقت الأمير في حوادث ١٣ أبريل/نيسان بعد أن ألقى الجيش القبض عليه وجيءَ به إلى وزارة الحربية. فإنني لم أكد أسمع باعتقاله حتى بادرت بالذهاب إلى محمود شوكت باشا ولفتّه إلى أن هذه الإجراءات ضد الأمير غير مسموح بها. وقلت له: حيث إننا قد جئنا إلى



مجلس النواب العثماني منعقداً قبل ١٩٠٨ (أو مجلس المبعوثان)

استانبول لمكافحة المشاغبين ومقاومة المساعي الخبيثة التي يقوم بها ساسة الشوارع. فليس عدلاً أن نعامل بهذه المعاملة الأمير وبعض الأفراد الذين يخالفوننا في الآراء والاعتقادات السياسية. فلم يتوانَ الباشا في إصدار الأمر بإطلاقه في الحال. فذهبت من هناك إلى غرفة الانتظار الكبرى التي كان الأمير جالساً فيها مع أمه السلطانة، وأخبرته بعد الاعتذار إليه أنه أصبح طليقاً. ولكن فيما كان التحقيق في أعمال صدفت بك لطفي وإخوانه مستمراً، وكنا نحن نتابع البحث عن شركاء الدكتور نهاد، إذ بالأنباء تردني بأن الأمير كان أحد المسؤولين عن حوادث ١٣ أبريل/نيسان[٧]. أما هذه المرة فقد تمكّن من الفرار بحماية طلعت بك، ولو لم يكن ثمة شك في اشتراكه في الإعداد الذي كان يدبر للانقلاب الحكومي.

وذات يوم بينما أنا أتخذ الإجراءات ضد الأمير وأتباعه (قبل فراره)، حضر إلى مكتب المحافظ أخوه الأمير لطف الله بك يطلب مساعدتي في أمر شخصي. وفي سياق الحديث بدأت أتكلم في شأن صباح الدين بك، فقلت له: «أريد أن تصنع معي معروفاً صغيراً وهو أن تبلغ أخاك صباح الدين رسالة مني، فإن الأمير في كل دفاعه، سواء أكان هنا أو في أوروبا، يؤكد أن صناديد الاتحاد والترقي سفاكون يقطر الدم من أيديهم، ومع أن هذه التهمة يناقضها الواقع تماماً، لنفرض أن لها نصيباً من الحقيقة. وإني من جهة أخرى أعتقد أن جميع المعارضين، ومنهم الأمير صباح الدين، يقطر من أيديهم الدم كما يقطر من أيدينا.

ولنبدأ القصة من أولها. فهُم الذين دبروا حوادث ١٣ أبريل/نيسان. فالمسؤولية عليهم فيما سال من الدماء وقتئذٍ وما سال بعدئذٍ لدى دخول الجيش استانبول. زد على ذلك أن الأمير اشترك فعلاً في تأليف عصابة الضباط الشهيرة[٨] وكانت له مساهمة في ثورة ألبانيا (الأرناؤوط)[٩]. فسموّه يتحمل بعض المسؤولية عمّا سال من الدماء.

ومن جهة أخرى هو يصفنا بأننا قتلة. وإني أطلب إلى الأمير أن يعترف بهذه الحقائق ويتفضل بالاعتراف بأن هؤلاء الذين يلقبهم بالقتلة لم يتخذوا هذه الإجراءات الاحتياطية إلا في ظروف خطيرة. وعليه أيضاً أن يعترف أن حزبه هو الذي اتخذ الإجراءات الرادعة. فليعدّ نفسه إن أراد لوضع حل وسط يضمن لكلا الحزبين الاحتفاظ بآرائه السياسية والعمل في الوقت نفسه لمصلحة الوطن العامة. كما يوجب عليه برنامجه الحزبي».

وطبعاً انبرى لطف الله بك للدفاع عن أخيه بشدة. وأقسم أنه أعجز من أن يغمس يديه في الدم. وأنه ليس له ضلع ما في كل هذه الحوادث.

فقلت له: «إذاً لا يمكنني أن أبحث الأمور معك لأنك تجهلها. ولكن أرجو أن تخبرني هل تستطيع حقاً أن تبلغ أخاك هذه الرسالة؟ ذلك كل ما أطلبه منك». فوعد بذلك وقال: «ربما استطعت القيام بما فيه الخير في هذا السبيل».

وقد مر يومان أو ثلاثة. ثم حضر الأمير لطف الله بك فأخبرني أنه بلغ أخاه رسالتي. وهذا أجاب بأن التهم التي وجهتها إليه تناقض الحقيقة تماماً. فإما أنني أردت تلويث سمعته وإما أنني لم أتحرَّ الحقائق عنه. أما أنا فما كنت أؤمن إلا بمبدأ سياسي لا ثانيَ له. وهو المبدأ الذي جعل الأمير يناضل لأجل تحقيقه بكل الوسائل السلمية.

وقد انتفض جزعاً من ذكر الدماء المسفوكة. ولم يستطع أن يفهم كيف يدور في خلد إنسان أن يعدّه من أنصار الثورة الدموية بل مدبرها. فلم يجد مناصاً بعد سماع ملاحظاتي - كما بلغت إليه - من أن يعتقد أن هناك جواً مملوءاً بالعداء نحوه والحقد عليه. فرأى أن خير ما يفعله هو الانسحاب موقتاً إلى مكان أمين.

فأجبته قائلاً: «عندي اقتراح أريد أن أعرضه على صباح الدين بك. وهو أن نختار ثلاثة من عظماء المحامين الإنكليز. فأطلعهم على ما عندي من الأدلة والبينات على الأمير التي أستطيع إبرازها. وعندئذ يحكمون إما أن يكون الأمير أحد مدبري حوادث العصيان والحركات الثورية وإما لا. فإذا ثبتت إدانة الأمير قدمته إلى المحاكم العثمانية».

وبعد أيام عاد الأمير لطف الله وأكد لي أنه لم تتح له فرصة لمقابلة أخيه لعرض اقتراحي عليه. ولكن الحقيقة هي أن الأمير صباح الدين اختفى في الليلة البارحة.



إعدام جنود حرس القصر السلطاني ممن شاركوا في الردة ضد الدستور في وجه الاتحاد والترقي إلى جانب الجمعية المحمدية. يخطب فيهم مختار باشا قائد الجيش الأول في استانبول قبل الأمر بإعدامهم



قمع تمرد طلاب الكلية الحربية (مع ضباط الصف الآلايلية) بإشراف وهيب باشا



زعيم الجمعية المحمدية رجل الدين (درويش وحدتي) معلّقاً بعد أحداث ٣١ آذار/مارس - ١٣ نيسان/أبريل



جمعية الاتحاد والترقي تمسك بزمام الوضع السياسي والعسكري. وفي الوسط أحمد رضا



دفاعاً عن الثورة. عن الحرية والعدالة والأخوة والمساواة والاتحاديين في ١٩٠٩/٤/١٣



استانبول بعد السيطرة على الموقف وتداعياته



٢٤ نيسان ١٩٠٩ العاصمة استانبول بعد سيطرة الجيش بقيادة محمود شوكت باشا على الموقف



استانبول إبان القمع في ١٩٠٩/٣/٣١ أو ١٩٠٩/٤/١٣



محمود شوكت باشا قائد قمع حركة ١٣ نيسان
وحوله ضباط أركان الوحدات المشاركة



تحرير استانبول من الرجعيين بقيادة محمود شوكت

(عبوق) آبك أحمد باشا[١٠]

ولدى التحقيق في الانقلاب الحكومي الذي كان أعداؤنا يدبرونه، إذا بقلم الاستعلامات يلفتني فجأة إلى أن لعبوق أحمد باشا، الذي كان آنذاك قائداً عاماً لجيش شطالجة، ضلعاً في المؤامرة، وأنه أرسل إلى ابن أخيه الأمير صباح الدين ورفاقه، ووعد بمساعدتهم.

وكنت دوماً أعتقد أن عبوق أحمد باشا هو رجل شريف، بل لا أزال أظنه كذلك، وإنني أعتقد أن عظمة الوطن ورخاءه كانا أجلّ ما تمناه، وأنه وجّه كل اهتمامه لإدراكهما.

فلم أحفل كثيراً لهذا السبب بالتقارير التي وضعها أمامي قلم الاستعلامات، وظللت لا أتحول عن رأيي هذا حتى بعد استقالته وتعيين أنور باشا وزيراً للحربية عندما طلب إليه أن يعيش في دمشق، ولا أزال أتمسك بهذا الرأي إلى الآن، على الرغم من أن عبوق باشا أصبح وزيراً في وزارة تضم بين أعضائها أمثال المارشال شاكر باشا والسيد صبري، وآخرين من زعماء الأحرار الائتلافيين[١١] وأكثرهم نفوذاً، وهم الذين دبروا حادث الاعتداء على محمود شوكت باشا.



اسماعيل أنور باشا (١٨٨١-١٩٢٢)
Ismail Enver Paşa

ولد في استانبول في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٨٨١. انتقلت العائلة إلى موناستير حيث عمل رب الأسرة وهو في سن السادسة. تخرج من مدرستها الحربية سنة ١٨٩٩. هناك بدأ فكره السياسي يتشكل في كلية الاركان. يبدو ان تصرفاته لفتت أنظار المخابرات لذا استدعي إلى القصر السلطاني سوية مع عمه خليل التلميذ الضابط مثله لاستجوابه عن نشاطه والاستفسار عن آرائه السياسية.

تخرج من كلية الاركان سنة ١٩٠٢ برتبة نقيب (يوزباشي) أول مكان خدمة عسكرية له كانت في الجيش الثالث في مقدونيا، حيث كلف بالعمل في فوج المشاة الـ١٣في موناستير.

كان لأنور دور بارز في العمليات الحربية ضد العصابات البلغارية ولاحقاً نقل إلى فوج مشاة آخر في المنطقة نفسها. في ١٣ ايلول سنة ١٩٠٦ رقي إلى رتبة رائد. في ذلك العام تأسست جمعية الحرية العثمانية التي اندمجت في ما بعد بجمعية الاتحاد والترقي ودعي أنور إلى الانضمام اليهم وقبلت عضويته. وأعطي مهمة تأسيس فرع لها في موناستير.



النقيب نيازي

الجمعية : إستعادة الدستور والحرية للشعب
في الوقت الذي كان القيصر الروسي والملك الانكليزي يلتقيان في مدينة تالين للتفاهم على حصص كل منهما من تقاسم الامبراطورية العثمانية (الرجل المريض) فيما بينهم. رأت الجمعية انه الوقت المناسب لأخذ المبادرة بان تقوم الجمعية بقيادة الثورة لتطبيق الدستور. في البدء لعب الضابط الشاب أنور دوراً حاسماً !!! بأخذ المبادرة عندما اغتال صهره ناظم بك مسؤول تفتيش الجيش في سيلانيكا. في الوقت نفسه. انطلق ضابط شاب آخر»النقيب نيازي بك» بحرب عصابات من جبال مقدونيا في «ريشنا» وأنور من «تيكويش» وانطلقت الثورة.

إبعاد أنور:
مع إعلان الدستور في ١٩٠٨/٧/٢٣ عاد أنور إلى سيلانيكا حيث استقبل كبطل للحرية.
في ٥ آذار/مارس سنة ١٩٠٩ أرسل أنور إلى برلين للعمل كملحق عسكري. لكن بعد مضي ٣٨ يوماً أي في ١٣ نيسان جرت «أحداث ٣١ آذار» وتم قمعها بواسطة جيش التحرير بقيادة الفريق أول محمود شوكت باشا. مع استتباب الأمن عاد أنور إلى استانبول.

أنور في ليبيا
سافر أنور إلى ليبيا لمساعدة البدو في دفاعهم بتدريبهم وتنظيم مقاومتهم فكانت مسؤولية أنور جبهة «بنغازي- درنة» وتمكنت المقاومة الليبية من صد الهجمة الايطالية بقيادته في هذا القطاع. رقي أنور إلى رتبة مقدم. ترك ليبيا عائداً بسبب ما آل إليه الوضع على الجبهة البلقانية تحت هذا التبرير عقدت تركيا اتفاقاً مع ايطاليا. شروطه أن تتخلى تركيا عن ليبيا و١٢ جزيرة في بحر إيجه. رجع أنور ووضع تركيا سيء في البلقان ووقعت هدنة في ١٩١٢/١٢/٣ ومؤتمر سلام معقود في لندن.

أنور يقود الانقلاب:
تقرر قيادة الجمعية ان تبادر إلى الاستيلاء على السلطة بحركة عسكرية (انقلاب) أخذ أنور المبادرة مع زمرة ضباط اتحاديين باقتحام مبنى الباب العالي ومفاجأة اجتماع الصدر الأعظم بحكومته. المهاجمون قتلوا وزير الحربية (ناظم باشا) واعتقلوا الوزراء مع الصدر الأعظم. بهذا العمل (الانقلاب) قضى حزب الاتحاد والترقي على ما تبقى من رجالات العهد العثماني السلطاني. أنور في الواجهة (علانية) مع رفاقه يمسكون بمقاليد السلطة بيد من حديد (أنور نفذ واحدة من الأعمال الأكثر جرأة في مسيرته السياسية والعسكرية في ١٩١٣/١٢/٢٣. ويجري التخلص من خصومهم الائتلافيين/الأحرار) حتى قدامى الاتحاديين المعارضين للعنف. تم التخلص منهم بالتهديد. بالسجن. بالنفي إلى داخل تركيا او خارجها وبالاغتيالات والرمي في عباب البوسفور (اساليب تعذيب حقبة السلطان عبد الحميد). هذا العمل كان نقطة تحول بالنسبة لكل من أنور وجمعية الاتحاد والترقي ومستقبل السلطنة. انها علامة على بداية حقبة جديدة في حياة تركيا. حلّ ضباط الجمعية محل المدنيين في الحكومة وحتى المراتب العليا داخل الحزب/الجمعية نفسها تربع عليها العسكر!!.

أنور والحرب البلقانية الثانية:
شكل الحكومة الجديدة الفريق أول محمود شوكت باشا. فيرسم أنور خطة هجوم لاسترجاع ادرنة من البلغار تستخدم تركيا هذه الفرصة لاستعادة بعض ما فقدوه. تلقى الخطة اعتراضا من البعض وتخاض معركة الاسترجاع ويدخل ادرنة محرراً والى جانبه الجنرال أسعد باشا. يعود أنور إلى العاصمة استانبول وتستقبله الجماهير بطلاً قومياً. رمزاً. فاتحاً. وتبرزه الصحف الاتحادية وكأنه نابليون عائداً من «اوسترليتز» أو»يينا». أنور يرقى جنرالاً ويرأس قيادة الفيلق العاشر. انتهت الحرب البلقانية الثانية بإبرام معاهدة وقعت في لندن يوم ٣٠ مايو عام ١٩١٣. لاستعادة الاراضي التي كانت قد أخرجت تركيا من أوروبا. مع استثناء شطالجة وشبه جزيرة غاليبولي. ورسم خطوط الحدود لتركيا ودول البلقان على طول خط «ميديا اينز» (إينوس ميديا).

الصراع داخل حزب الاتحاد والترقي:
الاتحاديين المنتصرين انفسهم تعارضت آراؤهم في ما بينهم حول تقاسم النفوذ والمكاسب السياسية للسلطة، فتجري عمليات الابعاد والاقصاء خصوصا لكبار الضباط العسكريين الغير متعاطفين مع الاتحاديين وخططهم في ادارة الدولة او داخل الجيش يتبين ذلك من الصراع الذي قام بين الثلاثي طلعت وأنور وأحمد جمال على منصب الصدارة العظمى. بعد التخلص من الصدر الأعظم محمود شوكت باشا العقبة الكأداء في إدارة الاتحاديين للدولة. ورست على المتمول الأمير سعيد حليم باشا أبن الخديوي اسماعيل. ووزير الداخلية طلعت بك. وطلب أنور بنفسه من الصدر الأعظم ان يُعيّن وزيراً للحربية وإنه ينبغي أن يصدر أمراً بذلك. فقال له الباشا سعيد حليم «إنك صغير جدا لكي تصبح وزيرا»
ولكن أنور أصر. بعدما استبعد أحمد عزت باشا المغضوب عليه من الحزب على الرغم من كفاءته وخبرته العسكرية وأقدميته في الجيش ونفوذه داخله. تألفت الحكومة من الاتحاديين فقط. كان أنور يصغر الفريق أحمد عزت باشا بـ١٧ سنة وأحمد جمال باشا بـ١٠ سنوات وطلعت أيضاً.

الوزير أنور في وزارة الحربية:
مطلق اليد. أعاد هيكلتها على مقاس طموحه وطموح الحزب والألمان. قاد أنور الجيش إلى تطويره وتحديثه وجعله من أرقى الجيوش في المنطقة لما له مهام مستقبلية. خصوصا والسلطنة محاطة بأعداء تاريخيين. عملية تأهيله بدأت من أعلى هرم المؤسسة «الجيش» بتجديد شبابه. بضخ دمٍ جديد في قيادته. بتقديم الضباط الشباب ليستعيد الجيش حيويته بتعيينهم كوادر(قيادات) لتستوعب المذهب العسكري (الأنوري) والمتغيرات التقنية في الاسلحة والتعاون فيما بينها لتمكنه من القيام بالمهام المطلوبة منه. أكثر من ١٠٠٠ ضابط طاولتهم التغييرات. بعضهم إلى التقاعد والبعض إلى وظائف ادارية وخدمات. وبعضهم خفضت رتبته. يد أنور مطلقة التصرف في شؤون الجيش. ومن لم يستطيعوا إخراجه من الجيش أعطي موقعاً بعيداً عن القرار والحسم. أنور يعرف أكثر من غيره عن دور الجيش وتأثيره السياسي داخلياً وخارجياً. ومن معه الجيش يقلب موازين القوى الداخلية.

زواج أنور:
ولتعزيز موقعه الاجتماعي ونفوذه السياسي تزوج من نجية (ناجية/ناديا) أميرة من القصر حفيدة السلطان محمد رشاد. ابنة الامير(الـ شاهزادة سليمان بن السلطان محمد رشاد) في ٥ آذار/مارس ١٩١٤ وتصغره باثني عشر عاماً وصار الداماد أنور باشا جزءاً من العائلة المالكة. ما أعطى سمعته وشخصيته نفوذاً وبُعداً قوّى قبضته السياسية على السلطة العسكرية على رأس الجيش التركي والإمبراطورية بأكملها. وبواسطة البعثة العسكرية الالمانية بدأ العمل (الاصلاح) الحقيقي داخل الجيش. حتى ان الجنرال ليمان فون ساندرس الشخصية الاعتبارية الثالثة من حيث القوة والنفوذ داخل السلطنة بعد السلطان والداماد أنور. نموذج عن نفوذه وهيبته على الحزب واعضائه؛ يقوم باستدعاء أحمد جمال باشا ويطلب منه تنفيذ مهمة الهجوم على قناة السويس ويذعن أحمد جمال باشا. أنور الشاب المندفع الطموح وطروحاته حول الدولة العظمى. لجمع شمل ملايين الترك في امبراطورية واحدة تمتد من تركستان شمال الصين إلى البانيا غرباً باسم الرابطة الطورانية (بان طورانيك) حينا وباسم الرابطة الاسلامية (بان اسلاميك) حينا آخر. عقد اتفاقاً سرياً مع الالمان على اشتراك تركيا إلى جانبها في الحرب الأوروبية العامة القادمة.

أنور والجيش:
أنور خلق جيشاً جديداً ميالاً نحو الاهداف الالمانية والتحالف معها. فيما كان طلعت وعددا من قادة الاتحاد والترقي يرون ان الاتجاه نحو القوة الانكليزية كقوة عظمى أفضل لتركيا وانها الخيار الافضل. واحمد جمال يميل نحو فرنسا. ولأن أنور معه الجيش مال حزب الاتحاد والترقي مع أنور ولم يك لديه خيار آخر. وتم توقيع الاتفاقية الالمانية-التركية في استانبول في ١٩١٤/٨/٢ أنور باشا مهندس التحالف مع ألمانيا وتصميم السفير البارون فانغنهايم والبارون ماكس اوبنهايم أدوا أدوارهم بنجاح لجعل الحكومة التركية ان توقع هذه الاتفاقية (الكارثية على مصير السلطنة والمنطقة). أنور كان مبهوراً بالجيش الالماني وآلته الحربية لذا اعتقد أنور ان هزيمة الانكليز والفرنسيين على يد المانيا محسومة. وان النصر لا محالة سيكون سريعاً. وان تركيا ستكون المستفيدة في الشرق. القائد ليمان فون ساندرس أمر أنور بان يفتح المضائق بوجه سفينتين حربيتين ألمانيتين (غوبن وبرسلو) من دون الرجوع إلى الحكومة او أي اعتبار للمواثيق الدولية والمعاهدات البحرية بخصوص المضائق.
وجود هذه السفن داخل المياه التركية أثار اوروبا ولم يقعدها. في ما بعد اعلن عن شراء السفن الحربية من المانيا وضمت إلى الاسطول البحري التركي. وبتنسيق مع أنور ذهبت بعض سفن الاسطول التركي إلى الموانئ الروسية في البحر الأسود وقصفتها. ما أدى إلى إعلان روسيا الحرب على تركيا. على الرغم من ان معظم أعضاء مجلس الوزراء التركي وقادة الحزب كانوا ضد دخول مثل هذا الاندفاع إلى الحرب. ولكن أنور باشا اعتقد أن هذا هو التصرف الصحيح الذي ينبغي عمله وتجاهل كل الاعتراضات من اين اتت.
مرة واحدة خلال الحرب العالمية الأولى (الحرب الاوروبية العامة) شارك أنور باشا مرة واحدة فقط عملياً في معركة في الجبهة القوقازية (معركة ساري كاميش)

زار الجبهة وفيها الجيش العثماني الثالث بعد سماعه اخبارها السيئة بوجه الجيش القوقازي الروسي في منطقة القوقاز الجبلية القاسية في الشتاء. بهدف استعادة قلعة قارس وباتومي من الروس التي احتلوها في الحرب البلقانية الأولى سنة ١٨٧٧. امتدت المعركة من ١٩١٤/١٢/٢٢ - ١٩١٥/١/١٧. كانت نتيجتها مدمرة للجيش الثالث. من أصل ١١٨٠٠٠جندي تركي بقي صالحاً فقط ١١٠٠٠ جندياً سليماً. والروس بقي لهم سالمين معافين من أصل ١٠٠٠٠٠ فقط ٤٢٠٠٠ جندياً. جنرال الشتاء كان لهم بالمرصاد. وآبار بترول اذربيجان والقرم الهدف الحقيقي للمعركة على بعد كيلومترات من متناول يد الالمان الذين كانوا يوجهون المعركة ويقدمون النصح للجنرالات الاتراك. استراتيجية أنور وتكتيكه لم تلحظ ظروف الطقس. التضاريس. عشرات الالوف قضوا من البرد والتيفوئيد والامراض المعوية. عاد إلى استانبول يجر أذيال الخيبة. تلت هذا الفشل. أخبار جبهة قناة السويس السيئة. ثم تتابعت الانباء عن الجبهة العراقية وسقوط بغداد بأيدي الجيش الانكليزي.

أنور والألمان على الأرمن:
أنور مع القادة الالمان يرون ان الانتقام من الارمن حان وقته وضرورة تحريك (الشكيلات المخصوصة - القوات الخاصة السرية) كان أنور أمر بتشكيلها عقب استعادة ادرنة. وتتم أساليب الانتقام من الشعب الارمني بكافة الوسائل التي يمكن للانسان ان تخطر بباله. بدءاً من السكين والعصا وصولاً إلى تدمير المدن على سكانها بالمدافع الثقيلة والرشاشات وقاذفات اللهب. كل هذا لن تغطيه أخبار انتصارات غاليبولي والدردنيل. قام أنور بزيارة فلسطين وسوريا والحجاز وجال مع احمد جمال باشا الجبهات والمدن وهيئت لاستقباله عشرات الالوف من الناس لتحيته وابرازهم انهم يحبون تركيا ويحبونه. وعقد الاجتماعات للجنرالات الاتراك قادة الجبهات مع الجنرالات الالمان وبين ايديهم نحو ٣٠٠ الف جندي. غشّت عينا أنور باشا المهووس بنابليون بونابرت والجبهات وساحات القتال والمعارك والخطط الاستراتيجية والتكتيك العسكري البروسي ان العقيدة الطورانية والعنصر التركي فوق الجميع. اما بعد الهزائم التي مني بها الجيش العثماني في كل الجبهات والاحباط الذي احاط به وبحزبه. أعلن الروس استسلامهم وقبولهم بالشروط الالمانية لإيقاف الحرب على جبهتهم بعد قيام الثورة البلشفية الاشتراكية. تهيأ لأنور ان الامور ستتغير واقتربت فرصة تنفيذ أحلامه القومية بدخول القوات العثمانية إلى اذربيجان وبلاد القوقاز.

نهاية الحرب والهروب:
ولكن النهاية اقتربت. إذ ان القوات الإنكليزية استولت على سوريا وفلسطين والعراق ودخلت ايران واذربيجان. وتتجه نحو حلب. واتفاقية هدنة مودروس وقعت والقوات الأجنبية ستدخل العاصمة. ما يعني القبض عليه. في هكذا وضع. فما على وزير الحرب ان يعمل. كيف يتصرف قبل ان يعلّق؟ الصدر الأعظم طلعت باشا سبقه فقدم استقالته. ولحقه أنور. على متن غواصة المانية مع قياديين آخرين من الاتحاديين ومعهم أحمد جمال باشا تنقلهم إلى مرفأ روسي في القرم. من هناك إلى المانيا. الا أنور الذي اتجه نحو منطقة القوقاز علّه يتمكن من الاتصال بوحدات تركية (جيش الاسلام) يقودها عمه خليل باشا وأخوه نوري بك. الا ان الحظ لم يك حليفه. قفل إلى برلين محاولاً باذلا جهوده لاعادة تنظيم اتصالات الاتحاديين فيما بينهم. وغادر إلى موسكو لطلب المساعدة من السلطة البلشفية. إلا أن مهمته فشلت. مع قيام حكومة الصدر الأعظم الداماد فريد باشا في العاصمة استانبول. تشكلت محكمة عليا لمحاكمة الوزراء واعضاء حزب الاتحاد والترقي فوجهت إلى أنور باشا ورفاقه تهم توريط البلاد في حروب والتحالف ضد مصلحة الدولة وتدمير اقتصاد البلاد وثرواتها وادخال الجيش في حروب عشوائية. وتهجير الارمن وافتعال مجازر بحق مليون وستمئة ألف إنسان أرمني. وقتل الاحرار في البلاد العربية وتشكيل قوات خاصة لتنفيذ مجازر. ومغادرته الوطن من دون ترخيص له. وحكمت عليه كمجرم حرب بالإعدام.

أنور في موسكو:
في المرة الثالثة نجح في الوصول إلى موسكو ولقائه قائد الثورة البلشفية لينين طالباً الدعم المادي لأجل مواصلة المقاومة في تركيا. واتصل بمصطفى كمال ليطمئنه انه لن يقوم باعمال مضادة عليه او يتدخل في الاناضول. حركة أنور لم تتوقف. ذهب إلى باكو ليشارك في أعمال مؤتمر اسلامي بين ١-٨ ايلول/سبتمبر ١٩٢٠ الذي لم ينتج عنه شيء ذا اهمية. عاد إلى برلين مصمما على انشاء منظمة سرية مهمتها نقل مساعدات روسية إلى داخل تركيا. ايضا محاولة فشلت. وصلته انباء الاجتياح اليوناني في ٣٠ تموز/يوليو ١٩٢١ لمنطقة ازمير حيث منطقة عمليات جيش مصطفى كمال في انقرة. هنا قرر العودة للمشاركة في الدفاع سافر إلى باتومي وتواردت الاخبار عن انتصار القوات التركية الكمالية في سقاريا الامر الذي دغدغ وانعش الافكار القومية الطورانية لجمع الامة التركية. فيعدل عن العودة إلى تركيا. ليذهب إلى بخارى عبر تبليسي وفي الطريق يلتقي أمثاله الطورانيين في «مرو» و«عشق اباد» و«دوشانبه» هناك تعاهد مع زعماء اقطاعيين محليين معادين للسلطة السوفيتية الجديدة على العمل معاً.

نهايته:
في ١٩٢٢/٨/٤ بالقرب من قرية «آبي دريا» (حالياً في جمهورية طاجكستان) حيث اتخذ هناك مقراً له وبينما كانوا يحتفلون بمناسبة دينية حوصروا في مركزهم من قبل الجيش الاحمر. حاول الخروج من الطوق المضروب عليهم أصيب أنور قرب تلة شيغان ومات.
دفن أنور باشا في قرية «ابي دريا» ونقل رفاته عام ١٩٩٦ إلى استانبول ليدفن في مقبرة الحرية في شيشلي بحضور رئيس الجمهورية سليمان ديميريل. وتنتهي مسيرة رجل شغلت حياته مستقبل تركيا وشعوبها وحاول تنفيذ ذلك على طريقته.

محمود شوكت باشا مستهدف

وكان قلم الاستعلامات (المديرية العامة للشرطة السياسية) يبدي نشاطاً تاماً، فظل يجيئني بالتقارير الوافية عن وجود مؤامرة تهدف إلى قلب الوزارة وقتل محمود شوكت باشا وطلعت بك وأنا خصوصاً. أما المتآمرون فكانوا هذه المرة في حماية وإدارة فتز موريس السكرتير الأول للسفارة الإنكليزية والميجور تيريل الملحق العسكري.

وقد علمت أيضاً أن محب بك مدير القسم السياسي في إدارة الشرطة على عهد وزارة كامل باشا والصاغ جركس كاظم والصاغ البحري الأسبق إسماعيل من كوملجينا وأشخاصاً عديدين، لهم ضلع في المؤامرة. فكلفت الشرطة السرية مراقبة أولئك الأشخاص مراقبة دقيقة. وقد تسلمت تقريراً أقنعني تماماً أن الداماد صالح باشا ورشيد بك وزير الداخلية الأسبق كانا من زعماء العصابة.

الداماد صالح باشا

ولما كنت أعرف أن الداماد[١٢] صالح باشا عضو في جمعية الأحرار الائتلافيين، استبعدت أن يكون له ضلع في هذه الجريمة. وعلى أي حال اهتممت بحماية شخص يمتّ إلى الأسرة المالكة بالنسب، وأحيل بينه وبين الاشتراك في هذه المؤامرة، فأرسلت إليه أحد رجال المرافقة وطلبت إليه تحديد موعد لمقابلتي في دار المحافظة، فحضر في الميعاد المضروب. وبعدما أحسنت وفادته قلت له: «أتسمح لي سعادتك أن أخبرك صراحةً بما يجول في خاطري؟ إن بعض الناس الذين يريدون الانتفاع من المزايا المادية والأدبية التي تصحب اسمك الكبير وشخصك وصلتك بالأسرة المالكة، يشتغلون سراً بدس الدسائس والإساءة إلى أسمك. فقد قيل إن جمعية سرية أنشئت برئاستك وإنها تسعى لإيجاد أنصار لها في الدوائر الرسمية والعسكرية، وإن غايتها عزل زعماء الحكومة هذه في المستقبل القريب والقيام بحركة ثورية. فالواجب عليّ أن أعتبر أن لا علم لسعادتك بكل هذا على الإطلاق، ولكن أرجو أن تصدق أن أولئك يعملون كما قصصت عليك، وبذلك يلقون على عاتق سعادتك مسؤولية خطيرة، فأرجو أن تقتنع بأنني أرى من واجبي المقدس أن أحميك من مساعيهم خصوصاً لقرابتك للأسرة المالكة التي أخلص لها كل الإخلاص. ولهذا فإني أسألك بكل احترام أن تغادر استانبول وتقيم في أوروبا مدة من الزمن، لئلا تحوم الشبهات حول اسمك إذا رأت الحكومة اتخاذ وسائل فعالة في حق زعماء تلك المؤامرة. وفوق ذلك، إن رحيلك هذا يحرم هؤلاء المتآمرين السند القوي الذي يبنون عليه آمالهم».

فأجاب عن هذه الكلمات التي لم أقصد بها سوءاً بلهجة لا تتفق في شيء مع آداب اللياقة وشرف المحتد. إذ قال: «أصغِ أيها البك الأفندي فسأحادثك بمنتهى الصراحة، إنني بفضل عظمة السلطانة أعيش هنا عيشة الهناء الخارقة للعادة، وهي حياة توافق مزاجي ولا أحب أن تفوتني منها دقيقة واحدة. ولذلك أراني مضطراً إلى رفض اقتراحك أن أذهب إلى أوروبا. زد على ذلك أنني لو اتبعت نصيحتك وذهبت إلى هناك لعدَّ الناس ذلك اعترافاً مني، فيبدأون بتوجيه كل تهمة شنعاء إليّ. فها أنذا وهنا سأقيم، فلا تتردد مطلقاً في أن تفعل ما تظنه صواباً، ولست بآسف لشيء إلا لأنك أمرت بإحضاري لتخيفني بهذه التهديدات».

وبعدما طلبت إلى الباشا ألاّ يتناسى كلياً آداب المحادثة قلت له: «يخيل إليّ يا باشا أنك عظيم الثقة بقوة جماعتك الذين أعرفهم جيداً، وأنك مقتنع بأن أمَلَكَ سيتحقق في القريب العاجل. إنك تحدث نفسك بأنك تستطيع أن تنتظر تحقيق هذه الآمال من دون التعرض لخطر. ولكني أؤكد لك أن لديّ قلم استعلامات شديد الانتباه، فلا فائدة من المؤامرات. وقد تنجح بعض الاعتداءات الفردية، أما قلب الحكومة فأمرٌ مستحيل، ولذا فإني انصح لسعادتك أن تقبل اقتراحي. أما حضرة السلطانة فيمكنها أن تصحبك إلى أوروبا إذا رأت وجوب ذلك، فليس صعباً جداً أن أسأل عظمة الصدر أن يحصل على موافقة جلالة السلطان وما يتبع ذلك من الإجراءات، فإن أبيت إلا أن ترفض نصيحتي الخالصة فإن الواجب يحتم عليّ أن أتكفل بمراقبتك أشد مراقبة من الآن فصاعداً فإذاً أرجو ألاّ تشكو أو تتذمّر بقولك إن المحافظ يرسل إلينا عيونه لمراقبتنا!».

فانتفض قائماً والشرر يتطاير من عينيه وقال: «لا تتردد لحظة في أن تفعل ما تظنه صواباً، فلست بالرجل الذي يُغلب على أمره بهذه السهولة».

ثم تركني وانصرف، ومذ ذاك اليوم أصدرت الأمر بمراقبة صالح باشا باستمرار، حتى إني لم تفتني شاردة مما كان يعمله.

وبعد مرور أربعة أو خمسة أيام حضر لزيارتي السيد ويل المدير العام لشركة الريجي، فحياني بقوله إنه وصل من أثينا في اليوم السابق وإنها أول زيارة له، وبعد تبادل الكلام في أمور ثانوية بادرني بقوله: «جمال باشا، حقاً إنني حانق عليك اليوم، فلقد أهنت أحد أصدقائي وله في نفسي منزلة لا تقل عن منزلتك، وعاملته بطريقة لا تتفق بحال ما ومقامه الرفيع، إني أعني الداماد صالح باشا، إنك اتهمته بأنه زعيم مؤامرة ونصحت له أن يذهب إلى أوروبا، فليت شعري ما الذي حملك على توجيه هذه التهمة إليه. إنني أعرف صالح باشا جيداً كما أعرف نفسي، وإنني واثق تماماً بأنه لن يشترك مطلقاً في هذا العمل الشنيع».

فبعد أن أصغيت إلى أقواله بكل سكون أجبته بقولي: «دع عنك هذا الحماس يا سيد ويل، أنا أدرك جيداً أنني فهت بكلمات قاسية للداماد صالح باشا، بيد أنني لم أفعل ذلك إلا بعد رؤية وإمعان نظر، وإن اهتمامي به ليس لمجرد شخصه لا بل احتراماً لصلته بالأسرة المالكة التي عليّ صون شرفها. ولكن يظهر أن الباشا ويا للأسف واثق بنجاح رفاقه، فهو لا يريد أن يعير نصيحتي الخالصة أذناً صاغية، فينبغي لي من الآن فصاعداً أن آمر بمراقبة صالح باشا مراقبة تامة، ولكيما تعرف كيف أن العيون ترصده إني أحدثك بالأمر. فاسأله ألم يتسلم حديثاً خطاباً من شخص مجهول وأنه طلب إليه أن يذهب إلى حي بيرا، وطبعاً لم يذهب الباشا، ولكن لماذا؟ لأنه عرف أنه مراقب فلم يشأ أن يدلني على مخابئ شركائه. إن الباشا إذا لم يغادر استانبول فإنني أرخص لنفسي أن أتخذ إجراءات ما أراه واجباً لمعاملته بما يستحق، ولا يكون لك بعد ذلك مجال للشكوى في هذا الصدد».

أما السيد ويل الذي أصغى إليّ كل الإصغاء فقد استأذن وانصرف، ولكنه عاد في اليوم التالي فأخبرني أن الباشا حقاً ورده خطاب من شخص ما، وقد جاء فيه الاقتراح الذي أشرت إليه، ولما كان يجهل المكان

ومرسل الخطاب خشي أن تكون في الأمر دسيسة فرفض الدعوة. ولكنه مع كل ذلك كان مصرّاً على البقاء في استانبول. ثم قال السيد ويل: «إنني لا أريد أن تكون لي أي علاقة بهذه الأمور الغامضة. فإن صداقتي للباشا هي وحدها التي دفعتني إلى أن أتكلم بشأنه بمثل ما تكلمت مع صديق آخر. وما دام يرفض بتاتاً استماع نصيحتك فلن أتدخل ثانية لمصلحته. وكل ما أسألك فعله هو ألاّ تجعله يذهب ضحية الدسائس والنمائم. وطبعاً إن ثقتي برجاحة عقلك وحزمك لا حدّ لها».

أما المنزل الذي دعي إليه صالح باشا فقد كان للصاغ جركس كاظم الذي وصل إلى استانبول قبل أسبوع من حادث الاعتداء. وكان نزوله تحت حماية فيتز موريس والميجور تيريل. وبالطبع فإن الباشا يعلم ذلك ولكنه كان يعلم أيضاً أنه مراقب. فلم يذهب إلى الميعاد ذلك المساء.

والحقيقة أني كنت شديد الاهتمام بإنقاذ صالح باشا. بيد أنه رفض نصيحتي بهذا الإصرار الذي يلازم الواثقين من النجاح. ولكن تعنّته أدى في النهاية إلى حتفه. إني شديد الأسف لوقوع هذه المأساة وخصوصاً لفرط ولائي للأسرة المالكة. فلا بد أني تسببت عن غير عمد في إدخال ذلك الحزن المروع إلى قلب إحدى الأميرات. ولكن ماذا كنت أفعل؟ فإن جريمته كانت أكبر من أن يُغض الطرف عنها. فلو أنه عفي عنه بعد الحكم عليه لتزعزع نظام البلد وسلامه إلى الأبد.

إسماعيل حقي بك الكوملجيني

وفي هذا الوقت كان البوليس السري يراقب أحد زعماء المعارضين إسماعيل بك الكوملجيني. فقد كنت مقتنعاً كل الاقتناع أن ذلك الشخص الجريء يثير الريب وأن البلاد ستلاقي منه متاعب خطيرة. بيد أن مشروع العمل الذي خططته اقتضى أن أستخدم هذا الرجل بمهارة وحذق فلا أقبض عليه إلا متى حصلت على البينة الدامغة التي تثبت إدانته. وثبت عندي أن أعواني من رجال البوليس السري لا بد أن يكونوا ضيّقوا عليه المسالك. ذلك أنه جاءني يوماً في رئاسة أركان الحرب في حالة انفعال شديد (وكان ذلك قبل أسبوع من مقتل شوكت باشا) فقال: «لأن عيونك تراقبني يحق لي أن أقول إن الحكومة ترتاب فيّ. فاسمع إليّ يا جمال بك. إنني أحادثك كوني رجلاً شريفاً وإني أؤكد لك أنني سأحفظ الوعد الذي قطعته على نفسي عندما كنت موقوفاً. ولست أفوه بكلمة أعني بها سوءاً. كما أنني لا ضلع لي في السر أو في العلانية في أي حركة ضد الحكومة. وبما أن أعوانك يذيعون عني أنباء لا أساس لها من الحقيقة. وقد يكونون أرادوا خديعتك. رأيت أن أحضر بنفسي لمحادثتك صراحة. وإنني أقسم لك بشرفي أنني لا أشترك في أي عمل عدائي للحكومة ولا صلة لي بأولئك الذين يعملون ضدها».

ولما كنت أعلم علم اليقين أن ذلك الشخص هو أحد زعماء المؤامرة التي أخذت الآن شكلاً معيناً ضد محمود شوكت باشا. عجبت بل اشمأزت نفسي كل الاشمئزاز من حنث الرجل.

وإني أذكر أنه عندما أطلق من السجن بواسطتي بعد قلب الحكومة في يناير/كانون الثاني. أقسم بشرفه وبضميره أن يحجم عن المعارضة إلى أن يعقد الصلح ويستتب النظام. فلم يكد يمر شهر حتى كان

الرجل يعمل صباحَ مساء وبكل ما في استطاعته لإتيان جريمة مروعة. فلم أتمالك نفسي عندما سمعته يكرر الأيمان الكاذبة من إبداء التذمر والاشمئزاز، وقلت له: «كفى أيماناً وأقساماً يا إسماعيل بك. فيمكنك أن تثق بأنني لا أتهم أحداً إلا إذا قامت عليه البينة التي لا ريبَ فيها، وإلا لما فككت اعتقالك كما فعلت. بيد أني أسديك محض النصح حقيقة بألاّ تتصل ببضعة أشخاص جعلوا همهم تدبير الدسائس، وإلا يصبح قلم الاستعلامات غير مرتاح لأعمالك. أما الآن فيمكنك أن تنسحب».

فشكرني ومضى، وأراني أخطأت في ذلك. فلو أنني كنت أكثر حزماً وأصدرت الأمر بالقبض عليه في تلك اللحظة لما تمكّن من الفرار بعد مقتل محمود شوكت باشا، بل لما كان هناك أي شك في سوقه إلى



الداماد محمد فريد باشا (١٨٥٣-١٩٢٣)

آخر رئيس وزراء في الدولة العثمانية (السلطنة). وُلد في استانبول. والده كان والياً على بيروت وصيدا سنة ١٨٥٧. درس في مدرسة صيدا الخيرية الإسلامية، تابع دراسته العليا في القسم الأجنبي في المدرسة الملكية في استانبول. بعد تخرجه عيّن في مواقع مختلفة، باريس برلين، بطرسبرغ ولندن. سنة ١٨٨٣ اقترن بمديحة بنت السلطان عبد المجيد وأصبح داماداً، ما ضمن له مقعداً في مجلس شورى الدولة ثم في مجلس الأعيان. سنة ١٩٠٨ استقال من الخدمة العامة. أُوكلت اليه الصدارة العظمى مرتين، الأولى في ١٩١٩/٣/٤-٣٠ /١٩١٩/٩ في عهد السلطان محمد وحيد الدين وأزمير محتلة من الجيش اليوناني والفوضى تعم تركيا. أُقصي عن الصدارة ليتولاها خلوصي صالح باشا. ويليه صدر أعظم آخر علي رضا باشا، ثم استدعى السلطان الداماد محمد فريد باشا لتأليف حكومة من جديد في ١٩١٩/٤/٥ استمرت حتى ١٩٢٠/١٠/٢١. حكومة أمر واقع غايتها تجنيب تركيا المزيد من الخسائر في الأرواح والممتلكات، والتوقيع على شروط المحتلين (الإنكليز-الفرنسيين) ويملون إرادتهم على السلطان طالبين من تركيا توقيع «معاهدة سيفر» والبرلمان مغلق. فوقّع عليها مع الصدر الأعظم ٤ وزراء وظهرت الحكومة وكأنها معادية لحركة التحرر الوطني بقيادة مصطفى كمال «أتاتورك» المتمركزة قواته في أنقرة. بعد التوقيع هرب الداماد إلى أوروبا واستقر في فرنسا، حيث توفي في مدينة نيس في ١٩٢٣/١٠/٦. وتلبية لوصيته دُفن في مدينة صيدا.

المحاكمة بعد الحقائق التي أظهرها التحقيق في حادث الاعتداء على شوكت باشا، ولتخلصت البلاد إلى الأبد من رجل رشاه اليونانيون للإيقاع بوطنه.

وفيما أنا أخط تلك الأسطر إذا بعيني تقع في الصحف على نبأ تعيين إسماعيل بك حقي الكوملجيني وزيراً للداخلية في وزارة الداماد فريد باشا، بل إنه عُيّن رئيساً لمحكمة فوق العادة أنشئت لمحاكمة زعماء جمعية الاتحاد والترقي. وكل ما أقوله الآن هو أننا ربما رأينا في زمن وجيز كيف كان تعيين هذا الرجل في ذلك المنصب الكبير خطراً على الوطن.

ورغم ما بذلته من مجهود، تمكّن إسماعيل بك هذا من الفرار بعد مقتل شوكت باشا.



الداماد فريد باشا إلى يمينه رضا توفيق وإلى يساره هادي بغداتلي وزير التربية، وأقصى يمين الصورة السفير رشاد خالص مغادرين استانبول على متن سفينة حربية إنكليزية


عزمي بك
فيما بعد عيّن والياً على ولاية طرابلس الشام ثم عيّن والياً على بيروت

كامل باشا

وفي صبيحة ذات يوم، قبل مقتل محمود شوكت باشا بأسبوع أو عشرة أيام، حضر إليّ مبكراً مدير الشرطة عزمي بك(١٣) وأخبرني أن كامل باشا على ظهر إحدى بواخر شركة المساجيرو ماريتيم(١٤). وقد وصلت الباخرة في جنح الليل، لكن الباشا لم ينزل إلى الشاطئ، فسألني عزمي أن أصدر له الأمر بالقبض عليه، فكلفته أن يرسل مدير القسم السياسي إلى الباشا في الحال ويرجوه ألاّ ينزل إلى الشاطئ بل يعود إلى القطر المصري على الباخرة نفسها.

ولم يمض أكثر من نصف ساعة حتى حضر عزمي بك فأخبرني أن كامل باشا قد نزل إلى الشاطئ فعلاً أثناء الليل وذهب تواً إلى منزله في حي استانبول، وكنت أعرف أن المتآمرين اعتزموا إعادة كامل باشا إلى استانبول، ولكني ما كنت أتوقع أن تكون لديه الشجاعة الكافية لتلبية دعوتهم، فوجود الباشا في المدينة كان دليلاً أكيداً على أن الثورة وشيكة، وبذلك أصبحت الحالة تتطلب اتخاذ أشد الاحتياطات المعجلة، فأرسلت في طلب عزمي بك وكلفته أن يسير على البرنامج الآتي:

«سأرسل إلى منزل كامل باشا ضابطاً من مركز قيادة الجيش ومعه بعض رجال الشرطة العسكرية، وسأضع في تصرفكم أحد معاوني البوليس وعدداً كافياً من رجال الشرطة، ثم يذهب الضابط والمعاون ورجالهما إلى منزل كامل باشا حيث توزع الرجال لمراقبة المداخل كيلا يستطيع شخص ما، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب، أن يتصل بسكان المنزل. ثم يطلب الضابط والمعاون مقابلة الباشا لتبليغه قرار الحكومة هذا، وهو أن الحكومة ترجو من دولته أن يعود إلى القطر المصري على ظهر الباخرة التي جاء عليها، ولو رست الباخرة هنا ثلاثة أيام فالمرجو منه أن يعود إليها بعد مضي اثنتي عشرة ساعة على أكثر تقدير، وإلا فترى الحكومة نفسها مضطرة إلى اتخاذ الوسائل الاحتياطية التي قد يراها دولته مزعجة لخاطره، ثم يعود إلينا الضابط والمعاون بجواب الباشا. أما أنت شخصياً فيجب أن تقيم داخل المنزل وتحول دون دخول أي شخص أياً تكن حيثيته».

وقد نفذت هذه التعليمات في الحال، وأجاب الباشا بأنه متعب جداً ولا يستطيع تحمّل متاعب سياحة أخرى في هذه الفترة الوجيزة، على أنه لم يرَ سبباً ما يحمله إلى اتباع هذا الأمر الحكومي غير القانوني. فلما وقفت على هذا الرد أصدرت الأوامر بتشديد المراقبة على المنزل، فلا يسمح لشخص ما أن يدخل أو يخرج إلى أن يغادر الباشا استانبول.



طلعت عزمي أحمد جمال

وفيما كانت هذه التعليمات قيد التنفيذ حضر السكرتير الأول للسفارة الإنكليزية فيتزموريس إلى منزل الباشا لتحيته باسم السفارة، بيد أن رجال الشرطة منعوه من الدخول، فاستقر رأي ذلك السيد على اتخاذ وسائل أخرى لمنع نفي كامل باشا من استانبول، فولّى وجهه في الحال شطر الصدارة حيث قابل محمود شوكت باشا باسم السفير. وهناك أبدى دهشته من الحيلولة بينه وبين رؤية كامل باشا وهو صديق قديم للسفارة، وإن ذلك العمل خليق بأن يؤثر أسوأ تأثير في الرأي العام الإنكليزي، فانكشف بعمله هذا عداؤه الشديد لنا، ولم ينتصف النهار حتى طلب محمود شوكت باشا بالهاتف أن أذهب لمقابلته في الحال، وكان جالساً في غرفة الصدر الأعظم ومعه شوروك سولون محمود باشا وزير البحرية، وكان خليل بك أيضاً ينتظر مقابلة الصدر الأعظم، فدخلنا معاً، فالتفت إليّ شوكت باشا مكتئباً وقال:

«ما أطيب هذا الموقف الذي نقفه! يظهر أنك أبقيت كامل باشا أسيراً في داره، فهل اعتزمت إكراهه على مغادرة المدينة؟».

«أجل يا صاحب الدولة، إن واجبي يقضي عليّ اتخاذ الاحتياط الذي تشير إليه».

«ولكني آمرك أن تُوقف مراقبة منزله في الحال وتدعه وشأنه، ولْتُترك للباشا حرية الاختيار في الإقامة هنا أو في الخارج».

«إني أرى يا صاحب الدولة أن من الخطورة بمكان أن نلغي التعليمات التي أصدرناها و...».



خليل بك (خليل منتشه) (١٨٧٤-١٩٤٨)

ولد في ميلاس في جنوب غرب تركيا لعائلة ملاكي أراض. تيتم في صغره. اهتم به أخوه غالب بك وأخذه الى ازمير ليتابع تعليمه في مدرسة الليسيه. إحدى معلماته تدعى خالدة ضياء.

من ازمير انتقل الشاب خليل الى كلية الحقوق في جامعة استانبول. اساتذته كان بعضهم نواباً ووزراء. بعد سنتين توقع حدوث مشاكل فقرر السفر إلى باريس.

في مرحلة ما اعتبر خليل منتشه الباشا الرابع في قيادة جمعية الاتحاد والترقي (سيد التنوير).

في سنة ١٩٠٨ قائد كتلة الاتحاديين في مجلس المبعوثان. ترأس البرلمان من ١٥ أيار/مايو ١٩١٢ حتى ٥ آب/أغسطس ١٩١٢. ثم من جديد سنة ١٩١٤. كلف بوزارة الخارجية من ١٩١٥/١٠/٢٤-١٩١٧/٢/٢ إضافة إلى وزارة العدل في ١٩١٦/٥/٣. من مرة أخرى رئيسا للبرلمان سنة ١٩١٨.

منتشه كان من ضمن الذين تم القبض عليهم ونفي إلى مالطا بعد سنة انتقل الى ايطاليا والمانيا ورجع الى تركيا بعد تسلم مصطفى كمال الحكم في تركيا محاولا تثبيت حكمه وفرض الأمن. جرت مؤامرة لإزاحته عن السلطة أو ان حاشيته أشاعت ان مؤامرة تطبخ من قبل رفاق السلاح للتخلص من مصطفى كمال.

تمت محاكمة البعض ووجد مذنباً والبعض الآخر برئت ساحته. وخليل منتشه من البعض الآخر. عاد الى البرلمان عن مقعد ازمير لجنة الاتحاد والترقي.

كان في طليعة صانعي السياسة العثمانية لعقد كامل من الزمان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨. لا يمكن إنكار أن كاريزما الباشوات الثلاثة مارست قوة عظمى.

في وقت لاحق شكلت القيادة العليا للجنة الاتحاديين مكتباً يتألف من «الثلاثي» طلعت وأنور وجمال. ورابعهم خليل الذي شارك في البرلمان حتى وفاته.

فصرخ في وجهي: «إنك جندي. ألست كذلك؟ وها أنا أصدر لك أمراً فنفذه في الحال وإلا عاقبتك أشد عقاب. هل تريد أن تجعل الإنكليز أعداء لي؟ فلو أنك سمعت ما نطق به السكرتير الأول لتحققت أنك مخطئ».

وقد كان مستحيلاً عليّ أن أسأل الباشا عن الحق الذي يخول أحد ممثلي دولة أجنبية أن يتدخل في عمل الحكومة ضد زيد أو عمر من رعاياها لأن الباشا كان منفعلاً ولا يمكن مناقشته. فغضبت أشد الغضب لهذا التأنيب غير العادل على الاحتياطات التي رأيت ضرورياً اتخاذها ضد كامل باشا لدسائسه الخفية. فأجبت وقد اغرورقت عيناي: «سأذعن لأمرك يا صاحب الدولة». وغادرت الغرفة. وتبعني شوروك سولون باشا وقد رأى شدة تغيظي، وصحبني إلى غرفة الانتظار المعدّة للسفراء. فوقفنا صامتين بجانب النافذة نحو خمس دقائق. وأخيراً قلت: «أرأيت كيف عوملت؟ أيستطيع أي إنسان تحمّل مثل هذه المعاملة إلا إذا كان حب الوطن عالقاً في قلبه؟».

فأجاب محمود باشا: «إنك مصيب. ولكن لا تتعجل».

وبعدما عادت إليّ سكينتي شكرت الباشا واستأذنت في الانصراف. وعدت إلى دار المحافظة وأرسلت في طلب عزمي بك وقلت له: «تنفيذاً لأمر صاحب الدولة الصدر الأعظم يجب استدعاء رجال الشرطة الذين يراقبون منزل كامل باشا. وأن تترك له الحرية التامة للاتصال بمن يشاء. ولكن واجبي يحتم عليّ اتخاذ احتياط واحد وهو أن يظلّ قريباً من المنزل أحد رجال الشرطة العسكرية ومخبر سري لملاحظة من يدخل الدار ويخرج منها».

ثم كتبت خطابين إلى محمود شوكت باشا. ذكرت له في أولهما أن أوامره الخاصة بكامل باشا قد نفذت فعلاً. وفي الثاني طلبت إليه أن يقيلني من منصب المحافظ لسوء حالتي الصحية جراء العبء الثقيل الذي يصحب هذا المنصب. وكنت أعلم كل العلم أن هذا الطلب كان مضاداً لمصلحة الوطن. ولكن لم يكن لديّ سوى هذا الحل. لأني إذا لم أكن مطلق الحرية في اتخاذ ما يلزم من الوسائل. أصبح عاجزاً عن حفظ الأمن في العاصمة.

أما الباشا الذي ساوره الأسف على لهجته القاسية التي خاطبني بها. فقد طلب إليّ بالهاتف أن أذهب لمقابلته حتى قبل تسلّم خطابي. ولما كنت غير راغب في مقابلته قبل أن يستلم كتاب استقالتي. فقد اعتذرت عن عدم الحضور لأسباب مهمة. وردّدت عليه بأني لا أستطيع أن أكون في تصرفه إلا في المساء في الوقت الذي يلائمه. فكلفني أن أذهب إلى قصر الصدر الأعظم قرابة التاسعة مساء.

وفي اليوم نفسه عُرضت استقالتي على مجلس الوزراء. وسأل الباشا زملاءه ماذا يفعل. فنصحوا له بصراحة أن يصر على بقائي في منصبي. وقال الباشا إن هذا هو رأيه أيضاً بيد أنه لا مفر من تحرّج الحال إذا تشبثت بإبعاد كامل باشا. وعلى أي حال هو يرغب في محادثتي أولاً.

وفي هذا المساء قابلت إبراهيم بك فحيّاني قائلاً: «ما هذا الذي سمعته من أنك تريد الاستقالة؟ فكيف يكون ذلك؟ إنك لو فعلت لاستقلنا جميعاً».

وعارض أيضاً كل أصدقائي. أما أنا فلم أجد إلا أمرين لا ثالث لهما. إما أن أكون مستقلاً وأتحمل كل المسؤولية عما أصدره من الأوامر وإما أعتزل العمل. فإن الحالة الدقيقة في العاصمة ومسؤوليتي عن الأمن العام يتطلبان مني الحرية المطلقة في العمل.

وفي التاسعة ذهبت لمقابلة الباشا في قصر الصدر الأعظم. فقابلني مقابلة ودية. ثم قال: «لماذا أخذت الأقوال التي فهت بها بهذه الطريقة الجادة؟ ألا تعرف أنني أحبك حبي لولدي. ومتى كان الأب قلق البال لا يستطيع معاملة أبنائه المعاملة التي يريدها. فأرجو أن تعدّ الحادث مجرد جدال بين والد وولده. فخلِ عنك غضبك عليّ».

فقلت: «يا باشا. حاشا أن تشك في أنني حملت ما وجهته إليّ إلا على ما عنيته أنت. إنني أعدّ نفسي ولداً لك. ولما كنت أعرف قدرك حق المعرفة فإنني أتحمل منك أي معاملة ولو قاسية. وما حملني على طلب الاستقالة ليس عنفك معي فقط بل استحالة العمل في هذه الظروف. إن دولتك لا تعرف ما يدبر في الخفاء ولا تحاط علماً بالمؤامرات السرية. ولم أشأ أن أُقلِق بال دولتك بمسائل تختص بأعمال الشرطة. بل إنني لا أزال أرى هذا الرأي حتى الآن. ولكني أؤكد لدولتك أن كامل باشا لم يحضر إلى استانبول إلا ليرقى إلى كرسي الصدارة على جثتك. فمجيء الباشا ليس إلا دليلاً أكيداً على أن الثورة أصبحت وشيكة. فإرغامه على المغادرة لا يراد به إلا قصّ أجنحة المؤامرة. إن دولتك تعلم جيداً أن أولئك الذين عليهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد التهديدات السرية ومحاولات الاعتداء لا يعطون حرية اختيار الوسائل. إنك لتذكر لما عيّنتني في منصبي الحالي وعدتني بإطلاق يدي من كل قيد. وها أنت الآن بسبب تدخل السفارة الإنكليزية تدخلاً غير مقبول تحظّر عليّ اتخاذ الاحتياطات المهمة. ففي هذه الحال أراني عاجزاً عن مواصلة العمل».

فكر طويلاً ثم أجاب: «حسنٌ! إني أطلق يدك. ولكن لا تأخذ ضد كامل باشا احتياطات أشد مما يلزم. ولتسمح له بالبقاء هنا ثلاثة أيام».

وعلى ذلك سحبت طلب الاستقالة. ولما عدت إلى دار الحاكم (المحافظة) طلبت إلى عبدالله بك بن كامل باشا وأحد أعضاء مجلس الدولة أن يقابلني في اليوم التالي. فلبّى الدعوة. فقلت له إن الباشا على كل حال يجب أن يغادر المدينة وإنه يستحيل سحب الأوامر الصادرة ويجدر به ألاّ ينتظر أي مساعدة من السفارة الإنكليزية أو أي ممثل أجنبي. ثم زدت على ذلك بأنه إن لم يغادر الجمعة على أبعد تقدير فلا بد من القبض عليه حيث يحتمل إرساله إلى الأناضول.

وبعد مناقشة طويلة وافق عبدالله على ما قلته موافقة تامة. وغادرني بعدما وعد أن يبذل جهده لحمل والده على الإقلاع عن معارضته العقيمة. ثم عاد مساءً ليخبرني أن الباشا سيسافر بحراً في اليوم التالي.

والحقيقة أنه غادر منزله في اليوم التالي - وكان يوم جمعة - ومعه السير جيرالد لوثر السفير الإنكليزي. فمرّ بالباب العالي وصعد إلى الباخرة عند غلطة. وفي مساء هذا اليوم أقلعت الباخرة المتلألئة الأنوار وهو على ظهرها.



رصيف غلطة - ميناء استانبول

مرفأ وحي من أحياء (الأستانة) استانبول. في ٢٤-٢٥ نيسان/أبريل ١٩٠٩ نُصبت المشانق على جانبي جسر غلطة لكل من تظاهر ضد الاتحاديين وحمل السلاح أو جابههم أو عرف عنه المعارضة لهم. علّقت على صدور المشنوقين والجثث المرمية في مياه البوسفور والدردنيل عبارة (خائن للحرية). يومها فرض محمود شوكت باشا الأمن والهدوء على ربوع مدينة استانبول العاصمة. في الأصل بناها بحارة وتجار من جنوى الإيطالية في القرن الثالث عشر في عهد الإمبراطور ميخائيل باليولوكس الثامن وموقعها على الجهة الجنوبية للبيريه المطل على البحر. أحاطوها بسور للحماية. في القرن التاسع عشر وعهد الاتحاديين أغلب سكانها من الروم واليهود. وفيها مصنع للمدافع والمعدات الحربية. وعلى شواطئها أرصفة لرسو السفن والشحن. وفيها برج يدعى برج الجرس أو برج المسيح. يعلو ٦٠،٦٤ متراً لتنبيه أهل المدينة من الحرائق.

اغتيال محمود شوكت باشا

١٥ يونيو/حزيران ١٩١٣

كانت الشواهد كلها - برغم تقارير أعواني المخبرين - تشير إلى أن المتآمرين قد أكملوا عدتهم، وأن الهجوم العام سيبدأ في الأيام القريبة.

وقد بكرت في الذهاب إلى وزارة الحربية الأربعاء ١٥ يونيو/حزيران ١٩١٣، وهو يوم القتل، لأخذ التعليمات من الباشا وللفت انتباه ياوره إلى ضرورة المحافظة عليه بنوع خاص عند ذهابه إلى الباب العالي، ثم حادثت الباشا نحو نصف ساعة، وكان يبدو عليه الارتياح ذلك الصباح، وشعر بطمأنينة عظيمة من جراء الاحتياطات التي اتخذتها. ولما كنت أحب ألا أزعجه قلت له عَرَضاً إن محاولات الاعتداء متوقعة في ذلك الوقت، ولهذا السبب يلزم إلقاء القبض على بضعة أشخاص في اليوم التالي أو اليوم الذي بعده،

وزدت على ذلك إن هذه الاحتياطات كلها لا يمكن معها منع الهجمات الفردية. لذا يجدر به أن يكون على أتم الحرص أثناء اجتيازه الطرق العامة. ثم شددت على ياوره بأن يكون شديد اليقظة والحرص عليه.

فقال: «أنا فاهم، والأمر لله».

فتركته وذهبت إلى الطبقة العليا لمحادثة الميجور سعدالله والميجور كمال بك في القسم الثالث من هيئة أركان الحرب. وأخذنا نبحث بعض القواعد. ولم تمضِ خمسَ عشرة دقيقة حتى سمعنا من ناحية ميدان وزارة الحربية خمس ضربات متوالية أشبه بقرع أحد الطبول الضخمة. ولما كنت أتوقع حدوث محاولة اعتداء في أي وقت، سألت كمال بك: «هل هذه طلقات مسدس؟».

فقال: «لا أظن ذلك، وأحسب بعض الناس ينفض سجادة أو يدق مسماراً».

ولكني لم أرتح لهذا الجواب، وتوقعت أخبار السوء بين لحظة وأخرى، وما هي إلا خمس دقائق حتى دخل خادمي الأمين رمضان مهرولاً وصاح: «لقد قتل الباشا! لقد قتل الباشا الآن!».

وكنت جالساً في مؤخرة الحجرة فصحت به: «أيّ باشا تعني؟ ومن قتله؟ وأين قتل؟». «في ميدان بايزيد، في طريقه إلى الباب العالي، ولا أعرف القاتل».

وما كدت أهرول إلى الدور السفلي حتى رأيت محمود شوكت باشا محمولاً والدم يسيل منه على درج السُّلم المؤدي إلى حجرته - ولا تزال تقرع أذني حشرجته وهو في سكرة الموت - فوقفت هنيهة في الردهة وحدقت بوجهه وقد علاه الاصفرار. ثم سألت نفسي إلى أين يذهب بي الواجب؟ فوضعت خطة العمل في الحال. وكان أول واجبي هو اللحاق بالجناة والقبض عليهم ثم الإسراع إلى رئاسة الجيش لحفظ النظام في العاصمة. وبعد هنيهة حضر إليّ ياوري حلمي فصحت به: «هلم».

ثم هرولنا إلى وزارة الحربية، فذهبت إلى دار الحامية لتسقط الأخبار الأولى. وما كدت أصل إلى منتهى الطريق حتى قابلت ضابطاً من رجال الشرطة العسكرية فصرخت فيه: «هل قبض على الجناة؟». فقال: «لا أعرف يا أفندي، إنني أبحث عن شرطي». فصحت: «وماذا تريد أن تصنع بالشرطة. عد الآن واقبض على الجناة قبل أن يتمكنوا من الفرار أو الاختباء». فدهش الضابط لعنف الأوامر التي أُصدِرها وعاد يهرول إلى مكان الجريمة.

وما إن وصلت إلى مكان الحادث بعد بضع دقائق في سيارتي حتى أخبرني أنه أُلقي القبض على شخص يدعى طوبال توفيق الذي كان ولا ريب أحد الجناة. ولكن الآخرين- كما يقال - تمكنوا من الفرار في إحدى السيارات. وعلى ذلك اضطررت بادئ ذي بدء إلى الاكتفاء بهذا النبأ الأولي. ثم يممت شطر دار المحافظة واتخذت بضعة تدابير عسكرية في حي بك أوغلي وسكودار واستانبول.

ولم يكد يمر على ارتكاب الجريمة نصف ساعة حتى ظهر في شوارع العاصمة عناصر الدرك. البعض منهم على ظهور الخيل والبعض الآخر على الأقدام. وبعد ساعة صدر منشور يخبر الجمهور بوقوع الجريمة ويعلن تشديد حالة التجوال في العاصمة. وخوّل الدرك حق اتخاذ أشد الوسائل ضد من يحاول العبث بالنظام.

ولما كنت أتوقع أن يذهب المتآمرون إلى المابين فيزعجوا جلالة السلطان، خاطبت السكرتير الأول في القصر بالهاتف وأعطيته تعليمات معينة، وطلبت إليه أن يخبر جلالته بأننا اتخذنا كل الوسائل اللازمة. وفي الوقت نفسه خاطبت بالهاتف أيضاً عزت باشا نائب القائد العام في خادم كوى ولخّصت له الحالة، ثم أخبرته بالخطوات التي اتخذناها لحفظ النظام وطلبت إليه أن يضع موقتاً بتصرفي كتيبتين من الفرسان كانتا معسكرتين في ثكنة داود باشا وأن يرسل كتيبتين من المشاة من خادم كوى إلى كوجُك شكمجي للاشتراك في حفظ النظام العام. ثم خاطبت سعيد حليم باشا، فأعلمته هو والوزراء الآخرين بما حدث، وطلبت أن يحضروا إلى وزارة الحربية سريعاً لاتخاذ القرارات اللازمة.

بعض التدابير الانضباطية (الاحتياطية)

ونظراً إلى أني كنت أتوقع هذا الحادث الشنيع، كلفت موظفي إدارة الشرطة من قبل أن يكتبوا لي بياناً بأسماء جميع الأشخاص الذين كان من المحتمل أن يستغلوا الموقف الحاضر من جميع الفئات فينزعوا إلى خلق الشغب في سائر أنحاء المدينة، فأصدرت الأوامر إلى مدير الشرطة عزمي بك بأن يقبض في الحال، إذا وقع أقل اضطراب أو ثورة، على الأشخاص المدونة أسماؤهم في البيان. فأخبرني عزمي بك بأن هذه التعليمات الصادرة إليه من زمن بعيد نفذت الآن، وسألني أين يذهب بالأشخاص المقبوض عليهم، فقرّ الرأي بيني وبين سعيد حليم باشا الصدر الأعظم الموقت والحاج عادل بك وزير الداخلية على أنه، لكيما تبقى العاصمة هادئة، يجب إبعاد أولئك المعتقلين إلى سينوب وإعطاؤهم المال الكافي لهم. فطلبت إلى إدارة السفن أن تعدّ باخرة لنقلهم في الحال، وكلفت عزمي أن يقبض على الباقين منهم في أثناء الليل حتى يمكن إبعادهم على ظهر الباخرة في المساء التالي، كما أني أمرت بالقبض على الداماد صالح باشا وآخرين ممن عرفت أن لهم ضلعاً في المؤامرة وتفتيش منازلهم بواسطة الشرطة.

مراسم تشييع جنازة محمود شوكت باشا

وقد أردت أن تكون جنازة محمود شوكت باشا بالغة الحد الأعلى في الفخار والجلال، لأظهر للملأ أن السكينة والنظام تامان في العاصمة على الرغم من مصرع الصدر الأعظم، فطلبت إلى كل السلطات المختصة أن ترسل خبر نعيه مع بطاقة الدعوة لتشييع جنازته إلى علية القوم وموظفي الدولة الكبار وضباط أركان الحرب الذين كانوا في العاصمة، وأمرت أن تتبع الجنازة ثلة كبيرة من الجنود، وأرسلت الدعوة لتوزيعها على سفراء الدول الأجنبية وربابنة وضباط البوارج الحربية التي كانت راسية في الميناء، كما أرسلت أيضاً إلى الملحقين العسكريين والبحريين وغيرهم. وزاد عدد المشيعين على خمسة آلاف شخص، وكان الجو صحواً، وقد اكتظت الشوارع بالأهالي، وما زاد في رهبة الموكب أن كثيراً من النسوة تأثرن بجلاله فأخذن في البكاء والعويل، وقد أدركت الغاية التي هدفت إليها من تشييع الجنازة بهذه الصورة.



أحمد عزت باشا (١٨٦٤-١٩٣٧)

وُلد في مناستير سنة ١٨٦٤. تخرج من كلية الأركان سنة ١٨٨٧ وعيّن للمحاضرة فيها في مادة الجغرافيا العسكرية لفترة ليصبح مساعداً للجنرال كولمار فون در غولتس المسؤول عن إعادة تأهيل الجيش العثماني وتدريبه وتنظيمه ورفع كفاءته القتالية. أرسل في بعثة دراسية إلى ألمانيا سنة ١٨٩١ وبعد عودته أرسل إلى فلسطين وسوريا. إبان الحرب التركية-اليونانية سنة ١٨٩٧ لعب دوراً بارزاً في مسار الحرب والتخطيط خصوصاً في معركتي شطالجه ودوميكه. بعدها أعيد إلى العمل في سوريا أيضاً. سنة ١٩٠٣ بُعث إلى اليمن للمساهمة في قمع العصيان. بعد سنة أصبح أحمد عزت جنرالاً. ومرة أخرى بعد سبع سنوات أي سنة ١٩١١ نشب تمرد في اليمن. فوقع الاختيار مجدداً على أحمد عزت باشا لإخماد هذا التمرد. وبالفعل سافر واستطاع هذه المرة أن يعيد تنظيم قواته ويقودها. ولولا مساهمة عزيز علي المصري لما استطاع عزت باشا التوصل إلى حلّ يوطد الأمن في هذا الإقليم وتنشأ حالة سلام وثقة. وبتوقيعه اتفاقاً مع الإمام يحيى حميد الدين سمح لقيام علاقة سلمية طويلة بين السلطنة واليمن مدة طويلة. وعندما نشبت حرب البلقان الثانية كان أحمد عزت باشا عيّن لرئاسة أركان الجيش العثماني. سنة ١٩١٣ عُيّن وزيراً للحربية وبعد سنة حلّ مكانه أنور باشا.

أحمد عزت باشا. الجنرال وزير الحرب الأسبق عارض دخول تركيا الحرب العامة سنة ١٩١٤ فأُبعد عن أي مهمات أو مسؤوليات رسمية حتى عام ١٩١٦. فسُلم إمرة جبهة القوقاز ضد روسيا على رأس قيادة فيالق عدة وعشرات الجنرالات والكولونيلات. في ١٩١٨/١٠/١٤ عيّنه السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) صدراً أعظم للحكومة الجديدة. إنما أُقيل ولم يكمل الشهر بسبب نقده الشديد تجاه قيادة حزب الاتحاد والترقي وزعمائها المشاركون في حكومته. بينما في حكومة توفيق باشا عيّن وزيراً للشؤون الخارجية. وفي إبان حرب الاستقلال (الحرب الوطنية) جرب أحمد عزت باشا القيام بدور الوسيط بين حكومة استانبول والقيادة العسكرية في أنقرة. استقال بعد الحرب. توفي في استانبول في ١٩٣٧/٣/٣١.



الصدر الأعظم سعيد حليم باشا وزير الخارجية

صدر أعظم ووزير خارجية السلطنة العثمانية منذ مقتل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا. سعيد حليم من مواليد (الأستانة) استانبول عام ١٨٦٥، حفيد محمد علي باشا والي مصر. قضى الشطر الأول من حياته في مصر، ثم انتقل إلى استانبول حيث تدرج في مناصب إدارة الدولة حتى وصل إلى منصب وزير السلطان عبد الحميد الثاني، ولكن ما لبث أن عزله السلطان بسبب قبوله رئاسة حزب الاتحاد والترقي الذي أغرى سعيداً بتنصيبه خديوياً في حال استعادة مصر من الاحتلال الإنكليزي إلى أحضان السلطنة العثمانية. سافر إلى مصر سنة ١٩٠٥ وغادرها إلى استانبول من جديد سنة ١٩٠٨ بطلب من الحزب الذي أرغم السلطان على إجراء عدد من الإصلاحات (المشروطية الثانية) وتطبيق مواد الدستور في مجريات أمور إدارة السلطنة كافة. كانت تركيا وقتئذٍ تعيش حالة سياسية اجتماعية اقتصادية حافلة بالمفاجآت والمتغيرات. يطلب من سعيد حليم باشا أن يتولى قيادة الحزب مرة أخرى. وفي سنة ١٩١١ تعيّنه الدولة العثمانية مستشاراً لها. أواخر ١٩١٢ يعهد إليه بوزارة الخارجية وعام ١٩١٣ يتفق على تسميته صدراً أعظم كتسوية وافقت عليها قيادة الاتحاديين بعد صراع كاد يكون دموياً بين أنور بك، طلعت بك، وأحمد جمال بك وخليل بك (يراجع الجزء الرابع). عندما لاحت بوادر الحرب العالمية الأولى رفض سعيد حليم باشا توريط تركيا فيها إلى جانب دول أوروبية ضد دول أوروبية أخرى وأعلن حياد السلطنة، ولما اتخذت الحكومة موقف المشاركة في الحرب بعد ضرب مرفأي أوديسا وسيباستوبول الروسيين، قدم استقالته من الصدارة ووزارة الخارجية التي رفضتها قيادة الاتحاديين ورفضت موقفه الحيادي، مغرية إياه بعرش مصر، ومحذرة من عواقب هذا الموقف، ما اضطره فيما بعد إلى أن يتبنّى موقف الحزب ويذيع نصوص مواد المعاهدة السرية المعقودة بين روسيا وبريطانيا وفرنسا (سايكس-بيكو) لتقسيم أملاك الرجل المريض (الدولة العثمانية) ويعلن الحرب على بريطانيا. تركيا تهزم في الحرب. سنة ١٩١٩ القوات الإنكليزية تدخل استانبول وتلقي القبض على الصدر الأعظم سعيد حليم باشا وتنفيه إلى جزيرة مالطا، ثم ينتقل مختاراً الاقامة في روما. في ٦ كانون الاول/ديسمبر سنة ١٩٢١ بطل قومي أرمني يرديه قتيلاً في العاصمة الإيطالية.

حمل سعيد حليم باشا أفكاراً سياسية واقتصادية اجتماعية إصلاحية ليبرالية لمستقبل السلطنة وتقدمها، هذه الأفكار الإصلاحية القيّمة عرضها في كتابه (بحر انلرمز) ومعناها أزماتنا، ويشتمل على فصول في الحكم النيابي، دعاة التقليد، الأزمة الفكرية، الأزمة الاجتماعية، فصل في التعصب. طُبع في استانبول عام ١٩١٩ كما أنه نشر مقالاً مطولاً تحدث فيه عن عالمية روح الإسلام بعنوان (إسلاملاشمق) ومعناها الجامعة الإسلامية، عدّ فيه التعصب القومي والإقليمي من أخطر المخاطر على المسلمين لكونها بعيدة من روح الإسلام. وقال «إن نهضة الأمة تكمن في التمسك بمبادئ الإسلام». ونشر هذا المقال في مجلة فرنسية (الشرق والغرب) سنة ١٩٢١ قبل أسابيع من اغتياله، ونشر أيضاً بالإنكليزية في مجلة تصدر في الهند (الثقافة الإسلامية) عدد أبريل سنة ١٩٢٧.

أما أنا شخصياً فكنت أؤثر أن أجول خلال شوارع استانبول على رأس فصيلة من الفرسان. ولكن نظراً إلى رغبتي في أن أنظر نظرة عامة إلى المشهد دخلت بسيارتي من شاطئ غلطة وتنقلت من طريق إلى آخر مخترقاً حي بانكالدي، إلى أن لحقت بالجنازة قرب كنيسة نوتردام دي سيون. أما التأثير فكان كما رجوت. ولكن ما كادت عيناي تقع على نعش السياسي الراحل الذي كنت أبني عليه كثيراً من الآمال حتى ساورتني الهموم وتملكني الحزن واليأس(١٥).

وبعد تشييع الجنازة حضر القائد سارو الفرنسي مدير «الجندرمة» (الدرك) لتهنئتي على النظام التام الذي تمتعت به العاصمة. ثم قصّ عليّ فحوى مناقشة دارت بين أمير البحر للأسطول الإيطالي والقائد باومان(١٦) (الذي عهد إليه بتنظيم الجندرمة). وقد سمعها على تل الحرية عندما كانوا في انتظار مرور المشهد. فقد قال أمير البحر لباومان ما نصه: «إن جرأة ذلك الرجل المسمى جمال بك خارقة للعادة. إن المرء لا بد أن يكون من الشجاعة والإقدام بمكان، وأن تكون له ثقة عظمى في الاحتياطات التي اتخذها لإعداد مشهد كبير مثل هذا يحتشد فيه سفراء الدول وربابنة البوارج الحربية وفي مكان ضيق، ولم يمرّ بعد على ارتكاب الجناية أكثر من يوم واحد. فيما المجرمون لا يزالون بعيدين عن سلطة القانون. فلو خطر لأحد الثوريين أن يلقي قنبلة فأصابت واحداً أو أكثر من المشيعين الكبار لاحتلت العاصمة التركية فصائل من جنودنا المرابطة في البوارج. على أن هذا الاحتمال عرض بالفعل على بساط البحث وأعدّت لتنفيذه المعدات اللازمة. ومع ذلك لم يقع ما يكدر. فلو أتيح لجمال بك أن يلقي القبض على المجرمين في خلال يوم أو يومين لقام لبلاده بأجلّ خدمة. ولاستطاع الاستفادة من هذه النتيجة بأن يطلب انسحاب أساطيلنا من العاصمة ومن البوسفور. وفي رأيي إن مقامنا هنا يدل على الفضول».

وقد وقعت الجريمة يوم الأربعاء وشيعت الجنازة الخميس، وما جاء يوم الجمعة حتى استطعت - بعد تضحية ياوري حلمي بك الذي قتل - العثور والقبض على زعماء المؤامرة، وهم كاظم الجركسي وآخرون، وإحضارهم أمام لجنة التحقيق التابعة للمحكمة العسكرية.

وقد أسفر التحقيق عن اتجاه الحزب بأجمعه وأعضائه فرداً فرداً إلى إدراك غاية واحدة هي حرمان البلاد من حكومتها. والتخلص من زعماء جمعية الاتحاد والترقي بواسطة هذه الاعتداءات الشخصية، وبالضغط على جلالة السلطان لتعيين المارشال شاكر باشا موقتاً لمنصب الصدارة العظمى. فإذا تم ذلك يؤلف المارشال برئاسته وزارة موقتة، ثم يسعى في خلال ثلاثة أو أربعة أيام أن يقضي القضاء المبرم على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، حتى إذا خلا الجو منهم تألفت وزارة جديدة فيما بعد برئاسة كامل باشا أو الأمير صباح الدين.

ولست أخشى أن يشك أحد في صحة هذه البيانات. فإنها تتأيد على نحو قاطع متى نشر التقرير الذي وضعته لجنة التحقيق والنتائج التي توصلت إليها. ولو قرأ الناس اعتراف صالح بك سكرتير شركة الترام، الذي كان له ضلع في الأعمال التي قام بها ذوو الحيثيات الذين اشتركوا في المؤامرة، لما بقيت ثمة حاجة إلى أدلة أخرى.



تشييع محمود شوكت باشا

ولا يزال صالح بك هذا على قيد الحياة وهو رجل شريف ونزيه. وقد تغلبت عليّ الرغبة في توطيد أركان السلام في البلاد نهائياً، حتى بعد معاقبة قاتلي شوكت باشا وشركائهم. فأرسلت صالح بك هذا إلى أوروبا ببضعة اقتراحات للأشخاص العديدين الذين صدر بحقهم حكم الإعدام جزاء خروجهم على الحكومة.

أما الاقتراحات فكانت بسيطة جداً، وهي تتلخص في أن يكتبوا بخطهم فيشرحوا طريقة اشتراكهم منذ إعلان الدستور في الحركات الثورية المختلفة وأعمال الاعتداء. حتى إذا فعلوا ذلك استصدرت عفواً عاماً لهم. وقد كنت طبعاً أرمي بعملي هذا إلى إنارة الرأي العام في تركيا وفي الخارج وإقامة البرهان على سخافة التهم التي تعزى إلى رجال الاتحاد والترقي. ولما عرض عليهم هذه الاقتراحات صالح بك (الذي كان يعرف معرفة تامة مبلغ اشتراك كل منهم في المؤامرة) بدت عليهم الدهشة. ولم يسعهم إلا رفضها بعدما اتهموا صالح بك بأن الحكومة رشته.

ولكنني أكرر هنا أنني لم أعط صالح بك قرشاً واحداً، ويدل اعترافه إلى أن المارشال شاكر باشا قبل منصب الصدارة موقتاً، وهو يعلم جيداً الغاية المقصودة من وراء ذلك وأن بين الذين كان ينتظر منهم التأثير في جلالة السلطان لتعيينه لذلك المنصب نفرٌ من ذوي الحيثيات والمناصب الرفيعة في الدولة. ولم تكن ثمة فائدة في اتخاذ إجراءات قانونية في حق أولئك الأشخاص ذوي الحيثيات. إذ إن مثل ذلك العمل ربما زاد الحالة ارتباكاً، فضلاً عن أنه غير منتج.

حكومة سعيد حليم باشا

وقد تقرر بعد مقتل محمود شوكت باشا ترشيح الأمير سعيد حليم باشا عن الحزب لمركز الصدارة. ولست أفهم السر في انتخاب جلالته لسعيد حليم باشا للصدارة موقتاً، ولا في إصداره الأمر بأن تسيّر الوزارة دفة الأمور موقتاً أيضاً. وعلى كل حال، ما لبثت وزارة سعيد حليم باشا أن عدّلت بعد بضعة أيام بدخول طلعت بك الذي عُيّن وزيراً للداخلية.

استطراد

أما وقد بلغت هذه النقطة، فإني أسأل السماح بخروج قصير عن الموضوع لوضع الأساس لبضع ملاحظات سياسية معينة ستتناولها هذه المذكرات فيما بعد.

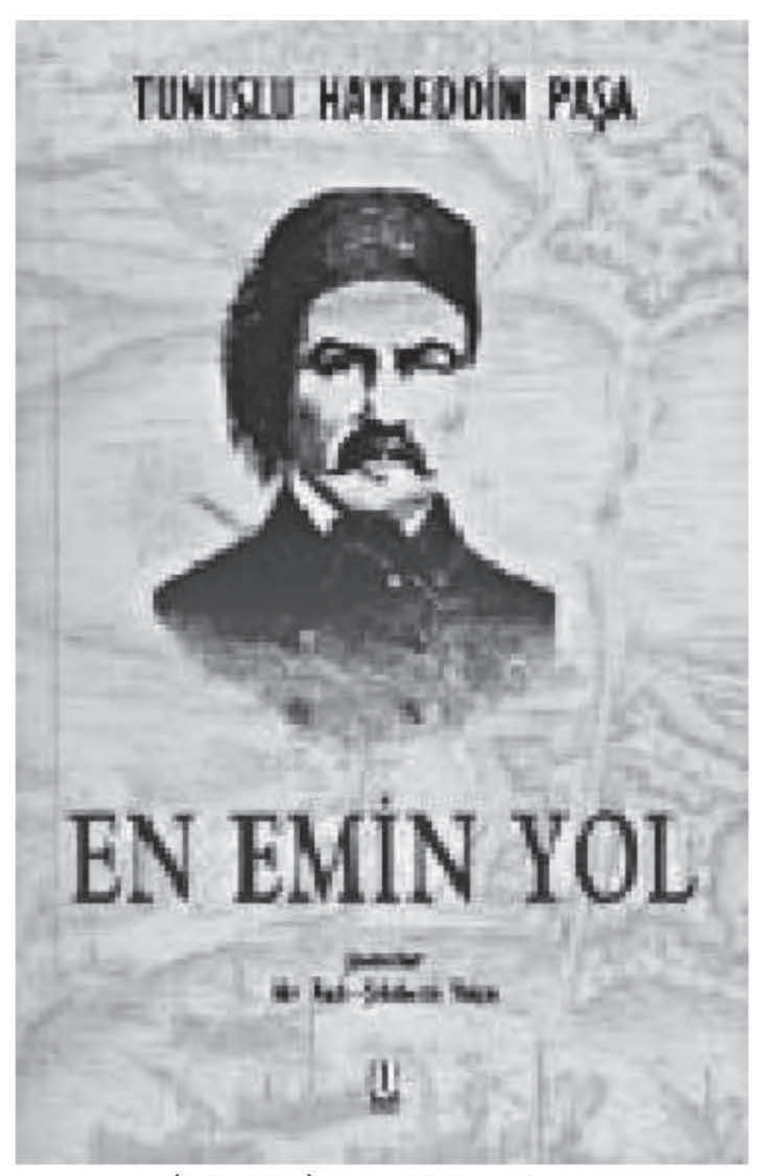
فقد قامت ضجة كبيرة حول حكم الإعدام الذي صدر على الداماد صالح باشا، وكانت المحاكمة قد انتهت، ولكن الحكم لم يصدّق عليه بعد جلالة السلطان، فسألني ذات يوم مستشار السفارة الفرنسية السيد بوب الذي كان قائماً بأعمال السفير في أثناء تغيبه بالإجازة أن أذهب إلى السفارة لمحادثته في مسألة على جانب عظيم من الأهمية، فابتدرني قائلاً: «عزيزي جمال بك، لقد تسلمت هذه اللحظة برقية من السيد بيشون وزير الخارجية، ولست في حاجة إلى أن أعرفك بصداقة بيشون لتركيا، وإني على يقين من ميولك الودية نحو فرنسا، ولذلك أردت الاستئناس برأيك في الخطة التي أريد اتّباعها».



مسيو بيشون

أما البرقية التي سلمني اياها فكانت:

«نُمي إلينا الآن أن صالحاً باشا بن خير الدين باشا التونسي قد اعتقل وحكم عليه بالإعدام. وقد أحدثت هذه الأنباء ضجة كبيرة في تونس نظراً إلى المركز الرفيع الذي يشغله صالح باشا بين الأهالي. والحكومة الفرنسية متأكدة أن إعدام أحد رعاياها لا بد أن يحدث قلقاً عظيماً في تونس. ولهذا لا مندوحة لها عن التدخل في مصلحة صالح باشا. فقابل الصدر الأعظم في الحال واطلب إليه بإلحاح أن يطلق صالح باشا وألاّ يقيم العقبات في سبيل ذهابه إلى تونس».



خير الدين باشا التونسي (١٨١٠-١٨٩٠)

مفكر ومصلح اجتماعي سياسي. داعية تنويري. رأى في التربية والتعليم أسلوب خلاص وتقدم للشعوب الإسلامية فدعا إلى إصلاح أمور المسلمين بواسطة التربية المتحررة والتعليم المنهجي المبرمج. استدعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى استانبول وادناه منه. ظن خير الدين باشا أن الفرصة واتته لوضع أفكاره موضع التطبيق. إلا أنه بعد فترة أيقن استحالة ذلك. فقدّم استقالته من الصدارة العظمى. استمر في عضوية مجلس الأعيان حتى وفاته. ترك إرثاً جليلاً مهماً (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك). أنجب ثلاثة ذكور وابنة (جليلة). وما يؤسف له أن الاتحاديين بعد ثلاث وعشرين سنة أعدموا أحد أبنائه (محمد صالح) سنة ١٩١٣ الذي كان متزوجاً من السلطانة منيرة (ت١٩٣٩) ابنة السلطان محمد وحيد الدين (السادس) مدّعين. ملفقين له تهمة التورط في اغتيال محمود شوكت باشا (الزركلي. الإعلام).

فوجمت عند تلاوة تلك البرقية، وأدركت الآن السر في رفض صالح باشا الإصغاء إلى نصائحي بالعدول عن تنظيم المؤامرة.

وكلما تجلت الحقيقة أمام عيني تملكني الأسف على بلادنا المسكينة، وبعد طول تفكير قلت للسيد بوب: «إنك تعلم عطفي الشديد على فرنسا، كما تعلم أيضاً أنني على الرغم من الانتقادات المرة التي امتلأت بها الصحف الفرنسية على سياستنا حديثاً بذلت كل جهد لإحياء روح الصداقة لفرنسا.

فإذا أردت أن تنفر الرأي العام في استانبول، بل في الشرق بأسره، ليس أسهل عليك من التدخل. ويجب أن أعلمك الآن بأن تدخلك لن يصادف نجاحاً، فإن صالحاً باشا لم يحكم عليه إلا بعد أن قام على إدانته الدليل القاطع، أما تنفيذ حكم الإعدام فيه وعلى شركائه فينتظر التصديق الشاهاني. إننا وأيْمُ اللّهِ سئمنا أن نرى الحكومة تُدمي شوكتها بارتكاب جرائم كهذه، وقد اعتزمنا هذه المرة أن نوقع الجزاء الشديد على مرتكبي الجناية مهما علا شأنهم، ولنا وطيد الأمل في أن يكبح تشددنا هذا جماح الذين تحدثهم نفوسهم بارتكاب جريمة كهذه في المستقبل.

فالضغط الذي تزمع استعماله مع الصدر الأعظم لن ينقذ صالحاً باشا من مخالب الموت، فضلاً عن أن الرأي العام سيتهم السفارة الفرنسية بتشجيع الساعين لقلب الحكومة في استانبول، وهذا لا بد من أن يتولد منه نفور دائم بين البلدين، وعندي أن خير ما تفعله هو أن تنصح لسيد بيشون بالعدول عن فكره».

فوافق السيد بوب على هذا الرأي، وفي الواقع لم يذهب مطلقاً إلى الصدر الأعظم.

وبعدما صادقت الإرادة الشاهانية على الحكم تقرر أن يكون التنفيذ في اليوم التالي، وما إن حانت الساعة الحادية عشرة مساء حتى دعاني السيد بوب إلى مقابلته شخصياً في الحال، وما كاد بصره يقع عليّ حتى سلمني، وهو منفعل انفعالاً شديداً، برقية أخرى من السيد بيشون، ويظهر أن وزير الخارجية أغضبه رد القائم بأعمال السفارة بعدم التدخل، فأصدر أوامره الصريحة بمقابلة الصدر الأعظم في الحال وإنقاذ صالح باشا أياً كان الثمن.

ولما كنت غير ميال في أن أزيد انفعال السيد بوب قلت له: «لقد أزِف الوقت يا عزيزي، فإن الإرادة الشاهانية صادقت على الحكم الذي سينفذ عند الشروق، ولقد فات وقت مخاطبة الصدر الأعظم في هذا الصدد هذه الليلة، لأن الحكم سيكون قد نفذ قبل أن يمكن استصدار أمر آخر بإلغائه، على أنني لا أستطيع أن أفهم السر في عناد السيد بيشون وما هو الدافع له على توجيه قوارص اللوم إليك بدلاً من شكرك على نصيحتك الغالية». وهنا أخذ السيد بوب على عاتقه كل المسؤولية فرفض مرة أخرى أن يتدخل تدخلاً كان يعرف تماماً أنه عقيم، وفي اليوم التالي نمي إليه أن الحكم قد نفذ.

وقبل إعدام صالح باشا بأيام أمرت بإلقاء القبض على أخويه طاهر ومحمد خير الدين بك، لأنني كنت واثقاً من أنهما كانا أشد ختلاً وخطراً من صالح باشا. فأرادت السفارة الفرنسية التدخل لمصلحتهما، وقد علمنا أن لذلك التدخل صبغة شبيهة بالرسمية، فاشترطنا في مقابل الإفراج عنهما ألاّ يتدخل هذان الرجلان مطلقاً في الشؤون التركية، وأن يتركا الجنسية التركية ويحملا الجنسية الفرنسية، وأن يذهبا إلى فرنسا، وقد تمت الإجراءات الرسمية المعتادة على هذا الأساس.

وكانت هذه آخر ما قدمه أولاد خير الدين من خدمات إلى الشعب التركي، وإني أؤمل ألاّ نسمع بذكرهما إلى الأبد.

ولِمَ هبط إلينا هذان السيدان من تونس؟ ألم يكن الأجدر بهما أن يسخّرا مواهبهما لتحرير وطنهما من النير الفرنسي؟ ولسوف نرى هل في استطاعة السيد بيشون أن يتدخل لإنقاذهما من المشنقة.

وقبل أن أختم هذه العجالة يجب أن أضيف كلمة واحدة، وهي أن الإشاعة الدنيئة الذائعة بأنني ذهبت أنا وطلعت بك إلى المابين للضغط على جلالته، إذ كان متردداً في التصديق على الحكم، ليست إلا فرية لا نصيب لها من الحقيقة. فقد أرسل في اليوم نفسه إلى الباب العالي تقرير الصدر الأعظم وملحقاته مضافاً إليه التصديق الشاهاني.

هوامش الفصل الأول:

(١) ياور: المرافق.

(٢) سينوب: مدينة على البحر الأسود شمال تركيا.

(٣) إينوس ميديا: الخط البحري الحدودي الفاصل بين الأراضي اليونانية والأراضي التركية. ويفصل جزراً وأرخبيلات في بحر إيجه عن تركيا.

(٤) الامتيازات الأجنبية: بدأت في المملكة العثمانية إبان عظمتها حين منح السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) في أواخر الربع الأول من القرن السادس عشر ممثلي حكومة البندقية حق النظر في دعاوى البنادقة المقيمين في بلاده وحقهم في إرسال مترجم إلى المحاكم العثمانية لدى النظر في الدعاوى القائمة بينهم وبين خصومهم من جنسيات أخرى. ثم عقد السلطان سليمان مع ملك فرنسا فرنسوا الأول ١٥٣٥ معاهدة سمحت للفرنسيين بحق الترافع في القنصلية التابعين لها. وإذا اختلفوا في تبعيتهم يتم التحاكم في قنصلية المدعى عليه. أما إذا كانت الدعاوى بين عثماني وأجنبي نظرت للحكم فيها المحكمة العثمانية بحضور مترجم القنصلية التي ينتمي اليها الأجنبي. لم تقف الامتيازات عند هذا الحد بل شملت ملكية الأجانب للعقارات على الأراضي العثمانية. فبقي وضعها يخضع للمعاملة نفسها الجارية على العثمانيين. كدفع الضرائب وتفريغ الملكية أو نقلها ويخضع للمحاكم العثمانية عند الضرورة. ثم توسعت الامتيازات الأجنبية وتطورت بقدر التغيّر الذي حصل في البلاد الأوروبية بسبب تعاظم بأسها ونفوذها الذي يقابله انحطاط وتدهور اجتماعي اقتصادي سياسي ثقافي في الدولة العثمانية. إلى أن شملت الامتيازات معظم رعايا الدول الأوروبية ومنحت الأجنبي حصانة من أي ملاحقة إدارية أو قضائية وميّزته عن أبناء البلد في بلدهم. ما دعا بعض الوجهاء والأغنياء إلى الانتساب لقنصلية أجنبية بصفة ترجمان أو موظف فيها.
في أواخر القرن التاسع عشر قوي نفوذ الولايات المتحدة الأميركية وطالت سطوتها مجالات متعددة. ما دفع الدولة العلية إلى الموافقة على طلبها بمنح رعاياها الأميركيين امتيازات مثل بقية الرعايا الأجانب. صارت الامتيازات ذات مضمون ومفعول سياسي، اقتصادي وقضائي شمل جوانب الحياة في تركيا كلها وولاياتها الأوروبية والآسيوية. وعبئاً تقيّدها بأغلالها. وتنافست الدول الأوروبية فيما بينها على تقاسم تركة (الرجل المريض) الإمبراطورية العثمانية.

(٥) حقيقة كان الأمير مؤيداً للحركات الاستقلالية عن السلطنة العثمانية. وكان مؤمناً بحق الشعوب الأرمنية واليونانية والسلافية في تقرير مصيرها بنفسها إنما لم يثبت أنه كان محرضاً أو مشاركاً لحركة الضباط هذه أو غيرها. بل السلطان والدراويش والمجموعات الحميدية الدموية هم الذين كانوا فعلاً المساهمين فيها. بدليل أنه لم ولن يؤيد ويحرض على بقاء خاله السلطان عبد الحميد (امه السلطانة سنيحة أخت السلطان عبد الحميد) الذي طلب له الإعدام مع ابيه محمود باشا (علي الوردي، «لمحات اجتماعية»، ص١٤١).

(٦) قلم الاستعلامات: قبل ١٩٠٩ كان بيد وإشراف السلطان مباشرة. وممن تعاقب على رئاسة شعبة الاستخبارات الوطنية «سرخفية» المشير أحمد جمال الدين وفهيم باشا. إنما بعد ١٣ نيسان/أبريل وخلع السلطان استولى الاتحاديون على محفوظاته (أرشيف ضخم ومستندات تدين وتطال رؤوساً في المعارضين والموالين للاتحاديين ومن المناطق العثمانية كافة) وأمسك بهذا القلم الرجل القوي طلعت بك يعاونه أحمد جمال بك وعزيز أفندي. مستفيدين من كنز وقع بين أيديهم من معلومات. تابع القلم دوره وتوسع وتطورت أساليبه. استفادوا من الأرشيف الحميدي، وكل ما كانوا يعترضون عليه أيام السلطان عبد الحميد الثاني من أساليب قمع وظلم مارسوه ضد أخصامهم السياسيين من طلاب الحرية والإصلاح من أبناء القوميات العثمانية وضد بعضهم بعضاً.

(٧) حوادث ١٣ نيسان/أبريل ١٩٠٩: شكل سقوط حكومة الصدر الأعظم كامل باشا نصراً عظيماً بالنسبة إلى الاتحاديين بأكثرية ١٦٩ صوتاً. ووُصف إسقاط الحكومة بالانقلاب السياسي. وألّف الاتحاديون حكومة برئاسة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا. فانبرت الصحف المعارضة الناطقة باسم حزب الأحرار والعناصر غير التركية إلى حملة ضد الاتحاديين بعد الانقلاب على صحف المعارضة الناطقة. بل نافسها في ذلك المتدينون من الترك عامة. وقد وقر في نفوس رجال الدين الصغار الذين أسسوا جمعية «اتحاد محمدي» برئاسة أحد الشيوخ المتبطلين ويدعى «درويش وحدتي»، أن ينشئوا جريدة «وولقان» ناطقة باسمهم محرضين فيها على جماعة تركيا الفتاة الذين يهددون الإسلام بالفناء والسائرين بالدولة والإسلام إلى طريق الاضمحلال. وهكذا أجمعت آراء الأحرار ورجال الدين من صوفية و«خوجات» على غاية مشتركة وهي إسقاط جمعية الاتحاد والترقي عن السلطة. السلطان عبد الحميد حريٌّ به أن يشجع ويبارك مثل هذه الخطوة كي يستعيد سلطته السابقة. استغلت الفئات الرجعية هذه الحالة من «النقمة العامة» على الاتحاديين. فغررت بضباط (الآلايلية) ضباط الصف المستائين بسبب شروع الاتحاديين في تسريحهم مع

الضباط القدامى والإتيان بضباط تخرجوا حديثاً من المدارس الحربية. وجرى إيهام هؤلاء بأن الشريعة المحمدية مهددة وقضي عليها وأن ضباطهم الجدد ملاحدة. والذي زاد في تأجيج نار الأحقاد مقتل الصحافي الحر حسن فهمي بك رئيس تحريرجريدة «سربستي» المعارضة التي دأبت على مهاجمة الاتحاديين. وجرى اتهام جلاوزة الاتحاد والترقي بقتله. في ١٩٠٩/٤/١٣ شهدت العاصمة حركة مضادة من الجند تدعمهم الفئة الدنيا من رجال الدين متظاهرين تحت شعار سقوط الاتحاديين واستبعاد بعض النواب وإعادة الضباط المسرّحين إلى وظائفهم وتطبيق الشريعة الإسلامية في الحكم. استقالت حكومة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا وخلفتها حكومة توفيق باشا وفرّ زعماء الاتحاد والترقي ومعظم نوابهم وضباطهم المغضوب عليهم إلى سيلانيك وضاحية سان ستيفانو بعد أن قتل عدداً منهم. أيضا وبسبب الشَّبَه بين نائب اللاذقية العربي الأمير محمد أرسلان ورئيس تحرير جريدة «طنين» حسين جاهد الاتحادي الطوراني قتله الثائرون. اجتمع من تبقّى من نواب مجلس المبعوثان وانتخبوا من بينهم النائب الألباني إسماعيل كمال بك رئيساً لهم. والتفت حوله المعارضة من حزب الأحرار والأرمن والألبان واليونان والبلغار مؤلفين تجمعاً سموّه «جمعية الاتحاد العثماني» ومعهم الصحف (إقدام، صباح، ترجمان حقيقت، ميزان، يني غازته، عثمانلي، سربستي) تحت شعار التمسك بالدستور والدفاع عنه. أما النواب العرب فكان موقفهم من هذه الحركة (الثورة) أن أظهروا الحكمة واتفقوا على ترك التحزب إزاء الخطر الذي يهدد الدستور،وانضموا إلى جمعية «الاتحاد العثماني». وانضمت أيضاً جمعية العلماء وأذاعت منشوراً طمأنت فيه النواب الذين عزموا على الاستقالة خوفاً من عودة الاستبداد. وأعلنت أن الحكومة دستورية شورية موافقة لأحكام الشرع الإسلامي. وأن جمعية العلماء عزمت على مظاهرة المبعوثين للمحافظة على الحكومة الدستورية الشرعية. ووقف إسماعيل كمال بك في مجلس المبعوثان يطمئن من بقي من النواب الاتحاديين. هذه الحركة من النواب وتعيين حكومة اعتبرها البعض غير دستورية مع أنها لم تك تريد العودة إلى نظام الحكم المطلق القديم. على الرغم من وجود عناصر رجعية في الحركة كانت على صلة بالسلطان. كانت الحركة موجّهة خصوصاً ضد استبداد جمعية الاتحاد والترقي الذي حلّ مكان استبداد السلطان عبد الحميد الذي لم يُبدِ رغبة ظاهرة في استغلال هذه الحركة للقضاء على المشروطية (الدستور). إلا أن الأمر لم يدم للمعارضة في حكم البلاد. فتحرك الجيش الثالث «جيش سيلانيك» الذي يسيطر عليه الاتحاديين بقيادة الفريق محمود شوكت باشا باتجاه العاصمة للقضاء على معارضي الاتحاد والترقي. اجتمع النواب الاتحاديون الهاربين من العاصمة في ضاحية سان ستيفانو. وكلما كان الجيش يقترب من العاصمة كان النواب الاتحاديون المتخلفون فيها يتحفّزون للحاق برفاقهم والانضمام إليهم ليؤلفوا هناك مجلس سان ستيفانو المدعوم من الجيش الذي اجتاح العاصمة (دار علية) ويقوموا بعزل السلطان بعد أن استصدروا فتوى بخلعه بتوقيع شيخ الإسلام (أحد مشايخهم) وتنصيب أخيه ولي العهد محمد رشاد سلطاناً على العرش باسم محمد الخامس خليفة للمسلمين. وأعلنت الأحكام العرفية ونشطت محكمتها وملاحقة المعارضين فنُصبت المشانق وجرت إعدامات داخل الثكنات وخارجها لمئات الضباط والجنود. وامتلأت الشوارع بجثث مشائخ وسياسيين مستقلين ونواب ومثقفين أحرار و«رجعيين». وازدان رصيف «غلطة». مُنع التجول وحرية الصحافة والتجمع أو التظاهر واستكملت الاغتيالات لمن لم تطله المحكمة. بهذا تمكن الاتحاديون من تصفية معظم معارضيهم وإزاحة كل من يعترضهم ناشرين جواً إرهابياً في السلطنة.

(٨) عصابات الضباط الاحرار أو (مجموعة ضباط الإنقاذ): انتهت الانتخابات النيابية والتأم البرلمان ذا اللون الواحد لصالح الاتحاديين بأكثرية ساحقة. للوصول إلى صدارة البرلمان استوسلوا كل وسيلة ممكنة وحرّموه على خصومهم من تهديد بالقتل. تغيير تركيبة الاقضية. تغيير دوائر الترشيح لمرشحيهم إذا رأوا ذلك مناسباً لهم . زوروا الهويات. ضربوا مرشحين. كرروا أيام الاقتراع لخسران مرشحيهم في المكان الأول فيرشح في مكان آخر وينجح. لفقوا حكايا وإخباريات عن خصومهم. فقط أربعة نواب قدامى للاتحاديين سقطوا. أي بالاغلبية المطلقة!!! واعتقدوا أنهم أسياد الملعب. على الرغم من الفوز المصطنع وان تجانس النواب سيمكنهم من ادارة البلاد كما يشتهون. الا ان الرأي العام العثماني لم يسكت على المهزلة والاستهتار. المعارضة من عرب وترك وأراوم والبان وبلغار وارمن أظهرت غضبها عبر الصحافة والاجتماعات والخطب وتجاوب الجيش معها. ما حدا بمجموعة كبيرة من الضباط العثمانيين أن تثور في مناستير ضد الحكومة الاتحادية بقيادة النقيب (اليوزباشي) طيار بك رفيق نيازي وانور في ثورة ١٩٠٨. هؤلاء الضباط لجأوا إلى الجبال في ١٩١٢/٦/١١ وطالبوا بتشكيل حكومة جديدة خالية من الاتحاديين بإمكانها ان تحوز على ثقة الناس في الداخل والخارج. واشترطوا على الحكومة الجديدة ان تقوم بـ:

- حل مجلس المبعوثان الجديد
- إجراء انتخابات جديدة مع ترك حرية الانتخاب للناس حتى يكون مجلساً صحيحاً لمكونات الامة العثمانية.
- تنظيم وادارة الدولة بتعيين الموظفين الكفوئين من دون انتماء حزبي.
- ابعاد الضباط والجنود عن العمل في السياسة وتطهير أركان حرب الجيش من المحازبين.
- منع حزب الاتحاد والترقي من التدخل في شؤون ادارة الدولة.
- منح جميع العناصر المؤلفة للسلطنة الحرية والمساواة التامة.

وكانت حركة الضباط خليطاً من الالبان والاروام والترك وغيرهم. وواكب هذه الحركة تحرك شعبي الباني نتج عنه ١٢ مطلبا. لم تك هذه المطالب مقتصرة للألبان فقط بل لصالح بقية القوميات والعناصر المؤلفة للسلطنة. ولقيت حركة الضباط تأييداً من حاميات ازمير ودمشق وحلب. التذمر العام تعاظم بسبب سوء ادارة الاتحاديين وانفرادهم بالسلطة على مقدرات السلطنة. الامر الذي حدا بالصدر الاعظم سعيد باشا إلى تقديم استقالة حكومته التي عاشت اكثر من الطبيعي ٢٨ يوماً وتكليف الصدر الاعظم احمد مختار باشا الغازي لتشكيل حكومة جديدة. اما ما ينسب إلى صباح بك انه حرض هؤلاء فهذا محض تلفيق من الاتحاديين. فهم بغير حاجة إلى من يحرضهم اما انه ايدهم فهذا موقف طبيعي. لأن الاتحاديين يعتبرون من ليس معهم عدوهم.

(٩) ثورة الأرناؤوط (ثورة ألبانيا): الثورة بهدف انشاء مملكة البانية مستقلة عن السلطنة العثمانية كان يحضر لها منذ زمن. من قِبَل القوى القومية المحلية «الماليسور» (مسيحيين) والأرناؤوط (مسلمين) داخل البانيا. فليس سببها أو دافعها العراك الذي حصل داخل البرلمان مع نائب برات اسماعيل كمال بك زعيم المعارضة الذي انتقد الصدر الاعظم حقي باشا على الرشوة وفساد ادارة الدولة من قبل الاتحاديين. وحاول النواب الاتحاديون إسكات النائب مفتعلين الضجيج والسباب والتهديد. واقترب الصدر الاعظم لضرب النائب ممسكاً به. إلا ان النائب الاتحادي درويش بك من خلف الصدر الاعظم كان اسرع بتوجيه اللطمة على وجه النائب اسماعيل. النواب الالبان لحظتها وجهوا تهديداً للاتحاديين بان ذلك سيكلفهم ثمنا باهظاً. فعلاً. كان هذا أحد الأسباب المباشرة لقيام الثورة واسقاط الحاميات العثمانية بيد الالبان واعلان استقلال المملكة الألبانية وطردهم من البانيا.

(١٠) أحمد باشا عبوق (أبوك): ولد في كاباردينو عام ١٨٥٧ لعائلة شركسية هاجرت إلى الأناضول وهو طفل من منطقة القوقاز. تخرج من الأكاديمية العسكرية في عام ١٨٧٩. ألحق الرائد أحمد مفوضاً عسكرياً سنة ١٨٨١ ضمن هيئة العاملين في السفارة العثمانية في بلغراد. ثم ملحقاً عسكرياً في السفارة العثمانية في موسكو. أيد المشروطية الثانية سنة ١٩٠٨ وحزب الاتحاد والترقي. ولم يتردد في توجيه النقد لممارسات الاتحاديين غير السليمة. كان عضواً في مجلس قيادة الاكاديمية العسكرية. وتولى قيادة فيلق ثم نائب قائد جبهة القوقاز ثم قائداً للجيش في شطالجة. اعفاه أنور من مناصبه والمهام التي كان يتولاها واحاله إلى التقاعد ليعيش في دمشق.
عين وزيراً للحربية في الحكومة سنة ١٩١٩ برئاسة فريد باشا. ووزيراً للعمل في حكومة علي رضا باشا سنة ١٩١٩-١٩٢٠. ساعد أحمد باشا المهاجرين الشركس القادمين من القوقاز. وتجنب العمل مع الحركات السياسية الشركسية أو التعاون معها. الاتحاديين استفادوا من المهاجرين الشركس إلى تركيا بضم قسم منهم للعمل في النشاطات الحربية ضد الارمن والآثوريين. توفي ودفن في مدافن الشركس في استانبول.

(١١) حركة الائتلافيين: بعد الانقلاب العثماني ١٩٠٨/٧/٢٣ أدرك السلطان عبد الحميد خطورة الوضع وأصدر أمراً بإعادة الدستور والشروع في الانتخابات ما يسهّل له إتمام القبضة الحديدية على مقاليد السلطة كلها. وظن الناس أن زمن الاستبداد ولّى. واستتب الأمر للاتحاديين واطمأنوا إلى نفوذهم وأعلنوا خطتهم الحقيقية بإقامة (دولة تركية صرفة) وسط شعوب وقوميات مختلفة. انفصل عن جمعية الاتحاد والترقي العديد من المفكرين والقادة من القوميات كافة ووجهوا إليها الانتقادات بسبب سيطرة غلاة (الطورانيين) وأنشأوا جمعية جديدة مع آخرين اختاروا لها اسم (الحرية والائتلاف) غايتها الإصلاح الإداري السياسي في الولايات العثمانية (منح الاستقلال الإداري الداخلي وليس السياسي وإدارة شؤون المملكة على أساس اللامركزية) فضمت الصدر الأعظم كامل باشا وعلي كمال بك ورضا نور وإسماعيل كمال بك.

(١٢) الداماد: الصهر. المتزوج من إحدى بنات السلطان أو إحدى أخواته أو بنت أخيه أو ابنة أخته (العائلة المالكة).

(١٣) بتخطيط منه وبإشرافه تم تنفيذ مشاريع عمرانية كتوسيع وشق طرق جديدة ربطت المناطق والولايات ببعضها البعض. حتى الآن يسمى باسمه أحد أهم شوارع مدينة طرابلس/لبنان.

(١٤) المساجيرو ماريتيم: شركة بحرية فرنسية أقامت لها خطوط للنقل والشحن البحري بين موانئ فرنسا وموانئ حوض البحر الأبيض المتوسط.

(١٥) مقتل محمود شوكت باشا: بعض المراجع أشارت إلى أن مقتل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا كان من تدبير الاتحاديين بسبب تمايز مواقفه السياسية المعتدلة الغير عدائية تجاه القوى السياسية المعارضة، وضغوطه على العسكريين وتحذيره لهم للابتعاد عن العمل السياسي. وبمقتله صار لدى الاتحاديين مبررات للانتقام من خصومهم السياسيين والبطش والتنكيل بهم نفياً وتشريداً وسجناً وإعداماً (بطريقهم أعدموا محمد صالح أحد أبناء خير الدين التونسي صدر أعظم أسبق). وإن كانت الحقيقة لم تنجلِ. يبقى هذا العمل غير بعيد عن مناقبية وتقاليد رجال الاتحاد والترقي.

(١٦) باومان: ضابط فرنسي اشتهر عنه ثقافته العسكرية وحزمه وقدرته القيادية التنظيمية. كانت مهمته الإشراف على إعادة تدبير وتركيب الهيكلية التنظيمية للقوى الأمنية الداخلية العسكرية العثمانية وتدريبها. قبل الحرب العالمية الأولى. وجيء به إلى لبنان لتنفيذ المهمة ذاتها. (يوسف الحكيم في مذكراته. ج٢. ط٤. دار النهار. ص١٨ إن حاكم لبنان أوهانس باشا هو الذي استدعى الضابط الفرنسي). إن السياسة الحكيمة التي أظهرها الحاكم باستدعائه مفتشين من العاصمة قد سهلت له بعد اطلاعه على النظام البالي الذي كان الجند اللبناني عليه. أن يستعين بموافقة الباب العالي بخبير فرنسي لوضع نظام جديد للجند يتفق والتطور العصري. فكان له ما أراد. وجاء الخبير الفرنسي برتبة قومندان. ظل في لبنان على نفقة الحكومة عشرة أيام. درس أثناءها حالة الجند من جميع النواحي العسكرية والإدارية والمالية. وعاد إلى بلده فوضع تقريره مرفقاً بمشروع النظام المقتضى. كان لعمل الحاكم هذا صدى حسن لدى المرجع العثماني ولدى فرنسا والدول الأوروبية الموقعة على صكّ امتياز لبنان. الحريصة على سلامته من تدخّل الدولة العثمانية في شؤونه الداخلية تدخلاً قد يؤدي مع الزمن إلى الإخلال باستقلاله الإداري.

الفصل الثاني

استرجاع أدرنة
وانتهاء الحرب البلقانية الثانية

لم يضطر محمود شوكت باشا في افتتاح وزارته إلى توقيع الصلح الابتدائي وقبول خط إينوس ميديا إلا بعد فشل هجوم شاركوه وسقوط حامياتنا في أدرنة ويانيا وأشقودرة في ألبانيا. ولم يمرّ على مقتل الباشا إلا زمن قليل حتى اندلعت ألسنة الحرب البلقانية الثانية[1] وزحفت الصرب واليونان ورومانيا على بلغاريا. فكان علينا أن نستخدم هذا الموقف الجديد لمهاجمة البلغاريين بأنفسنا لنسترجع أدرنة. وكان أعضاء الحزب على بكرة أبيهم يظنون أن الحكومة قد وصلت إلى هذا القرار وأملوا بحق أن يتحرك الجيش في الحال لإدراك تلك الغاية. فبذل السير إدوارد غراي وزير خارجية إنكلترا - الذي كان مطّلعاً على حقيقة ميول استانبول في هذا الصدد - كل جهود. وتدخلت السفارة الإنكليزية لإقناع الباب العالي بالعدول عن تلك الخطة. بل إنه لجأ إلى استعمال التهديد في مجلس العموم. وكانت وزارتنا نفسها مختلفة رأياً.



إدوارد غراي

ولن تبرح من ذهني الحادثة الآتية: فقد ذهبت مساء جمعة إلى سعيد حليم باشا في ينى كوى. وكان الوزراء جميعاً عنده حيث كان مجلس الوزراء منعقداً. وقبل وصولي

تناولوا بالبحث جملة أمور ثم خرجوا إلى شرفة القصر الحجرية المطلة على البحر لترويح النفس.

فقال عثمان نظامي باشا لزميله شوروك سولون محمود باشا وزير البحرية، وكان واقفاً بجانبه: «إنني إذا استطعت إقناع الحاضرين هنا بالعدول عن فكرة استرجاع أدرنة أكون قد قدمت لبلادي أجلّ خدمة»، فتأففت من سخافة هذا الرأي الذي يناقض تماماً مصلحة الوطن.

وفي إحدى الغرف وجدت سعيد حليم باشا ومعه طلعت بك وقد علتهما الكآبة، فالتفت إليّ سعيد حليم باشا قائلاً: «لقد أخفقنا تماماً في حمل معظمهم على الموافقة على التدخل، فترانا في حيرة لا ندري ماذا نفعل».

وأخبرني طلعت بك أنه يستطيع تسوية المسألة المالية في اليوم التالي بعد اجتماعه بالسيد ويل المدير العام لشركة الريجي، وقد بحث الأمر معه في اليوم التالي بحضوري فوعد السيد ويل بإقراض الحكومة مليوناً ونصف مليون جنيه، في مقابل تمديد امتياز الريجي خمسة عشر عاماً. وبناءً على قرار مجلس الوزراء قبل وزير المال رفعت بك ووزير الداخلية طلعت بك هذه الشروط، وهذا يفسر مسألة تمديد امتياز شركة الريجي، وهي المسألة التي ظل مجلس النواب طيلة عامين أو ثلاثة يعدّها إحدى جرائم جاويد بك. وإني واثق تماماً بأن الحكومة التي تقبل تلك الشروط في ذلك الظرف العصيب لا تستطيع بحال ما إن تنقض ما ارتبطت به.

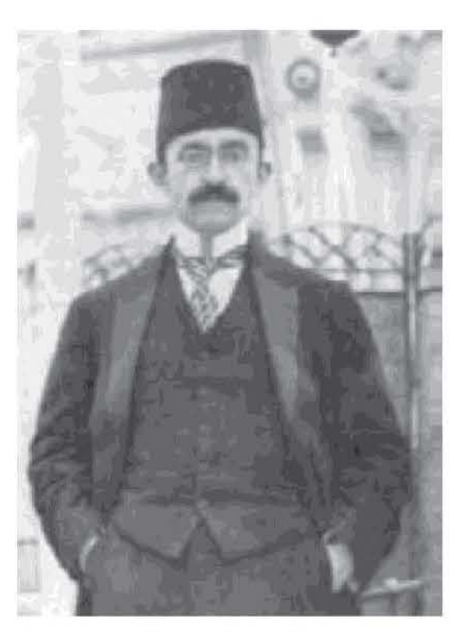
وذهب طلعت بك في سيارته في اليوم نفسه إلى خادم كوى لاستطلاع رأي نائب القائد العام في وزارة الحربية عزت باشا، فصرح عزت باشا بأن هناك مسألتين على جانب عظيم من الأهمية، وأنه مستعد



عثمان نظامي باشا



رفعت بك



محمد جاويد/جاهد/جواد (١٨٧٥-١٩٢٦)
JAVID (Cavid) BEY, MEHMED

ولد في سيلانيك سنة ١٨٧٥ لعائلة يتعاطى سيدها التجارة. تسمّى بـ محمد جاهد. من يهود الدونمة. من سيلانيك. بعد تخرجه كلية التجارة سنة ١٨٩٦ عمل في بنك الزراعة وقسم الاحصاء التابع لوزارة التربية لفترة. سنة ١٨٩٩ عين مديرا لمدرسة تعليم الثانوي. في الوقت نفسه كان يدرس المالية والاقتصاد. وبسبب موقفه المعارض لممارسات الحكومة من ضريبة العشر جرى منعه من التعليم. ذهب الى سيلانيك وعمل مدرساً في مدرسة خاصة. كانت مرحلة هامة في حياته عندما أنشأ جاويد صلة مع جمعية الاتحاد والترقي وصار أحد أهم الاعضاء نفوذاً لمعرفته في علم الاقتصاد وقدرته الخطابية بين الجمهور والتعاطي معه.

عاد جاويد الى العاصمة استانبول بعد الاعلان الثاني للعمل (بشروط) باحكام الدستور (المشروطية الثاني). وانتخب للبرلمان عن منطقة سيلانيك. وعاد الى التعليم مرة أخرى. في السنة التي تلتها أصبح وزيراً للمالية. استقال جاويد بك منها وعين وزيراً للأشغال العامة في شباط ١٩١٢ التي بقي فيها لبضعة أشهر. ثم أعيد الى المالية.

عيّن جاويد والياً على بغداد فوصلها في ١٩١٤/١/١٨. بعد أشهر قفل عائداً ليعين وزيراً في حكومة الامير سعيد حليم في ١٩١٤/١١/٥ ومسؤولاً عن أي مفاوضات إقتصادية-مالية. قدّم استقالته من الحكومة احتجاجا على توريط تركيا في الحرب العالمية الى جانب المانيا عندما أصرّ القابضون على زمام الامور السياسية في الحكومة (أنور/طلعت/خليل/احمد جمال/فتحي/مدحت). واصل جاويد عضويته في قيادة الاتحاد والترقي (الحزب القائد) وتأثيره على السياسة الاقتصادية التركية في زمن الحرب (حيث كان له دور فعال في إعادة ترتيب امور المالية للامبراطورية العثمانية ، وضمان الحيوية القروض الأجنبية. واستعادة ثقة المستثمرين..). جاويد تخلى عن معارضته وتبنى سياسة اقتصادية أكثر ليبرالية. ساهم جاويد من موقعه في الحزب الى جانب قياديين وزراءا ونوابا يهودا عملياً وبفعالية لإنجاح خطط ومشاريع الوكالة اليهودية الصهيونية العالمية داخل الامبراطورية العثمانية. خصوصاً في فلسطين وبقية بلاد الشام. من (الغاء الجوازات الخاصة باليهود وفترة السماح/ازالة العوائق الادارية في استملاكهم الاراضي الزراعية الاميرية (الخاصة بالسلطان عبدالحميد) الجفتلك.

١٠ شباط/فبراير ١٩١٧. طلعت باشا يؤلف حكومة جديدة ويصبح الصدر الأعظم. ويحتفظ بهذا المنصب وزير المالية مرة أخرى. أيضاً في حكومة احمد عزت باشا التي أنشأت قبل بضعة أيام على الهدنة. بعد الحرب غادر البلاد في ديسمبر كانون الاول عام ١٩١٩. وحوكم غيابيا من قبل محكمة عسكرية وحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عاما. (وقال انه اختبأ في استانبول. رافضاً الفرار الى سويسرا بعد ان عرض للانضمام الى القوى القومية في الأناضول الذي قوبل بالرفض. هناك عاش سنوات عدة. تزوج من علية Aliye. وهي أميرة عثمانية. في سنة ١٩٢٢ عاد الى الظهور في استانبول. وبدأ يدعم المقاومة الوطنية.

في شباط/فبراير ١٩٢١. حضر مؤتمر لندن كمستشار لوفد أنقرة. كما انه ذهب الى لوزان. ليكون المستشار المالي للوفد التركي. لكنه أبعد لأنه لا يمكن أن يتفق مع عصمت باشا حول كيفية توزيع ديون الإمبراطورية العثمانية قبل أن يتم تدبيرها.

ظلّ يعمل في السياسة العامة إلى ان شارك في مؤامرات ضد سياسة وقيادة الزعيم مصطفى كمال في عام ١٩٢٦. قبض عليه بتهمة التورط في محاولة اغتيال مصطفى كمال. دافع عن نفسه بشكل جيد في المحكمة . لكنها لم تغير الحكم. أعدم جاويد بك في ٢٦ آب ١٩٢٦ في انقرة.

نشر العديد من الكتب الموثوق بها بشأن الاقتصاد العثماني(٤ مجلدات. ١٨٩٩-١٩٠١)

شارك رضا توفيق واحمد رضا في دراسات اجتماعية واقتصادية في مجلة العلوم الاجتماعية التي تمتعت بنفوذ في الاوساط العلمية. تمثل مذكرات محمد جاويد بك التي نشرها في مجلة طنين مصدرا هاما لدراسة تلك الحقبة.

لإصدار الأمر للجيش بالزحف إذا اطمأنت نفسه إلى هاتين المسألتين، وهما:

أولاً: أيحتمل أن تؤدي الارتباكات السياسية التي تنشأ عن زحف الجيش إلى إيقاع البلاد في خطر شديد؟

ثانياً: ألدينا المال الكافي لمؤونة الجنود؟

وعندئذ انبرى طلعت بك يشرح موقف الأقلية في الوزارة من النقطة الأولى، وأضاف إلى ذلك أن المسألة المالية قد سويت بسبب تمديد امتياز شركة الريجي. ثم عاد في اليوم التالي بعد مصادقة عزت باشا. وبالرغم من كل ذلك كان معظم الوزراء يعتقدون أن الزحف ستكون له عواقب وخيمة على تركيا.

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت مع مدحت شكري بك لمقابلة الوزراء الذين كانوا لا يزالون مترددين، فأوضحت لهم أننا نضيع حقنا الأدبي في إدارة دفة الحكومة، بل علينا تقديم استقالتنا الآن إذا تركنا هذه الفرصة لاسترجاع أدرنة تذهب من دون انتهازها، لأن ذلك كان السبب عينه الذي حملنا على قلب الحكومة السالفة والذي من أجله قتل نائب القائد العام ووزير الحربية (ناظم باشا).

فاقتنع بعضهم وأعلن بعضهم الآخر عزمه على الاستقالة، فقلنا لهم إن الواجب يقضي عليهم أن يظهروا إخلاصهم لقضية الوطن بالبقاء في مراكزهم، وبعد لأي أمكن إحراز أغلبية قبل التئام مجلس الوزراء، وفي هذا القسم من مذكراتي أخول حق التصريح بالأسماء.

ولم يكن اشتراكي في هذه المسألة إلا لأني أحد زعماء حزبنا، ولأنني كنت على أتم اتصال وأمتن صداقة مع الوزراء التابعين للحزب، ولم يكن، كما ادعت إحدى الصحف فيما بعد بقصد التأثير أو استعمال القوة ضد الوزراء، فكما أنني لم أسمح لغيري بالتدخل في شؤون إدارتي، سواء كانت صغيرة أم كبيرة، كذلك لم أشأ التدخل في شؤون لا تخصني وقصرت نفسي دوماً على الإعراب عن رغباتي أو إسداء النصح الودي لزملائي، وبهذه الوسيلة استطعت الاحتفاظ بمودتهم.

ويمكنني في هذه المناسبة أن أدحض في أي وقت كل ما قيل مناقضاً لذلك، وحسبك المثال الآتي: فإن الوجوه المبتسمة التي عاد بها الوزراء من مجلس الباب العالي الذي كانوا يخشونه ملأتنا جميعاً ثقة، ولما صدر لجيشنا الأمر بالزحف لاحتلال أدرنة أخبر وزير خارجيتنا الدول العظمى في مذكرة أرسلها إلى سفرائنا في الخارج بأن غاية الجيش هي تحرير أدرنة، وأن الزحف سيقف متى تحققت هذه الغاية، وأنه لن يعبر الشاطئ الأيمن لنهر ماريتزا بحال من الأحوال. وعندي أن هذه المذكرة كانت خطأً سياسياً، أولاً لأننا لا يمكننا أن نقنع باسترجاع أدرنة لأن الضرورة تقضي أن يظل الماريتزا «ماريج» نهراً تركياً، كما يجب أن تُردّ إلينا دده أغاج لأنها الحدود الطبيعية على ساحل بحر إيجه.

وثانياً إن سلامة أدرنة تقتضي أن يبقى في أيدينا ديمتوقة وسافانتي والأراضي المجاورة، وإذا تذكرنا أيضاً أن ٨٥ في المئة من سكان كوملجينا وأسكتش وما جاورهما مسلمون، علمنا أن واجبنا المقدس يقتضي السعي لاسترداد هذين المكانين. طبعاً لم يكن ممكناً التأكد من نجاح هذا المشروع، ولكن إصدار هذه المذكرة التي قيدت الحكومة من أول الأمر بوعد صريح، لا يدل بحال من الأحوال على نفاذ الرأي والرؤية.

وسأبين فيما بعد كيف أن المندوبين العثمانيين في مؤتمر استانبول حاولوا للتغلب على خصومهم أن يبنوا قضيتهم على أساس الموقف الحاضر، ولكن الوعد الصريح المعطى من قبل لم يمكّنهم من إبداء



مدحت شكري بليدا (١٨٧٢-١٩٥٦)
Mithat Şükrü Bleda, Selanik-İstanbul

ولد في سيلانيك المنطقة المفتوحة على اوروبا. تخرج من الكلية السلطانية. وفي الكلية تعرف على أعضاء (حزب) الجمعية ومبادئها واهدافها ولاقت في نفسه هوى فانتسب اليها.

من قياديي الصف الاول في الاتحاد والترقي. ساهم في تطوير جمعية الاتحاد والترقي وصولاً إلى عضوية لجنتها المركزية وسكرتيرها العام فيما بعد. شارك في كل المسائل التي واجهها الحزب.انتدبته القيادة لحضور المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ومراقبة أعماله ونقل مطالب العرب المؤتمرين الى القيادة في استانبول. من المتطرفين الطورانيين. عينته قيادة الحزب ليكون صلة الوصل بين قيادة الحزب السياسية والقيادة العسكرية للتشكيلات الخاصة. فشارك في متابعة تنفيذ المهام وتلبية حاجاتها وحلحلة مسائل تعترضها في تنفيذ ماهو مطلوب. تشكلت بعد معاهدة مودروس (هدنة) في ظل حكومة الصدر الاعظم الداماد فريد باشا المحكمة التركية للنظر في الجرائم التي مارسها حزب الاتحاد والترقي والحكومات المتعاقبة بحق البشر. المحكمة وجدته مذنباً بتهمة ارتكاب جرائم بحق الإنسانية (المجازر بحق السكان الأرمن العثمانيين ان في قراهم او خلال انتقالهم القسري الى المنافي). ما أنقذه من حبل المشنقة ان نقلته بارجة بريطانية الى مالطا كأسير حرب مع غيره من مجرمي الاتحاد والترقي المطلوبين للمحكمة. عاد إلى تركيا وشارك في الحياة السياسية ترشح للنيابة عن سيواس سنة ١٩٣٥ ثم دراما وعن بوردور حتى سنة ١٩٥٠. تقاعد من العمل العام. توفي سنة ١٩٥٦ في ١٩ شباط/فبراير. وبناء على وصيته دفن في مقبرة الحرية للخالدين في استانبول. حيث معظم الاتحاديين.

سبب منطقي معقول للرفض.

السياسة الإنكليزية

وما كادت الحكومة العثمانية تعتزم تحرير أدرنة وتصدر الأوامر للجيش بالزحف، حتى ألقت السياسة الإنكليزية القناع عن وجهها وظهرت بمظهرها الحقيقي، فواصلت جهودها بواسطة السفارة الإنكليزية للباب العالي لمنع الجيش العثماني من عبور خط إينوس ميديا. وأعلن السير إدوارد غراي في مجلس العموم بأن الأتراك لو حاولوا استغلال هزيمة بلغاريا بواسطة الصرب لاسترداد أدرنة على الرغم من معاهدة لندن، لسوف يجازون أشدّ جزاء ويفقدون أملاكهم الباقية في أوروبا، لا بل استانبول نفسها.

وقد ظهر جلياً من المذكرة المرسلة إلى الباب العالي ومن الخطب التي ألقاها إدوارد غراي أن سياسة إنكلترا كانت عدائية نحو الحكومة التركية، وأنها كانت تنتهز كل فرصة لتعقيد الأمور في وجه الأتراك، وأنها اعتزمت أن تستفيد من العقبات التي حالت دون الاتحاد الداخلي في تركيا.

ولا بد من أن يُدهش القارئ إذا علم أن روسيا وقت احتلالنا لأدرنة كانت ميالة إلينا كثيراً، وقد قضيت وقتاً طويلاً للوقوف على الأسباب التي حدت روسيا على أن تعمل بهذه الطريقة العلنية ضد مصالح بلغاريا.

فلما عهد إليّ بوضع أساس صالح للتفاهم بين تركيا وبلغاريا، وشرعت يومها أحادث المندوب البلغاري توشيف، أشرت إلى تلك العبارة وسألته رأيه فيها فقال: «إن الروس يعتبرون استانبول إرثهم الطبيعي، فأول شيء يهتمون به هو أن تسقط المدينة في أيديهم، ومتى سقطت وجب أن يكون إلى جانبها جزء كبير من الأرض يكفل حمايتها.

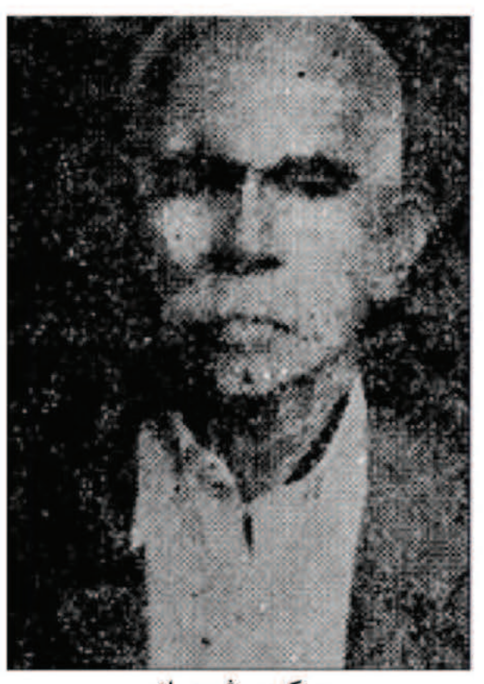
فلو ظلت أدرنة في أيدي الأتراك لاستولى عليها الروس أيضاً، فإذا ما أرادوا غزو بلغاريا فسيكون لجيشهم المدى الواسع للمناورة». وقد ظهر لي أن هذا التفسير معقول ومقنع.

وكانت فرنسا ضمن من عارض استردادنا لأدرنة، لأن السياسة الفرنسية كانت خاضعة للسياسة الإنكليزية، فأرسل السفير الفرنسي إلى الباب العالي مذكرة شفوية أعرب فيها عن عدم موافقة الحكومة الفرنسية على زحف الجيش التركي، وفي الوقت نفسه اندفعت الصحف الفرنسية إلى استهجان المشروع بأشد لهجة، ولكنّا ولله الحمد تمكنّا من احتلال أدرنة برغم كل هذه العقبات، وفي النهاية اضطرت بلغاريا إلى أن تعترف بالأمر الواقع في معاهدة استانبول.

حكومة تراقيا الغربية الموقتة

فلما زحف الجيش إلى أدرنة أصدرت الحكومة مذكرة أكدت فيها بعبارة لا لبس فيها وواضحة أن الجنود لا يعبرون الماريتزا (الماريج). ولكن على الرغم من هذه الحقيقة تمكّن بضع شخصيات،

بما لهم من نفوذ كبير في الجيش، من إقناع الحكومة وهيئة أركان الحرب بأن ذلك الوعد ليس في أوانه، وحملوهما على أن يغمضا أعينهما عن أعمال تلك الهيئة غير الرسمية المسماة «التشكيلات الخاصة»[٢]. وبهذه الوسيلة أصبحت يد تلك الهيئة مطلقة في ضفة النهر البعيدة، فنجحت تلك التشكيلة بواسطة الزحف السريع مع حسن القيادة في احتلال تراقيا الغربية كلها حتى سهل قراصو.



جركس رشيد بك

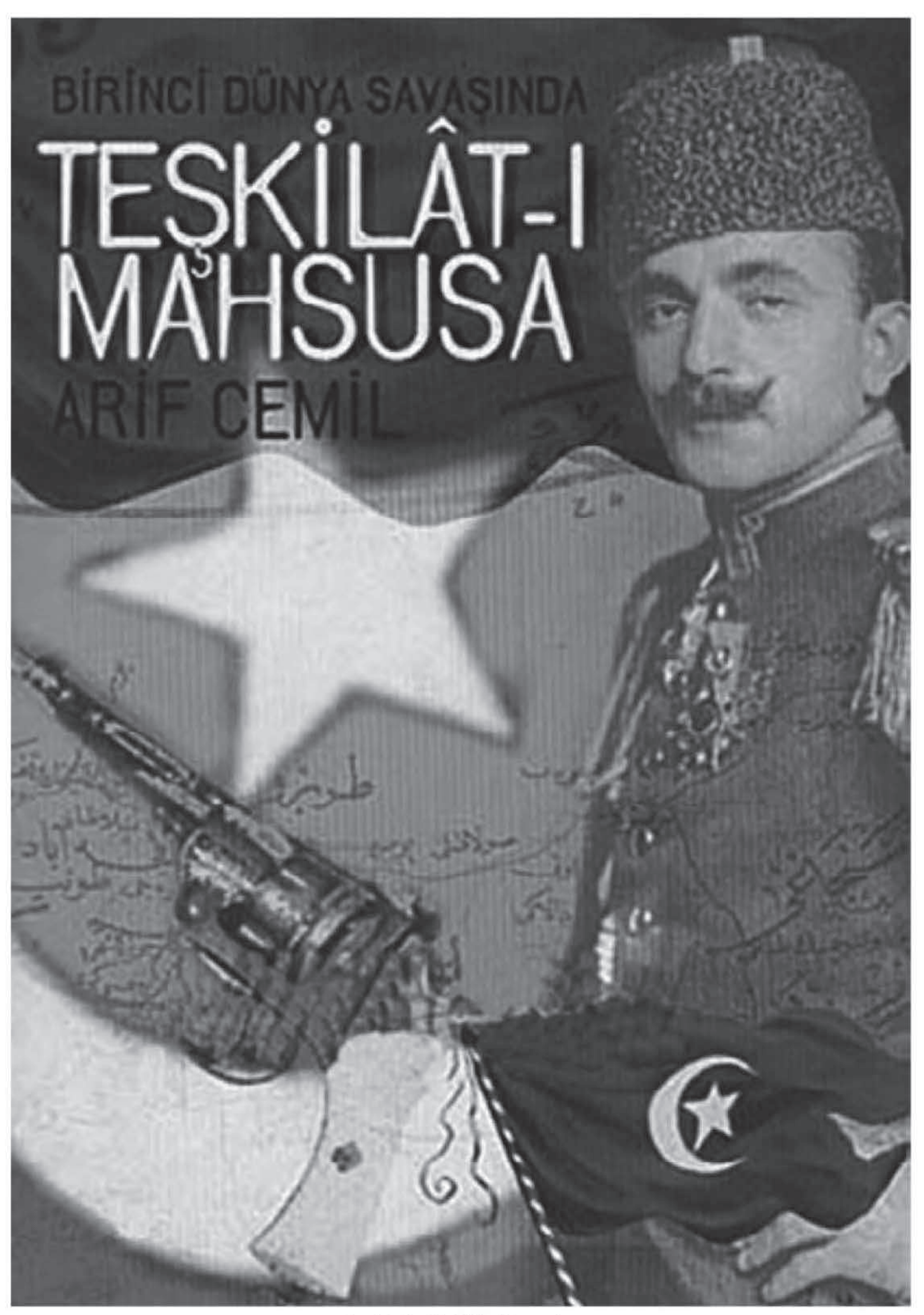
أما تراقيا الغربية فهي سهل شاسع يحتوي على قضاءي أورطة وكوى وكيرديا علي وسنجقي دده أغاج وكوملجينا وولاية أدرنة، ٨٥ في المئة من سكانها مسلمون. وكان زعيم تلك التشكيلة الخاصة التي احتلت ذلك الإقليم سليمان بك العسكري الذي توفي في العراق. أما أركان حربها فكانوا الصاغ جركس رشيد، أزميرلي أشرف، سامي أشرف وفهمي بك وآخرين. فدعا سليمان بك العسكري أعيان المسلمين إلى مؤتمر أعلن إنشاء حكومة إسلامية موقتة في تراقيا الغربية وعاصمتها كوملجينا، وعيّن رئيس مجلسها المشترك رئيساً للحكومة الجديدة، ووضعت القوى في تصرف سليمان بك العسكري.

وقد ظل نظام الأقضية الذي كان على عهد الحكم التركي معمولاً به، وعُيّن لكل قضاء رئيس وقائد للجيش. أما رؤساء الأقضية فكانوا تابعين لرئيس الحكومة الموقتة، والقادة المحليون كانوا يتلقون التعليمات من سليمان بك العسكري، وكان هذا إدارياً نشيطاً على صلابة في الرأي وتفاؤل شديد. وقد عاد علينا مشروع تراقيا الغربية هذا - الذي ندين بتحقيقه لذلك الرجل الممتاز ذي الشجاعة النادرة والإخلاص المتناهي - بأعظم الفوائد السياسية في مؤتمر استانبول.

ثم لما جاء دور البحث لوضع أساس التحالف التركي - البلغاري انحلّت هذه الحكومة الموقتة في منتصف سبتمبر/أيلول، بعدما لبثت شهرين وبناءً على القرارات التي وضعت في المؤتمر، ولم يكُ حلها إلا بعد مصاعب جمة.

فقد أراد بعض زملاء سليمان بك العسكري، برغم تعهدات حكومة استانبول، أن تبقى الحكومة الموقتة، وفكروا في اللجوء إلى السلاح لمقاومة الاحتلال البلغاري.

وكانت الحكومة التركية وعدت بلغاريا من جهة أخرى أن تتدخل ليحتل جنودها إقليم تراقيا الغربية بلا مقاومة، وفي مقابل ذلك منحت بلغاريا مسلمي تراقيا الغربية امتيازات قانونية واسعة، وتعهدت بألا يكونوا



مؤسس التشكيلات الخاصة



سليمان بك العسكري (١٨٨٤-١٩١٥)

وُلد سنة ١٨٨٤. تخرج من الأكاديمية العسكرية سنة ١٩٠٥. خدمته كانت في الجيش الثالث في مقدونيا. أول عمل قام به حيث انضم هناك إلى جمعية الاتحاد والترقي. قام باغتيال الفريق أول شمسي باشا قائد الجيش العثماني في الروملّي. الحادث الذي عجّل في إعلان الدستور (المشروطية الثانية).

سنة ١٩٠٩ سافر إلى بغداد حيث طُلب منه إعادة بناء فوج الدرك. ذهب إلى ليبيا للمساعدة في تنظيم المقاومة الليبية في وجه الغزو الإيطالي سنة ١٩١١. بعد سنة اشتعلت حرب البلقان وشارك فيها مترئساً إقليم تراقيا الغربي منشئاً حكومة محلية بدعم وتوجيه من جمعية الاتحاد والترقي وضباط مساعدين. نمّت تصرفاتهم عن مغالاة وتعصب ظهرت في المجازر المدروسة بحق السكان المحليين المسيحيين. ما دفع بأنور باشا إلى أن يضمه إلى قيادة «المنظمة الخاصة» التشكيلات الخاصة التي نفذت أعمال التطهير العرقي، المذابح الطائفية، اغتيالات المعارضين من عسكريين وسياسيين وصحافيين ورجال دين ومثقفين، أتراكاً، أرمن، عرباً، ألباناً أكراداً وغيرهم. كل ذلك كان بقيادة وإشراف وتوجيه مباشر من وزير الحربية أنور باشا. بتفننه في تنفيذ الأوامر صار من أهم القياديين في الجهاز.

بعد دخول تركيا الحرب العالمية، اختير سليمان العسكري والياً على بغداد وقائداً عسكريا للجبهة العراقية. مهمته الرئيسة استرجاع شط العرب. القائد سليمان جُرح في معركة الشعيبة ضد البريطانيين وجرى علاجه في المستشفى. إلا أنه بسبب الهزيمة والإحساس بالخيبة لعدم تنفيذه الواجب، انتحر في ١٤ نيسان سنة ١٩١٥.



بعض ضباط الوحدات العسكرية للتشكيلات الخاصة العاملة في البلقان والروملي والقوقاز والأناضول



مقاتلون أكراد ضمن التشكيلات الخاصة

عُرضة للأعمال الوحشية أو الانتقامية، ووعدت أيضاً بإعلان العفو العام في الحال.

فمقاومة المسلمين بالسلاح للاحتلال البلغاري لم تكن لتعود عليهم بالخسران فقط، بل كان يخشى معها ضياع تلك المزايا السياسية والاقتصادية العديدة التي أحرزناها لهم. ولما يئس سليمان بك من التغلب على معارضة زملائه بعث إلينا بالخطاب التالي:

> *«إذا لم يستطع المحافظ جمال بك، الذي يثق به زملائي والذي يمكنه أن يستعمل نفوذاً أدبياً عظيماً عليهم، أن يحضر ههنا في الحال ليشرح خطة الحكومة وتعهداتها، فلا بد من أن يصطدم الجنود البلغار الزاحفون إلى تراقيا الغربية بالمقاومة المسلحة، وإلا فلا مهرب من سفك الدماء».*

وبعد خمس ساعات من وصول هذا الخطاب، حضر سليمان بك العسكري شخصياً إلى العاصمة، وبعد اجتماعه بوزراء الخارجية والحربية والداخلية تقرر أن أذهب بنفسي إلى كوملجينا وأسكتش لأقنع الضباط بنظرية الحكومة، وفي الوقت نفسه أخطرنا الحكومة البلغارية بحقيقة الحال بواسطة توشيف الذي كان قد عيّن مندوباً في استانبول، فطلبنا إلى توشيف أن يرسل أمراً إلى قائد الفرقة المكلفة احتلال تراقيا الغربية بألاّ يبدأ أعماله العسكرية قبل إنفاذ كل وسائل الإقناع مع الحكومة الموقتة، أي أن يصبر ريثما يتبلّغ أنباء محددة مني. ثم غادرت استانبول وسافرت من طريق أدرنة وديمتوقة ودده أغاج إلى كوملجينا وأسكتش، وفي اليوم التالي قابلت سليمان بك العسكري وحادثت قادة القوات المحلية، فسوينا كل الشروط التي يسير عليها الاحتلال البلغاري، ثم أرسلت هذه الشروط رأساً إلى القائد البلغاري فقبلها



مصطفى عصمت بك إينونو (١٨٨٤-١٩٧٣)
صار فيما بعد رئيساً للوزراء، وبعد سنة ١٩٣٨ رئيساً للجمهورية

كلها، وبذلك بدأ الاحتلال وعدت بعد أسبوع إلى مكان عملي.

مؤتمر استانبول

بعد استردادنا أدرنة أرسلت بلغاريا، التي أَلْفَت نفسها وحيدة فريدة، السيد ناشيفتش إلى استانبول ليستعلم بطريقة شبه رسمية عن شروط الصلح التي نميل إلى منحها، وكان ذلك الهرم الوقور- وهو من أنصار ستامبولوف - من قدامى السياسيين وأكثرهم ميلاً إلى فكرة التفاهم بين بلغاريا وتركيا، وبعد مباحثات شبه رسمية تبين لنا أنه ليس لديه تفويض تام لإجراء مفاوضات الصلح. وبعد قليل لحق به وفد بلغاري لبدء مؤتمر مفاوضات معاهدة الصلح بين تركيا وبلغاريا، وكان الوفد برئاسة القائد سافوف والسيد توشيف وناشيفتش عضوين، أما الوفد التركي فكان برئاسة طلعت بك وعضوية شوروك سولون محمود باشا وخليل بك. وانضمت إلى الوفد البلغاري لجنة استشارية من الخبراء العسكريين والماليين والقانونيين، كما التحقت بالوفد التركي لجنة الاختصاصات نفسها، فعيّنت أنا وعصمت بك البكباشي في هيئة أركان الحرب مستشارَيْن عسكريين، فعهد الوفدان المنوطان بتعيين الحدود إلينا بوضع التفصيلات. ويذكر هنا أنني بذلت أقصى جهد لأُبقي لتركيا ديمتوقة



القائد سافوف

مع قطعة كبيرة من الأرض وراءها، وأحصل على حقوق عدة لمسلمي تراقيا الغربية وخصوصاً الأتراك الذين استوطنوا بلغاريا.

المعاهدة الهجومية الدفاعية بين تركيا وبلغاريا

وقد أظهر أعضاء الحكومة البلغارية روح التسامح الذي يستحق الإعجاب، وفيما أنا أبحث بضعة شؤون مع طلعت بك في بدء الجلسة الثالثة، إذا بالقائد سافوف يلتفت إلينا قائلاً: «لنسرع أيها السادة إلى إنجاز أعمالنا لننتقل إلى بحث شؤون أخرى أكثر أهمية. فإني لم آت إلى هنا للمساومة بأمتار عدة من الأرض، أو فيما إذا كان ضرورياً أن تبقى بيد تركيا أو بيد بلغاريا، فإن لمهمتي ارتباطاً بمشروع خطير كان تحقيقه أمنيتي العظمى خلال السنوات العديدة السالفة، وأعني بذلك عقد معاهدة تركية - بلغارية. وقد جئت إلى هنا لتحقيق هذا المشروع».

فهز المندوبان البلغاريان الآخران رأسيهما موافقةً له، ولما كنا نعرف أن القائد طبعه المساومة لم نُعِرْ كلماته اهتماماً كبيراً، وجعلنا نحاول عند وضع شروط الصلح أن ننص بقدر استطاعتنا على مزايا عدة، وفي النهاية أدركنا غايتنا.

ولما قاربت الجلسات الانتهاء عاد القائد سافوف يوضح مسألة المعاهدة والمزايا المتبادلة التي تعود على كلا الطرفين من جراء المعاهدة، فوافق سعيد حليم باشا وطلعت بك وخليل بك في ختام مؤتمر الصلح على أن أصحب القائد سافوف إلى جزيرة الأمراء[٣]، وهناك نضع النصوص الأساسية لمعاهدة هجومية دفاعية بين تركيا وبلغاريا.

وخوفاً من إثارة الشكوك تقرر أن نعلن أن القائد - الذي أضناه التعب من جراء الحروب البلقانية - طلب إلى الحكومة أن تسمح له بالاستشفاء زمناً قليلاً في جزيرة الأمراء، وأنه سينزل في أحد فنادق تلك الجزيرة ضيفاً على الحكومة. وتقرر أيضاً أن أذهب ذات يوم إلى الجزيرة وأدعو القائد إلى تناول الغداء في منزل الـمُلا نجم الدين، ثم ننسحب بعد الغداء إلى إحدى القاعات المنعزلة ونبحث الأساس لعقد معاهدة التحالف. وقد نفذت هذه الإجراءات، وشرعنا مع القائد سافوف في وضع الهيكل الذي تقوم عليه معاهدة هجومية دفاعية بين تركيا وبلغاريا، وبعد بضعة أيام ذهبنا إلى منزلي في ناحية شيشلي لبحث المواد المختلفة في مُسوّدة المعاهدة، ولإدخال التعديلات اللازمة، ووضع صيغتها النهائية، وكان حاضراً عن بلغاريا القائد سافوف والسيد توشيف، فيما أنا وطلعت بك وخليل بك مثّلنا تركيا.

أما المعاهدة الدفاعية فتلخصت في هذا المبدأ: «إذا هاجمت أحد الطرفين المتعاقدين دولة أو اثنتان من دول البلقان، فعلى الطرف الثاني أن ينهض بلا شرط ولا قيد لمساعدته بكل ما لديه من الموارد».

وأما الهجومية فقضت: «أنه إذا قام أحد الطرفين المتعاقدين بعد موافقة الطرف الثاني بمهاجمة إحدى دول البلقان وهاجمته في أثناء القتال دولة أخرى فعلى الطرف الثاني أن يقدم كل المساعدة اللازمة، أما إذا اضطر أحد الطرفين المتعاقدين إلى إعلان الحرب على دولة واحدة من دول البلقان فعلى الطرف الثاني أن يتبع سياسة الحياد الودّي نحوه».

أما من حيث المزايا الأرضية التي يمكن الحصول عليها في حرب مشتركة فقد اتفق على الآتي: «إذا استولت بلغاريا على قولة ودراما فتكون دده أغاج لنا. وإذا مدت بلغاريا حدودها إلى نهر ستروما فتحصل على موناستير وأوشريدا من جهة وأسكوب من جهة أخرى. فتكون لنا تراقيا الغربية حتى وادي قراصو. وإذا استولت بلغاريا في النهاية على سيلانيك وكارافيريا وفودينا نأخذ خط ستروما. فيجري خط حدودنا بين نفروكوب وأزليك بدلاً من اتباع أعالي النهر إلى مضيق كريسنا. فنضم إلينا قضاء رويدجوز السابق ونصل إلى الحدود التركية - البلغارية القديمة عند دوسبات». وقد وقّع الاتفاق كل من الفريقين مع إبداء التحفظ الآتي. وهو أن الاتفاق تُعْوِزُهُ الصيغة الملزمة.

ثم عاد القائد سافوف إلى صوفيا ليبحث نصوص المعاهدة مع رئيس الوزارة رادوسلافوف ووزير الخارجية غناديف وليحصل على موافقة الملك. وقد أكد لنا القائد أنه سيرجع إلى استانبول بعد مضي ثمانية أيام أو عشرة على أكثر تقدير ومعه التعديلات البلغارية. فيكلف السيد توشيف (الذي عيّن مندوباً لدينا) تسليمها إلينا خفية. بيد أنه مضت على عودته بضعة أسابيع ولم تصل إلينا أنباء من صوفيا. كما أن سيد توشيف لم يشر إلى الموضوع بكلمة واحدة.

وبعدما صادق الطرفان على معاهدة الصلح استؤنفت العلاقات السياسية مع بلغاريا وعيّن السكرتير العام للجنة فتحي بك سفيراً في صوفيا. الذي كان مطّلعاً عالماً بمشروع التحالف التركي - البلغاري ومؤيداً له. فلم يكد يصل إلى صوفيا حتى سأل الحكومة البلغارية ما هي حقيقة الموقف من معاهدة التحالف التي اتفق عليها مع القائد سافوف في استانبول. وعلى الرغم من محاولاته العديدة لم يظفر فتحي بك بجواب مُرضٍ في هذا الصدد. والحقيقة أنه لم يمكن الوقوف على السر في مراوغة بلغاريا في هذا الأمر. مع أنها كانت تبدي في جلسات مؤتمر الصلح رغبةً شديدة في إبرام هذه المعاهدة.

ومن جهة أخرى. وخلافاً لنصوص معاهدة الصلح ووعودهم الشفوية العديدة. شرع البلغاريون في التضييق على مسلمي تراقيا الغربية وحاولوا رد البوماكي[٤] عن الإسلام غصباً. فأخبرنا فتحي بك بأنه لا يستطيع حيال هذا التلون المعيب أن يبقى بعد ذلك في منصبه في صوفيا. ولتسهيل المفاوضات حول هذه النقطة وإنقاذ مسلمي تراقيا الغربية من التعرض للاضطهاد البلغاري مجدداً. وأيضاً لبحث مسألة المعاهدة وتسويتها. تقرر أن يجتمع طلعت بك وخليل بك من جهة ورادوسلافوف وغناديف من جهة أخرى في إحدى المدن البلغارية. وقد وعد الوزيران البلغاريان في ذلك الاجتماع بمعاملة المسلمين معاملة حسنة. وأن يُرسلا إلى استانبول في القريب العاجل مندوباً خاصاً ومعه اقتراح الحكومة البلغارية. وبعد أيام وصل إلى استانبول في نوفمبر/تشرين الثاني نائب رئيس هيئة أركان حرب بلغاريا الكولونيل جيكوف. وكان حاد الذكاء متوقد القريحة عالي التربية. ولما أعلن توشيف نبأ وصوله قال إنه يتمتع بثقة رادوسلافوف وحزبه.

وكنت وقتئذٍ وزيراً للأشغال. بيد أنني - كما ذكرت آنفاً - اشتركت مع طلعت بك وخليل بك في الجلسات الخاصة بالمعاهدة التركية - البلغارية. ولما دقت ساعة الاجتماع ذهبنا إلى دار الوكالة البلغارية



علي فتحي أوقيار (١٨٨٠-١٩٤٣)

رجل دولة دبلوماسي وعسكري. تخرج من الأكاديمية الحربية برتبة نقيب وخدم كقائد كتيبة في الجيش الثالث المتموضع في سيلانيك انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٦. في ١٩٠٨ عمل ملحقاً عسكرياً في السفارة التركية في باريس. صديق مصطفى كمال منذ أيام الدراسة العسكرية، والتقيا في ما بعد عندما كان مصطفى هارباً من قبل «السرخفية» ومن عقوبة مسلكية بسبب موقفه من النظام ونشاطه السياسي داخل الجيش ، فاختبأ عند فتحي لفترة. أوكيار شارك في ليبيا في طرابلس الغرب مثل بقية رفاقه الضباط ضد الغزو الإيطالي. عمل في السفارة التركية في صوفيا. سنة ١٩١٣ صار عضو اللجنة المركزية للجمعية وضمّ الى هيئة قيادة «التشكيلات الخاصة». كان له دور مؤثر في قيادة وتوجيه شرازم الدوبريجة في حملات قمع دموية ضد البلغار المسيحيين والارمن في ما بعد. أشرك في المفاوضات البلغارية التركية الى جانب طلعت وعصمت وأحمد جمال. عيّن وزيراً للداخلية في حكومة عزت باشا في ١٩١٨/١٠/١٤ حتى ١٩١٨/١١/٨ بعد هدنة مودروس. لم يطق نقد بعض الصحف المحلية فقاد حملة قمع ضدها. أخذته القوات البريطانية أسيراً الى مالطا مع ١٤٢ شخصية عسكرية ومدنية كمجرمي حرب. إلا أنها أطلقتهم لاحقاً. بعد عودته الى تركيا شارك مع مصطفى كمال في الحياة السياسية حتى صار الرجل الثالث بعد اتاتورك وإينونو. عين وزيراً للداخلية من ١٩٢١/١٠/١٠ وحتى ١٩٢٣/١٠/٢٧ ثم رئيساً للجمعية الوطنية ١٩٢٣/١١/١ حتى ١٩٢٤/١١/٢٢ إلى حدّ زعم الكماليين أنهم كشفوا مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال. الكشف عن مؤامرة أعطى الكماليين مبرراً ان يعتقلوا ويشنقوا وينفون من يريدون من أخصامهم المعارضين. بعضهم أعدموا والبعض الآخر تمكن من الهرب الى الخارج. يومها ألقي على أعضاء الحكومة القبض بتهمة التقاعس والتآمر. ثم عيّن رئيساً للوزراء من ١٩٢٤/١١/٢٢ حتى ١٩٢٥/٣/٣. طلب منه مصطفى كمال ان ينشئ حزبا سياسيا (الحزب الجمهوري الحر/الليبرالي) ليضفي على الحياة السياسية طابعاً ديمقراطياً. نجح الحزب باستقطاب المعارضة القوية المتزايدة في وجه الحكم الفردي بخاصة من رفاق السلاح. إلا أن هذا الحزب وبعد مرور بضعة أشهر رأى مصطفى كمال أنه صار يشكل عبئا فمن الضروري حله واعتباره مثيراً للفوضى. كانت أخت مصطفى كمال (مقبولة) أحد مؤسسيه. وصدرت صحيفة «يارين» (الغد) ناطقة باسم الحزب. صحيفة جديدة في استانبول للدفاع عن مبادئ الجمهورية وومدح الديمقراطية بوجه الحكم الملكي والخلافة (وعندما كثرت الاعتراضات عليه. طلب مؤسسه من وزير الداخلية بحله في ١٩٣٠/١١/١٧)!!! عيّن سفيراً في باريس من سنة ١٩٢٥حتى ١٩٣٠ وسفيراً في لندن حتى ١٩٣٤. عيّن وزيراً للعدل من ١٩٣٩/٥/٢٦ حتى ١٩٤١/٣/١٢.

التي كانت في حي تقسيم. وهناك فوجئنا باقتراح بلغاري مدهش من حيث علاقته بالمزايا الأرضية: مادام ذلك الجزء من مقدونيا الذي يمتد إلى نهر ستروما ومو ناستير وأوشريدا لا يكون جزءاً من بلغاريا. فلا يستطيع البلغاريون أن يمنحونا ميناء دده أغاج. كما أنهم لا يوافقون على إعطائنا قرة أغاج إلا بعد استيلائهم على سيلانيك. وبعد اجتماعات عدة بالكولونيل جيكوف. وضعنا الشروط الأولية التي يمكننا شكلاً وعقلاً قبولها أساساً للمعاهدة.

وكان التحالف مع بلغاريا مهم جداً لنا، إذ كان مؤكداً نشوب الحرب بيننا وبين اليونان عاجلاً أو آجلاً، ذلك بأنه يستحيل أن نرضى بالتنازل لليونانيين عن جزر بحر إيجه مثل ليمنوس ومدهللى وصاقس، فكان لازماً إذاً أن نتخذ الاحتياطات الكافية كيلا تكون بلغاريا في صفوف أعدائنا مرة أخرى إذا اندلعت ألسنة الحرب بيننا وبين اليونان. ومن جهة أخرى، كنا نعلم أن البلغاريين غير راضين عن الحالة في مقدونيا، ولكيما يحققوا أمانيهم الوطنية فلا مناص لهم من التماس مساعدتنا، ولهذا أردنا أن نستفيد كل الاستفادة المستطاعة من هذه الحالة فلا نعرض أنفسنا مجدداً لخطر تحالف بلقاني آخر.

وإذا استطعنا أن نُدخل رومانيا حظيرة التحالف التركي - البلغاري، بأن نضمن لها مثلاً عدم هجوم بلغاريا على إقليم دوبريجه الذي أصبح كله في أيدي رومانيا، أمكننا إذاً إيجاد كتلتين متعارضتين في شقتي شبه جزيرة البلقان الشرقية والغربية، وبذلك نستطيع أن نطمئن إلى سلامتنا فلا نصبح بعدئذ تحت رحمة



دوبريجه

DOROGEA/DOBRITH/DOBRUDJA/DOBRUJA/DOBRUDSCHA

باللغات المحلية (دوبريجه) تطلق على أهل المنطقة الواقعة مناصفة حالياً بين شمال شرق بلغاريا وجنوب شرق رومانيا الواقعة على البحر الأسود. اقليم سابقاً كان تحت السيطرة العثمانية منذ سنة ١٤١٧ متعدد الاثنيات والمذاهب والثقافات. على مصب نهر (الطونه) الدانوب. مساحة الاقليم الآن ٢٣,٢٦٠ كلم[٢]. يقطنه مزيج بشري من أصول مختلفة عرقياً ودينياً (رومان، بلغار، اوكران، اتراك، تتار، روس، غجر، يهود، يونان، قوقاز). (م.ارثوذوكس، م.كاثوليك، مسلمين، يهود).

ففي سنة ١٨٧٨ شهد الاقليم حروباً (الحرب البلقانية الأولى) ادت الى تغييرات ديموغرافية ادارية وجيوسياسية بين العثمانيين وبلغاريا ورومانيا فالجزء الشمالي آل الى الرومان وجنوبه الى البلغار. فبعد سيطرة عثمانية امتدت الى ٤٦٠ سنة جرت عمليات تطهير عرقي ديني، ومجازر أزهقت ارواح مئات الألاف من البشر، محيت فيها مدن وقرى. وتغيرت حدود دول لترسم حدوداً جديدة. التاريخ يتكرر بمآسيه.



المؤتمر الأول لجمعية تركيا الفتاة سنة ١٩٠٢

جمعية/حزب تركيا الفتاة (الاتحاد والترقي): مرّت الجمعية/الحزب التركي المعارض لسياسة السلطان وفساد حكمه بمراحل، فهو/هي نشأ/ت في العقد الاخير من القرن التاسع عشر في أوساط المثقفين من صحفيين وشعراء واساتذة واصحاب المهن الحرة وبين ضباط الجيش ووحداته المرابطة في مناطق مختلفة وطلاب المدرسة العسكرية. نشطت بين العثمانيين المنفيين أو الهاربين من جور وتسلط (سر خفية) البوليس السياسي للسلطان إلى أوروبا أو مصر. المطالبين بالحريات العامة والحكم بمضمون الدستور. وتعددت الجمعيات المناوئة للسلطان والنظام. وصار لا بد من توحيد الجهود وتوجيهها نحو هدف واحد. فتعددت اللقاءات والنشاطات والمؤتمرات خصوصاً في باريس (١٩٠٥) وتمكنوا بعد فترة من استقطاب اكبر عدد من الاتراك والعثمانيين المعارضين (عرب، أرمن، ألبان، يهود، أروام، الأفلاق) ووحّدوا جهودهم مع جمعيات اخرى ليولد تنظيم جديد يضم جميع المعارضين لحكم السلطان عبد الحميد. وصارت تسمى (حزب الاتحاد والترقي) ولقيت ترحيباً شديداً من قوى السلام والتقدم في أوروبا والحركات الاصلاحية العربية المتنورة.

ونقل الحزب نشاطاته إلى داخل تركيا. في هذه الاثناء وبسبب أعمال القمع التي واجهتهم من قبل شرطة السلطان عبد الحميد الثاني اتسم عملهم السياسي بالسرية. استطاع الحزب أن يستميل وحدات عسكرية بكاملها مع ضباطهم القادة والقيام بانقلاب على مرحلتين:

المرحلة الأولى (المشروطية الثانية) أواخر العام ١٩٠٨ أعيد العمل بمضمون الدستور تحت شعارات الحرية والمساواة والاخوة والعدالة للشعوب المنضوية تحت الراية العثمانية كافة. في هذه الاثناء غلبت دعوة التتريك على الصحف الاتحادية والخطب والشعارات والمحاضرات على تلامذة المدارس العسكرية والجامعية. واتضح من كل ممارسات الاتحاديين في جميع المواقع والمستويات انه يتم التراجع عن تطبيق شعارات (الحرية والمساواة والعدالة) ولم يتم الوفاء بها أمام الشعوب العثمانية المتظلمة من حكم عبد الحميد والتي انضوت تحت لواء الاتحاد والترقي. وان الشعارات كانت موقتة. وسرت في تركيا موجة اغتيالات. تبين فيما بعد ان كثيراً من عمليات الاغتيال هذه قام بها اتحاديون محترفو إجرام.

أوائل عام ١٩٠٩ أطيح بحكم السلطان عبد الحميد الثاني. وتعاقب ثلاث وزارات في حكم السلطنة والاتحاديون لا يشاركون فيها!!!

في المرحلة الثانية، عام ١٩١٣ ينفرد الاتحاديون (الطورانيون) بالسلطة خصوصاً بعد قتل ناظم باشا وزير الحربية وألحقوا به محمود شوكت باشا وتوزعوا المناصب.

قبل العام ١٩١٤ اتضحت بجلاء مواقف لثلاث ميول أو اتجاهات داخل الاتحاد والترقي:

١- ميل إلى منح العرب استقلال داخلي ضمن الإمبراطورية التركية الطورانية للترك فيها المقام الاول.

٢- ميل إلى أخذ العرب بالشدة وتتريكهم بالقوة مع التنكيل بزعمائهم ومفكريهم.

٣- اتجاه معتدل. يقول بالتساهل مع العرب ومنحهم لامركزية نوعية تنفذها الحكومة مباشرة من دون الاستعانة بالاصلاحيين العرب (أمين سعيد. ص١٥-٢٥).
بعد هذا العام من دخول تركيا الحرب. كل الاتجاهات داخل الاتحاد والترقي والميول السياسية والفكرية توحدت. فيما اتضحت نتائج سياسة هذه الجمعية على البلاد (عسكرياً. اقتصادياً. اجتماعياً. إدارياً) على حقيقتها.

رأي آخر

نشأة جمعية الاتحاد والترقي:
وُلد إبراهيم تيمو (ألباني الأصل) في بلدة (ستروغا) في مارس عام ١٨٦٥م. وانتقل إلى المدرسة الطبية العسكرية. وهناك ابتدأ مشواره بتثقيفه السياسي الذاتي. حيث تعرف خلال هذه المدة وفي المدرسة نفسها على إسحق سكوتي ديار بكري الذي صار صديقاً مقرباً لإبراهيم تيمو. إضافة إلى آخرين كانت لهم مشاركة في تأسيس جمعية الاتحاد والترقي. وساعد زملاؤه على تثقيفهم السياسي بإرشادهم الى مطالعة مؤلفات (شناسي) و(نامق كمال).
عام ١٨٨٨-١٨٨٩ تخرج طبيباً متمرناً ليتابع في الكلية الطبية العسكرية دراساته العليا. وكانت نسخة عن الكليات الاوروبية. فيها أقام صداقات ومع اربعة طلاب طب أسس جمعية سرية سنة ١٨٨٩ وهم: اسحق سكوتي. عبدالله جودت. محمد رشيد الجركسي. وحسين زادة علي. ولقد سميت جمعيتهم باسم (جمعية الاتحاد والترقي).

ثانيا تطور جمعية الاتحاد والترقي:
هؤلاء الأطباء الأربعة كانوا النواة الأساسية لهذه الجمعية السرية. ومما يجدر قوله ان موقع الكلية القريب من محطة قطارات وسيطة بين الشرق (آسيا) والغرب (أوروبا) لعب ظرفاً إيجابياً ساعد على تسريع قيام الجمعية. إلى هذه البقعة تصل القطارات الآتية من باريس إلى محطة (سركهجي) محملة بالصحف والمجلات والأجانب. حيث يتم الاختلاط والاحتكاك بهم وانتشار المقاهي والنوادي. والتعرف على الأفكار السياسية والفلسفية (الاشتراكية والشيوعية والمادية والمثالية والعلمانية) في الفن والصحافة والمسرح والموسيقى والأدب وعلم النفس والعلوم الاجتماعية والاختراعات الصناعية والاكتشافات في شتى العلوم الكيميائية والطبية والفيزيائية) كل هذا تحفل به أوروبا ويعيشه كثير من الطلاب الشرقيين خلال دراستهم هناك. ويعودون الى بلادهم متأثرين به حاملين مفاهيمه محاولين إعطاء إيجابياته لأبناء وطنهم بما يساعد على تطويره وتحديثه وادخال الحضارة.
وبعد شهرين من تاريخ تأسيس هذه الجمعية بادر إبراهيم تيمو لعقد اجتماع سري خارج مدينة استانبول في قهوة يملكها الباني مناصر لهم. وشارك في هذا الاجتماع اثنا عشر عضوا. كان من بينهم (عبدالله جودت). الذي كانت علاقته مع الحكومة تأخذ طابع الهدنة أحيانا وطابع العنف أحيانا أخرى. ولم تكن الجمعية متعجلة لا في الدعاية لأفكارها. ولا في الحركة ضد السلطان. حتى إن أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة «بورصة». وسافر عام ١٨٨٩م إلى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولي. ووصل إلى هناك. وأعلن أنه لن يرجع إلى بلاده. ومكث في فرنسا نحو ست سنوات. لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل. إلى حين أصدر جريدته (مشورت) عام ١٨٩٥م بالتعاون مع خليل غانم.
ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد والترقي. أنه كان يمضي أوقاته في الخارج حتى عام ١٨٩٥م. بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم. وتربيتهم تربية ثورية. ويعقد الاجتماعات السرية. وقراءة الأعمال الأدبية التي ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد. مثل نامق كمال وضياء كوك الب. وقراءة منشورات على شفقتي بك الهارب الى أوروبا. ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل وفي الخارج تم الاتفاق على توحيد العمل العسكري والمدني ضد السلطان. وعلى اعتماد اسم (جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين. العسكري والمدني. اللذين يعملان في إطار الجمعية.
كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني). وكان أحمد رضا بك - ممثل الجناح المدني - متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كومت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو (الانتظام والترقي). فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقي) استلهاماً من دستور «كومت» واحتفظ العسكريون بمسمى (الاتحاد). واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقي).
لقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش. وبين موظفي الدولة من المدنيين. واتفقا على العمل الموحد بعد دمج جناحيهما العسكري والمدني في باريس. للعمل الفعلي ضد السلطان عبد الحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به.
ولقد عبرت صحيفة (مشورت) عن أهداف الجمعية. والتي أصبحت الصحيفة الرسمية لجمعية الاتحاد والترقي. لقرائها. وتعتبر هذه الأهداف هي أول عرض كامل لآراء الجمعية وجاء عنوان المقال باسم (منهاجنا) وجاء فيه : «إننا نرغب في العمل لا لخلع الأسرة الحاكمة التي نعتبرها ضرورية لحفظ النظام السليم. ولكن لنشر فكرة التقدم التي نريد لها نصرا سليما. ولما كان شعارنا هو النظام والترقي. فإننا نخشى من التغييرات التي تحصل بالعنف «. كما جاء « إننا نطالب بالإصلاحات ولا نقصرها على هذه الولاية أو تلك. بل نطلبها للإمبراطورية كافة. لا لمصلحة قومية واحدة. بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهودا أو نصارى أو مسلمين».

وبعد فترة من الوقت أسست صحيفة أخرى ناطقة باسمها، وهي صحيفة (ميزان). والتي أسسها مراد بك (ميزانجي) الصادرة في مصر، وأصبحت الصحيفتان ناطقتان باسم الجمعية، تعبّران عن جناحيه، وكانتا تدخلان إلى الأراضي العثمانية. فأما (مشورت) التي يصدرها (احمد رضا) في فرنسا، فكانت ذات سمعة سيئة نظرا لأنها كانت تعبر عن وجهة نظر (احمد رضا) نفسه، ولفقدانه الكثير من أصدقائه، وتصلبه في كثير من المواقف، بالإضافة إلى تصورات (احمد رضا) الوضعية والمادية «الكومتية»، وأما صحيفة (ميزان) فكانت تعبر عن آراء مراد بك

وهذه الصحف والمجلات كانت تجد طريقها إلى الدولة العثمانية دائماً وكما في السابق عن طريق دوائر البريد الأجنبية حيث كان في عاصمة الدولة كما معظم المدن الرئيسية مكاتب للبريد الأجنبي تابعة لسفارات الدول الأوروبية وقنصلياتها، وكانت جميعها محمية من التفتيش والمراقبة بسبب منحهم الامتيازات الأجنبية، وكان يتم تسليم هذه المطبوعات المختلفة إلى المجموعات السرية التي تقوم بتوزيعها سرا على عناصرها، ولقد كانت مخابرات السلطان عبد الحميد (السر خفية) ترصد ذلك وترفع تقريرها اليه ويعي ذلك جيدا.

كان لجمعية الاتحاد والترقي وجهان:

الأول: الوجه السري الذي تكونت منه خلايا ومجموعات الاتحاد والترقي داخل الدولة العثمانية وتتبع طرق الحذر.

الثاني: الوجه العلني والذي تكونت منه خلايا مجموعات الاتحاد والترقي خارج الدولة العثمانية خصوصا في أوروبا.

وكان المعتقد السياسي لأعضاء جمعية الاتحاد والترقي يؤكد على المفاهيم التركية-الطورانية على المستويين الداخلي والخارجي. والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلي ونسبته إلى جبل طوران الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية في إيران وكان داخل حركة الاتحاد والترقي اتجاهاً قوياً يؤكد أن الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم والجنس المغولي من أصل واحد، كان مسعاهم بناء مجتمع تقدمي جديد اساسه الاخوة بين الشعوب والمساواة في ما بينها واعطاءها حرياتها وتصحيح أوضاع البلاد سياسياً واقتصادياً وايديولوجياً ومحو فكرة الجامعة الإسلامية، وإذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذ وسيلة لاغاية (هذا ما استخدمه أنور في سياسة التعبئة مع عناصر إسلامية (شركسية-كردية) للتشكيلات الخاصة والجيش) وهذا يعني أن هذا الاتجاه يدعوا إلى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض - الأسود (الأغبر) الرمادي الذي صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد وألزموا الجيش أن يصطف لإنشاد تحية الذئب عند كل غروب، أحلوه بدلاً من الصلاة والدعاء للسلطان، مبالغة منهم في إقامة الشعور العرقي محل الشعور الإسلامي.

كان للعلماء دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية فالعلماء اليهود في الغرب مثل «لومالي دافيد» و«مارسيل صامويل كوهين» أو تكين ألب و«ارمينيوس فاميري» تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية».

وقد ذكر (نيازي بركس) في كتابه السابق اسم اليهودي (موئيز كوهين) الذي وصفه (رينيه بيلو) قائلاً: «إن كوهين هو من مؤسسي الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانية، إن كتاب كوهين هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية».

وكان اليهودي كوهين نشطاً جداً في التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، لغات أوروبية عدة، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روح قومي).

لقد أسهم كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي وهي السياسة التي شقت شعوب الدولة العثمانية وأوجدت بينها العداوة والبغضاء.

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت حلم الطورانية، وقد تسترت بأفكار الثورة الفرنسية وشعارها (أخوة، مساواة، حرية) وشعارات مثل الوطن والدستور، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت الجمعية في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبد الحميد الثاني.

أسماء الآباء المؤسسين لجمعية «تركيا الفتاة» و«الحرية العثمانية» و«الاتحاد والترقي» بقيت معروفة كمفكرين ومنظرين وفلاسفة أيضاً في أذهان الناس، ولهم أهميتهم واحترامهم أيضاً وان أيديهم لم تلطخ بالدم، إلا ان من يتمعن بكتابات عبدالله جودت وابراهيم تيمو وأحمد رضا وضياء كوك ألب ويوسف أقجورة وكتابات خالدة أديب أيضا مع كتابات يونس نادي وتكين ألب، فيها كلها قاسم مشترك واحد، الغلو في «الأنا» التركية، حتى الذين لديهم ضغينة شخصية مع أسماء اتحادية معينة، كانت عندهم الميول الطورانية والبعض منهم ذهب الى أحزاب معادية للاتحاديين، مثل علي كمال بك الصحافي، النائب، الوزير.

ان جمعية الاتحاد والترقي كانت طليعة القوى السياسية العثمانية الداعية للحرب حتى نهايتها سنة ١٩١٨، لدى الكتابة عمن ورّط تركيا في تلك الحرب، هناك ميل لاعتبار من هم في قمة هرم قيادة الجمعية هم (فترة تواجد الباشاوات الثلاثة في قيادة الجمعية طلعت باشا الرأس المدبر ثم أنور باشا وأحمد جمال باشا)، من تقع عليهم المسؤولية بالدرجة الأولى على الرغم من بعض الانتصارات الموقتة التي كانوا حققوها في بعض المواقع، بالاضافة الى أسلوبهم في القيادة ان دلّ على شيء فهو يدل على جمعهم بين حسن التنظيم الحزبي والقدرة على الاقناع والدعاية في مكان وعلى الدهاء السياسي والمكر والخداع في مكان آخر، ولفتوا أنظار العدو والصديق، ومثلما هم كانت لديهم سياسة المكر والخداع والبطش والطيش والتهور، اتاهم من هو أشدّ منهم بطشاً وتنكيلاً بهم وأمهر منهم في المكر والخداع، هذا مع ان قياداتها العليا ضمّت من نخبة المجتمع أطباء محامين، مهندسين، قضاة، صحافيين، أدباء، شعراء، فنانين، مؤرخين، نخبة السلطنة إلا ان النتيجة كانت على تركيا وولاياتها وبالاً وبؤساً.



قيادة الاتحاد والترقي الحقيقية في المحفل الماسوني

قيادة الاتحاد والترقي الأيديولوجية والسياسية والعسكرية والدعاية



من سيلانيك انطلاق الاتحاد والترقي وإعلان السلطان العمل بالدستور



أحمد جمال باشا

المؤتمر الثاني ١٩٠٥ لجمعية حزب الاتحاد والترقي



من سيلانيك انطلاق الاتحاد والترقي وإعلان السلطان العمل بالدستور



المؤتمر الثاني ١٩٠٥ لجمعية حزب الاتحاد والترقي

أي دولة بلقانية صغيرة. فمن هذه الوجهة، التي كان تحقيقها إحدى أماني حزب تركيا الفتاة، كنا نعلق أهمية كبرى على معاهدة بلغاريا. ولهذا السبب نفسه أردنا أن نصل إلى تفاهم سريع.

ولما كانت إحدى خواص السياسة البلغارية، أو بالأحرى أحد الأمور البارزة في الطبع البلغاري، أن يستخلص كل فائدة مستطاعة ويستغل حتى أكثر الحلفاء إخلاصاً وأمانة، تبين لنا أن الحكومة البلغارية ستطيل أمد المفاوضات إلى أقصى حد، على أمل أن يأتي وقت نرى أنفسنا في خطر ومضطرين إلى توقيع المعاهدة في خلال أربع وعشرين ساعة، وهي المعاهدة التي أصبحت ناقصة بعد التعديلات والتغييرات العديدة التي أدخلت عليها، وقد سعت بلغاريا إلى أن تبقينا في هذا الموقف إلى وقت إعلان الحرب العالمية، وبعد الاتفاق مع الكولونيل جيكوف على الشروط الأساسية ما عدت أهتم بالمسألة بتاتاً.

وقد علمت فيما بعد أن البلغاريين لما عاودوا المفاوضات معنا ومع إمبراطوريتي الوسط في خلال الحرب رغبةً في الاشتراك معنا، لم يعيروا مادة من المواد المستثناة في الأصل أي اهتمام، ولم يمانعوا بأن تمتد حدودنا في تراقيا الغربية، بل رفضوا فعلاً بحث المواد الأخرى إلا بعدما قبلنا منحهم ديمتوقة وقرة أغاج ومصطفى باشا وقطعة أرض يزيد عرضها على كيلومتر واحد على شاطئ الماريتزا الأيسر، وبما أني سأتناول موضوع علاقتنا ببلغاريا في هذه المذكرات، أرجئ الكلام عليه الآن.

الائتلاف العربي السوري العام

إني أعتقد أن في بلادنا - حتى بين شبابنا النابهين - نفراً ممن قلّبوا المسألة العربية على جميع وجوهها، ولحظوا الغاية الشاخصة أمام أبصار أولئك الزعماء المطالبين ببحث تلك المسألة. وسأبحث تلك المسألة تفصيلاً متى حان وقت الكلام في هذه المذكرات على أعمالي عندما عيّنت قائداً للجيش الرابع، وسأقصر الآن بحثي على بضعة أمور حدثت وأنا في منصب محافظ استانبول.

ففي عهد وزارة كامل باشا تمكّن بعض العرب، بحجة المطالبة بإدخال إصلاحات في بلادهم وبتصريح من الوالي أدهم بك، من عقد مجلس وطني في بيروت[٥]، وقد أشاروا فيه إلى نوع الإصلاحات المطلوب[٦] إدخالها في سوريا وسائر الولايات العربية. فلما تولت حكومة محمود شوكت باشا مقاليد الحكم حلّت ذلك المجلس بسبب التغييرات في الوقت نفسه في أشخاص الولاة من جهة، ولأن ذلك المجلس غير قانوني من جهة أخرى. وأصدرت الحكومة منشوراً قالت فيه: بما أن للبرلمان وحده حق وضع قواعد الإدارة الداخلية، لا يمكن النظر في الأمور التي قررها مجلس بيروت.

ثم اشتدت الدعوة إلى الاستقلال في سوريا وبيروت وتطورت تطوراً أخذت معه سطوة الحكومة تتدهور، حتى إن بعض الأشخاص بلغت بهم الجرأة حتى كتابة اسم الوالي أبو بكر حازم في بطاقة ووضعها في رقاب كلابهم. وفي دمشق ذهب شكري العسلي ومحمد كرد علي إلى الوالي عارف بك الماريديني، وطلبا طرد السكرتير العام للولاية بدعوى أنه لم يفهم فحوى عريضة قدمت إليه مكتوبة بالعربية فطلب ترجمتها إلى التركية، ولم يتركوا فرصة إلا انتهزوها للتورط في هذه الأعمال السخيفة. وانبرت الصحف السورية عن بكرة أبيها تطعن في الحكومة بأوقح العبارات، وملأت أعمدتها بأحط الإهانات ضد العنصر التركي،



أدهم بك

والي بيروت ١٩١٣. أقاله الاتحاديون بعد مقتل ناظم باشا وإسقاط حكومة تحالف (الائتلافيين الأحرار) برئاسة الصدر الأعظم كامل باشا واستيلائهم على السلطة بسبب استقبال الوالي (قبل القتل والإسقاط) لوفد من وجهاء بيروت بعد عقد مجلسهم الوطني. وتألف الوفد من (بيهم، سلام، طبارة، سرسق) واستماعه لمطالبهم ونقله شكاويهم إلى المسؤولين في استانبول وعدم قمعه لممثلي الشعب.



عارف بك الماrديني

عيّن والياً على الشام ١٩١٣ تحت شعار الاصلاح من قبل الاتحاديين. كان يكره العرب وحركتهم التحررية الوطنية شأن بقية الاتحاديين. عند امين سعيد في كتابه الثورة العربية الكبرى ص٧ ط الحلبي: ان عارف بك الماrديني العربي كان من مؤسسي جمعية الآخاء العربي في استانبول سنة ١٩٠٨ إلى جانب شفيق بك المؤيد العظم وصادق المؤيد العظم. والكلام نفسه يتكرر عند دروزة (حول الحركة العربية الحديثة، ص٢٥، ج١، ط العصرية). وعند محمد جميل بيهم (فلسفة التاريخ العثماني»، ص١٧٦). ان الماrديني انضم إلى «جمعية الاتحاد العثماني» لدى حصول الحركة الرجعية.



حازم بك

والي بغداد السابق (١٦/٢/١٩٠٧). أثناءها حصلت كارثة طوفان بغداد. كان رجل ادارة الرشى. من جماعة الاتحاديين. عُيّن خلفاً لأدهم بك في ولاية بيروت بعد الانقلاب العسكري الذي قام به الاتحاديون وقتلوا ناظم باشا وزير الحربية في ٢٣ كانون الثاني عام ١٩١٣. جاء مزوداً بتعليمات للتضييق على الاصلاحيين الوطنيين والصحافة الوطنية المحلية وقمع أي تحرك شعبي. فاعتقل العشرات على الرغم من ليونة ومرونة مواقفهم التي أظهروها. إلا انه كان شرساً فجاً. واقفل المدارس. الناس في بيروت لكراهيتهم له. كتبوا اسمه وعلقوه في رقاب الكلاب والقطط. إليه نسبت الطريق وسميت باسمه (الحازمية) الموصلة إلى الجبل والبقاع ودمشق ايضاً والتي شقّت في عهده.

وقد أصدر الشيخ رشيد رضا من أهالي طرابلس الشام في مصر صحيفة المنار[٧] ملأها بالعبارات المثيرة ضد زعماء حزب الاتحاد والترقي. جعلت كل من يقرأها عدواً لتركيا.

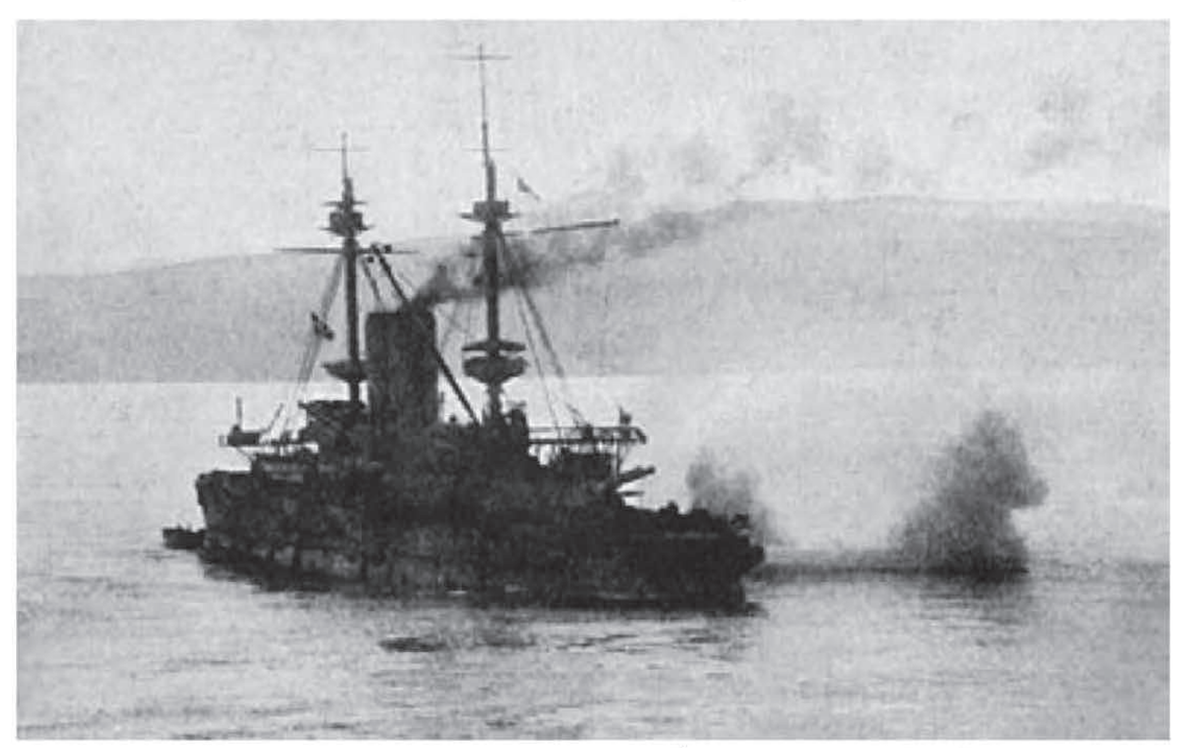
وفيما الحكومة مشغولة بالحرب البلقانية صرف ضباط الفرقة العربية[٨] المرابطة في شبه جزيرة غاليبولي اهتمامهم إلى تعضيد وسائل الابتزاز السياسي التي قام بها القوميون العرب في استانبول. بدلاً من القيام بواجبهم.

ثم أرادوا عقد مؤتمر عام من العرب بالرغم من رفض الحكومة. ولكن لما توقعوا أن تحول الحكومة هذه

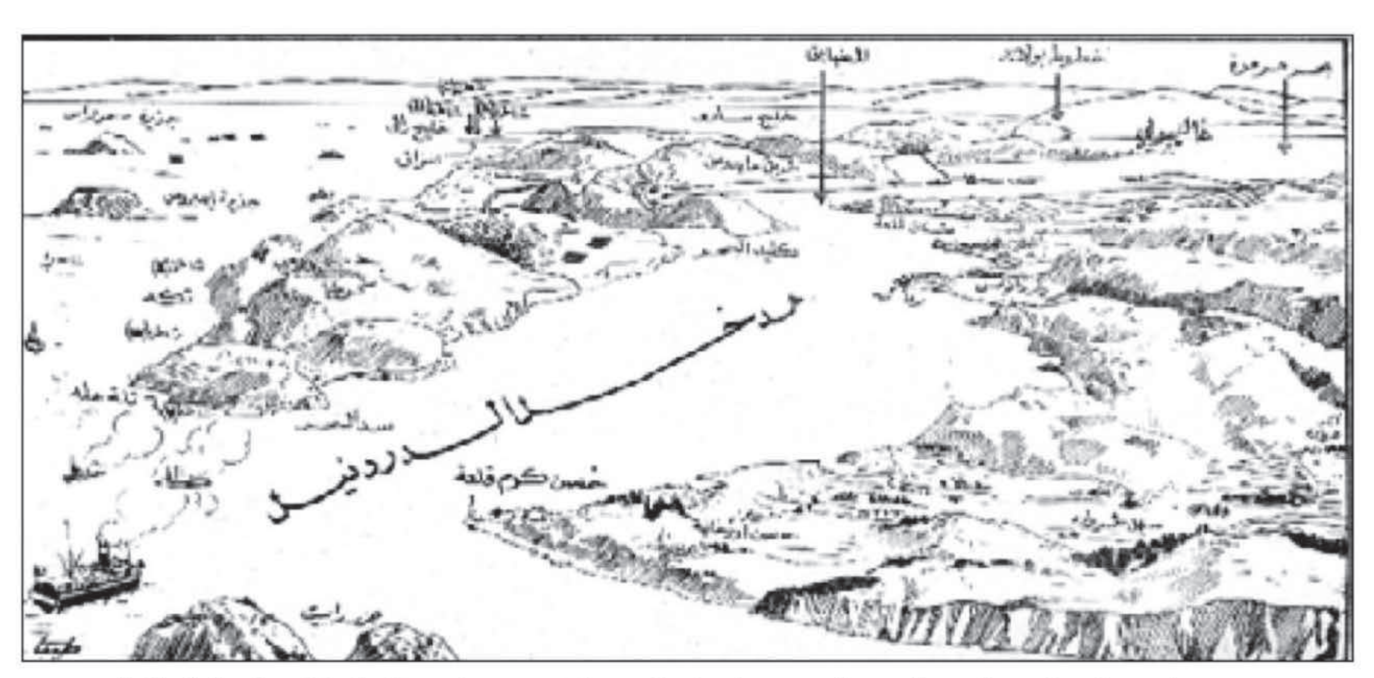




البوارج الإنكليزية تدكّ حصون الدردنيل



"Albion" دارعة بريطانية تُصلي تحصينات مرتفعات الدردنيل الحمم



رسم تقريبي لتضاريس الدردنيل، هضاب وسهول وشعاب ووهاد توزعت على مرتفعاتها المدفعية التركية بإشراف القائد الألماني الجنرال ليمان فون ساندرس

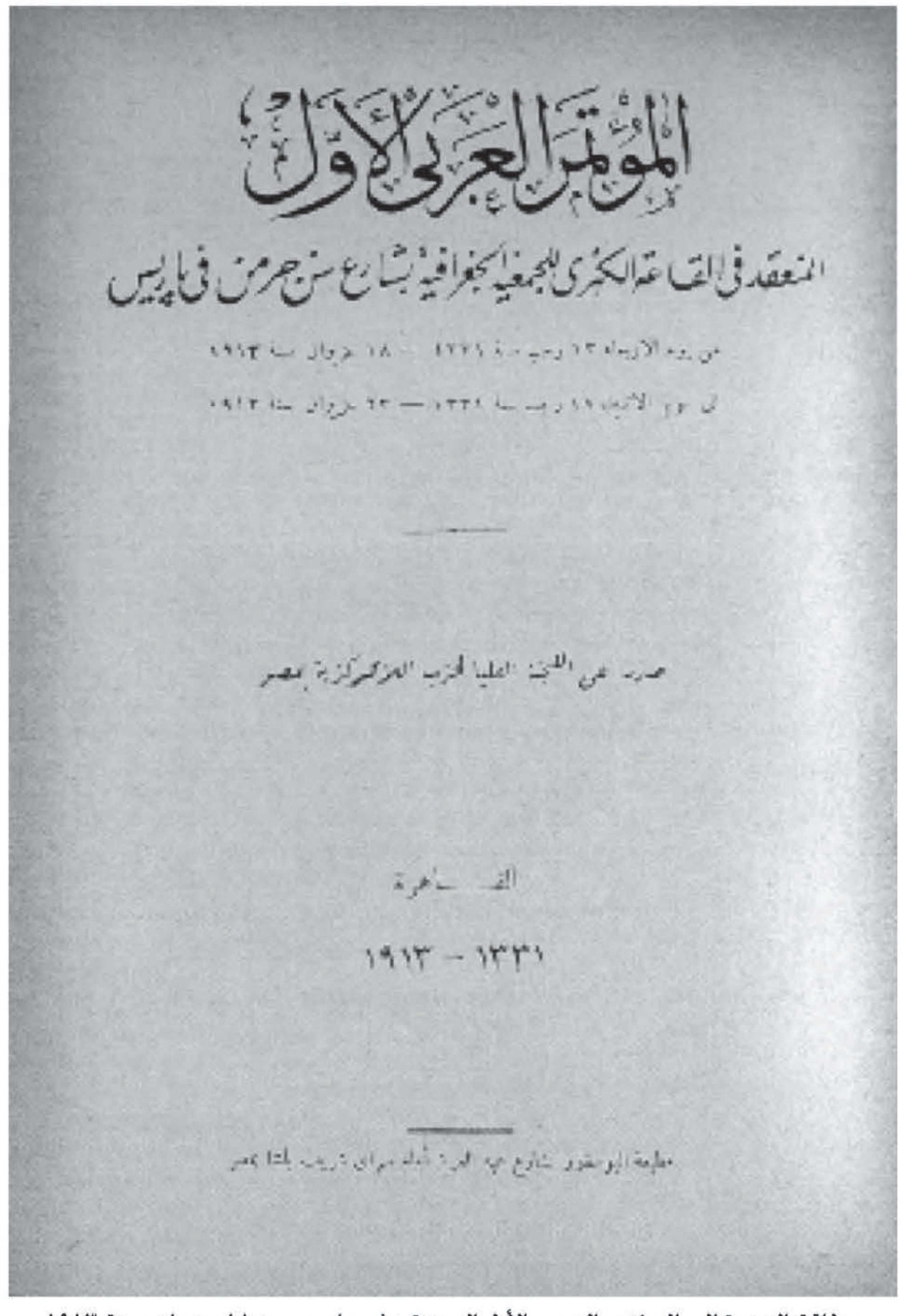
تمت عملية الإنزال في الجهة اليسرى من الصورة (القسم الأوروبي). ويظهر موقع غاليبولي في أقصى يمين الصورة. وهو عبارة عن شبه جزيرة في أقصى جنوب الدردنيل في الضفة الغربية منه. طولها نحو ٥٢ ميلاً أو ٨٣ كلم واقصى عرض لها ١٢ ميلاً (١٩ كلم). معظم تضاريسها جبال ومنخفضات. أعلى نقطة فيها تبلغ ١٠٠ متر عن سطح البحر. غنية بمياه الينابيع والآبار. فيها حصون الدردنيل المنيعة المزودة بالمدفعية ضد السفن ضمن خطة الدفاع عن المضيق.

بعد مضي ٤٥ يوماً على المحاولة التركية-الألمانية الفاشلة على قناة السويس عبر صحراء سيناء في ١٨ آذار/مارس حاول الحلفاء انزال قوات بريطانية على الجبهة الغربية إنزال قوات بريطانية على الجبهة الغربية من شبه الجزيرة مقابل حصون سد البحر لإقتحام المضيق والإستيلاء على استانبول العاصمة لتوجيه ضربة مفاجئة سريعة قاضية تخرج تركيا من الحرب وشاركت فيها القوات الفرنسية التي أنزلت في الضفة الشرقية للمضيق. وتم للأتراك حشد أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل من خيرة القطعات جلبت من جبهات فلسطين والقوقاز وسوريا والعراق على حساب تلك الجبهات. ودارت معارك قاسية شهدت الكر والفر الهجوم والانسحاب. وتم للحلفاء الإستيلاء على حصون سد البحر والقرية نفسها وكلا الطرفين تكبد عشرات ألوف القتلى.. بعدها انسحبت قوات الحلفاء لعدم توافر امكانات الصمود والثبات وانشغال بريطانيا وفرنسا وروسيا في جبهات أخرى بحاجة للقوات الباقية (المصدر: موسوعة الحرب العالمية الأولى. عمر أبو النصر).



الحصون الامامية في الدردنيل وتحديداً في غاليبولي (حصن السلطان عبد الحميد). كلفت عملية الدفاع عنها ومنع الإنكليز من الاستيلاء عليها قرابة مئتين وخمسين ألف جندي من كلا الطرفين.

المرة بينهم وبين رغبتهم وتتخذ الإجراءات القانونية في حق زعمائهم، قرروا بعد موافقة - أو بالأحرى بعد إغراء الحكومة الفرنسية - أن يجتمع المؤتمر في باريس[٩]، وطلبوا في منشورهم الذي أذاعوه في سائر أنحاء البلاد العربية إرسال المندوبين إلى المؤتمر. وكان مدبرو هذه الحركة عبد الحميد الزهراوي مبعوث (نائب) حماة آنئذٍ، وعبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد البيروتية، وعبد الكريم الخليل



المؤتمر العربي الأول

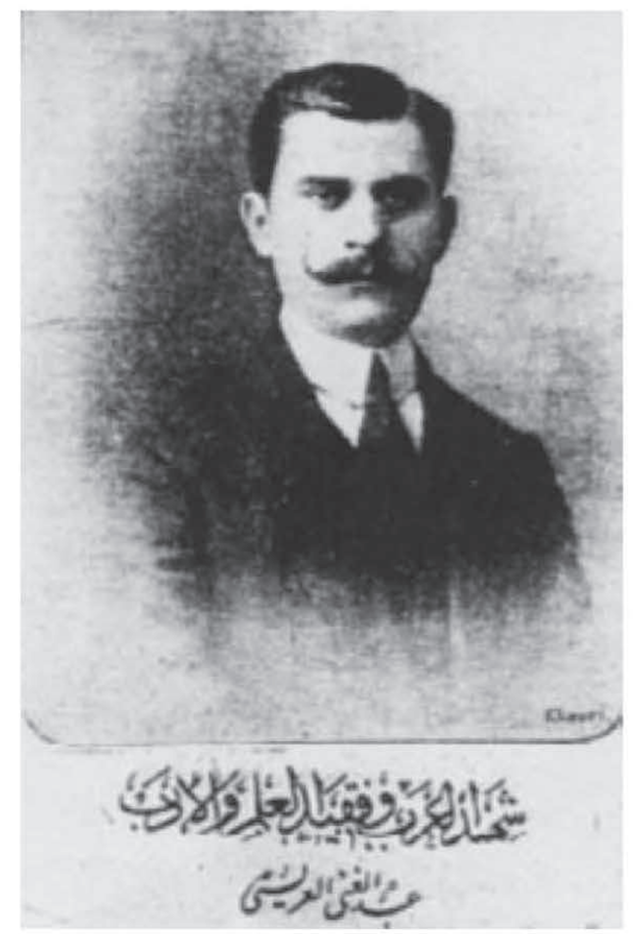
المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن في باريس

صدر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر

القاهرة

١٣٣١ - ١٩١٣

بطاقة الدعوة إلى المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس يوم ١٨ حزيران سنة ١٩١٣







الشهيد عبد الكريم الخليل (١٨٨٦-١٩١٥)

رئيس النادي الأدبي. وبهذه الطريقة، وتحت الرعاية الفرنسية، غيّر المؤتمر شكله ودستوره، واستقر في الأذهان وقتئذٍ أن تدخّل فرنسا في سوريا أصبح قريباً.

ولم أعبأ حينذاك بهذه المسائل العربية، بل كان كل اهتمامي أن يعرف الملأ أن الدسائس الأجنبية تبذر بذور الشقاق بين عنصرين إسلاميين كبيرين هما العنصر التركي والعنصر العربي. ورغبت أيضاً أن نلجأ إلى بعض من رجال العرب ذوي الحيثيات الكبيرة ممن نعتمد على وطنيتهم وحماستهم الدينية لينبئونا بالمطالب العربية التي يمكننا أن نقبلها من دون أن نعرض المصالح المشتركة ووحدة العالم الإسلامي للخطر، ثم نتخذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ تلك الإصلاحات. ولحسن الحظ، كان هذا رأي الحكومة أيضاً، فأرسلت إلى باريس مدحت شكري بك وآخرين لمفاوضة الزعماء العرب الذين عقدوا المؤتمر على أمل إيجاد قاعدة للتفاهم. وقد التأم المؤتمر بالفعل، ولكن بسبب اجتماع مدحت شكري بك وزملائه بالزعماء العرب أكسب المسألة صبغة أخرى، انحلّ المؤتمر بعدما بسط لشكري بك بعض أمانيه الغالية.

وجاءني طلعت بك ذات يوم في دار المحافظة فأخبرني أننا مدعوان إلى زيارة الشيخ عبد العزيز جاويش الجمعة المقبل، على أمل إيجاد قاعدة للتفاهم مع العرب، وسنرى رئيس الجمعية السرية السياسية العربية. وبما أنني كنت من أكبر الداعين لإيجاد ذلك التفاهم ولخبرتي العظيمة في الشؤون العربية حينما كنت والياً في بغداد[١٠]، فقد قررت الحكومة أن أشترك في ذلك الاجتماع.

وفي اليوم المحدد ذهبت إلى الاجتماع، فبرز لنا شخص قصير القامة لا يزيد عمره على الثلاثين ربيعاً، أسمر اللون ذو عينين واسعتين براقتين تدلان على الذكاء والإقدام، هذا هو عبد الكريم الخليل مندوب جمعية العرب السرية السياسية. ثم بدأت المفاوضات بعد الغداء، فقلت له: «يخيل إليّ أن جلّ مرادك أن يُقلَّد بعض أفراد العرب وظائف رئيسية عدة في استانبول». ثم قلت لنفسي مكتئباً إن الإصلاحات العربية إذا حكمنا عليها بآراء أولئك الزعماء لا يكون لها معنى البتة سوى قضاء غايات أشخاص معينين علقت نفوسهم بالمناصب والأبهة. ومع ذلك شرعنا في وضع اتفاق يتضمن القواعد الآتية:

أولاً: تسليم الأعمال الإدارية إلى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بإدارة الولايات.

ثانياً: يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية.

ثالثاً: تستعمل اللغة العربية في بعض إجراءات قانونية معينة.

رابعاً: أن تضاف الصيغة العربية لإعلانات الحضور للمحاكم كما تضاف إلى الأحكام المدنية والجنائية.

خامساً: تكون العرائض المقدمة إلى السلطات الرسمية باللغة العربية.

سادساً: يعيّن بعض العرب في مجلس الأعيان ومجلس الدولة ومحكمة الاستئناف ومشيخة شيخ الإسلام[١١] ودار الإفتاء.

وقد اجتمعنا بعبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي مراراً في فندق كروكر في حي بيرا وبحثنا النقاط السابقة طويلاً، وقد نفذت هذه الإصلاحات بأسرها بعدما وافقت عليها الحكومة، ولكن طلعت بك وحده كان معارضاً في تعيين عبد الحميد الزهراوي في مجلس الأعيان لأن كثيراً من العرب كانوا يعدّونه



عبد العزيز جاويش: شيخ التربية والصحافة والجهاد
(٣١ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٧٤ - ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٢٩)

أحد رواد الإصلاح والعمل الوطني وأحد مناصري الخلافة العثمانية. وُلد قبل ثورة عرابي بست سنوات ومصر تغلي كالمرجل بوجه التدخل الاجنبي. وقناة السويس شقت. ما زاد من أهمية موقع مصر(الجغراسي) وزاد الصراع الأوروبي على النفوذ والموقع الأفضل فيها. بعد احتلال بريطانيا لمصر تصاعدت روح المقاومة الوطنية المصرية. سواءً في السياسة أو الخطابة أو الشعر والأدب. تعاظم الشعور القومي يغذيه شعر محمود سامي البارودي. محاضرات جمال الدين الافغاني. زجل عبدالله النديم وجريدته الشعبية. محمد عبده. صحافة الشوام النازحين إلى مصر. دور جريدة المؤيد وصاحبها الشيخ علي يوسف. دور الحزب الوطني وجريدة اللواء ودور منشئها مصطفى كامل. في هذا المناخ تفتح وعي الشيخ عبد العزيز جاويش الاجتماعي - الثقافي - السياسي. مشاركاً في كل فعاليات عصره. ولد الشيخ عبد العزيز جاويش في ١٨٧٤/١٠/٣١ في الإسكندرية. في أسرة متوسطة تتعاطى التجارة. ككل أبناء جيله درس في الكتاب وحفظ القرآن مع القراءة والكتابة. التحق بالأزهر ثم بمدرسة دار العلوم. بعد تخرجه عُيِّن مدرساً للغة العربية بمدرسة الزراعة. أرسل في بعثة إلى إنكلترا بجامعة برورود. لدراسة علومَ التربية والطرق الحديثة في التدريس. حتى سنة ١٩٠١ ليعود ويعمل مفتشاً في وزارة المعارف وكان همه الأول إصلاح التعليم. كتب في (اللواء) ثم في (العلم) وكذلك في (الهداية) مقالات نارية ضد الاحتلال وحكومات الاحتلال من الإنكليز. وهو لا زال طالباً بدار العلوم كما كتب في تفسير القرآن الكريم.

- رأس تحرير جريدة (اللواء) ١٩٠٨ خلفاً لمصطفى كامل. وهنا بدأت مرحلة جديدة في حياته لخَّصها هو في مقاله الأول الذي نُشر في مايو ١٩٠٨. مدافعاً عن الخديوي.
- قُدِّم للمحاكمة سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالات في اللواء حول ذكرى دنشواي وصدر الحكم بحبسه ثلاثة أشهر.
- في سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة (الهداية) لإفهام المسلمين أسرار القرآن.
- في سنة ١٩١٠ قُدِّم للمحاكمة بسبب مشاركته في وضع مقدمة لديوان (وطنيتي) لعلي الغاياتي. وحُكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر.
- في سنة ١٩١٢ أُبعد الشيخ جاويش إلى تركيا حيث أعاد إصدار مجلة (الهداية) و(الهلال العثماني) و(الحق يعلو).
- في سنة ١٩١٢ تزعَّم مع بعض زملائه أنصار الحزب الوطني جمع التبرعات وإرسال الذخائر إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالي.
- في سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة إرسال منشورات ضُبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه بالفعل وأُودع سجن الحدرة ثم أفرج عنه.
- في سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف.
- في سنة ١٩١٥ شارك الشيخ في حملةً الجيش التركي على قناة السويس بقيادة جمال باشا لتخليص مصر من الاحتلال.
- فيما بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٨ كان ينتقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام. وقد أنشأ مجلات إحداها باللغة الألمانية باسم Die Islamische Welt. وثانية في استانبول باسم (العالم الإسلامي) وفي سويسرا مجلة باسم Egypte. وذلك للدفاع عن استقلال مصر. كما اشترك في مؤتمر الدفاع عن الدول المحتلة في ستوكهولم.
- في سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش تركيا خفيةً حيث اتصل بالوفد المصري بباريس.
- في سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازي مصطفى كمال باشا وعيَّنه رئيساً للجنة الشؤون التأليفية الإسلامية بأنقرة.
- في سنة ١٩٢٣ حدث خلاف بينه وبين الغازي في شأن إلغاء الخلافة. فعاد لمصر خفيةً ونَشرت جميع الصحف مقالاً تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش. وبعد عشرة أيام صرَّحت له الحكومة بالإقامة في مصر.

ألَّف كتاب (الإسلام دين الفطرة) أثناء وجوده في إنكلترا وترجَمَه إلى اللغة الإنكليزية ليساهم في بناء مفاهيم الإسلام والكشف عنها. وقد دعا إلى ترابط رؤوس الأموال الصغيرة وإنشاء مصرف وطني. أصدر كتابه «أذى الخمر ومضارُّه». نادى بضرورة العناية بالمرأة وتعليمها وإصلاح أحوالها ورفع شأنها. وعارض زواج المصريين من الأجنبيات. بنى ملجا للايتام. وقد كتب كتاباً بعنوان (غنية المؤدبين) طُبع عام ١٩٠٣ حيث عالج فيه أساليب المحاورة والاستنتاج بدلاً من الحفظ والتلقين في التدريس. كما ألف كتاب (مرشد المترجم . وأسس مدرسةً ليلية سمَّاها الإعدادية الليلية يتعلم فيها الأزهريون اللغة الفرنسية. وعقد مؤتمراً كبيراً في مدينة المنصورة في فبراير/شباط ١٩١١ ألقى فيه خطبةً جامعةً في إصلاح التربية والتعليم. أسس جمعية المواساة الإسلامية التي لا زالت تقوم بالأنشطة الخيرية إلى الآن. شجع الازهر على ارسال بعثات الى اوروبا اسوة بالجامعة المصرية. أسند إليه منصب مدير التعليم الأوَّلي سنة (١٣٤٤هـ-١٩٢٥م). وذلك وفق خطة لمحو الأمية وتوسيع دائرة التعليم. فاستكمل ما كان قد بدأه من طرق الإصلاح في التربية والتعليم. فأخذ يجوب البلاد ويُنشئ المدارس ويضع الخطط للنهوض بالتعليم حتى وافاه أجله. وبحكم ثقافته العربية الإسلامية واتصاله بمناهج التعليم الحديثة الغربية دعا جاويش إلى إصلاح مناهج التعليم والعناية بالتربية كأساس للتعليم ورفع مستوى القائمين على العملية التعليمية والأخذ بالأساليب الحديثة في التربية. وهاجم مناهج التعليم القائمة؛ لأن الاحتلال هو الذي وضعها وأشرف على تنفيذها. ودعا إلى التوسع في التعليم الزراعي والصناعي. وعمل على إكمال النقص في برامج مدارس بالحكومة. وحماية الطلاب من مناهج التعليم الأجنبي. بما فيها التعليم بالأزهر وإدخال العلوم العصرية ضمن مناهجه. وفتح أبواب المدرسة الإعدادية التي أنشأها لطلاب الأزهر. كان الشيخ في سنواته الأخيرة يرعى أسرة زميل جهاده محمد فريد . وأسرة الصحفي المجاهد أمين الرافعي الذي تُوفي قبله. وفي غمرة هذا العمل المتصل وافاه الأجل في ٢٥ من يناير/كانون الثاني ١٩٢٩.

متقلباً. وكثيراً ما حضر إليّ عبد الكريم الخليل وسألني أن أسوي الأمر مع طلعت بك. وفي النهاية تحققت رغبة الزهراوي. لكن بسبب طموحه إلى منصب شيخ الإسلام لم يقنع بتعيينه في مجلس الأعيان.

ومن ذلك الحين فصاعداً أصبحت لعبد الكريم حيثية كبيرة. وانتحل لنفسه لقب «مفتش عام الجمعية اللامركزية السورية». ولكنه لم ينجح في الانتخابات لمجلس النواب برغم مساعي أعوانه. وفاز مرشح حزب الولايات العربية.

وبما أني الآن في صدد المسألة العربية لا أستطيع إغفال أمر أراه مهماً جداً. فقد كان أنور باشا وزيراً للحربية وكنت وزيراً للأشغال. وكان عزيز علي بك المصري بكباشي[١٢] في هيئة أركان الحرب. فلم يستطع الأخير - وهو من أشد الناس طمعاً وأكثرهم غروراً - أن يرى نفوذ عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي يفوق نفوذه عندما كانت المسألة العربية معروضة على بساط البحث. فوصلت به الجرأة إلى أن يعلن أن العرب لا يقنعون بالاتفاق السابق. وأنهم يطلبون الاستقلال الداخلي وأن يكون لهم جيش خاص. وأن تكون الحكومة ثنائية بينهم وبين الأتراك على أنموذج الملوكية الثنائية النمسا والمجر. ولو أن العرب في الواقع ذهبوا إلى أبعد من المجريين في طلبهم أن تكون لغة جيشهم الرسمية هي اللغة العربية.

ثم أضاف إلى ذلك قوله: «فإذا كانت هذه هي أماني العرب الذين لا يعملون لتحقيقها. بل أرادوا الحصول لأنفسهم على مراكز سامية. ولذلك قنعوا بالإصلاحات التافهة المنوي إدخالها. ليسوا إلا خونة لبلادهم ولسوف يجزون الجزاء العادل فيما بعد».

وكنت تعرفت إلى عزيز علي بك هذا وقت تخرّجه في المدرسة الحربية سنة ١٩٠٤ برتبة يوزباشي[١٣]. وقد أظهر همة شديدة في مطاردة العصابات البلغارية في أقضية بتريك وعثمانية ومقدونيا. واشترك فيما بعد في قتال العصابات اليونانية والبلغارية والألبانية. وانضم قبل إعلان الدستور إلى جمعية الاتحاد والترقي فخدمها خدمات جليلة.

ولما زحف الجيش على استانبول بعد الثورة الرجعية في ١٣ أبريل/نيسان كان عزيز بك على رأس إحدى فصائله. فهاجم ثكنة توبهوس بعد الاستيلاء على كوبري غلطة وأظهر مهارة عظيمة في مطاردة الثائرين. ولم أكن إلى تلك اللحظة أعرف أن له صلة بالعرب. وأينما قابلني. قابلني بكل وقار وخاطبني بلطف وتهذيب.

وذهبت مرة إلى استانبول إذ كنت أتولى منصب والي أضنة. فقابلت عزيز علي بك فتبادلنا بضع ملاحظات عن الخطابات الشهيرة من بيروت وسوريا التي نشرها أحمد شريف بك مراسل جريدة إقدام[١٤]. ولما ذكرت له أن تلك الخطابات تثير عواطف مضرة بالوحدة العثمانية وسلطة الخلافة الإسلامية في الولايات العربية. أجابني عزيز بك بلهجة الكبرياء قائلاً: «إن العرب لعلى حق. فليت شعري ماذا صنعتم أيها الأتراك لنا - سوى سعيكم في إفنائنا وإهانتنا واحتقارنا - حتى تتوقعوا المعاملة الودية من جانبنا؟ هل نسيتم أنكم في استانبول إذا ناديتم كلباً ناديتموه بلفظة «عربي! عربي!» وإن أردتم أن تصفوا شيئاً عويصاً غامضاً قلتم إنه «يشبه شَعر العربي؟». وكأنكم لم يكفكم كل هذا. فتعمدتم في اليوم التالي لإعلان الدستور إثارة خواطر العرب. أفلم تعينوا في جيش الشام مشيراً من سلالة هولاكو ورجلاً



الفريق عزيز علي المصري قبل ثورة ٢٣ يوليو

قادة عرب ومسلمون وعزيز وعبد الكريم الخطابي وعبد العزيز الثعالبي في القاهرة عام ١٩٤٧

يحتقر بغداد والعراق تترياً لا أخلاق له ورسول الجحيم؟ إنكم تعلمون جيداً كيف يسخط العرب على التتار، فليس ثمة غرض من تعيين عثمان باشا لقيادة الجيش الخامس إلا إذلال العرب».

فعَرَتني دهشة لسماع هذه السخافات من رجل نابه كعزيز بك، وعزوت قذفه في عثمان باشا إلى حقد شخصي قد يكون ناشئاً عن خلاف بينهما في مقدونيا، إذ في ذلك الحين كان عزيز بك يعمل في إحدى المصالح العسكرية في كوتشانا، وفيما عثمان باشا قائد جبهة آسكوب[١٥] كان قائماً بأعمال التفتيش خاطب عزيز بك بلهجة قاسية، ولما كانت عادة الباشا التهكم في الخطاب أجابه عزيز بك جواباً حاداً،



مجموعة ضباط عثمانيين في آسكوب

فذهل الباشا لصدور هذا الرد علناً، فقرر احتفاظاً لكرامته استعمال الشدة مع عزيز بك، وأصدر أمره بالقبض عليه، ومذ ذاك تولدت البغضاء في نفس عزيز بك ضد عثمان باشا.

فأجبت عزيز بك بأن الأتراك، وخصوصاً أتراك الأناضول، ينظرون إلى العرب باحترام، وأن الارتياب في ذلك خطأ لمجرد ترديد بضعة أقوال مألوفة، وأن أشخاصاً مثله متعلمين إذا سمحوا لأنفسهم بالتأثر بالضغينة الشخصية كانت النتيجة إذاً الفوضى، وفي ذلك الخطر كل الخطر على العالم التركي.

وبعد تلك المحادثة، أُرسل عزيز بك بناءً على طلبه إلى اليمن[١٦] للالتحاق بجيش عزت باشا، وقد علمت فيما بعد أنه أكثر من الطنطنة بأمانيه العربية وكان سبباً في إثارة مشاكل كثيرة لعزت باشا، كما



أنور في ليبيا



مصطفى كمال في ليبيا



قوات المجاهدين في ليبيا بإشراف الأتراك وتوجيههم

أني علمت أيضاً أنه ذهب في غضون الحرب الطرابلسية إلى سيرانيفا وقام هو وأنور ومصطفى كمال بك بدفاع مجيد عن مدينة بنغازي[١٧].

ولما كنت على يقين من أن لعزيز بك هذا حيثية كبيرة بين ثوار العرب، كان جديراً بي أن ألفت الانتباه إلى خدماته وأغلاطه التي لها ارتباط بماضيه. فقد نُمي إليّ أنه لما كان في طرابلس لم يطق أن يرى أنور بك رئيساً له فبذل كل ما في وسعه لجعله مبغوضاً من الضباط العرب، ولكن أنور لم يعبأ بكل ذلك.

ولما أبرمت معاهدة الصلح مع إيطاليا وعاد أنور إلى تركيا للاشتراك في الحرب البلقانية، سلّم القيادة إلى عزيز بك وأوصاه بتأليف حكومة عربية، بيد أن عزيز بك نفّر منه سيدي أحمد الشريف السنوسي ثم الضباط العرب فقرر العودة إلى استانبول، ولم يكن له في ذلك الوقت مأرب خاص سوى التظاهر بالعداوة لأنور في حضرة الضباط الأتراك وأصدقائه الأقدمين، وبإثارة الخواطر ضد الأتراك بحضرة الضباط العرب.

ولما تولى أنور في النهاية وزارة الحربية أظلمت الدنيا في عيني عزيز بك، ولم يستطع صبراً على أن يبقى، وهو الذي كان زميلاً لأنور في المدرسة الحربية وأبلى بلاءً حسناً وأظهر قسطاً عظيماً من الوطنية، بكباشياً (رائداً) بسيطاً في هيئة أركان الحرب، فيما صار منافسه وزيراً للحربية، فأدى به الحسد إلى استنتاج هذه النتيجة السيئة، وهي أن اشتراكه في العمل مع الأتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجداً، إذاً «فلتحيا الثورة العربية!!».

وقد بلغت دسائس عزيز بك مبلغاً خطيراً حتى نفد صبر أنور باشا، فأصدر أمره بالقبض عليه وأرسله إلى المحكمة العسكرية بتهمة اختلاس ٣٠ ألف جنيه[١٨] سلّمها إليه أنور قبل مغادرته طرابلس لأنها من أموال الحكومة.

وما كاد يذيع نبأ القبض على عزيز بك حتى علت الضجة بين الشبان العرب في استانبول، وكنت وقتئذٍ وزير الأشغال، فواصل أعضاء النادي العربي سعيهم لدى الوزراء وذوي النفوذ، وأتاني ضمن الوفود وفدٌ من خمسة شبان من بيروت ودمشق بزعامة البعلبكي الدكتور أسعد حيدر، ورجاني أن أستعمل نفوذي لإطلاق عزيز المصري، وقد أكدوا لي أن إطلاقه يؤثر تأثيراً حسناً في شبان العرب المتعلمين، وكانت وزارة الحربية أرسلت الحكم إلى الباب العالي، واقترحت أن تخفف الإرادة الشاهانية حكم الإعدام إلى السجن المؤبد، وفي مساء اليوم الذي اتفق فيه عرض ذلك الحكم المعدل على جلالة السلطان للتصديق عليه، أقيمت مأدبة في دار السفارة الفرنسية دعي إليها الوزراء وبعض السفراء الأجانب وكثيرٌ من أعيان الفرنسيين، وكنت أنا وأنور باشا ضمن المدعوين.

فبعد الفراغ من العشاء انتقلنا إلى غرفة الجلوس وخاض بعض الحاضرين همساً في مسألة الحكم على عزيز بك، فجاء إليّ السيد جورج ريموند[١٩] المراسل الحربي لجريدة «الستراسيون»[٢٠] وخاطبني قائلاً: «سيدي القائد، إذا حكم بالإعدام على الجنرال عزيز بك لمجرد التشاحن واختلاف في الرأي بينه وبين أنور باشا عندما كان في بنغازي، فكل ما أستطيع أن أقول هو أن للقانون في هذه البلاد المقام الثاني بجانب العمل بالأهواء الدال على التعسف، وقد بلغني أن التهمة الموجهة إلى عزيز بك هي اختلاس أموال



في القدس



في ليبيا

السيد أحمد الشريف السنوسي (١٨٦٧-١٩٣٣)

وُلد السيد أحمد الشريف في عام ١٨٧٣م في واحة الجغبوب. تزعّم السيد أحمد الشريف الحركة السنوسية في عام ١٩٠٢م. خلفاً لعمّه السيد محمد المهدي والد الملك إدريس السنوسي الذي كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره آنذاك. ويبدو أن شجاعته خلال قيادته معارك الجهاد ضد الفرنسيين في مناطق «قرو» و«ودان» السودانية قد أهّلته لتولي الزعامة. ومع بداية الغزو الإيطالي للشواطئ الليبية عام ١٩١١م. كان السيد أحمد الشريف قد أعاد تنظيم الحركة السنوسية من خلال الزوايا التي انتشرت في أقاليم كثيرة. كما سعى جاهداً لمدّ جسور التعاون والتناصح مع الحركات الإسلامية الأخرى وتدعيم وشائج الأخوة الإسلامية بينها. كما ارتبط أشد الارتباط بالخلافة الإسلامية التي كانت تمثلها الدولة العثمانية في تركيا. وما إن وطئ البلاد جنود المستعمر الإيطالي حتى كان السيد أحمد الشريف قد حوّل زوايا الحركة السنوسية إلى معسكرات لإعداد قوة عسكرية من الأهالي والأتباع بقيادة جماعات من الضباط الأتراك واتخذ التدابير اللازمة لتزويد تلك القوات بالأسلحة والعتاد بشتى الطرق. وعندما تناهى إلى أسماع السيد أحمد الشريف اعتزام تركيا إبرام الصلح مع إيطاليا. شكل وفداً من زعماء السنوسية وأهالي البلاد وبعثه إلى مدينة درنة لمقابلة «أنور بك» الوالي العثماني. وسلّمه رسالة خطية جاء فيها: «نحن والصلح على طرفي نقيض. ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه. إذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد إلى العدو». ونتيجة ذلك وصل مبعوث الوالي العثماني السيد عزيز المصري بصفته ممثلاً للدولة العثمانية في ليبيا ومديراً للعمليات العسكرية فيها. وصل إلى الجغبوب «مركز قيادة السنوسية» وأبلغ السيد أحمد الشريف أن الخليفة منح البلاد الإستقلال وحق الدفاع عن نفسها وتقرير مصيرها. ولكن مع تذبذب الموقف التركي من مسألة الصلح مع إيطاليا. عاد أنور باشا إلى طرح فكرة القبول بالصلح على السيد أحمد الشريف فكان ردّه أكثر حزماً. قائلاً «والله لا نسلمهم من أرضنا طراحة حصان». وبعد توقيع معاهدة «لوزان» مع إيطاليا والتي سلمت فيها تركيا ليبيا إلى إيطاليا. بادر السيد أحمد الشريف إلى إعلان الحكومة السنوسية لسد الفراغ المترتب عن انسحاب القوات التركية من البلاد. وكان شعار تلك الحكومة «الجنة تحت ظلال السيوف». ثم أعلن الجهاد في منشور عممه على مشايخ الزوايا السنوسية والقبائل والأهالي وطلب من كل فرد من سن ١٤ إلى سن ٦٥ أن يذهب إلى الميدان مزوداً بمؤونته وسلاحه. ومع توالي الهزائم التركية في البلقان اصدرت القيادة التركية اوامرها بضرورة الانسحاب النهائي من الأراضي الليبية. ومع الانسحاب الكامل للقوات التركية من البلاد قرر السيد أحمد الشريف الانتقال بقواته التي بلغت حينئذ سبعة آلاف مقاتل إلى منطقة أم ساعد على الحدود الشرقية مع مصر. ما فرض ظروفاً وأوضاعاً جديدة على المنطقة وخصوصاً بعدما تبين أن السيد أحمد الشريف قد نجح في تحويل القوات السنوسية إلى جيش نظامي مدرب. ومستعد لخوض غمار حرب فدائية طويلة المدى ضد الطليان. وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى تعزز موقف السيد أحمد الشريف وقواته. حيث جعلت الأطراف المتحاربة تسارع إلى كسب ود السيد أحمد الشريف وقواته. تركيا وألمانيا من جهة. وبريطانيا ومصر من جهة أخرى. فالأولى رغبت أن يقوم السيد أحمد الشريف بتخفيف الضغط على إيطاليا بمهادنتها. وبفتح جبهة جديدة ضد الإنكليز في السلوم. والأخرى رغبت في مساعدة السيد أحمد الشريف للقضاء على الطليان. العدو الرئيسي للسيد أحمد الشريف آنذاك. وبسبب الضغوط الشديدة التي مارستها الدولة العثمانية عليه. إضافة إلى الانتصارات الألمانية العثمانية على قوات الحلفاء في اوروبا. وظهور الثورات الشعبية ضد الإنكليز في الهند وأفغانستان والسودان. اختار السيد أحمد الشريف أن يقوم بالإغارة على قوات الإنكليز في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٥م داخل الحدود المصرية وهزمهم في السلوم ولاحقهم حتى منطقة سيدي براني حيث اندمج بقواته مع القوات الوطنية المصرية بقيادة محمد

صالح حرب. لكن القوات البريطانية تمكنت من صد الهجوم في معركة العواقير ١٩١٦م التي أسر فيها جعفر العسكري، وهرب فيها نوري باشا وعبدالرحمن عزام. وواصل السيد أحمد الشريف القتال من المحور الجنوبي واحتل عدداً من الواحات، وسارع إلى الاتصال بالسيد علي دينار، سلطان دارفور في السودان، ومشايخ الصعيد في أسيوط والفيوم، محاولاً تكوين جبهة عريضة لقتال الإنكليز. وخاض السيد أحمد الشريف بقواته معارك عدة آخرها معركة بئر تونس التي اضطر فيها إلى التراجع والانسحاب، وذلك بسبب عدم استجابة زعماء القبائل في الفيوم والصعيد ودارفور من جهة، وفشل قوات جعفر العسكري واستسلامه من جهة اخرى. فضلاً عن التباين الكبير بين القوتين، فبينما كانت قوات السيد أحمد الشريف تقاتل ببنادق عادية وعلى ظهور الخيل في أرض مكشوفة، استخدم الإنكليز المدفعية والطائرات، يضاف إلى ذلك صعوبة التموين بل وانقطاع موارده عن القوات السنوسية. وكانت جملة السلوم نهاية المطاف في صراع السيد أحمد الشريف ضد الإنكليز في ليبيا، وقد بادروا إلى تهديده بضرورة ترك الجغبوب فوراً، تحت طائلة ضرب وتهديم ضريح قبر جده الأكبر السيد محمد بن علي السنوسي بالطائرات واحتلال المدينة واستباحتها.

غادر السيد أحمد الشريف البلاد إلى المنفى في اوائل آب/أغسطس ١٩١٨م على متن غواصة ألمانية من مرسى العقيلة ومعه كبار معاونية وقادته، منهم محمد صالح حرب ونوري باشا وصالح أبو عرقوب البرعصي وعبدالوهاب الدرسي. اما باقي الأتباع وعلى رأسهم سيدي عمر المختار فقد انسحبوا إلى الجبل الأخضر. وقد كان إبعاد السيد أحمد الشريف انتصاراً لكافة الأطراف المعادية لنضال الشعب الليبي. وصل السيد أحمد الشريف إلى ميناء بولاوتريستا ومنها إلى النمسا ثم بالقطار الى استانبول حيث استقبل استقبالاً حافلاً تدعيماً لمواقفه وصموده، وقلده السلطان محمد السادس السيف «علامة السلطنة» وأنعم عليه برتبة الوزارة.

مباشرة بعد استقراره في المنفى اخذ السيد أحمد الشريف يحرض العثمانيين على إعطاء القضية الليبية الأهمية القصوى، وقد نجح بالفعل في إقناع عزت باشا، رئيس الوزراء آنذاك في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨م، بأن يسمح له بالسفر خفية إلى طرابلس بعد تزويده بالمعدات والسلاح والأموال. إلا أن اتفاق هدنة الحرب العالمية الأولى حال دون إنجاح المهمة، ومع ذلك فقد انتقل السيد أحمد الشريف ورفاقه من استانبول إلى بروسه استعداداً للعودة إلى برقة، إذا ما أخفقت جهود السلام.

لقد أدت نتائج الحرب العالمية الأولى إلى الانقسام في تركيا بين الخليفة في استانبول، وأنور بك في القوقاز، ومصطفى كمال أتاتورك في الأناضول، وحاول كل منهم اجتذاب السيد أحمد الشريف إلى جانبه باعتباره زعيماً دينياً موثوقاً وذا شعبية كبيرة في تركيا، لكن السيد أحمد الشريف اتخذ موقف الحياد إزاء الزعماء الثلاثة، وإن كان يميل إلى أنور باشا في أحاديثه الخاصة. وكان الأخير قد وعده بتسهيل عودته إلى برقة بالسلاح والرجال والأموال إذا ما نجح في حسم الصراع لصالحه، وكان ذلك غاية ما يتنماه السيد أحمد الشريف.

لقد بلغت ثقة الأتراك بالسيد أحمد الشريف حداً جعل مجلس المبعوثان يصدر قراراً بتعيينه ملكاً على العراق في نيسان/أبريل ١٩٢١م، لكن فيصل بن الحسين، بدعم الإنكليز، نجح في الوصول إلى العراق قبله، ويذهب بعض الباحثين إلى أن مصطفى كمال أتاتورك قد عرض الخلافة على السيد أحمد الشريف لكنه رفضها، متعللاً بأن أحوال العالم الإسلامي آنذاك لا تشجع على اتخاذ مثل تلك الخطوة.

شهدت سنتا ١٩٢١-١٩٢٢ تحركاً سياسياً واسعاً للسيد أحمد الشريف، محاولاً خلق جبهة إسلامية عريضة تضم الخديوي عباس «مصر»، وعبد العزيز بن سعود «أمير نجد»، وابن الرشيد «أمير حائل»، وأحمد الجابر الصباح «أمير الكويت»، والحسن الإدريسي «أمير عسير»، وحميد الدين «إمام اليمن»، هدفها تحرير العالم العربي الإسلامي من الاستعمار الإيطالي والإنكليزي والفرنسي، كما تدخّل في الصراعات الدائرة بين قبائل شمر وعنزة وحقق الصلح بينهما، ثم انتقل إلى سوريا محاولاً إثارة الشعور الديني، محرضاً أهلها على العمل لطرد الفرنسيين بمساعدة الأتراك، غير أن الفرنسيين كشفوا تحركاته وطردوه إلى تركيا عام ١٩٢٤م، وعلى أثر الانقلاب الذي قاده مصطفى كمال أتاتورك وإلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، أدرك السيد أحمد الشريف أن لا مكان له في دولة أتاتورك العلمانية، فانتقل إلى الحجاز بعد أن سُدت في وجهه أبواب البلاد العربية الأخرى، وكانت الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٣ تمثل جانباً مهماً في حياة السيد أحمد الشريف السنوسي في المنفى، حيث أقام في الحجاز مستفيداً من العلاقة الخاصة التي كانت تربطه بعبد العزيز بن سعود، وبدا محركاً وقائداً للمقاومة والجهاد في الداخل والتي كان يقودها في المنطقة الشرقية للبلاد شيخ المجاهدين سيدي عمر المختار، ويعاونه قجة بن عبدالله السوداني، والفضيل بو عمر، ويوسف بورحيل، وحسين الجويفي، وعبدالله بوسلوم، وعبد الحميد العبار، وقد تبقّى من العائلة السنوسية بعد رحيل السيد إدريس السنوسي عام ١٩٢٣م إلى مصر كل من محمد الصديق والسيد محمد الرضا والحسن الرضا. السيد أحمد رفض فكرة عقد صلح بينه وبين الحكومة الإيطالية وكان حازماً في توجيهاته بأن «طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود بهما على الطليان، بل هما ملك أهلهما». وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٦م نجح السيد أحمد الشريف في عقد معاهدة بين إمام اليمن يحيى وإمام عسير الحسن بن علي الإدريسي وملك الحجاز عبدالعزيز آل سعود، أنهى بموجبها الخلافات والحروب الدائرة في المنطقة، وكان هدفه من ذلك القضاء على تلك الحروب الجانبية التي تستنفد الكثير من جهود المسلمين حتى يلتفتوا جميعاً إلى العدو الصليبي «الإنكليزي والإيطالي والفرنسي» الذي كان يحتل جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي.

وظل السيد أحمد الشريف طوال فترة إقامته في الحجاز متفرغاً لدعم المجاهدين في الداخل، وكان يتخذ من مواسم الحج والعمرة وسيلة للاتصال بالليبيين ويستقبل الرسل الوافدة إلى مكة من قادة الجهاد، يزودهم بالتوجيهات والتعليمات وكذلك بالإمدادات، كما جعل من مواسم الحج منبراً إعلامياً يحض المسلمين منه على دعم القضية الليبية ويجمع التبرعات لنصرتها.



أنور وجمال في استقبال السنوسي

عهد إليه بها للدفاع عن الوطن. لنسلم بأنه من ثوار العرب وبأن آراءه تخالف آراء أنور باشا، ولكنه على الأكيد ليس لصاً، وإني واثق أنك تستطيع إنقاذ عزيز بك من العقاب الذي لا يستحقه».

وبعد جورج ريموند جاء عدد من أصدقائي الأتراك والفرنسيين من عسكريين ومدنيين يسألونني التدخل لمصلحة عزيز بك، ولم يكن صعباً معرفة ما جال في خاطرهم من نظراتهم إلى أنور باشا (الذي كان هناك) فكأنها كانت تقول: «ها هو الرجل الذي لا يتردد مطلقاً في إشباع سورة الانتقام بالفتك بضابط جليل قاتل معه في طرابلس جنباً إلى جنب!».

فأدركت في الحال أن الرأي العام كان أشدَّ سخطاً على أنور باشا منه على عزيز بك، فأصبح واجباً عليّ أن أجد مخرجاً، وفوق ذلك رأيت أن عزيز بك من أشجع الثوار العرب وأكثرهم أمانة، وقد خطر لي أن من العبث أن نعلن عفواً عاماً عن جميع الثوار الآخرين ونحرم عزيز بك الانتفاع به، فلهذا السبب اهتممت حقيقة بإنقاذه، فلما عدت إلى المنزل كتبت الخطاب الآتي لأنور باشا:

«عزيزي أنور...

على الرغم من البينات العديدة التي جمعتها المحكمة العسكرية ضد عزيز بك، وعلى الرغم من أن الحكم صدر عليه فعلاً، فإن الرأي العام ليس ساخطاً إلا عليك، فالسُّخط عليك بهذه الطريقة يحدث لك ضرراً أكثر بكثير من الضرر الذي يلحق بعزيز بك من جراء سجنه بضع سنين، فأرجو أن تبذل جهدك في الحصول على العفو الشاهاني عنه، وأنا أبعده عن استانبول على ألا يعود إليها».

وفي اليوم التالي أخبرني أنور باشا بالهاتف أن جلالته أصدر عفوه عن عزيز بك، ثم حضر إليّ أخوه وقد علم بالخبر ومعه جورج ريموند يشكرني، فأخبرته بوجوب سفر أخيه إلى مصر في الحال وعدم التدخل مطلقاً في السياسة التركية.



أسعد حيدر (١٨٥٥-١٩٣١)

عميد عائلة الأسرة الحيدرية. تابع دراسته ما بعد الرشدية (الثانوي) في دراسة الحقوق في المعهد السلطاني في استانبول وتخرج فيه محامياً. تولى الأحكام في بعلبك. كان عضواً في المحاكم ثم رئيساً. أجاد اللغة الفرنسية والتركية وكانت له مواقف سياسية قومية عربية جريئة في سوريا الأمس وفي عاصمة الخلافة. شارك في الأندية الثقافية والاجتماعية والجمعيات خطيباً مفوها مؤثراً بين الشباب العرب ومواقف انسانية محلية اجتماعية وثقافية في منطقته. تشهد له بمكانته وشهامته وبعد نظره في تقدير المواقف وتقرير السلوك الواجب اتخاذه ازاء الشدائد. كان من أشد المؤيدين للشباب الترك المتحررين الداعين الى العدالة والمساواة والاخوة بين الشعوب العثمانية. هذه الاهداف تلاقت مع أهدافه مع هواه فانتسب الى جمعية الاتحاد والترقي. ونشط لأجل تطبيقها. مثله مثل آلاف الشباب العرب. عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩١٤ وتولي أحمد جمال باشا ولاية سوريا. سيق إلى الديوان العرفي مع الرجال الأحرار أمثاله بسبب مواقفه المبدأية الثابتة ونبل نفسه. بعد فترة برئت ساحته وعاد الى منزله.



أنور متخرّجاً من الأكاديمية العسكرية نقيباً

وقد علمت فيما بعد أن عزيز بك، برغم حلفه بشرفه، وضع نفسه في تصرف الشريف حسين خلال الحرب العامة، عندما ثار على الخلافة وساق عمداً العالم الإسلامي إلى الموقف المزري الذي يقفه اليوم!.

دور الصدر الأعظم محمود شوكت

في إعادة تنظيم إدارة الدولة والجيش

لا أظن أن هناك رجلاً واحداً في أوروبا أو أميركا يعرف حقيقة الظروف التي جاءت فيها البعثة العسكرية الألمانية إلى استانبول لتنظيم الجيش التركي، وتدل العبارات العديدة التي ينشرها أعداؤنا على أن وصول البعثة كان إبان وجود أنور باشا في وزارة الحربية مما تعتبره جريمة لا تغتفر، ولكنني سأسجل الحقيقة هنا.

فإن محمود شوكت باشا لما رسخ في ذهنه استحالة هزيمة البلغار ووقّع شروط الصلح التمهيدية التي وضعت في لندن، والتي أعطتنا خط إينوس ميديا فاصلاً بيننا وبين بلغاريا وكذلك أعطتنا جزيرتي إمروس وكينيدوس، اعتزم حشد الجهود الوطنية وتحويلها لمواصلة الإصلاح الداخلي، هذا إذا كان يراد ألاّ تزداد البلاد - وقد كانت متعبة - ضعفاً على ضعفها، وعلى هذا خوّل مندوبينا حق توقيع الصلح التمهيدي.

وكان يرى أننا في حاجة قصوى إلى الأموال ولذلك فكر في عقد قرض كبير من إحدى الدول العظمى، فالتجأ أولاً إلى ألمانيا ولكن هذه أخبرته أن حالة سوق النقد في برلين لا تسمح بعقد قرض تركي جديد، ونصحت له بألاّ يعتمد بحال من الأحوال على ألمانيا في المسائل المالية، وأشارت عليه بأن يلجأ إلى فرنسا. فقررت الحكومة بناءً على ذلك اتباع تلك النصيحة وأرسلت جاويد بك إلى باريس، ولم يكن جاويد من أعضاء الوزارة، ولكنّا كنا ننظر إليه باعتباره روح الجهود التي يقوم بها حزب الاتحاد والترقي في سبيل تنظيم المسائل الاقتصادية المالية، فعُيّن رئيساً للوفد العالي الذي نيط به بدء المفاوضات في الشؤون المالية الواردة في الصلح التمهيدي. ولكن محمود شوكت باشا رأى أن مسألة القروض الأجنبية لا تكفي وحدها لتوطيد مركز الدولة المالي، ولهذا صرف اهتمامه إلى إلغاء الامتيازات المالية وهي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها إعادة تنظيم الموازنة، وأعطيت التعليمات لجاويد بك بالسعي لهذا الغرض.

وانتقل محمود شوكت باشا بعد ذلك إلى تسوية بضع مسائل كانت سبباً في اختلاف الرأي بيننا وبين حكومات أجنبية معينة، ولاسيما حكومتا روسيا وإنكلترا، ومن أهم تلك المسائل وقتذاك مسألة الحدود الإيرانية وهي مسألة قصدت إنكلترا وروسيا أن تؤولاها تأويلاً غريباً، فأهتم الباشا شخصياً ببحث المسألة بحذافيرها وطلب إلى الحكومتين أن تحذوا حذو تركيا فتعيّنا لجنتين لتقرير الحدود وترسلاهما إلى مكان النزاع. ثم التفت إلى مسألة تنظيم الجيش والأسطول، وكان لدينا فعلاً بعثة بحرية إنكليزية فاتصل شخصياً برئيسها وطلب إليه التعجيل في إعادة تنظيم الأسطول، أما من حيث تنظيم الجيش فإني أقص هنا الحقائق والتفصيلات كما بسطها أمامي الباشا شخصياً.

فلقد اعتاد الباشا إبان وزارته أن يقضي الليل بأسره، بل ينام، في الباب العالي، ولما كنت أنا أيضاً أقضي الليل في دار المحافظة كان يخاطبني بالهاتف بين آنٍ وآخر في المساء، وأحياناً كنت أذهب إليه

متى فرغ من أعماله المتعبة طول اليوم، وفي غضون تلك الزيارات كان يدلي إليّ بأفكاره وخططه ويستطلع رأيي.

وفي ذات ليلة قال: «إني أظن أن كل ما عملناه حتى الآن لإعادة تنظيم الجيش لم يكن سوى ترقيع، وما كان اختيارنا لمن جئنا بهم لإصلاح الجيش، سواء في العهد الحميدي أو في عهد الدستور، إلا اختيار عرضي لا على أساس معين، فلم نفكر مطلقاً بحسب مقدرتهم على تنفيذ ذلك البرنامج. انظر إلى اليونانيين مثلاً، لقد كانوا أمهر منا إذ عهدوا إلى الإنكليز بتنظيم أسطولهم وإلى الفرنسيين بتنظيم جيشهم، كما أن فنزيلوس احتفظ لنفسه بوزارتي الحربية والبحرية، وقد أباد بلا رحمة كل من تجرأ على إقامة أي عقبة في سبيل البعثتين، كما أنه لم يأبه مطلقاً لانتقادات خصومه السياسيين وهو دائم الاتصال برئيسي البعثتين لينفذ كل ما يطلبان، فكان ثمرة ذلك الجيش اليوناني الذي عرفنا كيف نحترمه في الحرب البلقانية، والأسطول الذي لا يمكن أن يقاس به الأسطول اليوناني في الحرب التركية - اليونانية.

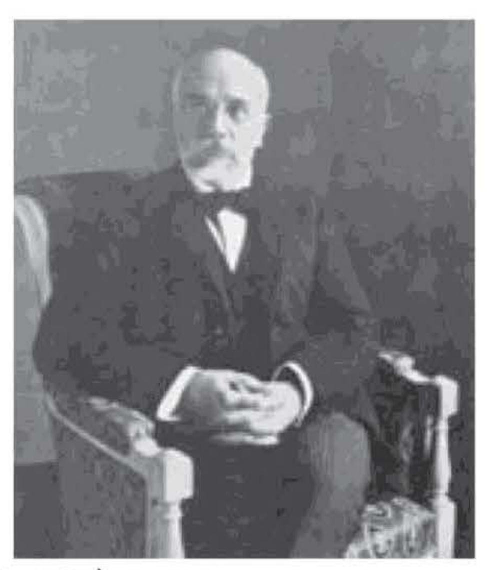
وعندي أن أجلّ خدمة قدّمها فنزيلوس إلى وطنه هي تنظيم القوات المسلحة ومواجهة السياسيين بحجة دامغة، بل بالحجة البالغة الوحيدة لتحقيق الأماني الوطنية، وإني أريد أن أقوم لبلادي بخدمة كهذه، فلدينا الآن فعلاً بعثة بحرية إنكليزية، وسأسعى للاتصال برئيسها فأسأله عما يطلب لضمان نجاح بعثته وأنفذه في الحال.

أما من حيث الجيش فلا ينبغي لنا أن نتردد الآن في انتهاج الأساليب الألمانية، فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً يدرّب الضباط الأساتذة الألمان جيشنا، كما أن جميع ضباطنا تدربوا على الانضباط الألماني، ولجيشنا دراية تامة بروح التدريب والتربية العسكرية، فيستحيل تغيير ذلك كله الآن. وعلى ذلك اعتزمت استحضار بعثة عسكرية ألمانية ذات سلطة واسعة، وإذا احتاج الأمر عيّنت قائداً ألمانياً لقيادة أحد الفيالق التركية[٢١]، وكُلّف الأعضاء الألمان وضباط الكتائب قيادة كل وحدة في ذلك الفيلق، وبهذه الوسيلة أنشئ فيلقاً يكون أنموذجاً للفيالق الأخرى، وعلى أعضاء وضباط كتائب الفيالق الأخرى أن يلتحقوا بهذا الفيلق المخصص لمدة معينة لإتمام تدريبهم وزيادة خبرتهم، وسأطلب أن يصحب هذه البعثة متخصصون فنيون لتنظيم كل فروع وزارة البحرية وهيئة أركان الحرب والمدارس الحربية والمصانع.

ولما كنت أعتقد أن ليس ثمة احتمال لاشتباكنا في الحرب قبل مضي زمن طويل، عزمت على تخفيض الجيش بقدر المستطاع إلى العدد اللازم في زمن السلم، وإذا استطعنا أن نقتصد يمكننا من جهة أخرى أن ننفذ كل طلبات البعثة، وعندئذ يمكننا أن نهدي إلى العالم العثماني جيشاً سيكون طبعاً قليل العدد ولكنه على أتم نظام وتدريب، ومتى اندلعت ألسنة الحرب فليس صعباً مضاعفة عدد ذلك الجيش. وإني الآن أستطلع رأي الألمان في الشروط التي يطلبونها لإرسال مثل هذه البعثة، وأرى الأنسب ترك تحديد الشروط لهم».

تلك هي حقيقة الظروف التي دعيت بموجبها بعثة القائد ليمان فون ساندرس للحضور إلى استانبول للقيام بمهمة تنظيم جيشنا، فليس لأنور باشا يد ما أو علاقة مطلقاً بها.

وبعد انتقال محمود شوكت باشا إلى دار البقاء كان عزت باشا خلفه في وزارة الحربية متشبعاً بهذه



الفيتريوس فنزيلوس رئيس وزراء اليونان (١٨٦٤ -١٩٣٦)

ولد في قرية مُورنيس في جزيرة كريت. درس القانون في جامعة اثينا. وكريت لا تزال تحت السيطرة العثمانية آنذاك. تولى رئاسة مجلس الحكومة المحلي. قاوم الحكم العثماني وقاد الكريتيين لأجل الاستقلال والاتحاد مع اليونان وساهم في وضع مسودة الدستور. صار عضواً في حكومة الامير جورج. انتخب مفوضا ساميا للجزيرة ثم رئيساً للجمعية الكريتية ورئيساً لوزراء جزيرة كريت. خاض انتخابات نيابية عن اتيكا وتزعم الحزب الليبرالي (الهيليني) اليميني القومي. ترأس الحكومة اليونانية سنة ١٩١٠ ونفذ إصلاحات ومشاريع. أقام تحالفات مع جيرانه شمال اليونان المعادين لتركيا ما قوّى نفوذ بلاده التي شاركت في حرب البلقان الثانية وضمت مقدونيا. أيد مواقف الدول الثلاث بريطانيا وروسيا وفرنسا ما رفع شدة العداء مع تركيا. عارض سياسة الملك قسطنطين في إبقاء اليونان دولة حيادية. تقدمت بريطانيا بعرض على الحكومة اليونانية أن تعطيها قبرص مقابل المشاركة في الحرب الى جانب الدول الثلاث. العرض لقي معارضة الحكومة والملك. أمر الملك قسطنطين بإقالة فنزيلوس الذي ردّ بتأسيس حكومة ثورية في كريت في ايلول سنة ١٩١٦ وانتقل الى سيلانيك معلناً الحرب على المانيا وبلغاريا وأجبر الملك على التنازل عن العرش. يُنَصّب ملك جديد (اسكندر). هذا الأمر كان له تداعيات سلبية على الوحدة الوطنية استمرت عقوداً. عاد فنزيلوس ثانية الى اثينا رئيساً للوزراء. اما بعد الحرب. فقد مثّل اليونان في مؤتمر السلم في باريس. حقق لبلاده منافع (قومية) فساير السياسة البريطانية. وارسل قطعات من الجيش اليوناني فاحتلت أزمير وبعض الجزر على الساحل التركي في بحر إيجه بحجج واهية مثل. دعوى انه يحمي الاقليات المسيحية اليونانية. لكنه انهزم أمام ضربات الجيش التركي في الأناضول. هذا التصرف منح مصطفى كمال فرصة الظهور امام الاتراك والعالم بانه بطل التحرير وصانع الاستقلال وابو الأتراك وأحيط بهالة قدسية لم يك يحلم بها. ونشأت مشكلة انسانية لدى اليونانيين كانوا بغنى عنها مسألة مئات آلاف اللاجئين المأسوية وتبادلهم بين البلدين على أسس دينية وعرقية. وفي معاهدة (سيفر) في آب ١٩٢٠ مُنِحت اليونان أرخبيلات جزر في بحر إيجه. جائزة لقاء مشاركتها في الحرب. كان حلم فنزيلوس العودة باليونان إلى حدود الامبراطورية البيزنطية. وهيلاس جديدة عاصمتها القسطنطينية. يموت الملك اسكندر فيعود الملك قسطنطين الى عرش اليونان. تُجرى الانتخابات فيفشل فنزيلوس. أدى إلى خفوت نجمه وفشله في الانتخابات سنة ١٩٢٠. حتى سنة ١٩٢٨ يعود فنزيلوس ويتولى رئاسة الحكومة ومشكلة النازحين لا زالت تنوء بثقلها على كاهل المسؤولين. شهد عهده تنفيذ إصلاحات داخلية سياسية إدارية (مجلس الدولة). واقتصادية إنشاء (البنية التحتية. المصرف اليوناني الوطني. البنك الزراعي). ثقافية تربوية بناء (شبكات مدارس. المسرح الوطني). جرت الانتخابات لعام ١٩٣٣ وعلى الرغم من خدماته وتفانيه يخسر فنزيلوس واليونان تحت وطأة مشاكل اجتماعية اقتصادية بسبب الازمة العالمية (الكساد. البطالة. التضخم) بعد الحرب العالمية الاولى. فتطال أوروبا والولايات المتحدة وكل الدول المرتبطة بالنظام الرأسمالي. انهال عليه خصومه السياسيين فعزوا اليه مشاكل اليونان الاقتصادية والسياسية. في الوقت نفسه جرت محاولة انقلابية أيضاً اتُهم فيها فنزيلوس. وجرت محاولات عدة لاغتياله ما اضطره الى السفر الى فرنسا. كادت الاحداث الداخلية سنة ١٩٣٥ ان تودي الى حرب أهلية واسعة. من ذيولها ان محاكمات جرت لبعض اصدقاء فنزيلوس ومؤيديه فحكمت على بعضهم بالاعدام والسجن والاضطهاد. والغاء لمظاهر الحياة الديمقراطية وفرض الدكتاتورية.

كان فنزيلوس رجلاً قومياً طموحاً. مخلصاً لبلاده. زعيم اليونان الأكبر. الأكثر شعبية في تاريخ الدولة الحديثة. كان واقعيا متبصراً. ذكيا. مرنا. وجريئاً. وامتلك سحر شخصية مثيرة للإعجاب. قضى حياته في سبيل يونان أفضل. توفي في فرنسا ١٩٣٦ (الموسوعة البريتانيكا كومبيوتر. الموسوعة يونيفرساليس. مج٦. ط١٩٧٤. الموسوعة لاروس. مج٧. ط١٩٩٠).



ليمان فون ساندرس وكبار الضباط الألمان قبل سفرهم إلى استانبول

الفكرة نفسها فحذا حذو سلفه. ففي إبان وجوده في الوزارة وضع الاتفاق الخاص بالبعثة وصدّق عليه. وفي يوم وصول الجنرال ساندرس وبعثته إلى استانبول كان عزت باشا ينتظرهم في المحطة. والحقيقة أن أنور لم يتقلد منصب وزارة الحربية إلا بعد وصول البعثة بستة أسابيع. وكان أنور باشا أول من أشار إلى المصاعب الواجب التغلب عليها إذا أريد أن يعهد إلى فون ساندرس باشا قيادة الفيلق الأول. فإنه استحسن جعل رئيس البعثة مفتشاً عاماً بدلاً من جعله قائداً لأحد الفيالق. وقد حدث ذلك التغيير بناءً على اقتراح أنور باشا وحده لا طوعاً للضغط الفرنسي - الروسي - الإنكليزي كما ذاع وقتئذٍ.

وكنت يوم وصول البعثة إلى استانبول قائداً للفيلق الأول. وبهذه الصفة كانت بيدي السلطة العسكرية العليا في حالة الحصار. فبعد يومين طلب إليّ تسليم القيادة إلى فون ساندرس. ونظراً إلى استحالة جعل قائد ألماني حاكماً أثناء حالة الحصار لجأنا إلى وسيلة أخرى. وهي أن فائق باشا كان وقتئذٍ حاكماً فتقرر تعيينه حاكماً للدردنيل وتخويله سلطة قائد فرقة والإشراف على حالة الحصار. وعيّنت موقتاً - لأسباب سأشرحها فيما بعد - وزيراً للأشغال. وقد صدر الأمر الشاهاني بهذا التعيين في اليوم التالي لوصول البعثة. وفي اليوم التالي ذهبت إلى مركز قيادة الفيلق الأول وسلمتها رسمياً إلى الجنرال فون ساندرس.

وأحسب أن هذه التفاصيل تقضي على افتراءات السفير مورغنتو. وفي الصفحتين ٤٤ و٤٨ من مذكراته القائمة على معلومات غير صحيحة.

وكأنما كان وصول البعثة طليعة للحملات العنيفة التي حملتها علينا روسيا وفرنسا وإنكلترا. أما الحجة التي جعلتها روسيا في مقدم أسباب احتجاجها فكانت تتلخص في أنه «إذا عهد لضباط ألمان بقيادة



الفريق عزت باشا لدى وصول الجنرال ليمان فون ساندرس إلى استانبول

الجنود المعنيين للمحافظة على المضائق فمن المحتمل أن يزاد تحصينها. وإن مثل ذلك العمل الناشئ عن مجرد الارتياب، والمقصود به روسيا خصوصاً، معناه عزو أغراض غامضة إلى تلك الدولة».

وحذا الفرنسيون والإنكليز حذو الروس، وحاجّ السفير الفرنسي وزميله الإنكليزي بحجة السفير الروسي، واندفعت صحافة البلدين إلى خدمة الصحف الروسية.

وبهذه المناسبة أسأل خصومنا السياسيين هذا السؤال وهو: «أبمثل هذه الوسائل تظهر إنكلترا وفرنسا نياتهما الحسنة نحونا، وهي النيات التي طالما روّجوا لها صباح مساء».

لقد أردنا تنظيم جيشنا فطلبنا إلى ألمانيا أن تقوم بهذه المهمة، إننا وضعنا الخطة لتطبيق ذلك المشروع وتحقيقه وقد حضرت البعثة العسكرية الألمانية إلى استانبول وكانت النتيجة زيادة موارد الجيش الدفاعية وخصوصاً في المضائق، على أنه كان متوقعاً أن تعارض روسيا المشروع لأنها تعدّ نفسها الوارثة الشرعية لاستانبول، وكانت تعتقد أنها ستشتبك يوماً ما مع تركيا في تطاحن مروع على مقربة من العاصمة.

فهل كان عملها ذلك - الذي يعدّ تدخلاً في الشؤون الداخلية لدولة مجاورة - ممكناً بلا موافقة إنكلترا وفرنسا؟ كلا! أفلا يحق لنا أن نعتقد - خصوصاً لو تذكرنا أن العويل الفرنسي الإنكليزي فاق العويل الروسي - إن الاتفاق الثلاثي وقتئذٍ اعتزم إعطاء روسيا استانبول؟ يا الله!

وإني لأحسّ بقشعريرة كلما تذكرت تلك الأيام ولا أستطيع أن أصف المشاق التي قاسيتها في المناقشات العديدة التي دارت بيني وبين موكور الملحق العسكري الفرنسي وبومبار السفير الفرنسي وبوب مستشار السفارة والقائد باومان مفتش الجندرمة والميجور سارو. فقد ختمت المناقشة معهم ذات يوم بالعبارة الآتية:



أوتو ليمان فون ساندرس (١٨٥٥-١٩٢٩)
Otto Liman von Sanders

ولد أوتو ليمان فون ساندرس يوم ١٧ فبراير/شباط في Stolp في مقاطعة بوميرانيا في ألمانيا. بدأ حياته المهنية العسكرية في عام ١٨٧٤ وخدم في العديد من الوظائف قبل تعيينه رئيسا للبعثة العسكرية الألمانية إلى تركيا في عام ١٩١٣. لدى وصول البعثة الى العاصمة استانبول استقبله رئيس الأركان أحمد عزت باشا. أسفر تعيينه عن احتجاجات من جانب بريطانيا وفرنسا وروسيا. وافقوا في وقت لاحق. في كانون الثاني ١٩١٤عيّن فون ساندرس في منصب المفتش العام للقوات العثمانية المسلحة. عمل فون ساندرس على تحسين قدرات الجيش التركي في الأشهر التي سبقت اندلاع الحرب في آب/أغسطس ١٩١٤. الا انه لم يشعر بالارتياح في دوره المزدوج كدبلوماسي وجندي. كان الرجل الثالث في الدولة العثمانية بعد السلطان وانور. بعد معارك غاليبولي بدأنجمه يخبو ونفوذه ينحسر. وظيفته كانت تحتم عليه تحقيق المصالح الألمانية قبل الشؤون التركية في كل عمل يقوم به. لذا كان يحاول اقناع الحكومة التركية على مواصلة تحالف عسكري مع القوى المركزية (المانيا. النمسا/المجر. بلغاريا). في آب/أغسطس ١٩١٤. قبل فون ساندرس قيادة الجيش التركي الأول المتمركز في استانبول. بعد ان دخلت تركيا الحرب في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤ تم تعيينه لقيادة الجيش الخامس في غاليبولي. ومع ذلك أثناء الحرب. ساندرس لم يك متوافقا مع مصطفى كمال الذي عمل بإمرته على الرغم من الانتصارات التي حققوها في تلال (جناق قلعة) غاليبولي وهضابها (آنافارطا) على القوات البريطانية والفرنسية.

في شباط/فبراير ١٩١٨. قام فون ساندرس بقيادة القوات المشتركة التركية - الألمانية-النمسوية على الجبهة الفلسطينية. ساندرس لم يك على وفاق مع أحمد جمال باشا. بعد الهزيمة عاد الى استانبول للاشراف على عودة القوات الالمانية –النمسوية إلى الوطن. بعد هدنة مودروس في شباط/فبراير ١٩١٩ اعتقلته السلطات البريطانية. بقي قيد الاعتقال لفترة وجيزة للاشتباه في ارتكابه جرائم حرب. وأطلق في آب/أغسطس من العام نفسه. تقاعد من الجيش. أوتو ليمان فون ساندرس توفي في ٢٢ آب/أغسطس ١٩٢٩ في ميونيخ.

«تأملوا أيها السادة كيف أن انتقاداتكم غير معقولة! إنه لا حاجة بكم إلى أن تدّعوا أنكم تعترضون هذه الاعتراضات من دون معرفة حقيقة الحال. إنكم تعلمون كما نعلم أن لنا الحق في دعوة البعثة العسكرية الألمانية. أما كون الضباط الألمان أكفاء أو غير أكفاء لتنظيم جيش من الجيوش فهي مسألة أخرى لا علاقة لها بموضوعنا هذا، لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً في كفاءتهم ولهذا وقع اختيارنا عليهم. ولكل دولة من الدول ثلاثة صنوف قوات مسلحة وهي الجيش والأسطول والشرطة، وقد عهدنا إلى الألمان بتنظيم الأولى وللإنكليز بالثانية وللفرنسيين بالثالثة. إذاً فلِمَ النزاع؟ أتريدون أن نعهد إلى الروس بتنظيم جيشنا؟ إني أسألكم أن تمعنوا النظر في ما يقوله الروس، إنهم يقولون: «لو تولى الضباط الألمان قيادة الفيلق الأول لزادت تحصينات المضائق كثيراً. أي أننا لو طلبنا إلى إنكلترا أو إلى فرنسا إعطاءنا بعثة كهذه وعلى الشروط نفسها، فمن المحتم أن يعترض الروس الاعتراض نفسه، لأنني لا يمكنني أن أعتقد أن الضباط الإنكليز أو الفرنسيين لو تولوا قيادة الفيلق الأول يفتحون المضائق عمداً للجيش الروسي إذا اقتضى الحال. لعَمْري إن احتجاجاتكم هذه تبعث في نفوسنا الارتياب في حسن نياتكم نحونا!».

ولما لم يكن في وسع أولئك السادة المجادلة في هذه الحقيقة ولم يستطيعوا الجواب، اعترفوا ضمناً بخطئهم بأن قالوا: «إذاً فماذا تنتظر؟ تذكر أننا قبل كل شيء حلفاء روسيا، فينبغي لنا تأييد مطالبها! ومن جهة أخرى فالألمان أعداء لنا، فعلينا أيضاً أن نتخوف من كل ما يعملونه، بل مع افتراض عدم وجود الخطر فإن واجبنا الوطني يحتم علينا مقاومة الألمان في كل ما يدّعونه لأنفسهم».

تعييني وزيراً للأشغال (من منتصف نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٣ إلى فبراير/شباط ١٩١٤)

تبادل سكان الولايات

اتبعت وزارة الأمير سعيد حليم باشا برنامج وزارة شوكت باشا بحذافيره، أي أنها قررت اجتناب الإرباكات الخارجية بقدر المستطاع وتوجيه كل موارد البلاد إلى الإصلاحات الداخلية. ولكن لم يكن معنى ذلك أن الأمير ترك فرصة استرداد أدرنة تمر من دون انتهازها، كما أنه نجح في عقد معاهدة استانبول مع بلغاريا ومعاهدة أثينا مع اليونان، وفيما بعد معاهدة استانبول الثانية مع الصرب التي أصبحت أكثر دول البلقان طمعاً. ولكي تضمن الوزارة نجاح الإصلاحات الداخلية كان عليها أن تضع حداً للمسائل التي ثارت ثائرتها بين آن وآخر بسبب الخلاف بين الأعراق، ما هيأ لدول البلقان الصغيرة فرصة الاحتجاج الشديد.

أما في ما يختص بالبلغار، فبعد ضياع مقدونيا لم يبق للإمبراطورية العثمانية سوى بضع قرى مبعثرة على الخط الشمالي لسنجق كيركليسة في ولاية أدرنة، وفي هذا الوقت بقي عدد من الأتراك موزعين في بضع جهات معروفة من الأراضي البلغارية قرب الحدود التركية. وقد أضيف إلى معاهدة استانبول ملحق معاهدة سرية وقّعت عليه بلغاريا، نصت على وجوب نقل البلغاريين المقيمين في الأراضي التركية إلى بلغاريا ونقل الأتراك الذين في بلغاريا إلى تركيا، وقد أرضى ذلك التبادل الطرفين.

وكان أهم ما شغل بالنا في المسائل الخاصة بالقوميات المشكلة التي اعترضتنا من جراء وجود عدد كبير من العناصر اليونانية موزعة على طول شاطئ ولاية آيدين. فلم يكن ثمة ريب في أن اليونانيين بعد انتصاراتهم السهلة في الحرب البلقانية واحتلالهم مقدونيا حتى دراما من جهة، واستيلائهم على الجزر القريبة من ساحل آسيا الصغرى (مدهللي وصاقس وليمنوس) من جهة أخرى، سيوجهون جهودهم إلى بسط نفوذهم على ولاية آيدين.

فمنعاً لوقوع مشكلات داخلية إذا اشتبكنا مع اليونان في حرب عاجلة أو آجلة (وهو أمر لا مناص منه ما لم تحل مشكلة الجزر) فقد اقترحنا على الحكومة اليونانية إبدال هؤلاء الرعايا بالرعايا المسلمين الذين تخلفوا في مقدونيا اليونانية وأرادوا الهجرة إلى تركيا. ولم يكن فنزيلوس ميالاً إلى هذا الاقتراح لأنه كان بمثابة تخفيف لحدة المطامع السيئة التي كان يخفيها عنا.

ثم أخذت العواطف القومية تقوى بين القبائل التركية، وبدأنا نحس بالنتائج وخصوصاً في ولاية آيدين، حيث شرع مئات الألوف من مهاجري المسلمين الذين ذاقوا الأمرّين من مظالم الصربيين والبلغاريين واليونانيين، ففروا إلى الإمبراطورية العثمانية أثناء الاصطدام باليونانيين المقيمين في تلك الجهة. فاستنكرت الحكومة أعمالهم بسبب المصاعب التي لا بد من أن تنشأ عنها. فإن الدول الأوروبية التي اعتادت التشدق بالعواطف الإنسانية ظلت صامتة حيال فظائع اليونانيين والصربيين والبلغاريين الذين ذبحوا بطرق وحشية ما ينيف على خمسمئة ألف تركي معظمهم من النساء والعجزة والأطفال. ولما نشرت لجنة التحقيق المسماة لجنة كارنيجي[٢٢] تقريرها الخاص عن هذه الفظائع لم تكن بين صحف أوروبا وأميركا بأسرها صحيفة واحدة - اللهم إلا بضع صحف اشتراكية - فاهت بكلمة عطف واحدة على أولئك المسلمين البائسين الذين قتلوا كالذباب.

وقد اتخذ السفير الأميركي مورغنتو المذابح الأرمنية التي وقعت في الحرب العالمية (الأولى) سبباً لصبّ اللعنات والمثالب على رؤوس الأتراك مما نترفّع عن نقله هنا. وينمّ كل سطر في مذكراته عمّا في صدره من الحقد والعداوة لتركيا. وما كان أجدره بتعيين لجنة للتحقيق في مذابح مقدونيا ثم يعيد تلاوة مذكراته ليرى أكان في استطاعته تبرير اتهاماته؟. فلما فر ألوف المسلمين بعد الذي قاسوه من الظلم والجور إلى وطنهم ولم يجدوا مأوى يقيهم زمهرير الشتاء، بل على العكس وجدوا أنفسهم كل يوم معرضين لإهانات أولئك الذين كانوا سبباً في شقائهم، لم يملكوا أنفسهم ولم يستطيعوا ضبط عواطفهم، فثارت فيهم عوامل الانتقام وحملوا على متون الشطط إلى حد ما.

ولم تفت اليونانيين فرصة استخدام هذه الحوادث إلى أقصى حد ممكن، فإنهم ما لبثوا أن طنطنوا بها وملأوا العالم صياحاً وادّعوا أن الأتراك يهددونهم ولجأ بعضهم إلى الجبال، وقد أشعل بعضهم النار في عدد من القرى الإسلامية وذبحوا عدداً كبيراً من المهاجرين ما أثار الحقد في صدور المسلمين. وهنا بدأ فنزيلوس ينعق نعيقه الممقوت الذي دوّى في أنحاء العالم فتخرص المتخرصون وقالوا: «إن الأتراك يذبحون اليونانيين في ولاية آيدين برضا الحكومة ومساعدتها!».

ولحسن الحظ، ألحّ طلعت بك الذي كان أسرع من فنزيلوس على سفراء إنكلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا أن يرسلوا قناصلهم لإجراء تحقيق مشترك في مكان النزاع. فقررت هذه اللجنة الحقائق التي لا يسع السيد مورغنتو إلا الاعتراف بصحتها مهما كلفه ذلك. أي أنها أقامت البرهان على أن الأهالي لم يمسهم أذى، وأن المهاجرين البائسين الذين اتهموا بارتكاب الجرائم هنا وهناك قد عاقبتهم الحكومة العثمانية عقاباً صارماً. واشترط فنزيلوس أن يأخذ المهاجرون أمتعتهم ويستبدلوا ما لا يمكن نقله. ولكنه قبِلَ في النهاية رأي طلعت بك ووافق على الشروع في التفاوض على قاعدة إرسال الرعايا اليونانيين من سكان ساحل ولاية آيدين إلى اليونان، والسماح لمسلمي مقدونيا بالإقامة فيها إذا أرادوا.

وبعدما وجدنا قاعدة للاتفاق مع العرب كما بينت آنفاً، التزمنا تسوية أشد مشكلاتنا الداخلية تعقيداً ألا وهي المشكلة الأرمنية. وقد رأيت أن أفرد باباً خاصاً فيما بعد لهذه المسألة المعقدة.

العلاقات الاقتصادية مع فرنسا وبريطانيا



إبراهيم حقي باشا (١٨٦٣-١٩١٨)

رجل دولة عثماني، صدر أعظم. بعد دراسته في كلية الحقوق التحق بالقسم الخارجي في الباب العالي، ثم عيّن مترجماً في سرايا المابين. رافق إمبراطور ألمانيا القيصر وليم الثاني أثناء زيارته العاصمة استانبول، وملك صربيا. شارك في لجان أبحاث واستشارات عديدة. عين وزيراً للتربية والتعليم سنة ١٩٠٨ ثم سفيراً للسلطان في روما . عيّن صدراً أعظم في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩١٠ حتى ٩٢ أيلول/سبتمبر ١٩١١. كان مقرباً من السلطان عبد الحميد. شارك في مفاوضات لندن لتسوية وضع المصالح التركية في الكويت والبصرة والموقف في اليمن. أرسل الى برلين سنة ١٩١٧ للمشاركة في مشاورات توقيع معاهدة بريست ليتوفسك. توفي في برلين سنة ١٩١٨.

حينما كان محمود شوكت باشا صدراً أعظم، ذهب حقي باشا الصدر الأعظم الأسبق إلى لندن لتسوية بضع مسائل تختص بخليج البصرة والمناطق السبع المختلف عليها بين اليمن وعدن.

وفي الوقت نفسه ذهب جاويد بك إلى باريس، وكان الغرض من بعثته:

أولاً: السعي لعقد قرض كبير.

ثانياً: إلغاء الامتيازات المالية.

أما فيما يختص بالقرض فقد اشترطت فرنسا شروطاً لم يكن في استطاعتنا قبولها بحال من الأحوال، وإني أذكر بعضاً منها:

أ- ألا تنشئ إدارة السكة الحديد الحجازية خطوطاً جديدة في سوريا وفلسطين.

ب- توقف إدارة السكة الحجازية في الحال وإنشاء الفرع من عفولة عن طريق جناين نابلس إلى القدس (مع أنه كان قد أنشئ) وهو الفرع التابع لخط حيفا - درعا والذي وصل إلى سآبسطية.

ثالثاً: تمنح فرنسا امتياز سكة حديد عريضة من عفولة إلى نقطة على خط يافا - القدس لم تعيّن بعد.

رابعاً: تمنح فرنسا أيضاً امتياز سكة حديد عريضة يكون أحد طرفيها محطة رياق على خط دمشق - حماه، والطرف الثاني محطة عفولة ويمر الخط في شواطئ بحيرتي حولة وطبرية.

خامساً: ليس للحكومة العثمانية أي حق في أن تقبل على خط حيفا - درعا أجوراً قد تزاحم الأجور على خط بيروت - دمشق - حوران، وعلى الحكومة العثمانية أن تعطي شركة سكة حديد دمشق - حماه تعويضاً عن خط دمشق - حماه.

سادساً: يبقى امتياز إنشاء أي خط شرقي دمشق - المدينة ورياق - حلب لفرنسا وحدها.

سابعاً: يبقى امتياز توسيع الموانئ السورية، وهي يافا وحيفا وطرابلس، للرأسماليين الفرنسيين وحدهم.

ثامناً: على الحكومة العثمانية أن تشتري ثانياً حق تشغيل سكة حديد اليمن وأن تدفع تعويضاً للشركة.

تاسعاً: تمنح فرنسا امتياز سكة حديد سمسون - سيواس.

عاشراً: تُعفى من كل الضرائب جميع المباني والممتلكات والضياع بكل أنواعها التابعة لمدارس الأديرة الفرنسية العديدة.

حادي عشر: يُشترى بالربح المستحق على القرض السلاح اللازم للجيش من فرنسا وحدها.

وعلى هذه الشروط وغيرها أرادت فرنسا أن تقرضنا بضعة ملايين من الفرنكات بفائدة ٩ في المئة تدفع على قسطين.

أما من حيث إلغاء الامتيازات المالية رفضت فرنسا بتاتاً أن تناقش الأمر، واشترطت أن نمنحها امتيازات عدة أخرى ثمناً لسماحها لنا بزيادة الضريبة من ١١٪ إلى ١٤٪ على امتياز الكحول والكبريت وورق السجائر وزيادة الإتاوة التي يدفعها التجار الأجانب والسماح بإدخال تعرفة خاصة بالمدينة.

ولم تتقدم المفاوضات إلا بشق النفس، حتى أوشك جاويد بك أن يقطع الأمل لبطء حكومة استانبول في إرسال الرد، وأيضاً للعقبات التي كانت فرنسا تضعها في طريقه. وكان بين الوزراء وقتئذٍ عثمان نظامي باشا وزير الأشغال، ومع أن معظم هذه المسائل كانت تتعلق بوزارته فقد كانت عادته الاكتفاء بتحويل كل مسألة منها على المصلحة المختصة وإرسال رأي المصالح المختلفة من الوجهة القانونية والنفعية فيما بعد إلى الباب العالي، ولما كانت حالة البلاد العامة تتطلب الإنجاز والسرعة لم تؤدِّ الطرق البيروقراطية التي اتبعها نظامي باشا إلا إلى سخط الحكومة والحزب عليه.

وبما أن الحزب قرر قبول برنامج جمعية الاتحاد والترقي بأسرع ما يمكن، صحت عزيمته على أن

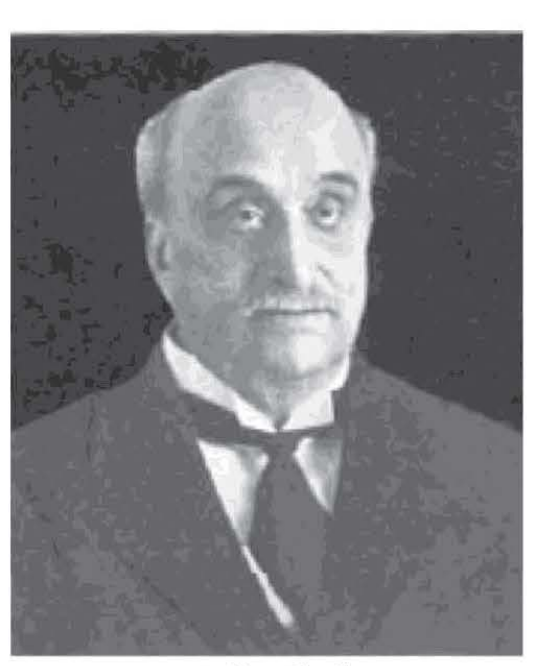
تتخلص الحكومة من ذلك الرجل الذي لا مناصرين له في الحزب، والذي عارض في استرداد أدرنة ما دل على قصر نظره.

ومنذ تعييني محافظاً لاستانبول لم أضع الفرصة في تقريب وجهات النظر بين الفرنسيين والأتراك، ونظراً إلى العلاقات الودية التي تمكنت بيني وبين السفارة الفرنسية، بل بين رجال الجالية الفرنسية عموماً، اقتنع أخواني بأنه لو عُهد إليّ بتسوية مسائل وزارة الأشغال لارتاح الفرنسيون كل الارتياح، فألحوا عليّ بشدة لأقبل بمنصب وزارة الأشغال، فلبيت طلبهم لعلمي أنني سأسلم قيادة الفيلق الأول إلى القائد فون ساندرس، ولتأكدي أنني بدخولي الوزارة أستطيع خدمة بلادي خدمة عظمى.

ونظراً إلى إهمال نظامي باشا تسوية المسألة الفرنسية بالسرعة المطلوبة ولعدم استطاعة الحكومة الانتظار إلى أجل غير مسمى، اقترح عليه بعضهم أن يعتزل العمل ويقدم استقالته، فوافق في الحال وعيّنت موقتاً مكانه، ولم يمض غير شهر على استقالته حتى عُيّنت نهائياً لوزارة الأشغال، فكان أول ما عملته أن سويت سريعاً جميع المسائل المعروضة على الوزارة لاستطلاع رأيها، وهي المسائل التي عدّتها فرنسا شرطاً أساسياً للقرض، وفي الحال عرضت وزارتي على الصدر الأعظم تسوية لا تستطيع فرنسا نفسها رفضها، فتكللت بفضل تلك التسوية مساعي جاويد بك بالنجاح في النهاية وعقد القرض.

سكك حديد أنطاليا

في عهدي في وزارة الأشغال نشأت مصاعب عدة بيني وبين السفارة الإيطالية حول سكك حديد أنطاليا، ويذكر القارئ أن إيطاليا كانت تحتل بعض جزرنا منذ الحرب الطرابلسية، مثل رودس وستانكوى وغيرهما، وأنها تعهدت بردّها إلى الحكومة العثمانية.


المركيز غاروني
السفير الإيطالي سنة ١٩١٤ في استانبول

فلما اشتعلت الحرب البلقانية نسيت إيطاليا أن تجلو عن الجزر وتذرعت بحجة منع اليونان من احتلالها، فلما ختمت معاهدة لندن الأولى الحرب البلقانية وطالبنا بعودة الجزر راوغت إيطاليا وأبدت حججاً ومعاذير جديدة، فمثلاً ادّعت أن الشريف سيد أحمد السنوسي ما زال متمرداً، وبما أن الضباط الأتراك ما زالوا في خدمته فإننا لم نوف عهودنا لها، فأقمنا لها البرهان على بطلان دعواها، وعلى أن ليس في طرابلس جندي تركي واحد، وأن الحكومة العثمانية لا تقدم مساعدة ما للسيد السنوسي، فأحالت إيطاليا الأمر على الرأي العام في بلادها وادّعت أنها لو ردت تلك الجزر إلى تركيا بلا مقابل لكان لعملها ذلك أسوأ أثر.

فغضبنا لتلك المراوغة، ثم تجدد النزاع فحضر إليّ في

وزارة الأشغال ذات يوم سفير إيطاليا الماركيز غاروني، وأخبرني بأن آرام حالجيان أفندي أحد الرعايا الأتراك وأشخاصاً آخرين يعملون باسم فريق من المتمولين الإيطاليين اعتزموا أن يطلبوا إليّ أن أمنحهم امتياز سكة حديد في شمالي أنطاليا ومن مقرى إلى موغلا، وقد رجاني أن تسمح الحكومة بالبدء بأعمال المساحة الأولية للسكة المذكورة ونقوم بحماية المهندسين والعمال. فأجبته بحدة إن الحكومة لا تفكر في إنشاء سكك حديد في شمالي أنطاليا أو بين مقرى وموغلا. فأثار ذلك الجواب المفحم دهشة السياسي الحاذق، فقال: «إن مسح الأرض لا يعني إنشاء سكة حديد، ولا نريد سوى التأكد هل في المستطاع إنشاء تلك السكة، فإذا كانت النتيجة مُرضية أمكن الحكومة العثمانية أن تبتّ الأمر فيما بعد. على أن في أيدينا تعهداً كتابياً من الحكومة يخوّل الإيطاليين حق مسح الأراضي، أما رفض وزارة الأشغال فمستغرب جداً».

فلما أجبت السفير بأن ليس ثمة مثل ذلك التعهد في سجلات الوزارة أطلعني على ورقة بتوقيع وزير الخارجية سعيد حليم باشا، ولما لم تكن لتلك الوثيقة أي قيمة رسمية أخبرت السفير بأننا نرفض بتاتاً.

وهنا قال: «لا أظنك يا عزيزي جمال باشا مصيباً في إجابتي بهذه الصفة في تلك المشكلة المعقدة وفي الوقت الذي أبذل كل جهد لنعيد إليكم الجزر التي احتلتها إيطاليا، إنك تعلم مبلغ اهتمام الجمهور في إيطاليا بمسألة سكة حديد أنطاليا، فلو أعلنّا في صحفنا أن المهندسين الإيطاليين شرعوا بمسح الأرض لكفَّ الرأي العام عن إقامة المصاعب في وجه الحكومة بخصوص الجزر، نظراً إلى حصول الحكومة على مزايا مادية في مقابل التضحية التي تقتضيها إعادة الدوديكانيز[٢٣]، وبهذه الطريقة تصبح الجزر في أيديكم مرة أخرى».

فازددت غضباً وقلت: «إنك تنسى أيها السفير أن الرجل الذي يعيد إلى آخر ملكاً كان يديره لنفسه ليس محقاً في أن يطلب تعويضاً عن ذلك، إن على الحكومة الإيطالية أن تعيد إلينا تلك الجزر تنفيذاً لعهودها، ولست أدري كيف يسخط شعب على حكومة أو يقيم في وجهها المصاعب إن هي أخذت تنفذ عهوداً قطعتها باسمه.

فليت شعري ماذا يظن الرأي العام التركي في وزارتنا إذا رأى أن تركيا التعسة هذه التي كانت ضحية هجمات لا عدد لها في خلال السنين الأربع الماضية، والتي جردت من ٩٩ في المئة من أملاكها الأوروبية وسائر أملاكها في أفريقيا، أصبح عليها أن تعطي عوضاً مقابل استرداد جزر خوّلتها لها المعاهدة؟

إنني وزير الأشغال وعليّ أن أحصل لوطني الأعمال التي يُعدّ تنفيذها لازماً لرفاهته بطريقة تقتضيها الحاجة، أما فيما يختص بالمشروعات التي من قبيل العوض السياسي فليست من اختصاص وزارتي ويجب البحث فيها مع وزير الخارجية أو الصدر الأعظم، وبما أن رأيينا مختلفان في هذا الأمر فإني آسف لعدم إمكاني إعطاءك الجواب الذي تريده».

وقد أبلغت هذه المحادثة فيما بعد إلى سعيد حليم باشا وأنور باشا وزير الحربية وطلعت باشا وزير



يونس نادي (١٨٧٩-١٩٤٥)

ذاع صيته كونه صحافياً تركياً واكب الاتحاديين في مسيرتهم لأجل التقدم الاجتماعي والحرية للمواطن والوطن وسيادة العدالة عبر جريدتي «إقدام» وجريدة «تصوير أفكار» المناصرتين لأهداف ومبادئ حزب الاتحاد والترقي حتى سقوط حكمهم مع نهاية الحرب العالمية الأولى. وتابع نشاطه الفكري والسياسي في الصحافة التركية إلى جانب مصطفى كمال وما سمّي الحرب الوطنية فيما بعد. مواكباً الزعيم مصطفى كمال في تأسيس الجمهورية وإلغاء الخلافة وقيام نهضة تركيا الحديثة بمشاركته النيابية عبر المجلس النيابي وفي وضع دستور الجمهورية التركية. مدافعاً عنها في وجه أنصار السلاطين والخلافة ومؤيدي النظام الملكي ليؤسس جريدته الخاصة «الجمهورية».

ولد في قرية (سيديلير) جنوب مدينة (فتحية) الإيجية التي أنهى فيها دراسته الإعدادية. وتابع دراسته في رودوس. بعدها انتقل إلى العاصمة استانبول ودرس في (ليسيه غلاطة سراي). ثم التحق بالجامعة حيث تخرّج محامياً.

يونس نادي بدأ حياته العملية سنة ١٩٠٠ كصحافي في جريدة «معلومات». وبعد سنة حُكم عليه بالنفي ثلاث سنوات بسبب مقال كتبه. فذهب إلى (فتحية) ليقضي سبع سنوات ورجع إلى العاصمة بعد إعلان (المشروطية الثانية) سنة ١٩٠٨.

اتصل بجريدة «إقدام» و«تصوير أفكار». وفي سنة ١٩١٠ أصبح رئيس تحرير جريدة «روملّلي» في سيلانيك التي يصدرها حزب الاتحاد والترقي.

انتُخب سنة ١٩١٢ للمجلس النيابي عن (آي دين). وأعيد انتخابه لفترة أخرى سنة ١٩١٤.

سخّر قلمه في تبييض صفحة الاتحاديين والدفاع عنهم في وجه خصومهم الخارجيين والمحليين. كان ضمن الـ١٤١ شخصاً الذين أمرت السلطات العسكرية المحتلة للعاصمة استانبول أن يُنفوا إلى مالطا. لكنه استطاع الهرب إلى أنقرة قبل القبض عليه. وانضم إلى جانب مصطفى كمال الذي سَعِدَ بقدومه وانضمامه. وكانت صحف العاصمة قد وقفت موقفاً معادياً لحركة مصطفى كمال ومؤيدة للإنكليز والسلطان. أما يونس فكان الوحيد في العاصمة عبر صحيفة (يني) المدافع عن مقاومة مصطفى كمال لأجل الاستقلال في وجه القوات اليونانية-الإنكليزية-الفرنسية على الرغم من الرقابة الشديدة. إنما استطاع بنجاح أن يفكك مطبعة وينقلها إلى أنقرة سراً ويواصل إصدار جريدة (يني) هناك.

أسس مع الأديبة المتنورة خالدة أديب وكالة أنباء (أناضولي أجانسي) التي كانت تنقل للعالم الخارجي أخبار المعارك والمواقف السياسية المستجدة. وكانت أداة تحريضية أُجيد استعمالها.

بعد الانتصار على اليونانيين والقوات الإنكليزية انتُخب يونس رئيساً للسلطة التشريعية في برلمان أنقرة. وكُلّف صياغة دستور الجمهورية التركية الذي قدمه للبرلمان. وفيه حقوق وواجبات رئيس الجمهورية ودوره. ودور البرلمان. دستور على مقاس طموحات مصطفى كمال الشخصية صديق يونس نادي. ولاقى معارضة شديدة وهجوماً من القوى المؤيدة للنظام القديم. هنا نشأت الحاجة إلى صحيفة محلية جديدة (الجمهورية تحمل هم الدعاية للديمقراطية والدفاع عن مبادئ الجمهورية الفتية. وتصوير مصطفى كمال إلهاً. معبود الجماهير.

بقي يونس يعمل في الصحافة ومستشاراً حتى وفاة الغازي مصطفى كمال إتاتورك. وجُلبت رفاته ودُفنت في مقبرة الشهداء في استانبول.

الداخلية، فأقروني على ما فعلت. وفي اليوم التالي جاء إليّ نفر من الصحافيين الذين سمعوا بما جرى طالبين محادثتي، فأرسلت في طلب يونس نادي محرر صحيفة «تصوير أفكار»[٢٤] وحادثته.

وقد قوبلت المقالة الحاسمة التي ظهرت وقتئذٍ بعنوان «لا تعويضات ولا امتيازات» بالارتياح والسرور التام في كل الدوائر، وأقبل أصحابي لتهنئتي على هذه التصريحات الجلية. وفي اليوم الذي نشرت فيه المقالة الآنفة الذكر طلب الماركيز غاروني، الذي قام لها وقعد، مقابلة الصدر الأعظم، فشكا مرّ الشكوى من سلوكي معه وقال إن تأثير المقالة في إيطاليا سيكون سيئاً.

واجتمع مجلس الوزراء في ذلك اليوم، وعند دخولي على الصدر الأعظم لمحت علامات القلق على وجهه، وكان طلعت باشا حاضراً، فاستقبلني سعيد حليم باشا وخاطبني بلهجة الآمر قائلاً: «إذاً أنت يا باشا كنت تحادث الصحافيين بصدد سكة حديد أنطاليا؟».

فقلت: «نعم! ولمَ لا؟ فهل قلت شيئاً لا يماشي الواقع؟».

«كلا! ولكني لا أظن أنك محق في الذي فعلت».

«هل تسمح لي دولتكم أن أقول إن ذلك خطأ. إن للوزير الحق في أن يصدر بياناً للصحف متى استصوب ذلك في أي مسألة تتعلق بمصلحته، وخصوصاً إذا كانت لا تمس أسرار الدولة أو تعرّض السياسة العامة للحكومة للخطر. إن السؤال الذي سألنيه المحرر هو هذا: «هل أزمعت الحكومة إعطاء إيطاليا تعويضاً في شكل امتياز لإنشاء سكة حديد أنطاليا لاسترداد جزر بحر إيجه؟» فقلت «كلا!». أفليس جوابي حقاً؟ هل للحكومة التي برئاسة دولتكم رأي آخر غير هذا؟ كلا على ما أعلم، فإذا كان كذلك فالسفير على غير حق في شكواه».

فلم يحر الأمير جواباً، ولا أظنه غفر لي تصريحي هذا للصحافيين الذين يضايقونه.

وبُعيد هذا الحادث حضر إلى دار الوزارة السفير الإنكليزي السير لويس ماليت، وقال إنه علم أن الحكومة العثمانية توشك أن تمنح إيطاليا امتياز سكة حديد أنطاليا، وإن ذلك العمل يعدّ تهجماً على حقوق شركة سكة حديد آيدين الإنكليزية. فأمرت بالتحري عن ذلك، فتحققت أن الشركة الإنكليزية أعطيت - فضلاً عن الترخيص لها في مد خطوطها إلى بوردور وسبارطة وتسيير بواخرها في بحيرة بيشير- وعداً صريحاً رسمياً بألا ينشأ خط آخر إلى البحر المتوسط في داخل دائرة



السفير الإنكليزي لويس ماليت

معينة في جنوبي تلك المنطقة، وبذلك تضمن الربح الوافر بلا مزاحم.

فلما عرضت الأمر على سعيد حليم باشا أعرب لي عن سروره لأني لم أمنح إيطاليا شيئاً.

وفي النهاية وجدت وسيلة أخرى للتفاهم مع السفير الإيطالي، إذ أخبرته برغبتي في إرسال لجنة فنية رسمية من مهندسي السكك الحديد للتثبت نهائياً مما إذا كان يمكن إنشاء خطوط حديد من أنطاليا ومقرى إلى داخل البلاد، فتظاهر السفير بالارتياح لذلك الاقتراح مع أن الحقيقة كانت على نقيض ذلك.

وثَمَّ مسألة أخرى سويتها خلال تولي وزارة الأشغال، وهي وضع حد للخلاف الذي ثارت ثائرته بين شركة إنشاء الشوارع ولجنة الوزارة الفنية. فبدلاً من العمل بحزم لتسوية المشكلة، حصر كل من الفريقين همه في دحض حجج الفريق الآخر بتعنّت أثار الارتياب والشكوك في كلا الفريقين، إذ بعدما كلفت برهان الدين بك مدير السكك والنقل بالاتفاق مع السيد شوبلييه مدير الطرق تناولت المسائل بنفسي وعجلت في تسويتها.

وفي فبراير/شباط ١٩١٤ تسلمت وزارة البحرية بطريق المبادلة مع شوروك سولون محمود باشا.

هوامش الفصل الثاني:

(١) البلقان: شبه جزيرة كبيرة، تقع في جنوب شرق أوروبا. يحدها شرقاً البحر الاسود جنوبا ومضيق البوسفور وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل وبحر إيجه. وغرباً البحر الأيوني والبحر الأدرياتيكي. أما شمالاً نهر الدانوب (الطونة) ونهر ساو. البلقان تشمل بلاد اليونان وبلغاريا والقسم الأكبر من تركيا وألبانيا والولايات التي ألّفت دولة يوغوسلافيا السابقة (مكدونيا، صربيا، كرواتيا، البوسنة والهرسك، الجبل الأسود) ووسط رومانيا الجنوبي. هذه المنطقة لطالما كانت الجيوبولوتيكا فيها عرضة للتغير ومسببة لحروب عامة استمرت إلى تسعينيات القرن الماضي وأوائل الألفية الثالثة.
- الحرب البلقانية الثانية في ١٨//١/١٩١٢: استفادت القوميات في منطقة البلقان (السلاف، الأفلاق، البغدان، الكروات، الصرب، المقدون، البلغار، الأرناؤوط) في الولايات العثمانية الأوروبية من انشغال القوى السياسية التي تبنت شعارات إزالة الاستبداد وإطلاق الحريات وضرورة تطبيق مبادئ الدستور والمساواة، وتصارعها في الداخل على مواقع السلطة وانقسامها على نفسها، رأت أن تأخذ حقوقها بيدها وأن الفرصة مؤاتية لنيل استقلالها، فتحركت القوى الثورية الوطنية في تلك الولايات المناطق وأعلنت استقلالها واشتبكت مع الحاميات العثمانية التي يغلب عليها العنصر التركي وتغلبت عليها ولقيت تأييداً أوروبياً وتشجيعاً. كانت نتيجتها أن تغيرت الخارطة الجغرافية - السياسية لمنطقة البلقان (راجع فصل المسألة الشرقية في الجزء الثالث من المجموعة).

(٢) التشكيلات الخاصة (التشكيلات المخصوصة): تنظيم سري أنشئ على نفقة الحكومة بعد تفرّد الاتحاديين بالسلطة (الانقلاب العسكري) مباشرة بعد قتلهم لناظم باشا وزير الحربية السابق وانتهاء الحرب البلقانية الثانية. بإشراف أنور مباشرة، ضمّت في صفوفها مقاتلين من الشركس والأكراد، ومقاتلي البوماكي ومقاتلي الدوبريجه، تم تسليحهم وتمويلهم من أموال الدولة.. وأُتبعوا تحت اسم «القسم الحربي» بهدف محاربة النزعات الانفصالية عند العرب و(الإمبريالية الغربية) بحجة قمع التخريب وأي محاولات لأي مجموعة عرقية أو حزب أن يتعاون مع الخارج.
من أعمالها التي قامت بها:
- اغتيالات لصحافيين وسياسيين أتراك معارضين للاتحاديين وتسجّل ضد مجهول.
- إعدامات لمثقفين أرمن، أطباء، محامين، كتّاب، شعراء، رجال دين، مؤرخين، وهذا جزء من الإبادة الأرمنية التي شملت (١,٦٠٠,٠٠٠) إنسان أرمني حتى عام ١٩١٥.
ولا نستثني اغتيال وزير الحربية المشير ناظم باشا والفريق أول شمسي باشا قائد الجيش العثماني وناظم باشا مفتش الجيش في الروملي صهر أنور باشا والذي قتله أنور بمسدسه. ضم أنور إلى التنظيم خيرة ضباط الجيش العثماني المعروفين بدمويتهم، أمثال سليمان العسكري والأخوة الشراكسة أدهم، رشيد، توفيق، ومعهم أكثر من ١٠٠٠ مقاتل شركسي بين فرسان ومشاة. وضمت أعتى المجرمين الدمويين المحكومين مدداً طويلة، وجزارين، ورعاع. وكانت للتنظيم الخاص إنجازات إجرامية في مصر لمعارضين أتراك (صحافيين وسياسيين وكتّاب) كانوا وجدوا في مصر مكاناً آمناً. وفي دمشق وبيروت والقوقاز واليونان وبلغاريا وألبانيا واستانبول. وفي مدن الأناضول لأرمن وأتراك وأكراد. وضمت في صفوفها أطباء ومحامين وصحافيين، أمثال بهاء الدين شاكر وناظم بك ومدحت شاكر وجمال عزمي. والسمة المشتركة بينهم أنهم عنصريون، دمويون. إلا ان يد العدالة قد تتحقق أحياناً، وإن تأخرت. فأنور قتله الأرمن في بخارى، وطلعت قتله الأرمن في برلين، وأحمد جمال باشا قتله الأرمن في تبليسي. وجمال عزمي قُتل في برلين. وبهاء الدين شاكر قُتل في برلين. وناظم بك أعدم في استانبول.

(٣) جزيرة الأمراء أو الأميرات: جزيرة مشهورة بقصورها وحسن مناظرها وموقعها منذ أيام الأغريق والبيزنطيين حالياً يقصدها السياح والمصطافون لمعالمها الطبيعية والتاريخية.

(٤) البوماكي: من البلغار الذين دخلوا في الإسلام منذ زمن، بعضهم إيماناً وأكثرهم إكراهاً، خوفاً من الاضطهاد الطائفي أو رغبة في الإعفاء من تأدية ضريبة «الويركو» أو الحصول على مكاسب. جرت ضدهم مذابح مرعبة من قبل متطرفين مسيحيين بلغار (العصابات القومية البلغارية) رداً على مذابح قامت بها عصابات تركية مسلمة بحق مسيحيين بلغار أشركوا البوماكي في تنفيذها كخشبة للحرق تدفّأ عليها حزب الاتحاد والترقي عند ترسيم الحدود وتوزيع السكان.

(٥) المجلس الوطني (الجمعية الإصلاحية): قامت في بيروت. لعلها صدى من أصداء الدعوة إلى اللامركزية التي انتشرت في الولايات العربية واستجابة لها كما يبدو من مطالبها ومنهجها وتاريخ ظهورها. بدايات تشكلها كانت عندما اجتمع بعض أعيان المسلمين والمسيحيين البيارتة بوالي بيروت العثماني أدهم بك (لم يك اتحادياً) في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر عام ١٩١٢ حيث بيّنوا له ضرورة إصلاح الجهاز الإداري في الولاية. هذا اللقاء تم بطلب من حكومة الصدر الأعظم كامل باشا (الائتلافيين الأحرار الذين نجحوا في الانتخابات تحت شعارات ضرورة تطبيق الإصلاحات الإدارية في سوريا والعراق على مبادئ اللامركزية). بعدما نمي إليه من التقارير عن حالة التذمر بين الناس في بلاد الشام خصوصاً بعد خسارة السلطنة العثمانية لولاياتها الأوروبية وارداتها المالية التي كانت تجبيها. ولتعوض السلطنة خسارتها زادت الضرائب على الولايات العربية. وخوفاً من اتصال الزعماء الوطنيين بالسفارات الأجنبية سمحت الحكومة للجمعية العمومية (المجلس العمومي) للإصلاحيين في ولاية بيروت بالاجتماع وتدارس أوضاع البلاد ضمن المبادئ اللامركزية. نذكر من هؤلاء الاعيان والشخصيات والزعماء الذين كانوا المؤسسين للجمعية (الشيخ أحمد عباس الأزهري، أحمد مختار بيهم، أحمد حسن طبارة، أحمد الكيخيا، اسكندر عازار، ألبير بسول، أيوب ثابت، بترو طراد، جان تويني، جان نقاش، جبران بسترس، جميل الحسامي، جورج رزق، حسن الناطور، حبيب فرعون، خليل زينية، رزق الله أرقش، رضا الصلح، سليم البواب، سليم سلام، عبد الباسط فتح الله، عبد الحميد غندور، عبد الغني العريسي، فؤاد حنتس، كامل الصلح، محمد ومحمود المحمصاني، محيي الدين النقيب، يوسف سرسق، يوسف الهاني). وعممت مثل هذا المطلب على بقية الولايات، وعلى الأثر تألفت جمعيات إصلاحية للتدارس، وعقدت الجمعيات العامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس والقدس وبغداد والبصرة. وانهالت البرقيات على استانبول تؤيد خطوة الحكومة. الجمعية البيروتية كانت أكثر الجمعيات اعتدالاً في أوساط القوميين واسمعها كلمة.

الجمعية عقدت اجتماعاً بحضور ٨٦ عضواً يوم ٣١ كانون الثاني/يناير عام ١٩١٣ فتدارسوا وأعلنوا اللائحة الإصلاحية يوم ١٣ شباط/فبراير ١٩١٣. ونشر في الصحف فقوبلت اللائحة بمظاهر الترحيب في كل الولايات العربية وانهالت على الحكومة برقيات التأييد لهذه اللائحة التي تصلح لكل ولاية.

الحكومة الاتحادية الجديدة برئاسة الصدر الأعظم محمود شوكت باشا كانت أقالت الوالي أدهم بك وعيّنت والياً جديداً يدعى أبو بكر حازم (اتحادي، طوراني، مرتشٍ) الذي إليه قدمت اللائحة. فأمر باعتقالهم في ٨ نيسان/أبريل وإغلاق مقر الجمعية وفروعها.

في ٩ نيسان/أبريل أعلنت مدينة بيروت إضراباً عاماً. وأصدرت الصحف المحلية وعلى صفحتها الأولى خبر الاعتقال ورفض اللائحة باللون الأسود وبقية الصفحات بيضاء استنكاراً للإجراءات التركية.

- أسعد مفلح داغر، ثورة العرب مقدماتها، اسبابها، نتائجها.
- عادل اسماعيل، تاريخ لبنان الحديث، ج ٤.
- جورج انطونيوس، يقظة العرب
- سليمان موسى، الحركة العربية
- محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج ١، صفحة ٤٨
- مركز الشرق العربي، إنترنت
- الجمعية الإصلاحية عند (أمين سعيد) في كتابه (الثورة العربية الكبرى) الجزء الأول ط١، عيسى البابي الحلبي ص ٨١ ما يلي: «ولما كانت أكثرية سكانه جبل لبنان من الموارنة فقد أوجس مسلمو بيروت، وهم أقلية، شراً من الحركة الجديدة (الفرنسية/المارونية) التي ظهرت في فرنسا إزاء سوريا، وخافوا أن تستغل الأكثرية المارونية الموصوفة بالعطف عليها لصلة قديمة نشأت عن حوادث معروفة، فمراعاة لهذه الاعتبارات ولما ظهر من عجز الدولة وخوفاً من أن تحتل فرنسا البلاد متذرعة بسوء الإدارة وبما لها من نفوذ أدبي ومادي، كان مسلمو بيروت أول من لبّى النداء الذي ارتفع في مصر بالدعوة إلى الإصلاح على أساس اللامركزية لِما توهموه من أنه الوسيلة الوحيدة لدرء الخطر المحدق بهم ولإنقاذهم من الوقوع في براثن الاحتلال الفرنسي. ولا بد لنا من الاعتراف بهذه المناسبة ان بعض العناصر المسيحية الموالية لفرنسا في بيروت أرادت استغلال «الحركة الإصلاحية» لخدمة هذه الحكومة فتقربت من زعماء الحركة وتظاهرت بالإخلاص لهم والرغبة في الخدمة الوطنية عاملة سراً على توسيع الخرق بين الدولة والإصلاحيين».

(٦) اللائحة الإصلاحية: (لاتخاذها أساساً لمفاوضات مقبلة حول مستقبل علاقات الولايات العربية بالحكومة المركزية في استانبول). هي كقانون أو مشروع دستور، صُدق عليها من قبل الجمعية العامة في بيروت في جلستها العامة الثالثة المنعقدة بإذن الحكومة في دار المجلس البلدي الجمعة في ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩١٣، وقدمت إلى الوالي (ادهم بك) الذي رفعها إلى الباب العالي (كان الصدر الأعظم كامل باشا عن الائتلافيين الأحرار). تألفت اللائحة من ١٥ مادة تمحورت حول:
أ) قيام حكومات محلية تتمتع باستقلال تام في الشؤون الداخلية في الولايات العربية.
ب) دور الوالي حقوقه ومهامه.
ج) دور المجلس العام حقوقه ومهامه.
د) علاقة الوالي بالمجلس العام وإنشاء مجلس تمثيلي في كل ولاية عربية تكون له سلطة إدارية واسعة وسلطة تشريعية محدودة لا تتعارض مع سلطة مجلسي المبعوثان (النواب والأعيان) في استانبول. وانشاء محكمة تمييز في كل من الولايات العربية لئلا يتكلف ذوو العلاقة الانتقال إلى استانبول.
هـ) انشاء لجنة المجلس العام ومهامها.
و) تعيين الموظفين وعزلهم يؤول في هذه الولايات إلى الحكومة المحلية.
ز) التعاقد مع المستشارين والمفتشين الأجانب يتم اختيارهم والتعاقد معهم بموافقة الحكومة المركزية للدوائر (المالية والجندرمة والبريد والتلغراف والجمارك).
ح-ط) المالية (واردات- مصاريف).
ي) الاراضي المحولة.
ك) الاوقاف .
ل) البلديات.
م) مجلس المستشارين.
ن) اللغة العربية. اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية على ان تظل التركية لغة العلاقات بينها وبين الحكومة المركزية في استانبول. وان يباح استخدامها أيضاً في مناقشات المجلسين وتعيين ولاة في البلاد العربية ممن يتقنون هذه اللغة. ويطبق هذا الشرط على الولاة الحاليين الذين يجهلونها بعد انقضاء ٦ سنوات على إقراره.
س) الخدمة العسكرية يؤديها أبناء البلاد العربية أثناء السلم كل في ولايته.
مصير اللائحة الإصلاحية: بدا للاتحاديين الذين كانوا قد أُلزموا التخلي عن الحكم في ٥ آب/أغسطس ١٩١٢ ان يتخذوا من قبول حكومة (الائتلافيين الأحرار) هذه اللائحة أساساً لمفاوضات مقبلة، وخسارة ادرنة ذريعة للقيام بانقلاب عسكري في ٢٣ كانون الثاني/يناير بقيادة أنور وطلعت وأحمد جمال (اقتحام مقر الصدر الاعظم وقتل وزير الحربية ناظم باشا) وفي ٨ نيسان/أبريل يوقفون أعمال الجمعية الإصلاحية والأندية الاخرى والجمعيات ويعتقلون البارزين فيها بدعوى التعاون مع الاجنبي لتقويض وحدة الوطن. اللائحة رُفضت وبدأت تتكشف حقيقة الاتحاديين مع الأيام (ثورة العرب، اسعد مفلح داغر، ص٧٠ طبعة المقطم ١٩١٦. الحركة العربية، سليمان موسى، ص٣٥، طبعة ٢-١٩٧٧. حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة مجلد ١، صفحة ٣٨ طبعة ١٩٤٩ العصرية السياسة الدولية في الشرق العربي، عادل اسماعيل صفحة ١٤٩، طبعة ١٩٦٤ لبنان وسوريا، هلال الصلح، طبعة ١٩٩٤ الموسوعة السياسية، مجلد ٢، ص٨٣ يقظة العرب، جورج انطونيوس، ص١٨٩ الطبعة ٧ دار العلم للملايين ١٩٨٢ نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، دار النهار ١٩٦٩ وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية-السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، ص ٣٧٧، ط١، ١٩٧٦).
وكان مجلس والي بيروت يتألف من الوالي هو المسؤول الاول في الولاية عن تنفيذ القوانين وأوامر رؤسائه في العاصمة استانبول (الأمنية والسياسية والإجرائية).
ـــ الموظفون المعينون:
١- مدير الشؤون الخارجية
٢- مدير الأشغال العامة
٣- مدير الزراعة
٤- مدير (الاتصالات) أي البريد أو المكتوبجي
٥- الدفتردار مسؤول أموال الدولة (المداخيل - المصاريف)
٦- مفتش حكام الشرع
ـــ الموظفون المنتخبون:
أربعة أعضاء منتخبون عن كل سنجق ٢ مسيحيان و٢ مسلمان
تحصر بالوالي العلاقات مع قناصل الدول الاجنبية، ويناقش مع موظفيه بحسب اختصاص كل دائرة أمور الإدارة العامة، المسائل المالية، الزراعية، التجارية والاشغال.

(٧) المنار: منشؤها وناشرها العلامة المتنور الإصلاحي محمد (١٨٦٥-١٩٣٥) رشيد رضا في القاهرة. المنار، مجلة أدبية علمية تهذيبية بحثت في الفلسفة والدين وشؤون العمران. صدرت كجريدة في ١٨٩٨/٣/١٥-١٩٣٥. ثم عاود إصدارها صهره حتى أوائل ١٩٤١. كان الشيخ محمد رشيد رضا صاحب التفسير والتاريخ رجل إصلاح وتربية وتعليم. ولد في القلمون، وشب في طرابلس الشام، وفي مصر قضى رجولته وكهولته. كتب الشعر ومارس الصحافة ولازم الإمام محمد عبده وكان من مريديه.

في جريدة المنار كتب وجهة نظره وآرائه ورؤيته لإصلاح أمور المسلمين والشرق. وكغيره من الشباب المتحرر بعد إعلان (المشروطية الثانية) الدستور رجع إلى الشام ظناً منه أنه سيجد فسحة الحرية للقول والإصلاح. وجد معارضة وتهديد وملاحقة. وأن أعداء الإصلاح تغيرت أسماؤهم فقط. رجع إلى مصر وانشأ مدرسة الدعوة والارشاد. مرة ثانية عاود المحاولة من جديد. فقصد سوريا في عهد الأمير فيصل وغادرها مع دخول الفرنسيين ورجع إلى مصر ثم زار الحجاز والهند. وكان على اطّلاع وصلة جيدين بالقوى السياسية الإسلامية العروبية الإصلاحية المتنورة والمعارضة للاتحاديين وعلى علاقة جيدة بالحركة الوهابية ومؤيداً لها. ومع الخديوي عباس الثاني. رصدت وقائع الحياة السياسية في مصر خاصة واهتمت بشؤون المسلمين أينما وجدوا (قاموس الصحافة اللبنانية يوسف داغر، منشورات الجامعة اللبنانية. الزركلي، الاعلام، دار العلم للملايين. كحالة، معجم المؤلفين، ج٣، ص٢٩٣).

(٨) ضباط الفرقة العربية: يقصد بهم الضباط العرب الذين تخرجوا من الكليات الحربية التركية. عرف منهم، المقدم سليم الجزائري، محمد اسماعيل الطباخ، مصطفى وصفي، نوري السعيد، يحيى كاظم ابو الشرف، عارف التوام، أمين لطفي الحافظ، عزيز علي المصري، علي النشاشيبي، ياسين الهاشمي، طه الهاشمي، جميل مدفعي، تحسين علي، مولود مخلص، جعفر العسكري، بينهم الطبيب، المهندس، الصحافي، المحامي، الفارس، مجموعة متفاوتة الرتب بين لواء وعقداء ومقدمون ونقباء ورواد وملازمون وضباط صف. المجموعة التزمت بالعروبة قومية، وبالعثمانية جامعة للشعوب. آمنت مخلصة، مقدمة دمها دفاعاً عن وحدة أراضيها في البلقان والقوقاز ومياه الدردنيل وقناة السويس وليبيا وعسير واليمن. ولا ننسى الجنرال علي خلفي الشرايري قائد الفرقة التي عبر بها إلى الضفة الغربية للقناة والضباط الذين شاركوا في الهجوم منهم الضباط محمد علي العجلوني وخلف محمد التل، محمد مريود، الملازم أول محمد جلال قطب قائد سرية الامداد والتموين، الشيخ فواز بركات الزعبي. وعلى الرغم من ذلك، فكل هذه التضحيات لم تثمر مع الأتراك. وبإيعاز من أنور باشا تم تشتيت هذه المجموعة على جبهات مختلفة متباعدة وإرسالها إلى الصفوف الأولى لخطوط النار المواجهة مباشرة للعدو.

أمين سعيد في كتابه «الثورة العربية الكبرى» ج١، ص٤٧، ط الحلبي: ففي ٢٤ كانون الثاني/يناير سنة ١٩١٤ عقد اجتماع خاص في دار وزارة الحربية باستانبول حضره الصدر الأعظم سعيد حليم ومحافظ العاصمة العسكري أحمد جمال باشا وذلك قبل ان يعين لوزارة البحرية ومدير الأمن العام عزمي بك فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة وقرروا المواد الآتية:

١- إقصاء ضباط العرب المقيمين في استانبول وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطاً ينتمي ٣١٥ منهم إلى جمعية العهد إلى المناطق التركية (تراقيا-الأناضول) فلا يعود في إمكانهم القيام بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

٢- تولية القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الأتراك وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدماتهم فيها قدر الإمكان.

٣- الاسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر.

٤- يُعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر.

٥- مقاومة الحركة الإصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس.

٦- الغاء الاحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية وتدير الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة.

٧- اقصاء العرب الذين يعملون ضد الأتراك من استانبول واستمالة من يمكن استمالته منهم.

٨- تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية والإكثار من المنتسبين إلى انديتها.

ونفذت هذه في اليوم التالي، ولم تكتف السلطات الاتحادية بهذه الإجراءات، بل عمدت إلى إلقاء القبض على القائد عزيز علي بك وأحالته إلى المحكمة العسكرية ملفقة له تهمة تبديد مبلغ ٣٠ ألف ليرة عثمانية (توفيق برو، العرب والترك. عمر أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية الأولى. أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١).

(٩) المؤتمر العربي الأول في باريس: عقد في باريس يوم ١٩١٣/٦/٨، شارك فيه ممثلو الأحزاب والجمعيات والجاليات العربية. وأصحاب المهن حرة وصحافيون و مثقفون ورجال أعمال من الشوام المقيمين في مصر، من العراق وفلسطين من العرب المقيمين في أوروبا، من العرب الأميركيين. ووُجِّهت الدعوة إلى الاتحاديين القابضين على السلطة في استانبول لحضوره والاستماع إلى المطالب العربية، فأرسلت وفداً عنها. (مدحت شكري مع آخرين) وشارك في نقاشات خارج المؤتمر مع أعضاء الوفود وحمل معه المقترحات العربية.

أسباب عقده: بعد الرد القاسي من الاتحاديين على الورقة الإصلاحية التي تقدمت بها الجمعية البيروتية وقمع الحركة الشعبية البيروتية المؤيدة للورقة، تكوّنت قناعة لدى العرب بأن تحركاً أوسع قد يخلق حالة ضغط على الأتراك ويُكسبهم عطفاً عربياً أشمل وأكثر تعاضداً. وظن المؤتمرون أن مسألة الحريات وتخفيف القيود العثمانية وإقامة الحكم اللامركزي وغيرها من المسائل قد توحد جهودهم ووجهات النظر لأبناء العرب ويُسمعون العالم قضاياهم فيتعاطف معهم فيضغط على الدولة العثمانية.

أهم مقرراته:

- مطالبة الحكومة العثمانية بضمان تمتع العرب بحرياتهم وحقوقهم السياسية.
- المشاركة في الادارة المركزية فعلاً
- ادارة لا مركزية لكل ولاية.
- تنفيذ الخدمة العسكرية للعرب في بلادهم
- حرية التعلم والثقافة العربية وإيقاف التتريك (الطورنة)

داخل المؤتمر تباينت آراء المؤتمرون العرب وتقاطعت فيما بينهم.

تفاصيل المؤتمر في الجزء الثاني والثالث

تأليف اللجنة الداعية لعقد المؤتمر:

أصحاب الفكرة في عقد المؤتمر السياسي العربي الأول في باريس هم عبد الغني العريسي، جميل مردم بك، توفيق فايد، عوني عبد الهادي و محمد المحمصاني، وهؤلاء هم مؤسسو جمعية العربية الفتاة والمؤتمر من تدبيرهم، وتألفت لجنة تحضيرية لعقده من دون (فايد)، فاتصلوا بابناء الجالية العربية في باريس، التي انتخبت أربعة منها، هم: شكري غانم، ندرة مطران، شارل دباس وجميل معلوف.

وفود المؤتمر

A - عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر:

١- السيد عبد الحميد الزهراوي.

٢- اسكندر بك عمون، محام من القطر المصري، وكيل رئيس لجنة الحزب، رئيس الاتحاد اللبناني.

B - عن الجمعية الإصلاحية العمومية التي تمثل بيروت:

١- سليم أفندي علي سلام، من أعيان بيروت، عضو مجلس إدارتها سابقاً، عضو الجمعية الإصلاحية.

٢- أحمد أفندي مختار بيهم، من أعيان بيروت، عضو الجمعية الإصلاحية.

٣- خليل أفندي زينية، محرر جريدة الثبات اليومية في بيروت، عضو الجمعية الإصلاحية.

٤- الشيخ أحمد حسن طبارة، صاحب جريدة الإصلاح اليومية في بيروت، عضو الجمعية الإصلاحية.

٥- الدكتور أيوب أفندي ثابت، من أعيان بيروت، أمين سر الجمعية الإصلاحية.

٦- البير أفندي سرسق، من أعيان بيروت، عضو الجمعية الإصلاحية، لم يتمكن من الحضور لمرض أخيه.

C - عن العراق:

١- توفيق أفندي السويدي، من أفاضل العراق، طالب حقوق في فرنسا.

٢- سليمان أفندي عنبر، من وجهاء العراق، تاجر مقيم في فرنسا.

D - عن بعلبك:

١- محمد رستم بك حيدر، من أعيان بعلبك وأفاضلها (مستشار الأمير فيصل فيما بعد).

٢- ابراهيم أفندي حيدر، من أعيان بعلبك وأفاضلها (شقيق صالح).

E - عن المهجر (الولايات المتحدة الاميركية):

١- نجيب افندي دياب، صاحب جريدة مرآة الغرب اليومية في نيويورك، ممثل جمعية الاتحاد السوري.

٢- نعوم افندي مكرزل، صاحب جريدة الهدى في نيويورك، ممثل جمعية النهضة اللبنانية.

٣- الياس افندي مقصود، من افاضل المهاجرين للولايات المتحدة، ممثل جمعية الاتحاد السوري.

F - عن المهاجرين إلى المكسيك:

١- عباس افندي بجاني، من افاضل السوريين وتجارهم

G - عن الجالية العربية في باريس:
١- شكري أفندي غانم، من كبار رجال الأدب والصحافة في فرنسا.
٢- عبد الغني العريسي، صاحب جريدة المفيد اليومية في بيروت، خريج كلية الصحافة والعلوم السياسية.
٣- ندرة بك حبيب مطران، من أعيان بعلبك وأفاضلها.
٤- عوني بك عبد الهادي، من اعيان نابلس، خريج المدرسة الملكية/استانبول، طالب حقوق في باريس.
٥- شارل أفندي دباس، محام.
٦- خيرالله أفندي خيرالله، محرر في جريدة Le Temps.
٧- جميل مردم بك، من اعيان دمشق،طالب حقوق في باريس.
٨- محمد افندي المحمصاني، من وجهاء بيروت، خريج كلية باريس في الحقوق.
H - عن الجالية العربية في استانبول:
عبد الكريم أفندي الخليل، رئيس المنتدى الأدبي خريج المدرسة الملكية، ومدرسة الحقوق في استانبول.
عن حزب الاتحاد والترقي وفد برئاسة أمين عام الحزب السيد مدحت شكري.
ج - مباحث المؤتمر:
الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.
حقوق العرب في المملكة العثمانية.
ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.
المهاجرة من سوريا وإلى سوريا.
د - مجريات المؤتمر:
في يوم الاربعاء ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ افتتح المؤتمر جلسته الاولى في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان برئاسة الشيخ عبد الحميد الزهراوي الساعة الثالثة عصراً. واستمرت أعماله ٤ أيام لأربع جلسات.
الجلسة الأولى:
ألقى ندرة المطران خطابا نيابة عن اللجنة التحضيرية
خطب رئيس المؤتمر عبدالحميد الزهراوي (تربيتنا السياسية)
عبد الغني العريسي تكلم عن (حقوق العرب)
الجلسة الثانية:
تكلم ندرة مطران عن (الحياة الوطنية في البلاد العربية)
نجيب دياب (اماني السوريين المغتربين)
توفيق السويدي (تحية اهل العراق وتأييدهم للمؤتمر)
الجلسة الثالثة:
كلمة الشيخ أحمد حسن طبارة عن (الهجرة من سوريا إلى سوريا)
كلمة اسكندر عمون (الإصلاح على قاعدة اللامركزية)
الجلسة الأخيرة في ٢٣حزيران:
كلمة ختامية ألقاها رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي، وتقرير أحمد مختار بيهم لخص فيه أعمال المؤتمر بالفرنسية ونص قرارات المؤتمرين:
١- ان الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب ان تنفذ بوجه السرعة.
٢- من المسلم ان يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً.
٣- يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها.
٤- كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم ٣١ كانون الثاني/يناير سنة ١٩١٣ بإجماع الآراء وهي قائمة اساسيين وهما، توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب. فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين.
٥- اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية.
٦- تكون الخدمة العسكرية في الولايات العربية الا في الظروف والأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى.
٧- يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية ان تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها.
٨- يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على اساس اللامركزية. ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم ويحيي العراق.
٩- يجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية.
١٠- وأيضاً تبلغ هذه القرارات إلى الحكومات الاوروبية، ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية لترحيبها الكريم بضيوفها.

واتبعت هذه المقررات بملحق:
١- اذا لم تنفذ هذه القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر. فالاعضاء المنتخبون في لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون إليها.
٢- ستكون هذه القرارات برنامجا سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه.
٣- المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له.
هـ - ردّ الاتحاديين:
لم يكتف الاتحاديون بإرسال أمينهم العام مع عبد الكريم الخليل لإقناع المؤتمرين والتحاور معهم. فقد اوعزوا إلى شخصيات عربية من بلاد الشام ومصر ولبنان و تونس ان يقوموا بتحرك ما. فبادروا إلى الاعلان عن تأليف حزب أطلقوا عليه اسم (حزب الإصلاح الحقيقي) برئاسة محمد فوزي باشا العظم وعضوية عبد الرحمن باشا اليوسف والأمير شكيب أرسلان والشيخ اسعد شقيري والدكتور حسن الاسير وطه المدور. وذهبوا إلى استانبول وانضموا إلى الشريف علي حيدر باشا والشريف جعفر باشا والشيخ سليمان الباروني وعبد العزيز جاويش والشيخ صالح التونسي وعبد العزيز الثعالبي ويوسف شتوان والشيخ اسماعيل الصفايحي التونسي وغيرهم وهناك ألقوا الخطب وصرحوا للصحف مشوّهين سمعة طلاب الإصلاح اللامركزيين المؤتمرين في باريس. واظهروهم كمأجورين للأجانب متطوعين في خدمتهم لتسليم البلاد.
و - ما بعد المؤتمر:
في ٣٠ حزيران/يونيو زار وفد مؤلف من الشيخ عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وشكري غانم نائبه واسكندر عمون وسليم سلام والشيخ احمد طبارة وأحمد مختار بيهم وخليل زينية وزير الخارجية الفرنسية السيد بيشون فشكره الرئيس على ما لقيه المؤتمرون من ترحيب الأمة الفرنسية. وألقى الزهراوي وبيهم كلمتين توضيحتين ليقطعا الطريق على الذين اندسوا بين رجال المؤتمر وزعموا أن المؤتمر ما عُقد إلا لخدمة السياسة الفرنسية وأن غايته هي طلب المساعدة من الفرنسيين وليبيّنا للوزير أنهما عثمانيان لا يرغبان عن الجامعة العثمانية بديلاً. ثم زار الوفد السفارة العثمانية وسلموا السفير نسخة عن قرارات المؤتمر. وبقية الموضوع معروفة.

(١٠) أحمد جمال باشا والي بغداد: وصل إلى بغداد يوم السبت في ١٩١١/٨/٢٦ بقي فيها حتى ١٩١٢/٧/٢٢ وعلى أثر استلام الائتلافيين الأحرار زمام السلطة في استانبول سارع عائداً إليها ليقدم استقالته من هذا المنصب (والي بغداد) ليكون إلى جانب رفاقه الاتحاديين في وجه معارضيهم. شُغلَ أثناء ولايته القصيرة التي أمضاها في بغداد بملاحقة معارضي حزب الاتحاد والترقي وبناء شبكات التجسس. والاغتيال. ولم يُذكر أنه أنجز مشروعاً ما.

(١١) شيخ الإسلام أو قاضي عسكر: أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية. وثالث شخصية ومنصب هام بعد السلطان والصدر الأعظم. ضمّ إلى عضوية الحكومة في القرن العشرين. ظهر هذا المنصب بعد ١٢٥ سنة على قيام الدولة العثمانية بتعيين الشيخ شمس الدين الفناري مفتياً عام ٨٢٨ هـ/١٤٢٥ زمن السلطان مراد الثاني في القرن الخامس عشر. بعد ان كان يسمّى مفتياً. فيما بعد صارت مشيخة الإسلام مؤسسة لها إدارتها وهيكليتها التنظيمية الخاصة بها. من مهامها تعيين القضاة وعزلهم. والاشراف على المدارس الدينية ومناهجها وإصدار الفتاوى الشرعية (المرجع الأعلى لرجال الدين الإسلامي والمحاكم الشرعية ودوائر الإفتاء) وتبرير سلوك السلطان وادارته بإضفاء الصبغة الشرعية بفتاويها واجتهاداتها الفقهية. توالى على هذا المنصب ١٢٩ شيخاً وكان آخر مشايخ الإسلام في آخر وزارة همايونية الشيخ محمد نوري أفندي عام ١٩٢٢م/١٣٤١هـ. أي عندما ألغيت الخلافة الإسلامية ومنصب السلطان مع قيام الجمهورية التركية عام ١٩٢٣ (المصدر: المعجم الجامع ص١٣٣. عباس صباغ. المعجم الموسوعي للمصطلحات ص١٤٢. سهيل صابان. الحلقة المفقودة من تاريخ العرب. محمد جميل بيهم).

(١٢) بكباشي: رائد.

(١٣) يوزباشي: نقيب.

(١٤) جريدة إقدام: جريدة تركية. كبرى صحف استانبول في عهد الاتحاديين وضدهم. لصاحبها احمد جودت بك. كان طورانياً متعصباً بارزاً ضد العرب والارمن. برز ذلك على صفحاتها في تصديها للمطالب العربية الإصلاحية عندما ناقشها البرلمان. أغلب كتّابها على شاكلته. كان صديقاً لمحمد كرد علي الذي قال عنه انه محب للعرب ولتراثهم. ذكرها مرارا المؤرخ توفيق برو ووصفها بجريدة معارضة للاتحاديين (مذكرات محمد كرد علي. ج١).

(١٥) (١٦) (١٧) في الجزء الثالث تجد تفاصيل.

(١٨) اختلاس ٣٠ ألف جنيه: تلفيقة وتزوير للحقيقة من تدبير أنور باشا وزير الحربية ضد عزيز علي المصري. ستجد تفاصيلها عند أسعد مفلح داغر في الجزء الثالث.

(١٩) جورج ريموند: رحالة، صحافي، أديب فرنسي. عمل مراسلاً حربياً في ليبيا سنة ١٩١٢ لمجلة الستراسيون Illustration التي أرسلته ليغطي أخبار المقاومة الليبية-التركية في وجه الغزو الإيطالي. دخل ليبيا براً عن طريق تونس. بقي في ليبيا نحو أربعة أشهر من ١٩١٢/١/١٧ حتى ١٩١٢/٥/٢٠ متابعاً للعمليات العسكرية بين القوات الإيطالية الغازية ومجموعات المجاهدين الليبيين الأبطال البواسل المدافعين عن بلادهم تحت قيادة السنوسي وعمر المختار. والضباط الأتراك (أنور بك ومصطفى كمال بك في درنة. خليل بك في «الخمس» وعزيز المصري في بنغازي وجعفر العسكري وغيرهم من الضباط العرب المشاركين في الدفاع القومي العربي عن ليبيا من خلال الجيش العثماني. متنقلاً بين معسكرات المجاهدين في المدن والقرى والجبال. منكباً على تغطية الحياة الاجتماعية-الاقتصادية-الثقافية في الريف والمدينة الليبية بمقالاته المرسلة إلى المجلة الباريسية التي جمعت في ما بعد في كتاب ترجم إلى العربية بعنوان (مشاهدات صحافي غربي في اجباليا).

(٢٠) ستراسيون: مجلة فرنسية أسبوعية مصورة على نمط الصحف اللندنية. تأسست سنة ١٨٤٣ مستخدمين أصحابها أحدث تقنيات ذلك العصر. مجلة البرجوازية. كانت مدعومة من قبل تارديو. كرست العديد من صفحاتها الأدبية للشاعر بودلير. أيام الحرب العالمية الأولى اعتبرت أزهى أيام انتشارها وأوسعها ووصلت مبيعاتها إلى ٤٠٠٠٠٠ نسخة. وفي الحرب العالمية الثانية عارضت تحالف الجمهوريين مع الجبهة الشعبية اليسارية في وجه الاحتلال الألماني.

(٢١) توزع المهام على كبار ضباط البعثة العسكرية الألمانية:
- الفريق أول ليمان فون ساندرس: قيادة وتدريب وتأهيل الفيلق الأول المرابط في العاصمة استانبول. كان ساندرس الرجل الثالث في الترتيب السلطوي الهرمي للدولة العثمانية بعد السلطان وأنور باشا.
- الفريق برونزارت فون شيليندورف: قيادة وتدريب وتأهيل الفرقة الثالثة مع رئاسة هيئة أركان الجيوش العثمانية.
- العقيد زادرستورن: قيادة وتدريب وتأهيل الفرقة الخامسة.
- العقيد كريس فون كرسنشتاين: مسؤول المخابرات في الجيش العثماني. ثم رئيس أركان الفيلق الثامن للجيش الرابع.
- العقيد تروير: قيادة وتدريب وتأهيل الفرقة العاشرة.
- المقدم فرانكنبرغ: في هيئة أركان الجيش الرابع.
- المقدم نيكولاي: قيادة وتدريب وتأهيل اللواء الثالث مشاة.
- المقدم فون ستروبل: في عمليات هيئة الأركان العامة العثمانية.
- المقدم فيلدمان: رئيس القسم الثالث في القيادة العامة.
- النقيب ستانغ: قيادة وتدريب وتأهيل اللواء الثامن مشاة.
- بقية الضباط وُزّعوا على أقسام المدفعية والهندسة والمدفعية الجوية والبحرية وغيرها في وحدات الجيش العثماني.

(٢٢) لجنة كارنيجي: اللجنة منبثقة من هيئة كارنيجي الأميركية الخاصة. التي تأسست سنة ١٩١٠ وضمت في جنباتها مجموعة من أهل الاختصاص في السياسة والقوانين الدولية والحقوق والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والتاريخ والحروب. تعتبر أولى وأهم مؤسسات الرأي والفكر ومركز أبحاث في القضايا الدولية الاستراتيجية وفريدة في اختصاصها المكرس للاستطلاع والتحقق ودراسة الأحداث خارج الولايات المتحدة الأميركية وتقديم الرأي والمشورة المكلفة بها.
تأسست هذه الهيئة بهدف التأثير على صانعي السياسة الخارجية الأميركية من خلال:
- طرح أفكار وخيارات مبتكرة في السياسة الخارجية.
- تأمين مجموعة جاهزة من الاختصاصيين للعمل مع الحكومة.
- توفير ظروف للنقاش بمستوى عالٍ.
- تثقيف مواطني الولايات المتحدة عن العالم الخارجي.
- تقديم المساعدة في الجهود الرسمية للتوسط في حل النزاعات الدولية بما يتناسب والمصالح الأميركية.

(٢٣) الدوديكانيز: مجموعة جزر في بحر إيجه.

(٢٤) تصوير أفكار: جريدة تركية تروج لأفكار الاتحاديين وإن ادّعت الحيادية والموضوعية. أصدرها يونس نادي.

الفصل الثالث

تعييني وزيراً للبحرية



لما عُيّن أنور باشا وزيراً للحربية وجّه اهتمامه لإعادة تنظيم الجيش، فكانت باكورة أعماله تغيير بعض الموظفين الكبار فأحال سائر القادة إلى التقاعد، كما نقل كثيراً غيرهم من الضباط الكبار الذين لم تكن لهم مناقب عسكرية مطلقاً، فجعل القائمقام قائداً والأميرالاي قائد فرقة والصاغ قائد كتيبة واليوزباشي قائد طابور. ثم قام بناءً على إشارة لجنة التنظيم بإصلاح أساسي في الأقسام المختلفة التابعة لوزارة الحربية، وعيّن في معظمها ضباطاً ألماناً، كما بدأ تحضير طرق التعبئة. فلم يدخر في ذلك وسعاً، وقد عني كثيراً بأن يدرب الجيش على الطريقة الفنية علمياً وعملياً، بحيث لم يمض أكثر من شهرين حتى أمكننا أن نشاهد تأثير الروح الجديدة في كل وحدة من وحداته.

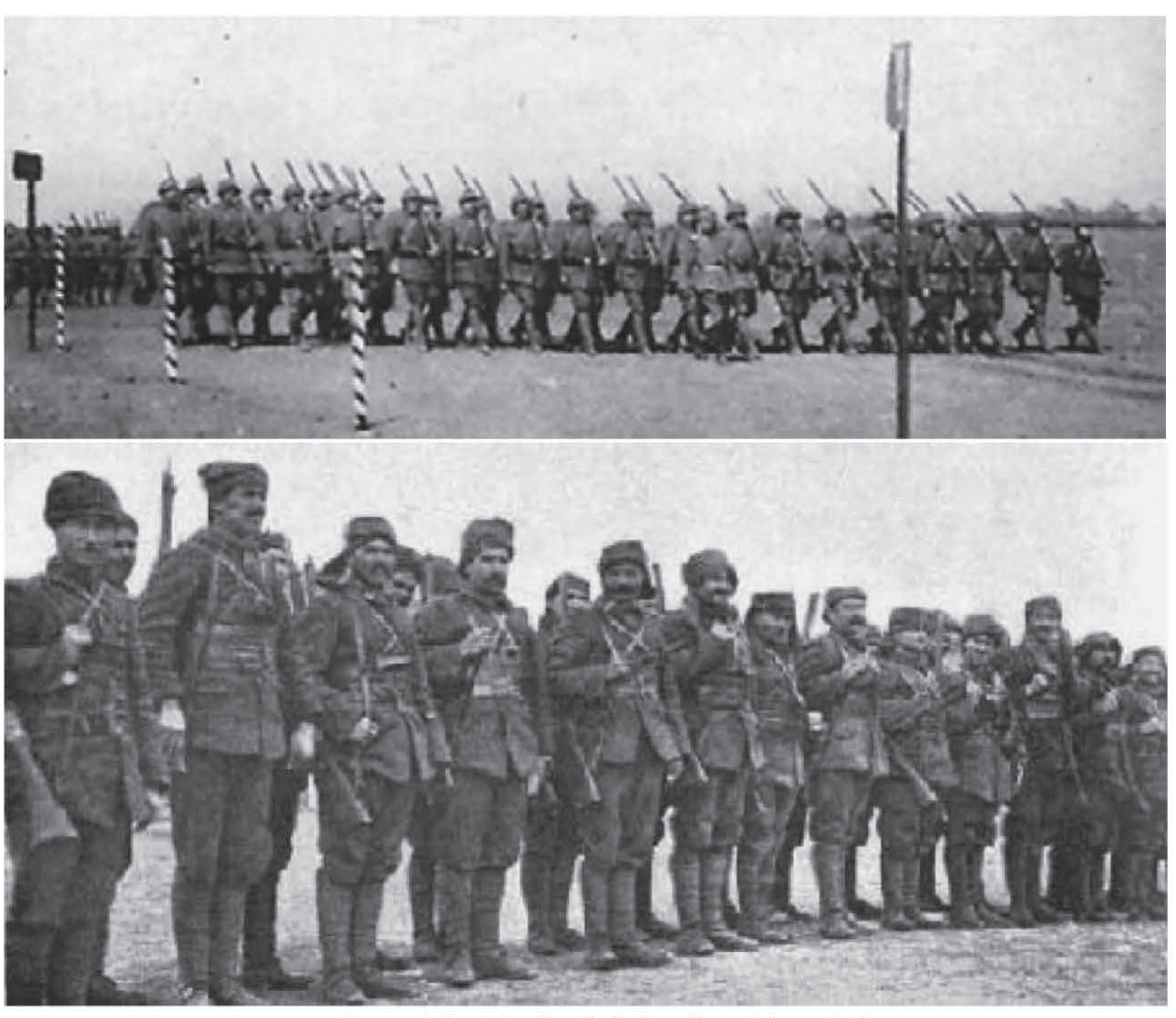
وفيما كانت تحدث كل هذه التغييرات البعيدة الغور في الجيش، لم تحصل تغييرات ما في نظام الأسطول الداخلي. فإن شوروك سولون محمود باشا وزير البحرية، على الرغم من مقدرته العظيمة وأمانته، كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لإحداث الإصلاحات الأساسية، ولهذا لم يحفل كثيراً بزملائه في الوزارة الذين طالما نصحوا له بأن يحذو حذو أنور باشا.

ولم يكن ثمة اهتمام بتعجيل بناء المدرعة السلطان عثمان التي ابتعناها من إنكلترا، كما لوحظ تباطؤ معيب بشأن المدرعة رشادية، بل لم تبذل الجهود اللازمة لإصلاح التلف الذي لحق بسفننا جراء الحرب البلقانية، كما أغفل تنفيذ مقترحات البعثة البحرية الإنكليزية لتنظيم وزارة البحرية وهيئة الضباط بحجة أن المجلس البحري لا بد من أن يفحصها أولاً.



الجنرال أنور باشا (نابليون الصغير)
(١٨٨١-١٩٢٢)

بعد اقتحام مقر الصدر الأعظم في كانون الثاني ١٩١٣ وقتل ناظم باشا وزير الحربية عن سابق تصور وتصميم، سُجن الوزراء الائتلافيين الأحرار وشردوا، واعتقل مؤيدوهم ونفي قسم كبير منهم، عُيِّنَ محمود شوكت باشا صدراً أعظم، ثم دبروا اغتياله، وعيّنوا بدلاً منه البرنس سعيد حليم باشا صدراً أعظم وضم في وزارته أنور للحربية، وطلعت للداخلية، فقام أنور بتنفيذ خطته الهادفة إلى إقصاء آلاف الضباط المشكوك في ولائهم له أولاً وللحزب ثانياً بحجة إصلاح وتطوير الجيش وتجديد كادراته، فصرف كبار الضباط من رتبة فريق اول حتى نقيب، وأنور نفسه كان برتبة مقدم عند مقتل ناظم باشا، وبعد ٣ أسابيع فجأة يصبح وزيراً للحربية، وولّى العسكريين الاتحاديين (ذوي الأصول اليهودية«يهود الدونمة») المناصب الاساسية والرتب العليا وغالبيتهم من مكدونيا، حتى إن الحكومة ضمت ثلاثة وزراء يهود من دون أي عربي أو أرمني.



كتائب مشاة من الجيش التركي المعادة هيكلته وتنظيمه
وبعد ٦ أشهر من التدريب والتجهيز بإشراف ضباط البعثة العسكرية الألمانية

أما الحكومة فكانت على يقين بأن الحرب مع اليونان لا مفرّ منها في القريب العاجل، وأن الفراغ من تنظيم الأسطول وتدريبه بمنتهى السرعة مهم جداً، لأن السرعة في تنظيم الأسطول كانت ألزم منها في الجيش. ولهذا السبب اقترح الصدر الأعظم وأنور باشا وطلعت باشا أن أبادل شوروك سولون محمود باشا. فقَبِل الباشا وأصبحت وزيراً للبحرية.

تنظيم عمل وزارة البحرية وتطويرها

كانت باكورة أعمالي في تلك الوزارة مقابلة طويلة مع أمير البحر ليمبوس رئيس البعثة البحرية الإنكليزية. فسألته إعطائي بياناً بالمقترحات التي عرضها منذ تعيينه في تلك الوظيفة مع إيضاح أيها أهم. ثم كلفت مدير دار المحفوظات أن يجمع سائر التقارير الخاصة بتنظيم الأسطول التي وضعها أمراء



مبنى وزارة البحرية التركية في استانبول

البحر ليمبوس ووليامز وغامبل لدى المجلس البحري والأقسام الأخرى وشرعت في فحصها بنفسي، أما اقتراح ليمبوس الرئيسي فكان محصوراً بضرورة إصلاح فروع وزارة البحرية فوجدتني متفقاً معه في هذه الفكرة. وقد شكا ليمبوس كما شكا أميرا البحر اللذان تقدماه من المجلس البحري. واتفقت آراؤهم على أن رؤساء المصالح بإحجامهم عن تحمل المسؤولية عن الشؤون المتعلقة بمصالحهم يحيلونها على المجلس البحري الذي قد تمر شهور عديدة من دون أن يُعقد. حتى إذا عُقد بالفعل أزعجه تكدس الوثائق المطلوب إليه بحثها فيَقنع بفحص بعضها ثم يتأجل ثانية تاركاً أهمها في صندوق الوثائق. وبهذه الطريقة تنحّى رؤساء المصالح عن مسؤوليتهم فصممت على إلغاء المجلس البحري في الحال.

وفي الواقع كان أشد ما شكاه أمير البحر الإنكليزي ليمبوس هو من إدارة وكيل البحرية رستم باشا أشد أعداء إصلاح الأسطول العثماني عتواً وصلابة. وقد أخبرني أنه طالما نجح في ضم بعض رؤساء الإدارات إلى رأيه في أمر من الأمور، ثم لا يلبثون أن يعودوا بعد مقابلة رستم باشا بنتائج تعارض ما اتفقوا عليه، قائلين إنهم لا يستطيعون إبرام أمر يخالف رأي رئيسهم.

وقد أعرب ليمبوس عن سخطه الشديد على القسم الرابع ومديري الحسابات والمراجعة، فليس ثمة أمل في عمل شيء في وزارة البحرية قبل أن تنظم تنظيماً تاماً المصالح التي تتشبث تشبثاً أعمى بالوسائل البيروقراطية العتيقة.



الأدميرال سير آرثر هنري ليمبوس (١٨٦٣-١٩٣١)
Admiral Sir Arthur Henry LIMPUS

تلقى دروسه في المدرسة الملكية وتابع في المدرسة العليا للبحرية البريطانية خدم في الاسطول الملكي في بحر الصين والسودان وجنوب افريقيا حيث نال رتبة نقيب بحري سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠-١١ رُقّيَ الى موقع قيادة اسطول. الى ان رشحته الادميرالية البريطانية للعمل في البحرية العثمانية وتطويرها في ١٩١٢/٦/٦. تسلم مهام تأهيل الاسطول العثماني وتحديثه وتدريب الاطقم البحرية التركية لقيادة سفن الاسطول العثماني بنفسها في. اهتم بالجيل الجديد من ضباط البحرية الاتراك تلاميذه. اول عمل قام به. أخذه للاسطول العثماني في رحلة تعليمية (مناورة) الى بيروت. وكانت مبادرة شجاعة منه ونجحت تطبيقاته المبرمجة الدالة عن خبرة وابتكار.. بعد سنتين منح الوسام عثماني المجيدي عالي الشرف. وترقيته الى جنرال بحري. الا ان البرنامج توقف بسبب الحرب الايطالية – التركية على الرغم من مشاركة البحرية العثمانية بفعالية في الحرب البلقانية. ثم تابع تنفيذ مهامه حتى دخول السفينتان الالمانيتان (غوبن/برسلو) في خدمة البحرية العثمانية. كفت يداه في ١٥ آب/أغسطس ١٩١٤عن مواصلة برنامجه وألغت تركيا الاتفاقية مع بريطانيا وأنهت أعمال البعثة البحرية الملكية. ولاحت في الأفق علامات حرب اوروبية عامة. وأعطيت أمرة الحرب للألمان.. تقدم باستقالته وغادر تركيا. بذلك انتهى قرن من الاشراف والنفوذ البريطاني على البحرية العثمانية. عينته القيادة البريطانية لقيادة القاعدة البحرية في جزيرة مالطا من ١٩١٥-١٩١٦. تقاعد سنة ١٩١٩.

ثم شرعت بعد هذا التحقيق الشفوي في دراسة المشروع الوافي الذي رفعه ليمبوس وغامبل لإصلاح الوزارة، وبناءً على المقترحات التي تضمنها المشروع، مضافة إليها مقترحاتي الشخصية، بدأت بإعداد قواعد الإصلاح. فقررت إلغاء المجلس البحري ووكالة البحرية، كما قررت تقسيم الوزارة أربعة أقسام مضافاً إليها قلم المفتش الطبي وقلم الحسابات. ويلقب رئيس القسم الأول برئيس هيئة أركان البحر. ويسوي كل من رؤساء الأقسام المسائل الخاصة بقسمه ويعرض على مسؤوليته الخاصة قراراته على الوزير للموافقة عليها. وفي المسائل التي قد يكون لها ارتباط بأكثر من قسم واحد - ولو أنها تختص بداية بقسم معين - ينبغي لرئيس القسم تسويتها بالاشتراك مع رؤساء الأقسام الأخرى، وعلى رؤساء الأقسام أن يُعْلِموا رئيس هيئة أركان البحر بكل المسائل الخاصة بأقسامهم.

أما رئيس هيئة أركان البحر فمسؤول عن إصلاح الأسطول وجعله متأهباً للحرب وتعليم وتدريب هيئة الضباط، بل واستخراج معدات الحرب وإدارتها، وله حق الوقوف على المعلومات اللازمة الشفوية أو التحريرية التي تصدر من السلطات المختصة، وأن يعلمهم بآراء هيئة أركان البحر.

وبعد أن تم وضع مشروع الإصلاح رأيت إصداره في قالب قانون موقت، وفي النهاية تخلصت من الوكيل رستم باشا وأميري بحر آخرين وفائق باشا والمفتش الطبي وبضعة نقباء وقادة ونائبي قادة. فسُرَّ ليمبوس لهذه التغييرات الحاسمة، وأعرب عن ثقته بتنفيذ الإصلاحات المرضية في البحرية ما أمكن ذلك.

ثم قسمت الموانئ التي كانت حتى الآن تحت إشراف أمير البحر المشرف على ميناء استانبول إلى ست مناطق، وأوجدت للمرة الأولى إدارة بحرية في سمسون واستانبول وأزمير وبيروت، ووضعت موانئ البحر الأحمر تحت إشراف قومندان البحر الأحمر وموانئ البصرة ودجلة والفرات تحت إشراف قومندان خليج البصرة. أما الغرض الذي رميت إليه من وراء تلك الإدارات البحرية فكان وقف التهريب على السواحل العثمانية بإيجاد مصلحة لخفر السواحل ثم مراقبة ربابنة الموانئ مراقبة دقيقة مستمرة، وقد كانوا حتى الآن بلا مراقبة. ولإدراك هذه الغاية أنطت بالسفن التي ابتعناها حديثاً من فرنسا والأخرى العتيقة التي كانت لنا الطواف حول سواحل البحر الأسود والبحر المتوسط وشاطئ سوريا والبحر الأحمر، وقد وضعتها جميعاً بتصرف المديرين البحريين.

ولولا اندلاع نار الحرب العالمية بعد ذهابي إلى وزارة البحرية بخمسة أشهر لحصلت السلطات المختصة، بجمع الضرائب غير المباشرة وامتيازات الدولة، على ربح عظيم من تنفيذ هذه الإجراءات، ولتوقف التهريب كلياً.

وانتخبت المديرين البحريين من أكثر الضباط الكبار نشاطاً ولفت انتباههم إلى ضرورة المراقبة التامة المتواصلة، وقد ساعدت التقارير التي وصلت منهم في التثبت ممن يجب عزله من ربابنة الموانئ، وتم الكشف عن حالة السفن المرابطة في الولايات.

ثم عينت مكان الربابنة الذين وردت أسماؤهم في القائمة العامة ضباطاً من ذوي السمعة الحسنة والكفاءة في العمل، الذين لم يصل نجاحهم في قيادة الأسطول إلى المستوى المطلوب منهم.

واعتزمت تقسيم الضباط البحريين إلى ثلاثة أقسام: الأول يشمل الضباط القادرين على الخدمة في الأسطول، والثاني يشمل الضباط الذين يخدمون في السفن المكلفة حراسة الشواطئ، والثالث يشمل الضباط المتخصصين في أعمال الموانئ. وقررت تبديل الضباط داخل هذه الأقسام، فضباط القسم الأول الذين لا يصلحون له ينقلون إلى القسم الثاني، وضباط الثاني ينقلون إلى الثالث، أما ضباط الثالث الذين لا يصلحون أبداً فيستغنى عنهم نهائياً. بيد أن الحرب العالمية حالت لسوء الحظ دون إنجاز ذلك البرنامج.

وهنا ينبغي لي أن أسوق بضعة أمثلة.

أولها: حدث بعد ذهابي إلى البحرية ببضعة أسابيع، إذ كلفت إحدى السفن المدفعية السفر وحددت بنفسي التاريخ والساعة، وكان الرأي قد استقر في زمن شوروك باشا على وضعها في تصرف قومندان البحر الأحمر. وعشية الإبحار صعدت بصحبة ليمبوس إلى ظهرها وقد كانت راسية قرب طريق توفين.

ثم طلبت إلى أمير البحر أن يعاينها ويخبرني، بلا تردد، أحقاً أن السفينة صالحة لسياحتنا الطويلة؟ فأفادني ليمبوس أنه تلزمها بضعة إصلاحات بسيطة. فسألت الربان هل لديه المؤونة والملابس الصيفية والنقود اللازمة؟ فتبين لي أن ثمة نقصاً في المؤونة والملابس. وكنت أرى أنه من اللازم أن تحوي خزانة السفينة ما يسدّ العوز المالي ثلاثة أشهر على الأقل لئلا تعترض الضباط مصاعب مالية في الطريق، فطلبت من الربان أن يرسل نائبه والمحاسب إلى الوزارة لسد النقص أثناء الليل ليستطيع السفر في الميعاد المضروب في الغد. ثم عدت بنفسي إلى الوزارة وطلبت فتح المخزن في الليل وتسليم المؤونة والملابس الصيفية اللازمة، وأمرت - بالرغم من معارضة موظفي الحسابات - بإعطاء المدفعية مبلغاً على الحساب. وأول ما عملته عند ذهابي إلى الوزارة في الصباح هو أنني سألت هل سافرت السفينة فعلاً؟ فعلمت، وكانت دهشتي شديدة، أنها لم تبحر بعد. فأرسلت في طلب الربان في الحال وسألته عن السبب. فقال: «يا أفندمّ! إن نائبي ومحاسبي لم يعودا إلى السفينة بعد، فلم أجرؤ على السفر من دونهما!». فعاقبته في الحال بخفض راتبه إلى النصف وعينت آخر مكانه، ووضعت اسم نائبه في القائمة العامة، وكلفت المحاسب بمرافقة السفينة مع أنه كان عاهد نفسه ألا يذهب إلى البحر الأسود بحال ما.

ثانيها: كان يوم عيد قبل نشوب الحرب العالمية، فأردت أن أعرض ضباط الأسطول وبحارته فأصدرت الأوامر إليهم بالحضور جميعاً في ساعة معينة في الميدان قبالة وزارة البحرية، وقد أمطرت السماء صبيحة ذلك اليوم، فلم يمنعني ذلك من الذهاب في الوقت المعين إلى مكان العرض باللباس الرسمي، ولكن لم يحضر أحد. وما كدت أترجل من سيارتي حتى خرج طاهر بك قائد الأسطول العام ولفيف من ضباطه من مصلحة القرن الذهبي[1]، فلما سألته عن سبب تخلف رجال الأسطول عن الحضور أجاب: «يا أفندم! حسبت أنك ستتخلف لرداءة الجو، وعلى ذلك لم آت بالرجال لتفادي بللهم بلا جدوى». فأمرت بسجن طاهر بك ثلاثة أيام لتخوفه من البلل، وبعد أسبوع كلفته الاستقالة.

ثالثها: في خلال سنة ١٩١٦ زرت استانبول لأمور تتعلق بالجيش الرابع، وكانت البينة قد قامت على ارتكاب أحد الضباط البحريين جريمة النصب لأكثر من مرة، ولسوء الحظ وقع ذلك في الوقت الذي بدأ



أحواض القرن الذهبي في عهد السلطان محمد رشاد

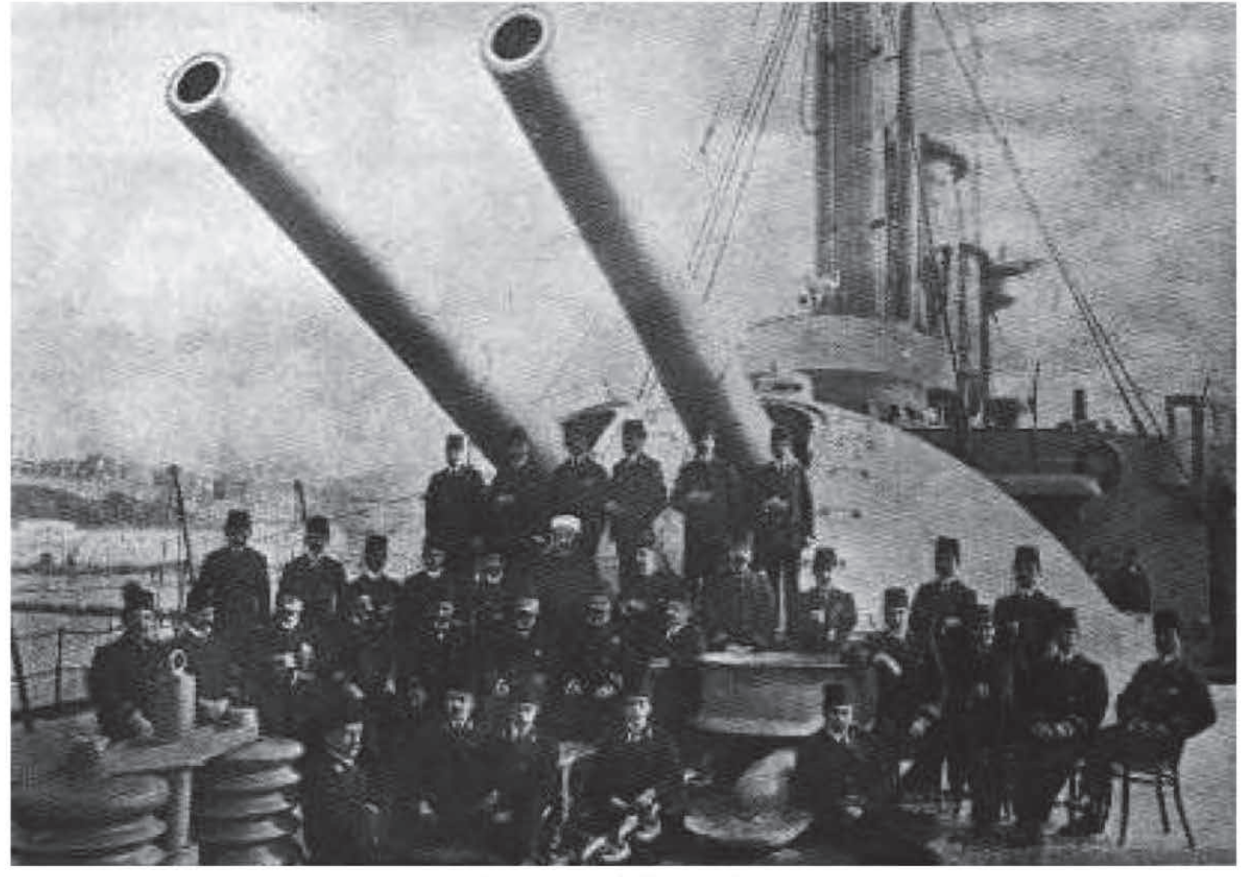
تدهور القوة المعنوية في الجيش والأسطول. فأردت أن أمثل بالمجرم فسلمته إلى المحكمة العسكرية وطلبت محاكمته سريعاً. ولكن المحكمة برّأته على الرغم من أدلة الإثبات العديدة. مع أنني ورؤساءه كنا واثقين من جريمته. فاضطررت إلى احترام الحكم الذي نطقت به المحكمة العسكرية بيد أنني قررت وضعه في عداد المستقيلين. ثم خفضت راتب إسماعيل بك رئيس المحكمة العسكرية وبعض أعضائها إلى النصف لقصورهم وعدم تقدير المسائل الخاصة بالشرف العسكري.

رابعها: عدت إلى استانبول بعد تسريح ضباط الجيش الرابع. فإن الصلح مع روسيا كان قد وُقّع واستأنفت السفن التجارية حرية العمل في البحر الأسود. فرأيت لزاماً عليّ إعداد المدرعة رشيد باشا التي كانت تستعمل من قبل مخزناً للرجال القائمين بتدريبات على ظهر السفينة ياوس. وبعد مشاق عديدة حصلت على السفينة من أمير البحر العام وأمرت بإرسالها إلى الميناء الداخلية.

وفي الغد حضر إليّ واصف بك نائب ربان وأخبرني بأن رشيد باشا التي أصلحت إصلاحاً تاماً قبل أيام في حالة سيئة. وطلب إليّ أن أضع حداً لإهمال الربابنة والقادة وإلا كان تدهور الأسطول في القريب العاجل أمراً مقضياً. فأرسلت في الحال في طلب رئيس القسم الثاني فأكد الخبر. فكلفت رمزي بك قومندان القرن الذهبي أن يصعد إلى سطح رشيد باشا ويكتب تقريراً وافياً عن حالتها وأن ينبئني بأسماء المسؤولين بين رجال السفينة عن ذلك.



بارجة خير الدين بربروسا رافعة العلم العثماني



على متن البارجة بربروسا

وفي اليوم التالي قدم تقريره الذي أثبت مسؤولية الربان ونائبه. فذهبت تواً إلى السفينة بنفسي ومعي واصف بك وحامد بك. فتيقنت من ملاحظتي الشخصية أن البحارة قد رسموا وخطّوا أشياء فاحشة على أبواب حجر الضباط وأن هؤلاء سمحوا بذلك. وأن حجرة طعام الضباط أصبحت في حالة لا توصف. فأمرت في الحال بعزل الربان وسجن وكيله أسبوعين. وأذعت منشوراً بأنه لو وقع مثل ذلك مرة أخرى في أي سفينة لكن الجزاء طرد الربان والوكيل من الخدمة في الحال.

إن الربان حقي الذي كان ينتظر العودة إلى منصب قومندان السفينة ياوس. مع أنه كان ضابطاً على جانب عظيم من الأمانة والعلم والجد. كان قليل الخبرة بما تتطلبه مهنته البحرية. وأحسب أنه لم يقدّر تماماً أن القومندان مسؤول عن كل شيء وعن كل شخص على ظهر سفينته.

وقد ساد بين ضباط البحرية رأي فاسد مؤداه أن النائب هو المسؤول وحده عن النظافة والنظام ونحوهما. وهذا الرأي صحيح إلى حد ما. بيد أن النائب مسؤول أمام ربانه فقط. وهذا أيضاً مسؤول لدى قائد الفرقة أو القائد العام.

ويظهر أن كثيراً من ضباطنا البحريين لم يدركوا بعد أن المسؤولية النهائية إذا لم تحصر في الربان فليس ثمة وسيلة لضمان وحدة القيادة في البحر. وقد زعم بعض ضعاف الرأي أن السبب الحقيقي في عزل الربان حقي هو لصداقته المتينة مع الضباط الألمان. ويصعب أن يتصور الإنسان خرافة أشد كذباً من هذه. ومن الحمق نسبة مثل هذه التهمة إليّ وأنا الذي كنت أُعتبر من أشد أنصار النظام ومن القائلين بضرورة توثيق عُرى الصداقة بين الضباط الأتراك والألمان.

وكثيراً ما لجأت إلى هذه الوسائل كلما رغبت في رفع المستوى الأدبي بين ضباط البحرية. وسأفصّل ذلك لدى عودتي إلى داري حيث أتمكن من الاستشهاد بالسجلات فأستطيع إتمام مذكراتي. وخصوصاً بشأن الحقبة التي توليت فيها وزارة البحرية.

تعجيل بناء السلطان عثمان ورشادية وإنشاء المصانع
تأسيس حوض للسفن الحربية وميناء في أزميت

لم أكد أتسلم زمام الأعمال في وزارة البحرية حتى شرعت في إصلاح مدرعاتنا (بربروسا) و(طورغود) و(مسعودية) وتجديدها بقدر ما سمحت به مواردنا القليلة. وكنت أشرف يومياً بنفسي على أعمال الإصلاح. ووجهت اهتمامي كله إلى إزالة أي معوق يحول دون ذلك.

وكان جلّ اهتمامي أن أرى السلطان عثمان التي أوشك أن يتم بناؤها في أحواض إنكلترا تمخر عباب بحر مرمرة. وأحدد وقتاً معيناً لتسلّم المدرعة رشادية التي أوصينا بها قبل نشوب الحرب مع إيطاليا. والتي كثيراً ما أجّل إتمامها من وقت إلى آخر.

ولم تستطع المصالح المختصة لأكثر من ستة أشهر أن تجيب واصف بك ورؤوف بك جواباً شافياً على طلبهما إدخال بضعة تغييرات في السلطان عثمان ورشادية. وإذ كنت أرغب في تعرف الحقيقة بنفسي



حسين رؤوف (١٨٨١-١٩٦٤)
(Rauf Bey) Orbay

ولد في استانبول. بداية درس في ليبيا في مدرسة عسكرية حيث كان والده والياً. وتخرج في الأكاديمية البحرية في استانبول. انضم الى البحرية التركية بعد تورطها في اليمن وساموس وشارك في حرب تركيا ضد الايطاليين في ليبيا. وفي الحرب البلقانية الثانية استحق رتبة قبطان بعد معارك ضد السفن اليونانية في شرق البحر المتوسط وهو على دارعته «الحميدية» لمدة ٨ أشهر. عندما اشتعلت الحرب العالمية أُرسل كمندوب خاص الى افغانستان ليضمن وقوف الافغان إلى جانب تركيا. رؤوف بك كان عضواً نشيطا في المنظمة السرية «التشكيلات الخاصة» وقام باتلاف الوثائق والاوراق الرسمية ذات العلاقة بالمنظمة كي لا تقع بايدي خصومهم وتدينهم. انور باشا عينه قائداً للجبهة الايرانية قبل ان يكمل مهمته في افغانستان. بعد رجوعه عُيِّنَ رئيساً لهيئة اركان البحرية التركية. سنة ١٩١٧ قاد الوفد التركي للمفاوضات التي جرت في الدانمرك مع الروس بشأن تبادل أسرى الحرب. رؤوف بيك كان عضواً في الوفد التركي في مفاوضات معاهدة بريست - ليتوفسك سنة ١٩١٨ بمقتضاها أعلنت روسيا انسحابها من الحرب. رؤوف بيك وهو آخر الاتحاديين عين وزيراً للبحرية التركية في وزارة احمد عزت باشا في ١٤ تشرين الاول/أكتوبر ١٩١٨. بدلاً من احمد جمال باشا الذي غادر البلاد. بعد اسبوعين وقّعت المعاهدة في مودروس أيضاً ترأس الوفد التركي. في ايار ١٩١٩ انضم حسين رؤوف بيك الى مصطفى كمال في تنظيم المقاومة الوطنية في الاناضول واصبح أحد قادتها. أوقف من قبل البريطانيين عندما احتلوا العاصمة استانبول وسجن لسنة في مالطا. في ١٦ آذار ١٩٢١ أُطلق في عملية تبادل الأسرى. بعدها اصبح رؤوف عضوا في البرلمان وأخذ موقف المعارضة ضد مصطفى كمال. وعصمت إينونو. استقال في ١٩٢٣/٨/٤ وشارك في تأسيس حزب الجمهورية التقدمي الذي ترأسه موسى كاظم قره بكر. أغلق هذا الحزب سنة ١٩٢٥. بسبب الضغوط المتزايدة عليه سافر الى النمسا للعلاج. في ١٩٢٦/٦/٢٦ بسبب مشاركته في العملية الفاشلة لإغتيال مصطفى كمال أمر بحبسه عشر سنوات على الرغم من نكرانه بحجة انه كان غائباً. رجع الى تركيا سنة ١٩٣٥ بعد موت مصطفى كمال اتاتورك وعصمت إينونو أصبح رئيساً وتهمته أسقطت. مرة أخرى. شارك في الحياة النيابية وأرسل إلى بريطانيا كسفير لتركيا سنة ١٩٤٢ استقال بعد عامين بسبب إشكال مع وزارته في استانبول. تقاعد وقضى بقية حياته في استانبول حتى وفاته في ١٩٦٤/٧/١٦.

طلبت إلى رؤوف بك وواصف بك اللذين كانا في لندن أن يحضرا إلى استانبول، وكنت جمعت كل الوثائق التي أرسلتها المصالح المختصة فأمرت بإحضار جميع الخبراء إلى الوزارة. وبعد البحث مع أمير البحر ليمبوس أعطيت كلاً منهم التعليمات المطلوبة. ثم حررت خطاباً إلى شركتي السفن وطلبت إليهما تحديد موعد تسليم السلطان عثمان ورشادية.

ولما كان رؤوف بك قد كتب إليّ طالباً إرسال بعض البحارة لمعاينة السلطان عثمان وللتثبت من آلاتها المعقدة، قمت في الحال بانتخاب فريق من الضباط الصغار والبحارة وأرسلتهم إلى إنكلترا على ظهر رشيد باشا برئاسة الربان إسماعيل قومندان القرن الذهبي.

وطلبت إلى رؤوف بك وواصف بك أن يكفا عن المطالبة بإدخال تغييرات أخرى في هاتين المدرعتين حتى تستطيع الأحواض في النهاية تسليمهما إلينا في التاريخ المحدد. ثم أرسلت الضابطين إلى لندن.

وفي حقبة شوروك باشا بدأنا التفاوض مع شركتي فيكرز وأرمسترونغ لتحويل مصنع سفن القرن الذهبي إلى مصنع سفن حديثة (على أحدث طراز) وأحواض عائمة في خليج أزميت، وقد جهزت الرسوم الخاصة بذلك.

ونظراً إلى أهمية هذه المسألة قررت تسويتها نهائياً فطلبت إلى الشركتين أن ترسلا مندوبين عنهما إلى لندن، وعلى ذلك ذهب إلى العاصمة الإنكليزية السيد فنسنت كيلارد أحد أعضاء اللجنة الإدارية ومديرا الشركتين المذكورتين.

وقد عيّن الكونت أوسترو روغ - أحد محامي استانبول - مستشاراً قضائياً للشركتين، وعيّنت وزارة البحرية النائب حالجيان أفندي ليكون مستشاراً لها.

وبعد اجتماعات متعددة - حضرها أيضاً مستشارونا القضائيون - وضعت صيغة العقد النهائية، ومع أنني أعترف أن العقد تضمّن بضعة بنود كان فيها شيء من الغبن لنا، فقد عظم سروري لاعتقادي أنه لن يمضي بنا وقت طويل حتى نرى لدينا مصنعاً لصناعة السفن وأحواضاً للبناء وموانئ ومصانع من أحدث طراز.

وكانت العادة التي رسخت في نفسي منذ دخولي الخدمة هي تنفيذ ما تقرر الحكومة بلا توانٍ.

ولقد تقرر بعد إبرام الاتفاق مع فيكرز وأرمسترونغ أن يعهد بتجديد مصنع القرن الذهبي إلى لجنة مكونة من ممثلي وزارة البحرية وهاتين الشركتين بزعامة مدير عام إنكليزي. وفي يقيني - برغم ما يزعمه غيرنا - أن ذلك المشروع لو نفّذ بحذافيره لعاد على البلاد بفوائد جمة.

أما نزاهة المدير العام ومقدرته والكفاية التي أظهرها فقد ملأت نفسي اغتباطاً وسروراً. وكنا على اتفاق تام فيما يتعلق بالمشروعات الموقتة (لتحسين المصانع والأحواض) التي أعدّها بعيد وصوله إلى استانبول. ولأضربن مثلاً على استقامته.

فالعقد المبرم بين الشركتين والحكومة قضى أن تقدم هذه الأخيرة المال اللازم لبناء دار المصنع الجديدة في خليج أزميت.

فبعد بحث على مدى شهرين التفت إليّ المدير العام قائلاً: «إن موقع هذه الدار التي في القرن الذهبي جيد بصفة خاصة، حتى إنني لا أرى سبباً مطلقاً لنقل دار صنع الأسطول العثماني إلى أزميت. فلو انقلب البناء الحاضر إلى مصنع حديث وأدخلت على الأحواض بعض التحسينات لأصبح ممكناً بناء أكبر مدرعة في أحواض القرن الذهبي بعد أربعة أعوام على أكثر تقدير. وعلى ذلك أستحسن إغفال إنشاء دار صناعة أزميت وحصر كل جهدنا في تحسين دار صناعة القرن الذهبي، وفي استطاعتنا أن ندرك تلك النتيجة بقليل من المال. وإني أعدك بالسعي لإقناع الشركتين بهذا الرأي».

ولسوء الحظ نقلت صحفنا في بدء الحرب العالمية أخباراً كاذبة عن الصحف الألمانية، ومؤداها ان المدير العام نزع من سفننا - تنفيذاً لتعليمات البعثة البحرية الإنكليزية - الأجزاء المهمة فيما أوشكت أن تُصلَح، وهذا جعلها غير مناسبة للعمل بمواصفاتنا. وكنت حين ظهور تلك الشائعة في مركز الجيش الرابع، ولما كنت أعلم أنها تناقض الواقع تماماً (لأن البعثة البحرية الإنكليزية وضباط الشركتين الذين تكفلوا بتنظيم دور صناعة سفننا وجعلها حديثة قد أنجزوا مهمتهم بكل أمانة وإخلاص). طلبت إلى أنور باشا أن يكذبها باسم وزارة البحرية لأنه كان وقتئذٍ قائماً بشؤونها موقتاً، ولا أعلم حتى الآن إن كان التكذيب نشر فعلاً أو لا.

ولسوء الحظ انتشرت تلك الفرية بسرعة مدهشة، وقد رأيت من ظهورها في صحف عديدة أنها كانت سبباً في الحملات الشديدة التي وجّهت ضدنا وضد الألمان.

وإني لأراني ملزماً أدبياً أن أؤكد هنا مرة أخرى أن ضباط البعثة البحرية الإنكليزية بقيادة أمير البحر ليمبوس والمهندسين والعمال الإنكليز الذين أَنَطْنا بهم تنظيم دار صناعة السفن بالقرن الذهبي قاموا بواجبهم بمنتهى الأمانة. أما ثقتي بأمانتهم فقد بلغت حدّ أنني عهدت إليهم وضع خطوط الطوربيد في الدردنيل والبحر الأحمر، كما كلفتهم البحث عن أنسب المناطق لزرعها بالألغام والوسائل الملائمة. وقد ألحقت بحاشية ليمبوس ضابطاً تركياً وضابطاً من سفن الطوربيد. وقد وضعت خطوط الطوربيد الأولية في الدردنيل بناءً على هذا الاتفاق.

وإذا أردت أن يؤدي كتابي هذا إلى إظهار الحقائق يتعين عليّ ذكر الحادثة الآتية. وهي أنه في الوقت الذي أصبح فيه متوقعاً إقفال المضائق حضر إليّ ليمبوس ذات ليلة وقال:

«إذا كنتم تظنون أن إقفال المضائق بالألغام مجدياً فأنا أقترح عليكم أن تزرعوا ما شئتم من الألغام عند مدخل الدردنيل، ولكن يستحسن إبقاء البوسفور مفتوحاً ويجب توزيع العوامات فيه حتى يُظنّ أنه مليء بالألغام، ثم تصدر التعليمات لكل السفن بأنه يُحظّر عليها - بسبب إغلاق البوسفور بالألغام - العبور إلا بمساعدة الدليل. أما الروس الذين لا يعرفون أن ليس ثمة ألغام فلن يجرؤوا أبداً على اختراق المضائق. وقد لجأ الألمان في عام ١٨٧٠ إلى هذه الحيلة إذ أعلنوا أنهم زرعوا الألغام على طول شاطئ البحر الشمالي مع أنهم في الواقع لم يضعوا لغماً واحداً، ولكن ذلك الإعلان كان كافياً لإدخال الذعر في الأسطول الفرنسي فظل مبتعداً عن الشاطئ. أما إذا زرعتم الألغام في مضائق البحر الأسود فقد يفلت أحدها من مرساه بضغط التيار القوي فينحدر إلى القرن الذهبي، فإذا أصاب إحدى بواخر النقل أو الركاب ووقعت كارثة تكونون حمّلتم أنفسكم مسؤولية عظمى في نظر الرأي العام في أوروبا كلها».

فشكرت لأمير البحر تحذيره هذا وأخبرته أن الإنسان لا يمكنه أن يعوّل دوماً على نجاح حيل كهذه، كما أنه لا يمكن مقارنة البوسفور بشاطئ البحر الشمالي، فلو علم قائد أسطول العدو الحقيقة واخترق المضائق لكانت النتيجة ضرراً عظيماً لا يمكن إصلاحه.

ولست أبحث هنا إذا كان أمير البحر عرض اقتراحه مراعاةً للحال السياسية السائدة إذ ذاك أو أنه كان فقط يعرب عن رأيه الفني، ولكن لثقتي بنزاهته ولكونه لم يقترح الاقتراح عينه بشأن الدردنيل (حيث للأسطول الإنكليزي القوة الساحقة) فإنني ميال إلى الاعتقاد أن هذا الاقتراح كان لأسباب فنية.

وكان الشطر الثاني من مفاوضاتنا مع مديري فيكرز وأرمسترونغ اللذين حضرا إلى استانبول بشأن مدرعة من أحدث طراز وطرادين خفيفين وست نسافات وغواصتين.

أما الاتفاقات المتضمنة للمطالب التي قدّمها خبراؤنا الفنيون وخبراء ليمبوس فقد التزمت بها الشركتان، ثم وقّع الفريقان العقود ووُزعت صور منها. وأوصينا أيضاً بالذخيرة اللازمة، لا لسفننا العتيقة فحسب، بل للمناورات وتدريب جيوشنا وللحرب نفسها. وسمينا المدرعة الفاتح، وأنيط بالقومندان حمدي بك مباشرة بناؤها، وحدد نهائياً تاريخ اختبار السرعة القصوى للسلطان عثمان وقوة مدفعيتها.

وكان جلّ غرضنا من هذه الإجراءات أن يكون لنا أسطول متفوق على أسطول اليونان في أقرب فرصة، وقد بذلت جهدي في إزالة المصاعب التي كانت تحول دون تحقيق هذا المشروع.

وفي هذا الوقت أبدت فرنسا رغبة في بناء سفن لنا. وبعد مناقشة مع ممثلي شركة أحواض ومصانع حديد البحر الأبيض المتوسط الذين دعوتهم إلى استانبول أوصينا بصنع نسافات. كما عقدنا مع شركة كريسو اتفاقاً على بناء غواصتين. وتقرر أن تُبنى المدرعة الفاتح في اثنين وعشرين شهراً وأن تتم القطع الأخرى التي طلبنا بناءها في إنكلترا وفرنسا في ذلك التاريخ تقريباً. أما المدرعتان السلطان عثمان ورشادية فتقرر أن تسلّما إلينا، الأولى في آخر يوليو/تموز ١٩١٤ والثانية في بداية سنة ١٩١٥.

وسيكون لنا في سنة ١٩١٦ بمقتضى هذا البرنامج أسطول جديد قوامه ثلاث سفن من طراز مدرعة وطرادان خفيفان واثنتا عشرة نسافة وأربع غواصات وأسطول آخر من وحداتنا العتيقة، كي يتفوق الأسطولان على الأسطول اليوناني. وبالاتفاق التام مع ليمبوس أعددنا برنامجاً واسعاً لتدريب وتعليم البحارة الذين سيلتحقون بالسفن المشار إليها. ولكن اتجه اهتمامنا الأول إلى إصلاح سفننا القديمة وتجهيزها للبحر بأسرع ما يمكن. وكان ذلك هو أول اهتمام المدير العام الإنكليزي الذي كان قد تسلم زمام العمل، وأخيراً في ٢٢ يوليو/تموز ١٩١٤ شاهدت أسطولنا المكون من المسعودية وبربروسا وطورغود ينحدر من ميناء القرن الذهبي مع نسافاتنا القديمة وسفن الطوربيد. فأرسلت السفن إلى منطقة الجزر التي تقرر أن تجري فيها تمريناتها البحرية بقيادة ليمبوس.

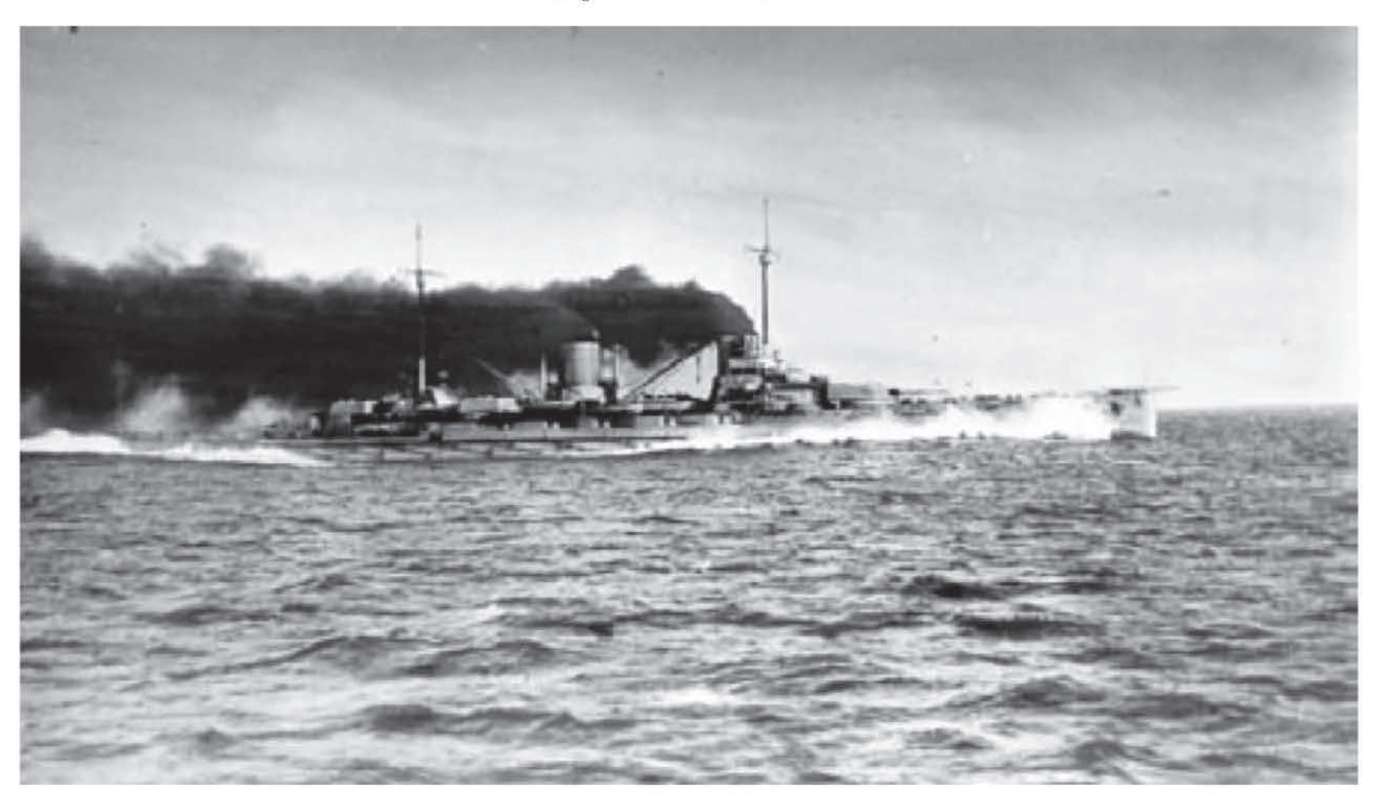
وقد أقلقت مجهوداتنا هذه بال اليونان فشرعت تقوي أسطولها، فأوصت فرنسا بناء سفينة مدرعة تسلم إليها بعد عامين، ومن ألمانيا ست نسافات وست سفن طوربيد. ولم يكن ثمة خطر علينا من بناء هذه السفن لأن السلطان عثمان ستصل إلى استانبول في أغسطس/آب، وبذلك يكتب لنا التفوق على الأسطول اليوناني، ثم لا يمضي أكثر من خمسة أو ستة أشهر حتى يزداد هذا التفوق ونصبح الرابحين لأن الفاتح



تلاميذ البحرية التركية مع ضباطهم

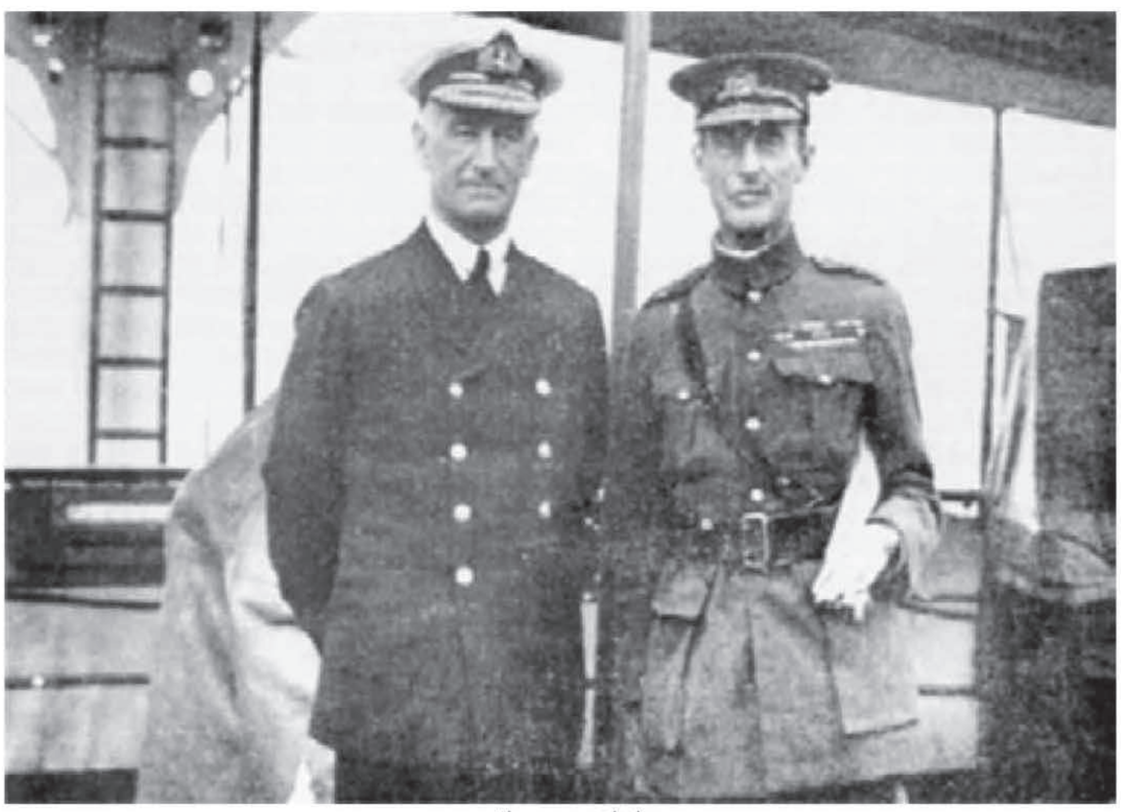
ستوازي المدرعة التي طلبت اليونان صنعها في فرنسا. وقد شعر اليونانيون بحرج مركزهم، فبذلوا كل جهودهم لمنع وصول السلطان عثمان إلى استانبول.

وبعد وصول غوبن في منتصف شهر مايو/أيار ١٩١٤ أرسلت إنكلترا قائدها العام لأسطول البحر المتوسط أمير البحر دي روبيك لتقديم تحياته إلى جلالة السلطان، فقدم على ظهر البارجة أنفنسبل. ولست أذكر تماماً هل سألني أمير البحر خلال زيارته الرسمية إلى وزارة البحرية أو في الاجتماعات العديدة بيننا فيما بعد عن الإجراءات التي اتخذناها لوصول السلطان عثمان إلى مياه استانبول سالمة. فقد أخبرني «أن اليونانيين يقلقهم وصول السلطان عثمان إلى المياه التركية، وأنهم يجهدون لحماية أنفسهم من ذلك الخطر، وقد صمموا بناءً على ما تلقيته من المعلومات أن يغرقوها في مضيق جبل طارق، هذا إذا أخفق معتمدهم في تحطيمها قبل إتمام اختباراتها النهائية في إنكلترا. وإذا أخفقت تلك المحاولة الأخيرة فسيهاجمونها بجميع سفن أسطولهم متى بلغت المياه اليونانية، إذاً حذار التواني إنْ أردتم الحصول على سفينتكم».



غوبن GOEBEN

غوبن سفينة حربية سميت بهذا الاسم نسبة لجنرال الحرب البروسية/الفرنسية أوغست كارل فون غوبن (١٨١٦-١٨٨٠). ثاني سفينة قتالية من فئة مولتكه في اسطول البحرية الملكية الالمانية. بنتها مصانع شركة (بلوم و فوص) في هامبورغ. نزلت مياه بحر البلطيق في ١٩١٢/٧/٢ بهدف اعتراض السفن الفرنسية والبريطانية وتدميرها، وتضاهيها في الكر والفر. لاحقاً جرى إلحاقها بالأسطول الألماني في البحر الابيض المتوسط مايدعم نفوذها ويقويه. لتقوم بهذ الواجب جرى تدعيمها بابراج سماكة تصفيحها بين ٣٥٠-٢٣٠ ملم وسطح سماكته ٧٦ملم وتدريع الجوانب الخارجية بين ٢٨٠-٢٣٠-١٠٠ ملم. لتضاهي السفن البريطانية من فئتها بحداثة تسليحها (قدراتها النارية). لذا سلحت بـ١٠ مدافع عيار ٢٨٠ملم، ١٢ مدفع عيار ١٥٠ملم، ١٢ مدفعِ عيار ٨٨ ملم، و٤ انابيب طوربيد ومئات الالغام. ولتعطيها التفوق على اعدائها جرى تزويدها بـ٤ مولدات توربينية طراز (بارسونز) تنتج جهدا ٥٨,٧٨٢ حصان في الساعة مع طاقة ٦٤ ميجاواط لتدفع سفينة وزنها ٢٥٤٠٠ طن. تستطيع ان تبحر ٧٦٣٠ كلم متواصلة بسرعة قصوى ٥٢ كلم/س. طولها ١٨٦,٦ متر، عرضها ٣٠ متر، غاطسها ٩,٢ متر. طاقمها مؤلف من ٤٣ ضابطاً و١٠١٠ بحار. ألحق بها سفينة اسناد خفيفة (برسلو). في ٨/١٢ جرى ضمهما للاسطول العثماني ورفعتا العلم التركي وسميت (ياووز) كلتاهما استخدمتا في توريط السلطنة العثمانية في الحرب الاوروبية العامة (الحرب العالمية الاولى) عندما قامتا بقصف المرافئ الروسية في القرم (اوديسا و سيباستوبول) في البحر الاسود بقيادة الاميرال سوخون في ١٩١٤/١٠/٢٩. بقيت في خدمة الاسطول التركي حتى عام ١٩٥٠.



هاملتون وروبيك

أما اليوم، فإني لا أرتاب في أن الغرض الذي رمى إليه أمير البحر من وراء نصيحته هذه هو إدخال الذعر في نفسي فأعدل عن المطالبة بحضور السلطان عثمان إلى استانبول قبل أن يتم بناء رشادية، ولكني ظننت وقتئذٍ أن نصيحته أملتها الصداقة وأنه لم يرد إلا لفت انتباهي إلى عظم المخاطر لإعداد الوسائل اللازمة للتغلب عليها.

والحقيقة أن التقارير التي وردتني من أعواني في إنكلترا وفي اليونان - باستثناء نصيحة أمير البحر روبيك - رأيت أنه من اللازم اتخاذ كل الوسائل الاحتياطية لضمان سلامة السلطان عثمان في إبحارها من إنكلترا إلى استانبول. وبعد البحث مع ليمبوس تقرر أن يطوّف أسطولنا أول أغسطس/آب في البحر المتوسط، حيث يقابل السلطان عثمان عند خط العرض الذي يمر بجزيرة كريت.

ولدى زيارتي فرنسا بمناسبة المناورات البحرية الفرنسية أرسلت في طلب رؤوف بك من لندن لمقابلتي في باريس وأسررت له تعليمات وضعها ليمبوس بصفته قائداً عاماً للأسطول، وقد رسمت في هذه التعليمات الطريق الذي تسلكه السلطان عثمان عند اجتيازها مضيق جبل طارق والموعد الذي تقابل فيه أسطولنا.

ولكن الحكومة البريطانية وضعت، لسوء الحظ، يدها في ٢١ يوليو/تموز على السلطان عثمان، وبذلك جرى القلم في صحيفة القدر ألا تخفق الراية العثمانية على تلك الدارعة العظيمة.



أحمد جمال باشا لدى مراقبته مناورات تجريها البحرية العسكرية الفرنسية قبل نشوب الحرب الكونية الأولى

محاولة إيجاد تفاهم فرنسي - تركي

تلبية الدعوة إلى زيارة فرنسا

ذكرت بإيجاز من قبل كيف أن جمعية الاتحاد والترقي بعد الحرب البلقانية قررت انتهاج سياسة إيجابية في الشؤون الخارجية والداخلية بدلاً من السياسة السلبية القديمة، وكانت حجتها ما تبين للملأ بأن تلك السياسة هي الطريق الأوحد لإنقاذ تركيا من المتاعب التي كانت تتهددها من كل جانب، ولتقويتها وإعطائها المركز اللائق بها بين الأمم.

ويخيل إليّ أنه من اللازم أن آتي من جديد على النقاط الأساسية في السياسة الإيجابية التي دفعت الحكومة إلى الاشتراك في الحرب العامة.

أما من وجهة السياسة الداخلية، فقد كان أهم ما شغل بالنا تقرير حقوق الأقلية - وهي عبارة مألوفة - وإيجاد تفاهم ودي بينهم وبين الأكثرية، وقد استطعنا أن نضع أساساً للتفاهم مع العرب كما أشرت إلى ذلك من قبل، وإن جاز القول إنه لم يرضِ سائر الساسة العرب فلا جدال في أن معظم مسلمي العرب الذين كانوا قلباً وقالباً منتمين إلى القضية الإسلامية عدّوه كافياً. وقد سويت مسألة الجنسية بشأن البلغاريين، بحيث لا يُرى بلغاري واحد داخل الإمبراطورية العثمانية.

ومن جهة أخرى فإن اليونانيين الذين وصل بهم الحمق[٢] إلى تسمية ملكهم كونستانتين الثالث عشر وطمحوا إلى إحياء الدولة البيزنطية، لم يتركونا في شك ما بأن ساعة الحساب الختامي معهم قد دنت، فإن علينا إعداد الوسائل الاحتياطية من الآن، حتى إذا حانت الساعة لا نصبح تحت رحمة خونة اليونانيين داخل حدودنا. فشرعنا في إبدال الرعايا اليونانيين في ولاية آيدين[٣] بمسلمي مقدونيا والجهات الأخرى، وقررنا المثابرة على تنظيم وتنمية الجيش والأسطول، ثم سعينا لعقد الاتفاقات مع الدول الأجنبية.



الملك اليوناني كونستانتين وفينزيلوس

ولكن المسألة الأرمنية كانت أهم مشكلاتنا الداخلية. ووددتُ لو أستطيع إقناع القراء بكل ما لديّ من الأدلة بأنها كانت المشكلة التي رغبت جمعية الاتحاد والترقي في حلها قبل غيرها بما يرضي الأرمن ويعود عليهم بالفائدة. وإني لأستطيع تقديم هذه الأدلة كما يمكنني أن آتي على الأسباب التي سدّت طريق النجاح، ولكنني أفضّل إرجاء الخوض في هذه المسألة المهمة إلى فصل خاص بها.

ولا يكاد إنسان يسمع بمشكلة أرمنية إلا ويرى من ورائها مشكلة روسية. ففي اجتماع لجنة يني كوى (المكونة من سكرتيري الدول العظمى الأولين) التي أنيط بها اختيار نوع الإصلاح المراد إدخاله.

في أرمينيا اعتاد السكرتير الأول الروسي التشبث بالحد الأعلى فيما أشار زميله الألماني إلى اتباع الحد الأدنى، واكتفى سكرتيرا إنكلترا وفرنسا من جهة والنمسا وإيطاليا من جهة أخرى بدور الوسيط. ولم تستطع اللجنة بعد اجتماعات كثيرة الوصول إلى نتيجة حاسمة فعرضت على السفارات التي تمثلها برنامجاً أعلى وبرنامجاً أدنى.

ثم استمر البحث فيما بعد في الباب العالي بين سفيري ألمانيا وروسيا والصدر الأعظم، فيما انسحب السفراء الباقون من الاشتراك الجاد في المسألة قائلين إنهم يقبلون أي قرار يتخذه السفيران اللذان يمثلان الحد الأعلى والحد الأدنى.

فأقنعتنا تلك المسألة بأننا إذا أردنا حقاً اتقاء شر روسيا، فليس لنا وسيلة سوى اكتساب عطف فرنسا وإنكلترا وخصوصاً الرأي العام فيهما. ولم يكن يخطر في بالنا مطلقاً أن يشب لظى حرب أوروبية، ولم يكن يدور في خلدنا أن ألمانيا قد تعلن الحرب على روسيا من أجلنا، بل كل ما جال في خواطرنا هو: «ماذا كانت ألمانيا تصنع لـمّا سمحت لحليفتها[٤] بالقضاء على أوهامنا بضمّها البوسنة والهرسك بعد إعلان الدستور[٥] ببضعة أيام؟ أليست إيطاليا التي هاجمت طرابلس بغتة هي حليفة ألمانيا ولو لم تكن حليفة موالية؟ ألم تعلن إيطاليا أنها حذت حذو النمسا؟ إن الألمان يريدون أن يستغلونا اقتصادياً، فهم لا يترددون مطلقاً - مهما عظم الثمن - في منع ما قد يهدد مصالحهم، فكل ما يرمون إليه من التدخل في مشكلة الإصلاحات الأرمنية ليس إلا لمنع النفوذ الروسي أن يمتد إلى ما وراء سكة حديد بغداد، وفيما عدا ذلك لا يعقل أن ينهض الألمان لمساعدتنا إذا تهددنا خطر». ذلك ما ظنناه.

وفضلاً عما تقدم ألم تعلن ألمانيا، في الوقت الذي أردنا الحصول على المال اللازم لإنعاش تركيا ونهوضها، بأنها عاجزة عن مساعدتنا ونصحت لنا الاحتفاظ بالعلاقات الحسنة بفرنسا وإبقاء الباب الذي نلجه للحصول على الأموال من مصارف باريس مفتوحاً؟.

فلهذه الأسباب اعتزمنا أن نوطد العلاقات الحسنة بفرنسا أولاً ثم بإنكلترا، أن نقيم لها الأدلة الإقناعية على أن غايتنا الوحيدة هي إدخال الإصلاح في بلادنا، ولنتثبت من حمايتهما لنا إذا هاجمتنا روسيا.

وكنا شديدي الاهتمام بأن تسفر المفاوضات بين وزارة الخارجية وحقي باشا عن تسوية نهائية لسائر المسائل التي كانت موضوع النزاع بيننا وبين إنكلترا، وكنا قد حددنا منطقتي النفوذ الإنكليزية والتركية في خليج البصرة وفي الجهة الجنوبية لشبه جزيرة العرب، وسوينا مشكلة عدن بطريقة أرضت إنكلترا.

ولم نعارض في طلب إنكلترا الخاص بمد سكة حديد بغداد إلى البصرة ولا في طرق الملاحة في نهري دجلة والفرات، ومنحنا شركات إنكليزية امتيازات النفط في العراق، وامتياز مد سكة حديد آيدين وإنشاء خطوط عدة جديدة، وتحسين ميناءي طرابزون وسمسون. وجئنا - كما ذكرت قبلاً - بمدير عام إنكليزي وبضعة مفتشين من الإنكليز لإصلاح وزارة الداخلية وتنظيم الخدمة الملكية، وعيّن السيد غريفز - الذي أقام في تركيا طويلاً - مفتشاً عاماً، وأنيط إصلاح نظامنا الجمركي بالسير ريشارد كراوفورد، وتقرر تعيين عدد من المفتشين الإنكليز في الجمارك.

ولا تنس أننا زدنا نفوذ البعثة البحرية الإنكليزية التي دعوناها إلى تنظيم أسطولنا وأننا بدأنا نجني ثمار مجهوداتنا. وقد أعرب لي السير لويس ماليت السفير الإنكليزي - الذي توطدت بيني وبينه عُرى الصداقة - عن شكر ليمبوس لي وتوسمه مستقبلاً باهراً للأسطول التركي. وعهدنا بتنظيم منشآت صناعتنا إلى شركتين إنكليزيتين، وأصبحت اللجنة الإدارية بزعامة السير آدم بلوك، وهو رجل اشتهر منذ زمن بعيد بتأييده لمبدأ الصداقة بين تركيا وإنكلترا.

ولطالما أبدى لي السير بلوك ارتياحه لعمل وزارة البحرية بالاتفاقية المبرمة بينها وبين الشركتين بدقة تامة، حتى قامت المسألة بسبب ذلك على أساس متين. غير أن إنكلترا أبت لسوء الحظ - بسبب معارضة روسيا - تلبية طلبنا بإرسال موظفين إنكليز لإدارة الولايات التي يقطنها الأرمن.

وإذ كنا نعزو نفور الشعب الإنكليزي من حزبنا السياسي إلى دسائس السكرتير الأول فتزموريس والملحق العسكري تيريل على عهد السفير السابق السير جيرالد لوثر، بادر الأمير سعيد حليم باشا بسؤال السفير الجديد السير لويس ماليت في التوسط في نقل هذين الرجلين من استانبول، فوعد السفير بإنجاز الطلب في الحال، وهكذا غادرا بلادنا بعد شهر، وتوطدت مذ ذلك العلاقات الودية بيننا وبين السفير الذي كان طيب الأخلاق أميناً شفوقاً. فوثّقنا الروابط الخاصة وسعينا لإزالة ما علق في نفوس الإنكليز من سوء التفاهم حيال الأتراك، مؤملين أن نجد وسيلة نعيد بها إنكلترا إلى سياستها السالفة التي كانت ميالة إلى مساعدة تركيا وتقويتها ثم تحولت بعد التفاهم الإنكليزي الروسي. وفضلاً عما بذلناه في استانبول من جهود لتوطيد العلاقات الودية بالسفير وحاشيته وعدد من رجال الجالية الإنكليزية، لم ندخر وسعاً لإيجاد صلات ود برجال كالسير توماس بيركلي وهو من أشد المعارضين للتفاهم الإنكليزي - الروسي ومن أنصار فكرة الصداقة الإنكليزية - التركية، وكثيرين غيره من الإنكليز الكبار. وقد عملت الحكومة هي وأعضاؤها بلا انقطاع بطرق رسمية وغير رسمية لتقوية الصداقة مع الإنكليز. كما أنها لم تدع فرصة إلا انتهزتها لإيجاد تفاهم مع فرنسا. فقد عهدنا منذ زمن طويل إلى الجنرال الفرنسي باومان بتنظيم الجندرمة ووسعنا تالياً دائرة نفوذه، ولكيما نرضي فرنسا طلبنا إليه القيام بتنظيم الجندرمة في لبنان الذي كان له مركز خاص.

ولما كان إنشاء الطرق داخل الإمبراطورية العثمانية قد نيط بشركة فرنسية، استخدمت وزارة الأشغال عدداً من المهندسين الفرنسيين وقررت زيادة رواتبهم.

ولكيما ننظم وضعنا المالي خوّلنا لجنة الإصلاح المالي نفوذاً واسعاً، وهي التي قبلناها منذ عهد قريب، وبذلنا ما في استطاعتنا حتى لا يعرض على مجلس المبعوثين قانون مالي إلا بعد موافقتها. وبما أننا قصدنا من وضع موظفينا الماليين تحت المراقبة المستمرة أن نغرس في نفوسهم الشعور بالمسؤولية والواجب، عيّنا فرنسياً هو السيد جولي مفتشاً عاماً لوزارة المال وشددنا أزره بعدد من المستخدمين الفرنسيين.

وقد بلغت بنا الرغبة في اكتساب صداقة إنكلترا وفرنسا أننا ما كنا لنتردد لحظة في أن نكلف بعثة فرنسية تنظيم جيشنا لو أن ذلك كان ممكناً. ولكنه كان حقاً أمراً مستحيلاً، أولاً لأن عدداً كبيراً من ضباطنا أتموا تعليمهم في ألمانيا وتمرّن الباقون منهم طبقاً للأساليب العسكرية الألمانية.



صورة الجندي التركي الحديث في هيئته الجديدة، ملبساً وتسليحاً وعتاداً، تلبيةً لمتطلبات الحرب المقبلة، بإدارة وإشراف وقيادة أنور باشا للقوات المسلحة، وضباط الهيئة الألمانية للإصلاح العسكري.

ومن الأمور التي أجمع عليها الخبراء استحالة تغيير نظام الجيش بغتة، وعلى الأخص إدخال أنظمة جديدة فيه بعدما تم تعليمه وتدريبه طبقاً لأسلوب خاص، وإلا أدى ذلك إلى فوضى كبرى. وثانياً لأننا طلبنا رسمياً من ألمانيا أيام وزارة شوكت باشا أن ترسل إلينا بعثة عسكرية لتنظيم جيشنا، فما عاد في وسعنا أن نتردد بعدها.

وفضلاً عما سبق فقد كان من أشد الحمق بمكان أن نُغضب دولة لا تقصد بنا شراً، لا لشيء سوى إرضاء حكومات أخرى ربما تفكر في الإيقاع بنا. فلهذه الأسباب لم نرغب في إلغاء ما تقرر بشأن الجيش، وضربنا بالضوضاء التي أعقبت وصول بعثة الجنرال فون ساندرس العسكرية عُرض الحائط.

وفيما نحن نقدم إلى الحكومة الفرنسية كل المزايا المادية التي طلبتها في مقابل القرض، سعينا من جهات أخرى لتحويل الرأي العام الفرنسي لمصلحتنا. من ذلك أننا، على الرغم مما قد يعترض به علينا من الوجهة الفنية من الحصول على دوارع حربية من طرز مختلفة، لم نتردد في طلب بناء ست نسافات في أحواض الهافر وغواصتين من شركة كريسو إرضاءً لفرنسا.

كما أننا بادرنا إلى طلب شراء بضعة مدافع جبلية فرنسية بعدما أكد لنا خبيرنا القائد حسن رضا باشا تفوقها على مدافع كروب(٦). وأننا عهدنا إلى الخبراء الفرنسيين بإنشاء مدرسة للطيران البحري. وأبرمنا مع شركة فرنسية اتفاقاً على صنع اثنتي عشرة طيارة مائية.

وأخيراً أنشأت بنجاح تام جمعية الصداقة الفرنسية التركية. وقررت أن تجتمع مداورة، مرة في استانبول برئاستي وأخرى في باريس، برئاسة وزير الخارجية الأسبق السيد كريبي. وعنيت بوضع قانونها لجنة في استانبول سميتها اللجنة التأسيسية. وكان بين أعضائها لفيف من الفرنسيين والأتراك الكبار. ولما وُضع البرنامج وأخطرت اللجنة وزارة الداخلية بأهدافها وأغراضها أقمت حفلة الافتتاح في النادي بدار الاتحاد الفرنسي في حي بيرا. وهناك شرع في انتخاب اللجان الفرعية. وكان البرنامج شاملاً بحيث لو نفذ بحذافيره لكان خير أداة لتحسين العلاقات الفرنسية - التركية تحسيناً تاماً في عام أو عامين.

وفي منتصف يونيو/حزيران ١٩١٤ زرت السفارة الفرنسية. فإذا بالسفير السيد بومبار يفاجئني بهذه العبارة: «إن الحكومة الفرنسية ترحب بالجهود الكثيرة التي بذلتها لتحسين العلاقات الفرنسية-التركية. وترغب في دعوتك إلى فرنسا للتعرف إليك وتقديمك رسمياً إلى الشعب الفرنسي. فهل تود الحكومة التركية أن ترسل إليك دعوة إلى حضور المناورات البحرية الفرنسية التي ستبدأ في منتصف شهر يوليو/تموز؟ إنني أريد التثبت من موافقتك قبل عرض الأمر على الصدر الأعظم».

فأجبته بأنني أقبل الدعوة بارتياح تام إذا رضي الصدر الأعظم وصرح جلالة السلطان.



عند بداية الحرب يبدو السفير الإنكليزي لوي ماليت إلى اليسار والسفير الفرنسي بومبارد

ولم تمض أيام قلائل حتى أبلغ السيد بومبار الباب العالي رسمياً دعوة الحكومة الفرنسية. وفي هذا الوقت حدثت جناية سيراجيفو فسألت الصدر الأعظم تزويدي بالتعليمات اللازمة عن الخطة التي أتبعها في باريس، وخصوصاً عند اجتماعي بوزير الخارجية.



ولي عهد عرش النمسا والمجر فرديناند جوزف

فأجابني قائلاً: «إنك تعلم آراءنا السياسية جيداً، فلا يفوتنك أن تؤكد في كل مناسبة مقدار ما نعلق من الأهمية على صداقة فرنسا والمزايا التي نؤمل إحرازها من السياسة الفرنسية بشأن التسوية المنتظرة لمشكلة الجزر، وهي المسألة التي تهمنا جداً، فعليك أن تبذل كل وسعك في لفت وزير الخارجية إلى تلك المسألة الحساسة».

ثم غادرت استانبول مع ضابطين بحريين في أواخر يونيو/حزيران قاصدين باريس رأساً، فوصلت إليها في أوائل يوليو/تموز.



برنسيب منفذ الاغتيال



«برنسيب» القاتل.. يقاوم القبض عليه من قبل البوليس وأخذه للتحقيق معه

الجريمة تم تنفيذها بعد ظهر ١٩١٤/٦/٢٨ باغتيال الأرشيدوق ولي عهد عرش النمسا وزوجته في عاصمة الصرب سرايبفو التي كان لمسؤول المخابرات الصربية العقيد (ديمتريفتش) دور التخطيط والتمويل. وللطالب الصربي القومي المتطرف دور التنفيذ الذي مات في سجنه. أما العقيد فأعدم عام ١٩١٧ وكأن القوى السياسية الأوروبية المتنفذة كانت تنتظرها إشارة مبررة وسبباً مباشراً لإشعال فتيل الحرب العالمية الأولى (المصدر: موسوعة الحرب العالمية الأولى. وعمر أبو النصر).

وفي باريس رأيت رؤوف بك وواصف بك وكنت أمرتهما بمقابلتي. ولما أعطيت رؤوف بك التعليمات لتحديد موعد اختبارات السرعة وتجربة مدفعية السلطان عثمان في أقرب فرصة متاحة أخبرني أنه لحظ وجود حالة مقلقة وغريبة بين الإنكليز. فهم لا يفتأون ينتحلون المعاذير كل يوم لتأخير إنجاز المدرعة وتسليمها.



السلطان محمد الخامس رشاد محاطاً بحرسه لدى ذهابه إلى صلاة الجمعة

فأجبته بأن الحالة تقضي علينا استعمال اليقظة التامة في تلك المسألة. إذ إن الحصول على المدرعة بأسرع ما يمكن ضروري جداً.

وقد أبلغتنا الشركة المكلفة بناء المدرعة أنها لا تستطيع في الوقت المتفق عليه سابقاً تركيب مدفعين من المدافع الأربعة عشر التي تتكون منها مدفعية المدرعة. فأصدرت لرؤوف بك تعليمات عدة في ذلك الصدد. وأجبت عن خطاب الشركة قائلاً إننا نسمح بإجراء الاختبارات من دون المدفعين المذكورين اللذين يمكن تركيبهما في استانبول. وكلفت رؤوف بك العودة إلى إنكلترا وأبقيت معي واصف بك.

وبعد يومين قضيتهما في باريس ذهبت إلى طولون فقابلت أمير البحر لابيرير القائد العام للأسطول الفرنسي. فاصطحبني إلى مدرعته كوربت. ولن أنسى ما حييت تلك الأيام الثلاثة بلياليها التي قضيتها في الأسطول قرب شاطئ الريفيرا البديع. كما أني لا أستطيع أن أوفي أمير البحر حقه من الثناء على ما أظهره نحوي من كرم وحفاوة ثم استعرضنا البحارة.



الأميرال لابيرير



الرئيس ريموند بونكاريه

وبعد مضي الأيام الثلاثة ودعت أمير البحر وعدت بطريق السكة الحديد. فقضيت أربعة أيام أجول في مصانع المدافع والبنادق وبناء الغواصات. وعدت إلى باريس. ولم تفتني زيارة أحواض الهافر قبل يوليو/تموز.

وخلال إقامتي في باريس قابلت وزير الخارجية فيفياني مرات عدة. فنظر إلي في المقابلة الثانية نظرة ذات مغزى وفاجأني قائلاً:

«يا صاحب السعادة. رغماً عن رغبتي الشديدة في مباحثاتك في أمور عدة مهمة جداً فإن المناقشات الدائرة في مجلس النواب تشغلني. حتى إنني لا أستطيع الالتفات إلى أي شيء آخر. فمهمّ جداً أن أصحب رئيس الجمهورية(٧) إلى روسيا. بيد أن الاشتراكيين سيعارضون ذلك وسيرفضون حتماً التصويت للاعتماد اللازم للسياحة. وقد زودت السيد مارجيري مدير الشؤون السياسية في الوزارة التعليمات الكافية وطلبت إليه أن يبحث كل شيء مع سعادتك. وأكون شاكراً لك لو تفضلت بتلبية رغبته في مقابلتك». فظننت أن آمالي ورغباتي وشيكة التحقيق وطرت فرحاً لذلك الطلب. وما أسرع ما قابلته في وزارة الخارجية!.

فأول ما أبلغنيه السيد مارجيري هو أن الحكومة والشعب قابلا بابتهاج تام المساعي التي بذلتها لإيجاد تفاهم بين تركيا وفرنسا. وأن ما علق من سوء التفاهم في نفوس الشعبين يمكن أن يقال إنه زال تماماً.

فقاطعته قائلاً: «أتسمح يا جناب المدير بالدخول في الموضوع رأساً؟ إنك تعلم تماماً الضعف الذي اعترى الإمبراطورية العثمانية عقب الهجمات العديدة التي شنّها أعداؤها. فهي لم تخرج من الحرب البلقانية منهوكة القوى فحسب بل إنها أرغمت على التضحية بكل أراضيها في أوروبا عدا معظم الجزر. وإننا الآن نواصل السعي لمعالجة الجرح النازف وبعث روح جديدة في الشعب. على أن الحالة السياسية الحاضرة تكاد تجعل كل هذه المساعي أضغاث أحلام. فتُرانا مسوقين للتخلص من ذلك الموقف الخطير.

إنني أريد أن أخوض أولاً في مسألة الجزر التي هي موضوع النزاع بيننا وبين اليونانيين. فأنتم تظنون أن الكياسة تقضي بمساندة اليونانيين وإيلائهم عطفكم على أمل الاستفادة منهم في المستقبل. ولكنك لو تفضلت بإلقاء نظرة على الخريطة لرأيت أننا قد نكون يوماً ما أنفع لكم منهم. إن الحكومة العثمانية تظن أن الغاية التي تهدف إليها سياسة فرنسا وإنكلترا هي تطويق دولتي الوسط بحلقة حديد. وهذه الحلقة مفرغة ما عدا الجنوب الشرقي. فلو انضمت تركيا إلى مشروع الحلفاء لاضطرت بلغاريا التي تجد نفسها وقتئذٍ في عزلة في البلقان إلى الانضمام أيضاً.

فإن أرادت فرنسا أن تكون الحلقة مفرغة فلتفكر في تسوية مسألة الجزر. فعليكم أن تضمّونا إلى تحالفكم وأن تَقُوْنَا في الوقت نفسه تجاه الأخطار التي تتهددنا من جهة روسيا.

إنكم إن أيدتمونا في جهودنا أصبح لكم حلفاء أمناء في الشرق!! إن جناية سيراجيفو قد تؤدي كما يخيل إليّ إلى حرب عالمية. فضروري جداً في ظروف كهذه أن تُبَتَّ هذه الأمور بأقصى سرعة!!».



برنسيب القاتل في المحكمة

وكان اقتراحي صريحاً جلياً. فينبغي في مسألة الجزر وضع تسوية تقبلها اليونان وتركيا على السواء، ويعقب ذلك عقد تحالف مع تركيا، ووقتئذٍ تفقد ألمانيا كل صلة بالشرق.

فأطرق السيد مارجيري مفكراً ثم سألني عن التسوية التي نريدها للجزر، فأجبته بأنه يمكن منح الأرخبيل، بما فيه جزر الدوديكانيز (التي ينبغي لإيطاليا أن تردّها إلينا)، استقلالاً ذاتياً تحت السيادة العثمانية وتخصيص إيراداته للقيام بشؤونه، وفي الإمكان منحه امتيازات أخرى مع إعفاء سكانه من الخدمة العسكرية.

وختاماً أجاب السيد مارجيري قائلاً:

«أرى أن الاقتراح الذي عرضته فيما يختص بالجزر جدير بأن ينظر إليه بجد، لأن تسويتها - كما يتراءى لي - ممكنة على هذه القاعدة، وأراك قد أصبت المرمى في الطوق الحديد الذي نريد وضعه حول إمبراطوريتي الوسط، بيد أنه لا بد لنا قبل عقد تحالف معكم من الحصول على موافقة حلفائنا، وموافقتهم هذه مشكوك فيها. إن اقتراح الحكومة التركية هو، بلا جدال، في غاية الصراحة، وسأعرض ملاحظاتك هذه على حلفائنا قبل أن أصحب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في زيارتهما إلى روسيا، وسنرسل حتماً إلى سفيرنا كل التعليمات اللازمة متى وصلنا نحن وحلفاؤنا إلى قرار نهائي، ولسوء الحظ لا تستطيع الحكومة الفرنسية الآن أن تشرع في عمل ما وحدها».

ولم يُخف عليّ أن ذلك الجواب لم يكن سوى رفض مقنّع، فأدركت تماماً أن فرنسا كانت تعتقد أنه يستحيل أن نفلت من مخالب روسيا الحديد، فلذلك ضنّت علينا بالمساعدة.

وفي مساء ذلك اليوم، سألني صديقي جورج ريموند، الذي لازمني أينما ذهبت في فرنسا، عما إذا كنت مرتاحاً لنتيجة الاجتماع، فأجبته باختصار: «لم يكن يدور في خلدي أني سأحبط ذلك الإحباط المخزي».

وعندما غادرت باريس في ١٨ يوليو/تموز عائداً إلى استانبول سلّمني جورج ريموند، ونحن في المحطة، نشرة صغيرة بقلم كاتب فرنسي رمز إلى نفسه باسم مستعار، ومما فيها هذه الفقرة:

> *«لقد حضر جمال باشا إلى باريس وشهد مناورات أسطول البحر المتوسط، وبالغت السلطات الرسمية وشبه الرسمية في إكرام وفادته، حتى إنه أُنعم عليه بوسام شرف. كل ذلك حسن! ولكن ما قيمة تلك الوعود العملية التي يعود بها إلى بلاده التي يحبها ويجلها فوق كل شيء؟ لطالما سمعنا أن جمال باشا هو أحد القادة الأتراك الكبار المفتونين بحب بلادهم، فالمجاملات العديدة التي انهالت عليه لا يمكن أن تكون أنسته المزايا التي جاء إلينا مؤملاً تحقيقها، فإذا عاد اليوم إلى بلاده من دون أن يكون قدّم لها خدمة، فلا يحق لنا أن نتبرم إذا رأيناه يلجأ في المستقبل إلى وسائل قد لا ترتاح لنتيجتها فرنسا».*

فما أصدق فراسة ذلك الكاتب الفرنسي!

وما كدت أصل إلى استانبول حتى رفعت إلى الصدر الأعظم وإلى أصدقائي تقريراً مفصلاً بمحادثتي مع السيد مارجيري والنتائج التي وصلت إليها.

المعاهدة التركية - الألمانية

لم تبرم المعاهدة التركية - الألمانية في خلال الحرب كما اعتقد كثير من الناس، نعم إنها وقّعت في اليوم الثاني من أغسطس/آب ١٩١٤، ولكن المفاوضات كانت مستمرة بشأنها قبل الحرب بزمن. فبُعيد عودتي إلى استانبول سألني طلعت باشا قائلاً: «ما رأيك يا باشا لو أن ألمانيا اقترحت علينا عقد معاهدة على شروط كذا وكذا؟ أتوافق؟ ألا ترى أنت أيضاً أننا لا يمكننا التعويل على فرنسا في شيء؟ أمّا وقد رفضتنا فرنسا فهل ترفض اقتراح ألمانيا؟»

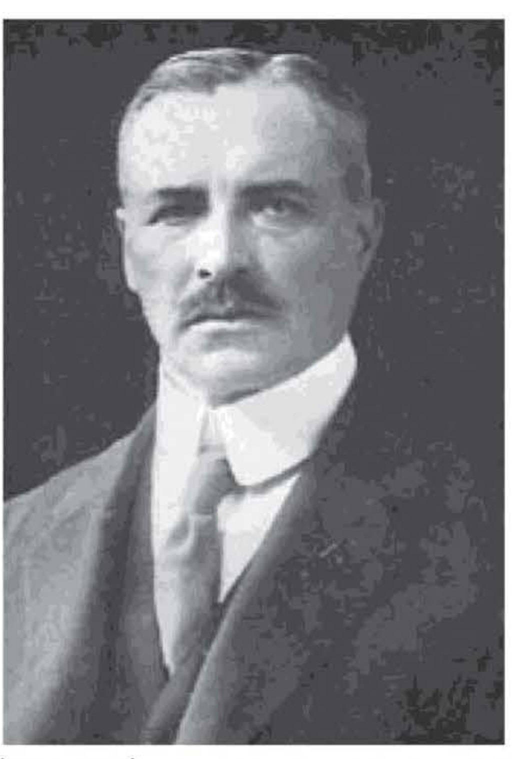
فأجبته: «لا أظنني أرفض تحالفاً ينقذ تركيا من عزلتها هذه».

وفي غضون الاستعراض العسكري العظيم في ٢٣ يوليو/تموز لمناسبة العيد الوطني، اقترب مني السفير الألماني البارون فون فانغنهايم قائلاً: «بربك انظر يا جمال باشا إلى النتائج المدهشة التي أحرزها ضباطنا في هذه المدة القصيرة! فلديكم الآن جيش تركي تمكن مقارنته بخِيرة جيوش العالم المنظمة. وقد أجمعت كلمة الضباط الألمان على إطراء الشجاعة الأدبية التي لدى الجندي التركي. والواقع أن البرهان قام عليها إلى أكثر مما كنا نتوقع، إذاً نعتبر أننا أحرزنا انتصاراً باهراً لو استطعنا أن نسمي أنفسنا حلفاء حكومة لديها ذلك الجيش المنظم!».

ولم يدُر في خلدي وأنا أقدم شكري إلى السفير أن المفاوضات كانت دائرة منذ زمن بعيد لعقد معاهدة تركية - ألمانية.



الجندي التركي الحديث تدريباً وتسليحاً وهنداماً



البارون هانز فرايهر فون فانغنهايم (١٨٥٩-١٩١٥)
Baron Hans Freiherr von Wangenheim

دبلوماسي ألماني، عمل سفيراً فوق العادة في المكسيك، شغل في أثينا سنة ١٩٠٩. احتل منصبه في تركيا كسفير لألمانيا من سنة ١٩١٢ حتى ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥. كان دائم الالحاح على أنور وطلعت بضرورة الاسراع في اشعال الحرب ضد الروس والفرنسيين والانكليز. ذلل الصعوبات المالية امام القيادة العثمانية لتمكينها أخذ قرار الحرب في سنة ١٩١٤ وإيجاد مبررات افتعالها.

اضطلع بمسؤولية الإعلام والدعاية للسياسة الألمانية في الشرق الاوسط، وكان يعاونه البارون اوبنهايم (بن حاييم) في متابعة نشاط الشبكة الالمانية للتجسس. في الوقت نفسه بدأت تتصاعد أعمال العنف ضد الشعب الارمني مع موجة عداء رسمية مبرمجة واسعة تدعو الى معاقبته، وتحت غطاء أخبار المعارك في جبهات القتال وضروراتها الامنية جرت عمليات منظمة (إبادة للشعب الأرمني) بأشكال مختلفة، حرق المنازل في القرى والمدن بسكانها، إلقاء متفجرات على متاجر الارمن، أحكام الاعدام المتواصلة، تنظيم قوافل لتهجيرهم من قراهم ومدنهم في أنحاء الإمبراطورية كافة وذبحهم في الطريق.

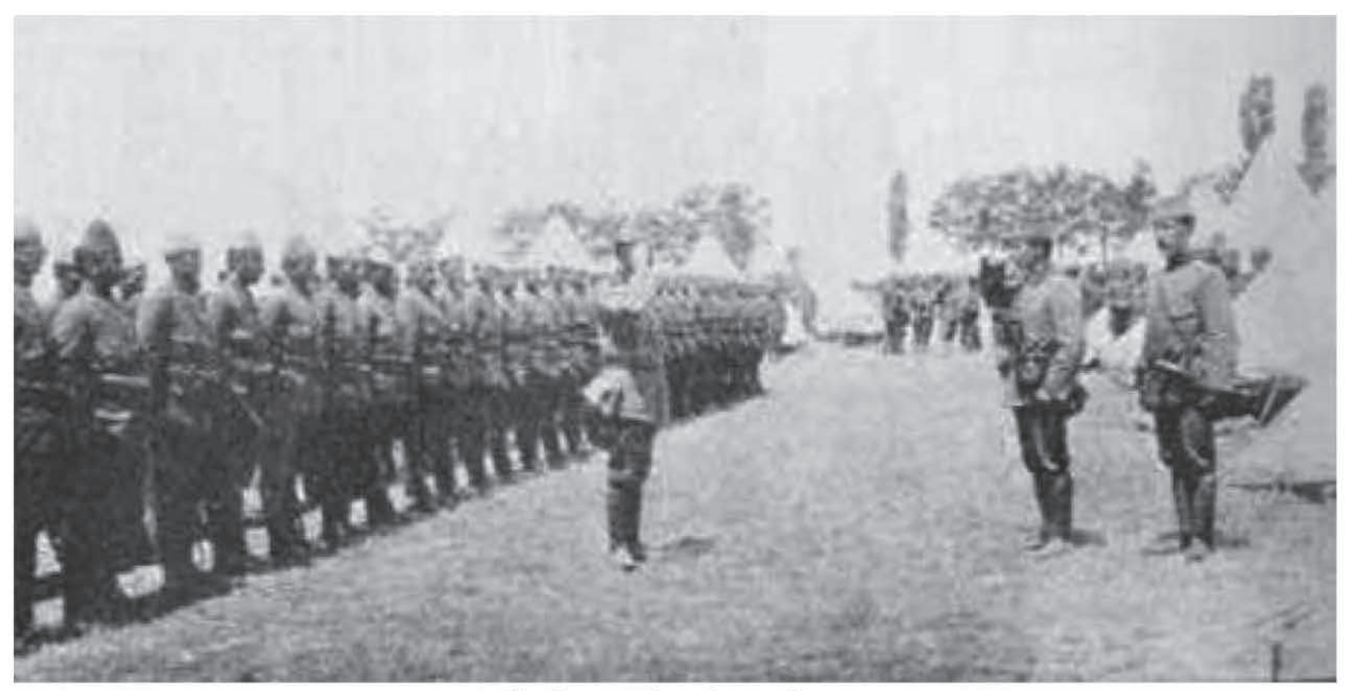
تصدرت أخبار هذه الجرائم الصحف الدانماركية والسويسرية والاميركية والفرنسية وبعض الصحف الالمانية، منددة وواصفة اياها بجرائم حرب موصوفة ومخطط لها، وأرفقت الصحف مقالاتها بتقارير موثقة مستنكرة، وانه لم يك يحصل لولا الدعم الالماني لجمعية الاتحاد والترقي الحاكمة في تركيا. هذه الأخبار عن التواطؤ التركي/الالماني. قام السفير فانغنهايم بالرد عليها باصداره مذكرة رسمية توضح الموقف الرسمي للحكومة الالمانية من المجازر، معبراً عن دعمه للمخاوف الامنية للحكومة التركية مبرراً لها بالضرورات الامنية الشرعية التي تبيح الاستثناءات، وان هذه الاجراءات تهدف الى صيانة الامن الداخلي لتركيا وحماية الجبهة الداخلية من أي عصيان أو حصول تمرد.

هنا مقطع من مذكرة السفير فانغنهايم التي نشرتها الصحف:

[["The measures of repression by the Imperial Government [Young Turks] against the Armenian population of the eastern Anatolian provinces having been dictated by military considerations and constituting a legitimate means of defense, the German Government is far from opposing their execution inasmuch as these measures have objective of consolidating the internal security of Turkey and avoiding attempts at insurrections".

"On the other hand, the German Government cannot disguise the dangers created by these rigorous measures and notably by the mass expatriations which include the guilty and the innocent indiscriminately, especially when these measures are accompanied by acts of violence, such as massacre and pillage"]].

توفي فانغنهايم في استانبول وشارك رجال الدولة العثمانية في توديعه الى مثواه في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٥.



وحدة عسكرية تركية في معسكر التدريب



مجموعات عثمانية مع رشاشات خفيفة

ولم تمر أيام قلائل حتى رأيت وأنا آخذ في ركوب سيارتي أمام المنزل في جهة شيشلي سيارة أخرى جلس فيها أنور باشا وطلعت باشا وخليل بك، وقد دارت حول حديقة عثمان بك إلى الشارع المؤدي إلى منزل أنور باشا، وكانت آتية من جهة ماسلوك. فعجبت كيف يجيئون إلى ذلك المكان في هذا الوقت، وكان مجيئهم على ما يظهر من ناحية قصر الصدر الأعظم في يني كوى، فتبادر إلى ذهني في الحال أن أصدقائي ربما كانوا يتناقشون في أمور لا يبغون إطلاعي عليها.

ولم يكن حدث إلى الآن ما يدعو إلى الشك، فلما عدت إلى المنزل سألت أنور باشا بالهاتف إلى أين كان ذاهباً في تلك الساعة المتقدمة من الليل، فأجاب إنه كان يقطع الوقت بزيارة الصدر الأعظم، وإذ قابل طلعت باشا وخليل بك عادوا معاً، فقويت شكوكي بسبب رده هذا.

ثم دعيت بعد ظهر اليوم التالي إلى حضور مجلس الوزراء في قصر الصدر، فلما أدركت كشك آيا باشا هطلت السماء مدراراً وقوي الريح حتى لم أستطع متابعة السير في سيارتي، ولم تشهد استانبول عاصفة كهذه منذ زمن بعيد، فعدت إلى وزارة البحرية وذهبت إلى يني كوى في زورقي البخاري.

فبادرني الصدر قائلاً: «أين كنت يا جمال باشا؟ انتظرناك طويلاً وقد انصرف الوزراء منذ برهة، ولما علمنا من الوزارة بأنك قاصد إلى هنا خشينا أن يكون أصابك أمر من شدة العاصفة، وإنني سأقص عليك نبأ أحسبه سيكون موضع دهشتك، فهل في استطاعتك التكهن به؟».



القائد في زورقه البخاري في استانبول بين مرافقيه

وبعد تفكير قصير قلت: «يخيل إليّ أنه يتعلق بما قررته أنت وأنور باشا وطلعت باشا وخليل بك في أثناء غيبتي، ولكني لا علم لي به».

فقال: «إن الحكومة الألمانية عرضت علينا عقد معاهدة، ولأن الاقتراح في مصلحة الوطن فقد وقّعنا اليوم عقد الاتفاق مع السفير فون فانغنهايم، فهل توافق على ذلك؟».

فاضطربت حواسي لتلك الأنباء الخطيرة التي لم أكن متأهباً لسماعها وقلت: «إذا كانت نصوص المعاهدة تتفق حقيقةً ومصالح الوطن فيمكن اعتبارها نجاحاً سياسياً باهراً».

فقال: «إنها معاهدة تراعي مصالح الطرفين وتضمن حقوقهما بطريقة لم تعرف عن حكومة ما».

ثم تراجع إلى مكتبه واستخرج من أحد أدراجه صورة المعاهدة التي تضمنت مواد عدة، فقرأتها وتحققت أنها عقد جليل بين حكومتين مستقلتين على أساس المساواة في جميع الحقوق.

ثم تساءلت: «وما رأي النمسا؟».

فقال: «بُعيد انصراف زملائي وقبل مجيئك بنصف ساعة تسلمت خطاباً من السفير بالافيسيني أخبرني فيه أن حكومته توافق على كل ما جاء في العقد الذي أبرمناه مع ألمانيا، وإليك الخطاب!».

فلم أتمالك نفسي من التساؤل: «وإيطاليا؟».

فقال: «بما أن ألمانيا لم تُعْلِم بعد إيطاليا بدخولنا في التحالف الثلاثي فليس لديّ الآن معلومات ما بهذا الشأن، وستمهّد ألمانيا الطريق بدايةً، ولا يخامرني الشك في أن إيطاليا ستقبل معاهدتنا كما قبلتها النمسا».

ثم تساءلت عن السبب الذي حدا به إلى إخفاء أمر المفاوضات عني، مع أنها لا بد أن تكون دارت منذ مدة قبل أن تؤدي إلى هذه النتيجة.

وقد مرّ الصدر الأعظم بهذا السؤال قائلاً إنه هو الذي أدار بنفسه دفة المفاوضات، وإنه لم يشأ أن يفضي إلى زملائه بشيء ما قبل أن تأخذ المسألة شكلاً معيناً، وإنهم لم يعرفوا شيئاً مما دار إلا في ذلك اليوم. ثم قال: «ولا يزال جاويد بك يجهل الأمر جهلاً تاماً، وقد سألته أن يجيء إلى هنا وهو الآن في طريقه إلينا، ومتى حضر أطلعه على المعاهدة».

فسألته: «إذن كان الوزراء كلهم واقفين على جلية الخبر؟».

فقال: «لأن بعض الوزراء قد يهولهم ذلك المشروع المهم فيبوحون بهذا السر الذي يُعدّ من أسرار الدولة - وهو أمر غير مرغوب فيه أصلاً الآن - فقد رأيت من الواجب أن أخبرك أنت وسماحة شيخ الإسلام وخليل وطلعت وجاويد وأنور وحدكم وأخفي الأمر عن الوزراء الآخرين، وأحسبك تعرف ضرورة السير بحذر تام في هذه المسألة الدقيقة. والآن وقد أُحطت علماً بكل شيء، هل لك أن تصارحني برأيك؟».

فأجبته قائلاً: «أسأل الله أن يجعل ذلك في مصلحة الوطن والخير فيما وقع»، ولم أتوانَ في تهنئة الصدر الأعظم على إبرامه تلك المعاهدة التي كانت بلا مراء ذات مغزى تاريخي عظيم.

وقد شغلت كثيراً بهذا الحادث المهم، بل أستطيع أن أقرّ بأنني لم أذق طعم النوم في تلك الليلة. فقد استعرضت أمامي الحالة السياسية العامة وسألت نفسي عن بواعث الحكومة الحقيقية، لأنني رأيت نفسي حيال حالة لم تخطر على بالي حتى الآن. وكانت الشواهد كلها تدل على أن التصادم العنيف بين دول التحالف الثلاثي والاتفاق الودي أصبح لا بد منه. فلو بقينا أحراراً غير مقيدين حتى ذلك الوقت لأمكننا بمحض إرادتنا الانضمام إلى الفريق الذي يعرض علينا شروطاً ملائمة. أما الآن فقد بتتنا الأمر سلفاً واخترنا الشريك، ونتيجة ذلك هي أننا حرمنا أنفسنا حرية الاختيار.

فهل الفريق الذي اخترناه هو الذي يحقق أمانينا الوطنية، وهل كان متوقعاً لو انتظرنا إلى حين إعلان الحرب أن يعرض الفريق الآخر اقتراحات أكثر ملاءمة؟.

فألمانيا بالرغم من كل ما أدته حيالنا من العطف الظاهري لم تنهض لمساعدتنا فعلاً، بل أوصتنا على الدوام بالاحتفاظ بالعلاقات الودية بفرنسا. فليت شعري ما الذي يحملها الآن على محالفتنا وخطب ودّنا؟ وفوق ذلك لماذا تعرض علينا تحالفاً يخول الحكومة العثمانية المنزلة نفسها التي لألمانيا والنمسا؟ ما الذي حدا بهاتين الدولتين إلى تقديم تلك التضحية؟

هذه الأسئلة كلها شغلت ظنوني، بيد أنني عجزت عن الإجابة عنها.

وبعد لأي استنتجت النتيجة الآتية: إن ثمة حقيقة لا يستطيع أحد إنكارها، وهي أن روسيا هي العدو التاريخي للإمبراطورية العثمانية، وأن أقصى ما تطمح إليه هو الاستيلاء على استانبول، ويستحيل حملها على العدول عن هذه الأمنية. فبعد معاهدة برلين أدركت روسيا أن الاستيلاء على العاصمة أصبح مستحيلاً فحولت أطماعها تجاه الهند. ولما سدّت السياسة الإنكليزية الماكرة هذه الطريق أمامها ولّت وجهها شطر الشرق الأقصى.

بيد أن اليد التي مدتها روسيا تجاه بورت آرثر[^٨] انهال عليها اليابانيون فأوسعوها ضرباً ولكماً حتى اضطرت روسيا إلى سحبها. فلم يبق أمامها بعد كل هذه التجارب سوى أن تعود إلى تحقيق حلمها الأزلي، فجعلت تعد العدة الهائلة لاكتساح تركيا المسكينة، وهي الغنيمة التي منّت نفسها بها منذ مئات السنين. أما حليفتاها فبدلاً من معارضة مشروعها ذلك وافقتاها عليه.

وقد تغيرت الظروف عما كانت في حرب القرم[^٩] ومعاهدة برلين. فإنكلترا المسيطرة على وادي النيل كانت تنظر إلى مشروعات ألمانيا الاقتصادية[^١٠] في خليج البصرة بعين القلق الذي فاق قلقها من جراء مطامع روسيا في استانبول أو في الأناضول. وقد تقرر أن تُمنح روسيا استانبول عوضاً من العراق. ولم تكن فرنسا لتقف حجر عثرة في سبيل تقسيم تركيا متى أطلقت يدها في سوريا.

فالخطة الأساسية التي عملت بها روسيا التي بدأت ترى قرب تحقيق مطامعها كانت تنحصر في عزلة تركيا وعمل كل ما يؤدي إلى ضعفها.

أليس ذلك هو الباعث الوحيد لرفض السيد مارجيري - أو بالأحرى السيد ڤيڤياني - اقتراحاتي؟ ولعمري لم يكن في استطاعة فرنسا وإنكلترا إذا رغبتا في إرضاء روسيا أن تفعلا غير ذلك. هذا هو

السبب في أني - أنا الذي لم أتوقع أي نفع من ألمانيا - لم أقابل إلا بالرفض الصريح من فرنسا التي التجأت إليها لإعطائنا ضماناً ضد روسيا. وقد أعلنت إنكلترا عند رفضها إرسال الموظفين الذين طلبناهم للولايات الشرقية في آسيا الصغرى أنها لا تفعل ما يخالف الرغبات الروسية. زد على ذلك أن إحدى الأماني العزيزة التي شغلت بال إنكلترا هي أن ينتقل لقب خليفة الإسلام من السلطان العثماني إلى فرد عادي في أحد البلاد الواقعة تحت نيرها. والحقيقة أن سلطة السلطان التركي قد أقلقتها كل القلق في السنوات الأخيرة.

فلهذه العوامل والأسباب سعيت للحصول على معاونة فرنسا وإنكلترا إذا هاجمتنا روسيا. وفيما أنا غارق في تلك الخيالات إذ بزملائي تعرض عليهم اقتراحات مهمة وصريحة وهي التحالف مع دول التحالف الثلاثي، أو بالأحرى التحالف مع ألمانيا.

فألمانيا تلك الإمبراطورية القوية البأس تعرض علينا عقد تحالف على قاعدة المساواة - ونحن الذين سعينا منذ ستة أشهر للتخلص من عزلتنا والانضمام إلى فريق من الدول - فحاولنا عبثاً أن نعقد مع بلغاريا معاهدة منّينا أنفسنا أن نحرز بمقتضاها مزايا كثيرة.

أما أنا شخصياً فقد اتبعت سياسة ودّ حيال دول الاتفاق الثلاثي. ومع ذلك فهل كنت أجد من القوة المعنوية ما يكفي لرفض ذلك الاقتراح لو أنه عرض عليّ شخصياً؟ وهل يكون ذلك الرفض إلا ضرباً من الجنون؟ فلنبحث المسألة في هدوء وصراحة. ماذا كان موقف فريقي الدول من تركيا؟.

هذه إنكلترا بين دول الاتفاق أصبحت لها الكلمة النافذة في القطر المصري. ولن تألو جهداً في الحصول على العراق، بل فلسطين أيضاً. وتوطيد نفوذها في جميع أنحاء شبه جزيرة العرب. أما روسيا فإن عداءها لتركيا أشهر من أن يلتمس الإنسان الأدلة عليه. فهذه العوامل والحسابات لا تشير إلى حسن النيات حيال تركيا.

وإذا نظرنا إلى دول التحالف الثلاثي رأينا أن النمسا وإيطاليا لم تبق لهما مطامع أخرى نحو تركيا. فقد قدّمتا لنا كل ما استطاعتاه من الأذى. فلم تبق بهما حاجة إلى مطمع جديد. وكل ما يمكن أن يقال إن إيطاليا ربما حدّثت نفسها بأمور تتعارض ومصالح دول الاتفاق الودي (في شواطئ أنطاليا وفينيقيا[11]، مثلاً).

أما ألمانيا فهي، باستثناء ما يقال عكس ذلك، الدولة الوحيدة التي ترغب في رؤية تركيا عزيزة الجانب. ولا يمكن ضمان مصالحها إلا بتقويتها. فهي لا تستطيع أن تستولي على تركيا كما لو كانت مستعمرة، لأن المركز الجغرافي والموارد الألمانية تجعل ذلك مستحيلاً. فألمانيا تعتبر إذاً تركيا حلقة في سلسلتها التجارية. ولهذا أصبحت من أشد أنصارها ضد حكومات الاتفاق التي حاولت تمزيقها. خصوصاً لأن تصفية تركيا كان معناها تطويق ألمانيا نهائياً. والفضل في كون جنوبي ألمانيا الشرقي لا يزال مفتوحاً لتركيا وحدها. فالطريق الوحيد الذي تتجنب به ألمانيا ضغط الطوق الحديد هو إذاً في منع تمزيق تركيا. وهكذا أصبحنا حيال فريقين من الدول. أراد أحدهما إبقاءنا تحت نيره والآخر شاء التقرب منا لإدراك بضع مزايا معينة في المستقبل، ولإبرام معاهدة على أساس المساواة في التعهدات والحقوق. فهل كان الرفض ممكناً؟

فأولى مزايا تلك المعاهدة هي أن دول البلقان الصغيرة لن تجرؤ بحال ما على التدخل في شؤون حكومة تنتمي إلى ذلك التحالف القوي، وهذا يكفل لنا العيش في سلام.

والمزية الثانية هي أنه لا يمكن إحدى دول الاتفاق الودي أن تفكر في الاستيلاء على بلادنا خشية نشوب الحرب الأوروبية العامة. زد على ذلك أن علماء ألمانيا وفنونها وخبراءها التجاريين يصبحون في تصرف تركيا، وبذلك لا يمضي زمن طويل حتى نتخلص من قيود الامتيازات.

ومع أن هذه المعاهدة تجعلنا أعداء لدول الاتفاق الودي لدى نشوب الحرب الأوروبية، فإن ذلك لا يضيرنا متى أمكن تأخير التصادم خمسة أو عشرة أعوام حتى تعزيز حصون المضائق وشواطئنا المختلفة وتقوية الجيش واستقلال بلادنا. فلا يمكن التردد في الاشتراك في تلك الحرب.

أما لو استعرّت نار الحرب في خلال أسبوع أو اثنين أو شهر أو شهرين، أفلا نجد أنفسنا في موقف خطير - بسبب ضعفنا الحاضر - إذا اشتبكنا في حرب ضد روسيا وإنكلترا وفرنسا؟ ألا يجوز أن تكون مبادرة ألمانيا لعقد معاهدة معنا لأنها تشعر أن الحرب وشيكة؟.

ليس ثمة شك في ذلك! فإن الذي يدفع ألمانيا إلى عقد تحالف معنا على أساس المساواة في الحقوق وبالشروط نفسها الواردة في عقد التحالف الثلاثي، لا يمكن أن يكون لشيء سوى انزعاجها لتأهبات خصومها. فلا بد من أن تكون شعرت بوجوب تقوية مركزها بكل وسيلة متاحة، وإلا فلا يعقل أن تحمل دولة رشيدة مثل ألمانيا على كاهلها عبئاً ثقيلاً كتركيا حباً في سواد عيون الأتراك أو رغبة في تقديم خدمة إلى السلطان التركي!! إذاً فنشوب حرب أوروبية عامة في القريب العاجل يكون نكبة علينا. ومع ذلك لو وزنّا المزايا والمضار لتبين لنا أن البلاد تستفيد، وبلا ريب، من قبول المشروع. فلو كنت في مكان زملائي لفعلت ما فعلوا، أي لقبلت تلك المعاهدة بلا تردد، وكنت أحتاط في الوقت نفسه في وضع بضعة تحفظات في المعاهدة، كأن أشترط لقبولنا الموافقة أن الحرب الأوروبية مثلاً لو نشبت في غضون عامين من تاريخ توقيع المعاهدة وتبادل الوثائق، تحتفظ تركيا بخطة الحياد الودي حيال دول التحالف الثلاثي وتتعهد بمساعدتها أدبياً بتعبئة الجيش وإقفال المضائق في وجه السفن التجارية والحربية، فإذا استمرت الحرب أكثر من عامين تتعهد تركيا بالاشتراك فيها ضد دول الاتفاق الودي. أما لو نشبت الحرب بعد عامين من تاريخ التصديق على المعاهدة فإن تركيا تتعهد بتنفيذ شروط المعاهدة في الحال.

طبعاً لا أستطيع البت إذا كانت ألمانيا توافق على هذه الشروط أو ترفضها.

وبعد إمعان النظر وتحليل كل شيء من جميع وجوهه، رددت في نفسي العبارة التي قلتها للصدر الأعظم وهي: «أسأل الله أن يجعل تلك المعاهدة في مصلحة الوطن». وفي النهاية أقررت هذه الحالة الجديدة تماماً.

ولما كانت مذكراتي هذه بيّنت لكل من كان له أذن تسمع، متى وكيف أبرمت المعاهدة بين الحكومة العثمانية وألمانيا، يمكن الإنسان أن يسخر بما نشره للعالم السيد مورغنتو السفير الأميركي وماندلستام السكرتير الأول للسفارة الروسية من السخف الذي لم يستند إلا إلى لغط العامة.



مورغنتو مع موظفي السفارة اميركية في استانبول



السفير مورغنتو مع رئيس وزراء اليونان فنزيلوس سنة ١٩٢٤ بين المتطوعين لمساعدة اللاجئين ومساعده الوزير دوكسيادس



مورغنتو بعد تقاعده مع الحاخام ستيفان وايز لدى مغادرتهما البيت الأبيض. كلاهما مناهضان للصهيونية مؤيدان لمطالب اليهود الاجتماعية الاقتصادية الثقافية



السفير وزوجته وأحد موظفي السفارة «العم سام» في العيد السنوي ٤ تموز لاستقلال الولايات المتحدة

هوامش الفصل الثالث:

(١) القرن الذهبي: خليج في تركيا على مضيق البوسفور، عليه بنيت القسطنطينية. فيه ترسانة لبناء السفن وإصلاحها.

(٢) كل محاولة أو طموح لدى شعبٍ ما إلى الاستقلال وإبراز خصائصه القومية هو في نظر أحمد جمال باشا عمل أحمق. هكذا رأى محاولات العرب والأرمن في الإصلاح.

(٣) آيدين: أزمير حالياً.

(٤) المقصود مملكة النمسا - المجر.

(٥) أواخر عام ١٩٠٨ «المشروطية الثانية».

(٦) كروب: أسرة ألمانية اشتهرت بامتلاكها أكبر وأهم مناجم الفحم والحديد والصلب ومصانع الصهر بما يخدم ويلبي حاجات الصناعات العسكرية القومية المحلية والخارجية (صفائح الدبابات والسفن والجرارات/مواسير المدافع) منذ أيام الملك فريدريك الكبير، في القرن الثامن عشر وتعاقب على إدارة استثماراتها ستة أجيال من آل كروب. تطورت أعمالها وتعاظمت أرباحها وتنوع إنتاجها بعد الحرب العالمية الثانية ما دفعها إلى إنتاج الإلكترونيات والماكينات الصناعية، والأعمال المالية والتأمين والبنوك. لطالما كانت الحروب والصراعات المسلحة أهم ميادين عملها (المصدر: موسوعة ٢٠٠٥ Electra).

(٧) رئيس الجمهورية يومها كان بوانكاريه.

(٨) بورت آرثر: مرفأ وقاعدة الاسطول الروسي لعمليات الشرق الاقصى البحرية. في ١٩٠٥/١/٢ شن اليابانيون غارة ودمروا سفن الأسطول الروسي في مضيق تسوشيما. لأجل ذلك عقد مؤتمر بورتسموث الذي تمخض عنه اتفاقية سيطرت بموجبها اليابان على جنوب منشوريا وخط سكة الحديد ومناجم الفحم وخام الحديد مع جزيرة سخالين (الموسوعة السياسية والعسكرية، الايوبي).

(٩) حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦): وصل إلى استانبول الأمير مينيوكوف سفيراً فوق العادة في ١٨٥٢/٢/٢٨ ومعه مذكرة إخطارية مدتها خمسة أيام وطلب فيها تنحية الرهبان الكاثوليك كمسؤولين عن الاراضي المقدسة في فلسطين وتسليمها إلى الرهبان الأرثوذوكس. رُفض الطلب، بحجة أن السلطان حامي جميع رعايا السلطنة وقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. بدأت الحرب فعلياً في (١٨٥٣/٧/٣) بدخول قوة من ٣٥٠٠٠ جندي روسي مع ٧٢ مدفعاً إلى الأراضي الرومانية (الولاية العثمانية) والقائد الروسي للقوة يقول إنهم دخلوها إلى حين يعترف السلطان بحقوق الأرثوذوكس في كنيسة القيامة في فلسطين وإن انسحاب القوة الفوري مرهون باعتراف العثمانيين بهذا الحق. وعلى ثلاث جبهات فتحت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية: جبهة القوقاز، جبهة نهر الدانوب، جبهة البحر الاسود.
مجموع القوات البرية المشاركة من قبل الروس نحو ٣٢٠ ألف جندي، والعثمانيون كانوا نحو ٢٨٠ الفاً.
وفي لقاء لمسؤولين إنكليز مع القيصر الروسي وخلال الحوار أطلق كلمته الشهيرة عن الدولة العثمانية بأنها أمست تشبه «الرجل المريض» وانها تقف سداً بوجه السفن الروسية إلى المياه الدافئة (البحر المتوسط).
يومها الصحافة الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية خصوصاً نشرت مقالات نبّهت فيها واشارت إلى الخطر الروسي القادم ومطامعه. وفرنسا كانت تعتبر أن الخطر الاكبر قادم من بريطانيا وأنها أكبر منافس لها في مسرح السياسة الدولية وليس من روسيا اي خطر على مصالحها، وهي لا تريد لبريطانيا ان تنفرد بصداقتها مع العثمانيين. لذا رأت ان المصلحة الفرنسية العليا يقتضي منها دخول الحرب إلى جانب العثمانيين ضد روسيا اذا ما دخلتها بريطانيا وعدم ترك الميدان لبريطانيا ان تتحكم بنظام وتوازن السياسة الدولية ما بعد الحرب، يجب المحافظة على وزن ودور فرنسا ومركزها العالمي. من جانب آخر كانت هذه مخاوف وطموحات بريطانيا في ان تُعزل اذا ما انفردت فرنسا بالساحة السياسية مع روسيا ضد العثمانيين وتصبح فرنسا متحكمة بموازين القوى. فلما عرض نابليون الثالث على بريطانيا التحالف ضد القيصر الروسي سارعت بريطانيا إلى قبوله بحماس. هذه المعركة لها وجهين، الاول دبلوماسي خسره القيصر، والثاني حربي سفكت فيه دماء غزيرة انهزم فيها جيشه في رومانيا على ضفاف نهر الدانوب (الطونة). تمخّض عن هذا معاهدة استانبول التي قضت بوضع إمرة جيوش الدول الثلاث (فرنسا/بريطانيا/العثمانية) بقيادة موحدة، وتُتابع الحرب. فاعلنوها على روسيا في (١٨٥٤/٣/٢٧) واستمرت حتى عام ١٨٥٦ استعمل فيها الحلفاء أكثر من ٢٠٢٠٠٠ جندي وضابط وقدم العثمانيون ٥٥٠٠٠ ضابط وجندي نتج منها: موت القيصر الروسي، سقوط القرم بيد الحلفاء، تقديم النمسا مذكرة إلى روسيا تنذرها وتتوعدها ما جعل الروس يذعنون إلى التفاوض وقبول شروط بروتوكول فيينا ١٨٥٦/٢/١ وعقد مؤتمر الصلح في باريس وبروز نابليون الثالث بطلاً قومياً وأوروبياً (تاريخ الدولة العثمانية، يلماز اوزتونا، ج٢، ص٥٠-٥٥، الموسوعة العسكرية، الأيوبي).

(١٠) مشروعات ألمانيا الاقتصادية: اثمرت جهود الضباط الاساتذة الألمان في خلق جيش عثماني جديد منظم مدرب يتقن اساليب وفنون الحرب وادواتها الحديثة. ويعترف بفضل الألمان عليه. اعضاء البعثة العسكرية الألمانية كانوا يرسلون التقارير إلى رؤسائهم في ألمانيا بانتظام عن الاحوال السائدة في السلطنة العثمانية (السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، العسكرية، الثقافية) وعمايتوقعونه مستقبلاً مايسمح للقيادة الألمانية أن ترسم أسس سياستها العليا الذي انعكس على المؤسسات والشركات الألمانية وتحذو مسار القيادة السياسية العليا في رسم رؤيتها التجارية الاقتصادية إلى المجتمع والأسواق العثمانية ومستقبلها. تبعهم قيام المصارف الألمانية الكبرى بالحصول على امتياز مد خطوط سكة حديد عدة في الاناضول واستطاعوا بين سنوات ١٨٨٨-١٨٩٦ ان يوصلوا السكك إلى قونية من محطة حيدر باشا على البوسفور. ان فكرة الاستثمار في السلطنة تعاظمت وصارت منهجاً وبرنامجاً للرساميل الألمانية. توجت مشاريعها بالحصول على امتياز مد خط سكة من قونية مروراً بجنوب الاناضول إلى الموصل شرقاً إلى بغداد فمدينة البصرة جنوباً فالخليج العربي. ويتفرع منه خط آخر إلى الاسكندرونة خط ساحلي فشرقاً إلى حلب ثم دمشق فالحجاز. هذه الخطة فيها الكثير من الجرأة والعزم والنظر الثاقب إلى المستقبل ما اعتبر خطراً يهدد المصالح البريطانية في الشرق. واثارت قضايا عسكرية واقتصادية وسياسية التي رأت انه يقتضي عليها التحرك بأسرع مايمكن لإفشال الخطة الألمانية التي ستسمح لها ببسط نفوذها على منطقة واسعة بأسواقها، غنية بمواردها الطبيعية وبعيدة عن مدى النيران البحرية ومصالح بريطانيا على المحك ازاء خصم يهدد أمنها وسيادتها على الخليج العربي (المصدر: يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ص١٤٤-١٤٦).

(١١) شواطئ فينيقيا: المقصود بها السواحل السورية - اللبنانية.

الفصل الرابع

بدء الحرب الأوروبية (العالمية) العامة
وإعلان التعبئة والاستنفار العام للجيوش العثمانية

لما رأت النمسا المذكرة الصربية[1] غير مُرضية عبأت بعض قواتها. فلما أجابتها روسيا بالتعبئة العامة (الاستنفار العام) - التي حدت بألمانيا وفرنسا إلى التعبئة - لم يبق ثمة شك في أننا أيضاً سنشتبك في حرب أوروبية شاملة.

وبعد أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في أول أغسطس/آب ١٩١٤ وجدنا أنفسنا ملزمين بحكم المعاهدة التي لم يجفّ مدادها بعد على خوض المعركة في الحال. لأن المعاهدة حتّمت اشتراكنا مهما كانت أسباب الحرب. فوجب علينا الاشتراك بكل قوتنا في القتال الذي خاضت غماره ألمانيا والنمسا. ومع ذلك أردت تأجيل دخولنا الحرب إلى أطول مدة ممكنة. فبسطت آرائي هذه في مجلس الوزراء الذي كان يعقد كل مساء في قصر الصدر الأعظم في ينى كوى برئاسته وبحضوري وأنور وطلعت وخليل وجاويد.

ومما قلته أن اشتراكنا في الحرب قبل إتمام تعبئة جيوشنا لن يكون بلا فائدة لألمانيا فحسب. بل يكون بمثابة انتحارنا. فلو قام الإنكليز والفرنسيون والروس. الذين يعلمون علم اليقين أنه ليس لدينا جندي واحد في الدردنيل أو استانبول (البوسفور) أو الحدود الروسية. بهجوم فجائي عليها وفي الوقت نفسه الذي تزحف روسيا على أرضروم. يصبح جيشنا - بعد سقوط هذه المناطق وتوغل روسيا في الأناضول عن طريق سيواس - عاجزاً عن إتمام التعبئة أثناء الحرب. فتسقط الإمبراطورية العثمانية والحرب لا تزال في بدايتها!.

وقد اعترف زملائي برجاحة هذا الرأي وأقنعوا به السفير الألماني. فقررنا بعد البحث الذي دار في مجلس الوزراء أن نعلن حياد تركيا ونشرع في التعبئة العامة للاحتفاظ بالحياد ضد الفريقين.

وفي الحال شرعنا في تنفيذ هذا القرار. وقد وافق على خطتنا هذه حتى زملاؤنا الذين لم يعرفوا شيئاً عن معاهدتنا مع ألمانيا والتعهدات التي تضمنتها. وعدّوا التعبئة العامة عملاً احتياطياً سديداً.

وبعد إصدار أمر التعبئة بثلاثة أيام أسندت إليّ قيادة الجيش الثاني مع بقائي في وزارة البحرية.

وما بزغت شمس يوم الثاني من أغسطس/آب - أي بعد أن دفعت تركيا آخر قسط من ثمن المدرعة السلطان عثمان - حتى أصدر وزير بحرية إنكلترا أمره بألا توضع عليها الراية العثمانية. وصادرها هي



اتفاق الكبار

القيصر الألماني وليم الثاني إلى يسار الصورة مستقبلاً القيصر الروسي نيقولا



السلطان محمد الخامس رشاد مستقبلاً القيصر الألماني وليم الثاني وسط حاشية
كلاهما في استانبول في قصر يلدز عشية الحرب

والمدرعة رشادية. ولن أنسى ما حييت ما استولى عليّ من الغم عندما سمعت تلك الأنباء المزعجة، وهنا أدركت أن النصائح التي تظاهر أمير البحر روبيك قائد أسطول البحر المتوسط بإسدائها إليّ عند زيارته إلى استانبول، والمصاعب التي لا حصر لها التي أقامتها شركة أرسيدونغ في طريق إتمام المدرعة، لم تكن سوى معاذير انفضحت من ورائها نية إنكلترا التي كانت تهدف منذ زمن بعيد إلى الاستيلاء عليهما.

ولو افترضنا أن للحكومة الإنكليزية الحق في مصادرة المدرعات التي تبنى في أحواضها في زمن الحرب لما كان لها أن تفعل ذلك معنا، فإنها لم تكن اشتبكت بعد مع تركيا عندما استولت على هاتين المدرعتين، بل لم تكن إنكلترا شرعت في تعبئة جيشها وأسطولها، وقد طال وقتئذٍ الجدل حول تلك المسألة، ولأن غلطات إنكلترا هذه أثارت ثائرة الانتقاد الحاد حتى بين الساسة الإنكليز أنفسهم، لا أراني في حاجة إلى الخوض فيها هنا.

وكانت هذه الحادثة مسوّغة لتعبئة جيشنا، بل كانت بمثابة رد حاسم على سفراء دول الاتفاق الودي الذين زعموا أن ليس ثمة ضرورة لهذه التعبئة العامة، وقد برروا عمل الحكومة العثمانية - كما سأبيّن فيما بعد - إذ سمحت للمدرعتين غوبن وبرسلو بدخول بحر مرمرة.

غوبن وبرسلو تعبران الدردنيل وصولاً إلى استانبول

هذا الحدث جعل عدد من الضباط الألمان - وخصوصاً ياور الجنرال فون ساندرس - الذين سمعوا بالمعاهدة الألمانية ولكنهم لم يعرفوا السبب الذي دعا تركيا إلى إعلان الحياد أن يدلوا إليّ بآراء غير معقولة وغير مناسبة. وكنت أرى في أعينهم نظرة الكراهة إلى شخصي، بل العداوة. إذ هم كانوا يحسبون أنني من الفريق الذي منع الحكومة من دخول الحرب فور إعلانها. ولـمّا لم يجرؤوا طبعاً على إظهار عدم الاحترام ظللت أعمل كأنني لم أتوسم فيهم سلوكهم العدائي.

فوقفت ذات يوم قرب الميناء تجاه قصر الصدر الأعظم. وقد مرت في ذلك الوقت سفينة آتية من روسيا ملأى بالجنود فاخترقت البوسفور في طريقها إلى بحر مرمرة. وكان بجانبي عدد من الضباط الألمان ولفيف من مستخدمي السفارة الألمانية فتناول حديثهم تلك الناقلة. فقال أحد مرافقي الجنرال ساندرس بصوت مرتفع لم أتمالك سماعه: «لو أن سعادة وزير بحرية تركيا لم يسمح لهذه الناقلة باختراق الدردنيل لخف العبء عن إخواننا في الجبهة الغربية بما لا يقل عن ١٤٠٠٠ جندي فرنسي. فكل هذه التدابير المفيدة في يد سعادته وحده!». فتظاهرت بعدم سماع تلك الملاحظة فيما السفينة تواصل سيرها.

وفي ٨ أغسطس/آب ١٩١٤ حضر إلى الوزارة الكابتن هامان الملحق البحري للسفارة الألمانية. فأخبرني أن الأسطول الألماني في البحر المتوسط يطارده الأسطول الإنكليزي وأنه ينسحب في اتجاه الدردنيل.



الإمبراطور الألماني وليم الثاني على متن المدرعة «غوبن» مع أنور لدى قيامه بزيارة استانبول



برسلو BRESLAU

السفينة برسلو للدعم والاسناد الناري. سميت على اسم مدينة برسلو. السفينة من فئة (ماغدبورغ). صنعتها شركة آ.ج. فولكان سنة ١٩١٠. باشرت مهامها سنة ١٩١٢ بامرة الاميرال سوخون كسفينة حماية واسناد للبارجة غوبن. لاعتراض السفن الفرنسية المبحرة بين فرنسا والجزائر والانكليزية في البحر المتوسط وتدميرها حتى وهي راسية في المرافئ. فهاجمتا مرافئ جزائرية (سكيكيدة) في ٤ آب. في ١٢ آب شاركت بقصف الموانئ الروسية (اوديسا و سيباستوبول) ومبانيها والسفن الراسية او صودف وجودها هناك. أُلحقت برسلو بالأسطول العثماني في ١٦ آب/أغسطس تحت اسم (ميديلي) الاسم التركي لجزيرة ليسبوس في بحر ايجه. بقيت تعمل في البحرين الأسود والمتوسط الى جانب البارجة غوبن. في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩١٨ خرجت السفينتان من الدردنيل الى بحر أيجه وهما تحاولان اعتراض سفن البحرية الملكية الانكليزية. إلا انهما وقعتا في كمين حقل الغام بحرية. ما سبب اصطدام برسلو باحدها فدمرها وغرقت مع ٣٣٠ بحار وضابط.

مقاييسها: الطول ١٣٦ متراً. عرضها ١٤ متراً. يسيِّرها ٤ مولدات توربينية مع ١٦ مرجلاً مولدة ١٩ ميغاواط لتمنح السفينة قوة ٢٥٠٠٠ حصان في الساعة مع قدرة ازاحة للماء تبلغ ٤٥٥٠ طناً. بسرعة ٤٦ كلم/س.

تسليحها: ١٢ مدفع عيار ١٠٥ملم. ١٢٠ لغماً. آنبوبي طوربيد عيار ٤٨,٧٥ملم.

وبما أن فحمه قد نفد - وخصوصاً فحم غوبن - قد أرسل إليهما الفحم من استانبول. ولأنه لا يوجد ما يكفيه من الفحم الإنكليزي فقد طلب أن أسلّفه نحو ستة آلاف طن من فحم مخازننا البحرية. فأسرعت إلى الهاتف وسألت الصدر الأعظم وأنور باشا وطلعت باشا رأيهم. فأجابوا بالموافقة. فأصدرت الأمر بأن يُعطى الفحم المطلوب من مخازن ديرنجي. وأرسلت طائفة من العمال لتساعد في تحميل المدرعة. وقد جرى تحميلها في بضع ساعات وخرجت إلى بحر إيجه.

وفي مساء ١١ أغسطس/آب اجتمعنا كالمعتاد في قصر الصدر لتناول العشاء. وكنت وطلعت وجاويد وخليل أول من حضر. ولما استقر بنا المقام جاء أنور باشا فحيّانا بابتسامته الهادئة المألوفة قائلاً: «لقد ولد لنا ولد». فلم نفهم مراده لأول وهلة. ولكنه أشفق علينا من القلق فقال: «لقد شوهدت غوبن وبرسلو صباح اليوم قرب الدردنيل. ولما كان الأسطول الإنكليزي يطاردهما طلبتا أن نأذن لهما باجتياز المضائق. فصرحت لهما بذلك لأني لم أشأ تعريض مدرعتين لدولة حليفة لخطر محقق. وهما الآن في الدردنيل في حماية قلاع المضائق. وقد أصبحنا بناءً على ذلك إزاء مشكلة سياسية. فالواجب أن نصل إلى قرار حاسم هذا المساء!».

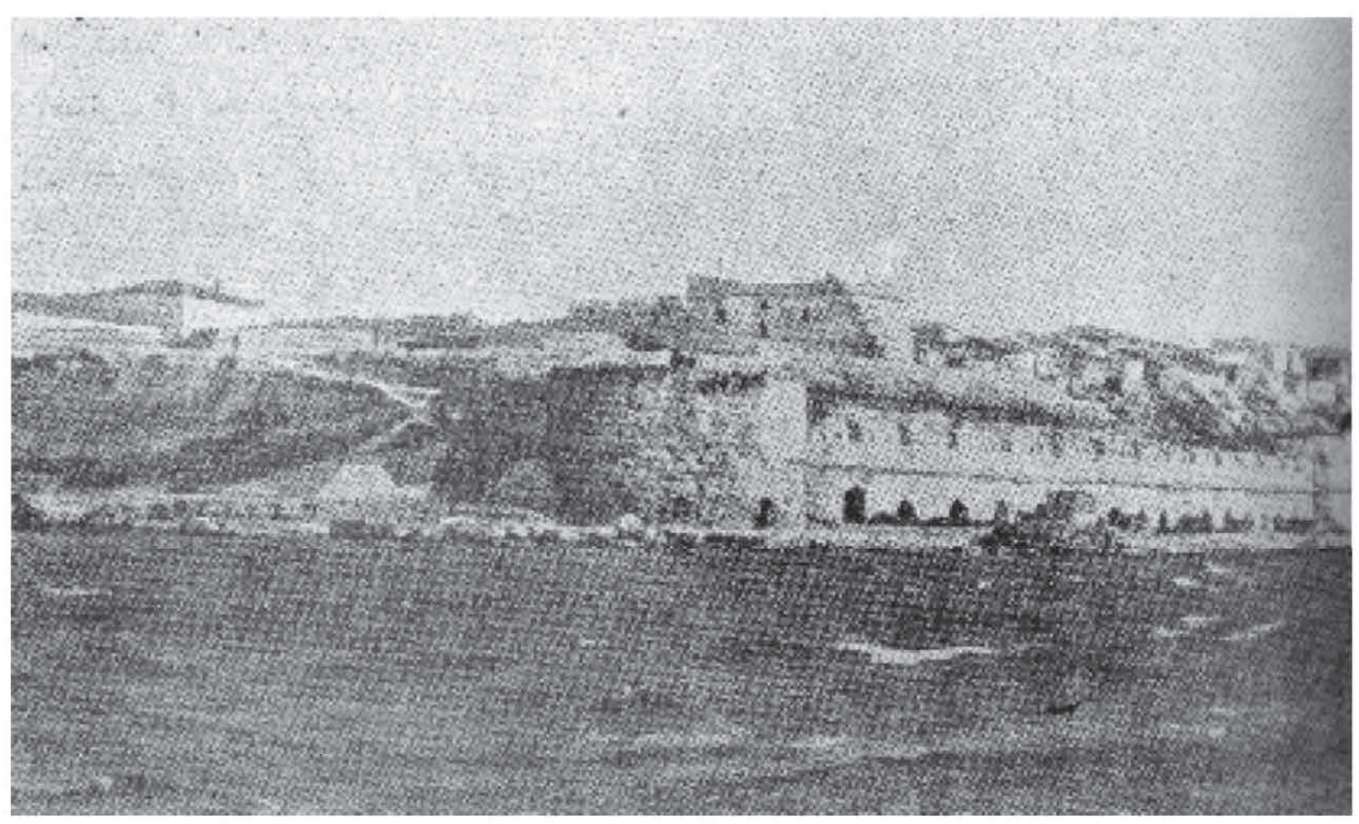
والواقع أن المسألة كانت دقيقة. فإن مدرعتين تابعتين لأحد المتحاربين التجأتا إلى المياه التركية. فالحياد يقضي علينا إما مطالبتهما بمغادرة مياهنا في خلال أربع وعشرين ساعة. وإما أن ننزع سلاحهما ونعتقلهما في أحد موانئنا. فبصفتنا حلفاء ألمانيا لم يكن في استطاعتنا التفكير في الحل الأول لأنه كان بمثابة تسليم المدرعتين إلى العدو. وفضلاً عن ذلك فإن عملاً كهذا كان مناقضاً لمصلحتنا ولواجبنا على السواء.

ومن جهة أخرى قد كان مؤكداً أن يرفض الألمان نزع سلاح المدرعتين. ومن وجهة النظر هذه حقّ للحلفاء أن يعتبروا عملنا عدائياً فيعلنوا علينا الحرب. وطبعاً كان متوقعاً هذا إما عاجلاً أو آجلاً فلا نرى مهرباً وقتئذٍ من الاشتراك في الحرب. ولكن حالة الجيش اقتضت تأجيل التدخل إلى أقصى أمد ممكن.

وفي تلك اللحظة دخل السفير الإنكليزي والسفير الفرنسي في حالة انفعال شديد ليحتجّا للصدر الأعظم على مرور المدرعتين في الدردنيل (جناق قلعة). وعلى جرأة ربانيهما في تفتيش إحدى سفن البريد التي غادرت ميناء استانبول في الليلة الماضية وعلى متنها بعض الركاب الفرنسيين. وقد زعما أن ذلك يناقض الحياد الذي أعلنته الحكومة الشاهانية.

وبعد مناقشة طويلة قررنا أن نطلب إلى الحكومة الألمانية الموافقة على نزع سلاح المدرعتين ظاهرياً بصفة موقتة. فذهب طلعت باشا وخليل بك إلى السفارة الألمانية في ترابيا لإبلاغ قرارنا إلى السفير فون فانغنهايم. ثم عادا بعد ساعة وأخبرانا أن السفير أعلن أنه لن يوافق بحال من الأحوال على نزع السلاح. نعم إنه وافق على امتناع الحكومة العثمانية من الاشتراك في الحرب بدعوى الحياد. بيد أنه يعتقد أن وصول المدرعتين الألمانيتين - اللتين اضطرتا إلى الالتجاء إلى المياه التركية - قد غيّر الموقف تغييراً تاماً. فإذا أدى ذلك التحرش إلى قطع العلاقات السياسية أو إلى الحرب مع دول الاتفاق فعلينا أن نرى في ذلك نتيجة منطقية للأحداث. وهنا أظهر أنور باشا انضمامه إلى رأي السفير. ولكني تعهدت - بقطع النظر عن العواقب - بضرورة الوصول إلى حل وسط لنستطيع به. نظراً إلى حال جيشنا في الوقت الحاضر. أن نؤجل اشتراكنا في الحرب إلى أقصى أمد ممكن.

وانضم الصدر الأعظم وجاويد بك إلى رأيي. وأخيراً اقترح أحدنا حلاً إذ قال: «ألا يمكن أن نكون ابتعنا هاتين المدرعتين من ألمانيا من قبل؟ وأن وصولهما يعتبر تسليماً نص عليه الاتفاق؟».



إسقاط هذا الحصن (جناق قلعة) على أبواب الدردنيل مكّن الحلفاء من فتح ثغرة تمرّ منها السفن الروسية والبريطانية والفرنسية إلى المتوسط - الأسود. ألاّ أنها لم تدم طويلاً فسرعان ما انسحبوا واستبسل في المعارك آلاف المقاتلين العرب الذين جنّدوا من كل بلاد الشام واليمن والعراق وليبيا ضمن حملة «سفر برلك» ضد القوات الإنكليزية والفرنسية.

فتنفس الجميع الصعداء، حيث أُدركت الوسيلة لتسوية المشكلة تسوية ودية! فتقرر أن نسأل السفير الحضور إلى قصر الأمير لمعرفة ما اتفقنا على فعله. فأُرسل أحد مرافقي أنور باشا إلى السفارة، ولم يمض أكثر من ربع ساعة - بعد منتصف الليل - حتى حضر السفير. فدارت رحى المناقشة الحادة على مدى ساعة بين الصدر الأعظم وطلعت باشا والسفير. فوعد الأخير بمخاطبة برلين في الليلة نفسها والعودة إلينا بجواب مُرضٍ قبل الشروق. وقررنا أن نبقى في قصر الصدر حتى يرد الجواب. وفعلاً جاء الرد قرابة الرابعة صباحاً. فخولنا - على شرط قبولنا أمير البحر سوخون في الخدمة التركية - أن نعلن أننا ابتعنا المدرعتين المذكورتين من ألمانيا منذ زمن بعيد. ولم يكن البيع حقيقياً بل صُوَرياً!!

فقد قيل لنا إن الإمبراطور، ولعدم استطاعته بيع سفينة من سفن الأسطول بلا إقرار مجلس الرايخشتاغ[٢]، يقول إن البيع الحقيقي سيكون بعد أن تضع الحرب أوزارها وبعد أن يوافق الرايخشتاغ. وإذ وجدت التسوية التي تنقذ الموقف تفرق الوزراء نحو الساعة الخامسة. أما التفاصيل الخاصة بمواد الاتفاق فتركت لوزارة البحرية. وفي صبيحة اليوم التالي أرسلت إلى الصحف بلاغاً رسمياً أشرت فيه إلى ابتياع غوبن وبرسلو ووصولهما إلى الدردنيل. وأوعزت إليها أن تفيض في وصف الظروف التي أحاطت بالحكومة وكيف أنها حصلت على مدرعتين أخريين عوضاً عن السلطان عثمان ورشادية اللتين سلبتنا إياهما إنكلترا.



وليم انطوان سوخون /سوشون /سوكون (١٨٦٤-١٩٤٦)
Wilhelm Souchon

عسكري الماني ادميرال بحري من مدينة لايبزيتش. اول من أشعل في تركيا فتيل الحرب وأغرق الدولة العثمانية في أتونها. قائد سرب بحري في الاسطول الالماني للبحر الابيض المتوسط. وعاث تخريبا وتدميرا عندما أغار على مرفأين فرنسيين في الجزائر (سكيكيده) في ١٩١٤/٨/٤. وفر هارباً امام هجوم سفن الاسطول الانكليزي الى ايطاليا المحايدة لعله يحظى بالفحم فلم يستجاب لطلبه فتابع طريقه نحو بحر ايجه والبوارج الانكليزية تتعقبه. حتى تمكن من الوصول الى أطراف المضائق التركية طالباً تزويد دارعتيه بالفحم ليتابع مسيره والسفن الانكليزية المطاردة تنتظر خروجهما من المياه التركية لتدميرهما. لُبِّيَ طلب تزويده بالفحم. انما السفينتان لم تغادرا المرافئ التركية. ما دعا روسيا وفرنسا وبريطانيا الى الاحتجاج على وجود السفينتان الالمانيتان الامر الذي يعتبر خرقاً لاتفاقيتي (برلين واستانبول) وتمنع دخول او وجود سفن حربية أجنبية لئلا يزيد من قوة تركيا الحربية البحرية فيهدد أمن ومصالح النفوذ الاوروبي واستقلال اليونان. فجرت تسوية مع المانيا مضمونها ان تعلن عن بيعها للسفينتين الى السلطنة العثمانية. فرفعتا العلم التركي. في ١٩١٤/١٠/٢٩ أخذ سوخون السفينتان مع سفن تركية أقل حداثة وأبحر بها باتجاه المرافئ الروسية في البحر الاسود (اوديسا وسيباستوبول) ومن دون انذار او تحذير مسبق أمطر المنشآت البحرية الروسية والسفن الراسية والمبحرة والمباني السكنية القريبة من المرفأين بوابل من قنابل مدفعية السفن الثقيلة وانسحبوا مخلفين وراؤهم دماراً ورعباً. فكان ذلك مبرراً ان تعلن روسيا الحرب على المانيا وتركيا. تبين في ما بعد ان فون كريس مسؤول دائرة المخابرات والجنرال برونزارت هما والوزير أنور باشا الذين رتبوا هذا الامر بسرية وصمت بعيداً عن السلطة التنفيذية (مجلس الوزراء) حتى وزير البحرية نفسه أحمد جمال باشا. بما فيهم ساندرس وغولتز. ولما سئل سوخون عن عمله هذا؟ أجاب. انه يحمي المصالح الالمانية والتركية! عين قائداً عاماً للاسطول العثماني. كل همه ضرب أي وجود بحري روسي ومنعه من الخروج الى البحر المتوسط. قضى سوخون وقته في تركيا ثلاث سنوات محاولاً اصلاح الاسطول الحربي العثماني وتنظيمه أسراباً وأجنحة ورفع مستواه العسكري القتالي وادخاله في حياة القرن العشرين. في ١٩١٦/١٠/٢٩ مُنح ارفع وسام عسكري الماني.

لطالما دعا سوخون حكومته ان تدعم جهوده الهجومية البحرية تجاه روسيا في البحر الاسود بالغواصات. انما طلبه لم يلق أذنا صاغية. كان دائم النظر الى البحرية التركية باحتقار ولم يك مرتاحا لدوره في تركيا. عاد الى المانيا في ايلول ١٩١٧. سلم قيادة السرب الرابع في أعالي البحار. قبل تقاعده كان قائداً للقاعدة البحرية في شمال المانيا (كييل). توفي في بريمن.



الجنرال ماكنزي والأميرال سوخون يستقبلان أنور ومرافقيه على البارجة غوبون

وهنا اعترضتني مسألة دقيقة وهي طريقة إخراج أمير البحر ليمبوس وضباطه الإنكليز من الأسطول بلا جلبة ولا ضوضاء. فطلع عليّ اليوم التالي بتقرير هنأ فيه الحكومة على حصولها على المدرعتين الجديدتين، وقال إنه لوقوعهما تحت إشرافه مباشرة سيعيّن الضباط والبحارة المنتخبين في غضون شهر ليقوموا بالمناورات اللازمة على متن هاتين المدرعتين اللتين هما من أحدث المدرعات. فطلبت إلى أمير البحر الحضور إلى الوزارة للمباحثة. فلما حضر سألته - بسبب التعب الذي لحق بأمير البحر الألماني ورجاله ما جعل تاريخ مغادرتهم للمدرعتين غير مقرر - أن يصرف اهتمامه إلى إعداد بيان بأسماء الضباط والبحارة الذين سيعملون في السفينتين.

وكأنما قضى حسن الطالع أن يبعث ليمبوس إليّ بخطاب موجز أخبرني فيه أنه يحتوي على صورة تقرير قدمه باللغة الإنكليزية إلى الصدر الأعظم رأساً. فأمرت بترجمته فألفيته يقترح فيه على الحكومة - نظراً إلى حالة الأسطول والجيش الحاضرة - أن تلزم الحياد التام قائلاً: «إن الضباط والبحارة الأتراك تعوزهم تدريبات مدة أربعة أو خمسة أعوام قبل أن يستطيعوا مباشرة العمل على السفينتين اللتين اشتريتا حديثاً». فأرسلت في الحال الرد إلى أمير البحر أخبره بأن مهمته مقصورة على تنظيم الأسطول، وأنه مسؤول لدى وزارة البحرية مباشرة، وأن تقاريره يجب أن ترسل إليها رأساً. ولما كانت تلك التقارير خاصة بتنظيم الأسطول لا غير، فليس ثمة ما يخوله أن يقترح على الحكومة العثمانية اتباع خطة سياسية معينة عند بحثه حالة الأسطول!.

فجاء منه الرد في اليوم التالي فإذا فيه: «إن خطاب سعادتكم أوضح لي حقيقة الحال، وسآخذ حذري ألا أتجاوز في المستقبل الحدود التي رسمتها لي. وعلى أي حال إني أشعر بتعب، وأكون شاكراً لك لو أجزتني مدة قصيرة أقضيها مع كريمتي التي تقيم في ترابيا».

فأخبرته بالموافقة على طلبه ولكني لفتّه إلى ما قد يحدث في غيبته من سوء التفاهم في الأسطول بين الضباط والميكانيكيين الإنكليز والبحارة الأتراك، وسألته - تجنباً لحوادث كهذه - أن يرسل الضباط إلى وزارة البحرية لتوزيعهم في أنحاء دار الصناعة.

ولم يمر يوم واحد على تنفيذ هذا الأمر حتى خلا الأسطول من سائر الضباط الإنكليز، وعلى ذلك صدرت الإرادة الشاهانية بتعيين أمير البحر سوخون في خدمة الحكومة، ومنحه لقب قائد عام للأسطول الشاهاني. وفي اليوم التالي دخلت غوبن وبرسلو - بعد تسميتهما ياوس ومدهللي - تخفق عليهما الراية العثمانية ميناء استانبول ورستا أمام طريق مودا.

وبعد أيام ذهب جلالة السلطان في اليخت أرطغرل[٣] لاستعراض الأسطول قرب جزيرة الأمراء، وقد انضمت إليه المدرعتان ياوس ومدهللي نهائياً. وعبثاً محاولة وصف الحماسة التي استولت على أهالي استانبول تلك الأيام، فقد عظمت ثقة كل إنسان بالاستعدادات العسكرية للحكومة، وأمل كل مسلم أن يعقد النصر بألوية الألمان والنمسويين. فلا جرم إن أثار مظهر الشعور العام هذا ثائرة الإنكليز والفرنسيين والروس، وسُرّ الألمان والنمسويون سروراً عظيماً.

احتجاجات سفراء إنكلترا وفرنسا وروسيا

لم تكد المدرعتان غوبن وبرسلو تصلان إلى بحر مرمرة حتى أقفلنا المضائق، وقد أدى بقاء البحارة الألمان على ظهر المدرعتين الألمانيتين إلى احتجاج السفارتين الإنكليزية والفرنسية على الحالة الجديدة، إذ رأتا أنها تنافي خطة الحياد. وكانت الاحتجاجات رسمية وشخصية، وقد أصر ممثلو دول الاتفاق الودي الذين لم يعرفوا من أمر التحالف مع ألمانيا شيئاً على دعواهم أن الألمان سيتخذون عاجلاً أو آجلاً من وجود مدرعتيهم وضباطهم العديدين فرصة لحمل الحكومة التركية على الاشتباك في الحرب، فهم يرون أن خير وسيلة للاحتفاظ بالحياد أن نبعد البحارة الألمان عن السفينتين ونعيدهم إلى ألمانيا مع ضباط البعثة العسكرية. والواقع أننا لو كنا على الحياد التام لما أحجمنا عن اتباع تلك الخطة، بيد أننا في الحقيقة لم نعلن حيادنا إلا لمجرد اكتساب الوقت، ولم يكن قعودنا عن الاشتراك في الحرب إلا ريثما تنتهي التعبئة العسكرية.

وفي الوقت نفسه قرر الوزراء في اجتماعاتنا المعتادة في قصر الصدر الأعظم أن أتصل بالسفير الإنكليزي السير لويس ماليت وأن يتصل جاويد بك بالسفير الفرنسي، وأن نسعى في إزالة ما قد يعلق في أذهانهما من الشكوك في المعاهدة التركية - الألمانية.

وفيما أنا أحادث السير لويس ماليت ذات ليلة في منزله في ترابيا، إذ به يلتفت إليّ قائلاً: «هل لك أن تخبرني يا جمال باشا بالمطالب التي تطلبها الحكومة العثمانية في مقابل الاحتفاظ بالحياد التام الحقيقي إلى نهاية الحرب؟». فأجبته بأن ليس ثمة ريب في حياد الحكومة العثمانية، ولكني أرى من الواجب عليّ عرض الأمر على الصدر الأعظم.

وعلى ذلك جرى البحث بيننا وبين الصدر الأعظم، فوضعنا بالاتفاق معه الشروط الأساسية التي يمكننا بموجبها أن ننضم إلى دول الاتفاق الودي. وهذه هي المطالب:

أولاً: إلغاء الامتيازات.

ثانياً: إعادة الجزر التي أخذتها اليونان منّا.

ثالثاً: حل المسألة المصرية.

رابعاً: التعهد بأن تحجم روسيا في المستقبل عن التدخل في شؤوننا الداخلية.

خامساً: المعونة الإنكليزية الفرنسية الفعلية إذا هاجمتنا روسيا.

وطلبات أخرى...

وقد علمت من تلاوة برقيات عدة نشرت في كتاب أزرق إنكليزي[٤] بعد دخولنا الحرب، أن السير لويس ماليت قد أبلغ تلك المطالب إلى حكومة لندن.

مرت ثلاثة أيام، وأجاب السير ماليت تفصيلياً عن كل من المطالب السابقة:

من حيث الامتيازات قال إنه لا يمكن التفكير في إلغاء الامتيازات القانونية، وإن كل ما تستطيعه إنكلترا هو أن توافق - بعد إجماع حلفائها - على إلغاء بعض الامتيازات المالية. أما عن الجزر فيحسن إرجاء النزاع التركي - اليوناني. وكذلك ترك الخوض في المسألة المصرية إلى ما بعد انتهاء الحرب، لأن حلها متعذر الآن ويفتح الباب لأخطار كثيرة.

أما روسيا فلا تفكر مطلقاً في مهاجمة تركيا، فضلاً عن أن فرنسا وإنكلترا بين الدول التي وقّعت المعاهدة التي ضمنت سلامة تركيا، ويمكن تركيا أن تطمئن من هذه الجهة، وكأننا طلبنا فقط أن نستفسر عمّا إذا كانتا على استعداد لإعطائنا عهداً جديداً في وثيقة سياسية!.

وفي مقابل تلك الامتيازات! طلب إلينا عدم إغلاق المضائق في وجه السفن الروسية لأي سبب، وأن نأخذ على عاتقنا إعطاء روسيا كل التأكيدات اللازمة في هذه المسألة المهمة. فلم يبق مجال للشك في أن فرنسا وإنكلترا لم ترغبا في دخولنا الحرب في جانبهما لأن ذلك كان مخالفاً لمصلحتهما، فهما لم تطلبا أكثر من حيادنا التام، وردّ البحارة الألمان والبعثة العسكرية إلى ألمانيا سريعاً، وفتح الدردنيل للسفن على ألا يغلق في المستقبل، وفي مقابل ذلك تعطي كل من فرنسا وإنكلترا وروسيا الباب العالي وثيقة سياسية تضمن فيها سلامة الأراضي العثمانية، وتوافق على إدخال تغييرات معينة في الامتيازات المالية.

والذي أراه أن هذا الجواب كان صريحاً جداً، فإن دول الاتفاق لم تود اشتراكنا في الحرب إلى جانبها، ولست أدري ما السبب؟.

فلو اشتبكنا في الحرب إلى جانبها لضاعت من روسيا آخر فرصة لتحقيق فكرة الاستيلاء على استانبول، وهي محط نظرها في المستقبل، وهو الأمر الذي لا تسلم به روسيا ولا فرنسا ولا إنكلترا.

إذن فغرضها كان هكذا: «لنسعَ الآن في منع تركيا من القيام بشيء مضر بمصلحتنا وسنحتفظ في غضون الحرب بالتحالف مع روسيا لنصل بواسطته إلى الفوز النهائي، ووقتئذٍ نرضي مطامع روسيا

بإعطائها استانبول وتمنح الولايات العربية بحجة الإصلاحات استقلالاً داخلياً يسهل فيما بعد سقوطها تحت حمايتنا أو وصايتنا».

ثم يسهل على القارئ فهم السر في رفض إنكلترا اقتراحي الثاني بالطريقة نفسها وللسبب عينه الذي رفضت لأجله فرنسا اقتراح المعاهدة الذي عرضته في باريس.

وقد يقول قائل إنه كان خيراً لنا أن نظل على الحياد! وأحسب ذلك القائل يشترط لحيادنا ألا نمنع الملاحة في المضائق؟! بيد أن ذلك كان معناه خروج روسيا من الحرب العالمية ظافرة منيعة الجانب، بحيث لا تحجم عن الانقضاض على العاصمة والولايات الشرقية في الأناضول!.

بل قد يقال إنه كان في الإمكان إقفال المضائق والاحتفاظ بالحياد! بيد أن الاتفاقية لم تكن تسمح بذلك، كما لم يكن منتظراً أن تسمح به إنكلترا أو روسيا. فقد كان مؤكداً أن يؤدي عمل كهذا إلى الضغط علينا من كل جهة، بل إلى أن يقترح بعضهم علينا اقتراحاً غريباً كهذا: «دعونا نحتل استانبول والمضائق إلى أن تضع الحرب أوزارها، ووقتئذٍ نعيدها إليكم!».

ولا أظن أن دول الاتفاق تتهاون في الانتقال من الأقوال إلى الأفعال!.

وباختصار لم يبق أمامنا سوى طريقين: إما أن نتحالف مع فرنسا وإنكلترا فنعلن الحرب على دولتي الوسط وبهذه الوسيلة نتقي خطر مهاجمة روسيا لنا، وإما أن ننضم إلى دولتي الوسط ونساعد في تحطيم روسيا. وبعدما أبت إنكلترا وفرنسا التحالف معنا طلبتا أن نظل على الحياد وأن تبقى المضائق مفتوحة لألد أعدائنا!! أما دولتا الوسط فكانتا على نقيض ذلك، إذ إنهما رحبتا بانضمامنا إليهما رغم تمتعهما بالقوة الكافية لسحق روسيا، ولكنهما في الوقت نفسه طلبتا أن نضع أقصى ما نستطيع من المعوقات في طريقها. فبواسطة تلك الخطة أمكننا أن نعلل النفس بالأمل في رؤية عدونا تدور عليه الدوائر، وطبعاً لم يفتنا التفكير في أن دولتي الوسط قد يعبس فيهما الدهر، ووقتئذٍ يصبح نزول الكوارث بنا أمراً محققاً.

بيد أن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أننا لو لزمنا الحياد وأبقينا المضائق مفتوحة، لكانت النتيجة فوزاً مبيناً لعدونا وقضاء مبرماً علينا.

فليتقوّل المتقوّلون ما يشاؤون عند استعراضهم الحوادث الماضية، ولكني بلا جدال أؤثر على الوقوع تحت نير روسيا وفرنسا وإنكلترا، بعد فوز روسيا، الدفاع عن أنفسنا إلى آخر قطرة من دمائنا، أملاً في تحرير رقابنا إلى الأبد - وهو البدل الوحيد الذي يرتضيه شعب شجاع عظيم - أو لنستطيع على الأقل أن نقول بلهجة الفخار: «أجل لقد فقدنا كل شيء عدا الشرف!»، وبهذه الصحيفة البيضاء نختم تاريخاً وطنياً لم يقم إلا على الشرف والشجاعة وتتدفق صحفه بحسن السمعة والمجد.

وعندي، بل هو رأي الأغلبية العظمى من الشعب التركي، أن القتال الذي خضنا غماره خلال أربعة أعوام أنتج حوادث تستوقف النظر جديرة بأمجد الصفحات في تاريخ أرقى الشعوب وأعلاها كعباً، ومن هذه الحوادث الدفاع الباهر عن الدردنيل وسليمان بك وحصار كوة الإمارة (كوت العمارة)[٥] ووقائع غزة والدفاع عن المدينة المنورة.

وطبعاً لا أوجه هذه الكلمات إلا إلى أولئك الذين يُؤْثرون الشرف على الحياة نفسها. أما أولئك الزعانف الذين يقيمون على الضيم ولا يأنفون من الذل متى كان من ورائه طول أعمارهم ولو بضعة أيام فلا أحسبهم يقدرون ما أقول. فإنهم يتخذون من الموقف العصيب الذي ساقنا إليه القدر وسيلة للتزيّي بوشاح الحكمة ولتعييرنا بقولهم: «ألم ننبئكم بهذا من قبل؟ فلو أصغيتم إلينا ولزمتم الحياد لما فقدتم كل تلك الأرواح. بل لما كنتم الآن في هذا الموقف المحزن!».

فلأولئك الزعانف نقول: «إن الاتفاق في الرأي مستحيل مع أناس لا يدركون أن السقوط في ميدان القتال شيء والموت في ظل الخنوع والأسر شيء آخر».

وقد أدت أحياناً علاقاتنا الخاصة بسفيري فرنسا وإنكلترا إلى الخوض في كثير من المناقشات اللذيذة. من ذلك أني كنت أحادث السير لويس ماليت يوماً فأخبرني بأنه لا يرتاب مطلقاً في أن أنور باشا قد انضم إلى الألمان وأصبح مشايعاً لهم. وأنهم ربما رغبوا في تسخير ضباطهم، وخصوصاً ضباط غوبن وبرسلو، لافتعال حادث يجعل وقوع الحرب أمراً لا مفر منه. فأخبرته بأن الرأي السائد في الوزارة هو الاحتفاظ بالحياد. وعلى ذلك ليس ثمة خطر ما.

فقاطعني قائلاً: «لا يا جمال باشا! إنك واهم! فإني على يقين من أن الألمان لن يحجموا عن القيام بأي شيء - حتى بقلب الحكومة - لإدراك غايتهم. وقد يعتقلونك في أحد السجون. ولا يدري أحد ماذا يحدث بعد ذلك!».

فأجبت بابتسام على هذه الملاحظات الساذجة قائلاً: «لطالما فكرت فيما عساي أن أصنع لو ساورتني تلك الشكوك. لا ريب أني في تلك الحالة أفتح الدردنيل لكوني وزيراً للبحرية وأسمح للأسطول الإنكليزي بالمرور. وأترك لك قمع الثورة التي تنشب في الأسطول!».

ومن المدهش حقاً أن يعتقد هذا السياسي الإنكليزي الحاذق صحة أقوالي هذه. حتى إنه أبلغ وزير الخارجية هذا الاقتراح السخيف كما علمت من الكتاب الأزرق. وقد قيل في الوثيقة الأربعين من الكتاب الأحمر الروسي إنني أعطيت بارون جيرس «كلمة شرف بأن أسحب بحارة غوبن وبرسلو عقب محادثتنا بأسبوعين. وأحسب أن البارون إن لم يكن يرغب فعلاً في أن يقول غير الواقع. لا بد من أن يكون فاه بتلك العبارة. لا لغرض آخر سوى إرضاء رؤسائه. لأنه لم يكن ثمة ما يلزمني إعطاء ذلك التأكيد الشخصي. فضلاً عن أن من عادتي عدم التكلم إلا إذا اقتضت الضرورة.

صورة دخولنا الحرب العامة[٦]

وفي الوقت نفسه كانت تجري إجراءات خطيرة. فإن مجلس الوزراء - الذي اعتاد الاجتماع كل مساء - أصدر قرارات مختلفة متممة للمعاهدة الألمانية - التركية. وطالب ألمانيا بإقرارها. وكان أقصى ما تمنيناه أن تشترك بلغاريا في الحرب. وقد وردتنا من محمود مختار باشا سفيرنا في برلين البرقية الآتية:

لما عرضت المعاهدة الألمانية - التركية بتوقيع جلالة السلطان على إمبراطور ألمانيا أشار إلى عظم

المزايا التي تعود على الأمتين. وقال ووجهه متهلل بابتسامة الفرح: «والآن لأخبرنكم بأخبار سارة أخرى، فمنذ صباح اليوم وردني خطاب من ملك بلغاريا ذكر فيه أنه يرغب في عقد تحالف معي!».

ففرحنا بذلك النبأ فرحاً شديداً، لأن البلغار لم ينبسوا في خلال الأشهر الستة الماضية بكلمة واحدة عن المفاوضات بعقد تحالف معنا، وأصبحنا نعتقد أنهم لو انضموا في الحرب إلى صفوف دول الاتفاق لكانت في ذلك الطامة الكبرى علينا.



المندوب البلغاري توشيف في استانبول ١٩١٤

فلما مضى شهران على إعلان الحرب ولم يقم البلغار بعمل ما، ثبت عندنا أنهم خدعوا الألمان كما خدعونا. وانضم المندوب البلغاري توشيف - الذي كانت علاقتنا به ودية وثابتة - إلى الرأي القائل بأن من الحمق أن تشترك بلغاريا في الحرب قبل أن تعرف كيف تنتهي، وقد أصمّ أذنيه عن كل نظرية أخرى.

وكان الألمان قد وافقوا - كما أسلفت - على التزامنا الحياد حتى تتم تعبئة جيشنا وعلى تأجيل يوم دخولنا الحرب إلى أبعد حد ممكن، بيد أن جنودهم لما اضطروا إلى الانسحاب قليلاً بعد هزيمة المارن[٧] وتحولوا من الهجوم إلى الدفاع، فيما الجيوش الروسية توغلت في زحفها المظفر المخرب في بروسيا الشرقية وانقضّت على غاليسيا أيضاً، تغيّر مركز ألمانيا تغييراً كلياً وأخذت تلحّ علينا في دخول الحرب في الحال لحمل روسيا وإنكلترا على إبقاء قوات كبيرة في القوقاز ومصر.

وأخذت المساعي التي استند في بذلها السفير الألماني لدى الصدر الأعظم والوزراء إلى نصوص المعاهدة صفة الأمر، على أن تعبئتنا كانت قد تمت في ذلك الوقت وأصبحت فيالقنا كلها على أهبة النزول إلى الميدان عند أول إشارة من القائد العام، وجرى تمرين الوحدات المختلفة بلا انقطاع، حتى إنه ما كاد يخلو يوم واحد من مناورات تقوم بها الفرق والفيالق حول استانبول وآسكدار. وهنا بدأنا نعترف بصدق نظر أنور باشا إذ كان قد أصر على أن إعادة تنظيم الجيش يجب أن تبدأ بإصلاح الكادر، فقد شوهدت النتيجة في خفة الوحدات الكبيرة التي سلم قيادتها إلى ضباط حديثي السن ذوي دراية تامة بالخطط وفن التعبئة. فلما علم الألمان بهذه النتائج رأوا أننا لا يسعنا، ولدينا مثل ذلك الجيش المنظم تنظيماً بديعاً، أن نقف مكتوفي الأيدي نشاهد الكوارث التي تنزل بالنمسويين والألمان.

وهنا يجب أن أسأل القارئ، وعفواً إذا خرجت قليلاً عن الموضوع، ذلك أن شائعة راجت في استانبول في ذلك الوقت بأن أنور باشا أصر على عقد معاهدة مع ألمانيا وإعلان الحرب على روسيا، وأني تمسكت

بعدم تغيير خطة الحياد مهما كانت الأسباب. ولقد قيل إن النزاع تفاقم أمره، حتى إن أنور باشا هددني بمسدسه على مرأى من الوزراء، وأنني كنت أسبق منه فجرحت قدمه. ووجه الغرابة هو أن تجد خرافة وهمية كهذه طريقاً إلى كتاب السيد مورغنتو[٨]. ووددت لو أعرف هل كان ذلك السفير الأمين الذي يبني معلوماته على شائعات سخيفة كتلك يحمرّ وجهه خجلاً لو حمل نفسه على قراءة كتابه بعد وقوفه على ما كتبت هنا.

وأحسبني مديناً له لمنحي هذه الفرصة لأعرّفه أنه ما كان أنور ليخطر له ولا لطلعت ولا لسواهما من الزملاء أن ينطلق لسان واحد منهم بلفظة جارحة - فضلاً عن استعمال السلاح - سواء في الوقت الذي عملنا فيه معاً ثواراً لقلب الحكم الاستبدادي الحميدي، أو في الفترة التي كنا فيها في الوزارة. فلم ننشأ من أصل وضيع مجهول كما يعتقد السيد مورغنتو ويريد حمل غيره على ذلك الاعتقاد. فإن بعضنا أنهى دراسته في الأكاديمية الحربية، وكثر منا تخرّج في الجامعات التركية والأوروبية. ولم يكن طلعت أحد سعاة البريد[٩] كما ادّعى السفير بل ألحق بكلية الحقوق بعد مغادرته المدرسة.

فسخفٌ أن يخطر لإنسان أننا ننحدر إلى فئة المجرمين وما عاد الآن في وسعنا الاعتذار عن عدم دخول الحرب بعد إتمام تعبئة جيشنا. ثم اعترضتنا المشكلة المالية، ذلك أننا لم نجن فائدة مباشرة من إلغاء الامتيازات بقانون موقت، لأن إيراد الجمارك هبط إلى ربع ما كان قبل الحرب.

ولما كان القسط الأول من القرض الذي عقدناه في فرنسا لا يكفي إلا لسداد نفقات الحكومة حتى نهاية العام، قررنا أن نطلب إلى الألمان تسوية المشكلة المالية.



أنور باشا إلى يسار الصورة وطلعت باشا إلى اليمين يراقبان مناورات برية تقوم بها وحدات عسكرية تركية



في العشاء السنوي الرابع للحفل الماسوني ورئيسه مورغنتو
حيث جرى القيام بحملة مالية لدعم الرئيس القادم وودرو ويلسون للولايات المتحدة لأميركية

السفير الأميركي في مكتبه في السفارة الأميركية في استانبول سنة ١٩١٥

ففي ١١ أكتوبر/تشرين الأول وجّهت إليّ من السفير فانغنهايم دعوة خاصة إلى الغداء في السفارة في ترابيا. فلما وصلت إلى هناك وجدت الصدر الأعظم وطلعت وخليل وأنور. ثم حضر أيضاً فون كليمان الذي اختير حديثاً مستشاراً للسفارة. وبعد الغداء دخلنا غرفة السفير الخاصة. فأسرّ إلينا فانغنهايم وعلامات الحزن بادية عليه أن ألمانيا قبلت كل شروطنا المالية. وحدق فينا نظرة كأنما كان يقول: «أرجو ألا تضعوا عراقيل جديدة!».

فما قال به المخرفون من أننا وقّعنا المعاهدة ذلك اليوم في السفارة محض اختلاق. إن المعاهدة كما قلت قبلاً كانت قد وُقّعت في بدء الحرب. فلم يك ثمة ما نوقّعه ذلك اليوم. وفي اليوم التالي بحثت الهيئة الداخلية في مجلس الوزراء الحالة العامة من كل وجوهها. وقد بدا لنا في بدء الاجتماع رأيان:

أولاً: دخول الحرب بلا إبطاء.

ثانياً: إرسال خليل بك بصحبة حافظ حقي بك(١٠) نائب رئيس هيئة أركان الحرب لإقناع الألمان بضرورة التزامنا الحياد ستة أشهر أخرى.



حافظ حقي باشا (١٨٧٩ -١٩١٥)

ولد حافظ حقي في مناستير سنة ١٨٧٩. درس في المدرسة الحربية في استانبول. تابع دراسته العسكرية الأكاديمية وتخرج نقيباً سنة ١٩٠٢. خدم في الوحدات العسكرية المرابطة في منطقته ومناستير وسالونيك حيث أبدى مواقف بطولية جريئة في محاربة العصابات البلغارية ومطاردتها. سنة ١٩٠٨ أصبح رائداً وخدم في العاصمة. بعدها عيّن ملحقا عسكرياً في فيينا. إنما لم يستمر طويلاً. فعاد واتصل بجيش التحرير الذي أحبط الردة الرجعية في نيسان/أبريل ١٩٠٩. تابع حافظ حقي عمله في القيادة العليا في استانبول. خلال الحرب البلقانية الثانية كان موقعه في الدفاع عن أدرنة. عندما بدأت الحرب العالمية عيّن في قيادة الفيلق العاشر العامل في جبهة القوقاز. بعد معركة ساريكميس. في كانون الثاني من سنة ١٩١٥ رقّي إلى جنرال ليقود الجيش الثالث. القدر كان متربصاً له. إذ سرعان ما أصيب بحمى التيفوئيد وبعد شهر توفي في ١٥ شباط/فبراير من السنة نفسها ١٩١٥ في أرضروم.

فانضم جاويد بك إلى الرأي الثاني وأخذ الوزراء الباقون بالرأي الأول. وقد ظهر الصدر الأعظم لأول مرة بمظهر المتردد. وهنا أخبرنا أنور بأنه - مراعاةً للاحتجاجات العديدة الحقة التي احتج بها أمير البحر - لا يستطيع لأسباب حربية أن يحول دون طواف غوبن وبرسلو في البحر الأسود. غير أن سفر هاتين المدرعتين مع السفن العثمانية يقتضي حتماً اشتراكنا في الحرب. أولاً لأن حكومات الاتفاق لم تعتبر غوبن وبرسلو تابعتين لتركيا فضلاً عن أنها صرحت رسمياً بأنهما لو اجتازتا المضائق - حتى لو لم ترفع عليهما الراية الألمانية وكان البحارة الأتراك هم الذين على متنيهما - فستعاملان معاملة السفن التابعة لدولة معادية. أي إنه أصبح محتماً أن يهاجمهما الأسطول الروسي لو وقع نظره عليهما. بل لو لم يهاجمهما الأسطول الروسي لسبب من الأسباب فإن أمير البحر سوخون. الذي كان شديد الرغبة في اشتراكنا في الحرب. يستطيع أن يلزمنا بدخولها بأن يهاجم الأسطول الروسي أو الموانئ الروسية بمحض إرادته.

وبعد مناقشة قصيرة تقرر أن نرسل خليل بك وحافظ حقي بك إلى برلين وتخويل نائب القائد العام حق تناول مسألة الأسطول. على أن يتجنب في الوقت نفسه كل ما يؤدي إلى دخولنا الحرب.

ولكنا اضطررنا بناءً على تقرير أرسله إلينا أمير البحر سوخون إلى أن نرضخ للحقيقة التي أوردها. وهي أن المهاجمة التي أحكم الأسطول الروسي تدبيرها حتّمت عليه الاصطدام بالأسطول. وبذلك أعلنت روسيا - ثم فرنسا - الحرب على الحكومة العثمانية.



الأميرال سوخون بالطربوش التركي في الوسط مع ضباط الدارعتين (غوبن) و(برسلو)

ولما وصلت الأنباء إلى استانبول بأن الأسطول العثماني بعدما هاجمه الأسطول الروسي في البحر الأسود، فتح أيضاً نيرانه على أوديسا وسباستوبول وتيودوسيا وبعض موانئ أخرى، وجدنا الصدر الأعظم في حالة عقلية غريبة، وإذ كان ممانعاً في دخولنا الحرب أبى بشدة تحمّل قسط من المسؤولية عن حرب كان محتماً أن تؤدي مهاجمة أسطولنا للأسطول الروسي والموانئ الروسية إلى إلقاء المسؤولية على الحكومة.

وكانت عطلة عيد الأضحى وقتئذٍ وكنا نجتمع في قصر الصدر كل يوم، فأعلن سعيد باشا حليم أنه يستقيل في الحال إذا أدت هذه المهاجمة إلى الحرب، فبادرنا بلفته إلى أنه بعد توقيعه المعاهدة مع ألمانيا وانضمامه منذ أيام قليلة إلى القرارات التي نصت على تعهدات تركيا حيالها، لا يمكنه الاستقالة الآن بسبب وقوع حادث لا يعتبر إلا نتيجة طبيعية، وإزاء هذا المنطق المسكت والمحاجة المقنعة التي لم تترك له جواباً قبِلَ الصدر الحالة كما هي وعدل عن الاستقالة.

وفي اليوم الذي أعلنت فيه روسيا وفرنسا وإنكلترا بدء العدوان، عقد مجلس الوزراء في الباب العالي جلسة فوق العادة، فبيّن سعيد حليم باشا وهو يشير إلى الحقائق التي تضمنها تقرير أمير البحر سوخون كيف قابل أسطولنا عقب مهاجمة الأسطول الروسي لبوارجنا في البحر الأسود العدوان بمثله، فنازل السفن التجارية والحربية في أوديسا وسباستوبول والموانئ الأخرى، فترتب على ذلك أن أعلنت روسيا أولاً ثم فرنسا وإنكلترا فيما بعد الحرب على الحكومة العثمانية.



مجلس الوزراء

وحفظاً للعلاقات الودية واجتناباً للعدوان اقترحت حكومتنا عمل تحقيق مشترك لمعرفة أي الأسطولين كان البادئ بالعدوان لجعل قائد الأسطول مسؤولاً شخصياً ولكن الحكومة الروسية رفضت ذلك الاقتراح، فاضطرت الحكومة العثمانية إزاء هذا الرفض إلى أن تعتبر نفسها في حالة حرب مع الحكومات الروسية والفرنسية والإنكليزية، وأن تعرض الأمر على جلالة السلطان. ثم طلب الصدر الأعظم أن يبدي الوزراء رأيهم بمنتهى الصراحة بلا خوف ولا محاباة. فكان أسبقهم إلى الكلام وزير البريد والتلغرافات أوسقان أفندي، فقال إنه من أجل كراهيته للحرب وبغضه لها لا يستطيع توقيع قرار توافق فيه الحكومة العثمانية على الاشتراك في الحرب وعلى ذلك هو مستقيل. أما لو حوّلت وزارة البريد والتلغرافات إلى مصلحة فإنه يستمر في عمله بوصفه مديراً عاماً. ثم تكلم وزير الزراعة والتجارة سليمان أفندي البستاني، فقال إنه بوصفه عضواً في جمعية السلام الدولي يعارض الحروب بأسرها، ويرى نفسه مضطراً إلى الاستقالة. وتلاه شوروك سولون محمود باشا، فقال إنه نظراً إلى عين الارتياب التي ينظر إليه بها زملاؤه يلتمس قبول استقالته.

ولم يكن جاويد بك حاضراً المجلس، ولكن طلعت باشا قال إنه (جاويد) مصمم على الاستقالة.



الوزير سليمان أفندي البستاني

الأديب الجريء. قدم استقالته من الحكومة رافضاً إشراك تركيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا بعد إصرار أنور وطلعت وخليل وجمال على المشاركة.

ثم غادر الوزراء المستقيلون قاعة المجلس، وشرع الباقون - وهم سعيد حليم باشا الصدر الأعظم، وخيري أفندي شيخ الإسلام، وأنور باشا وزير الحربية، وطلعت باشا وزير الداخلية، وإبراهيم بك وزير العدلية، وخليل بك رئيس مجلس الدولة، وشكري بك وزير المعارف، وكذلك أنا - في كتابة القرار الذي بيّنّا فيه الضرورة القاضية بدخولنا في الحرب، ثم عرضناه على جلالة السلطان.

ونظراً إلى الأغلبية الساحقة في مجلس المبعوثين والأعيان التي وافقت على الحرب وأبدت ثقتها بالحكومة، أيقنّا أن الأمة كلها تؤيد الحكومة في سياستها الخارجية.

وفي اليوم الذي وضعنا القرار واعترفنا بوجود حالة حرب بيننا وبين دول الاتفاق الودي (فرنسا، روسيا، بريطانيا)، نفذت الفيالق مناورات قرب أسكدار بين أوجادية شامليدجا وآرن كوى. أما الوحدات التي اشتركت في المناورة فكانت الفرقة الثالثة بقيادة الكولونيل الألماني نيكولاي بك والفيلق الخامس بقيادة الكولونيل محمود كامل بك[١١].



شكري باشا

ولن أنسى مظاهر الشعور الوطني والحماسة الحربية اللذين أظهرهما جميع ضباط الوحدات للفرق الأربع عندما بلغهم نبأ نشوب الحرب، وقد أرسلت إليهم بوصفي القائد العام للفيلق طالباً حضورهم إلى تل شامليدجا لإبداء ملاحظاتهم على المناورات التي لبثت يوماً وليلة وانتهت في الفجر بالهجوم على التل الذي كانت تدافع عنه الفرقة الثالثة. فضباط ورجال تلك الفرق الأربع هم جزء من الشعب العثماني، والذين لم يشاهدوا سرور الجنود وحماستهم وبلغت بهم الجرأة إلى أن يتقولوا الآن بأن الشعب لم يكن راغباً في الاشتراك في الحرب، إما أن يكونوا مدفوعين بعوامل خسيسة وإما بدافع الجبن وقصر النظر. أما التغيير في الوزارة فكان قاصراً على تسلم الأمير عباس حليم باشا مهمات وزارة الأشغال، وأحمد نسيمي بك وزارة الزراعة. أما طلعت باشا الذي ما زال عضواً في الوزارة فقد تسلم وزارة المال موقتاً، كما تسلم شكري بك وزارة البريد والتلغرافات.

هوامش الفصل الرابع:

(١) المذكرة الصربية: رفض الكونت بريختفالد وزير خارجية النمسا القيام بعمل عسكري سريع ضد الصرب وهو الطلب الذي تقدم به العسكريون والإمبراطور نفسه. لمعارضته القيام برد سريع على الصرب وأنهت الحكومة النمسوية من وضع نداء الانذار إلى الصرب مساء ١٩١٤/٧/٢٣ متهمة الحكومة الصربية بضلوعها في تدبير المؤامرة ضد النمسا التي تستنكر الدعايات القومية العدائية الخطرة الصادرة عن الصربيين وتطلب من الحكومة الصربية أن تشجب وتعلن استنكارها لهذه الاعمال وعليها تنفيذ ما يلي:

١) إيقاف كل الحملات الإعلامية من صحافة ونشرات وبيانات موجهة ضد عرش مملكة النمسا - المجر.

٢) حل وتعطيل كل حزب أو جمعية أو عصبة معادية للمملكة.

٣) استئصال كل ما يساهم في الاعلام والتربية والتعليم وينشر الروح العدائية للمملكة.

٤) ان تبعد من الخدمة العسكرية ومن الادارة كل معادٍ للمملكة وتقديم لوائح باسمائهم ونشاطاتهم.

٥) ان تتعاون حكومة الصرب مع مندوبيها ممثلي حكومة العرش النمسوي - المجري على قمع الحركات القومية المعادية.

٦) محاكمة كل من يكشفه التحقيق متورطاً أو مساهماً في مؤامرة الاغتيال بالتعاون مع مندوبي المملكة.

٧) الاسراع بالقبض على المتورطين الذين كشفهم التحقيق.

٨) حظر نقل وتداول الاسلحة والمتفجرات عبر الحدود ومعاقبة كل من ساهم بنقل سلاح الجريمة.

٩) تقديم المبررات عن التصريحات العدائية لبعض المسؤولين الصربيين داخل صربيا وخارجها.

١٠) على الحكومة الصربية أن تنفذ النقاط المذكورة من دون إبطاء وحكومة العرش تنتظر الرد إلى السادسة من مساء السبت في ٧/٢٥ كحدٍ أقصى (المصدر: موسوعة تاريخ العالم. لانجر. كتاب عمر الديراوي. موسوعة نور الدين حاطوم. موسوعة عمر ابو النصر. ص١٤٢).

(٢) الرايخشتاغ: الجمعية التشريعية لممثلي الامة الألمانية تسمية (مجلس النواب) بين ١٨٦٧- ١٩٤٥. ظهر بعد توحيد المقاطعات والإمارات البروسية - الألمانية على يد المستشار أوتو فون بسمارك.

(٣) أرطغرل: الابن الثالث لسليمان زعيم عشيرة قايي. إحدى أفخاذ قبيلة الغزّ التركية التي إحتمت بشاه خوارزم جلال الدين. انفرد بقسم صغير من القبيلة ليلتحقوا بخدمة علاء الدين السلجوقي سلطان قونية الذي أقطعه المستنقعات في «قره صو» الفرات الغربي. عثمان ابن ارطغرل يعتبر المؤسس للسلطنة العثمانية (فيليب حتي. تاريخ العرب. كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية. دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة مستشرقين. ص١٥٤).

(٤) الكتاب الأزرق: تعبير دبلوماسي يطلق على كل كتيّب يتضمن معلومات ووثائق دبلوماسية. الهدف منه شرح الموقف الحكومي من قضية دولية محددة ويوزع على جهات معنية من حكومات وبعثات دبلوماسية ومنظمات دولية. ويطلق هذا الاسم أيضاً على التقارير البرلمانية الصادرة عن وزارة الخارجية. استمد هذا الكتاب اسمه من لونه الخارجي (الموسوعة السياسية. مج ٥/ص٩٦).

وهو الكتاب البرلماني البريطاني الصادر عام ١٩١٦ بعنوان «معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية (١٩١٦-١٩١٥)» "The Treatment of Armenians in the Ottoman Empire" الذي اعتمدته الحكومة البريطانية والذي يوثّق مجازر الإبادة الأرمنية. وهو من تأليف اللورد جيمس برايس والمؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي. ووجّه البرلمان التركي رسالة إلى نظيره البريطاني في ٢٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٥. زاعماً أن «الكتاب الأزرق» كان تلفيقاً دعائياً بريطانياً حطّ من قدر الأتراك العثمانيين ويستمر اليوم في الإضرار بالمصالح التركية.

(٥) كوت العمارة: بلغة وتراث أهل الخليج العربي تعني قصر. ويقال إنها تصحيف لـ«كوّة» (أي فتحة. نافذة) (الأعلام للزركلي).

(٦) الجزء السابع يتحدث بالتفصيل عن هذا الموضوع.

(٧) معركة المارن (١٩١٤): تعتبر معركة المارن من أكبر المعارك في التاريخ العسكري حتى ذلك الوقت بمقاييس بدايات القرن العشرين. معركة دارت بين جيوش قوامها مليوني جندي وضابط. المعركة وضع خطوطها العامة المارشال شليفن في العام ١٩٠٥ بسبب العداء التاريخي المستفحل بين ألمانيا وفرنسا. الخطة تقضي بتنفيذ هجوم ألماني صاعق سريع مفاجئ وقاتل على فرنسا. ينفذ من طريق بلجيكا. بعدها يتم الارتداد إلى روسيا. وعلى ألمانيا ان تبذل كل ما في استطاعتها للقضاء على فرنسا ولا تهتم للزحف الروسي من الشرق. ولا بزحف الفرنسيين الالزاس واللورين ولا بدخول انكلترا الحرب ضدهم دفاعاً عن بلجيكا.

إن نجاح الخطة يتطلب:

- السرية التامة والمفاجأة باقتحام بلجيكا
- الاستيلاء على خطوط سكك الحديد
- الاستيلاء على الحصون في ليبج القريبة من الحدود.
- النزول إلى فرنسا قبل ان تستعد وتعبئ قواتها وتوجيه الضربة القاضية لها.

وعندما اشتعلت الحرب وفيما كانت الجيوش الألمانية تدك الحصون البلجيكية وتدخل الأراضي الفرنسية كان الفرنسيون بقيادة المارشال جوفر يوجّه جيشين للتصدي للهجوم الألماني الخطير والمصيري في شمال باريس. وفي الوقت نفسه يقوم الجنرال الألماني مولتكه (الصغير) بتجميد قوة قوامها فرقة (١٠٠٠٠ جندي) في جناحه الايمن لإخضاع مدينة انتويرب والاستيلاء على حصونها. ثم أرسل أربع فرق إلى جبهة بروسيا الشرقية لجبه هجوم روسي محتمل. هنا استغل الفرنسيون والإنكليز نقطة الضعف هذه (التي حذر منها شليفن) في الجناح الأيمن. فضغطوا وركزوا نيرانهم من جيش مرتاح. على الجيش الألماني الزاحف المهاجم ولكن المنهوك التعِب. استغرقت معركة المارن خمسة ايام. ولولا ثبات الحلفاء لسقطت العاصمة باريس وانهارت فرنسا. حتى قوة العاصمة أُرسلت إلى المعارك. والجنرال مولتكه ظل اياماً لا يعرف اماكن تموضع قواته وانتقلت الحرب من معركة حركة إلى معركة خنادق. أُقيل مولتكه وعين بدلاً عنه الجنرال فالكنهاين (موسوعة عمر أبو النصر. الموسوعة العسكرية. الأيوبي).

(٨) الجزء الثاني عشر من المجموعة.

(٩) المصادر العثمانية والتركية والعربية والأوروبية والكردية لفتت إلى أن طلعت كان من موظفي دائرة البريد في سيلانيك. ولِمَ هذا الحنق على قول الحقيقة وما العيب في ذلك؟

(١٠) حافظ حقي من موقعه في هيئة أركان الجيش التركي كان جهاراً يعارض دخول الحرب ومشاركتها للألمان. وحجته عدم قدرة تركيا عسكرياً وأطماع ألمانيا على حساب المصالح التركية. لذا أُبعد فيما بعد إلى الجبهة القوقازية.

(١١) محمود كامل باشا (١٨٨٠-١٩٢٠): وُلد محمود كامل في حلب سنة ١٨٨٠. تخرج من الأكاديمية العسكرية سنة ١٩٠٢. أول وحدة عسكرية أدى خدمته فيها كانت في الجيش الخامس. وأثناء حرب البلقان كان قائداً لحصن اشكودرا في ألبانيا. وبعد سقوطه خدم كرئيس لهيئة أركان الفيلق الخامس ثم الرابع. وفي بداية الحرب العالمية كان وزيراً للحربية. ثم أُعطي في ١٩١٤/١٢/٢٢ قيادة الجيش الثاني مع رتبة جنرال. وفي ١٧ شباط/فبراير ١٩١٥ سُلّم قيادة الجيش الثالث وبقي معه سنة. في حزيران/يونيو سنة ١٩١٦ استدعي مجدداً لتسلم وزارة الحربية. قبل نهاية الحرب تسلم قيادة الجيش الخامس خمسة أشهر. محمود كامل باشا ترك الخدمة العسكرية بسبب مشاكل صحية في حزيران/يونيو ١٩١٩. ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي في استانبول.

القسم الثاني

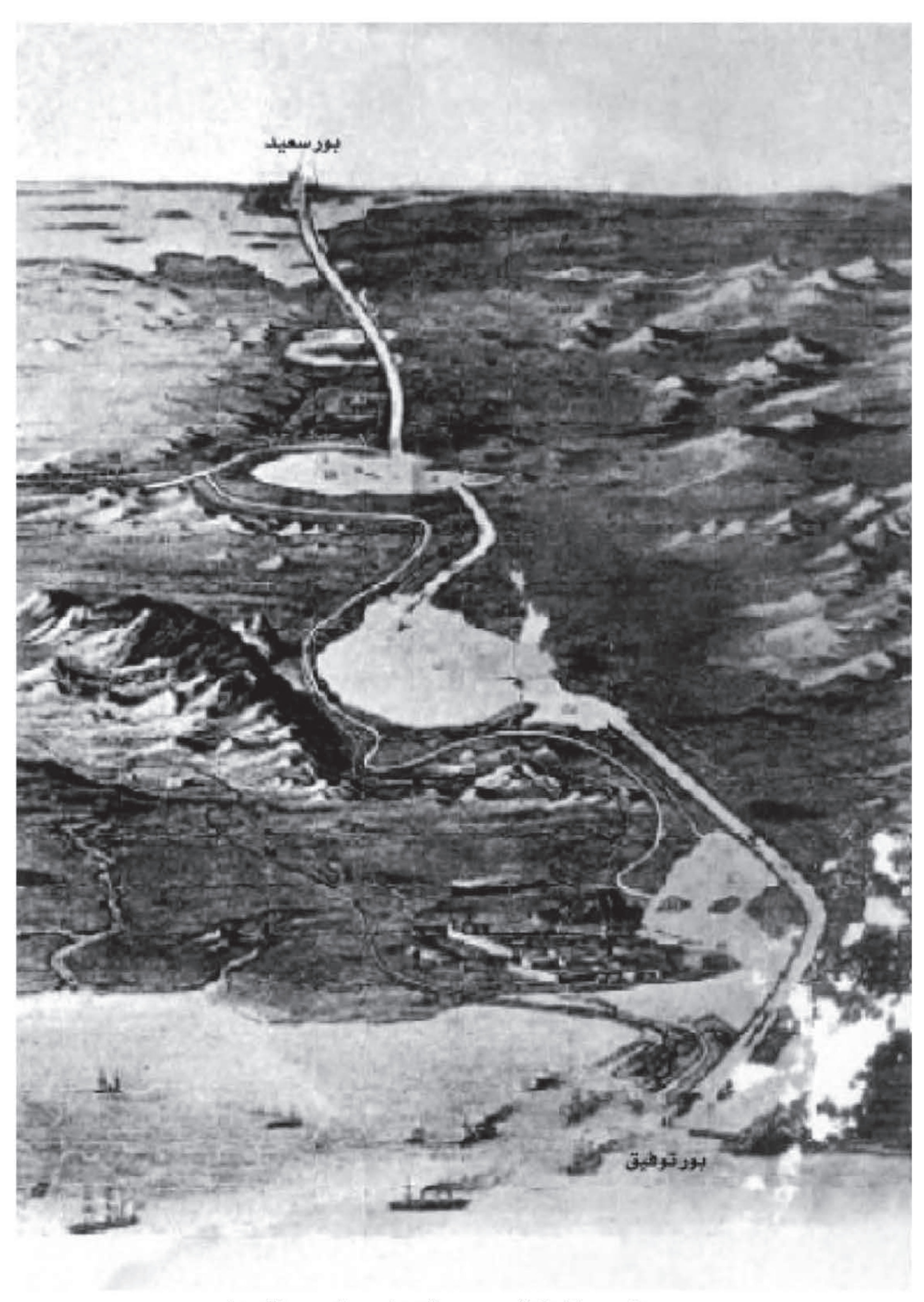
الفصل الأول

تعييني قائداً للجيش الرابع

دعاني أنور باشا إلى منزله ذات يوم ولم يكن مرّ على دخولنا الحرب أكثر من عشرة أيام، وقد لزم الفراش بسبب خُراج في قدمه، وبعد ملاحظات قليلة عن الحالة العامة قال لي: «إنني يا جمال باشا أريد الشروع في مهاجمة قناة السويس لأرغم إنكلترا على إبقاء قوات كبيرة لها في مصر، وبذلك لا أكون قد حملتها على أن تترك هناك عدداً من الفرق الهندية التي ترسلها الآن إلى الجبهة الغربية فحسب، بل أكون قد حِلْتُ دون حشدها قوة أيضاً لإنزالها في الدردنيل. ورغبةً في تنفيذ ذلك المشروع أخذت أعدّ العدة في سوريا منذ شهر أو اثنين، وقد أنطت بالفيلق الثامن الذي يقوده جمال باشا المرسيني (الصغير) تلك المهمة. وبما أن الألمان يعلقون على تنفيذ ذلك المشروع أهمية كبرى، فقد عينت الليوتنانت كولونيل فون كريس بك رئيساً لهيئة أركان الحرب، وأرسلته إلى دمشق ملحقاً للبعثة العسكرية الألمانية، وأخبرته بأن مهمته الأولى هي إعداد المعدات للحملة على القناة.



أحمد جمال باشا وإلى يساره جمال المرسيني



رسم تقريبي لقناة السويس والتضاريس المحيطة بها

ممر مائي في مصر يصل البحر الابيض المتوسط شمالاً عند بور سعيد حتى بور توفيق جنوباً على البحر الاحمر عند السويس. وتعتبر أهم شريان ملاحي في العالم. اختصرت طريق الملاحة الدولية بين الشرق والغرب. طولها ١٩٥ كلم وعرضها ٦٠ متراً وعمقها ١٦ متراً.



جمال باشا المرسيني (١٨٧٣-١٩٤١)

أو فريد جمال المرسيني، وفي مصادر أخرى وكلاهما تركيان، اسمه محمد جمال وميلاده سنة ١٨٧٥. لتمييزه عن وزير البحرية قائد الجيش الرابع أحمد جمال باشا، أضاف إلى اسمه «المرسيني».
وُلد في مرسين وإليها نُسب. بعد تخرّجه من الأكاديمية العسكرية برتبة نقيب (يوزباشي) سنة ١٨٩٨ عمل في هيئة أركان الجيش الثاني. ولدى نشوب الحرب البلقانية (الجبهة الغربية) خدم في جبهتها رئيساً لهيئة أركان الفيلق وقائداً للفرقتين ١٠ و٤٢. في نيسان ١٩١٤ عيّن قائداً للفيلق الثامن (بقي رئيسه طيلة سنوات الحرب العالمية) ورقّي إلى جنرال. هذا الفيلق أُمر بالتوجه إلى سوريا ضمن الجيش الرابع بقيادة أحمد جمال باشا. والفيلق أُنيط به «الواجب الأساس» أي توجيه الضربة الرئيسة في الإسماعيلية في قناة السويس. وضمن الفيلق فرقة عربية هي قوام تنفيذ الهجوم «الواجب الأساس» قائدها اللواء علي الشرايدي والتي تلقت الضربات أكثر من بقية القطعات. تعاون مع كريس فون كرسنشتاين وفالكنهاين وبقية الضباط الألمان. في شباط ١٩١٨ كُلّف قيادة الجيش الرابع بدلاً من أحمد جمال باشا الذي كُفّت يده عن العمل في سوريا. شارك في المعارك ضد القوات الإنكليزية في بئر السبع وغزة والقدس. بتقدم هذه القوات وتراجع الأتراك نحو شمال فلسطين، أُلقيت عليه مسؤولية تنظيم جلاء القوات التركية من بلاد الشام نحو دمشق ورياق ثم حلب إلى تركيا بالتعاون مع مصطفى كمال باشا وجواد باشا. سنة ١٩١٩ سمّي جمال باشا المرسيني وزيراً للحربية في حكومة علي رضا باشا وكان متعاطفاً مع المقاومة الوطنية في الأناضول ومساعدتهم بالعتاد اللازم. لم يستمر في هذا الموقع أكثر من شهرين. استقال في ١٩٢٠/١/٢١ بضغط عليه من القوات الانكليزية-الفرنسية المحتلتين العاصمة استانبول. وبعد شهرين أرسل إلى المنفى إلى مالطا. بعد عام رجع جمال باشا المرسيني إلى تركيا منضماً إلى البرلمان في أنقرة ممثلاً عن إقليم اسبارطة. سنة ١٩٢٦ جرى استدعاؤه للتحقيق معه بزعم اشتراكه في خطة لاغتيال مصطفى كمال، وُجد بريئاً. توفي عن ٦٨ عاماً سنة ١٩٤١.

وأرسلت ياوري الميجور ممتاز بك، وعبد الرحمن بك العضو في مجلس الأعيان[1] والشيخ أسعد شقيري رئيس المجلس الشرعي (مفتياً للجيش الرابع) وغيرهم من وجهاء العرب، مزودين بالأوامر اللازمة لتكوين فيلق مساعد من البدو. وقد أصدرت الأوامر إلى زكي باشا الذي يقود الآن الفيلق الرابع بأن يقوم بالدفاع عن سوريا وفلسطين فقط. إلى أن يُتمّ جمال باشا المرسيني لكونه قائد الفيلق الثامن تعبئة فيلقه ويهيئ للهجوم على القناة.



عبد الرحمن باشا اليوسف (.... -١٩٢٠)

حفيد سعيد شمدين باشا (ت ١٣١٨هـ/١٩٠٠م). اليوسف عائلة كردية كبيرة في الشام ومن أعيانها، كان يغلب على العائلات الكردية التنافس فيما بينها كبقية العائلات الاخرى على المناصب والزعامة.

يذكر ان الباشا سعيد شمدين الزعيم الكردي القوي أصيب بمرض أقعده ما دفعه ان يعجل بان يحتل حفيده موقعاً وجاهياً عالياً في المجتمع الشامي لأجل ذلك دفع مبلغ ١٢ ليرة ذهب لزعيم محلي يدعى الحاج علي بك لتعيين حفيده أميراً للحج الشامي مع رتبة (ميرميران) وذلك بفضل الشيخ ابو الهدى الصيادي المقرب من السلطان عبدالحميد.

تدرج عبد الرحمن في سلم الوجاهة فمثل أكراد الشام في مناصب مختلفة ما منحه نفوذا وسط بيئته عضوية مجلس إدارة الولاية وانتخب نائباً على دمشق في مجلس الأمة ثم عين عضوا في مجلس الشيوخ. في عهد السلطان عبدالحميد كانت مواقف عبد الرحمن باشا اليوسف السياسية والاجتماعية والفكرية متماشية كما يشتهي السلطان المعادي للفكر المتنور، وفي عهد الانقلابيين الاتحاديين كانت مواقفه كما يشتهي انور وجمال ضد الاصلاحيين واللامركزيين.

وعند دخول الامير الشريف فيصل وقف في صف المرحبين والمهللين وفي عهد الفرنسيين وقائدهم غورو كان طوع بنانهم، نصبوه رئاسة مجلس الشورى وتابع معاداته للنهضويين أمثال عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وممالأة موقف الفرنسيين تجاه موقف أهل حوران والدروز.

قتل في حادثة (خربة غزالة) في حوران سنة ١٩٢٠م مع عدد من المسؤولين.

لديه أوسمة من عهد عبد الحميد والاتحاديين وفيصل والفرنسيين.

والآن هذا زكي باشا، فضلاً عن أنه لا يريد القيام بهذه الحملة، يطالب فعلاً بنجدات كبرى لحماية سوريا ضد إنزال قوة معادية، وتفيد الأنباء الواردة من سوريا عن اضطرابات تعمّ داخل البلاد، إضافةً إلى تعاظم النشاط الذي يبديه الثوار العرب.

فمراعاةً لهذه الظروف أعتقد أن وطنيتك العالية قد تجعلك توافق على قبول قيادة الجيش الرابع، فإن قبلت فعليك بتهيئة وتنفيذ الهجوم على القناة مع الاحتفاظ بالسلم والنظام داخل سوريا، ولا أعرف هل يعدّ من الجرأة أن أعرض عليك ذلك الاقتراح؟».

فأجبت فوراً: «إني أرى أن واجبي المقدس يحتم عليّ الذهاب أينما تظن أن مواهبي تكون في خير الوطن، وعلى ذلك إني بكل ارتياح أقبل قيادة الجيش الرابع التي عرضتها عليّ، وسأقصد مقر وظيفتي الجديدة في يوم أو اثنين«، فتهلّل وجه أنور باشا فرحاً بجوابي.

وفي اللقاء الثاني حصلت على الحرية التامة في العمل التي يخولها القانون لأي قائد في الجيش، واحتفظت بلقبي الأسبق وهو وزير البحرية، ثم تسلم مني أنور باشا الوزارة شرط أن يستشيرني ولا يعمل شيئاً ما إلا بموافقتي على كل الإصلاحات والتحسينات المراد إدخالها فيها.

ومن ثمّ ذهبت إلى المدرسة الحربية مركز قيادة الجيش الرابع، ولكوني وكيل القائد العام عيّنت رئيس هيئة أركان الحرب ورؤساء الأقسام الأول والثاني والثالث وبضعة ضباط آخرين، وقد أنبأتهم بتعييني قائداً للجيش الرابع، وكلفت الكولونيل فون فرانكنبرغ رئيس أركان الحرب إعداد ما يلزم لرحيلنا في أقرب وقت.

وبعد أن تم كل شيء - أي بعد أربعة أو خمسة أيام - غادرت محطة حيدر باشا في ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٤ قاصداً سوريا.

وقد ألقى أحد الفضلاء الذين حضروا لوداعي خطاباً مؤثراً، قال فيه إن الأمة تنتظر مني أعمالاً عظيمة وأنباء سريعة بالانتصار، فكان عليّ أن أجيب عن ذلك الخطاب، فقلت: «إنني أقدر تماماً عظم المهمة والمصاعب الكبيرة التي أمامي، فإن لم ندرك هذه المطالب وصرت أنا والرجال البواسل الذين معي جثثاً هامدة قرب القناة، فعلى أصدقاء بلادنا الذين يحلّون محلنا أن يسيروا فوق جثثنا لتحرير مصر - وديعة الإسلام - من أيدي المغتصبين الإنكليز».

ومذ ذاك علمت أن عدداً من أعدائي استخدموا هذه الكلمات لترويج هذه المغالطة وهي: «كيف تجرأ جمال باشا على العودة من مصر؟ ألم تكن مهمته طرد الإنكليز أو الموت؟ فلماذا لم يمت؟»».

وإن ما أقوله في هذا الكتاب سيساعدهم في معرفة أنه إن كان هناك عيب في بقائي حياً حتى الآن فليس بعائد إليّ، إذ لا يموت الإنسان قبل دنو أجله، وما يدريهم لعل سوء الحظ قد قضى أن أبقى حياً لأتحمل وشايات ونمائم أكثر مما تحملت في النزاع الذي لا أزال متأهباً لدخوله لمنفعة الوطن؟!.



فريدريش كريس فون كرِسِنشتاين (١٨٧٠- ١٩٤٨)
Friedrich Kress von Kressenstein

ولد في نورنبرغ/بافاريا. أُلحق بضباط البعثة الالمانية بقيادة الجنرال ليمان فون ساندرس الى تركيا كضابط مشاة لإعادة تنظيم وتأهيل الجيش العثماني وتحديثه لخوض الحرب سنة ١٩١٤. قضى طيلة ايام الحرب العالمية الاولى في الخدمة مع الجيش الامبراطوري العثماني. من حين وصوله عمل مسؤولاً للمخابرات في هيئة الاركان للجيش العثماني حتى أوان ذهابه في عداد اركان الجيش الرابع الى سيناء وجبهة السويس. فون كريس هو من أوعز لأنور ولسوخون بالهجوم على المرافئ والسفن الروسية في البحر الاسود. في مرحلة لاحقة وضع العقيد كريس على طاولة أنور خطة مهاجمة الانكليز في قناة السويس مع الحاجات المطلوبة وتفاصيلها وتحريرها منهم واستعادة ولاية مصر ورفع العلم العثماني عليها. العقيد كريس (جنرال في ما بعد) صرف زمن اقامته في تركيا في خدمة جيش الامبراطورية العثمانية. كريس سبق قيادة الجيش الرابع في الوصول الى سوريا بشهر ونصف للإشراف على استكمال المعدات اللازمة للمعركة. قسم منها وصل الى بيروت عبر البحر، وقسم آخر أتمم تصنيعه في سوريا. عين كمستشار عسكري لأحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع. كريس سبق قيادة الجيش الى الشام وكان مسؤولاً عن التحضير للوازم التقنية للمعركة (جسور العبور، زوارق). فرافق الحملة في سيناء وساعد في تدريب الوحدات التي ستنفذ الهجوم (بناء مجسم القناة ورسم الخرائط وشرح كيفية الهجوم والاهداف المطلوب مهاجمتها وتدميرها والتكتيك المفترض تطبيقه قبل العبور وبعده). كريس شغل موقع رئيس اركان الـ (الفيلق الثامن) وقائده جمال باشا المرسيني. والفرقة ٢٥ من الفيلق ٨ التي ستنفذ الضربة الرئيسة والعبور الى الضفة الغربية للقناة على نقطة الاسماعيلية بالزوارق، تحت غطاء (قصف مدفعي مكثف). كريس كان في موقع متقدم الى جانب جمال المرسيني قائد الفيلق صباح ٢ شباط/فبراير يراقبان تقدم الفرقة المهاجمة أثناء محاولتها العبور والشمس تشرق فكشفت القوات المهاجمة. واحمد جمال باشا يتتبع أخبار المعركة من موقع قيادة الجيش المستحدثة على كثيب مرتفع يبعد نحو ٢ كلم عن مسرح المعركة. كانت قيادة القوات الانكليزية المرابطة على الضفة الغربية للقناة على اطلاع على خطوات تحرك القوات المهاجمة كافة . من القدس وبئر السبع مروراً بسيناء خطوة فخطوة حتى وصولهم الى الضفة الشرقية للقناة. لذا تركت المهاجمين ان يقتربوا من هدفها ويصبحوا في مجال مرمى نيرانهم وأصلوهم نيراناً لا ترحم بكل الوسائل البعيدة والقريبة الثقيلة والخفيفة برية وبحرية. أصيب الفيلق بالخسائر بحسب إحصاءات انكليزية: ١٠٠٠ شهيد و٧٠٠ أسير و٧٠٠٠ جريح من ضباطٍ وجنود.. القائد أحمد جمال باشا أمر ضباط هيئة الاركان المرافقة ان تقوّم الموقف وتقدم تقريرها. ثم أمر بترتيب الانسحاب. إلا ان كريس اقترح الصمود والتصدي للانكليز بتكرار الهجوم بما تبقى من جنود الحملة. إلا ان أحمد جمال باشا رفض طلب كريس. الباشا أرسل تقريره الى العاصمة استانبول بالموقف. المعركة بنتائجها المشؤومة. التي كان دعا وخطط لها كريس بناء على طلب القيادة الالمانية في برلين جلبت لقائد الجيش الرابع سمعة سيئة في الاوساط التركية الرسمية وشماتة لدى البعض منهم على الرغم من الدعاية أنهم استطاعوا إيقاف الهجوم الانكليزي الفرنسي على جبهة الدردنيل وحققوا نصراً عليهم بتجميد قوات انكليزية على ضفة القناة. إلا ان أحمد جمال باشا أعلن انه سيعاود الهجوم فأصدر تعليماته بضرورة التهيؤ لهجوم ثانٍ على قناة السويس وطلب من استانبول مساعدات. انسحبت القوات العثمانية الى مدينة بئر السبع. بقي كريس في العريش على رأس قوة صغيرة تقدر بفوجٍ أسماها (قوة الصحراء). اذ انها صدت القوات الانكليزية في الروماني (٤٠ كلم شرق القناة) وكبدتهم خسائر. كانت أولٍ معركة حقيقية ينتصر فيها القائد كريس وبين فترة وفترة يقوم بمهاجمة الحاميات الانكليزية ان قرب الضفة أو في داخل سيناء. هذه القوة لعبت دوراً مهماً في الدفاع عن غزة في ما بعد الأولى (آذار/مارس ١٩١٧) والثانية في نيسان/أبريل ١٩١٧ وكتبت الصحافة العالمية عن جهود كريس وذكائه وتكرار ما ألحقه بالانكليز من هزائم واخفاق الجيش الامبراطورية البريطانية. فصار الأمر عقبة في تطوير الموقف السياسي البريطاني في بلاد الشام والشرق الاوسط. لأجل ذلك كله منح القيصر الالماني كريس في ١٩١٧/٩/٤ وسام الاستحقاق المذهّب لعسكري وهب حياته لأجل ألمانيا والقيصر (بور له ميريت) أو (بلاور ماكس) في الحرب العالمية الاولى. انطلقت الحكومة البريطانية في التفكير مليًا بضرورة تغيير هذا الوضع. وللتخلص من خطره استبدل الانكليز القائد (تشارلز دوبل) بالقائد (ارشيبالد موراي) ثم بالقائد (ادمون اللنبي) الذي اشتغل بدم بارد وصبر وسرية وخدع. ما أدى الى إقتلاع السلطة العثمانية من المشرق العربي. حارب كريس الانكليز في سيناء وفلسطين واعتبر نفسه أنه ولد لهذه المهمة. ففي نهاية شهر تشرين الأول جرت معركة غزة الثالثة ودحرت القوات العثمانية في غزة وبئر السبع ووصلت القوات الانكليزية على مشارف مدينة القدس. القيادة العثمانية بالتنسيق مع القيادة في برلين قررتا استبدال كريس بالجنرال فالكنهاين في ١٩١٧/١١/٥. جرى نقل القائد فريدريش كريس فون كرِسِنشتاين الى جبهة القوقاز حيث الحرب مع الروس والاتراك ضروس. مع القوة الالمانية التي كانت بامرته في جورجيا استطاعت إفشال هجوم للجيش الاحمر (ابخازيا). اعتبرت المعاهدة العسكرية الالمانية/العثمانية لاغية في منتصف سنة ١٩١٨ وعمل البعثة العسكرية من ضمنها. رجع كريس الى المانيا مع نهاية الحرب. تقاعد من الجيش الالماني سنة ١٩٢٩. توفي في ميونيخ في ١٦ تشرين أول سنة ١٩٤٨.



الشيخ أسعد الشقيري (١٨٦٠-١٩٤٠)
مفتي الجيش الرابع

وُلد في عكا لعائلة غنية. تعلّم في الازهر. وواظب على حضور حلقات السيد جمال الدين الأفغاني و محمد عبده. بعد تخرّجه عُيّن في محكمة شفاعمرو الشرعية. اتصل بأبي الهدى الصيادي (خصم الأفغاني) الذي ساعده في إيجاد وظيفة في مكتبة السلطان عبد الحميد الثاني. وبعد فترة عُيّن رئيساً لمحكمة الاستئناف في أضنة.

تعرّف إلى الزهراوي ومناهضي السلطان عبد الحميد من العرب. إنما جواسيس السلطان (سر خفية) أوهموه في تقاريرهم بخطورته وعداوته للنظام. ما دفع السلطان إلى أن يأمر بنفيه إلى مدينة تبنين. يومئذٍ أنجبت زوجته ابنه أحمد (١٩٠٨-١٩٨٠) الذي أصبح فيما بعد رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية. وبعد إعلان (المشروطية الثانية) أي عودة العمل بالدستور أُفرج عنه وعاد إلى عكا. وهناك ترشح لعضوية مجلس المبعوثان (النواب). في استانبول تقرّب من القادة الاتحاديين أنور وطلعت وأصبح من أركان حزب الاتحاد والترقي. وساهم مع شكري الحسيني في إنشاء فرع للحزب في القدس.

كان الشيخ أسعد الشقيري قبل الحرب العالمية الأولى من أشد أنصار المركزية مؤيداً للفكرة الإسلامية العثمانية. حارب أفكار اللامركزيين ودعواتهم إلى الاستقلال عن السلطنة العثمانية. متحمساً لاستمرارية سلطتها. معادياً للقومية العربية ورجالها. ويشار اليه بأنه كان وراء إعدامات العديد من الشباب العرب الداعين إلى الاستقلال عن السلطنة.

إخلاصه للاتحاديين أتاح له أن يتنكب منصب مفتي الجيش الهمايوني الرابع الذاهب إلى قناة السويس عبر بلاد الشام. ومعه هيئة من المفتين والمشايخ الأئمة للوحدات العسكرية وقطعاتها.

بعد هزيمة تركيا في الحرب وفي ظل الاحتلال البريطاني لم يرَ الشيخ في تنامي النفوذ السياسي والاقتصادي والبشري والاجتماعي لليهود الصهاينة في فلسطين أي خطر على الأرض والسكان الاصليين والثروات الطبيعية.

كان الشيخ أسعد الشقيري متعاوناً صديقاً للصهاينة معادياً للحركة الوطنية الفلسطينية الرافضة للاحتلال البريطاني. ساهم في إنشاء حزب الأحرار في فلسطين المعارض للحركة الوطنية في نضالها لإخراج البريطانيين من البلاد. كان يرى في الحاج أمين الحسيني عدوه اللدود. شارك في مؤتمرات ومهرجانات وكتب في الصحافة الفلسطينية والعربية.



زكي باشا (كولاج/كولاج أوغلي)
(١٨٦٨-١٩٤٣)

وُلد في حلب سنة ١٨٦٨ وإليها يُنسب. ويُعرف بـزكي باشا الحلبي. تخرج من الأكاديمية العسكرية سنة ١٨٨٦. أمضى فترة خدمته الأولى في الضباط الفرسان للحرس السلطاني ثم في هيئة الأركان العامة للجيش. أثناء الحرب التركية-اليونانية سنة ١٨٩٧ عمل في قيادة الجيش في الصونيا. رقّي آنذاك إلى رتبة جنرال سنة ١٩٠٠. مع بداية الحرب خدم في مواقع مختلفة من بينها منطقة أدرنة، وحاكماً للموصل، وقائداً للفرقة الثانية، ثم سُلّم قيادة الجيش في واردر في صربيا. وقبل الحرب العالمية سلمت إليه مهام تفتيش الجيش الثاني المرابط في دمشق، الذي سمّي في ما بعد الجيش الرابع. في بداية الحرب العالمية كان زكي قد أمسى قائداً للجيش الرابع. إنما لم يطل به المقام بسبب عدم موافقته على خطة أنور باشا الحربية الهادفة إلى مهاجمة القوات الإنكليزية في قناة السويس. في ١٩١٤/١١/٢١ عيّن مرافقاً شرفياً للإمبرطور الألماني وليم الثاني. أمر بالسفر إلى ألمانيا. عيّن بدلاً منه أحمد جمال باشا على رأس الجيش الرابع. مكث زكي باشا في ألمانيا طيلة أيام الحرب. بعدها عمل كرئيس لهيئة أركان الجيش في فترة بين ١٩٢٠/١٠/٢٣-١٩٢٢/١١/١ . بعد سنة تقاعد من الجيش وتوفي القائد زكي باشا الحلبي سنة ١٩٤٣.



محطة حيدر باشا في قاضي كوى (الآن)



دعوة شيخ الإسلام إلى الجهاد ضد الكفار (الإنكليز والفرنسيين) ١٩١٤
بعد ضرب الأسطول العثماني للمرافئ الروسية: أوديسا سيباستوبل سمزويف.

بيد أني لست أدري ماذا كان هؤلاء المغرضون يريدون مني؟ هل كانوا يريدون أن أقول لجمهور المودعين: «أيها الأخوان! إنني ذاهب إلى سوريا بمهمة طرد الإنكليز من مصر. ولكن مواردنا لا تكفي لتنفيذ ذلك المشروع، وعلى ذلك فسأعود فيما بعد إلى استانبول آسفاً نادماً فارغ اليدين من دون أن أحقق شيئاً مطلقاً. فأرجوكم أن تذرفوا الدمع من الآن انتظاراً لذلك اليوم الأسود. ولِمَ لا إذا كانت هذه مشيئة الأقدار؟!».

كلا! ثم كلا! فإن كنت لم أنجح في طرد الإنكليز من مصر، فقد كان ممكناً على الأقل - كما سأبين فيما بعد - لولا خيانة الشريف حسين المستترة (الذي ارتكب أكبر جناية لا تغتفر في حق العالم الإسلامي) النجاح في منع الغاصبين من القيام بأي عمل عدائي ضد فلسطين وسوريا، ولأدى ذلك إلى بقاء مئات الرجال الذين يتكون منهم الجيش الإنكليزي خاملين في مصر.

لقد كانت خيانة الشريف حسين السبب الذي منع تحقيق ذلك المشروع الجليل، فإنها شقّت الأختين الإسلاميتين، الأمة العربية والأمة التركية، فان خيانته جعلت العرب أرقاء للإنكليز والفرنسيين واضطرت الأتراك إلى أن يقاتلوا أغلظ أعدائهم قلباً في معركة لا أمل في نجاحها. وسأدعم فيما بعد أقوالي هذه بالبينات الرسمية.


ابن جلبي / شلبي

ولم تمر على مغادرتي استانبول ست وثلاثون ساعة حتى رأيتني في قونية حيث استقبلني الحاكم العام عزمي بك والأهالي خير استقبال. ثم انتهزت الفرصة فزرت ضريح مولانا جلال الدين الرومي(٢) وتعرفت بسعادة ابن جلبي أفندي. فسألته وأنا أصافحه مصافحة الوداع إذا كان يرغب في الانضمام إلى الحملة المصرية ومعه فيلق من المتطوعين؟

والحق يقال أنه لم يتأخر. فإني ما كدت أنصرف عنهم وأصل إلى سوريا حتى نفر إليها ابن جلبي متقدما قوة مسلحة حشدها باسم كتيبة المولوية المتطوعين. ولا يمكنني أن أوفيه حقه من الثناء على وطنيته. حقاً إنها لوطنية صادقة! إذ إنه برغم كونه معتل الصحة وكان قد رزئ بوفاة زوجته التي عاش معها أعواماً طويلة. لم يلبث أن حقق ظني فيه. وقد أدى الشبان الذين تألفت منهم كتيبته أجلّ خدمة للجيش.

وغادر استانبول معي أحمد راسم بك(٣) الذي أعتبره من خيار الصحافيين الأتراك. وفي خلال الزحف على القناة حضر إلى بئر السبع مرافقاً للقيادة العامة. ثم بقي معنا في القدس حيث كتب عدداً من المقالات المهمة عن سياستي في سوريا عنوانها «سياسة الجيش». ولا أستطيع أن أغفل ذكر اسم ذلك السيد الجليل الذي كانت رفقته نافعة لي دوماً.

وحضر إلى مركز القيادة سيدان آخران متطوعان. الأول فؤاد سليم بك الذي كانت وطنيته مثلاً صالحاً وبرهن عن إخلاص تام عند توليه منصب الوكيل العام في سيلانيك بعد الحرب البلقانية. أما الآخر فهو الدكتور فؤاد - المصري - وكان موظفاً في وزارة الداخلية.

وقد أدى فؤاد بك ما عليه في القسم المصري(٤) بإخلاص وولاء عسكري تام. وعاد وجوده بين ظهرانينا على الجيش بفوائد جزيلة. وكان من أشد بواعث الأسف لديّ أن طرأت له أمور عائلية أوجبت عليه مغادرة مركز القيادة. وسأذكر دوماً بلسان الشكر فؤاد سليم بك الذي عيّن فيما بعد ليمثل الإمبراطورية العثمانية في سويسرا (حيث نجح في مهمته) والدكتور فؤاد. لما قدماه من أجلّ الخدمات إلى الجيش. وبعد مغادرة قونية وصلنا إلى بوزانتي. ومن ثم واصلنا السفر بالسيارة إلى طرسوس. ومنها سافرنا إلى أضنة بطريق السكة الحديد. فقابلني بحماسة تامة أهالي تلك العاصمة الريفية التي كنت حاكماً عاماً لها منذ أربعة أو خمسة أعوام. فقضينا الليل فيها. وقد حولت الأمطار التي لم تنقطع أسبوعاً كاملاً وادي أضنة بحراً من الطين.



مجموعة دراويش تؤدي دور ابتهالات صوفية دينية

من أتباع مولانا جلال الدين الرومي. جُمعت أفراد هذه الكتيبة من الزوايا الصوفية والتكايا المولوية المنتشرة في المناطق والأقاليم والموقوفين في النظارات والمخافر ومن السجون. شاركت بقيادة أحد أحفاد جلال الدين الرومي لدعم الجيش الهمايوني الرابع ومساندته ضد الكفار الإنكليز تلبية لنداء الجهاد في سبيل إعلاء الشريعة المحمدية. وغرّر بهم أن من يُقتل فهو شهيد تكتب له الجنة. إنما الحقيقة ان فعاليتها وضرورتها لهذه (العصابة) كانت في قيامهم بإغارات على القرى الارمنية والآثورية في سوريا وكيليكيا يعيشون فيها قتلاً وسلباً. وهذا ما تابعوا عمله في فلسطين وحوران واسواق بيروت ودمشق والقدس. ولم يُذكر لهم نشاط عسكري نظامي قتالي ضد الانكليز. وكانت القوافل الارمنية المكرهة على ترك مواطنها الاصلية الى الموصل وحلب وبيروت غنيمة سهلة لهذه العصابات التي شاركت الجيش التركي وبتوجيه من قيادته في إبادة أكثر من ١,٦٠٠,٠٠٠ أرمني أعزل (نساء. أطفال. شباب. رجال).

ولم تكن سكة حديد أضنة - حلب في ذلك الوقت - مستعملة فيما وراء محطة تبرق قلعة. وقد كان قطاع تبرق قلعة (الإسكندرونة) تاماً. غير أن الأمطار كانت قد جرفته في بضع نقاط قرب دورت يول فتعطلت المواصلات مع الإسكندرونة. فعزمت أن أذهب بطريق السكة الحديد إلى تبرق قلعة أو إلى مصطفى بك. وأن أواصل السفر من هناك بالسيارة أو على ظهور الخيل إلى الإسكندرونة أو حلب إن أمكنني ذلك. وعليه تركت أضنة في صباح اليوم التالي مبكراً. وإذ تبينت أن قطاع بوزانتي - طرسوس. وهو طريق المواصلات الوحيد مع جيش الأناضول. حالته سيئة في نقاط عدة. طلبت إلى إسماعيل حقي بك الحاكم العام للولاية أن يشرع في إصلاحه في الحال.

وبعد مغادرة أضنة بساعة وصلنا إلى محطة مصطفى بك حيث كانت في انتظارنا السيارات والخيول. فلم نكد نسير بضع خطوات حتى غاصت سياراتنا في الوحول. فلما تحققنا استحالة مواصلة السير في ذلك الطريق امتطينا خيولنا وبدأنا السير. بعد أن أمرت ياوري القبطان صلاح الدين أفندي بأن يكلف من يشاء سحب السيارات إلى الإسكندرونة واللحاق بنا إليها.

ووصلنا إلى دورت يول بعد أربع ساعات، وهي قرية كبيرة مهمة على شاطئ خليج الإسكندرونة وتقع على أبعاد متساوية من خمس أو ست قرى أخرى يسكنها الأرمن، وهي مشهورة بالبرتقال.

وقد كنت وأنا حاكم عام لأضنة كلفت المهندسين الألمان وضع مشروع لإنشاء حي آخر في البقعة الشاسعة بين دورت يول والقرى الخمس الأخرى، ولكن المشروع أهمل ككثير غيره من المشروعات بعد مغادرتي الولاية. وكنت قد زرت خلال عامي ١٩١٠ و١٩١١ دورت يول غير مرة. فهرعت أفواج القرويين الذين طالما ساعدتهم لمقابلتي.

وإذ وصل إلى سمعي أنه من الممكن الذهاب من محطة دورت يول إلى الإسكندرونة بواسطة سيارة ركاب كبيرة في ساعتين، مع أن المسافة تستغرق أكثر من ست ساعات على ظهور الخيل، فضّلت استعمال هذه الوسيلة. فغادرتها أنا ورئيس هيئة أركان الحرب.



الثنائي أنور وأحمد جمال في سيارة واحدة يعبران أحد شوارع استانبول

ولن أنسى ما حييت هذه السياحة بالسيارة الكبيرة في ذلك الطريق الزلق. فكثيراً ما كانت حياتنا في خطر إذ كنا نسير في ذلك المطر المتساقط قرب الشاطئ بمرأى من سفن العدو. وبعد أن هدأت العاصفة الشديدة بزغ القمر من خلال السحب ثم اختفى ثانية بعدما أضاء البحر بشكل مدهش. وبهذا استطعنا أن نبصر بوارج العدو على مقربة من الشاطئ، وهو منظر تفتّتت له أكبادنا وذابت له قلوبنا.

ولم يخف عليّ أن أعداءنا أقوياء أولو بأس شديد. ولكن لما لم تكن ثمة وسيلة أخرى نحفظ بها حياتنا لم نرَ مفراً من الالتجاء إلى السيف. فإما إلى الخير والفلاح وإما إلى المصائب والأحزان. وقد كنت أقسمت ألاّ أترك وسيلة من الوسائل إلا لجأت إليها لهزم أعدائنا. فتذكرت ذلك القسم. وإذ رأيت المصاعب التي تعترضني في طريقي أدركت فداحة الحمل الملقى على كاهلي.

ثم وصلنا إلى الإسكندرونة بعد سياحة شاقة بالسيارة عبرت في خلالها على قضبان امتد بعضها في بعض الجهات فوق خندق مستطيل إلى نحو ١٥ أو ٢٠ متراً وغاصت في جهات أخرى في الماء. وقد انقضت خمس ساعات قبل أن يحضر ضباط أركان الحرب الآخرون. ثم قضينا تلك الليلة في الإسكندرونة.

وهنا وصلت إلينا الأنباء بأن الطريق بين الإسكندرونة وحلب غير صالحة للسيارات. وتلك الطريق التي أهملت حتى أصبحت لا تصلح لحركة السيارات كانت الطريق الوحيدة التي نصل منها إلى حلب والمناطق التي حولها. أي الطريق التي تصل شمالي سوريا بما فيها جهات أورفة وديار بكر الموصولة بالإسكندرونة. ذلك الموقع المهم على شواطئ البحر المتوسط!

ولما كنت قد عدت منذ بضع سنوات من بغداد بهذا الطريق في سيارة تأكدت أن أعمال الإصلاح قد شُرع فيها في نقاط عدة. وكانت الشركة العامة لإنشاء الطرق هي التي تولت إصلاحه وكان في استطاعتها إتمامه في أغسطس/آب ١٩١٢ بعد البدء فيه بعامين. ولكن الإصلاح أهمل بسبب المصاعب الكثيرة التي واجهت مصلحة الطرق. تلك المصلحة التي كانت عاجزة عن القيام بمبادرة منها. وذلك يدعونا إلى العمل بعزم شديد لتحرير إدارتنا من قيود البيروقراطية. وإلا فلا الحكومة المركزية ولا المساعدة الإلهية تمكّننا من إتمام شيء ما بنجاح.

والمستغرب هو أن تلك الأجزاء من الطريق التي كانت من قبل في حالة جيدة أهملت بحجة الإصلاح حتى صارت بحالتها السيئة هذه. فقد اقتلعت الأحجار من سطح الطريق ووضعت في كثبين طويلين على جانبيه. وقد امتلأت الحفر بين الكثبين بمياه الأمطار فبدت كقناة في الطريق.

تلك كانت حالة طريق الإسكندرونة - حلب في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٤. وقد اضطررنا إلى قضاء الليل في بيلان بسبب وضع الطرق. وفي صباح اليوم التالي واصلنا السفر على ظهور الجياد بعدما رأينا أن تذهب ثلاث سيارات قوية من حلب إلى أقرب قرية. ومن ثم وصلنا إلى محطة قاطمة بالسيارة. وهي المحطة الثانية من حلب على خط بغداد. وبما أنها نقطة اتصال بين طريق حلب والإسكندرونة وسكة حديد بغداد فقد أنشئ فيها مستودع لخطوط المواصلات.



فخري باشا أو فخري الدين باشا (١٨٦٨- ١٩٤٨)

أحد آخر القادة العثمانيين الذين دافعوا عن المدينة ولقب بـ«مُدافع المدينة» أو «نمر الصحراء». ولد في روس (رُوشيك) على ضفة الدانوب. انتقلت عائلته إلى تركيا إبان الحرب الروسية-العثمانية سنة ١٨٧٤. أخذ دروساً خاصة عن فن التصوير واللغة الفرنسية خلال متابعته دراسته العسكرية الأكاديمية. تخرّج منها سنة ١٨٨٨ وأكمل ثلاث سنوات أخرى في كلية الأركان. ألحق بالجيش الرابع في أرزنجان حيث رقّي هناك إلى رتبة مقدّم. وقاد فوج مشاة لمحاربة الأرمن. سنة ١٩٠٨ عندما أُعلن عن البدء بتطبيق الدستور (المشروطية الثانية) كان يشغل رئاسة أركان حرب الجيش الرابع. رجع إلى العاصمة حيث سُلّم مهام رئاسة أركان أول فرقة نظامية.

فخر الدين مثل غيره من الضباط الأتراك الذين ذهبوا إلى ليبيا وقضى فترة بين سنتي ١٩١١-١٩١٢ لمجابهة الغزو الإيطالي وتأهيل البدو للمجابهة. ونُقل إلى تركيا وأُعطي قيادة الفرقة ٣١ في غاليبولي التي لعبت دوراً رئيساً في استرجاع مدينة أدرنة من البلغار. في ١٩١٣/٧/٢٢ دخل المدينة ومعه أنور باشا. سنة ١٩١٤ وقبل إعلان التعبئة العامة استعداداً للحرب. سلّمت إليه مهام قيادة الفيلق ١٣ في الموصل. لم يمكث هناك طويلاً. رقّي إلى جنرال (فخري باشا) في ١٩١٤/١١/١٢. إلى أن التحق بالجيش الرابع وقائده أحمد جمال باشا في سوريا. حينما أعلن الشريف حسين ثورته في وجه السلطنة العثمانية واستقلال الحجاز. كان فخري باشا حاكماً على الحجاز ومركزه المدينة المنورة. اتخذ القائد فخري موقف الدفاع عن مدينته موجهاً التحذير إلى الشريف حسين وابنه فيصل من مغبة صنيعهم إزاء الدولة العثمانية. موزعاً مدافعه وجنوده والأسلحة اللازمة وتقوية تحصيناته. فخري باشا أمر بنقل كافة متعلقات الرسول ومن يمتّ إليه بنسب إلى استانبول حرصاً عليهم. وجرى حصار المدينة مع معارك متواترة. بقي الوضع هذا حتى إعلان الهدنة في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ ولم يستسلم للقوات البريطانية التي استطاع جواسيسها الوصول إلى بعض ضباطه واستمالتهم. فما كان منهم إلا أن أوقفوه وسلموه إلى البريطانيين في ١٩١٩/١/١٣. حُجر عليه في القاهرة كأسير حرب ثم جرى نفيه إلى مالطا الذي انتهى في ١٩٢١/٤/٣٠ وسافر إلى تركيا عبر تارانتو-ايطاليا. في ١٩٢١/١٠/٢٧ عيّن سفيراً لبلده في كابول-أفغانستان ونجح هناك في كسب الدعم الأفغاني لمصلحة الموقف التركي في حرب الاستقلال. رجع إلى تركيا وأصبح عضواً في البرلمان سنة ١٩٢٦ ثم رئيساً للمحكمة العسكرية. تقاعد في سنة ١٩٣٦. وفي ١٩٤٨/١١/٢٢ أصيب بأزمة قلبية حادة أودت به فيما هو مسافر بالقطار من استانبول إلى أنقرة.

ويمكننا أن ندرك غيرة ونشاط جميع الأشخاص المختصين، إذ إننا لما أصبحنا على بعد خمسين متراً من المحطة استحال علينا التقدم بالسيارات، فحملنا الجنود على أكتافهم في الظلام الحالك. وفي تلك اللحظة تذكرت طريق قرق كليسا - أدرنة وطريق قرق كليسا - بيكار حصار - ويزا - سيراي في خلال الحرب البلقانية. فلقد كان هنا أيضاً في الطريقين تل من الأحجار على كلا الجانبين. فلما ملأ المطر المسافة بينهما أصبح الطريق كأنه مجموعة خنادق.

فما أشد مشقة تلك الطريق التي سيقطعها الجيش الذي عُيِّنت لقيادته! وتمثلت مرة أخرى لعيني تلك الصورة التي لا يمكن نسيانها، صورة البؤس والشقاء اللذين ينتظران بطارياتنا وعربات الذخيرة وهي عاجزة عن مواصلة سيرها في الطرق واضطرارها إلى تخطي الحقول حتى تنغمس في الوحل. ثم كررت لنفسي: «ها هي الطريق الوحيدة التي تربط جيشي بالوطن!».

وكانت حلب نقطة حشد الفيلق الثالث عشر الذي تمت تعبئته في الموصل وما جاورها. وكان قائده الكولونيل فخري بك التابع لهيئة أركان الحرب. أما قوام هذا الفيلق فكان من الأكراد والباقون كانوا عرباً متمرنين.

وكانت الفرقة الأولى في حلب والثانية في حماه. فمكثت في حلب ثلاثة أيام فتشت فيها الجنود. وبالرغم من الجهد الخارق الذي بذله فخري بك لم تكن الفرق والتشكيلات المستقلة عن الفيلق في حالة مُرضية، إذ لم تكن هناك المادة التي يحتاج إليها فيلق معبّأ. والواقع أننا لم نحلم بتتميمها لأنه لم يكن ثمة أمل في الحصول على الأجهزة اللازمة في الموصل وما حولها، وهي منطقة تعبئة الفيلق هذا. فطلبت إلى والي حلب أن يصلح طريق حلب والإسكندرونة وأن ينشئ طريقاً جديدة من إصلاحيك إلى محطة قاطمة عن طريق رادجو. ثم ذهبت إلى حماه لتفقد الحامية المعسكرة هناك. وكانت على مثل الحالة التي عليها فرقة حلب.

وكان في نيتي قبل الذهاب إلى دمشق زيارة شمالي سوريا لأرى بنفسي الحالة في تلك المنطقة. فذهبت أولاً إلى طرابلس عن طريق حمص ثم عدت في اليوم نفسه إلى حمص حيث قضيت فيها تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي واصلت رحلتي وذهبت إلى دمشق عن طريق رياق. وأظهر أهالي كل البلاد التي اجتزتها وطنية كبرى وإخلاصاً للقضية العثمانية.

وقد امتلأ قلبي سروراً إذ رأيت وشعرت أن معظم العرب لا يحجمون عن بذل ما يطلب منهم من التضحيات في تلك الحرب الكبرى لتحرير الخلافة الإسلامية. فكان عليّ أن أستفيد من هذه الحالة المعنوية وأحفظ تلك المنطقة - وهي منطقة ملتهبة كالبارود - من عبث الخونة الذين باعوا ضمائرهم للأعداء.

ولكي أسهل على القارئ تتبّع الحوادث التي وقعت في الأعوام الثلاثة (من ديسمبر/كانون الأول ١٩١٤ إلى ديسمبر/كانون الأول ١٩١٧) التي قضيتها في سوريا - أي الحوادث الخاصة بالجيش والإدارة والسياسة الداخلية في سوريا وبلاد العرب وقمع الثورات والاقتصاد والمسائل الأخرى المتعلقة بالتقدم المادي وغير ذلك التي سيتناولها البحث - رأيت الأصوب أن أفرد فصلاً خاصاً لكل من هذه الأمور بدلاً من بحثها في مذكرات مؤرخة حسب ترتيب الوقائع.

هوامش الفصل الأول:

(١) مجلس الأعيان: أحد المجالس الدستورية التي اتى بها الدستور«المشروطية الأولى ١٨٧٦» وترك أمر تعيين أعضائه لرغبة السلطان.

(٢) جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣): من مواليد بلخ في فارس. انتقل إلى بغداد مع أبيه. نشأ في المدرسة المستنصرية. جال بصحبة والده بلدان مختلفة. أخيراً استقرا في قونية بتركيا. اشتغل بالتدريس والتقى الصوفي الكبير شمس الدين التبريزي فتتلمذ عليه لفترة.
متصوف. نظم الشعر. عالم بفقه الحنفية. صاحب الطريقة الصوفية «المولوية». ترك مجموعة شعرية «المثنوي» التي تضمنت قصصاً وتأملات أجراها على لسان الحيوان. أظهر فيها موهبة دلّت على امتلاكه لمخيلة واسعة معطاءة. أوجز فيها العناصر الرئيسة للفكر الصوفي بإفناء «الأنا» في «وحدة الوجود» واعتبار العالم صوراً تعكس الذات الالهية ومدًى يتجلى فيه الله. مولانا جلال الدين أعطى للموسيقى دوراً هاماً في لوازم الطقوس الصوفية (حلقات الذكر) المصحوبة بالأناشيد والحركات الدائرية على وقع الدفوف والوتريات.
اتباع مولانا جلال الدين الرومي يرفعون «المثنوي» تكريماً واعتباراً إلى جانب القرآن الكريم. وهم منتشرون في الهند وايران وباكستان وتركيا ومصر وبلاد الشام.
الفكر الصوفي لجلال الدين تسلل الى مناحي الحياة التركية كافة (الدينية. الفكرية. الادبية. الاجتماعية. السياسية والعسكرية) رؤية وممارسة. وبقي هذا الفكر لفترة طويلة مسيطراً عليها وظلت زعامة هذه الطريقة محصورة ومتوارثة في أبناء جلال الدين الرومي واحفاده. وكان زعيمهم يتمتع بشرف تقليد السيف للسلطان الجديد من خلفاء بني عثمان (تاريخ الادب العربي. بروكلمان. تاريخ الشعوب العربية. بروكلمان. الموسوعة الفلسفية العربية. مج٣. ص٢٧٠. تاريخ العرب. فيليب حتي. ص٥٠٩).

(٣) أحمد راسم بك (١٨٦٤-١٩٣٢): صحافي. أديب وناقد اجتماعي. نظم الشعر وكتب القصة وكانت له اهتمامات تربوية. طُلب منه مرافقة القائد احمد جمال باشا للكتابة عن الحملة (التجريدة) الى غزو قناة السويس عبر فلسطين وشبه جزيرة سيناء. ووصل الى القدس وكتب عنها ما يرضي هوى القائد.

(٤) حول القسم المصري: كان برئاسة فؤاد سليم بك. انظر مذكرات عزيز بك (الجزء الرابع) التي تلقي عليها بعض الضوء عن دوره واهميته.

الفصل الثاني

التحضيرات لحملة قناة السويس

بما أني لا أريد أن أؤرّخ للحرب، سأترك الخوض في التفاصيل غير اللازمة عن حركات الجيش وأعماله وأقتصر على ذكر الحقائق البارزة بعبارة مجملة، وسأطلب يوماً ما إلى رئيس أركان الحرب الكولونيل فؤاد بك أن يضع تأريخاً خاصاً للحملات المختلفة على أوراق «مذكرات الجيش الرابع الحربية» المقدمة إلى هيئة أركان الحرب الكبرى، وهي الوثائق التي جمعت ورتبت بكل دقة في مركز القيادة.

يوم وصولي إلى دمشق جاء لمقابلتي في رياق قائد الفيلق الثامن جمال باشا المرسيني وسلمني حزمة من الوثائق، وكانت تحوي خطة مفصلة لأعمال فيلقه الذي اختير لمهاجمة قناة السويس ونسخة عن الأوامر الصادرة وإحصاءات وخططاً تختص بالأعمال الباقية قيد التنفيذ وقد نفذت فيما بعد. وسلم رئيس أركان حرب فيلقه الكولونيل فون كريس إلى فون فرانكنبرغ رئيس أركان حرب صورة بالألمانية من الوثيقة نفسها، وكانت باكورة أعمالي حين وصلت إلى دمشق واتخذت فندق داماسكوس بالاس مقراً للقيادة هي دراسة تلك الوثائق بدقة تامة.



أحمد جمال مع فرانكنبرغ

ويمكن تلخيص خطة العمل التي وضعها الفيلق الثامن فيما يلي: «يناط الزحف على القناة بالفرقة الخامسة والعشرين إضافةً إلى كتيبة من الضباط والجنود تنتخب من الفرقتين الأخريين اللتين يتألف منهما الفيلق، ويوزّع العدد الباقي من الفيلق على خطوط المواصلات للحراسة ولمراقبة الحالة في لبنان ومنطقة الساحل. أما الفرقتان الثامنة والعاشرة اللتان ترسلان من استانبول خصيصاً للحملة المصرية فتستخدمان كما يرى قائد الجيش، فقسم منهما لمهاجمة القناة والقسم الآخر للخفارة في الداخل. وعلى كلٍّ يجب عدم استخدام قوات كبيرة في تلك الحملة».



فندق داماسكوس بالاس، مقر إقامة أحمد جمال باشا

وإذا تذكرنا الحالة الطبيعية لصحراء سيناء التي ستجري فيها الأعمال الحربية تحققنا أن قواعد الخطة السابقة كانت محكمة. وعند وصولي إلى سوريا كانت الحالة العامة كما يأتي:

استولت كتيبة البدو المتطوعين بقيادة الميجور ممتاز بك على العريش، وحصّنت نفسها فيها، واستولت كتيبة أخرى من المتطوعين بقيادة أزميرلي أشرف بك التابعة للتشكيلات الخاصة على قلعة النخل وسط صحراء سيناء.

وكانت في العقبة كتيبة من المشاة بقيادة الليوتنانت كولونيل موسى كاظم بك، كما عسكرت في بئر السبع كتيبة من الفرقة السابعة والعشرين سنداً لسائر القوات المنتشرة في الصحراء، أما الفرقة الخامسة والعشرون التي يقودها الليوتنانت كولونيل (المقدم) علي فؤاد بك فكانت في دمشق تتمرن بهمة ونشاط.

ونظراً إلى تضاريس صحراء سيناء أدرك قائد الفيلق الثامن بنظره الثاقب ضرورة إنشاء هيئة يعهد إليها تنظيم خط المواصلات من المؤخرة إلى المقدمة قبل صدور أوامر الزحف إلى الجيش، أو بعبارة



موسى كاظم قره باقر (١٨٨٢-١٩٤٨)

وُلد في استانبول وتخرّج من المدرسة الحربية سنة ١٩٠٢ ومن أكاديمية الأركان سنة ١٩٠٥. أول مكان خدم فيه كان في مناستير، حيث افتتح مع أنور فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي.

بعد إعلان المشروطية الثانية سنة ١٩٠٨ عيّن في الجيش الثاني في أدرنة (جيش التحرير) الذي قمع الردة الرجعية سنة ١٩٠٩، وفي حرب البلقان كانت له مشاركة في تحرير أدرنة.

عندما نشبت الحرب العالمية كان من أوائل الذين ذهبوا إلى غاليبولي حيث واجه الفرنسيين، وفي سنة ١٩١٥ رقّي إلى كولونيل وذهب إلى العراق ليعمل رئيس أركان لدى المارشال كولمار فون درغولتز.

موسى كاظم قره باقر قاد الفيلق الـ١٨ في سنة ١٩١٦، حرر مدينة الكوت من الإنكليز، وأعطيت له قيادة الفيلق الثاني المتموضع في ديار بكر، إضافة إلى قيادة الجيش الثاني (جبهة عرضها أكثر من ٧٥ كلم) أي إنها مسؤولية كبيرة ألقيت عليه.

سنة ١٩١٨ استرجع من الأرمن أرضروم وأرزنجان وتصدى للهجوم الروسي، بعد ذلك أخذ وحداته العسكرية وذهب بها إلى أذربيجان وأجبر القطعات البريطانية على الانسحاب منها، ورقّي إلى جنرال في السنة نفسها. بعد الهدنة، خلال الحرب الوطنية عمل مع مصطفى كمال وقاد القوات التركية في الجبهة الشرقية، استطاع تحرير قارص من الأرمن ووقّع معاهدة «غومرو» معهم عن جانب حكومة أنقرة سنة ١٩٢٣ وأسس حزب الجمهورية التقدمي، هذا الحزب أغلق بعد ثلاث سنوات في ١٩٢٥/٥/٣. وجرت محاولة لاغتيال مصطفى كمال وكان بين المتهمين، إلا أن ساحته برئت بتدخل من مصطفى كمال نفسه. لكن رفاق السلاح لم يعودوا رفاقاً.

كاظم قره باقر رجع إلى البرلمان سنة ١٩٣٩ بعد وفاة مصطفى كمال، وأصبح رئيساً للمجلس النيابي سنة ١٩٤٦ وبقي فيه حتى وفاته في ١٩٤٨/١/٢٧.



علي فؤاد (١٨٨٢-١٩٦٨)

وُلد في استانبول. تخرّج في الأكاديمية العسكرية سنة ١٩٠٥ زار بيروت وسالونيك ضمن الخدمة والتدرب. سنة ١٩٠٨ عيّن ملحقاً عسكرياً في السفارة التركية في روما. عاد منها سنة ١٩١١ عندما نشبت الحرب مع إيطاليا. إبان الحرب البلقانية عيّن علي فؤاد في فيلق (لونينا) حالياً ضمن اليونان. شارك في القوقاز ضد روسيا وضد الإنكليز في فلسطين وشارك في حملة قناة السويس سنة ١٩١٥ كرئيس لهيئة أركان الجيش الرابع وقائد فرقة ثم قائد فيلق سنة ١٩١٧ في فلسطين. بعد الانسحاب من بلاد الشام وإجراء هدنة. رجع إلى استانبول وأجرى صلة مع مصطفى كمال لتنشيط المقاومة الوطنية وطرده الباب العالي من الجيش. عيّنته حكومة أنقرة قائداً لقواتها العاملة في الأناضول الغربي. ولما قامت الهيئة التشريعية بأعمالها في ١٩٢٠/٤/٢٣ انتخب نائباً عن أنقرة.

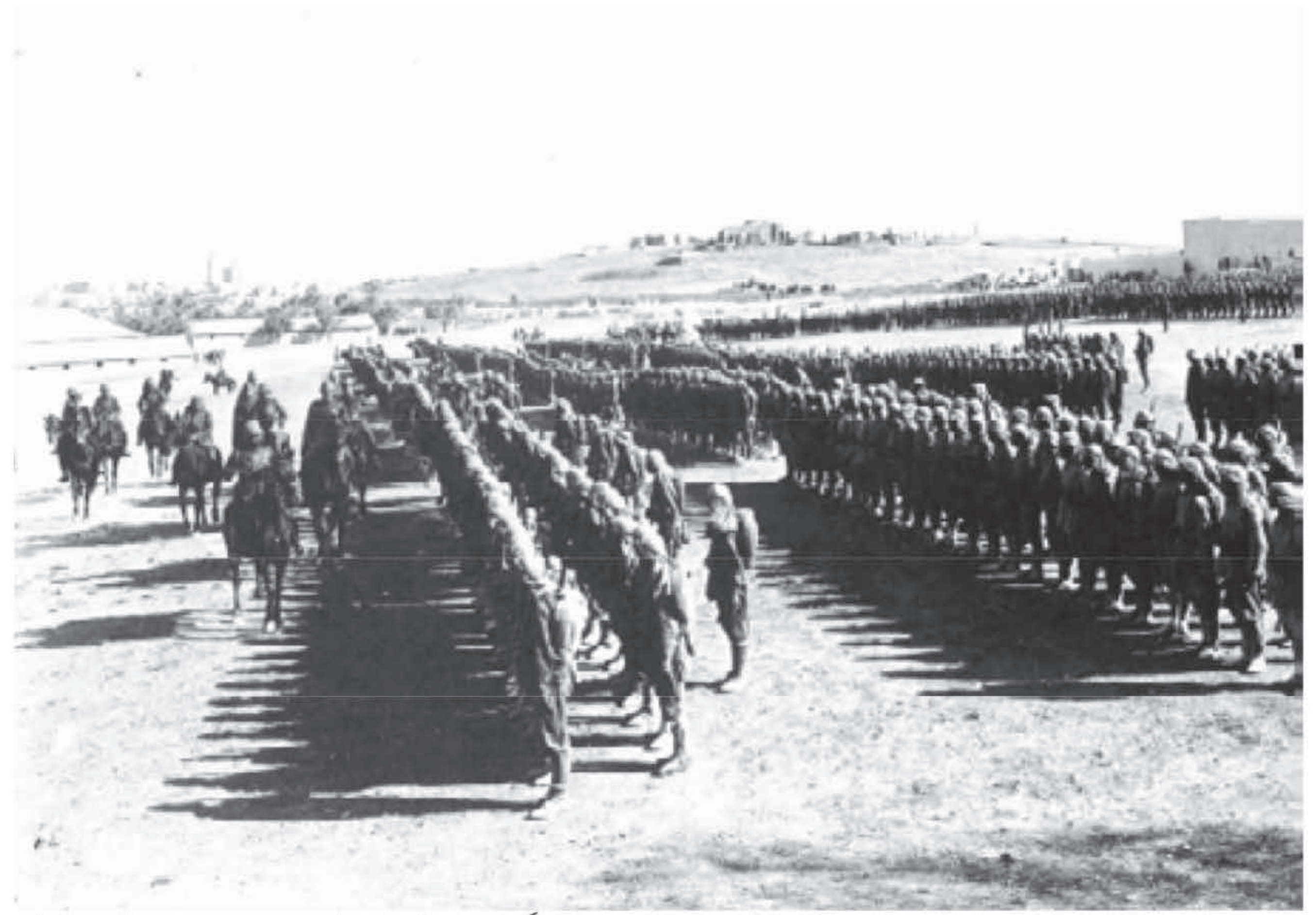
في تشرين الثاني ١٩٢٠ ترك قيادة الجبهة الغربية في الحرب الاستقلال الوطني لعصمت إينونو ليسافر إلى موسكو سفيراً هناك. ووقع مع السوفيات اتفاقاً يعترفون بحكومة أنقرة.

علي فؤاد باشا رجع إلى تركيا سنة ١٩٢٢. عمل في البرلمان بنشاط حتى سنة ١٩٢٧ حتى قرر التقاعد. إلا أنه لم يستطع البقاء بعيداً عن النشاط السياسي فترة طويلة. رجع إلى البرلمان في ١٩٣٣ ومكث حتى الانقلاب العسكري سنة ١٩٦٠. توفي علي فؤاد في ١٩٦٨/١/١٠.

أخرى الحملة. وقد عيّن بهجت بك الليوتنانت كولونيل (المقدم) في هيئة أركان الحرب وقائد الفرقة الثالثة والعشرين رئيساً لتلك الهيئة التي سميت باسم «مفتشية خط مواصلات الصحراء».

وسأتذكر دوماً بالاحترام التام بهجت بك هذا للعناية التامة التي أظهرها في أعماله في تلك الصحراء الهائلة، في خلال الهجمة الأولى على القناة وفي إبان التأهب للهجمة الثانية.

فأصبح على ذلك المفتش بتّ أمر المستودعات المراد إنشاؤها على خط المواصلات بين بئر السبع والإسماعيلية (بحيث لا يبعد بعضها عن بعض أكثر من ٢٥ إلى ٣٠ كيلومتراً) وإيجاد الماء فيها وإرسال المؤونة التي تقرر من قبل تخزينها في بئر السبع سلفاً حسب التعليمات وإنشاء مستشفى في كل مستودع، أي أن يقوم بكل اللوازم والتأهبات التي يقتضيها إنشاء هيئة خاصة لخطط المواصلات. وتقرر أن تكون العريش وقلعة النخل مركزين لتفتيش خط المواصلات، ومنهما يمكن إرسال المؤونة واللوازم إلى الجنود الذين تقرر أن يتجمعوا هناك للزحف على القناة. واعتزم الفيلق الثامن أن يجمع قوام الحملة في بئر السبع ثم يزحف على القناة بطريق وادي العريش - أبِن - جفجاف، أي بعيداً ما أمكن عن الساحل، وتغطي الجناحين شرازم صغيرة من العريش وقلعة النخل.



القائد العام للجيش الرابع في فلسطين يقوم بتفقّد الوحدات استعداداً للانتقال (المسير) إلى قناة السويس (الجبهة) عبر صحراء سيناء

ولعمري أنها كانت خطة حكيمة، فإن خط مواصلاتنا الأساسي يجب أن يبعد عن الساحل حتى يكون بمأمن من الإنكليز، فلا يستطيعون أن يسلطوا عليه مدافعهم البحرية ويحطموه كله بإنزال فصائل صغيرة لا أهمية لها في الواقع، ولكنهم قد يضطرون إلى استخدامها بين حين وآخر.

وعلى ذلك قرر فون كريس بنفسه أن تكون مستودعات خط المواصلات في بئر السبع والخالصة والخفير ووادي العريش وأبِن في المرحلة الأولى وجفجاف في المرحلة الثانية، وكان قد حفر في كل من تلك الأماكن بئراً ارتوازية وأقام الموانع لصدّ ما تسف به الرياح والأمطار التي تشتد في ديسمبر/كانون الأول ويناير/كانون الثاني، كما أنه أعد ما يلزم من المعدات لخط مواصلات طويل كهذا، ثم أعلن الفيلق الثامن أنه، بسبب استحالة إرسال المؤونة إلى الضباط والجنود طول الطريق إلى القناة، يجب الالتجاء إلى نظام جديد يسمى «جراية الصحراء»، وهو نظام قام على بيان بالمأكولات التي يجب ألا تزيد على كيلوغرام واحد لكل شخص، بما فيها الخبز والتمر والزيتون، أما الماء فلا يسمح للشخص بأكثر من نصف ليتر[1]. فتبين لنا بناءً على هذه القاعدة الحسابية أننا إذا أردنا أن تزحف الفرقة العاشرة والخامسة والعشرون والكتائب المتطوعة يلزم لنا ١١ ألف جمل لنقل المؤونة والماء، فضلاً عن وسائل نقل الجنود، ثقيلها وخفيفها، حتى إنه بمعونة تلك الهيئة ينبغي للحملة عند عبور القناة، وفي غضون أربعة أيام، إما أن تبعد الجنود الإنكليز عن الشاطئ الغربي وتعسكر في الخنادق وإما أن تتقهقر، لأن الماء العذب الذي سيجمع



قوات الجيش الرابع باتجاه قناة السويس في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٥



مجموعة من الفرسان العرب على الضفة الشرقية للقناة قبل الهجوم



جنود عثمانيون في خنادق الخط الأول قبل الهجوم على الضفة الغربية للقناة

في الخطوة الثانية، أي على بعد خمسين كيلومتراً من القناة، لا يحتمل أن يكفي أكثر من عشرة أيام، وبعد نفاده تجد الحملة نفسها في كرب لا يذكر بجانبه كرب الإسرائيليين[٢]. كما أنه لم يكن ثمة أمل في حشد رجال الحملة في بئر السبع وإرسالهم جميعاً إلى القناة دفعة واحدة، لأنه كان من رابع المستحيلات إرسال المؤونة والماء إلى ذلك العدد العظيم من الجنود بواسطة الجمال التي تكونت منها فرق النقل، فلم يبق للكتائب والبطاريات إلا مواصلة السير في الصحراء يوماً بعد يوم، على أن يجتمع الجنود في النهاية في نقطة تبعد عن القناة عشرين أو ثلاثين كيلومتراً، ثم يشرعوا في مهاجمة القناة في النقطة المعينة.

توزيع الأدوار والمهام القتالية على الوحدات العسكرية

ورأت قيادة الفيلق الثامن أن تكون الحملة من الوحدات الآتية، وأن تقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الفرقة الخامسة والعشرون وكتيبة من جنود الفرقة الثالثة والعشرين والسابعة والعشرين، وخمس بطاريات من مدافع الميدان وبطاريتان من المدافع الجبلية وبطارية من مدافع هاوتزر عيار ١٥٠ملم، وكتيبة فرسان وأربع كتائب من فرقة الجمالة وفصيلة من متطوعي فرسان العرب عددها ١٥٠٠ رجل، وجسور عائمة تكفي لعبور ثلاث كتائب في وقت واحد، وستة بلوكات مهندسين وفرقة عمال تلغراف، ومستشفيات ميدان ووحدات طبية وغير ذلك، ومجموع ذلك كله ١٢٦٤٢ رجلاً و٩٦٨ حصاناً و١٢٠٠٠ جمل و٣٢٨ ثوراً.

القسم الثاني: الفرقة العاشرة من فرق المشاة ومدفعيتها، وبلوك فرسان والوحدات المساعدة الأخرى.

وعند وصولي إلى دمشق تسلمت من وكيل القائد العام برقية وضع فيها الفرقة الحجازية بتصرف قائد الجيش الرابع لتعزيز الحملة على القناة أو لاستعمالها محلياً كما يتراءى لي، فكتبت إلى الكولونيل وهيب بك (الحاكم العسكري والي الحجاز) بالمجيء إلى معان مع الكتائب النظامية والمتطوعين، وقد تقرر أن تلحق هذه الجنود التي مع وهيب بك بالقسم الثاني.

ولأن الـ١١ ألف جمل التي سبقت الإشارة إليها خصصت للفرقة الخامسة والعشرين والفرقة العاشرة والوحدات الأخرى التابعة للحملة، تقرر أن تأتي فرقة الحجاز بجمالها من الحجاز.

على أن الإنكليز في تقاريرهم الرسمية قدروا عديد الحملة التي قامت بالهجمة الأولى على القناة بأربعين ألفاً، والحقيقة أنها مع فرقة الحجاز والفرقة العاشرة لم تزد أبداً على ٢٥ ألفاً، وتعين أن يكون القسم الأول بقيادة المرسيني جمال باشا قائد الفيلق الثامن، أما القسم الثاني فيلحق بمركز القيادة.

تلك كانت حال جيوش الصحراء وفلسطين وداخل سوريا عند وصولي إلى دمشق، وهذا هو الحد الذي وصل إليه تأهب قائد الفيلق الثامن للحملة على القناة، ونظراً إلى المصاعب التي قامت في وجه تفتيش خط المواصلات الذي أنشئ في دمشق لملاحظة مثل ذلك الخط الطويل، اقترح الفيلق الثامن في الوقت نفسه إنشاء تفتيش مستقل لخط المواصلات في القدس، وتكون مهمته الأولى جمع المؤونة في فلسطين وتقديمها إلى الجيش، وبعد تعديل طفيف أجزت تلك الإجراءات كلها، وقتئذٍ حضر إليّ قائد الفيلق الثامن وقد تولاه اليأس، ليخبرني بأنه لم ينجح حتى ذلك الوقت في الحصول على الجمال اللازمة للحملة، وأن ليس ثمة أمل في الحصول عليها، وأن يلفت انتباه قائد الجيش إلى تلك المسألة خصوصاً.

والواقع أن هذا الفيلق وجد نفسه محاطاً بكل أنواع المتاعب من كل جانب، حتى إنه لم يتمكن بعد ثلاثة أشهر من الحصول إلا على ألفين من الأحد عشر ألف جمل المطلوبة، وأحسب أن الكثيرين سيدهشهم عدم إمكان الحصول على ١٢ أو ١٥ ألف جمل في بلاد كسوريا والحجاز، في حين أن فيها مئات آلاف أو ملايين الجمال، ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن ليست كل أنواع الجمال صالحة لحمل الأثقال.



وهيب باشا (١٨٧٧-١٩٤٠)

وُلد لعائلة تركية هاجرت من آسيا الوسطى. محمد وهيب تخرج في الأكاديمية العسكرية سنة ١٩٠٠ وأُلحق بالجيش الرابع الذي كان مرابطاً في اليمن. وشارك في بعض المعارك ضد القبائل. بعدها جرى نقله إلى أرزنجان وديار بكر.

في سنة ١٩٠٩ بدأ العمل في وزارة الحربية عندما حصل العصيان من قبل ضباط الصف (الالآيلية) والتلامذة في المدرسة الحربية في العاصمة. تم قمع هذا العصيان بالدم. في السنة نفسها كلفه القائد محمود شوكت باشا بمهمة إعادة الانضباط إلى المدرسة. فاستغرقه تنفيذ ذلك العمل ثلاث سنوات. ولما اشتعلت الحرب البلقانية ألقيت على عاتقه مهمة تقوية التحصينات في منطقة لونينا («يانيا» حالياً مع اليونان). سوية مع أخيه أسعد باشا قائد فيلق لونينا استطاعا إدارة الدفاع عن المدينة بنجاح لسبعة أشهر. تم أسره وبقي في أثينا عند اليونانيين ٩ أشهر.

سنة ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية ومحمد وهيب على قيادة الفرقة ٢٢ في الحجاز بإمرة أحمد جمال باشا. ثم نقل إلى غاليبولي ليقود الفيلق ١٥ في وجه القوات الإنكليزية في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة. وفي ظل المعارك ولاه أنور باشا قيادة الجيش الثاني العامل في القوقاز مكان القائد محمود كامل باشا الذي استقال بعد سقوط أرضروم في يد الروس. القائد محمد وهيب استطاع ان يقود بنجاح المقاومة عن خطوط الدفاع في جبهة القوقاز. وروسيا أعلنت توقفها عن متابعة الحرب وتمكّن من استعادة المنطقة إلى السلطنة العثمانية. بعد الهدنة أخذته القوات الإنكليزية أسيراً بتهمة انتمائه إلى جمعية الاتحاد والترقي. بعد إطلاقه ذهب إلى إيطاليا ومنها إلى أثيوبيا ليرأس الجيش الأثيوبي ضد الإيطاليين. مع انتهاء مهمته بقي في مصر فترة ثم رجع إلى استانبول حيث توفي سنة ١٩٤٠.

أريد أن أشير عرضاً إلى مسألة سيتناولها البحث تفصيلاً متى حان الوقت لكتابة تاريخ الجيش الرابع. فلم يكن سواي هناك من عرف عظم المصاعب الواجب تذليلها للحصول في غضون شهر واحد على ١٤ ألف جمل، بما فيها الاحتياط. ومع ذلك نجحت في النهاية وحصلت في الميعاد المحدد على الجمال التي اقتضتها خطة الهجوم التي وضعها الفيلق الثامن. ويمكن قدر المتاعب التي صادفتها، أن ابن السعود جاء في ذلك الوقت بالجمال من أقصى أعماق نجد.

أما مسألة المسائل التي عليها تتوقف كل الأعمال العسكرية الشاقة في صحراء سيناء فهي مسألة الماء، إذ فيما عدا فصل المطر يستحيل مطلقاً اختراق تلك الصحراء بحملة عسكرية قوامها ٢١ ألف مقاتل، بل إن من أصعب الأمور إرسال حملة عديدها ١٠ آلاف رجل. وبما أن فصل المطر في الصحراء هو ديسمبر/كانون الأول ويناير/كانون الثاني، تعيّن أن ننفذ أعمالنا الحربية في هذين الشهرين أو نرجئها إلى ذلك الفصل من العام التالي.

ولما كانت القيادة العليا مصرة على زحف الحملة في هذا العام، اعتزمت بعد سماع التقريرين الشفويين من قائد الفيلق الثامن ورئيس أركان الحرب التعجيل في سير التأهبات وتنفيذ خطة الهجوم.



باتجاه السويس، جنود عرب عثمانيون ضمن الجيش الرابع

وفي نهاية ديسمبر/كانون الأول شرعت في حشد القسم الأول من الحملة قرب بئر السبع. وأتمت الفرقة العاشرة في الوقت نفسه حشد جنودها في مدينة زحلة في لبنان، وقد تفقدتها هناك. ثم نقلت مركزي إلى القدس بعدما أصدرت تعليمات التوجه اليها وبئر السبع لقائدها الذي كان بإمرة قيادة الجيش مباشرة.



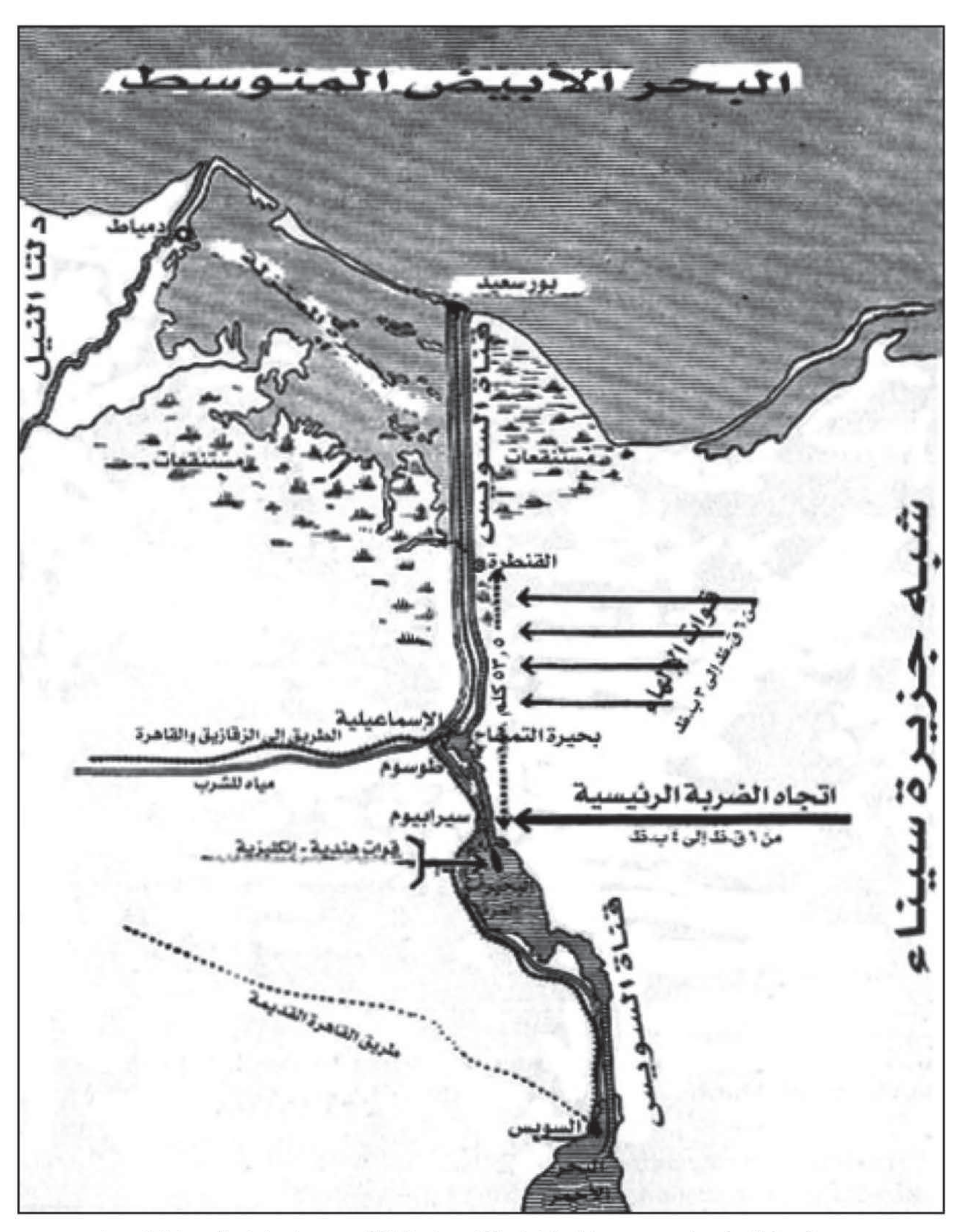
القوات في بئر السبع باتجاه السويس

ثم شرعت نحو ذلك الوقت في مخاطبة شريف مكة الأمير حسين باشا. فطلبت إليه أن يعزز قائد فرقة الحجاز بقوة مساعدة بزعامة أحد أبنائه، أو يتولى هو القيادة ويلحق بالجيش. فأجاب الشريف على خطابي الأول بكل أدب وأخبرني بأنه سيرسل ابنه علي بك ليرافق وهيب بك والي الحجاز. والواقع أن علي بك غادر مكة مرافقاً لجنود وهيب بك ولكنه ما إن وصل إلى المدينة حتى أعلن أنه مراعاةً لأوامر أبيه لا يستطيع مرافقة وهيب بك إلى أبعد من ذلك. فتخلف في المدينة وأخذ يتدخل في أعمال القائد بصري باشا.

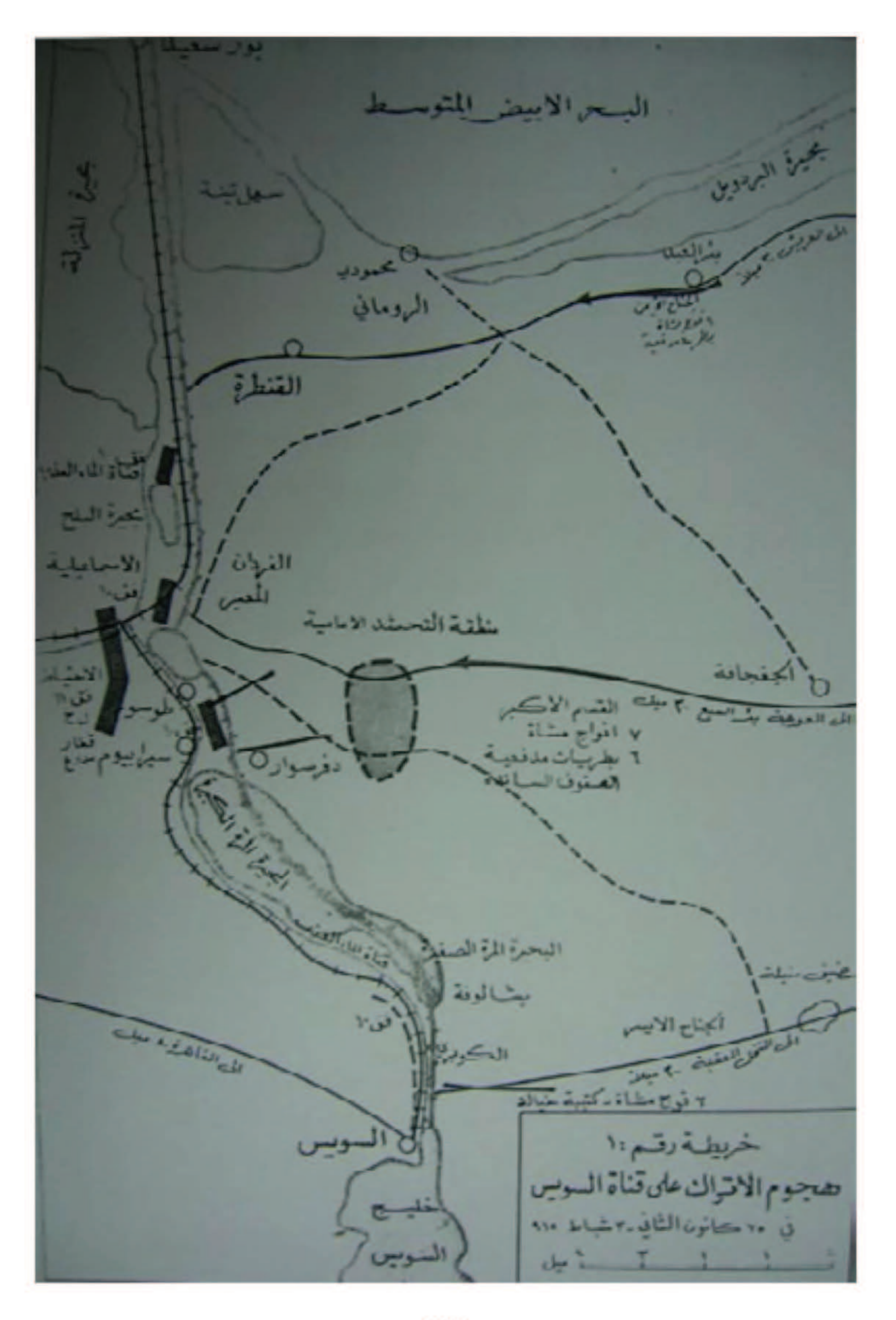
وفي اليوم الرابع عشر من يناير/كانون الثاني بدأ القسم الأول من جنود الحملة زحفه إلى القناة تنفيذاً لخطة الهجوم. وفي ١٥ يناير/كانون الثاني غادرتْ قيادة الجيش بئر السبع مقتفيةً أثر الجيش.

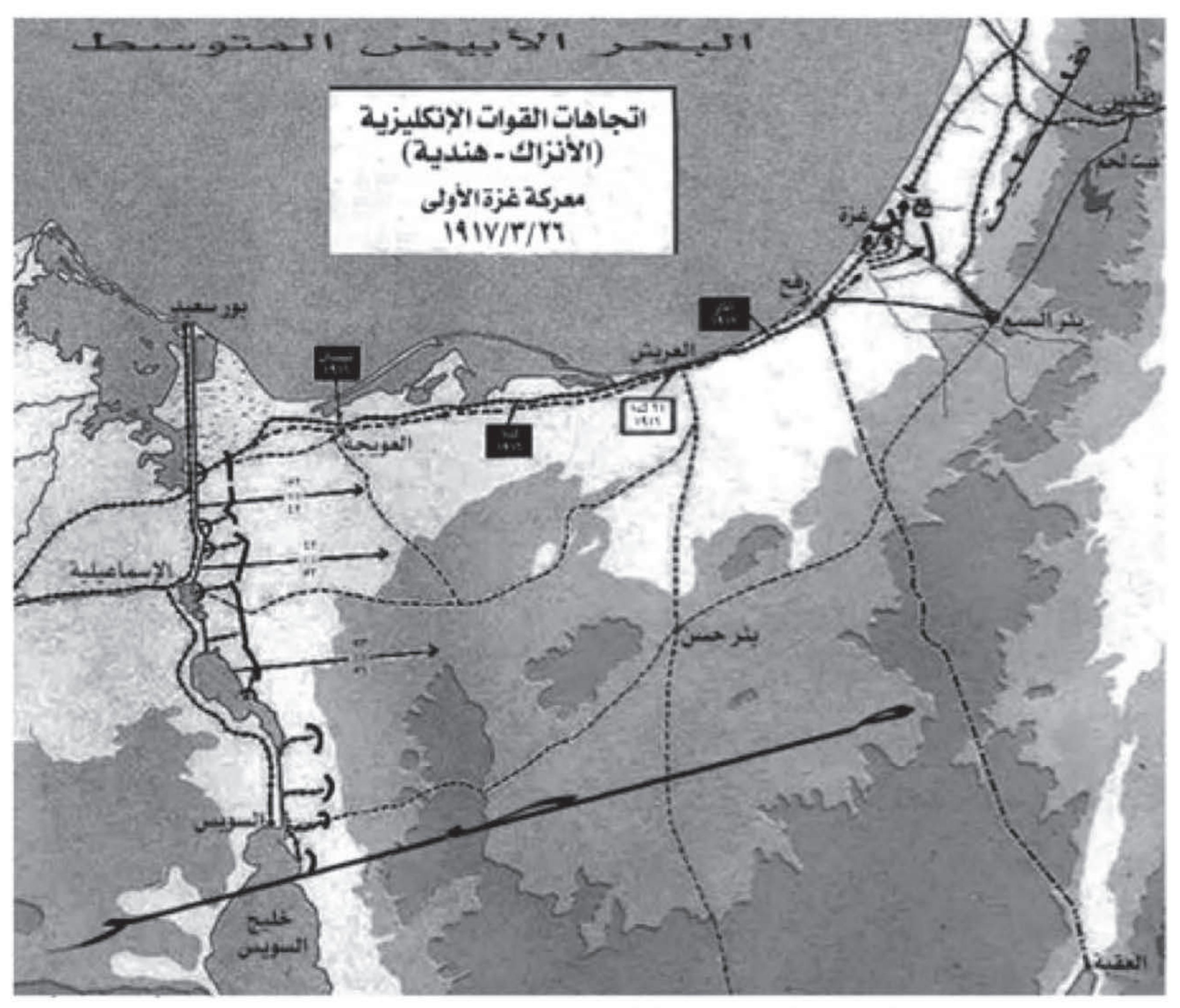
ولم يمر عشرون يوماً على بدء الزحف من بئر السبع حتى وصل قلب القسم الأول من الحملة بقوة كبيرة إلى نقطة تبعد نحو ١١ كيلومتراً من القناة. ووصل الجناح الأيمن الذي زحف من العريش في جهة قاطية تجاه القنطرة. فيما الجناح الأيسر الذي زحف من العقبة عن طريق قلعة النخل وقف قبالة السويس. ووصلت المعدات الرئيسية للفرقة العاشرة التي يتألف منها القسم الثاني إلى مستودع خط المواصلات في المرحلة الثانية. كما وصلت فرقة الحجاز يقودها وهيب بك إلى قلعة النخل بعدما سارت من مكة إلى المدينة. ومن ثمّ إلى معان بالسكة الحديد.

ويقصر اللسان عن أن يوفي القوات العثمانية - لا فرق بين ضباطها وجنودها - التي اشتركت في حملة القناة الأولى حقها من الثناء على ما بذلته من جهود وأظهرته من ضروب الوطنية العالية. وأرى من واجبي تقديم إعجابي لأولئك الجنود البواسل الذين زحفوا غير مبالين بما لاقوه من ضروب الضنك وتحملوه من المشاق في جرّ المدافع. فضلاً عن الجسور المتحركة (وهي كل ما كان لدينا من المعدات لعبور القناة) وسط بحر الرمال هذا.



رسم طوبوغرافي لميدان وحدود عمليات الفيلق الثامن على قناة السويس واتجاهات الضربة الرئيسية


بور سعيد
البحر الابيض المتوسط
بحيرة البردويل
بحيرة المنزلة
سهل طينة
محمودية
الرومانى
بئر العبد
القنطرة
بحيرة البلح
الاسماعيلية
الفردان
المعير
منطقة التحشد الامامية
الجفجافة
القسم الاكبر
٧ افواج مشاة
٦ بطريات مدفعية
الصفوف السائدة
طوسون
سيرابيوم
دفرسوار
البحيرة المرة الصغرى
الجناح الايسر
٦ فوج مشاة - كتيبة هندسة
السويس
خليج السويس
خريطة رقم ١٠
هجوم الاتراك على قناة السويس
فى ٢٠ كانون الثانى - ٢ شباط ١٩١٥
ميل



توزّع القوات الإنكليزية إلى ثلاثة اتجاهات الملاحقة للقوات العثمانية

وقد ساد بين رجال الحملة - لا فرق بين الأتراك والعرب - شعور العطف الأخوي، ولم يكن بينهم من يضنّ بحياته دفاعاً عن إخوانه. والواقع أن الحملة الأولى على القناة كانت برهاناً ساطعاً على أن معظم العرب انضموا إلى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم.

أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم بمنتهى الاهتمام والإخلاص كما أدته هيئة خط المواصلات. فلذلك لا يمكنني مطلقاً تخفيف الحقد والسخط اللذين أشعر بهما ضد الشريف حسين لبذره فيما بعد بذور الخلاف في تلك الكتلة التي توحدت آراؤها وشعورها.

وفي خلال تلك الحملة ونحن نواصل السير ليلاً في ضوء القمر، كان قلبي مفعماً بالكآبة الممزوجة بالأمل الكبير في النجاح كلما رددت الموسيقى أنشودة «الراية الحمراء تخفق فوق القاهرة»، والتي على وقعها شقت الصفوف الزاحفة طريقها في ذلك القفر المظلم الذي لا نهاية له.

ولا أبالغ إذا قلت إن ذلك الجيش الذي لم يسمح لفرد من أفراده، سواء كان القائد العام أو الجندي الصغير، بتناول أكثر من ٦٥٠ غراماً من الخبز وقليلاً من التمر والزيتون، فضلاً عن الاقتصاد الكلي في استعمال الماء، كان يندفع بقوة الآمال العزيزة كلما اقترب من هدفه، فقد رسخ في نفس كل فرد فيه اعتقاد جازم بسهولة عبور القناة والثبات في الخنادق في الضفة الغربية وقيام الوطنيين المصريين بمهاجمة الإنكليز من الخلف.

ومع أنني لم أكن واثقاً بالنجاح النهائي - لعلمي بمناعة الاستحكامات الإنكليزية في القناة - فقد اعتدت أن أحادث الجنود كل مساء عن النصر المنتظر وأنه سيكون نصراً مبيناً، لأنني أردت أن أبقي تلك الشعلة المقدسة متقدة في قلوب رجال الحملة جميعهم.



القائد العام للجيش الرابع في بلاد الشام أحمد جمال باشا مع مرافقيه

فبعد أن أتمت الحملة تعبئتها - في القلب والجناحين - في المنطقة المشار إليها قبلاً، قررت أن يقوم القلب في ليلة الثاني من فبراير/شباط بهجمة فجائية على الإسماعيلية، ويتظاهر الجناح الأيمن في الوقت نفسه بمهاجمة القنطرة فيما الجناح الأيسر يواصل زحفه على السويس.

فلا يكاد الظلام يخيم حتى يشرع الجنود المهيأون للهجوم في الاقتراب من النقطة التي تقرر عبور القناة منها، ثم يبدأ العبور نفسه بُعيد الشروق. وكنت قد وقفت كل اهتمامي على مفاجأة الإنكليز، علماً مني بأن في استطاعتي الاستيلاء على خط القناة في جنوبي الإسماعيلية بقوة لا تزيد على خمسة أو ستة آلاف جندي في الهجمة الأولى ريثما أجيء بالفرقة العاشرة، وإذ ذاك يصبح لديّ قوة قوامها ١٢٠٠٠ بندقية معسكرة في خنادقها في الضفة الغربية، ثم نستولي على الإسماعيلية - لو أمكن - ونحتفظ بها إلى أربعة أو خمسة أيام داخل استحكامات متجهة غرباً وشمالاً وجنوباً، وفي الوقت نفسه تضاعف الفرقة الثامنة زحفها، فلا تمضي عشرة أيام حتى يزيد عدد الجنود في الإسماعيلية إلى ٢٠٠٠٠.

وقد علّقت أكبر الآمال وقتئذٍ على مساعدة الوطنيين المصريين الذين رجوت أن يثوروا كلهم أجمعين بعد أن يشجعهم سقوط الإسماعيلية في أيدي الجيش العثماني، فتتحرر مصر في مدة وجيزة باستخدام حملة عسكرية قليلة العدد مزودة بموارد فنية بسيطة.

وكانت جيوش العدو حسب المعلومات التي وردت إلى مركز قيادة الجيش تبلغ ٣٥٠٠٠ جندي على طول خط القناة، عدا ١٥٠٠٠٠ أو يزيد موزعين في طول مصر وعرضها. ولما كان حشد كل تلك الجنود في جميع نقاط القناة - وهو خط ينيف طوله على ٢٠٠ كيلومتر - أمراً عسيراً فقد كان إدراك الفوز ممكناً، بشرط أن نستطيع عبور القناة بغتة في نقاط لا يتوقع العدو عبورنا منها.

وعلى أي حال رأيت القيام بذلك الهجوم كمجرد تظاهرة لإفهام الإنكليز من جهة أننا لا ننوي الوقوف موقف المتفرج على ضفة القناة، ومن جهة أخرى لاستبقاء عدد كبير من جنودهم في مصر كما أشرنا من قبل، وإلا لما جال في خاطري جدياً أننا بمثل هذه الموارد الضئيلة التي لم تكن تسمح ببقائنا سوى أربعة أيام حول القناة - أي بقوة لم تزد على ١٤٠٠٠ بندقية وبضع بطاريات مدافع جبلية وبطارية هاوتزر واحدة وعشرة جسور متحركة للعبور - كنا نستطيع عبور القناة التي يزيد عرضها على ١٠٠ متر في وجه جيش متحرك وباسل كالجيش الإنكليزي مزود بالمعدات الحديثة من البوارج الضخمة إلى القطارات المسلحة.

ولكني بالرغم من شكوكي هذه تمكنت من إيقاظ روح الثقة في نفوس الجنود فلم يكن بينهم من خطر في باله أن هذه الهجمة الأولى على القناة ليست سوى محض تظاهرة، ولا من ضنّ لحظةً بتقديم نفسه قرباناً لنجاح القضية.

فلو كتب النجاح لهذا المشروع - الذي عددته محض تظاهرة مصحوبة بقوة عسكرية - لاعتبرناه فألاً حسناً لتحرير الإسلام نهائياً وتخليص الإمبراطورية العثمانية.



رسم رمزي خيالي يمثل رؤية أحمد جمال باشا قائد الجيش العثماني الرابع لمعركة القناة

تنفيذ خطة الهجوم على القناة

ولكن قضى سوء الحظ أن يتأخر قليلاً وصول القوة المهاجمة إلى ضفة القناة. فإن الشمس كانت في الأفق حين مددنا الجسور المتحركة وشرعنا في العبور. أي إن أعمالنا أصبحت ظاهرة للإنكليز. فهبّوا للدفاع عن نقطة العبور مباشرة. وكانت نتيجته تحطيم الجسور عدا ثلاثة.

وإذ استحال إرسال النجدات إلى أبطالنا المستميتة الذين تمكنوا من العبور في الهجمة الأولى اعتقلهم الإنكليز. وعندئذٍ وقع التراشق الشديد بالمدافع بين البوارج الإنكليزية والطرادات المساعدة والقطارات المسلحة وبين المدافع الخفيفة التي مع الحملة. فلم ينتصف النهار حتى دمرت بطارية الهاوتزر طراداً إنكليزياً وفي ذلك الوقت وصلت الكتيبتان التابعتان للفرقة العاشرة إلى ميدان القتال فوضعتهما في تصرف الضابط القائم بأعمال الفيلق الثامن.

وفي النهاية تبينت حقيقة الحالة. فإن الحملة قد نجحت في مهمتها بالقيام بهذه التظاهرة. وقد رسخ في ذهني أن ليس ثمة أمل في عبور القناة واحتلال الإسماعيلية. وكان مركز القيادة على تل يبعد عن ضفة القناة الشرقية ثلاثة كيلومترات ونصف. وكنت أشرف على المعركة بنفسي. فتمكنت طائرات العدو من تعرّف حقيقة مكانها فما لبثت بوارجه أن أمطرتها بالقنابل من عيار ٥٠ملم و١٢٢ملم.



القائد جمال باشا المرسيني (جمال باشا الصغير) قائد الفيلق الثامن العامل ضمن الجيش الرابع مع بعض ضباط الأركان والوحدات. قائد القوة الأساسية للضربة الأولى

تقويم الوضع القتالي

الاستنتاجات

وفي الساعة الثالثة أرسلت في طلب جمال باشا المرسيني قائد الفيلق الثامن ورئيس أركان حربه فون كريس، وكانا على بُعد ٧٠٠ أو ٨٠٠ متر من خط النار على الضفة الشرقية. وكان معي رئيس أركان حربي ومدير قسم الأعمال الحربية في مركز القيادة الصاغ (المقدم) علي فؤاد بك. وقد وردني قبل قليل تقرير من الضابط القائم بأعمال الفيلق الثامن يقول فيه أن بطارياته إذا تغلبت على العدو في المساء أمكنه محاولة عبور القناة في فجر اليوم التالي.

من أجل ذلك طلبت إلى فون كريس بصفته رئيس أركان حرب الفيلق المشار إليه أن يبدي رأيه في الأمر. فبعدما شرح لي الوضع العام، كرر الاقتراح نفسه في تقرير الضابط السالف ذكره وأقره عليه مرسيني جمال باشا. فقلت لهما: «إن محاولة عبور القناة ثانيةً تعتمد على الموارد التي لدينا. وقد قلتما فيما وردني من التقارير إنه لم يبق لدينا سوى ثلاثة جسور، ولا يجدي اقتراح عبور القناة سباحةً. إذاً فكيف تريدان تنفيذ المشروع؟».

فاعترف كل من جمال باشا المرسيني وفون كريس برجاحة هذا الاستنتاج ولكنهما كانت تنقصهما الشجاعة الأدبية لإصدار أمر الانسحاب للحملة. وقد كان سهلاً أن يرى الإنسان فون كريس - الذي واصل العمل لإعداد المعدات التي تلزم للحملة شهرين ونصف بلا ملل أو تذمر، حتى لقد كان يعتبرها غايته في الحياة - وقد أُسقط في يده بعدما رأى الخيبة بعينه. لذا أصبح يرى الموت هو المخرج الوحيد من الورطة.

فقال: «يا صاحب السعادة، إني أرى أن على رجال الحملة أن يفنوا على بكرة أبيهم حول القناة!».

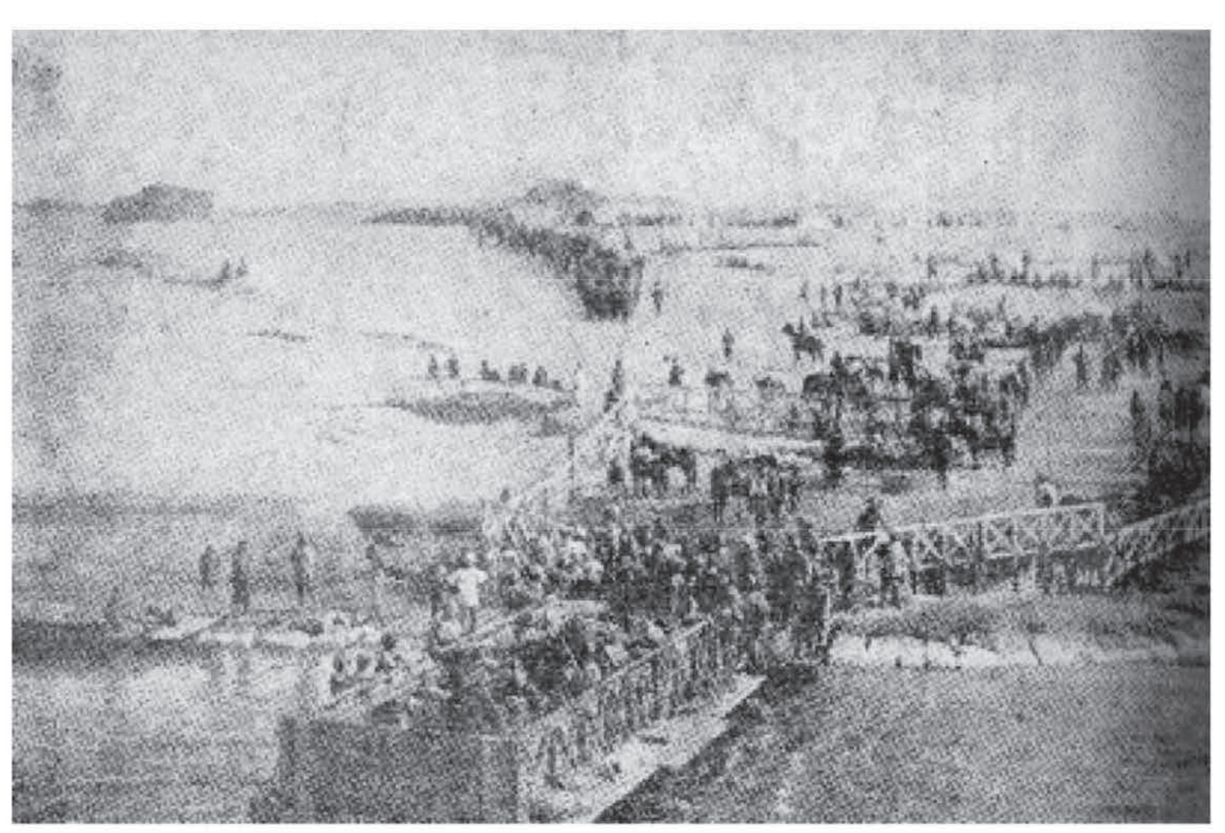
فأجبته بهدوء: «إنني لم أدعك هنا لعقد مجلس حرب أو أن أشركك في المسؤولية عن قراراتي. كلا! فإني لن أسمح لشخص ما سواي أن يتحمل مسؤولية الأوامر التي أصدرها لكوني القائد العام. إن الغرض من استدعائك هنا هو لإعطائي معلومات عن حالة الجنود في الصف الأمامي وحالة الموارد الفنية لدينا. وإني أستنتج مما تقول أنه لم يبق ثمة ما يمكن عمله. فإذا بتنا يوماً آخر بجانب القناة فلا مفر من أن يفنى رجال الحملة على بكرة أبيهم. وتذكّر أن هذه القوة هي كل ما لدى الحكومة العثمانية الآن إذا قضت الضرورة الدفاع عن سوريا أو فلسطين. وإن أكبر واجب عليّ هو صون تلك القوة من الخطر وخوض المخاطر بها حتى نهاية الحرب. وعلى ذلك فالصواب عندي الاحتفاظ بمواقعنا إلى وقت الغسق وإبقاء التراشق المدفعي مع العدو على شدته، ثم نتخذ الظلام سبيلاً لسحب جنودنا إلى الخطوط التي غادروها مساء الأمس. ثم نستطيع التقهقر رويداً رويداً إلى بئر السبع. والآن أريد أن يضع فون فرانكنبرغ بك أوامر الجيش اليومية على هذا الأساس!».

فاقتنع جمال باشا المرسيني وفون كريس وفون فرانكنبرغ بهذا الرأي واعتبروه الرأي المنطقي الوحيد، بل هو الحل الذي يقتضيه الموقف العام. وفي هذه اللحظة أخذت طائرات العدو تمطرنا وابلاً من القنابل عن اليمين وعن الشمال، كأنه قد أحس بأننا منهمكون في مناقشة مهمة، ما حملنا على تغيير موقفنا.

وفي النهاية وقّعت أمر الجيش الذي خطّه علي فؤاد بك، وعاد جمال باشا وفون كريس إلى الخط الأمامي وبقيت في مركز القيادة إلى المساء. وكان عليّ اتخاذ الوسائل المطلوبة لكيلا يترك هذا الفشل أثراً سيئاً في نفوس الجنود. فأصدرت أمراً يومياً قلت فيه: «إن الجنود على بكرة أبيهم أدُّوا واجبهم بوطنية وإخلاص. إنما المشروع كان محض استطلاع هجومي (استطلاع بالنيران) على القناة لمعرفة القوى التي لدى العدو وما نحتاجه نحن أنفسنا من القوى لعبور القناة.

وبما أننا قد أدركنا غايتنا تماماً فالأصوب أن ننسحب للحصول على الموارد المادية اللازمة بدلاً من التعرض للخسائر بلا جدوى. وإن الشرف يقضي أن تسود خلال التقهقر روح التضحية والإخلاص نفسه الذي سادت إبان الزحف لئلا نفقد شيئاً من معداتنا».

وفي ١٥ فبراير/شباط ١٩١٥ عاد مركز القيادة إلى بئر السبع بعد شهر من مغادرتها. ولما لم يكن مستطاعاً مدّ خط التلغراف إلى أبعد من مستودع خط المواصلات في أبِن (وهو في منتصف الطريق بين القناة وبئر السبع) ظلت القيادة العامة أسبوعاً بلا أخبار مني حتى قلقت كثيراً. وقد علمت فيما بعد أن



بعد المحاولة الفاشلة للقوات العثمانية لاحتلال القناة ومن ثم غزو مصر، يُرى في الصورة قوات بريطانية تنتقل إلى الضفة الشرقية لمطاردة بقايا القوات العثمانية المنسحبة وملاحقتها في شعاب صحراء سيناء.

مدير تلغرافات الجيش (الذي كان مشتغلاً في مدّ الخطوط في الصحراء) أبلغه أحد المعتوهين كذباً بنبأ سقوط الإسماعيلية، فعجّل في إبراقه إلى استانبول.

فلما ظهرت الحقيقة انعكست الآية وكان لها أسوأ الأثر. غير أنه لحسن الحظ كان للبيانات التي أصدرتها قيادة الجيش، من أن المشروع لم يكن سوى محض استطلاع هجومي نجاح عظيم في إزالة ذلك الأثر السيئ.

والحقيقة أننا عندما فكرنا في هذه الحملة الأولى لم يكن أحد منا يعرف كيفية عبور القناة، فكان ضرورياً جداً القيام باستطلاع كهذا. فما هي الموارد المادية المطلوبة لعبور القناة التي كانت في مأمن من الهجوم؟ أكان في المستطاع العبور على مرأى من بوارج العدو؟ ألم يكن ممكناً ردم القناة؟ حتى لو فشل العبورواستحال علينا الاستيلاء على نقطة في القناة ألا يمكننا أن نعسكر في الضفة الشرقية ومن ثمّ نعرقل مرور البوارج الحربية ونضايق البواخر التجارية بالمدافع البعيدة المرمى؟ وهلاّ تكون تلك خير خطة نتبعها؟ كل هذه كانت مسائل حرية بأن يقتضي الإجابة عنها القيام باستطلاع بقوة عسكرية.

فإلى هذا الاستطلاع يرجع الفضل في وقوفنا على حقيقة الموقف وما يتطلبه، وانتظاراً لنتيجة محاولتنا هذه أرجأ الإنكليز مهاجمتهم للدردنيل ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى إبقاء جيش لا يقل عن ٢٠٠ ألف جندي في مصر!.

وجلي من هذه الملاحظات أن نفقات الحملة الأولى على القناة لم تذهب عبثاً، لأننا أدركنا الغرض الذي رمينا إليه.

وفي غضون انسحابنا من القناة سلمت إلى علي فؤاد بك كأساس لتقريره مذكرة عن عدد الرجال ونوع المدفعية والمواد الأخرى التي نحتاج إليها لإنجاح الحملة على القناة، ثم طلبت إليه أن يكتب تقريراً مفصلاً على هذا الأساس.

وفي الأيام الأربعة أو الخمسة التي قضيتها في أبِن في مشاهدة مرور الجنود، أتمّ علي فؤاد بك تقريره وسلمه إليّ بعد مراجعته مع رئيس أركان الحرب والحصول على موافقته.

وإني لشديد الأسف لكون هذا التقرير ليس معي الآن وهو الذي أقررته بعد إدخال بضعة تعديلات طفيفة عليه، ولوددت أن أذيعه، ولو استطعت نشره لأدركت هيئة أركان الحرب الإنكليزية عظم الفائدة التي عادت علينا من ذلك الاستطلاع الهجومي وللحقها العار حينما تعرف أن أبطالنا الذين خانهم الحظ ووقعوا أسرى في أيدي الإنكليزيجري استعراضهم في شوارع القاهرة، والصحف الإنكليزية تكيل لجيشنا أنواع القدح والسباب.

ولكن إذا قدر الإله عودتي إلى استانبول فستكون مهمتي سد هذا الفراغ في عملي.

وهاك بيان بخسائرها في الحملة الأولى:

	قتلى	جرحى	مفقودون
ضباط	١٤	١٥	١٥
جنود	١٧٤	٣٦٦	٧١٢

ولكن الإنكليز قدّروا خسائرنا في بلاغاتهم الرسمية كما يأتي:

	قتلى	جرحى	أسرى
ضباط	١٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠

فبمقارنة خسائرنا الحقيقية بهذه الأرقام غير الصحيحة التي نشرها الإنكليز يستطيع الإنسان إدراك المبالغة الشنيعة في بلاغاتهم الرسمية!

هوامش الفصل الثاني:

(١) وجبة الجندي الإنكليزي اليومية في ميدان المعركة: ٤٥٠ غرام لحم بقر، ٥٦٣ غرام خبز، ١١٣ غرام لحم خنزير، ١٤ غرام شاي، ٥٦ غرام سكر، ٥٦ غرام مربى، ٢٨ غرام جبنة، ٢١ غرام زبدة، ٣٤٠ غرام بطاطا، ٢٨ غرام ملح، ٧ غرامات توابل، ٢ غرام خردل.

(٢) كرب الاسرائيليين: ورد ذكرهم في القرآن الكريم {قال بأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض} (الآية ٦٢، سورة المائدة).
ويلاحظ ان هذه الجملة تتكرر في مذكرات العديد من القادة الاتراك.
وفي العهد القديم: الاصحاح الاول لسفر التثنية.

الفصل الثالث

ما بعد حملة القناة

عند عودتي من القناة أحصيت بإمعان كل ما يجب عمله في الصحراء. وبحثت المشروعات العديدة التي بقيت قيد التنفيذ. فإن الأمر البسيط الوحيد الذي تترتب عليه حملة ناجحة هو تنظيم خطوط المواصلات. إذ مهما حسن نظام هيئة خطوط المواصلات فلا أمل في بقائها إلى أمد طويل أو استعمالها في إرسال قوات كبيرة إلى القناة إن لم تتصل مستودعاتها المختلفة بطريق مأمون. فكان أول شيء فكرت في عمله هو إنشاء طريق بين بئر السبع وسائر نقاط خط المواصلات في اتجاه الإسماعيلية ليمكن نقل جميع أنواع المركبات والسيارات. وفكرت أيضاً في إنشاء خط حديدي محاذٍ لتلك الطريق.



بئر السبع

ولزم أيضاً أن نحفر بئراً ارتوازية في كل نقطة من نقاط خط المواصلات ونقيم الأبنية المختلفة مثل المستشفيات والمستودعات وما شابه. ويجب قبل الشروع في إقامة هذه الأبنية والاستمرار فيها استخدام ٤٠ أو ٥٠ ألفاً من العمال في الصحراء. وهذا وذاك علينا ألا نتركه بلا رقابة أو حماية. إذ لو تركناه بغيرهما لما كان هناك شك في أن يصير مع الوقت عرضة لمضايقة الخيالة الإنكليز وجمّالتهم. وعلى ذلك تعيّن تحصين الصحراء تحصيناً قوياً. فعوّلت على إنشاء مركز قيادة حملة الصحراء وجعلها مسؤولة أمام قيادة



أعمال السخرة في إنشاء سكة حديد للجيش الرابع



الخيالة الإنكليز

الجيش مباشرةً. ووضعت سائر الجنود الذين كانوا يحمون نقاط الصحراء المختلفة مرهونين بإشارتها، وعيّنت فون كريس لإدارتها.

ولم يتردد فون كريس في الموافقة لأنه كان - كما قدمت - يعتبر حملة القناة غايته الوحيدة في الحياة، وكذلك كان يرى مغالبته لمتاعب الصحراء عزاءه الوحيد. وبهذه الطريقة أنشئت في الصحراء هيئتان مستقلتان بعضهما عن بعض استقلالاً كلياً، الأولى مفتشية خط مواصلات الصحراء ومهمتها إعداد العدة لإنشاء النقاط وطرق الاتصال، والثانية مركز قيادة حملة الصحراء ومهمتها حماية تلك المباني من هجمات العدو ومراقبة أعماله بالقيام بحركات استطلاع حول القناة بين آن وآخر.

وتقرر موقتاً أن يكون مقر حملة الصحراء في أبن وأن تبقى أقسامها الأساسية فيها والعريش وقلعة النخل، أما بئر السبع فتقرر أن تكون مركزاً لتفتيش خط مواصلات الصحراء، وبعد إصدار التعليمات اللازمة لإنشاء تلك النقاط عدت إلى بئر السبع ومن ثمّ إلى القدس.

ولم ألبث هناك يومين أو ثلاثة - أي بعدما اجتمعت الفرقتان العاشرة والخامسة عشرة في بئر السبع - حتى دعوت عدداً من علية القوم في القدس، ومن ضمنهم قناصل الدول المحايدة وقناصل حلفائنا، إلى الحضور ليرَوا بأعينهم كيف استطاع جنودي اختراق الصحراء والوصول إلى القناة من دون أقل حادث وخوض معركة حامية هناك، والعودة بترتيب عجيب إلى بئر السبع حيث يجري استعراضها، وكان القنصل الإيطالي ضمن المدعوين لأن إيطاليا لم تكن دخلت بعد صفوف المتحاربين.

ولمَ لا أباهي بهؤلاء الجنود[1] الذين عادوا من حملة القناة التي استغرقت شهرين من دون أن تترك وراءها شريداً واحداً في الصحراء، ولم يتخلف منها جندي واحد عدا الذين استشهدوا في المعركة عند القناة أو الذين أسرهم الإنكليز في الضفة الغربية، بل لم يوجد بينهم شخص واحد عضّه الجوع أو أحرقه العطش؟ فإن فرق المؤن أدّت واجبها بدقة تامة، حتى إن كل فرقة منها وصلت إلى نهاية الطريق في الميعاد المضروب لها، ولكن مسألة المسائل هي أنه لم تحدث حادثة خيانة واحدة أو فرار بين عرب سوريا وفلسطين الذين تكونت منهم وحدهم مجموعات التموين.

ولما انتهيت من تنظيم حملة الصحراء وخط المواصلات، وزعت القيادة داخل منطقة الجيش الشاسعة كالآتي:

تنظيم أو (تقسيم) المناطق العربية إدارياً، سياسياً وعسكرياً:

أولاً: سميت فلسطين بما فيها سنجق القدس وسنجق عكا (منطقة القدس) وجعلت جمال باشا المرسيني قائد الفيلق الثامن قائداً لتلك المنطقة.

ثانياً: بما أن قضاءي بئر السبع وغزة ليسا جزءين من تلك المنطقة رأيت إدخالهما ضمن دائرة قيادة خط مواصلات الصحراء.

ثالثاً: ولّيت فخري باشا قائد الفيلق الثالث عشر قيادة المنطقة التي يتكون منها الجزء الأوسط والجزء الشمالي من ولاية بيروت وولايات سوريا وحلب وأضنة، وسميته قائد الجيش الرابع (الموقت)، ثم نقلت مركزي إلى القدس وعولت على التفرغ لإعداد لوازم للحملة الثانية على القناة، ودمجنا الفرقتين الثامنة والعاشرة في الجيش مباشرةً.

تلك كانت الحالة العامة للجيش الرابع في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٥.

وسلمت فون فرانكنبرغ رئيس أركان حرب الجيش خطة وضعتها بدقة تامة خاصة بالجنود، أي بالقوة المهاجمة والاحتياطي ومعدات القتال وكمية الذخيرة وأنواعها اللازمة للحملة الثانية على القناة، وطلبت إليه أن يوصلها إلى استانبول. وقد أقرت هيئة أركان الحرب العثمانية العليا مشروعي بحذافيره، بيد أنني لما طالبتها ببضعة تشكيلات مدفعية وجنود فنيين ماهرين ألمان للقيام بشؤون تلك الحملة المهمة، حولتها الهيئة بواسطة فرانكنبرغ إلى هيئة أركان الحرب الألمانية طالبة مصادقتها، ولكن هذه الهيئة لم تُعْنَ بالمسألة العناية التي تستحقها وجعلت تسوّف فيها بلا سبب.

ولما نقلت مركزي إلى القدس وجّهت اهتمامي بشكل خاص إلى حمل زعماء العرب، أمثال الشريف حسين باشا أمير مكة وابن الرشيد وابن السعود، على تقديم بعض المساعدة الفعلية إلى جيوش الخلافة.

وسيعلم العالم الإسلامي متى اطّلع على الأجوبة التي تسلمتها من الشريف حسين في سياق المراسلات التي دارت بيننا، كيف كان هذا السيد يمارس دورين متناقضين في آن واحد. ولم يكن في استطاعة الأمير ابن السعود أن يمدّ لنا يد المساعدة المباشرة لقربه من الإنكليز الذين كان في استطاعتهم إيصال الأذى إليه، إلا أنه شخصياً كان نافعاً جداً لنا، إذ أرسل الجِمال إلى الجيش، وسمح بتصدير التجارة من بلاده إلى سوريا، ولقد أقام الأمير ابن الرشيد البرهان الصادق على أنه مسلم صميم وشديد الإخلاص للخلافة.



عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

وسأتناول دسائس الشريف حسين فيما بعد. وكنت في ذلك الوقت قد أرسلت نوري بك شقيق أنور باشا إلى طرابلس على زورق مهرّب، بعد حضوره من بنغازي إلى بيروت قاصداً استانبول.

ويجب هنا أن أضيف أنني كنت أرسلت الفرقة التي جاءت من مكة بقيادة وهيب بك إلى نقطة قريبة من القناة، فلما قرّ الرأي على التقهقر سحبتها إلى معان، ونظراً إلى تعيين وهيب بك هذا قائداً للجيش الثاني وسفره إلى استانبول أمرت بعودة فرقته بقيادة نجيب بك.



عبد العزيز بن متعب بن الرشيد أمير حائل (تأمّر منذ ١٨٩٧-١٩٠٦)
الابن الثالث لمتعب بن الرشيد. تبنّاه عمه وأهّله لحكم إمارة حائل التي تسلّمها بعد وفاته في ظل سلطة عثمانية ضعيفة وغير محبوبة. سنة ١٩٠٤ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية عاد من المنفى (الكويت) إلى الرياض واحتلها بقوة صغيرة وقتل أمير قلعتها فيما بعد. وفي سنة ١٩٠٦ قُتل عبد العزيز بن متعب آل الرشيد على يد عبد العزيز آل سعود في معركة «روضة مهنا».

ولم أذكر تلك التفصيلات إلا لأردّ على أولئك السفهاء الذين يزعمون أن سبب ثورة الشريف حسين كان تجريدي مكة من حاميتها بلا مسوغ. وفي الوقت نفسه أيضاً أخفقت أساطيل الحلفاء في محاولة اختراق الدردنيل وعادت تجرّ أذيال الخيبة بعد الخسارة التي منيت بها. فبعثت إلى أنور باشا بخطاب أتيت فيه على الأسباب التي جعلتني أعتقد استحالة اختراق المضائق. وأظن أن طلعت باشا رأى رأيي.

وقد أردت بإرسال هذه الخطابات إلى أصدقائي أن أزيد ثقتهم وأشد أزرهم أدبياً. ولا أخفي أن كل إنسان في استانبول كان يتوقع رؤية بوارج العدو أمام السرايا في أي يوم. وربما أثرت تلك العقلية أسوأ تأثير في ثقة زملائي وزعزعت عقائدهم. ولما كان الضرر المنتظر مما لا يمكن تقديره رأيت أن أبعث إليهم بآرائي السالفة باعتباري زميلاً يستطيع تقدير الحالة العامة من بعد. ولقد أخبرني أنور باشا فيما بعد أن رسالتي التي وافقت آراءه تماماً كان لها تأثير أدبي عظيم.

ولما كان من المحتمل أن العدو بعد هجمته البحرية يقدم على إنزال عدد كبير من الجنود لإرسالهم إلى الدردنيل أدرك أنور باشا ضرورة حشد قوات كافية من المشاة قرب استانبول. فطلب أن أبعث إليه بالفرقتين الثامنة والعاشرة. فلبّيت طلبه في الحال.



نوري باشا (١٨٨١-١٩٤٩)

وُلد في استانبول، أخو أنور باشا، من أوائل قادة (مجموعة الجيش الأفريقي) الذين ذهبوا للتصدي للغزو الإيطالي على ساحل الإقليم الليبي، ترك ذلك الموقع ليتولى تشكيلاً أُنشئ حديثاً سمي (جيش الإسلام)، مُنح نوري رتبة جنرال بواسطة أخيه أنور، تقدم بهذا الجيش من خلال منطقة القوقاز ليحمي حقول النفط التي خلّفها الجيش الروسي، قاد نوري الجيش لدخول مدينة باكو وكان أول قائد تركي، بعد الحرب عاش نوري باشا في ألمانيا فترة ليعود إلى تركيا في عام ١٩٣٨ وينشئ مؤسسة صغيرة للذخيرة والعتاد الحربي، في عام ١٩٤١ أقام علاقة مع السفير الألماني في أنقرة فرانز فون بابن لكسب الدعم الألماني للحركة القومية التركية، وساعد على إنشاء فوج تركستان الشرقي، في ١٩٤٩/٣/٢ حدث انفجار كبير مدوٍّ في جزء من مؤسسة نوري باشا في استانبول، أدى إلى مقتل ٢٧ شخصاً بينهم نوري باشا، ولم تظهر علامات أنه حادث مدبر...!!؟



أنور باشا وزير الحربية، وكيل القائد العام للقوات المسلحة (السلطان) في محطة رياق في حديث مع ضابط ألماني

ولما نزل العدو فعلاً إلى شبه جزيرة غاليبولي طلب إليّ أنور أن أرسل الفرقة العشرين أيضاً ففعلت، وكرر الطلب أيضاً أن أبعث بإحدى فرقتي الفيلق الثالث عشر إلى بغداد والأخرى إلى بتليس فصدعت بالأمر، كما عجلت في إرسال المدافع السريعة الطلقات والرشاشات التي كانت في منطقة عمل الجيش الرابع إلى الدردنيل، وفي النهاية وجدت أن الجنود في منطقة الجيش، أي في ولايات أضنة وحلب وسوريا ولبنان وفلسطين وصحراء سيناء، قد خفضت إلى اثنتي عشرة كتيبة ولم يبق في المنطقة كلها بطارية واحدة من المدافع السريعة الطلقات، كما لم تبق لدينا فصيلة رشاشات واحدة! وكانت هذه الكتائب الاثنتا عشرة مكونة من عرب الشام وفلسطين، ولم يوجد مقاتلون أتراك سوى كتائب متطوعي الدراويش وفصيلة مشاة من متطوعي الدوبريجة(٢) التي أنشأتها لخدمة القيادة، أفلا يدل كل ذلك على ثقتي بالعرب واعتقادي أنهم لن يثوروا علينا أو يطعنونا من الخلف؟.



القائد موسى كاظم قره باقر في أرضروم مع ضباط الأركان وضباط الوحدات الجيش الذي أُرسل ضد الأرمن في الزيتون وأورفا (قيادة الوحدات العسكرية)



مصطفى كمال مع ضباطه في آنا فورتا في غاليبولي

أما أهم الأحداث والأعمال الحربية حتى نهاية عام ١٩١٥ فهي شروع الأرمن في العصيان في جهتي الزيتون وأورفة. ولكن الوحدات العسكرية التي أرسلناها إلى هناك أخمدت ذلك العصيان[٣]. فيمكننا إذاً أن نعتبر ١٩١٥ سنة التأهبات والحشد.

وسأبيّن فيما بعد كيف مدّت خطوط حديد عديدة وأنشئت طرق كثيرة في الصحراء وفي الداخل. وكيف أقيمت نقاط خط المواصلات وزوّدت بكل ما تحتاج إليه. أضف إلى ذلك أن أعمال التحصين جرت على قدم وساق في مرسين وتبرق قلعة ودورت يول وعلى طول الشاطئ في الإسكندرونة. وأقيمت أربعة أو خمسة خطوط دفاعية لصدّ أي اعتداء يراد به النزول في بيروت وحيفا ويافا. وكذلك في لبنان وجبل كرمل وفي كل جهة في داخل فلسطين.

ولما كان ضرورياً تجنيد فرق أخرى جديدة تحل مكان الفرق المرسلة إلى استانبول. أخذت أجنّدها من سكان فلسطين وسوريا وحلب وأضنة. وأصبح تمرينها من أهم أعمال الجيش.

وفي أغسطس/آب ١٩١٥. أي عندما بدأت الأعمال الحربية في العراق تسير على غير ما نشتهي. سألني أنور باشا هل كنت أوافق على تولي الإدارة المدنية والعسكرية في تلك الجهة؟.

فأجبته بأن الوقت غير صالح لمغادرتي سوريا وفلسطين. إذ الحالة فيها أمست سيئة بسبب الدسائس الخفية التي يقوم بها الثوار العرب في هاتين الولايتين. وربما أدى بُعدي عنهما إلى أوخم العواقب. ولكن إذا رأى رأياً خلاف ذلك فإني مستعد للتوجه إلى بغداد. فأقرني أنور باشا على رأيي وأناط المارشال فون درغولتس بالقيادة العامة في العراق. فقبل المارشال وتوجّه إلى مقر وظيفته.



دخول البوارج الإنكليزية والفرنسية في مياه الدردنيل



ليوبولد كولمار فون غولتس (١٨٤٣- ١٩١٦)
Leopold Colmar von der Golts

ولد سنة ١٨٤٣ في لا بياو شرق بروسيا. انضم للجيش الالماني سنة ١٨٦١. خدم جنديته الطويلة بداية كمحاضر عسكري في برلين. أصدر كتابا بعنوان «الأمة تحت السلاح» سنة ١٨٨٣ قبل ذهابه الى تركيا مستشاراً عسكرياً بهدف تحديث الجيش وتأهيله كان برتبة رائد.

غولتس كان ناجحاً جداً في ما طلب منه الى حد ان الدول الاوروبية تدخلت طالبة إيقاف عمل البعثة العسكرية الالمانية التي ظهرت نتائج جهودها في انتصار تركيا في حربها اليونانية سنة ١٨٧٩.

رجع الى المانيا سنة ١٨٩٧برتبة جنرال ليوتنانت. وسنة ١٩١١ كان أصبح برتبة (فيلد مارشال) وعين حاكما عسكرياً لبلجيكا وأعيد ارساله الى تركيا مع نشوب الحرب العالمية. عاد الى تركيا وعين مرافقاً للسلطان محمد رشاد الخامس. كان هناك صراع على قيادة القوات العثمانية في بلاد مابين النهرين مع ليمان فون ساندرس. غولتس لم تك علاقته جيدة مع أنور. المارشال غولتس وضع خطة للهجوم على القوات البريطانية يحتمل مصر أو الهند ولقيت هذه الخطة قبولاً حسناً. فعين لقيادة الجيش السادس في بغداد في ١٩١٥/١٠. الامر الذي سره ان يعود الى الممارسة العملانية. وبنجاح تمكن ان يصد هجوم القوات الانكليزية – الهندية في خرائب الشعيبة في ١٩١٥/١١/٢٢. وفي ١٢/٨ تابعت القوات العثمانية بقيادة غولتس اللحاق بقوات العدو التي يقودها المارشال تاونزاند الى الكوت واستسلمت القوات البريطانية مع قائدها بعد حصار استمر ١٤٣ يوماً وقد أنهكهم العطش والجوع على الرغم من محاولات القيادة الانكليزية لإنقاذ الموقف.

غولتس لم يعش بعد انتصار القوات العثمانية أكثر من ١١ يوماً بسبب موته جراء حمى التيفوئيد.

الهجوم البريطاني البري على المنطقة الجنوبية لغاليبولي
(نيسان ١٩١٥)

هجوم محتمل

بحر إيجه

خليج ساروس

استحكامات تركية

بحر مرمرة

مرتفعات غاليبولي

كريثيا

قوات فرنسية

مضيق الدردنيل

تركيا الآسيوية

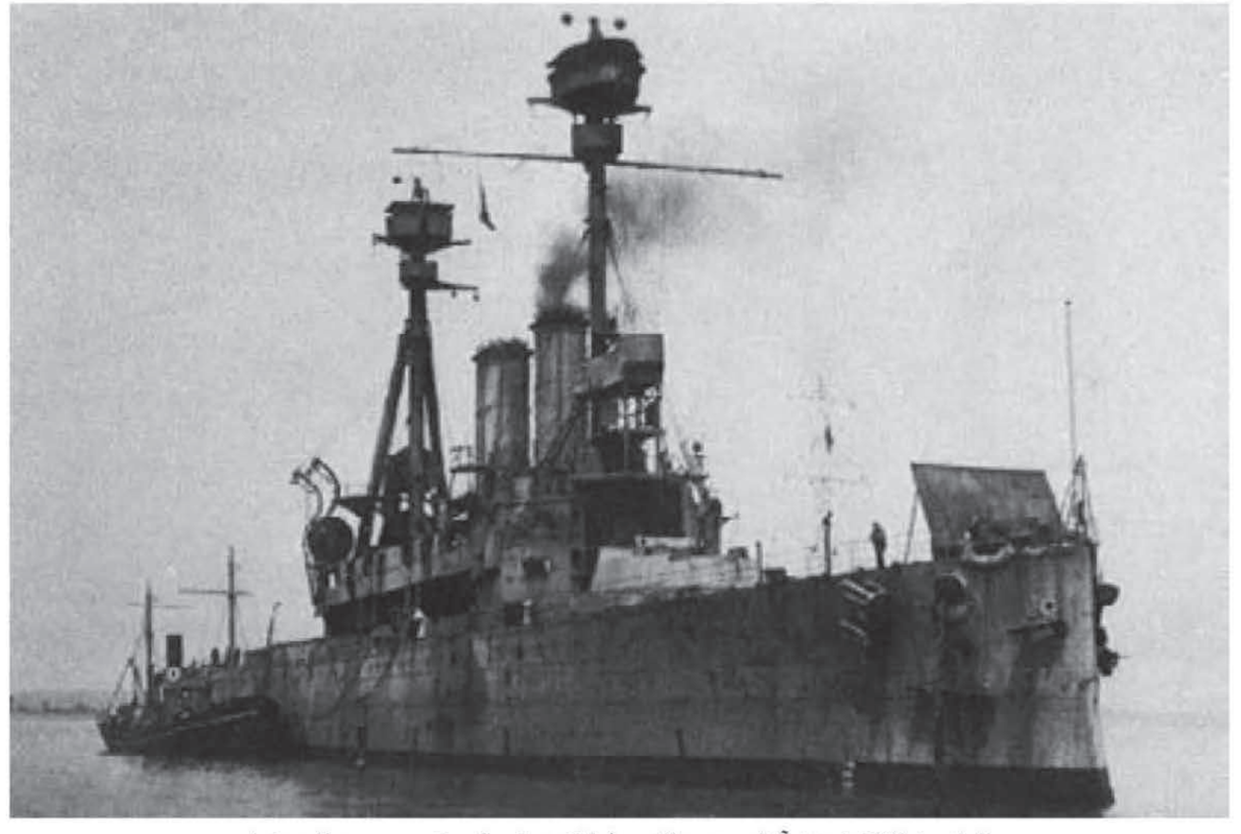
نقاط إنزال للقوات الفرنسية والإنكليزية على شواطئ شبه جزيرة غاليبولي لاحتلال حصونها وإسكات مدفعيتها



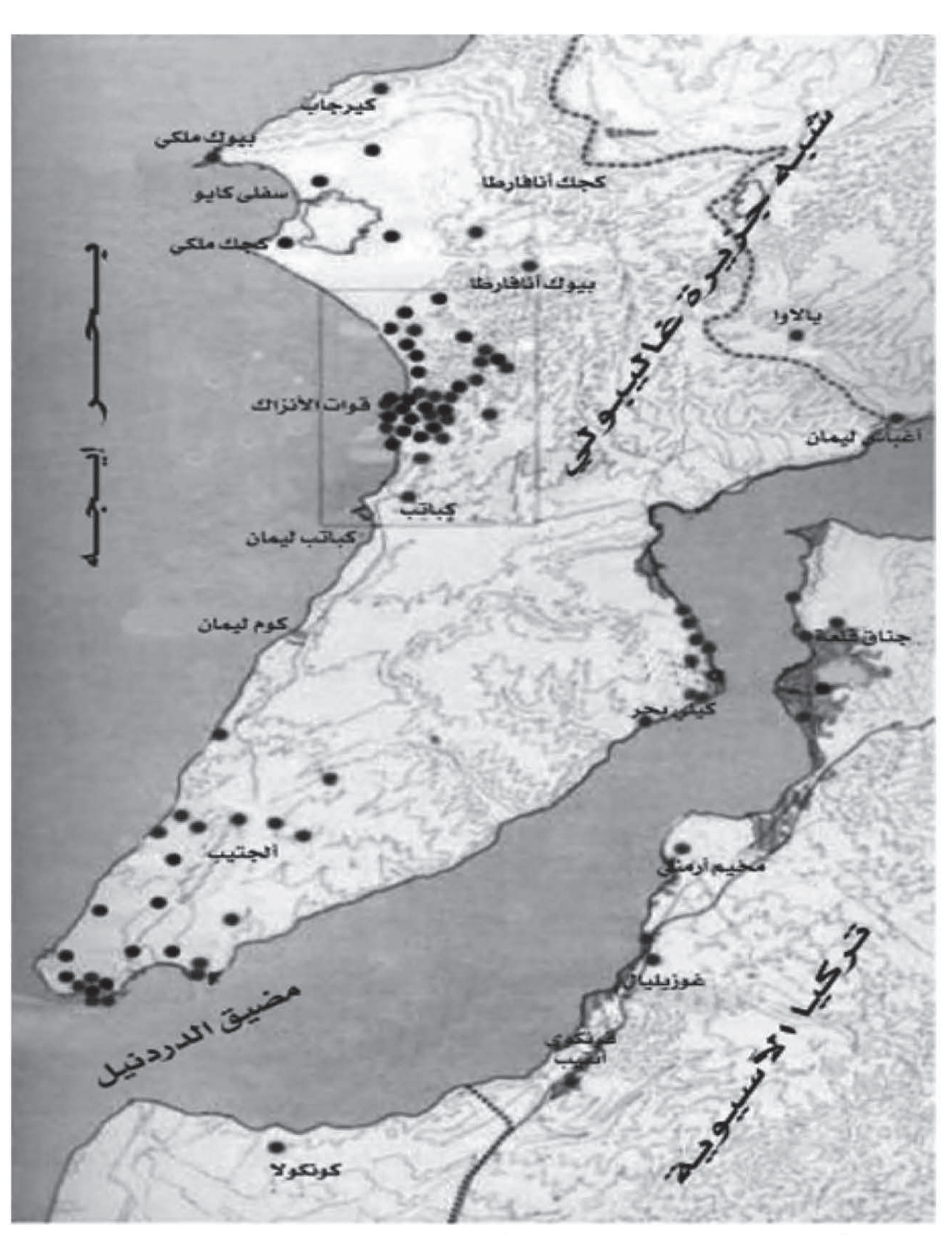
نقطة إنزال إنكليزية في غاليبولي



خط سير البوارج الإنكليزية والفرنسية في الدردنيل



البارجة الإنكليزية آغاممنون التي شاركت في قصف حصون الدردنيل



توزّع القوات التركية على هضاب غاليبولي. وتوزّع نقاط إنزال القوات الإنكليزية والفرنسية على الساحل

انسحاب القوات البريطانية (أسترالية/هندية/نيوزيلندية) والفرنسية. هذا الإنزال الفاشل كلّف الإمبراطورية الإنكليزية وحلفاءها الفرنسيين ٢٥٠ ألف قتيل على الرغم من صمودهم لأسابيع على ربوع الدردنيل إلا أنهم فشلوا في الاستمرار. الجندي العثماني أبدى من ضروب البطولات ما يشبه الأساطير والملاحم، وتكبّد ٢٥٠ ألف قتيل في الدفاع.

وانقضت سنة ١٩١٥ كما أشرت قبلاً في التأهب للحملة الثانية على القناة. وإذ أيقنت أن هيئة أركان حرب الألمان لم تعر تلك التأهبات الاهتمام اللائق بها، سافرت إلى استانبول في نوفمبر/تشرين الثاني لألفت انتباه أنور باشا بجد إلى العناية بهذا المشروع. فمكثت أسبوعين وعدت إلى دمشق خالي اليدين.

ولما انسحب الإنكليز والفرنسيون عن الدردنيل دعوت أنور باشا إلى سوريا ليرى بنفسه نتيجة ما قمت به من التأهبات في الصحراء. فحضر في فبراير/شباط ١٩١٦. وبعد رحلة طويلة في الشام وفلسطين وصحراء سيناء ذهب لزيارة المدينة. وصحبنا في تلك الزيارة الشريف فيصل الذي كان وقتئذٍ في مركز القيادة.



الشريف فيصل

وقد ابتهج أنور باشا أيما ابتهاج بتنظيم خط مواصلات الصحراء، إلا أنه وافقني في أن الهجوم على القناة وطرد الإنكليز من مصر متعذر، ولكننا رأينا أن ليس ثمة ما يحول دون تحصين أنفسنا بأمان في الضفة الشرقية ومنع مرور البواخر التجارية ببطارياتنا الضخمة.

وكان جلّ همي آنذاك أن أعمل أي شيء لمنع تطور الميول الثورية التي أظهرها الشريف حسين، ولحمله على إرسال كتيبة مساعدة إلى فلسطين بقيادة أحد أبنائه، ولتحقيق تلك الغاية كاشفت الشريف فيصل وفاوضته ملياً وتبادلت مع الشريف حسين بضع رسائل ودية. وسيظهر في الفصل الذي كتبته عن الثورة العربية كيف ذهبت هذه المساعي كلها أدراج الرياح.

دور الشريف حسين

في ٢ يناير/كانون الثاني ١٩١٦ وجدنا أنفسنا أمام أمر واقع هو إعلان الشريف حسين الثورة، وكانت هذه الثورة ضربة قاضية للحملة على القناة[٤]. وقد أخذت أفكر في أمر الإنكليز فرأيت أنهم لو أرادوا مهاجمة فلسطين براً لوجب عليهم إنشاء خط مواصلات بين القناة وفلسطين (كما فعلنا نحن من جهتنا) وربط هذين الهدفين بسكة حديد، ولم تجرؤ كتيبة إنكليزية واحدة في عام كامل على أن تطأ أقدامها ضفة القناة الشرقية، وغاية ما أمكنهم أن بعض فرق الهجانة كانت تتجسس إلى مسافة خمسين أو ستين كيلومتراً من القناة، ولكنها كانت ترتدّ إلى قواعدها بعد أيام قليلة.

أما أول ما اكتشفناه من الأعمال الدفاعية الإنكليزية في أواخر يناير/كانون الثاني ١٩١٦ فكانت التحصينات عند رؤوس الجسور في ضفة القناة الشرقية تجاه القنطرة والإسماعيلية، ويصادف تاريخ إنشاء هذه التحصينات تاريخ آخر خطاب أرسله الشريف حسين إلى الإنكليز وأكد لهم فيه خروجه علينا، ومن هذا يتبين أن الإنكليز لم يقرروا العبور إلى الشاطئ الشرقي، أي لم يبدأوا الهجوم على فلسطين، إلا بعد أن استوثقوا من خيانة الشريف حسين. فلقد تأكدوا أن ثورة الشريف ستضطرنا إلى اتخاذ إجراءات معينة لحماية الحجاز، بل إلى أن نسحب من تلك الجهة بعض القوات التي كانت معدة لسوريا وفلسطين، وفضلاً عن ذلك لقد تأكدوا أن البدو الذين أغروهم بالأموال الطائلة المرسلة إليهم بواسطة الشريف حسين سيثورون علينا، وأن ثورتهم ستضعفنا كثيراً.

وفي أول أبريل/نيسان ١٩١٦ وصلت إلى بئر السبع فرقة الطيران الألمانية رقم ٣٠٠ وهي أول مساعدة جادة وصلت إلينا، وفي ١٢ أبريل/نيسان و١٥ منه وصلت بطاريتا مدفعية ميدان نمسويتان من طراز هاوتزر، وكان نفع الفرقة الجوية لا يقدر، فقد ساعدتنا في استطلاع جميع تفاصيل الدفاعات عند رؤوس الجسور والاستعدادات في السكة الحديد وغيرها، وعموماً كل ما كان يفعله الإنكليز في شرقي القناة.

فلما تفاقمت ثورة الشريف حسين عيّنت فخري باشا قائداً للمدينة المنورة، وشرعت أنظّم هناك قوة من خمس عشرة أو ست عشرة كتيبة مشاة وعدد مماثل من البطاريات الجبلية.

إن المكتوب أدناه دعوة صادرة بمكة المكرمة من جلالة الحسين بن على ملك الحجاز وحامى الحرمين الشريفين مكة والمدينة المتصل نسبه بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم "كما هو معلوم فى جميع أنحاء العالم الاسلامى. وهذه صورته كما ترى.




يعلن جلالته فى هذا المنشور حماية الدين الاسلامى من جور الاتراك الاتحاديين وحكومتهم التى تمثلها الفئة الطورانية المتغلبة ويدعو كل المسلمين المخلصين الى الثورة واسقاط الحكومة الظالمة الملحدة التى تديرها الفئة الطورانية المتغلبة.

منشور شريف من حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك المعظم

الشريف الحسين بن علي (١٨٥٣-١٩٣١)

نشأته: ابن محمد بن عبد المعين بن عون... بن الحسن السبط ابن الامام علي بن ابي طالب الحسني الهاشمي القرشي، من أحفاد أبي نمي الثاني. أول من نادى من الحجاز باستقلال العرب عن الإمبراطورية العثمانية، ومؤسس الدولة الحجازية الهاشمية والحاكم قبل الأخير لمكة من الأشراف الهاشميين. ولد في إستانبول سنة ١٢٧٠هـ ١٨٥٤م اذ كان والده أحد ورثة الحكم رهينة لدى العثمانيين كإجراء احترازي مسبق حتى لا يفكر أحد من عائلته الحاكمة في الحجاز القيام بعمل انقلابي ضدهم. أجاد الحسين اللغتين التركية والعربية وحاز اجازات في المذهب الحنفي. عاد إلى مكة مع عائلته ابان العقد الاول من القرن العشرين، واولاده الامراء تخطوا العقد الثاني. لقب بملك العرب وقاد الثورة العربية الكبرى بمساعدة بريطانيا من خلال ما عرف بمراسلات حسين مكماهون التي اسقطت وحررت العرب من الاطماع العثمانية عام ١٩١٦ ليقعوا في الافخاخ الانكليزية.

الاتصال بالانكليز: انتهز البريطانيون فرصة اشتعال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، واتساع روح النقمة على العثمانيين في بلاد الشام والعراق والحجاز، فاتصلوا بالشريف حسين من مصر، وبعدما رأوا إقبال العرب عليه عرضوا عليه خدماتهم، وأمدوه بالمال والسلاح وهم في حالة حرب مع دولة آل عثمان والألمان.

الثورة على العثمانيين: فأعلن الثورة العربية الكبرى، وأطلق رصاصته الأولى بمكة في ١٩١٦م، وحاصر بقايا القوة العثمانية في بلاد الحجاز، ونُعِت بالملك المنقذ. شارك الجيش البريطاني في عملياته إلى سوريا فدخلها مع الجيش البريطاني (قوات الامير فيصل طردت القوات العثمانية من الحجاز ولاحقتها الى دمشق واخرجتها منها، الا انهم منعوا بأمر من القائد اللنبي من دخولها قبل وصوله مع القوات البريطانية).

فيصل في سوريا: تشتت القوات التي دخل معها الامير فيصل الى دمشق ملاحقا فلول العثمانيين عندما أخرجته فرنسا من سوريا بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠م واحتلوها، وجرى ابعاده عنها. دعا البريطانيون عبد الله بن الحسين إلى القدس فاتفقوا معه على أن تكون له إمارة شرقي الأردن، فأقام بعمَّان، واستفحلت ثورة العراق على البريطانيين، فساعدوا فيصل على تولي العرش ببغداد، وأصبح للحسين وهو بالحجاز جناحان قويان، فيصل في شمال الجزيرة العربية وعبد الله في شمالها الغربي، وحاول ابن سعود مصالحته، لكن ذلك لم يتم، قام الشريف بزيارة عمَّان سنة ١٩٢٢، وأعلن نفسه خليفة وعاد إلى مكة ملقباً بأمير المؤمنين. بعد سقوط الدولة العثمانية وقيام الدوله الحجازية الهاشمية تراجعت الدولة البريطانية عن وعدها المقطوع للشريف الحسين بن علي حول إقامة مملكة عربية موحدة بإمرته، وبدا الاختلاف خصوصا بعد اخراج الفرنسيون والبريطانيون لابنه من سوريا واحتلالهم لها وتطبيق مطامع (وعد بلفور) اليهود في فلسطين بعدها طلب البريطانيون من الشريف الحسين بن علي التوقيع على وثيقة تنص على ان جزء من فلسطين ملك لليهود فرفض الحسين بن علي وقاموا بتهديده واجابهم بكلمته المشهوره «فلسطين حرة عربية ولا أحد يستطيع ان يأخذها من أهلها وبالنسبة لخدماتكم فنحن نستغني عنها»

نهاية عهد العائلة الهاشمية في شبه الجزيرة العربية: واشتدت الخصومة بينه وبين ابن سعود (الذي كان على وفاق مع الإنجليز ووعدوه بمساعدته على خصومه)، حتى قامت قوات ابن سعود وحلفائه من الإخوان بمحاصرة مدينة الطائف، وتفوقوا على جيش الحسين واحتلوا المدينة. الشريف حسين أجرى اتصالاً بالقنصل البريطاني في جدة فأجابه هذا بأن حكومته قررت الحياد. اجتمع بذوي الرأي في جدة ونصحوه بالتخلي عن العرش لأكبر أبنائه علي. انتقل من مكة إلى جدة سنة ١٩٢٤م، ومنها ركب البحر إلى العقبة آخر حدود الحجاز، وأقام أشهراً عدة فيها كونها ضمن حكم ابنه عبدالله. وتلقى إنذاراً بريطانياً بوجوب رحيله عنها لأن البريطانيين يرون أن بقاءه في العقبة قد يعكر صفو العلاقة مع ابن سعود.. غادر ساخطاً على متن مدرَّعة بريطانية إلى جزيرة قبرص سنة ١٩٢٥م، وأقام فيها ست سنين، الا ان أمراض الشيخوخة لم تمهله، عاد الى عمان بصحبة ولديه فيصل وعبد الله، بعد ستة أشهر توفي (سنة ١٩٣١م) دفن في القدس.

وإني لشديد الإعجاب بفخري باشا. فلقد أتى هو وحاميته بالمعجزات برغم هجمات العدو وما كان يحيط به من كل جانب من العناصر المعادية. فقد ثبت من يناير/كانون الثاني ١٩١٦ إلى ديسمبر/كانون الأول ١٩١٨، أي ثلاث سنوات، يدافع عن الروضة الشريفة ضد جنود الشريف حسين الخائن وبدوه العصاة الذين ساعدتهم المدفعية الفرنسية والإنكليزية والتشكيلات المساعدة العديدة. بل إن تلك الحامية الصغيرة بعد أن نقص عددها في أكتوبر/تشرين الأول أو نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٨ إلى خمس أو ست كتائب، وانقطعت صلاتها بالداخل على أثر سقوط معان في يدي فيصل في يناير/كانون الثاني ١٩١٨، ثابرت على المقاومة وأمكنها الاحتفاظ بالمدينة إلى ما بعد توقيع الهدنة بثلاثة أشهر.

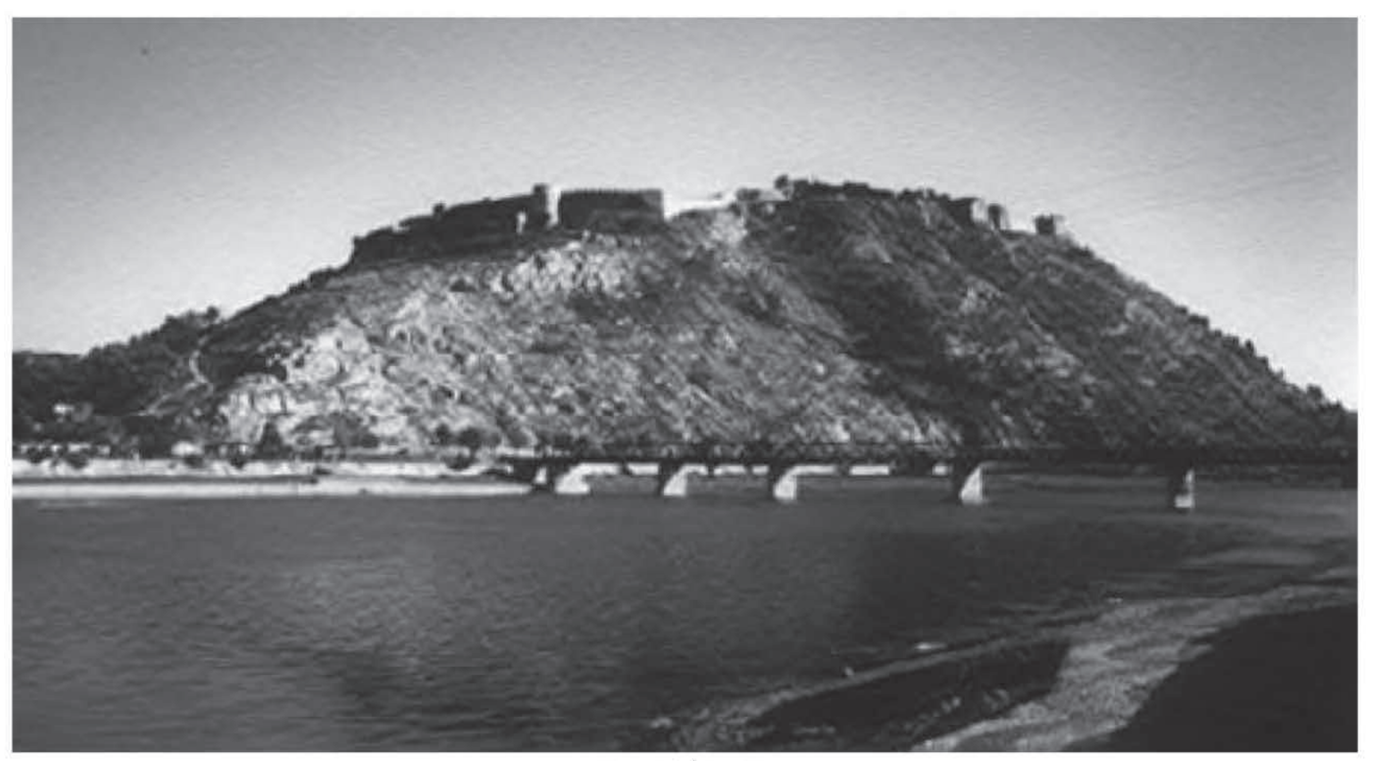
ولعمري إن اللسان لا يستطيع أن يوفي تلك الحامية الصغيرة حقها من الثناء لما أبدته من ضروب الشجاعة والثبات، وهي التي لم تزد على خمس أو ست كتائب تركية، والتي عهد إليها وأنيط بها حماية الخط الحديد من المدينة إلى معان، والتي أبقت طريق المواصلات بين المدينة والجيش مفتوحاً.

أما الرجال الذين هم في نظري دعائم الدفاع عن ذلك الخط الحديد الذي ينيف على ألف كيلومتر فيما بين المدينة ومعان، فهم فخري باشا وضباطه البواسل أمثال حاكم المدينة بصري باشا والقائد جمال باشا الذي امتاز بشدة مراسه في الدفاع عن أشقودرة تلك القلعة الألبانية والذي يسميه العرب (جمال باشا المرسيني «الثاني») والقائمقام نجيب بك والملازم كمال بك فيما بعد وغيرهم.

فبسالة هذه الشرذمة وإقدامها أحبطت كل ما بذله أولاد الشريف حسين من الجهود وردّتهم على أعقابهم بالخسائر الفادحة. والدليل على نجاحها أن المواصلات ظلت مفتوحة بين سوريا والمدينة من



فخري باشا الحاكم التركي للمدينة المنورة مع الشريف علي بن الحسين



قلعة أشقودرة

أحمد جمال باشا مع جمال باشا المرسيني



الشريف علي بن الحسين مجتمعاً مع ضباط بريطانيين

يونيو/حزيران ١٩١٦ إلى ديسمبر/كانون الأول ١٩١٧. وحركة الأعمال منتظمة بالرغم من امتداد ثورة البدو من المدينة إلى معان واحتلال الشاطئ بواسطة جنود الشريف التي عززها الجنود الإنكليز والفرنسيون. بيد أن التضحيات الهائلة التي اقتضاها طبعاً تموين حامية المدينة وإمداد الجنود المرابطين بين المدينة ومعان بالمؤونة والذخيرة حتّمت علينا أن نقسم المؤونة المخصصة لفلسطين وسيناء إلى قسمين. وحالت دون تعزيزنا جبهة سيناء متى شئنا وكيفما أردنا.

وفي ٢٣ أبريل/نيسان ١٩١٦ تمكن فون كريس بك وهو يقود كتيبتين من المشاة وبطارية جبلية وكتيبة من الجمالة المتطوعة بهجمة فجائية من أسر كتيبة فرسان إنكليزية وقومندانها وضباطها. فرفع هذا العمل العظيم ثقة جنودنا إلى درجة عالية. وفي ذلك الوقت وصلت إلى جبهة سيناء الفرقة الثالثة من المشاة وبعض فرق رشاشة ألمانية وبطاريتان نمسويتان من طراز هاوتزر من استانبول. وفي الوقت نفسه عزز الإنكليز تحصيناتهم إلى درجة كبيرة عند رؤوس الجسور تجاه القنطرة. ودعموا جناحهم الأيسر إلى البحر. وأرسلوا قوة معززة ومعها السلاح الكافي إلى قاطية وآبار الروماني. فشرعت فوراً في إقامة الدفاعات.

وقال فون كريس الذي تولى مجدداً قيادة الحملة إن الجنود قد ملّوا طول الانتظار، واقترح الشروع في مهاجمة الروماني. فقلت له إنني أوافق على البدء بهذه الموقعة بشرط ألاّ توضع الحملة في الخطر، لأنها القوة الوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها في الدفاع عن فلسطين.

والآن أذكر الجنود الذين تألفت منهم القوة التي هاجمت القناة في المرة الثانية[٥]، وهم:

- فرقة المشاة الثالثة (وهي ثلاث كتائب وثلاث سرايا وكتيبة محمولة وبطاريتان جبليتان وكتيبة من المهندسين).
- كتيبة رشاشات (ثمانية بلوكات).
- بطاريتا هاوتزر جبليتان نمسويتان.
- بطارية ألمانية من عيار ١٠٠ملم.
- بطارية ألمانية من عيار ١٥٠ملم.
- بطاريتا مدافع مضادة للطائرات.
- ومجموع هذا كله ١٠٠٠٠ رجل.



جنود عثمانيون على الرشاشات

وهذا الهجوم الذي بدأ في يوليو/تموز ١٩١٦ انتهى بإخفاق الحملة في قاطية والروماني[٦]. فاقتفى الإنكليز أثرقوتنا خطوة خطوة بفصائل كبيرة من الفرسان والجمالة واضطرتنا للانسحاب إلى العريش[٧]. وفي النهاية قضي الأمر وجلت القوة عن العريش نفسها في ١٦ ديسمبر/كانون الأول وانسحبت إلى خط خان يونس الحافر، أي على خط حدود فلسطين سيناء القديمة.

وقد مدّ الإنكليز الخطوط الحديد بسرعة مدهشة، وكان معدل الإنشاء كيلومترين في اليوم. وبعد المفاوضة المطولة مع أنور باشا وكان قد حضر للتفقد على جبهة فلسطين، وكذلك مع فون كريس، قررنا أن نجعل خط غزة - تل الشريعة - بئر السبع خطّنا الحصين، وعهدنا إلى فون كريس بالدفاع عن هذا الموقع بالجنود المرابطين.

وقد اضطررت إلى مغادرة مركز القيادة في دمشق بسبب الحرج العام[٨] بعد ثورة الحجاز وضرورة مراقبة الدروز وجنود البدو على اختلافهم.

هوامش الفصل الثالث:

(١) يتباهى وكأنه رجع من نزهة منشرحاً بما رآه مبتهجاً بالنتائج بأن العملية كلها كانت مجرد استطلاع بالنيران وتعريض حياة عشرين ألف نسان للموت مجرد تفصيل بسيط. معوكة غير مدروسة لا في الهجوم ولا في الانسحاب. والفرقة التي تلقّت النيران الإنكليزية قبل غيرها كانت جلّها من خيرة الضباط العرب والجنود.
- راجع الهامش السادس للفصل الأول للقسم الأول بشأن الفرقة العربية.
- راجع كتاب «عام الجراد» (يوميات جندي عثماني)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، إصدار ٢٠٠٨. فيه وصف للاحتفالات بانتصارات أحمد جمال في قناة السويس من دون أي حياء أو خجل.

(٢) في الجزء التاسع تفصيل عنها.

(٣) كانت النتيجة مقتل أكثر من ٥٥ ألف أرمني حرقاً وذبحاً وتحت أنقاض منازلهم.

(٤) فشله يعزوه إلى الحسين وابنه والعرب ولا يراه في حرفيته للعمل العسكري وأنه دون المستوى للقيام بقيادة حملة عسكرية لا يملك الكفاءة العملانية الميدانية، فهو يظنه مثل قراراته في الديوان العرفي، فهو ناجح في المؤامرات والدسائس والتجسس وملاحقة المومسات.

(٥) القوات الإنكليزية كانت في انتظارهم جواً وبحراً وبراً.

(٦) قاطية والروماني: تبعدان مسافة ٤٠ كلم شرق/شمال القناة.

(٧) نحو ٣٩ كلم عن القناة، وكانت خسائر الإنكليز ١٢٠٠ والعثمانيين نحو ٩٤٠٠ قتيل من أصل قوة بلغ عديدها ١٨٠٠٠، وكانت نهاية الحملة الثانية.

(٨) الحقيقة أنه استِدعي للمثول أمام القيادة العليا في استانبول لأسباب، منها عسكرية: فشله في حملة القناة، فشله في قيادة القوات أمام الشريف حسين، علاقته السيئة مع الضباط الألمان وتركهم يتحملون الأعباء ومعارض دائم لهم ومعيق لمخططاتهم، انكشافه كجاهل في التكتيك العسكري والتخطيط الاستراتيجي، انشغاله بقضايا شخصية.
سياسياً: انكشاف طموحاته الشخصية في الانفراد بحكم بلاد الشام، فشله في الإدارة السياسية لبلاد الشام والقضاء على الحركة الإصلاحية، استنفاد الاستفادة منه، استدعاؤه وكفّ يده ليتحول إلى دور آخر.

الفصل الرابع

قواتنا العسكرية المدافعة عن غزة

تألفت القوات التركية، التي انسحبت بعد ١٥ مارس/آذار ١٩١٧ إلى خط غزة - تل الشريعة - بئر السبع، من الوحدات التالية:

في غزة:

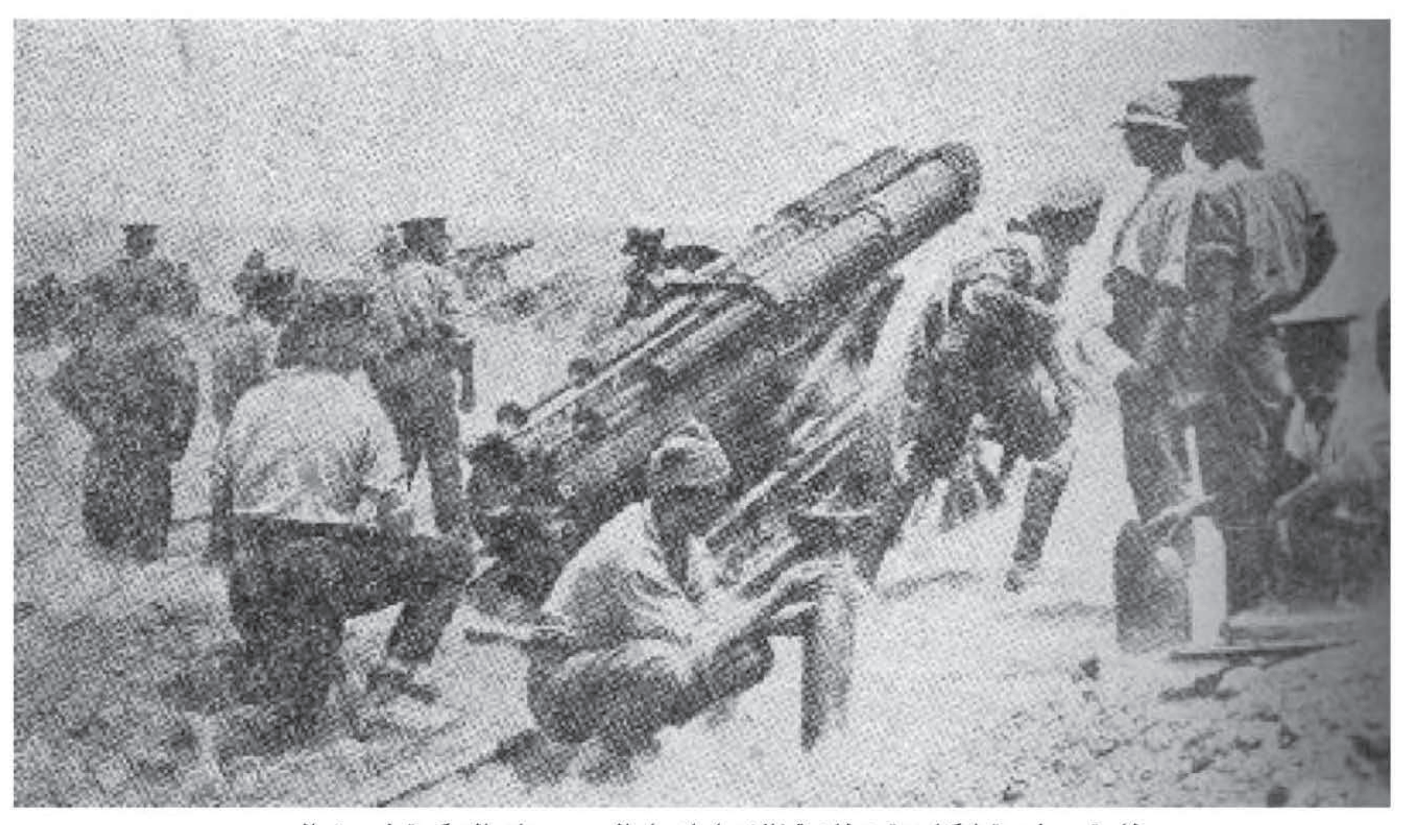
-الكتيبة التاسعة والسبعون مشاة من الفرقة السابعة والعشرين والكتيبة الخامسة والعشرون ومئة من الفرقة السادسة عشرة.



مدفعية ألمانية - عثمانية ثقيلة في هضاب الدردنيل لحماية المضائق



مدفع نمسوي في غزة استخدم على قناة السويس



بطارية مدفعية إنكليزية تطلق قذائفها باتجاه التحصينات التركية في بئر السبع

- بطاريتان جبليتان نمسويتان من نوع هاوتزر.
- بطاريتا ميدان تركيتان.
- بطارية ميدان ألمانية من عيار ١٠٠ملم.
- بطارية هاوتزر تركية من عيار ١٥٠ملم.
- بلوكا رشاشات ألمانية وخمسة أو ستة بلوكات رشاشة تركية.
- والمجموع ٣٥٠٠ بندقية.

في جينماش:

- الفرقة الثالثة المشاة (تسع كتائب وست بطاريات ميدان وأربعة بلوكات رشاشة وبطارية هاوتزر للميدان من عيار ١٥٠ملم).
- والمجموع ٥٠٠٠ بندقية.

في تل الشريعة:

- قيادة الفيلق الثاني والعشرين وكتيبتا مشاة من الفرقة السادسة عشرة ومدفعية الفرقة هذه.
- والمجموع ٥٠٠٠ بندقية.

في بئر السبع:

- الفرقة الثالثة الميكانيكية (ثلاث كتائب).
- والمجموع ١٥٠٠ سيف.

وفضلاً عن الوحدات السالف ذكرها وصلت إلى الرملة كتيبتان من الفرقة الثالثة والخمسين.



بئر السبع. مقر قيادة الجيش العثماني

وقد قدّر القائد أرشيبالد موراي في تقريره الرسمي في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧ القوات التركية في معركة غزة الأولى كما يأتي:

في غزة:

- الفرقة الثالثة والكتيبة الثانية مشاة.
- أربع وعشرون بطارية رشاشات.
- بطاريتان ألمانيتان من المدافع الضخمة عيار ١٥٠ملم.
- ثلاث بطاريات ميدان نمسوية من نوع هاوتزر عيار ١٠٥ ملليمترات.
- خمس بطاريات ميدان.
- والمجموع ١٠٠٠ بندقية.



جنود أتراك في وضع (كمين) قتالي في غزة

في تل الشريعة:

- الفرقة السادسة عشرة مشاة (٦٠٠٠ بندقية وست عشرة بطارية رشاشات وخمس بطاريات ميدان).
- الفرقة الثالثة الخيالة (أربعة مدافع خفيفة وأربع بطاريات هاوتزر وأربعة رشاشات).

في الرملة:

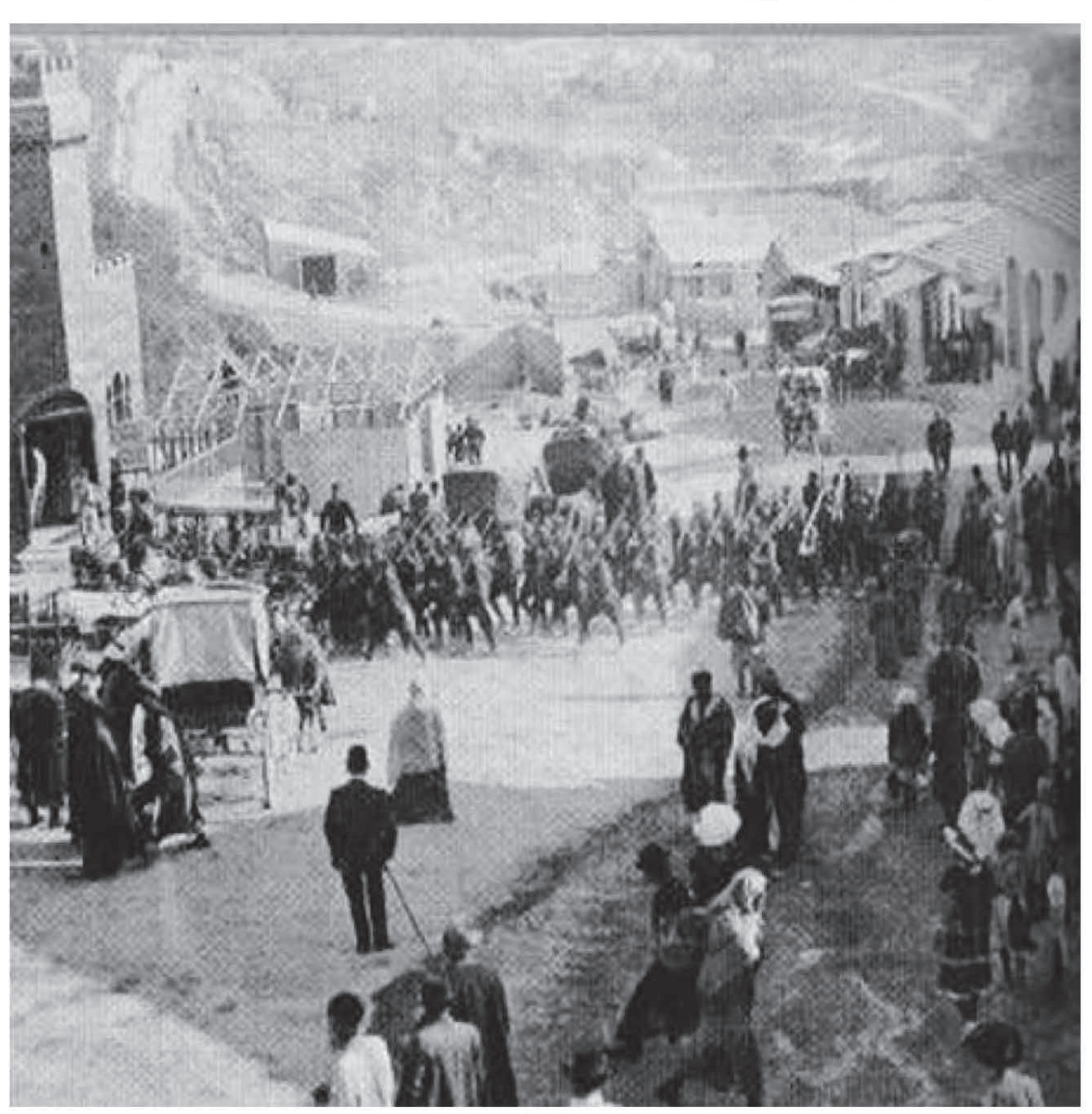
- الفرقة الثالثة والخمسون مشاة.

في القدس:

- الفرقة الرابعة والخمسون والسابعة والستون مشاة.

في حيفا:

- الفرقة السابعة والعشرون مشاة.



قوات عثمانية مارّة بالقدس إلى الجبهة



السير فيليب شيتوود

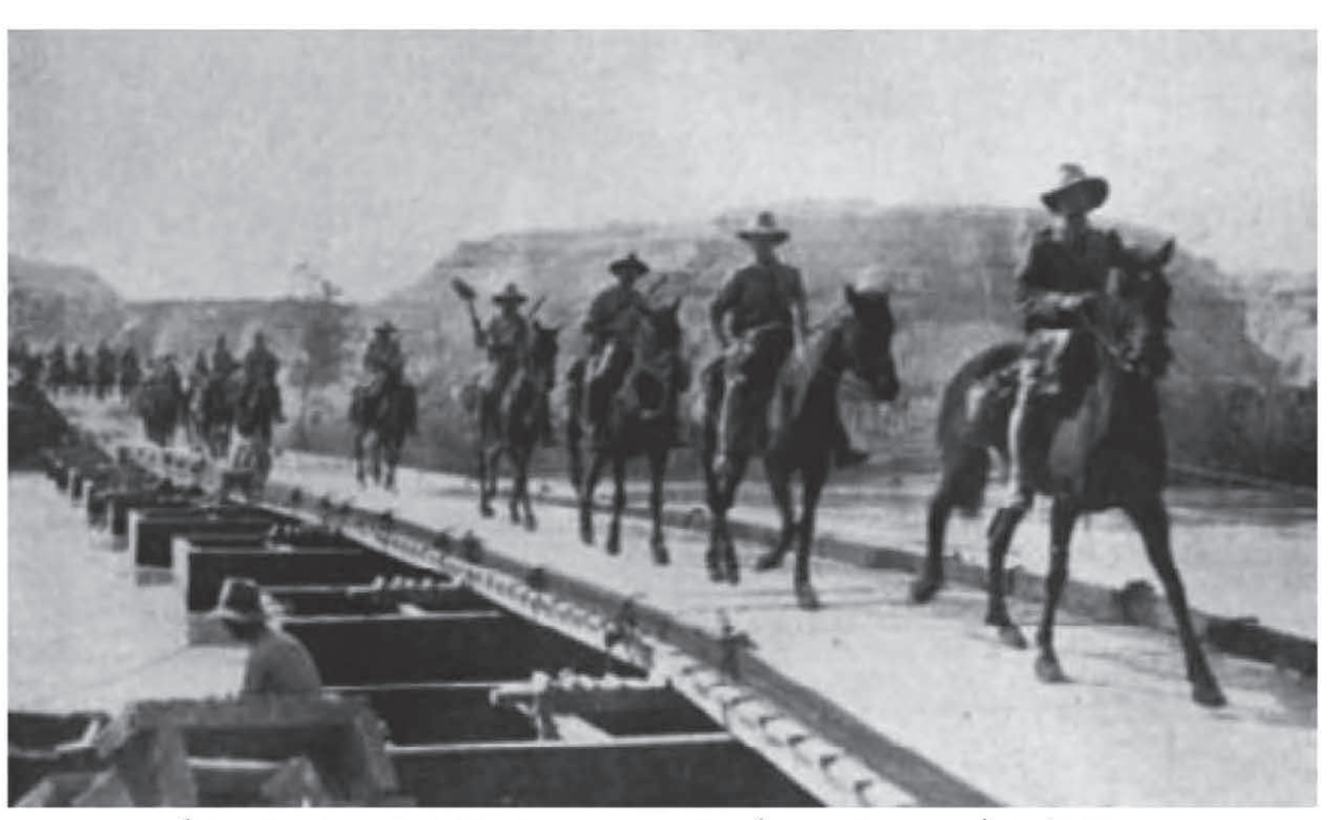
ويمكنني أن أؤكد هنا بمنتهى الصراحة أن تلك الأرقام لا وجود لها إلا في مخيلة الإنكليز. وإذا كان مبلغ علم القائد الإنكليزي بالقوات التركية هو كما ذكرنا فقد خدعه قلم استعلامات جيشه ١٧٤. فإن الحقيقة - كما قدمت - هي أن القوة التركية التي ردّت بنجاح مبين هجمة الإنكليز الأولى على غزة لم تتجاوز ١٨٠٠٠ جندي.

قوات العدو

أما الجيش الإنكليزي كما قدّره القائد موراي في تقريره فكان مؤلفاً من القوات الآتية:

في الصف الأول (بقيادة القائد سير فيليب شيتوود):

الفرقة الإنكليزية. الفرقة الإمبراطورية محمولة ومعظمها من المتطوعين. الفرقة الثالثة والخمسون مشاة وعدة بلوكات



خيالة الأنزاك (جنود نيوزيلنديون - أستراليون مختصون في القتال الصحراوي والجبلي) تلاحق القوات العثمانية مجتازة قناة السويس إلى سيناء

رشاشات.

في الصف الثاني:

فرقة الخيالة والفرقة الثانية والخمسون والرابعة والخمسون مشاة ومدفعية ضخمة وبلوكات رشاشات وعدة فصائل من حملة البنادق الأوتوماتيكية.

أي إن الإنكليز - بحسب هذه الأرقام - كان لهم في معركة غزة الأولى:

- ثلاث فرق مشاة.
- ثلاث فرق محمولة ووحدات بحرية اشتركت في المعركة.

فبهؤلاء الجنود الذين كان القائد السير تشارلز دوبيل يقودهم، قرر القائد موراي القائد العام لقوات



السير تشارلز دوبيل



القائد أرشيبالد موراي

البحر المتوسط الإنكليزية مهاجمة دفاعات بئر السبع - غزة.

وقد تقرر أن تقوم الفرقة الثالثة والخمسون - ١٢٠٠٠ بندقية - بهجمة مباشرة على غزة، فيما تهاجمها من جهة الشرق الفرقة الإنكليزية المحمولة والمتطوعون وكتيبة محمولة أخرى، وبعد غرزها إسفيناً فيما بين غزة واليمامة تعزل الأولى عزلاً كلياً بسدّ سائر المخارج الشمالية.

وأخذ الجنود المعدّون لافتتاح الهجوم مواقعهم في ليلة ٢٥-٢٦ مارس/آذار، فما وافت الساعة الثامنة

من صباح يوم ٢٦ مارس/آذار حتى طوق الفرسان غزة وعطلوا جميع المواصلات مع المدينة.

وفي العاشرة صباحاً أرسل ضد غزة لواء من الفرقة الرابعة والخمسين وكتائب عديدة من الفرقة الثالثة والخمسين، أي أن فرقة ونصف فرقة مشاة وأكثر من فرقتي خيالة طوقت تلك الحامية التركية الصغيرة الموجودة في غزة والتي لم يتجاوز عددها ٣٥٠٠ جندي.

ولكن غزة بفضل بسالة حماتها الأتراك والعرب قاومت هجمات العدو المتوالية أربعاً وعشرين ساعة، وقد قاتل أولئك الشجعان العدو دفاعاً عن كل شبر من الأرض، حتى إن كل تل من التلال أخذ ثم استردّ أكثر من ثلاث مرات. وبعد ظهر ذلك اليوم شددت الفرقة الثالثة من اليمامة الحملة على مقدمة الجيش الإنكليزي، وفي اليوم التالي لم يكد الجنود الإنكليز يحسون بثقل الوطأة حتى تقهقروا على أعقابهم بعدما سادت الفوضى في صفوفهم، وزاد الاختلال والارتباك على أثر وصول الفرقة السادسة عشرة من تل الشريعة والفرقة الثالثة المحمولة من بئر السبع.

ولا أريد أن أطيل هنا الكلام في التفصيلات السطحية، بيد أنني لا أستطيع إغفال تلك الحقيقة التي تناقض أقوال القائد الإنكليزي في رسائله الرسمية (ومؤداها أن الإمدادات وصلت إلينا في ليلة ٢٦-٢٧ مارس/آذار).



جمال باشا المرسيني الجالس إلى يسار الطاولة والكولونيل فون كريس مع ضباط أركان الفيلق الثامن وقادة الوحدات أثناء مناقشة تفاصيل إحدى العمليات

وهي أنه لم يصل إلى مدينة غزة جندي واحد قبل صباح ٢٧ الذي بدأ فيه الإنكليز يتقهقرون.

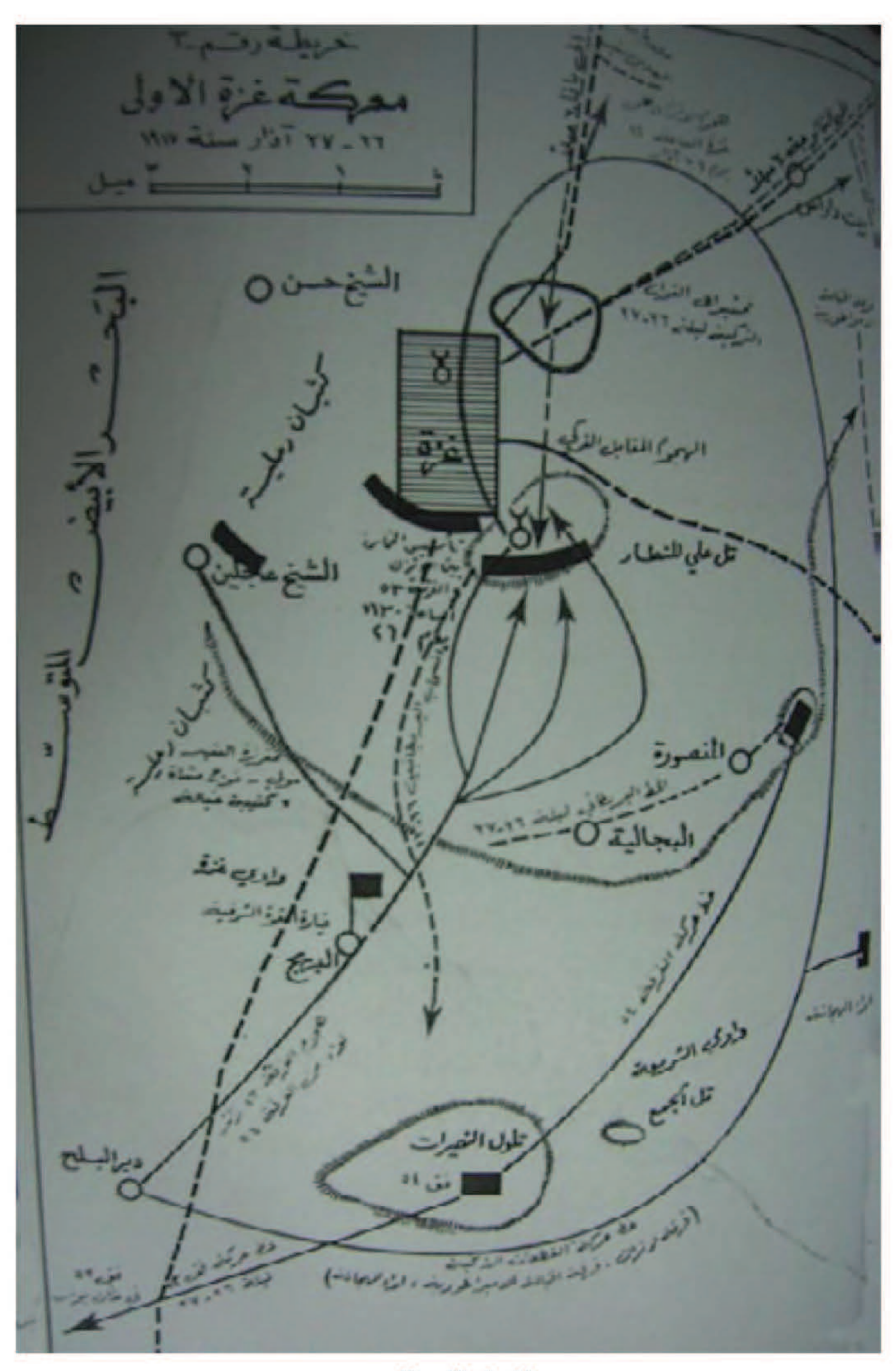
وستظل موقعة غزة الأولى في مكان سامٍ في تاريخ الوقائع الحربية التركية. فبفضل مقاومة شرذمة من رجالنا البواسل اضطر الإنكليز إلى أن يمكثوا في ذلك الخط من ٢٧ مارس/آذار إلى أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٧- أي ثمانية أشهر - وأن يرسلوا إلى تلك الجهة تسع فرق مشاة وعدداً من فرق الخيالة وفرقتين من الجمالة.

أما أشجع حماة غزة البواسل فهو بلا مراء خيري أفندي قائد كتيبة المشاة الخامسة والعشرين ومئة. فإن هذا الضابط الماهر - الذي ظل رابط الجأش هادئ البال في أشد الأوقات خطورة - وضع نفسه باستمرار في رأس كل من بلوكات كتيبته واستردّ من الإنكليز التل المشهور المسمى تل علي المنطار مرتين، واحتفظ به نهائياً في المرة الثالثة.

وفي هذه الهجمة أبدى الملازم الألماني كورديير قائد بلوك الرشاشات منتهى البسالة والإقدام، إلى أن مات كزميله الكابتن ريترفون ترشكوفسكي قائد البطارية النمسوية ميتة الأبطال بجانب مدافعه. وقد قدّر القائد الإنكليزي في بلاغه الرسمي خسائرنا بثمانية آلاف بين قتيل وجريح، ولكن قوتنا في غزة، بمن فيها من الطهاة وحملة النقالات وغيرهم ممن ليسوا جنوداً، لم تتجاوز مطلقاً ذلك العدد. ولست أدري كيف



جمال باشا (المرسيني) قائد الفيلق الثامن في الوسط (الثالث من اليسار)، وفون كريس رئيس أركان الفيلق (الرابع من اليمين) مع ضباط أركان الفيلق وقادة وحدات الفيلق وملحقاته



تلة علي المنطار

وصل القائد موراي إلى ذلك الرقم.

والحقيقة أن خسائرنا كانت كما يأتي:

- الضباط: قتلى ١٠ و١٢ جريحاً و١٤ مفقوداً.

- الجنود: ٢٧٦ قتيلاً و٧٤٤ جريحاً و٥٧١ مفقوداً.

أما الإنكليز فيعترفون بأن خسائرهم بلغت ٤٠٠٠. فيستنتج من ذلك أن كل جندي من حماة غزة قتل جندياً إنكليزياً.

وفي مساء ٢٧ مارس/آذار غادرت دمشق فوصلت إلى تل الشريعة في يوم ٢٨ ثم ذهبت إلى غزة. وبعد توزيع الأوسمة بين الضباط والجنود عدت إلى القدس. ولم تمر ساعتان حتى وصلت إلى جبهة القتال شراذم من الفرقة السادسة عشرة. فاقترح فون كريس، الذي عزا تقهقر الإنكليز غير المنظم إلى تدهور قوتهم المعنوية، أن نهاجم الجناح الإنكليزي بجنود الفرقتين الثالثة والسادسة عشرة.

ولما كان ذلك الهجوم عاقبته مجهولة، إذ لو نجح لعاد علينا بأكبر الفوائد ولو أخفق لأصبحنا من دون جيش لنا مطلقاً للدفاع في المستقبل عن فلسطين والشام ولقضي الأمر نهائياً. ولما كانت طرأت أيضاً مشروعات خطيرة من هذا القبيل في الميادين الأخرى جرّت إلى عواقب وخيمة. فقد كنت شديد المعارضة في القيام بأمثال هذه المخاطرات في الميدان. وكان أهم ما سعيت لتحقيقه حتى الآن الابتعاد بحملة الصحراء عن طريق الخطر. ولكنني، وقد انسحبنا الآن إلى خط غزة - بئر السبع وهو الحد الطبيعي بين الصحراء والأراضي الزراعية، عزمت على الدفاع عن تلك الجبهة والحيلولة دون اختراق الإنكليز لخطوطنا - أياً كان الثمن - بحشد كل القوات التركية هناك. ومزية هذا الخط الكبير هي استحالة الالتفاف به، لأن الجناح الأيمن كان يستند إلى البحر فيما الجناح الأيسر قد استند إلى الصحراء. وفضلاً عن ذلك فما دمنا متمسكين بهذه المواقع، فلا مناص للإنكليز من البقاء في الصحراء ونحن مرابطون في الأراضي الخصبة. وباختصار ما دمنا محتفظين بخط غزة - بئر السبع فليس في وسع الإنكليز الاتصال بالجبهة العربية. وعلى ذلك كانت أحكم خطة لنا هي تجنب كل عمل يؤدي إلى تعريض الخط المذكور للخطر. فلهذه الاعتبارات رفضت الهجوم الذي اقترحه فون كريس. ولم نكن لنرتاب في أن الإنكليز سيعاودون هجومهم بعد أسبوعين أو ثلاثة. وعلى ذلك كان علينا أن نعزز جبهة القتال بجنود من الداخل لنتمكن من صدّ هذه الغارة الثانية. وفيما عدا بضع ثُغَر لا أهمية لها فقد كنا على اتصال بخط محصّن متواصل بالقوات التي جاءت حديثاً.

وقد أراد الإنكليز أن يبدأوا هجمتهم الثانية على غزة بخدعة حربية. ففي يوم ١٤ أبريل/نيسان التقطت محطتنا اللاسلكية في تل الشريعة رسالة إنكليزية وقد حلّ لنا رموزها ضابط التلغراف اليوزباشي «النقيب» ستيلر. فإذا فيها تعليمات من القائد العام لجيوش الإنكليز في الشرق إلى قائد جيش فلسطين يخبره أن غزة ستهاجم في ١٧ أبريل/نيسان. ولكن فيما الهجمة الأساسية ستكون في البر فإن فرقة مشاة ستنزل في عسقلان في ليلة ١٧ لمهاجمة غزة من الخلف ولمساعدة الهجمة الأمامية. فظننا أن تلك الرسالة - التي لم نشك أول الأمر في صحتها - قد تكون أرسلت خصيصاً لتحملنا على تغيير توزيع احتياطيينا. فصممت على إهمالها ولم أُدخل تغييراً ما في توزيع الجنود في جبهة القتال. واكتفيت بإرسال شرذمة من

الجنود إلى عسقلان كنت قد تركتها فيما وراء يافا.

وفي خلال الأربعة والعشرين يوماً التي انقضت بين موقعتي غزة الأولى والثانية عزّزنا جنودنا بكتيبتين من الفرقة الثالثة والخمسين، أي نحو ٢٠٠٠ بندقية. وعزز الإنكليز جنودهم أيضاً بالفرقة الرابعة والسبعين، فقد أكملوا عدد جنود الفرق التي اشتركت في معركة غزة الأولى وأصبح لهم جيش عرمرم من أربع فرق مشاة وأربع فرق خيالة.

وكانت الهجمة العنيفة التي بدأها الإنكليز في صبيحة ١٧ أبريل/نيسان موجهة ضد غزة والفرقة الثالثة والخمسين في الجناح الأيسر، واستعملوا ثماني دبابات في هجومهم هذا الذي اشتركت فيه قوات بلغت ستة أو سبعة أضعاف القوات التي حشدناها في ذلك الجزء من خط القتال، واشترك أيضاً أسطولهم في المعركة فأمطر غزة وابلاً من الحديد والنار.

ودارت رحى معركة عنيفة ولبثت أيام ١٧ و١٨ و١٩ أبريل/نيسان لم يدخر الإنكليز خلالها جهداً لاختراق خطوطنا، وهنا نهض الدليل مرة أخرى على بسالة الجندي التركي وخور عزيمة الجندي البريطاني تجاهه، إذ وجد الإنكليز أنفسهم ليلة ٢٠ أبريل/نيسان مضطرين إلى التقهقر وراء خطوطهم الأولى تاركين القتلى والجرحى (وعددهم ٧٠٠٠)، أي ما يعادل مجموع القوة التركية التي قاتلت في تلك الجهة. وتركوا أيضاً



دبابة إنكليزية مدمّرة

أمام خطوطنا في خنادقنا ثلاثاً من دباباتهم.

وإني ليتعذر عليّ أن آتي في عبارات مقتضبة على وصف عام لذلك الدفاع المجيد الذي لبث ثلاثة أيام بلياليها وكان دليلاً ناطقاً على البسالة التركية. وإني أرى إرجاء تفاصيل ذلك الفصل إلى فرصة أخرى وأقتصر على ذكر نتائج هذه المعركة الثانية. فإن هذه الضربة القاصمة - التي لم يكن الإنكليز يتوقعونها بحال من الأحوال - أوقعت في صفوفهم الفشل وتركتهم حيارى ذاهلين. ولطالما زعموا أن بلاغاتهم صادقة. ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة مرغمين على إصدار بلاغ وجيز وغامض لا يتفق مع الحقيقة والوقائع.

وقد اعتذروا عن ذلك بقولهم - ولهم الحق - إن الفشل الذي مُنيوا به في فلسطين على أثر فشلهم في الدردنيل كان مؤداه نهاية النفوذ الإنكليزي في الشرق. ولذلك وطدوا العزم على قضاء زمن الربيع والصيف في إتمام معداتهم للقيام بهجوم فاصل ناجح في خريف وشتاء ١٩١٧. وأبدلوا القائد موراي الذي هزم مرتين تجاه غزة بالقائد اللنبي الذي اشتهر في الجبهة الغربية باليقظة والحزم وسرعة البديهة.

ولما تولى القائد اللنبي مهام وظيفته الجديدة أعلن أنه لن يقوم بأي هجوم ما لم يكن لديه أربعة جنود إنكليز في مقابل كل جندي تركي. ولم يخامرني أي شك في أن عناد الإنكليز وكبرياءهم سيجعلان تلك النسبة أمراً واقعاً. فحاولت بكل وسيلة ممكنة أن أعزز جبهة فلسطين إلى أقصى حد. وأرسلت إلى القيادة العليا تقريراً مطولاً بعدد الجنود اللازم لجبهة فلسطين وعدد الفرق المطلوبة لإراحة جنود الصف الأمامي (وأين يجب توزيع الجنود في الداخل) والجنود المفترض حشدهم في حلب وسوريا لمواجهة الطوارئ[1].

وفي نهاية مايو/أيار وصلت إليّ برقية من نائب القائد العام قال فيها ما يأتي:

> *«طلبت إلى القائد فون فالكنهاين أن يقوم برحلة تفتيش عن طريق حلب إلى وادي الفرات والموصل لينظر هل من الممكن إرسال عدد كافٍ من الجنود لاسترداد بغداد. ولقد اقترحت عليه أن يذهب إلى القدس لزيارتكم لإخفاء الغرض الحقيقي من الرحلة. أرجو الاحتفاء به وأن تكفلوا له الراحة التامة أثناء إقامته».*

وكانت الحالة العامة في مختلف الجبهات التركية في نهاية مايو/أيار ١٩١٧ كالآتي:

جبهة القوقاز:

قضت الثورة الروسية[2] التي نشبت في ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول-٧ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩١٧ على نظام التجنيد الذي كان يسود أذربيجان وطرابزون ومتوغلاً في ولاياتنا الشرقية لغاية بتليس. وكان مصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني قد تمكن من تخليص ولايتي بتليس وموش من قبضتهم. وعلى ذلك كان في المستطاع نقل بضع فرق من الجيش الثاني والثالث إلى ميادين أخرى أكثر أهمية.

جبهة العراق:

بعد هزيمة جيوشنا في كوت العمارة[3] وضياع بغداد نهائياً اضطرت بقية قواتنا إلى التقهقر إلى كركوك وهيت. ولم يكن ثمة أمل في أن تستعيد نشاطها وتطرد الإنكليز من العراق ولأن تضربهم ضربة



إدموند هنري هاينمان اللنبي (٢٣ أبريل ١٨٦١-١٤ مايو ١٩٣٦)
Edmund Allenby, 1st Viscount Allenby

الفايكونت الأول اللنبي ضابط وإداري بريطاني، اشتهر لدوره في الحرب العالمية الأولى حيث قاد قوة الحملة الإنكليزية انطلاقاً من مصر بهدف الاستيلاء على فلسطين وسوريا عامي ١٩١٧ و١٩١٨.

ولد اللنبي في أسرة ثرية تتبع الكنيسة الإنجيلية الشرقية في ٢٣ أبريل/نيسان ١٨٦١ وتخرج من الكلية العسكرية الملكية في سان هيرست ١٨٨١. وانضم إلى فرقة فرسان إنكلسينج السادسة المتواجدة في أفريقيا حيث خدم مدة ٦ سنوات في بيتسوانا لاند والزولولاند. ثم التحق بعد ذلك بكلية الأركان في كمبرلي بإنكلترا. ثم عاد إلى جنوب أفريقيا ليشارك في حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢).

أُرسل اللنبي إلى مصر ليكون القائد الأعلى للحملة الإنكليزية انطلاقاً من مصر في ٢٧ يونيو/حزيران ١٩١٧. بدلاً من السير أرشيبولد موراي. تعاون اللنبي مع لورنس العرب ودعمه بالمال والسلاح والضباط. أعاد هيكلة قواته النظامية وتوزيعها واستطاع أن يحقق النصر في معركة غزة الثالثة (٣١ أكتوبر/تشرين الأول - ٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧) وذلك بمفاجأة المدافعين عنها بعد أن أوهم العثمانيين بأنه يستهدف بئر السبع.

دخل الجنرال المنتصر القدس راجلاً مع ضباطه إجلالاً للمدينة المقدسة في ١١ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٧.

بعد تقاعده عام ١٩٢٥ من العمل كمندوب سامي في مصر عاد إلى إنكلترا ليمارس هواياته وقضى فترة قصيرة كرئيس لجامعة أدنبرة. وتوفي في ١٤ أيار/مايو ١٩٣٦ ودُفن في كنيسة وستمنستر.



ليمان فون ساندرس ومصطفى كمال



أحمد جمال باشا مع ضباط وأركان حرب الجيش الرابع في استقبال الجنرال فون فالكنهاين وابنته لدى وصولهما إلى محطة قطارات القدس. ويُرى جمال باشا المرسيني إلى يسار القائد أحمد جمال



أنور في القدس يرافقه أحمد جمال وسط حفاوة من السفراء والقناصل وكبار الموظفين والوجهاء



أنور وجمال في باحة المسجد الأقصى في القدس

قاصمة في شمالي بغداد أو شماليها الغربي والشرقي.

الوضع في استانبول وأزمير

اجتماع القائد العام بقادة الجيوش العثمانية في حلب

تعيين قائد ألماني لجبهة فلسطين ودور مصطفى كمال

لم يكن من المحتمل أن ينزل الحلفاء جنوداً ما في الدردنيل أو قرب أزمير فيوجدوا جبهة أخرى، لأن الحالة في أوروبا كانت في شدة الخطورة نظراً إلى هزيمة رومانيا الشنيعة ولإخفاق الإنكليز مرتين متواليتين تجاه غزة وللفوضى التي تغلغلت في الجيوش الروسية. أي إنه كان محتملاً استخدام الجنود المرابطين في استانبول وأزمير في ميادين أخرى مهمة. وفضلاً عن ذلك فقد حان الوقت لسحب فرقنا من غاليسيا ورومانيا وبلغاريا.

وقد لفتُّ انتباه القيادة العامة إلى كل تلك الاعتبارات وطلبت إرسال سائر ما يمكن من الجنود إلى فلسطين وشمالي سوريا ووسطها حتى يمكن تعزيز تلك الجبهة لكي يجعل اختراقها مستحيلاً. فقد كانت أضعف موقع وأهم موقع في الإمبراطورية العثمانية. وبما أن مواردنا في الشرق غير كافية لضمان المؤن لمثل هذه القوات الكبيرة طلبت أن تساعدنا الولايات الشمالية.

وزار أنور باشا هذه الجبهة في شهر يونيو/حزيران. فأبدى ارتياحاً شديداً للاستحكامات الدفاعية التي أقمناها. ولكن ما زال متمسكاً بضرورة مهاجمة الجناح الأيمن الإنكليزي من الخلف.

وفي النهاية قال لي: «لقد طلبت إلى عدد من قادة الجيش أن يقابلوني في حلب ليبحثوا معي في المشروع التالي. فإني أنوي القيام بهجوم لاسترجاع بغداد. وفي نيتي تكوين جيش سابع بقيادة مصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني. وبضمّ هذا الجيش إلى جيش خليل باشا السادس أكوّن مجموعة أطلق عليها اسم (مجموعة جيوش الصاعقة) فتزحف على بغداد تحت إمرة قائد المجموعة. وقد انتخبت فعلاً الفرق التي يجب أخذها من الجبهات الأخرى لتنفيذ ذلك المشروع. وقد أعطتنا ألمانيا القائد فون فالكنهاين ليكون قائد تلك المجموعة. وفي اعتقادي أنه سينفذ هذا المشروع بنجاح عظيم».

فلم أُبدِ معارضة في ذلك الوقت واحتفظت برأيي.

ولما عدنا معاً إلى حلب بعد بضعة أيام وجدنا فيها عزت باشا قائد مجموعة جيوش القوقاز وخليل باشا قائد الجيش السادس. أما مصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني المعسكر بين دمشق وحلب فقد زار جبهة فلسطين معنا وعدنا جميعاً إلى حلب.

ولم يكن اجتماع أربعة من قادة الجيش يتقدمهم رئيس أركان الحرب بالأمر العادي. وقد انتهزت الفرصة فأشرت إلى أهمية الجبهة الفلسطينية وعددت الأسباب التي تحتّم على القائد العام أن يعزز هذه الجبهة قبل كل شيء. فاقترحت أن نحشد في حلب قوة كبيرة بدلاً من حملة بغداد ومن ثمّ يمكننا أن نرسلها إلى أي جبهة مطلوبة. ثم قلت: «لو حشدنا ذلك الجيش في حلب لأمكنه مقاومة الضغط الروسي على جبهة الجيش الثاني أو صدّ أي تقدم إنكليزي في دجلة أو الفرات. وأهم من كل ما تقدم



خليل باشا (١٨٨٢-١٩٥٧)

وُلد في استانبول وتخرج من الأكاديمية العسكرية سنة ١٩٠٥. التحق بالجيش الثالث بعد تخرجه في مقدونيا وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي. بعد إعلان المشروطية الثانية أرسلته الجمعية إلى إيران لتنظيم المقاومة ضد الشاه. لكن بعد الردة في ١٩٠٨/٣/٣١ (١٩٠٩/٤/١٣) استدعي على عجل وسُلِّم قيادة الحرس السلطاني. ثم أُرسل إلى سيلانيك لتسلم مسؤولية الإشراف على الدرك في الإقليم. سافر إلى ليبيا فشارك في نشاط بالحرب ضد الإيطاليين. مثلما شارك في الحرب البلقانية الثانية. بعدها ألقيت عليه مهام قيادة فوج الدرك في منطقة فان ذات الخليط السكاني بين الأرمن والأتراك وأقلية كردية. كان له دور في قمع الوطنيين الأرمن.

عندما دخلت تركيا الحرب العالمية كان يعمل في هيئة قيادة الأركان. طُلب منه الذهاب إلى الجبهة على الحدود الروسية ليعمل ضمن الجيش الثالث. سنة ١٩١٥ نقل إلى بلاد ما بين النهرين. خلال حصار الجيش العثماني بقيادة المارشال الألماني كولمار فون در غولتس والجيش الإنكليزي لمدينة الكوت في جنوب العراق. استسلم الإنكليز يقودهم الجنرال تاونزاند الذي ارسل إلى استانبول. والمارشال الألماني توفي بحمى التيفوئيد بعد أحد عشر يوماً من انتصاره على الإنكليز. رقّي القائد خليل إلى جنرال بعد المعركة. وعيّن حاكماً لولاية لبغداد والكويت وقائداً للجيش السادس حتى نهاية الحرب. حضر اجتماعاً في حلب بمعية أحمد عزت باشا لقادة الجيوش العاملة في الشرق مع قادة القطع والوحدات العاملة في بلاد الشام. ترأسه أنور باشا وكبار الضباط الألمان والأتراك وأحمد جمال باشا وضباط أركانه. خلال ذلك حضّر الإنكليز أنفسهم لشنّ معركة تحدد مصير الحرب في العراق. واستطاعوا أن يكسروا الدفاع التركي الهش عن مدينة بغداد وإسقاطها على الرغم من النجدات التي وصلته. انهزم الجيش السادس في وجه القوات الإنكليزية وتابعت قواته إلى شرقاط وصولاً إلى الموصل شمالاً وهناك عقدت هدنة لوقف إطلاق النار. عاد إلى استانبول بعد توقيع الهدنة. قبض عليه الإنكليز لكنه استطاع تنظيم هربه إلى موسكو. ومنها عاد وانضم إلى مصطفى كمال في الأناضول. ثم ذهب إلى أذربيجان لمحاربة الأرمن. ترك خليل روسيا عندما أتى أنور باشا لمحاربة البولشفيك في الجمهوريات الجنوبية لروسيا قاصداً ألمانيا. بعد تحقيق الوطنيين بقيادة مصطفى كمال فوزهم في حرب الاستقلال وإعلان الجمهورية. حصل على إذن يجيز له دخول البلاد ليقضي بقية حياته من دون التعاطي في الشأن السياسي حتى وفاته عام ١٩٥٧.


عزت باشا

يمكننا وقتئذٍ أن نرغم حكومات الحلفاء على العدول عن فكرة إنزال جنود في أضنة الأمر الذي كنا نخشى وقوعه. فإذا عرف الإنكليز أن لدينا في حلب ذلك الجيش وهو على أهبة الاستعداد ربما اضطروا إلى العدول عن الهجوم. ولو أني كنت على يقين تام بأنهم يستعدون الآن لمهاجمة جبهة غزة في الخريف المقبل. وباختصار إنه ليخيل إليّ أن حملة بغداد محفوفة بالمخاطر».

فأجاب القائد العام بلهجة جادة: «لقد استقر قرار هيئة أركان الحرب العليا على حملة بغداد. وعينت[٤] للإشراف على تنفيذها أحسن قائد ألماني. بل لقد تأكدنا من مساعدة فرقة ألمانية تحتوي على ست كتائب منتخبة من المشاة مزودة بعدد وافر من الرشاشات ووحدات أخرى وبطاريات ألمانية. فليس معقولاً العدول عن تلك الحملة. فالمرجو عدم إضاعة الوقت في حملي على تغيير رأيي».

وهنا تدخل عزت باشا فاقترح أن تظل في حلب فرقة واحدة على الأقل استعداداً للطوارئ. ولكن ذلك الاقتراح قوبل بالرفض. وبعدما اعترضت أنا وعزت باشا على عدم صلاحية إرسال الكتائب شراذم شراذم - كما حصل فعلاً - من حلب إلى وادي الفرات لإتمام حشدها على طول خط مواز للرمادية. قبِلَ اقتراحنا بضرورة حشد الجنود فيما بين جرابلس وحلب ومن ثم تواصل زحفها إلى الفرات.

وتبيّن تتمة مذكراتي عن الأعمال الحربية كيف دخل القائد فون فالكنهاين الخدمة التركية وتشرح الوقائع الحربية التي حدثت على أثر ذلك. ومع أن تلك الوقائع لها شأن أي شأن بالنسبة إليّ فإن هناك اعتبارات سياسية عديدة تحتم عليّ عدم الخوض فيها الآن. وعلى أثر ذلك أرى صواباً ألاّ أنشر الآن ذلك الجزء من المذكرات مع أنه مكتوب فعلاً.

ولن أنسى ما حييت مجلس الحرب هذا في حلب. كما أنني لن أغفر لنفسي تساهلي ذلك اليوم في الدفاع عن آرائي بالقوة اللازمة والإصرار المطلوب. فإن كان في جميع أوقات حياتي زمن قضت الحوادث



خليل باشا عن يسار أحمد عزت باشا وإلى يمينه مصطفى كمال باشا

أن أستقيل فيه فقد كان اجتماع حلب هو ذلك الوقت.

ولا أقول إن فكرة الاستقالة لم تخطر لي في ذلك اليوم فإن عزت باشا شاهدي على ذلك. فلقد تداولت معه الرأي في محادثة مطولة في ذلك الموضوع إذ حضر لزيارة الجبهة الفلسطينية بعد رحيل القائد العام. ونظراً إلى أهمية منطقة الجيش الرابع العظيمة من الوجهة الحربية والسياسية معاً أشار عزت باشا إلى عظم الخطر الذي يتعرض له الوطن لو اعتزلت العمل في تلك الساعة الرهيبة. وناشدني ألاّ أغادر سوريا. ومع ذلك لا أعلم هل كان يحتمل لو تشبثت بالاستقالة أن أحمل القيادة العليا على تغيير رأيها. أم هل تصر على تنفيذ خطتها وتؤول استقالتي فتجعلها دليلاً على رغبتي في التنصل من المسؤولية عما يعقب ذلك من الحوادث؟ ولا يخالجني شك ما في أن استقالتي كانت ستُؤوّل بهذا التأويل.

ومنذ ذلك الوقت وبعده خطت التأهبات خطوات واسعة على طول وادي الفرات وخصوصاً في منطقة جرابلس. فقد حُزمت جذوع الأشجار التي تُستعمل أخشابها للنقل وأمكن بواسطتها إنشاء خط مواصلات نهري ابتداءً من تلك الجهة. وقد كان لكل هذه التأهبات تأثير ضارّ في الجبهة الفلسطينية إذ إنها خفّضت من عدد القوات اللازمة للدفاع عنها. ولقد أقنعتني التأهبات الإنكليزية - التي كانت تردني أنباؤها كل يوم - بأن الجبهة الفلسطينية صارت في خطر محقق. وإذ أيقنت أن القيادة العليا لم تحفل بتحذيراتي كما يجب أملت أن أدرك غايتي بمخاطبة الصدر الأعظم مباشرةً. فأرسلت إليه برقيتين فصّلت فيهما حقيقة الواقع تفصيلاً وافياً. وقد قلت في إحداهما:

«في الوقت الذي نحاول استرداد بغداد أخشى أن نرى أنفسنا في المستقبل القريب مضطرين للدفاع عن

القدس، بل ربما عن حلب نفسها».

فأجاب الصدر الأعظم:

«إن قرار الشروع في الأعمال الحربية لاسترداد بغداد كان في جلسة عقدها مجلس الوزراء. وقد طلبت في زيارتي الأخيرة لألمانيا أن يبقى القائد فالكنهاين في تصرف الإمبراطورية العثمانية للإشراف على الحملة. فيستحيل عليّ الآن أن أقوم بعمل ما لإرجاء القيام بهذه الحملة. أما فيما يختص بالجنود الذين ترى نفسك مضطراً إلى المطالبة بهم للجبهة الفلسطينية فإنه في نظري بمثابة نزاع عقيم بين أحد القادة وبين القائد العام. ولست أظن أن دخولي فيه يمكن أن يؤدي إلى أي فائدة».

وفي النهاية توجهت إلى استانبول أواخر أغسطس/آب لأوضح الحالة بنفسي ولألفت انتباه الحكومة آخر مرة إلى الخطر الداهم الذي يهدد الجبهة الفلسطينية. وقد تشبثت مرة أخرى بضرورة حشد فيالق مجموعة الصاعقة فيما بين دمشق وحلب لإرسال جزء منها إلى فلسطين.

واختصاراً، طلبت احتياطياً لجيش سيناء استعداداً للطوارئ لأتمكن بتلك الوسيلة من منع الإنكليز من اختراق الجبهة الفلسطينية ولو شرعوا في الهجوم في نوفمبر/تشرين الثاني أو ديسمبر/كانون الأول. ومن جهة أخرى أبديت استعداداً للتسليم بأنه يصبح وقتئذٍ في وسعنا القيام في يناير/كانون الثاني وفبراير/ شباط بهجوم فاصل نستردّ به بغداد. وفي غضون ذلك الوقت ينبغي أن يشارف إنجاز خط المواصلات على طول الفرات من إتمامه.

فعقدنا مجلس الحرب برئاسة أنور باشا وبحضور رئيس أركان حرب القائد فون فالكنهاين وبرونزارت باشا رئيس أركان الحرب في مركز القيادة العليا. فبدأ القائمقام «العقيد» علي فؤاد بك رئيس أركان حرب بوصف مفصّل عن مبلغ التأهبات الإنكليزية والحالة التي فيها جنودنا. فأعقبته بإحصاء عما نحتاج إليه من الرجال والمهمات ووصلنا إلى هذه النتيجة، وهي أن مصالح الإمبراطورية العثمانية تقتضي العدول عن حملة بغداد. وهنا التفت أنور باشا إلى القائد فالكنهاين وجرت بينهما مناقشة طويلة بالألمانية.

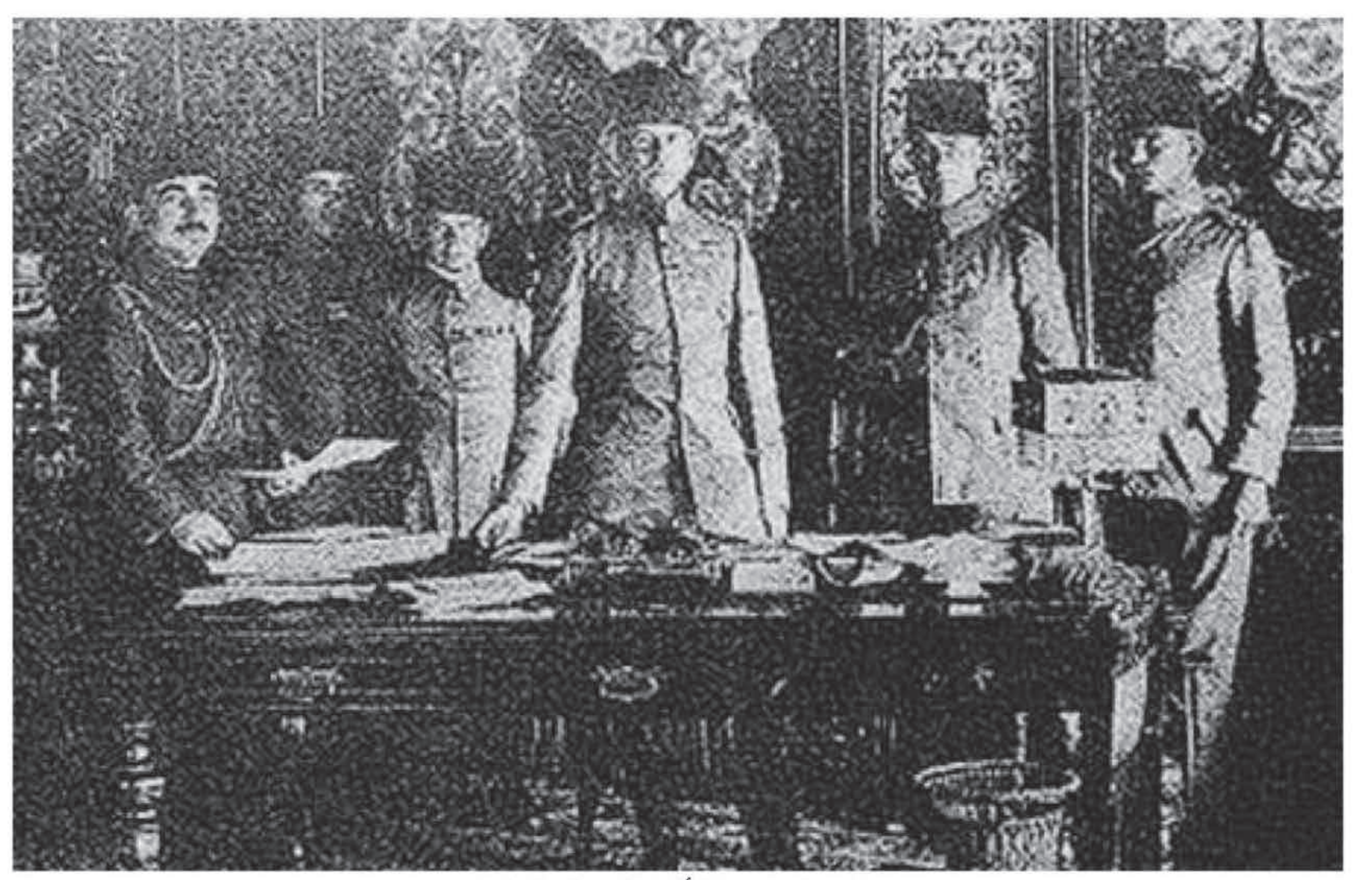
نعم إني لم أفهم كلمة واحدة مما قالاه، ولكني استنتجت من سياق المحادثة، ومن رجوعهما إلى الخريطة، ومن إشاراتهما مرات عديدة إلى الجبهة الإنكليزية، وأيضاً من استعمالهما بضعة اصطلاحات حربية فرنسية، أنهما رجعا إلى خطة الهجوم التي فكروا فيها والتي توقعت عدولهما عنها بسبب معارضتي الشديدة. وفي تلك اللحظة كان أنور باشا يظهر عليه أنه الفريق المعارض لتنفيذ خطة الهجوم، وأن فون فالكنهاين هو القائل بوجوب الشروع فيه لعظم المزايا التي تترتب على نجاحه.

ولكني أدركت فيما بعد عندما ترجم لي أنور باشا ملخص المحادثة أن فون فالكنهاين كان هو القائل بعدم نجاح الحملة على بغداد مادام الإنكليز مرابطين في جبهة فلسطين. وكان رأيه أن أول واجب على جيش الصاعقة هو مباغتة الإنكليز وحملهم على الانسحاب إلى القناة وبعد ذلك يمكن إرساله إلى بغداد. أما على الجبهة الفلسطينية فيقوم الجيش بحركة التفافية ويتقدم فيما بين الحفير والبحر وإذ ذاك يأخذ الإنكليز على حين غرة منهم. فعارض أنور باشا ذلك الرأي قائلاً إنه يرى أن عدد الجنود وقتئذٍ في فلسطين كافٍ للأعمال الدفاعية، فهو لا يرى الحاجة ماسة إلى إرسال تعزيزات. وأعلن أنه لا يستطيع



برونزارت

جنرال ألماني انتدب للعمل في قيادة الأركان العثمانية كمستشار عسكري وخبير في التخطيط الاستراتيجي ضمن البعثة العسكرية الألمانية لتأهيل الجيش العثماني وتحديثه. شارك في اجتماعات ومؤتمرات لقادة الجيوش العثمانية وأركانها العاملة في الجبهات الساخنة وزيارتها في مواقعها برفقة نائب الوكيل العام أنور باشا وزير الحربية كمستشار عسكري. وفي إلقاء محاضرات والإشراف على تنفيذ مناورات للجيش العثماني.



برونزارت رئيس هيئة أركان الجيش العثماني



برونزارت إلى يمين أنور على مدخل المدرسة الصلاحية في القدس

التحول عن حملة بغداد. ولم أكن لأوافق على رأي كليهما. أولاً لأنني كنت شديد الاعتراض على حملة بغداد فرأيت أن الضرر كل الضرر والخطر كل الخطر في إضاعة الوقت في عدم إرسال الجنود من حلب إلى فلسطين في أول فرصة ممكنة. وثانياً رأيت من الحمق البدء بالهجوم من جهة فلسطين ومواصلته ضد الإنكليز على طول الصحراء لأني مع افتراض إقحام كل جيش الصاعقة لذلك الغرض لعدم استطاعتنا

إحراز أي شيء حاسم بسبب الاستعدادات الإنكليزية الضخمة.

أقام الإنكليز استحكاماتهم بدقة ومهارة حتى صار لزاماً علينا إذا أردنا مهاجمتهم أن نأتي بمعدات لا أمل لنا مطلقاً في الحصول عليها، كالدبابات والمدافع الضخمة البعيدة المدى والمتفجرات وأدوات الغازات السامة وغير ذلك. فإذا فشلنا في ذلك الهجوم - والأمل كما ترى ضعيف في نجاحه - لا بد أن يقوم الإنكليز بهجمتهم المضادة فلا يعجزهم أسر معظم جنود خط الدفاع الأول، وهذا يؤثر جداً في قوى الجيش المعنوية فيسهل على العدو مهاجمة بقية استحكاماتنا، بل قد يخترق تماماً الجبهة الفلسطينية.

لقد حشد الإنكليز في ميدان فلسطين تسع فرق مشاة وثلاث فرق فرسان، هذا عدا قوة كبيرة من الأسلحة الأخرى المتخصصة، فمن المؤكد ألا يحل منتصف أغسطس/آب أو أوائل الشتاء على أقصى تقدير حتى يكونوا قد قاموا بآخر هجوم فاصل على هذه الجبهة، كما أنه لا ينتظر أن يكتفوا بهجمة واحدة بل سيهجمون مرات عدة، أي كالهجوم الذي كثيراً ما رأينا مثله في الجبهة الغربية. فالنتيجة، إن خير ما يمكننا أن نعمله هو انتظار نهاية ذلك الهجوم الذي يكلف الإنكليز أفدح الخسائر، فإذا ما نجحنا نجاحاً حاسماً في صدّهم ينبغي أن نقوم بمهاجمة الفرق الإنكليزية المهزومة مهاجمة مضادة على مدى قريب بقوات جديدة تكون معدة خصيصاً لذلك الغرض.

نعم ربما لا تسفر هذه الخطة عن شيء من المزايا الإيجابية العظيمة، ولكنها تكون خير وسيلة وأنجعها لحماية الجبهة الفلسطينية ودرء الخطر الأكبر عن سوريا.

ويمكن على أساس اقتراحي السير بمقتضى الخطة التالية:

أولاً: العدول عن حملة بغداد أو عن التفكير فيها في أغسطس/آب أو في الشتاء المقبل.

ثانياً: حشد كل فرق جيش الصاعقة في فلسطين ودمشق وحماه وحلب.

ثالثاً: إرسال فرق جيش الصاعقة إلى الجبهة الفلسطينية كلما عزز الإنكليز جبهتهم.

رابعاً: تحديد عدد الفرق التي تستخدم في الصف الثاني ليتسنى إراحة سائر فرق الصف الأول كل أسبوعين.

خامساً: تقوية صفنا الثالث بقوة احتياطية أساسية كبرى.

سادساً: ألا يتعرض للخطر ذلك الجيش الواقف لمقاومة الهجوم الإنكليزي في المواقع الحاضرة لأنه هو الجيش الوحيد لدى الحكومة العثمانية.

وينبغي لتنفيذ هذه العمليات ألّا يذهب مطلقاً جيش الصاعقة وهيئة أركان حربه إلى فلسطين، إذ يمكن فون كريس باشا قائد الجبهة الفلسطينية الذي لبث في تلك الجبهة أكثر من ثلاث سنوات وتولى الدفاع عن غزة مرتين أن يتولى قيادة سائر فرق الصفين الأول والثاني، مع بقاء الفرق التي يتكون منها الاحتياط الأساسي تحت قيادتي مباشرة. أما لو ذهب جيش الصاعقة إلى فلسطين فيتعين أن تذهب إليها هيئة أركان حرب الجيش السابع التي أراحها ذلك الجيش، وإذ ذاك يصير لازماً تقسيم الجبهة الفلسطينية - وهي في الحقيقة جبهة واحدة - إلى قطاعين مستقلين كل منهما عن الآخر ويرابط جيش مستقل في كل منهما. ومع ذلك ما أسخف الرأي القائل بتوزيع ثمانية فيالق أو تسعة وربما عشرة (ولا أعرف كم فرقة)

على جيشين مستقلين، خصوصاً إذا لاحظنا أن كل القوة من أولها إلى آخرها لا تتجاوز ٥٠٠٠٠ حربة.

حقاً لقد كان الأصوب استخدام كل الضباط الأكفاء حديثي السن، الذين يمكن العثور عليهم في كل تلك الفيالق لسد الفراغ الذي يحدث في الفرق.

ولكن الغاية التي كان المارشال فون فالكنهاين يفكر فيها كانت من نوع آخر، فإنه عندما أدرك أن حملة بغداد - التي ظنها بدايةً أمراً سهلاً - متعذرة، شعر بأن مركزه صار حرجاً فبادر إلى التخلص منها بوجه ما. فلكي ينقذ سمعته عاد إلى بحث خطة كان أنور باشا فكر فيها منذ ثلاثة أو أربعة أشهر وهي مهاجمة الإنكليز في فلسطين، وإنما عدل عنها نظراً إلى شدة معارضتي لها. ولكن فون فالكنهاين التفت إليه وقال: «يعتقد جمال باشا أن تلك الحملة مستحيلة، أما أنا فأرى أنها ليست ممكنة فحسب بل مفيدة».

ولكن أنور باشا لم يشأ من جهة أن يرسل إلى فلسطين مزيداً من الجنود ولا أن يَعْدل من جهة أخرى عن حملة بغداد. وعلى ذلك ختم مجلس الحرب بإعلانه أنه لا يزال مصرّاً على رأيه الأول.

ومن ثم أخذت وحدات عديدة للجيش السابع تحتشد في حلب منذ شهر، ونقل مصطفى كمال باشا قائداً للجيش السابع ومركز قيادته إلى المدينة.

وكان من أشق الأمور على نفسي أن أرى هؤلاء الجنود يقتلون الوقت في حلب، في حين أني كنت أرى أنه ينبغي لهم أن يكونوا جزءاً لا يستغنى عنه من قواتنا المرابطة في الجبهة الفلسطينية، وهكذا ظللت، برغم تصريحات أنور باشا العلنية ونياته التي أعرب عنها في مجلس الحرب، مستمراً في المطالبة - هذه المرة كتابياً - بإرسال هؤلاء الجنود جنوباً بلا إبطاء ولا إمهال.

زيارة ألمانيا

في ذلك الوقت وردتني من إمبراطور ألمانيا دعوة إلى زيارة الجبهة الغربية ولم أعرف سبباً لدعوتي، فأرسل الكونت فالدبرغ مستشار السفارة الألمانية - الذي كان وقتئذٍ قائماً بأعمال السفير - هذه الدعوة الرسمية إلى وزارة الخارجية كما أرسلها إليّ شخصياً مع تحيات جلالة الإمبراطور، وفي اليوم نفسه أبلغني السفير النمسوي أن جلالة إمبراطور النمسا وملك المجر يدعواني إلى زيارة الجبهة النمسوية.

فبعد استئذان جلالة السلطان قصدت ألمانيا أولاً، فزرت الأسطول في ثغر وليم هافن ومنها ذهبت إلى كوكسهافن ثم إلى كييل على ظهر الطراد بايرن، وفي كييل استقبلني الأمير هنري مقابلة ودية جداً ورافقني في زيارة مصنع السفن والأكاديمية البحرية في هانزبورغ، وشهدت برفقته مناورات بحرية عديدة. ثم



إمبراطور ألمانيا وليم الثاني بلباس مشير (مارشال) عثماني أعلى رتبة عسكرية في الجيش الشاهنشاهي، أنعم بها عليه السلطان محمد رشاد لدى زيارته استانبول للمرة الثانية قبل الحرب



ملك النمسا المجر   السلطان محمد رشاد   القيصر وليم الثاني

سافرت عن طريق هامبورغ واسن حيث زرت مصانع كروب ووصلت إلى مركز القيادة العامة الألمانية في كرويزناخ. وجاءت يوم وصولي الأنباء تحمل بشرى دخول الجنود الألمان مدينة ريغا(٥). فعمّ الفرح والسرور وبدت على محيا الإمبراطور علامات الابتهاج الحقيقي في ذلك اليوم. ولكني كنت الشخص الوحيد الذي شعر بانقباض النفس رغم ما بذلته من الجهود للتظاهر بالفرح.

وقد كان سبب انقباضي برقية من أنور باشا تسلمتها لدى وصولي إلى كرويزناخ قال فيها:

«بعد محادثات عديدة مع فون فالكنهاين قررت الشروع في الهجوم ضد الإنكليز بكل مجموعة جيوش الصاعقة وإرسال فون فالكنهاين إلى هناك لاتخاذ ما يراه ضرورياً لتنفيذ تلك الخطة. فيجب في هذه الظروف أن يتولى هو قيادة الجيش في جبهة فلسطين. فالمرجو أن تخبر فون كريس باشا بأن ينفذ كل الأوامر التي يصدرها إليه فون فالكنهاين».

وكانت هذه البرقية بمثابة ضربة شديدة بالنسبة إليّ. فقد أدرك القائد الألماني مراده وضمن العمل لتنفيذ مشروع يعلم الله أنه كان شديد الخطر ولا بد أن يلحق الوطن منه بلايا عظمى.

فأبرقت إلى أنور باشا البرقية التالية:

«إن القائد فون فالكنهاين هو صاحب فكرة الهجوم على فردان(٦) التي كانت شراً مستطيراً على ألمانيا. فهجومه الفلسطيني مؤداه الشر المستطير علينا».

وما كان أشد حزني عندما تبين لي فيما بعد أنني تنبأت نبوءة صادقة بالكارثة التي كانت القاضية

علينا!.

وقد حاولت في اليوم نفسه أن أقنع المارشال هندنبرغ والقائد لودندورف(٧) بأضرار العمل الحربي الذي يزمعه فون فالكنهاين، فأجاب المارشال هندنبرغ بأنه يصعب من مثل هذا المكان البعيد الحكم على



المارشال هندنبرغ پول لودڤيغ (١٨٤٧-١٩٣٤)

قائد عسكري وسياسي ألماني، من بوزين في بروسيا الشرقية، شارك في الحرب النمسوية واحتلال باريس (١٨٧٠). اعتزل الخدمة العسكرية عام ١٩١١. في الحرب العظمى في آب ١٩١٤ تولى قيادة الجبهة الشرقية بمساعدة لودندورف وهوفمان محققاً انتصارات على الروس في معركة تاننبرغ. ثم تولى القيادة العامة للقوات المسلحة. عام ١٩٢٥ انتخب رئيساً للجمهورية، فجهد في رعاية واحترام الدستور الألماني الجديد حتى ظهور أزمة ١٩٣٠ وتعاظم نفوذ الحزب النازي وهزم هتلر في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٣٢ حتى إنه رفض تعيينه مستشاراً للرايخ. توفي هندنبرغ في تموز/يوليو ١٩٣٤ فخلفه هتلر في الرئاسة والمستشارية (المصدر: الموسوعة السياسية والعسكرية).

المزايا أو الأضرار التي تنجم من ذلك الهجوم، ولكنه يظن أنني مصيب في رأيي.

وأجاب القائد لودندورف الجواب عينه ولكنه رأى أن الإنسان بمهاجمة العدو بهذه الطريقة يضطره أحياناً إلى القيام بهجماته التي نواها من قبل، ولكن لا في النقطة التي أرادها العدو بل في النقطة التي أرادها الخصم، وفي ظنه أن هذا عين ما قصده القائد فون فالكنهاين عندما قرر القيام بذلك الهجوم، ثم أضاف إلى ذلك قوله إن كل تدخل الآن لا ينتج إلا ضرراً وإن المخرج الوحيد من هذه الورطة هو الوصول إلى تفاهم مع أنور باشا عند عودتي إلى استانبول.

وبعد مغادرتي كرويزناخ زرت بروكة وزي بروكة وأوستند ثم جبهة الجيش الرابع الألماني في كامبراي



أحمد جمال مع رؤوف بك بعد حضور مناورات للبحرية الألمانية في بحر البلطيق سنة ١٩١٧

مركز قيادته، ثم عدت إلى الوطن.

التنافس على الصلاحيات مع القادة الألمان

وعند وصولي ناقشت أنور باشا ملياً ولكني أيقنت باستحالة تحويله عن رأيه. فقررت الاستقالة ولكنه رجاني بإلحاح العدول عن تلك الفكرة نظراً إلى امتداد الثورة العربية وبلوغها قرب معان واحتمال بلوغها دمشق نفسها، إذا أنا تركت سوريا في الوقت الحاضر.

والواقع أن الحجج التي أقامها كانت متينة. فإن الدروز والبدو كانوا في شمالي معان، وقد كان محتملاً أن يثور متمردو العرب - الذين بدأ تأثيرهم يظهر في دمشق ولكنهم لم يجرؤوا فعلاً على العصيان بفضل اليد الحديد التي استعملتها - في أي وقت(٨). فيقطعوا سائر خطوط مواصلات جيش فلسطين وينهبوا مستودعات مؤونته ويكونوا سبباً في هزيمته التامة.

فلم أرَ بدّاً من تضحية شخصيتي مرة أخرى. فاضطررت أن أصبر على تسوية جعلت حركاتي داخل دائرة ضيقة وأثرت تأثيراً مادياً في مكانتي حيال القائد فون فالكنهاين. وبهذا التدبير أصبح القائد الملقب بقائد مجموعة جيوش الصاعقة منوطاً به القيام بمهاجمة الجبهة الفلسطينية الإنكليزية مع التحاق الجيش السابع بهذه المجموعة. وفي خلال وضع هذه الخطة وتنفيذها يصير جنود هذه الجبهة التي تحت قيادة فون كريس (التي كانت حتى الآن تحت قيادتي) تحت قيادة قائد مجموعة جيوش الصاعقة.

وصدرت إليّ التعليمات مباشرة تموين جيوش مجموعة الصاعقة وجنود الجبهة الفلسطينية. وليس لفون فالكنهاين أن يتدخل مطلقاً مع السلطات المدنية الإدارية - السياسية - العسكرية سواء في سوريا



إريك جورج انطون سيباستيان فون فالكنهاين (١٨٦٢/١١/١١-١٩٢٢/٤/٨)
Erich von Falkenhayn

ولد إريك جورج انطون سيباستيان فون فالكنهاين في غرودينتس، في بروسيا الغربية، بعد تخرجه ضابطاً عمل لفترة في إحدى الوحدات الألمانية ثم أرسل إلى الصين في مهمة تدريبية للجيش الصيني عام ١٨٩٩، وعند قيام الملاكمين (البوكسريين) وحاصروا بكين ساهم في فك الحصار مع الحلفاء، عاد إلى ألمانيا سنة ١٩٠٣ ليشغل عضوية ضابط هيئة أركان الجيش الألماني ثم رئيساً للهيئة لبعض الوقت من الحرب العالمية الأولى. عيّن وزير الحرب البروسية عام ١٩١٣ إلى جانب الجنرال هِلموت فون مولتكه في هذا المنصب، الذي لطالما تباينت وجهات النظر بينهما، إلى أن كانت معركة (المارن) في الحرب العالمية الأولى مع فرنسا في آب/أغسطس ١٩١٤ والخسائر التي أصيب بها الجيش الألماني، ما دفع القيصر إلى تسليم القيادة إلى فالكنهاين الذي رفض خطط الجنرالين هندنبرغ ولودندورف الهجومية لاكتساح الجبهة الشرقية والقضاء على الجيش الروسي، فضّل فالكنهاين الحذِر خطط الدفاع على خطط الهجوم، لكن معطيات الجبهة الشرقية لم تك تناسب إيجابية خطة فالكنهاين وجديتها في تلك الساعة، فرفض وجهتي نظر الجنرالين لأنه كان يرى أن الجبهة الغربية تستدعي توجيه معظم وحدات الجيش الألماني نحو مدينة (فردان) (النتوء) التاريخية والعمل على استدراج الجيش الفرنسي إليها لتدميره بواسطة المدفعية الألمانية بعمل منهجي ومركز متنوع العيارات، لتسمح متغيرات موازين القوى بإحداث اختراق في الدفاع الفرنسي، ولينفذ فالكنهاين خطته دفع بعشرات الألوف من الجيش الألماني ثم بعشرات غيرهم، إنما الفرنسيون لم يبلعوا الطعم وفالكنهاين ينتظر خروج الفيالق الفرنسية من خنادقها والكشف عن نفسها ولا يزال يدفع بالفرق المشاة الألمانية، وعندما وصلت النجدات الإنكليزية في أول تموز/يونيو ١٩١٦ التي استطاع الإنكليز توفيرها للفرنسيين وجدوا أن أصحاب الأرض قد كبّدوا الألمان خسائر بشرية هائلة إلى جانب خسائر فرنسية أقل. وتابع الفرنسيون صمودهم في الخنادق وجمدوا قوة ألمانية كبيرة لم يعد بإمكانها التراجع ليطوروا موقفهم فيما بعد إلى هجوم فيعوضوا خسائرهم في الأرض والإنسان ويدفعوا الألمان إلى الوراء، بهذا الفشل الألماني كان الانقضاض على فالكنهاين من القيصر والجنرالات الألمان الكبار، فأمر القيصر بإقالته وتعيين هندنبرغ بدلاً عنه، وأرسل فالكنهاين إلى منطقة ترانسلفانيا في رومانيا التي أعلنت الحرب على النمسا في ٢٩ آب/أغسطس ١٩١٦ لقيادة الجيش الألماني التاسع، فالكنهاين استطاع هزم الجيش الروماني في معركة برج الأحمر وجرى الالتقاء بجيش الجنرال ماكنزي في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، ودخلت قوات فالكنهاين العاصمة بوخارست هاماً رومانيا في ٦ كانون الأول/ديسمبر، أرسل إلى فلسطين لقيادة القوات التركية في عام ١٩١٧ للتصدي للجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال اللنبي الذي استطاع هزم الجيوش التركية والألمانية والنمسوية في غزة والقدس في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٧ ويدخل اللنبي مدينة القدس في كانون الأول/ديسمبر، استبدل الجنرال فالكنهاين بالجنرال ليمان فون ساندرس في شباط/فبراير ١٩١٨، الجنرال فالكنهاين رجع إلى ألمانيا وتقاعد، توفي إريك فون فالكنهاين في ٨ نيسان/أبريل ١٩٢٢ بالقرب من بوتسدام.



مجاهدون عرب من جبل حوران

أو في فلسطين، بل نيطت بي وحدي إدارة البلاد.

وتقرر أن تبقى تحت قيادتي الكتائب التي تقوم بالأعمال الحربية في شرقي الأردن، وعهد إليّ بالدفاع عن سائر الشاطئ شمالي يافا وحماية البلاد عسكرياً.

وعلى هذه الشروط سُمّيت «قائد جيوش سوريا وغربي بلاد العرب»، وأصبحت متمتعاً بمزايا قائد مجموعة جيوش الصاعقة.

ولو أبدى القائد فون فالكنهاين روح المسالمة لما أدى هذا الترتيب إلى شيء من المتاعب في مسألتي مناطق القيادة وإدارة سوريا وفلسطين بل لبقي كل شيء على ما كان عليه من قبل، وعلى فرض أنه لم يكن ثمة ما يبرر تلك الغلطة الشنيعة، غلطة إلقاء فرق عدة في حلب تقتل الوقت بلا عمل نحو ثلاثة أشهر بحجة الانتظار للشروع في حملة بغداد، حتى إنها وصلت إلى فلسطين بعد فوات الأوان ولم يكن ثمة مبرر لتحويل واقع الإدارة الداخلية في سوريا بعدما لبثت قرابة ثلاثة أعوام.

وعند عودتي من الجبهة الألمانية إلى استانبول وصل إلى سمعي أن خلافاً في الرأي نشأ بين مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع والقائد فون فالكنهاين، فاهتممت بالبحث عن سببه فأدى بي البحث إلى أن مصطفى كمال باشا كان الحق إلى جانبه، إذ كان يحترم جميع حقوق قائد الجيش. أما فون فالكنهاين فقد ادّعى أن له الحق في التدخل في شؤون الجيش السابع بطريقة محظورة حتى لو كانت خاصة بقائد فيلق، حتى في الشؤون العربية في منطقة مصطفى كمال باشا، ولكن هذا الأخير أفهمه أن هذه المسائل







إحدى عمليات تخريب سكة حديد الحجاز



يافا من البحر

تعني جيشه وحده ولا سلطة له مطلقاً تخوله التدخل في تلك الشؤون.

لهذا أراد مصطفى كمال باشا، الذي كان يعلم جيداً ما قد يترتب من الأضرار على بعض الأوامر المعينة التي يصدرها فون فالكنهاين مما لا يتفق ومزاج البدو، أن يمنع تدخل القائد الألماني بكل صراحة ممكنة معتمداً على سلطته باعتبار أنه قائد جيش.

تلك كانت الحالة عموماً في سوريا حين عدت إلى حلب من استانبول قرابة منتصف نوفمبر/تشرين الثاني.

كذلك كان مصطفى كمال باشا يرى أنه لا يستطيع أن يبقى قيد أوامر القائد فون فالكنهاين، وأيقنت أنا أيضاً أن النفوذ الذي كان لي في سوريا خلال السنوات الثلاث الماضية سيضعف كثيراً مادام هذا القائد الألماني فيها، وفي ذلك الضرر كل الضرر على الوطن.

وبعد رسائل عدة مطولة شديدة انتهى الأمر بترك مصطفى كمال باشا القيادة وعودته إلى العاصمة، فقلت له إنني أريد أن أنهج نهجك متى جاء أنور باشا إلى هنا، وكان قد أرسل يقول إنه آتٍ إلى سوريا في القريب العاجل، وصممت في نفسي على ألاّ أتحول عما عزمت عليه.

ولكن حين جاء أنور باشا إلى دمشق جعل يتوسل إليّ هو والقادة الآخرون في بيروت وسوريا وحلب



مصطفى كمال يوم اجتماع قادة الجيوش العثمانية في حلب ١٩١٧

ويسألونني العدول عن الاستقالة. إلى أن رأيت نفسي مضطراً في هذا الوقت العصيب إلى العدول عن فكرة مغادرة سوريا. وأبدى مصطفى كمال باشا استياءه من خطتي ولكني أقنعته فيما بعد بأن الحالة في



فالكنهاين في دمشق يتفقد قادة الوحدات

هذا الوقت العبوس تجعل تلك التضحية[٩] الأخيرة واجبة.

وإني لعلى يقين من أنه لو لم يدر البحث أولاً مطلقاً في استرداد بغداد وحشدت كل الجنود في الجبهة الفلسطينية، ولو لم يوضع فون فالكنهاين ثانياً في قيادة الجيش في فلسطين، لتمكنّا من الدفاع عن خط غزة - بئر السبع أعواماً عدة، ولكانت سوريا وفلسطين لا تزالان جزءاً من الإمبراطورية العثمانية يوم توقيع الهدنة.

هوامش الفصل الرابع:

(١) ستجد تفصيل ذلك في الجزءين التاسع والعاشر من المجموعة.

(٢) الثورة الروسية: أو الثورة البلشفية أو الثورة الاشتراكية أو ثورة أكتوبر في (٢٥ أكتوبر أو ٧ نوفمبر ١٩١٧) نجحت بقيادة فلاديمير إيليتش لينين للحزب الشيوعي الروسي ورفاقه. فأخرجت روسيا من الحرب العالمية الاولى وأيدت حركات التحرر الوطني العالمية، تحت مبدأ (حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها) من بينهم الارمن. وعاشت أكثر من ٢ ١ سنة حرباً أهلية داخلية مضادة (أنصار القيصرية- الحرس الأبيض) من مدنيين وعسكريين متحالفين مع الاقطاعيين كبار ملاكي الأرض وأصحاب المصارف الذين ساندتهم ١٣دولة أجنبية حاصرت الدولة الاشتراكية.

(٣) هزيمة الجيش في كوت العمارة: في ليل ٢٥ أيلول من عام ١٩١٥ جمعت الفرقة الإنكليزية الثانية عشرة بقيادة الجنرال تاونسند ملحقاً بها اللواء ٣٠ مع فوجي مشاة وسرية ونصف سرية خيالة وطائرتين برمائيتين. بلغ مجموع القوة ٩٥٠٠ جندي معززين بـ٢٨ مدفعاً و٤٠ رشاشاً. فيما القوة التركية مؤلفة من الفرقتين ٣٥ و٣٨ مع كتيبتي خيالة وكتيبة هجانة وتوزعت على موقعين داخل مياه المستنقعات ليبلغ عديدها ٦٠٠٠ جندي وضابط بقيادة نور الدين بك.
في ٢٦-٢٧ أيلول جرى تغيير المواقع والانتقال من حالة الثبات والتمركز في الخنادق والتحصينات إلى حالة الاشتباك المباشر. بدأ التمهيد له بقصف مدفعي مكثف ومتبادل لمدة طويلة استبسلت خلاله القوات العثمانية وأبدت من ضروب الشجاعة ألواناً أنهكت القوات الإنكليزية التعبة، الجائعة والعطشى، التي تمكنت على الرغم من ذلك أن تشق طريقها وسط القوات العثمانية التي دبّت فيها الفوضى وولّت هاربة ففقدت الاتصال فيما بينها. وقسم كبير منها ضلّ طريقه في الظلام فوقع بين أسير وقتيل. استغرق الالتحام المباشر (المعركة) أقل من ساعة.
مع طلوع الشمس يوم ١٩١٥/٩/٣٠ انجلت المعركة. فوجد الإنكليز أنفسهم وحدهم في الموقع ولا أثر لأي جندي عثماني. الذين صدرت اليهم الأوامر ليلاً بالانسحاب باتجاه بغداد... (في ١٩١٧/٣/٢١ دخلت القوات الإنكليزية مدينة بغداد بإمرة الجنرال «مود»). بسقوط مدينة الكوت في يد الإنكليز سيطروا على القواعد الأساسية كالبصرة، الناصرية، كوت. وأمسى دجلة والفرات الأسفل تحت مرمى نيرانهم. بقيت أمامهم مدينة بغداد فعجّل الإنكليز في تعزيز قواتهم قبل أن يلملم العثمانيون شعثهم (عمر أبو النصر، موسوعة الحرب العالمية، معركة كوت العمارة، ص١١٣-١١٥).

(٤) للإحاطة بهذه المواقف إقرأ الجزء الثامن.

(٥) ريغا: هي الآن عاصمة جمهورية لاتفيا على بحر البلطيق.

(٦) ڤردان: أطول وأشرس معركة برية جرت أثناء الحرب العالمية الأولى إثر الهجوم على مدينة ڤردان الفرنسية الواقعة على نهر الموز وفيها قلعة حصينة.
بدأ الهجوم الألماني بقصف شديد مكثف وتدمير شامل (مليوني قنبلة يومياً) في ١٩١٦/٢/٢١ لإرهاب الفرنسيين وتحطيم معنوياتهم. استبسلت المقاومة الفرنسية في الدفاع أمام تقدّم الألمان الذين نجحوا في احتلال قرى عدة محصنة في ١٩١٦/٢/٢٦. تولّى الجنرال بيتان القيادة في ڤردان (عبقري تطبيق نظرية الدفاع) لكن ڤردان لم تسقط بفضل رفع شعار «إنهم لن يمروا». وظلت المعركة على هذا التناوب حتى ١٩ نيسان/أبريل حين زحف ٤٠٠,٠٠٠ ألماني على قلعة «فورث هوم» الحصينة. وتصدّت لهم المدفعية الفرنسية الثقيلة فحصدت بضعة آلاف وأجبرتهم على الارتداد. وكان هذا يوماً حاسماً في تاريخ ڤردان وبيتان والحرب العالمية الأولى. ذلك أن الفرنسيين لم يتقهقروا بعد ذلك وإن خسروا - بعد قتال مرير - بعض القلاع التي لم تك ذات شأن. وظل القتال دائراً حول ڤردان حتى تموز/يوليو ١٩١٦ حين كسر الإنكليز الخط الألماني في الشمال فاضطرت القيادة الألمانية إلى تخفيف الضغط عن الجبهة في ڤردان. أما ضحايا ڤردان فهم ١٨٠ ألف قتيل و٢٨٠ ألف جريح و٣٠ ألف أسير فرنسي و٤٧ ألف قتيل و٢٠٠ ألف جريح و١٢٥ ألف أسير ألماني (المصدر: الموسوعة السياسية والعسكرية، ج٤، ص٦٩٤).

(٧) إريك لودندورف (١٨٦٥-١٩٣٧): قائد عسكري استراتيجي وسياسي ألماني قومي، غلب على تصرفاته القتالية الطابع الشخصي. في ١٩١٤/٨/٢٢ صار رئيساً للأركان في جيش هندنبرغ في الجبهة الشرقية. كان الدماغ المخطط لقيادة الجبهة التي استطاعت أن تطرد القوات الروسية من ليتوانيا وبيلاروسيا ومن بولونيا عام ١٩١٥.
في عام ١٩١٦ قوي نفوذه داخل القيادة العامة للقوات المسلحة بمعية هندنبرغ وتوصلا إلى التمكن من فرض حكومة أو رفضها وتعيين غيرها. لم تك علاقته بالقيصر جيدة، تولى الإشراف على رسم السياسة الخارجية لألمانيا بعد الحرب. ساهم في قيام مملكة بولونيا المؤقتة، وفي فكرة حرب الغواصات وفي صلح برست/ليتوفسك. قدّم استقالته بسبب الضغوط عليه في تشرين الأول/أكتوبر، ودخل معترك الحياة السياسية. انتُخب نائباً في الرايخشتاغ عام ١٩٢٤ وصار زعيماً للكتلة القومية الاشتراكية (النازية). أهم مؤلفاته السياسية - العسكرية (الحرب الشاملة)، ضمّنه رؤيته وخبرته وثقافته العسكرية-السياسية (المصدر: الموسوعة السياسية والعسكرية).

(٨) اليد الحديد (أحكام نفي، أحكام إعدام):
(الاتجاه الأول) الشخصيات المنفيّة:
١- حبيب باشا السعد، نفي إلى أضنة
٢- خليل عقل (١٨٥٥-١٩٢٦) نائب قضاء المتن، نفي إلى الأناضول
٣- نعوم باخوس (١٨٨٠-١٩٤٨) نائب كسروان عضو مجلس متصرفية جبل لبنان، نفي إلى الأناضول
٤- فرنسوا خوري مراسل وكالات أخبار وصحف فرنسية، نفي إلى الأناضول، أما في كتاب المعجم النيابي صفحة ٦٠ يذكر نفيه إلى القدس. وفي رسالة من المطران بطرس شبلي إلى غبطة البطريرك الياس حويك بتاريخ ١٩١٦/٤/٢٩ يخبره فيها عن مرض فرنسوا بالتيفوس في أضنة (أرشيف بكركي / ملف البطريرك الياس حويك ٤٢).
٥- الأميرالاي (الزعيم) سعيد البستاني قائد الجيش اللبناني
٦- جرجس بك صفا رئيس دائرة الحقوق الاستئنافية
٧- مصطفى بك العماد رئيس دائرة الجزاء الاستئنافية
٨- الاستاذ سليم باز المدعي العام الاستئنافي نفي الى الاناضول
٩- الدكتور بولس نجيم رئيس القلم الأجنبي
١٠- نمر أفندي بو شمعون معاون رئيس المالية
١١- ابراهيم بك أبو خاطر قائم مقام زحلة
١٢- سعد الله حويك نائب قضاء البترون في مجلس إدارة المتصرفية، ص١٧٦ (المعجم)
١٣- فؤاد عبد الملك نائب قضاء الشوف في مجلس إدارة المتصرفية
١٤- سليمان بك كنعان نائب قضاء جزين في مجلس إدارة المتصرفية
١٥- نسيب أفندي الخوري مميز قلم الأوراق في مركز المتصرفية
١٦- إبراهيم بك عقل مدير ناحية البترون
١٧- رشيد بك نخلة أمير شعراء الزجل مؤلف النشيد اللبناني صدر الأمر بنفيه إلى الأناضول، استبدل النفي بإقامته في القدس تحت نظر احمد جمال باشا
١٨- الأمير فايق شهاب مع زوجته قائمقام المتن نفيا إلى الأناضول
١٩- الأمير توفيق مجيد أرسلان قائممقام الشوف وشقيقه فؤاد نفيا إلى الأناضول
٢٠- المطران الماروني بطرس شبلي (١٨٧١-١٩١٧) عام ١٩٠٧ سيم مطراناً على بيروت خلفا للمطران يوسف الدبس. نفي إلى أضنا سنة ١٩١٦ وتوفي فيها. له «تاريخ البطريرك اسطفان الدويهي».
٢١- المطران جيراسيموس مسرة، مطران بيروت للروم الأرثوذوكس نفي إلى داخل سوريا، وبعد توسط من البطريرك غريغوريوس حداد اكتُفي ببقائه ضمن دير البلمند.

٢٢- جورج صعب وكيل بواخر فرنسية نفي إلى الأناضول (توسط له عزمي بك للعودة)
٢٣- بشارة كرم مترجم في القنصلية الروسية في طرابلس نفي إلى الأناضول (توسط له عزمي بك للعودة)
٢٤- وديع طربيه مترجم في القنصلية الفرنسية في طرابس نفي إلى الأناضول (توسط له عزمي بك للعودة)
٢٥- سعدون حمادة من زعماء عشائر حمادة الهرمل نفي إلى الأناضول
٢٦- ابراهيم يعقوب الصراف (١٨٩٠-١٩٥٢) منيارة نفي إلى الأناضول
(الاتجاه الثاني) إصدار أحكام إعدام غيابية في ١٩١٥/٨/١٥ على كلّ من:
١- ابراهيم حيدر
٢- ابراهيم سليم النجار
٣- ادمون ملحمة
٤- ادوار كرم
٥- اسعد باسيلا
٦- اسعد مفرج
٧- اسعد مفلح داغر
٨- اسكندر سرسق
٩- الفرد اليان
١٠- الفرد عازوري
١١- الفونس زينية
١٢- الياس حنين
١٣- الياس زنانيري
١٤- الياس زهار
١٥- أمين البستاني
١٦- امين مجيد ارسلان
١٧- انطوان أرقش
١٨- ايوب ثابت
١٩- بترو طراد
٢٠- بشارة البواري
٢١- جان عبيد (عبيه)
٢٢- جبرايل حداد
٢٣- جبرائيل ناصيف (اصف) (اصفر)
٢٤- جورج بحري
٢٥- جورج خير
٢٦- جورج دوماني
٢٧- جورج عبد المسيح
٢٨- جورج قريصاتي
٢٩- حسن حماد
٣٠- حقي العظم
٣١- خليل ابي اللمع

٣٢- خليل بولاد: كان لديه مكتب محاماة في القاهرة. عمل فيه بشارة خليل الخوري مدة.
٣٣- خليل زينية
٣٤- خليل مشاقة
٣٥- خليل المطران
٣٦- داود بركات
٣٧- رزق الله أرقش
٣٨- رشيد خياط
٣٩- رشيد تقي الدين
٤٠- رشيد رضا
٤١- رفيق العظم
٤٢- روفائيل غرة
٤٣- سعيد مخيبر
٤٤- سليم بولس
٤٥- سليم ثابت
٤٦- سليم الشميل
٤٧- سيمون ابو شنب
٤٨- شارل دباس
٤٩- شبلي شميل
٥٠- شكري بخش (صاحب جريدة زحلة الفتاة). ذكره يوسف الحكيم في«بيروت ولبنان في عهد آل عثمان بـ(بخاش)». ص١٤٠. الطبعة الرابعة. ١٩٩١
٥١- شكري غانم
٥٢- عبد الحفيظ محمود الحسن
٥٣- عزت العابد
٥٤- عزيز علي
٥٥- عزيز بحري
٥٦- دكتور غرزوزي
٥٧- فارس نمر
٥٨- فؤاد الخطيب
٥٩- فيليب شيحا (شيما) (سمان)
٦٠- قسطنطين ينى
٦١- كميل اده
٦٢- ماريو الشميل
٦٣- الشيخ محمد رشيد رضا
٦٤- ميشال لطف الله
٦٥- ميشال تويني (نخلة جرجس) حكم عليه بالإعدام. توسطت له زوجة وزير الخارجية الإيطالي لصداقتها مع أخته. سافر بجواز سفر امرأة
٦٦- نجيب أيوب
٦٧- نجيب موسى دياب صاحب جريدة (مرآة الغرب) في اميركا

٦٨- نجيب غناجة
٦٩- نجيب البستاني
٧٠- نجيب عازوري
٧١- نجيب قريصاتي
٧٢- نجيب قطان
٧٣- نعمة الله غانم
٧٤- هنري حبيب بولاد
٧٥- يوسف حبيب زنانيري
٧٦- يوسف البستاني
٧٧- يوسف الخازن
٧٨- يوسف سمعان صيدناوي
٧٩- يوسف صموئيل
٨٠- يوسف كحيل

أحكام إعدام (وجاهية):

١- الخوري يوسف الحايك كاهن قرية سن الفيل أعدم في دمشق في ١٩١٥/٣/٢٢

* القافلة الاولى صدر الحكم في ١٩١٥/٨/١٥، ونفذت عمليات الإعدام إما فردية أو جماعية إما شنقاً أو رمياً بالرصاص.
نُفذَ في ساحة البرج - بيروت في ١٩١٥/٨/٢٠ بإشراف الأومباشي البيروتي أبو عفيف الحصري.

٢- عبد الكريم الخليل، الشياح
٣- محمود المحمصاني، بيروت
٤- محمد المحمصاني، بيروت
٥- عبد القادر الخرسا، (دمشقي مقيم في بيروت)
٦- نور الدين القاضي، بيروت
٧- سليم احمد عبد الهادي عرابة، قرب جنين
٨- محمود نجا العجم ،بيروت
٩- الشيخ محمد مسلم عابدين، (مأمور أوقاف اللاذقية)
١٠- نايف تللو، دمشق
١١- صالح حيدر، بعلبك
١٢- علي الأرمنازي، حماه
١٣- يوسف الهاني، بيروت. أعدم في بيروت ١٩١٦/٤/٥، عشية إعدامه في ٤/٤ كان أحمد جمال باشا مدعوّاً إلى مائدته وتمضية السهرة في منزله

* القافلة الثانية في ١٩١٦/٥/٦ في ساحة المرجة في دمشق بإشراف القاضي القائم مقام شكري بك

١٤- شفيق المؤيد العظم دمشق
١٥- الشيخ عبد الحميد الزهراوي، حمص
١٦- الامير عمر الجزائري، (حفيد عبد القادر الجزائري)
١٧- شكري العسلي، دمشق
١٨- عبد الوهاب محمد الانكليزي، دمشق
١٩- رفيق رزق سلوم، حمص
٢٠- رشدي الشمعة، دمشق

* في ١٩١٦/٥/٦ في ساحة البرج في بيروت

٢١- بترو باولي، بيروت

٢٢- جرجي حداد؟؟

٢٣- سعيد فاضل عقل، الدامور

٢٤- عمر حمد، بيروت

٢٥- عبد الغني العريسي، بيروت

٢٦- الشيخ أحمد حسن طبارة، بيروت (إمام جامع النوفرة)

٢٧- توفيق البساط، صيدا

٢٨- سيف الدين الخطيب، دمشق

٢٩- علي عمر النشاشيبي، القدس

٣٠- محمود جلال البخاري، دمشق

٣١- سليم الجزائري، (تنظيم الضباط العرب-دمشق)

٣٢- أمين لطفي الحافظ، (تنظيم الضباط العرب-دمشق)

٣٣- عارف الشهابي، حاصبيا

٣٤- علي حاج عمر؟؟

٣٥- محمد الشنطي اليافي (في كتاب الإيضاحات ات ادعى كاتبه أن الشنطي سلّم طلعت باشا وثائق (مقابل المال) خاصة بحقي بك العظم كانت مرسلة إلى أعضاء الجمعية اللامركزية في بلاد الشام، وأن الشنطي حاول أن يبتز جمال باشا الذي أحاله على الديوان العرفي في عاليه بتهمة الانتماء إلى تنظيم سري والابتزاز فحُكم عليه بالإعدام.

ولم يُحسب من الشهداء، ولم يُعطَ رقماً. أما رواية الرفاق فهي أن الشنطي تحت وطأة التعذيب والتهديد بالموت اعترف بما لديه من معلومات، وغير ذلك تلفيق وافتراءات من أحمد جمال باشا.

٣٦- نخله باشا المطران من وجهاء بعلبك ومثقفيها البارزين، كاثوليكي، عضو حزب الاتحاد والترقي، اشتغل في سفارة الدولة العثمانية في باريس، سُجن في دمشق بتهمة اللجوء إلى طلب مساعدة فرنسا لأجل فصل قضاء بعلبك عن سوريا وضمه إلى جبل لبنان.

بدايةً حكم عليه الديوان العرفي في مطلع عام ١٩١٥ بعقوبة السجن المؤبد. فوُضع على حمار في دمشق بالمقلوب وساروا به في شوارع المدينة وهم يضربونه ويبصقون عليه ويشتمونه. لم يكتفِ جمال باشا بهذا بل أمر بنفيه إلى الأناضول، وأثناء توقف القطار في إحدى المحطات قرب حلب أمره الجنود بالنزول من القطار والسير على قدميه. وما إن نزل حتى بادروا إلى إطلاق النار عليه متذرعين بأنه حاول الهرب. كان ذلك في ١٩١٥/١٠/١٧.

٣٨/٣٧- الأخوان الخازن فيليب (١٨٦٥-١٩١٦) من مواليد عرمون الكسروانية بجبل لبنان، أصدر مع أخيه فريد (١٨٦٩-١٩١٦) جريدة الأرز

(سياسية تجارية أدبية) سنة ١٨٩٥ ونشرا «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات» بـ٣ أجزاء. له كتاب «لمحة تاريخية في استقلال لبنان»، عمل مترجماً في القنصلية الفرنسية ببيروت، مع بداية الحرب نفي إلى حلب ثم جُلب إلى بيروت ليُشنق مع شقيقه في بيروت في ١٩١٦/٥/٢، وفي رواية أخرى (في ١٩١٦/٦/٥) (يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص٢٣٩).

آل الخازن من الأسر اللبنانية الكسروانية العريقة الكريمة. عُرفوا بشهامتهم وغيرتهم على لبنان ومصالحه والتفافهم الدؤوب حول الكرسي البطريركي الماروني، ومنهم الأخوان فريد وفيليب. كتبا في الصحافة.

٣٩- انطوان زريق طرابلس أعدم في دمشق ١٩١٦

٤٠- توفيق زريق طرابلس أعدم في دمشق ١٩١٦

٤١- عبدالله الضاهر من عكار أعدم في بيروت ١٩١٦/٣/١

٤٢- عزت الجندي دمشقي أعدم في مقر إقامة أحمد جمال ١٩١٦

٤٣- يوسف سعيد بيضون بيروت أعدم في عاليه ١٩١٦/٣/١٠
٤٤- راهب فرنسي؟؟؟ أعدم في دمشق
٤٥- شكري الحسيني اعتقل ونفي الى حلب مات في الطريق عام ١٩١٦
٤٦- مسعود هليل ورد اسمه عند بيهم في (العهد المخضرم) أنه شنق في عاليه عام ١٩١٦
٤٧- شاهر رحيل العلي عشيرة التركي أعدم في دمشق يوم إعلان الثورة العربية
٤٨/٤٩- أحمد عارف وولده مفتي غزة أعدما في القدس ١٩١٧
٥٠- محمد الملحم شيخ عشيرة الحسنه أُعدم في دمشق ك١٩١٧/٢
٥١- فجر المحمود عشيرة الموالي أعدم في دمشق ك١٩١٧/٢
٥٢- يوسف بردويل نائب زحلة في مجلس إدارة متصرفية جبل لبنان نفي إلى الأناضول. توفي في الطريق مسموماً بماء الشرب. دفن في حلب.
هذه اللائحة ليست نهائية. قد تضاف إليها أسماء إن وُجدت.

(٩) مثل هذه المواقف والعبارات تتكرر في فصول الكتاب لتبيّن كم هي تضحيات هذا القائد النادر!

القسم الثالث

الفصل الأول

الثورة العربية

في يوم وصولي إلى دمشق أخبرني خلوصي بك حاكم سوريا العام بأن لديه أموراً خطيرة الشأن يريد محادثتي فيها. فاجتمعنا في مساء اليوم نفسه في دار الحكومة. فسلمني وثائق عدة مهمة ضبطت في القنصلية الفرنسية قائلاً إنها تدين عدداً من الموظفين الكبار المسلمين الأكثر نفوذاً في بيروت ودمشق ومدن أخرى. وإنه لم يعمد إلى اتخاذ إجراءات في حقهم لمحاكمتهم بل أرجأ ذلك إلى حين وصولي.

أما هذه الوثائق فتدل دلالة واضحة على أن الثوار العرب كانوا يعملون بحماية فرنسا. لا بل بإرشاد الحكومة الفرنسية ولمصلحتها.



خلوصي بك

كان والياً على سوريا. قال عنه محمد كرد علي في مذكراته «كان محباً للعرب. ولم يكُ موافقاً على إعدامات ومحاكمات الديوان العرفي فاستقال». والشيء نفسه نجده في مذكرات يوسف الحكيم ج٢. ص٢٠٨ «إنه غير راضٍ عن الخطة التي يسير عليها جمال وهي خطة التفريق بين العنصرين العثمانيين الكبيرين التركي والعربي وخطة التضييق على الأحرار من سوريين ولبنانيين». كان صديق الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ومحمد كرد علي وعبد الكريم الخليل. وعند أمين سعيد (ص٧٠) أنه كان من أفاضل الترك. ترك منصبه احتجاجاً على إطلاق يد أحمد جمال باشا في سوريا بعد اتصاله بطلعت باشا. كانت علاقته ومواقفه من المتنورين العرب إيجابية.

بيد أن اتخاذ إجراءات قضائية في الحال ضد أولئك الخونة ربما عرّض للخطر وحدة العالم الإسلامي التي كانت غاية مجهوداتنا. إذ لو حاكمناهم لظنّت حكومات إسلامية عديدة انقطع اتصالها بنا. كمصر والهند والجزائر ومراكش. أن الأتراك قد تملكتهم سَوْرة الانتقام أو أنهم يسعون لتحقيق سيادة الأمة الطورانية بالفتك بوجهاء العرب. وهذا ما توخيناه في هذا النضال الشديد الذي اشتركنا فيه لتحرير العالم الإسلامي من النير الأجنبي. إذ كان غرضنا الأول ومقصدنا الأسمى الاحتفاظ بوحدة الغاية والجهود في جميع البلاد الإسلامية. فقررنا لهذا السبب ألاّ ننبس ببنت شفة في هذا الصدد في هذه الظروف.

وقبيل وصولي إلى سوريا سلمت إلى المحكمة العسكرية[1] بضع وثائق خطيرة تدين نخلة المطران باشا البعلبكي. وإذ كان التحقيق لا يزال متواصلاً وجب أن نترك العدل يجري مجراه. فحكمت عليه المحكمة العسكرية بالأشغال الشاقة المؤبدة.



الشهيد نخلة مطران الواقف إلى اليمين. وإلى يسار الصورة شاب من آل حيدر

وبعد زيارتي القدس أخبرني خلوصي بك أن بقاء نخلة باشا في دمشق غير مرغوب فيه وأنه قد حصل على إجازة من استانبول بإرساله مع من يحرسه إلى ديار بكر، وفي طريقهم إليها حاول الباشا الفرار ذات ليلة قرب جرابلس[٢]، ولكنه وجد قتيلاً بجانب حراسه.

ولقد وجدنا الوثائق المضبوطة في القنصلية الفرنسية في دمشق تشتمل على أدلة قوية تثبت إدانة كل من وكيل مجلس النواب عبد القادر زادة، الأمير علي باشا الجزائري، وأخيه الأمير عمر، النائب السابق عن دمشق شفيق بك المؤيد، وعبد الحميد الزهراوي أفندي عضو مجلس الأعيان، ويحيى الأطرش شيخ الدروز[٣]، وعبد الوهاب الإنكليزي المفتش الإداري، وشكري العسلي، ورشدي بك الشمعة نائب دمشق الأسبق، وغيرهم من وجهاء العرب الكبار.



الشهيد الأمير علي الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري



الشهيد شفيق المؤيد



الشهيد شكري العسلي



الشهيد عبد الوهاب الإنكليزي



الشهيد سليم الجزائري





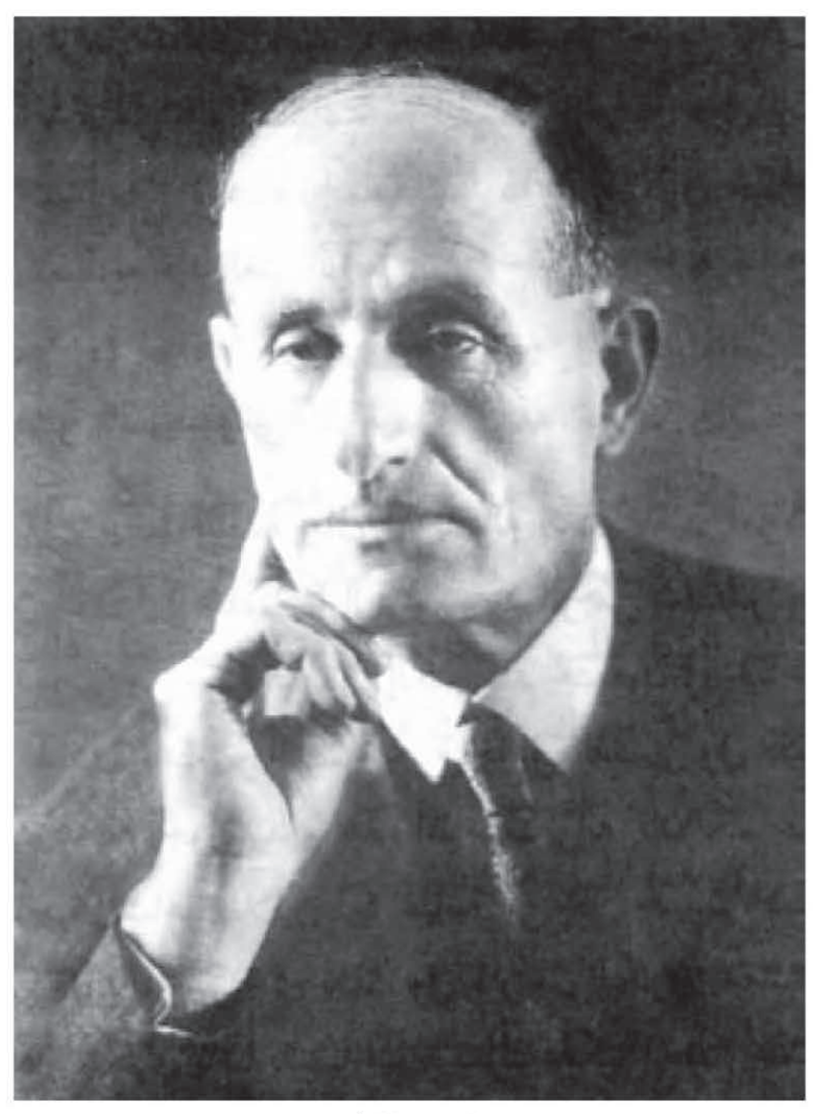
الشهيد رشدي الشمعة



الأديب محمد كرد علي

وبالرغم من تلك الأدلة كنت موقناً بأنهم سيدركون في النهاية أن الحرب العالمية ليست إلا مسألة حياة أو موت للعالم الإسلامي وأنهم سيقلعون يوماً ما عن غيّهم ويكفّرون عن أعمالهم الجنائية، وعلى هذا الاعتقاد قررت بنيّة خالصة ألاّ أتخذ إجراءات ما ضدهم، وإذ كنت شخصياً موافقاً في المبدأ على استعمال اللغة العربية ومنح العرب بعض الامتيازات في الشؤون الإدارية، أرسلت في طلب عبد الكريم الخليل زعيم الحركة الثورية العربية الذي ورد ذكره في الفصل الأول من هذه المذكرات، فغمرته بالبشاشة والإحسان.

واجتمعت بواسطته ببعض زعماء الثورة، وأخص منهم بالذكر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أكثرهم تحمساً وصاحب جريدة المفيد عبد الغني العريسي أحد كبار مؤسسي المؤتمر العربي في باريس ومحمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس الشهيرة، وبسطت لهم خطة الحكومة وأكدت لهم أن تحرير العالم الإسلامي من النير الأجنبي ممكن تحقيقه لو عقد النصر لألويتنا، فآمنوا جميعاً بلا استثناء بأقوالي[٤] وأقسموا بالله جهد أيمانهم وبشرفهم أن يظل عرب سوريا وفلسطين موالين للحكومة ما بقيت الحرب، وأن لا يقيموا العراقيل في طريقها وأن يقرنوا أقوالهم هذه بالأفعال. وفي الوقت نفسه شرع أولئك الذين يدعون بالثوريين، وفي مقدمهم عبد الكريم الخليل، يقصون قصص حزنهم مبدين أنهم في حاجة قصوى إلى المال، فغمرت عبد الكريم ومحمد كرد علي وعبد الغني العريسي بالأموال الطائلة، وأصبحوا مذ ذلك فصاعداً خدماً مطيعين لأوامري، وأكدوا لي أنهم لا يدّخرون جهداً لمساعدتي.



عبد الرحمن الشهبندر

تخرّج طبيباً من الجامعة الإنجيلية السورية (الجامعة الأميركية في بيروت). من المفكرين العرب المتنورين الأحرار. شارك في العمل الثوري العربي إلى جانب عبد الكريم الخليل وعبد الغني العريسي مرات عدة. حاول جمال باشا الإيقاع به بوسائل متنوعة. ذهب معه إلى القدس ودمشق وبيروت. كان عروبياً مخلصاً إلى ما بعد دخول فيصل إلى الشام. اغتيل في عيادته في زمن الفرنسيين.

وبعد وصولي إلى دمشق مباشرة شرعت في إعداد عدة الحملة على القناة. وحاولت جهدي لإيجاد جو مملوء بالحماسة الدينية والغيرة الوطنية في جميع البلاد العربية.

فأقمت حفلة أدبية بواسطة زعماء الثورة العربية مثل عبد الكريم الخليل والدكتور عبد الرحمن شهبندر وغيرهما ممن كانوا يسمون «المصلحين». وفي خلال الحفلة ألقى أفصح الخطباء خطباً عدة وأنشدوا القصائد الحافلة بمآثر العرب وأشاروا بالتمجيد إلى حنينهم للعلم وشغفهم بالمعارف والرقي وهي صفات تتجلى في العنصر العربي. ورتّلت الأغاني التي رددت الآمال في تحقيق الوحدة العربية. وكادت الأنشودة القومية العربية «نحن جنود الله شبان البلاد» تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان الذي كنا فيه. ثم صعدت إلى المنبر وألقيت خطبتي.

«أيها السادة، إن البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه بحذافيره لإصلاح حالة العرب لأوسع بكثير مما قد يرد في بالكم، ولست أنا من الذين يتوجسون شراً من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد مع انفصال أحدهما من الآخر كشعبين متحالفين.

ولكن لإدراك تلك الغاية علينا أن نعمل ونعمل كثيراً، فينبغي لنا قبل كل شيء طرد الغشاشين الذين باعوا وطنهم ودينهم للعدو من صفوفنا وأن نضيّق الخناق على الذين يعملون لمصلحته. ويجب أن تثقوا بأن حركة الجامعة التركية التي شهدتموها في استانبول وفي الجهات الأخرى الآهلة بالعناصر التركية لا تتضارب والمطامع العربية. إنكم لتعلمون علم اليقين أن الإمبراطورية العثمانية وجدت فيها حركات بلغارية ويونانية وأرمنية، والآن فيها حركة عربية. ولقد نسي الأتراك وجودهم تماماً حتى إنهم كانوا يخشون ذكر شعبهم مطلقاً، فالروح الوطنية رقدت تماماً حتى لقد خيف على الشعب التركي أن يتلاشى نهائياً.

فدرءاً لذلك الخطر المقبل نهض رجال تركيا الفتاة بغيرة تستحق الإعجاب فلجأوا إلى السلاح لتعليم الأتراك الروح الوطنية وما يصحبها من الفضائل. هذا هو الغرض الذي يرمون إليه وبذلوا فيه جهودهم في خلال العامين أو الثلاثة الماضية، وقد كان من نتيجة جهودهم بعث الخلافة العثمانية من رقدتها. فهُم هُم الذين أوجدوا الجيش المنظم الذي ترونه اليوم، وهم الذين لم يترددوا في عقد تحالف مع من ساقهم القدر إلى محالفتنا وفي إعلان الحرب الدينية على عدو الملة الوراثي.

واليوم أجدني قادراً على أن أؤكد لكم أن الأماني التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقاً، فالأتراك والعرب ليسوا إلا إخواناً في غاياتهم الوطنية، وربما كانت جهودهم بعضُها متمماً لبعض.

إن غرض رجال تركيا الفتاة هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم وإمدادهم وطنياً وزيادة رخاء الممتلكات التركية وسعادتها. وباختصار إن أقصى أماني ذلك الحزب هو جعل الشعب التركي موضع احترام شعوب الأرض كافةً وتثبيت حقه في أن يعيش مع شعوب القرن العشرين.

ولقد اعتزم الحزب العمل بلا هوادة أو ملل لإدراك تلك الغاية، وإني بصفة كوني أحد المنتمين إليه أناشدكم بلسانكم العربي أن تعملوا بصفتكم ممثلي حزب بلاد العرب الفتاة لنجاح تلك القضية، فلا تصغوا إلى الأكاذيب التي يروجها مأجورو العدو الذي يعتبر المكر والاحتيال وسائل مشروعة للتحكم في شؤون البلاد العربية.

إني أناشد الشبان الأتراك والعرب قائلاً إن هذين الشعبين مقضي عليهما بالفناء لا محالة في اللحظة التي يتخاذلان فيها، فالنزاع والاختلاف بين عمودي الإسلام لا بد أن يؤدّيا إلى سقوط ذلك الدين، ويومئذٍ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعباد السلافي.

أيها السادة، إنه لمن أشد بواعث الأسف والحزن أن تنجح المحاولات الشيطانية التي يقوم بها أعداء الدين والوطن لبذر الشقاق بيننا. فعلى الأتراك والعرب أن يحبوا بعضهم بعضاً ويحترموا بعضهم بعضاً لكي يتمكنوا من أن يجنوا معاً ثمار جهودهم المشتركة، وإني أحذركم من عواقب التخاذل فإنه مؤدٍّ حتماً إلى استعبادكم وفنائكم».

وقد أحدثت هذه الخطبة أثراً كبيراً في نفوس الحاضرين، وتبين لهم من سلوكي أنني أعطف كثيراً على كل ما قالوه، بل أرغب كل الرغبة في المساعدة بكل ما في استطاعتي، صعدت المنبر وألقيت خطبة مطولة أبنت فيها بحرّ القول أننا عن بكرة أبينا مخلصون للغة العربية لغة ديننا الحنيف وأننا نحب الشعب العربي ونجلّه، وكيف لا وهو الذي تجمعنا وإياه الوحدة الدينية والعقيدة المشتركة، وأكدت لهم أن الوسائل التي اتخذت في العام الماضي لمساعدة العرب في تحقيق أمانيهم ستتكرر.

فجاء في اليوم نفسه كثيرون من وجهاء القوم إلى مركز القيادة لتقديم الشكر إليّ على ما ورد فيها، وقابلها المصلحون أيضاً بالارتياح التام. وفي خلال الأيام التالية لذلك اليوم تجمّع سكان المدينة بأعلامهم شراذم شراذم وأقسموا بالقرآن أن يكونوا موالين للحكومة ويبذلوا كل ما في استطاعتهم من المساعدة دفاعاً عن حقوق المسلمين ضد الإنكليز والفرنسيين.

ولا يسعني إذا ما قارنت بين ما وصلت إليه الحال اليوم وبين التظاهرات الدينية التي نظمت وقتئذٍ في دمشق وحلب وحماه وحمص وبيروت، بل في لبنان أيضاً، إلا أن أستنزل اللعنات السماوية على الشريف حسين وأولاده لأنهم هم وحدهم المسؤولون عما أصاب الإسلام من الكوارث والمحن.

فالسياسة التي أردت اتّباعها في سوريا كانت كما ذكرت آنفاً سياسة صفح وتسامح، ولم أترك فرصة إلا انتهزتها ولا وسيلة إلا التجأت إليها لتوحيد الأفكار والشعور في سائر الممالك العربية.

فقد كتبت مثلاً إلى أرباب الشأن في بغداد وكربلاء والنجف وعدد من مشايخ العراق الذين توطدت بيني وبينهم أواصر المودة أثناء إقامتي في بغداد ثم إلى ابن السعود وابن الرشيد طالباً منهم أن يمدوا يد المساعدة إلى سليمان بك العسكري الذي هبّ ومعه فرقة أو اثنتان وكتيبة عثمانية التابعة للتشكيلات



والي بغداد أحمد جمال باشا مع شيوخ القبائل والعشائر



سليمان العسكري متنكراً بثياب شيخ مصري عشية ذهابه إلى ليبيا



الإمام يحيى (١٨٦٩-١٩٤٨)

بن محمد بن يحيى حميد الدين الحسني العلوي الطالبي، يتحدر من البيت الهاشمي، إمام الزيدية. وُلد في صنعاء، تربّى وتعلّم على يد مشايخ قصر والده ثقافة ذلك العصر (ثقافة عصور بائدة). كان في حرب مع الأتراك، وسنين مديدة قضاها في نزاعات داخلية قبلية ومع أمير عسير محمد بن علي الإدريسي. بفضل القائد عزيز علي المصري أبرمت معاهدة عاش خلالها الطرفان الترك واليمنيون في حالة هدنة، ما خفف الخسائر في العديد والعدة لكلا الطرفين. بدأ انسحاب الأتراك من اليمن بعد إعلان الشريف حسين الثورة عليهم وقليل من نجا منهم. المشاكل الداخلية المتنوعة في اليمن دفعت بالطامعين إلى اغتيال الإمام.

الخاصة لصدّ الإنكليز الذين كانوا محتلين البصرة وما جاورها. وأرسلت كتاباً خاصاً إلى الإمام سيد يحيى حميد الدين لحضّه على ضرورة انضمامه إلى كتائبنا في اليمن. وقد جاءتني الردود من أولئك الزعماء وفيها يؤكدون إخلاصهم وولاءهم للخلافة. ولم يكن حماسهم الديني ورغبتهم في الاشتراك في الجهاد ضد أعداء الملة بأقل من الحماسة التي انتشرت في سائر البلاد العربية. ووصلت إليّ أيضاً كتب كهذه، ولو أنها مبهمة غامضة، من الشريف حسين الذي كانت المكاتبات دائرة بيني وبينه.

وإذ كنت أعرف أن خير الوسائل لعدم إثارة حفيظة العرب هو اجتناب الاستيلاء على شيء ما من منتوجاتهم ودفع ثمن كل ما نحتاجه نقداً[٥]، كان أول ما أصدرته من الأوامر عند وصولي هو ألاّ يؤخذ شيء مطلقاً من أهالي سوريا وفلسطين والقاطنين في منطقة عمليات الجيش الرابع، وأن يكون دفع الثمن فوراً عن كل شيء أياً كان، سواء أكان طعاماً أو متاعاً أو ثياباً. ولما لم يكن من العدالة أو المساواة في شيء أن نتمسك بأن يدفع ثمن كل شيء فوراً في سوريا وفلسطين بينما سائر الجهات الأخرى في الإمبراطورية تؤخذ منها هذه الأشياء أخذاً، كتبت إلى الحكومة أوصيها بتعميم الطريقة المتبعة في سوريا وفلسطين.

ثم ركنت إلى حزب الإصلاح[٦] ووضعت ثقة كبرى برجاله، بل إنني لم أتردد في الذهاب لرؤية تظاهرة وطنية قرب رأس بعلبك، وهي محطة نائية منعزلة، مع أنني لم أكن مصطحباً إلا حارسي الخاص وخلوصي بك والي سوريا. وقد كان ضرورياً الاشتراك في ذلك الاحتفال لأظهر مقدار ما أودعته من الثقة في عبد الكريم الخليل (منظم تلك الحفلة) لتعزيز مركزه في أعين شيعته. والواقع أني كنت فيما فعلت وأينما ذهبت في ولايتي بيروت وسوريا مصحوباً بالمصلحين[٧]، حتى حان الوقت للذهاب إلى شبه جزيرة سيناء للإشراف على الأعمال الحربية ضد القناة.

غير أنه راجت في ذلك الوقت في بيروت وسوريا إشاعة فحواها أن مسيحيي لبنان وطدوا العزم على الجنوح إلى الثورة في القريب العاجل، فأشار عليّ البعض بتعطيل جميع الحقوق التي يتمتع بها الجبليون وإصدار منشور بأن يسلم الأهالي سلاحهم إلى الحكومة. وقد قيل إن في الجبل ما لا يقل عن ٥٠٠٠٠ بندقية من البنادق الحديثة، ولكني ضربت بتلك الإشاعات عُرض الحائط.

وقد كان محتماً أن يؤدي ذلك العمل الذي أشاروا عليّ بالقيام به إلى إثارة شكوك الأهالي المسيحيين في سوريا وفلسطين ودفعهم إلى العصيان حتى لو لم تكن نيتهم متجهة إلى التمرد من قبل. وكنت موقناً أن الشخص الذي يأخذ على عاتقه عبء تجريدهم من السلاح لا بد من أن ينتج عمله هذا مهما كانت حيثيته بضعة حوادث غير قانونية، وهذا يؤدي إلى إزعاج كثير من الأبرياء بلا مسوّغ. فأصحاب الأملاك من اللبنانيين لا بد من أن يصيبهم ضرر مادي كبير جراء تفتيش المنازل.

فأصدرت بناءً على ذلك منشوراً إلى أهالي لبنان أكدت لهم أن جميع امتيازاتهم القديمة ستظل محترمة وأن يد الأذى لن تصل إليهم، فزارني وفد[٨] من ثلاثة أساقفة يمثل بطريرك الطائفة المارونية البطريرك الياس الحويك يخبرني أن منشوري «بعث روح الطمأنينة في نفوس الطائفة المذكورة وأنهم لن ينسوا لي هذا الجميل مطلقاً، وأنني يمكنني أن أركن إليهم وألا أتوقع منهم في المستقبل سوى الإخلاص والولاء التام»، ثم قدموا لي خطاباً بذلك المعنى بتوقيع البطريرك نفسه.

بيد أن بعض الموارنة والدروز في لبنان ممن عرفوا بصلاتهم بالفرنسيين والإنكليز حامت حولهم الشبهة القوية بالسعي سراً لخلق القلاقل والاضطرابات، فرأيت اتخاذ الحيطة اللازمة، فطلبت إليهم أن يقيموا في القدس[٩] طوال مدة الحملة على مصر، وتكفلت خزانة الجيش بدفع نفقاتهم، وتركت لهم الحرية التامة في السكنى حيثما شاؤوا في تلك المدينة.

أما بيان أسماء هؤلاء الأشخاص فسلم إليّ بواسطة موظفي الحكومة، ولكنه وضع بإيعاز من جماعة المصلحين في سوريا وبيروت وباستشارة بعض زعماء لبنان.

وقد تبين من التحقيقات السرية التي قمت بها أن أولئك السادة كانوا في الواقع محلاً للشبهة، ولا أراني الآن إلا قد أحسنت صنعاً في اختيارهم، ذلك لأنني قرأت اليوم أسماءهم في الصحف وتحققت أنهم هم أنفسهم الأشخاص الذين يبذلون وسعهم في بسط الحماية الفرنسية، وبهذا يطعنون الوحدة العربية طعنة نجلاء.

٢٠ ك ١ ١٩١٦

٩

صورة كتابة دولة متصرف لبنان :

نيافة السيد بطرس شبلي افندي مطران الطائفة المارونية في بيروت

وما يليها الجزيل الشرف والاحترام

امر صاحب الدولة جمال باشا قومندان الدونانمه والهمايوني الرابع ببرقيته المؤرخة ١٦ كانون اول ٣٣٢ ان ابلغ نيافتكم وجوب حضوركم الى الشام باول واسطة لمقابلته فاؤمل ان تسرعوا باجابة الدعوة وتفيدوني عن تاريخ سفركم واستمد صالح ادعيتكم افندم

١٧ كانون اول ٣٣٢

متصرف جبل لبنان

اوهانس .

صورة برقية الى دولة المشير :

دمشق

صاحب الدولة جمال باشا المعظم

نعرض تحية للامر الكريم نتشرف باقرب فرصة افندم

المطران بطرس
شبلي

أرسل أوهانس باشا متصرف جبل لبنان أكثر من ثلاث رسائل إلى غبطة البطريرك الياس الحويك يحذره من عمل أرعن قد يقوم به أحمد جمال باشا بحق بكركي وتجاهه شخصياً. فلذا لتلافي طيش وحماقة القائد التركي طلب منه أن يرسل مندوباً عنه إلى دمشق حيث مقر إقامة أحمد جمال باشا.



البطريرك الياس الحويك (١٨٤٣-١٩١٣) وسط مطارنة وكهنة
ويقف وراءه إلى اليسار المطران عبدالله الخوري

وُلد في قرية حلتا. ودرس في مدرسة مار يوحنا مارون في كفرحي ثم في مدرسة مار مارون في غزير سنة ١٨٦٦. سافر إلى روما حيث تابع دراسة اللاهوت في المدرسة الأوربانية. سيمَ كاهناً في ١٨٧٠/٦/٥. رجع إلى لبنان ودرّس اللاهوت في كفرحي. عُيّن أميناً لسر البطريركية المارونية.

سنة ١٨٩٩ في ١٤ كانون الأول رقاه البطريرك بولس مسعد إلى الرتبة الأسقفية. مطراناً على عرقة شرقاً ونائباً بطريركياً له. انكبّ على تجديد المدرسة المارونية في روما وإنشاء الوكالتين البطريركيتين في باريس والقدس. سنة ١٨٩٥ أسس جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونية. في ١٨٩٩/٦/١ انتخب بطريركاً للطائفة المارونية.

بعد دخول تركيا الحرب الكونية الأولى. ومجيء أحمد جمال باشا على رأس حملة عسكرية (الجيش الرابع) إلى بلاد الشام. متجاوزاً (بروتوكول ١٨٦٤) متصرفية جبل لبنان. حاول أن ينفي البطريرك إلى الخارج بذريعة التآمر على الدولة العلية واتصاله بدول معادية. إلا أن ضغوطاً أوروبية مشتركة حالت دون ذلك. وكان له مع البطريرك أربعة لقاءات.

سنة ١٩٢٠ ترأس البطريرك الحويك الوفد اللبناني الثاني إلى مؤتمر السلام في باريس. فأثمرت جهوده قيام لبنان الكبير بمسلميه ومسيحييه. رافضاً لبنان مسيحياً. متصدياً لمحاولات ضم أجزاء من لبنان إلى الإمارة الفيصلية في سوريا. بإرساله نائبه المطران عبدالله الخوري إلى باريس على رأس الوفد الثالث.

توفي البطريرك الحويك في ١٩٣١/١٢/٢٤ رحمه الله. لولاه لما كان لبنان «الكيان. الجغرافيا. الصيغة».

إليه وجّهت القيادة الفرنسية القابضة يومذاك كلامها بما يلتقي مع موقف الفاتيكان (إليك يا حضرة البطريرك أعطي مجد لبنان...) هو المؤسس (المصدر: الأب ابراهيم حرفوش. العناية الصمدانية. ط: «المرسلين اللبنانيين». إعادة طبع سنة ٢٠٠٢).

ولم يتردد السيد مورغنتو السفير الأميركي في كتابه الشهير الذي كال لي فيه القدح كيلاً في أن ينسب إليّ تهمة ارتكاب أعمال عنيفة غير قانونية عديدة في حق مسيحيي سوريا! وفي وسعي طبعاً أن أكتفي بالرد على مزاعم هذا الكاتب بقولي: «ليس ما تقوله يا سيدي من الحقيقة في شيء!». ولكني أستحسن أن أذكّره ببعض الحقائق المرتبة حسب تواريخها فأقول:

لدى وصولي إلى القدس في يوم ٣ أو ٤ يناير/كانون الثاني ١٩١٥ لفت قناصل حلفائنا والقناصل المحايدون انتباهي إلى كراسة معينة أخبروني أن ما جاء فيها قد أحدث هياجاً كبيراً بين الأهالي المسلمين وأن كل إنسان أخذ يتوقع مذبحة ضد المسيحيين في أي لحظة. فقرأت الكراسة المشار إليها فإذا بها تفسير لمعنى الجهاد وأنها تناشد المسلمين واجبهم المقدس وهو إعلان الحرب الدينية على المسيحيين. وقد كانت مكتوبة بعبارة مبتذلة يسهل بها التغرير بالبسطاء. فعمدت إلى إزالة الأثر السيئ الذي أحدثته. فأصدرت منشوراً مطولاً إلى أهالي سوريا. وقد وزّع حتى بين سكان الأكواخ الصغيرة وعلّق على الجدران في كل جهة. وهاك ملخصه:

> *«إن الحرب الدينية إنما أعلنها خليفة المسلمين ضد الإنكليز والفرنسيين والروس فحسب لأنهم أعداء الملة. فالحرب لا علاقة لها إلا بأولئك الذين يشهرون السلاح في وجوهنا. إذاً فكل من تحدثه نفسه بالإساءة إلى مواطنينا الكتابيين الذين تربطنا وإياهم رابطتا الوطن المشترك والمصالح المشتركة يعاقب عقاباً صارماً».*

وإلى هذه الكراسة أشار السياسي الروسي ماندلستام بتطويل في صفحة ٣٧٠ من كتابه المسمى «مصير الإمبراطورية العثمانية»(١٠). فهل لي أن أسأل ذلك الكاتب لماذا لم يُعْنَ بترجمة منشوري أيضاً؟ وفي وسعي أن أؤكد لهذين الكاتبين مورغنتو وماندلستام أني لو كنت في أي وقت من أوقات الحرب أردت القيام بذبح المسيحيين بأيدي المسلمين لما كلفني ذلك كثيراً من العناء والجهود. فبقاء المسيحيين واليهود طوال مدة الحرب غير مهددين بصفة ما من المسلمين أو من الدروز إنما يرجع الفضل فيه إلى مجهوداتي وحدها وإلى الوسائل الاحتياطية التي اتخذتها.

فليدّعِ ماندلستام ما يشاء في كتابه الخبيث من أن المسيحيين إنما لم يذبحوا لمجرد أن الأكراد كانوا غائبين عن الديار ومشغولين بمقاتلة الأرمن ولكني على يقين من أنه لا يعتقد صحة دعواه هذه. فلو أنني حقاً ألقيت مرة في روع البدو أو السوريين، وأن الوقت صالح والفرصة حاضرة لسلب مسيحيي لبنان الأغنياء وتجريدهم من أمتعتهم لما كان ثمة معنى للإجراءات التي اهتممت باتخاذها.

لا. لا أيها الكاتبان! وإني لأعلن مرة أخرى أنكما بزعمكما في كتابيكما أنني غضضت الطرف عمداً عن قتل مسيحيي سوريا إنما تقرران ما هو محض افتراء. ولا بد من أن يأتي يوم يقوم رجال أشراف في أميركا وفي فرنسا وفي إنكلترا لإعلان الحقيقة وتعزيزها بإمضاءاتهم. فهل تحمرّ وقتئذٍ وجوهكم خجلاً؟ إني أشك في ذلك!.

ولم يقع بعد عودتي من حملة القناة الأولى ما يزعزع ثقتي بالمصلحين. وكانت خطتي معهم خطة الصراحة. حتى إنني طلبت إلى عبد الكريم الخليل والدكتور عبد الرحمن شهبندر أن يزورا الجنود الأتراك

والعرب العائدين من القناة ليشهدا بنفسيهما حسن حالتهم المعنوية. فدعوتهما إلى القدس وهناك أعطيتهما المال الكافي لنفقات السفر، ثم أرسلتهما إلى الجنود. فظلاّ مع الجيش ثلاثة أسابيع من دون أن يقوما بتفتيشٍ ما. وعند عودتهما أطنبا في مدح نظام الجيش ونظام تموينه.

وفي مايو/أيار ١٩١٥ قرأت في الصحف المصرية حملات عنيفة من الجمعية اللامركزية على الحكومة العثمانية. فلم أجد مبرراً ما لتلك الحملة السافلة.

فسألت ذات يوم عبد الكريم الخليل إذا كان يعرف السر في ولاء المصلحين في سوريا وبيروت. في حين أن رفيق العظم وغيره من الذين يدّعون أنهم زعماء يختلقون على تركيا الاختلاقات السافلة. فحاول مع شيء من الاضطراب أن يرد على سؤالي ولكنه لم يمكنه ذلك لأن سؤالي كان مفحماً.



رفيق بك العظم

ثم زارني بعد بضعة أيام وقال لي إنه مستعد للذهاب إلى مصر - إذا رغبت في ذلك - ليشرح لزعماء الجمعية اللامركزية السياسة التي أتبعها في سوريا، وأكد لي أنه سيواصل السعي لحملهم على تغيير خطتهم. وكانت سوريا إذ ذاك على أسوأ حالة وأشدها خطراً، فقد نزل الإنكليز والفرنسيون إلى الدردنيل وشنّوا هجماتهم العنيفة كل يوم.





أنزال قوات إنكليزية وفرنسية على سواحل جزر الدردنيل



استحكامات القوات الإنكليزية في روابي غاليبولي

وتلبيةً لرغبة القيادة العليا أرسلت إلى استانبول الفرق الثامنة والعاشرة والخامسة والعشرين التي كانت في سوريا، ولحقت بها فيما بعد كل فصائل الرشاشات، أي إنني أرسلت كل الرجال والمهمات التي تطلّبها الدفاع عن الدردنيل. وكان متعيناً عليّ أن أحافظ على النظام الداخلي في تلك المنطقة الممتدة من جبال طوروس إلى المدينة المنورة وأحول دون إنزال أي جندي معادٍ. كل ذلك ولم يكن لديّ سوى فرقة أو اثنتين من العرب وكتيبة من متطوعي المولوية الدراويش. فلو نشبت وقتئذٍ ثورة في جهة من الجهات بفعل الدسائس الأجنبية لما كانت ثمة وسيلة لقمعها، ولفقدت الحكومة العثمانية سائر ولاياتها العربية. فلو ضمن الإنكليز أو الفرنسيون مساعدة الأهالي وأنزلوا فرقتين في أي نقطة على الساحل السوري مثلاً في بيروت أو في حيفا، لوجدنا أنفسنا بلا جدال في موقف اليأس التام. ولكن مراعاةً للثقة العظمى التي وضعتها في الأهالي لم أتردد في أن أنيط بالجنود العرب سلامة البلاد وأترك المناطق الساحلية بلا مراقبة. وإني لعلى يقين أن الإنكليز لو داخلهم أقل ارتياب في ولاء أهالي سوريا وفلسطين لما ترددوا لحظة في إنزال جنودهم، ولم تكن بدأت بعد أعمال الخيانة من الشريف حسين، كما أنني ما كنت أعرف شيئاً عنها.

وبرغم الثقة السطحية التي وضعتها بعبد الكريم الخليل كنت موقناً أن الرجل ممن يسهل شراء ذمتهم بالمال، لذا رابني اقتراحه الذهاب إلى مصر، فإن إيطاليا كانت قد أعلنت وقتذاك الحرب علينا فانقطعت آخر صلة بين الشاطئ السوري والعالم الخارجي، ولم أخفِ عليه ارتيابي من اقتراحه فسألته كيف تستطيع إذاً الوصول إلى مصر. فأجابني قائلاً: «سأجد وسيلة للوصول إلى هناك». فلما أجابني بهذا قوي شكّي حتى اليقين ولكني لم أتظاهر بشيء.



طليعة الكتيبة المولوية المتطوعة



وحضر إليّ في أواخر يونيو/حزيران الشيخ أسعد شقيري مفتي الجيش وأخبرني أن الثورة قد بدأت علاماتها في سوريا. ثم قال إن في استطاعة كامل بك الأسعد مبعوث بيروت القاطن في إحدى قرى قضاء صيدا إعطائي المعلومات المفصّلة عنها. فأبرقت في الحال إلى كامل بك هذا فحضر إلى القدس بعد يومين ومعه شخص آخر.

وإليك ما قاله: «أفندم! إن سعادتكم وضعتم ثقة كبرى بجماعة المصلحين وخولتموهم حرية مطلقة في طول البلاد وعرضها. ولكني أخشى أن يكونوا أساؤوا استعمال تلك الثقة. ففي هذه اللحظة ينظم رضا بك الصلح مبعوث بيروت الأسبق وعبد الكريم الخليل ثورة في جهتي صور وصيدا. ولو عنيتم سعادتكم بتحقيق ذلك لتبيّنت لكم صحة أقوالي».



رضا بك الصلح



كامل بك الأسعد (١٨٧٠-١٩٢٦)

زعيم إقطاعي محلي في منطقة جبل عامل شمال فلسطين. عضو مجلس المبعوثان لثلاث دورات متتالية عن ولاية بيروت (١٩٠٨-١٩١٤) أنشأ بالاشتراك مع الشيخ عبد الحميد الزهراوي جريدة «الادارة» سنة ١٩١٢. كانت علاقته بالعثمانيين جيدة، وكذلك بالفرنسيين فيما بعد (أخباره مفصّلة في مذكرات عزيز بك الجزء السادس من السلسلة).
سنة ١٩٢٠ اختير عضواً في الوفد اللبناني الثالث برئاسة المطران عبدالله الخوري إلى مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس عقب نهاية الحرب الكونية الأولى (حفيده رئيس مجلس النواب اللبناني الأسبق يحمل الاسم نفسه).

وكانت في أخلاق العرب نقطة ضعف كبرى، إذ لا يكاد أحدهم يصبح ذا حظوة أو يكون مقدّماً على غيره حتى تشتعل نار الغيرة في صدور الآخرين فيعمدون إلى أعمال الإثارة ضده. بيد أنني لم أستطع عزو مثل تلك البواعث إلى التصريحات التي فاه بها كامل الأسعد، ذلك لأني لم أعامله مطلقاً معاملة أقل من مرتبة عبد الكريم الخليل، فلم تكن له إذاً مصلحة شخصية في تدبير الدسائس له. أما رضا بك الصلح فكنت على العكس أظنه دسّاساً دنيئاً، ولذا كنت أرفض مقابلته.

وبعد سؤال كامل الأسعد عما يراه خير وسيلة للشروع في التحقيق أصدرت التعليمات اللازمة، وظل التحقيق أسبوعين ثم أسفر عن إدانة كل من رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل اللذين كانا في الواقع منهمكين في إثارة القلاقل والاضطرابات في جهتي صور وصيدا، فأمرت بالقبض عليهما وعلى شركائهما فوراً لأن الإبطاء في هذه الظروف ربما جرّ إلى أخطار عظيمة.

ولعمري لقد اختار المتآمرون أخصب بقعة لبذر بذورهم الشيطانية لأن الرقابة كانت أقل منها في أي جهة من جهات الشاطئ، فلم تكن بها إلا شرذمة صغيرة من رجال الجندرمة.

ولما لم يكن طريق الساحل بين بيروت وسوريا معبداً ولا مطروقاً لم يعتد الضباط ولا موظفو الإدارة زيارة تلك المنطقة، وكذلك أنا لم يخطر لي مطلقاً السفر إلى تلك الجهة، ولهذا كان في وسع الثوار أن

يعملوا ما شاؤوا في مأمن تام من المباغتات. حتى إذا وفّقوا في تهيئة الرأي العام وتسميمه التجأوا إلى قوات العدو الذي كان في استطاعته إنزال عدد من جنوده في جنح الظلام لاحتلال المنطقة الجبلية في الداخل وتحصينها تحصيناً قوياً ضد الهجمات من الشمال أو الغرب.

وفيما عبد الكريم الخليل ورضا بك الصلح منهمكان في إثارة القلاقل قامت سفن العدو المكلفة مراقبة الشاطئ بمحاولات مهمة عدة. فلقد أنزل من وقت إلى آخر، ولغير سبب ظاهر، عدداً من رجال تلك السفن لتحطيم خطوط التلغرافات، ولكن رجال الجندرمة ردّوهم على أعقابهم خاسرين في كل مرة. فاكتشاف أعمال الخيانة هذه فضح لنا نيات العدو، ومذ ذاك الحين فصاعداً أيقنت أن من الحمق الثقة بأولئك المصلحين، فصممت على اتخاذ الإجراءات الشديدة ضد كل خائن.

وفي ذلك الوقت أيضاً عثر موظفو قلم الاستعلامات على الوثيقة الآتية، وإني لأنشرها هنا لأهميتها العظيمة:

نشرة رقم ٤٠٣

القاهرة في ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٢هـ (أوائل آب/أغسطس ١٩١٤)

إلى السيد الجليل المبجل سعيد أفندي شكري

تحية وسلاماً وبعد، ففي هذه الساعة الخطيرة التي تدور فيها رحى الحرب العظمى بمنتهى الشدة ينتظر الوطن المقدس من أبنائه بذل ضحايا أكبر مما بذل في الماضي. إن الحرب العالمية قد تطير شرارة منها إلى الشرق فتصبح بلادنا شعلة من نار فتحرق البريء والمذنب، لا فرق بين العرب والأتراك. فمما لا ريب فيه أن الحكومة - على العكس من المتوقع - لو اشتركت في الصراع العام لن تخرج منها إلا مخضودة الشوكة مما يقرب أجلها. فلو ختمت الحرب بانتصار الحلفاء فإن هذه النهاية تصبح ولا مفر منها، وبذلك يسهل حل المسألة الشرقية بواسطة روسيا، وإذ ذاك تصبح الأراضي العربية عرضة لنفس الأخطار التي تهدد الأراضي التركية. وبما أن الأتراك سوف يبذلون قصارى جهدهم ويستخدمون كل مواردهم الدفاعية للذود عن إمبراطوريتهم وممتلكاتهم، فإن الخطر الذي يهدد العرب سيكون أعظم والبلية أشد. وهذا هو المنتظر فعلاً. إذاً فمن المهم أن يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد.

إن جمعيتنا التي لديها هيئة خاصة، والتي تتألف من نفر اشتهروا بالوطنية وعرفوا بالتضحية، ترى أن واجبها المقدس يقضي باتخاذ الوسائل المجدية في الحال لصون الوطن وأبنائه. فلهذا السبب نرجو الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أولاً: كم لديكم من القوات التي يمكنكم - إذا دعت الضرورة - بدء التمرد العام بها؟

ثانياً: أفي استطاعتكم إمدادنا بالأموال أو جمع الاكتتابات التي يمكنكم شخصياً استعمالها عند الضرورة؟ وكم عدد الأموال الممكن جمعها؟

ثالثاً: أمن المستطاع إيجاد ملجأ حصين لأعواننا السريين الذين يناط بهم البدء في التمرد والذين سنساعدهم بكل ما لدينا من الوسائل؟

رابعاً: أمن الممكن إرسال رجل ثقة إلينا يمثل حزبكم للذهاب إلى جهة معينة لانتظار تعليماتنا؟

خامساً: وإذا لم تجدوا ذلك الثقة لإرساله إلينا أفترون من اللازم أن نبعث إليكم بمن يبلغكم تعليماتنا؟

فالمرجو الإجابة عن هذه الأسئلة تفصيلاً. إن كل دقيقة تضيع سُدىً معناها فقد روح عربية. فبدارِ بدارِ لقد حان وقت التضحية الشخصية من أجل الواجب والوطن!

والسلام الإمضاء

ملحوظة: سيكون التوقيع الذي بعاليه هو توقيعنا في كل الرسائل المقبلة، ولكن أرجو وقت الإجابة أن تلاحظوا كتابة اسمي مع العنوان. ويجب وضع الظرف داخل ظرف آخر بهذا العنوان:

القاهرة - شارع الدواوين - الشيخ حقي خلف - ناظر جامع هانم الشامية

(مقابل سرايا المرحوم شريف باشا)

ويجب تسليم الخطاب إلى رجل ثقة، وهذا يسلمه بيده إلى أي مكتب بريد أجنبي على الساحل. فإن استحال ذلك فليس ثمة ضرر إذا أرسلتم الخطاب بواسطة البريد المحلي.

وما كدت آتي على آخر ذلك الخطاب حتى وضحت لي حقيقة الموقف. فقد قام الدليل على أن الثوار العرب لم يعدلوا بحال ما عن فكرة الثورة في سوريا وفلسطين. بيد أن الشيء الوحيد الذي أعياني فهمه هو ما حدا بعبد الكريم الخليل وآخرين إلى إظهار ذلك الولاء كله للحكومة(١١) منذ نشوب الحرب. وخصوصاً أن الجمعية اللامركزية في مصر التي كانوا هم ممثليها جعلت لنفسها زعامة الثورة. والحق أنني لم أوفق لحل ذلك اللغز لا في ذلك الوقت ولا بعد تمرد الشريف حسين. بل ولا بعد ضياع سوريا وفلسطين ولا بعد هزيمة جيشنا المجيد.

وبعدما شرعت في كتابة هذه المذكرات بأشهر قليلة فتحت بعض المقالات السياسية التي نشرت في جريدة الطان(١٢) عينيّ على حقيقة نياتهم الخفية وأغراضهم التي كانت مستترة.

ففي يونيو/حزيران ١٩١٥ بدأ عبد الكريم الخليل أعماله في التمهيد للثورة. وفي هذا الوقت أيضاً تبودلت الرسائل بين الإنكليز وبين الشريف حسين. وإني أثبت مقالة الجريدة التي نشرتها في تاريخ ١٨ سبتمبر/أيلول ١٩١٩ لعظم أهميتها(١٣):

هوامش الفصل الأول:

(١) ولهذا الغرض تألّفت هيئة المحكمة-الديوان العرفي المُنشَأ في عاليه التي كانت خاضعة لمعايير ومزاجية أحمد جمال باشا، وكانت تتغير تركيبتها حسب ائتمار الهيئة بأمره. قد يزاد عددها مرة وقد ينقص وقد يحذف منها... تألفت من:
- الأميرالاي (الزعيم) تحسين باشا رئيساً للمحكمة (أبدل تحسين بك بآخر).
- صلاح الدين أفندي ضابط التحقيق.
- القائمقام شكري بك القاضي.
- محيي الدين علم الدين كاتب.
وكان للهيئة تمام الصلاحيات في استخدام كل الوسائل لاستخراج المعلومات من الشخص المحقّق معه وفي تغيير الادلة والمعطيات والاستنتاجات والتحقيقات (تلفيق/افتراء).
هيئة التحقيق:
- كامل بك الهاشم بكباشي (رائد) متقاعد، دمشقي، رئيساً
- داود آفندي الموصلي، مستنطقاً
- الحاج عارف الحمصي، عضواً
- حسني الدمشقي، عضواً
- محيي الدين علم الدين، كاتب
هيئة المحكمة العسكرية:
- القائمقام أدهم بك، رئيساً
- البكباشي فتحي بك، عضواً
- اليوزباشي كمال بك، عضواً
- اليوزباشي كامل بك البغدادي، عضواً
- الملازم عبدالله الموصلي، عضواً
- صالح بك عبد العال، مدعي عام
في مرحلة لاحقة عزل رئيس المحكمة أدهم بك وعين مكانه فخر الدين بك ومدع عام جديد مرتضى بك.

(٢) جرابلس: بلدة سورية، الآن مركز قضاء بمحافظة حلب. قديماً كانت تسمى كركميش. موقع آثوري مهم قضى عليه البابليون عام ٦١٢ق.م. (المنجد، طبعة ٣٧، سنة ١٩٩٨).

(٣) الأمير يحيى الأطرش (..... - ١٩١٥): على الرغم من تبدّل قادة وإقالة صدور عظام وغياب سلاطين، واندثار إمبراطوريات اندرست آثارها، إنما جبل العرب «حوران» وعاصمته السويداء لم يتغير ولم تندثر أخباره وأخبار قادته. ما زال شامخاً بهاماتهم وبهضابه. حتى الآن تتناقل الأجيال حكايا الفروسية والمروءة والشجاعة عن آل الأطرش الأبطال كابراً عن كابر مثل يحيى الأطرش وسلطان ذوقان الأطرش. فهما من الهامات التي لا تنساها الأجيال لفروسيتها وشهامتها ونخوتها. هذه مناقب رجال ندرت أندادهم في وقتنا هذا. حياة هؤلاء أمثولة للأجيال الحالية ليتعلموا منها.
الأمير يحيى لم يبدل مواقفه ولا معتقداته رغم المغريات. نشأ في بيت أبطال ناوأوا الظلم وحافظوا على ما عاهدوا عليه. حارب قطّاع الطرق واللصوص، قاوم القريب الجائر وأجار الغريب اللاجئ الملهوف. قومه تصدوا لجحافل السلطة العثمانية التي لم يحفظ كبار قادتها عهودهم (الجنرال سامي باشا الفاروقي) (محمد كرد علي، خطط الشام، ج٣، ص١١٥).

(٤) خديعة قام بها أحمد جمال باشا، بأن أظهر للمتنورين العرب والمصلحين منهم وجه العطف والتأييد لطروحهم، فوثقوا بعهوده واطمأنوا لوعوده، ما مكّنه من التعرف إلى وجوه جديدة ونياتهم. بعد فترة ينقض عليهم ويشنق قسماً كبيراً منهم.

(٥) الأجزاء الباقية من المجموعة فيها إجابة حقيقية عن النهب والسلب وأساليب السرقة التي كان يقوم بها جنود أحمد جمال باشا في الأسواق، خصوصاً مذكرات عزيز بك.

(٦) حزب الإصلاح: راجع الجمعية الإصلاحية في بيروت.

(٧) المصلحين هم عبد الرحمن الشهبندر وعبد الكريم الخليل والشيخ مصطفى الغلاييني وعبد الغني العريسي ومحمد كرد علي والأمير شكيب أرسلان وغيرهم كثر.

(٨) بعد إلحاح وتهديد من قبل جمال باشا للمطران بطرس شبلي بضرورة حضور البطريرك أو إرسال مندوب عنه لمقابلة أوهانس باشا، حذر يوسف الحكيم البطريريك وسكرتيره والمطارنة من خطورة الوضع وشرح له عن رعونة وغطرسة أحمد جمال باشا. ما حدا بالبطريرك إلى إرسال وفد يمثله للقاء جمال في دمشق (وثائق بكركي-برقيات).

لقاءات البطريرك الياس الحويك بأحمد جمال باشا:

كل اللقاءات تمت بامر من القائد أحمد جمال باشا وبطلب منه.

اللقاء الأول في ١٩١٥/٧/٢١: تمّ اللقاء في صوفر (حيث جاء البطريرك من الديمان قاطعاً مسافة ١٥٠ كلم إقامته الصيفية) في فيلا ميشال بسترس في صوفر مقر إقامة أحمد جمال باشا، ودار الحديث حول أسباب محبة البطريرك لفرنسا، وأحوال أهل البلاد ووعود القائد بإرسال الحنطة كمساعدة. وبعد ١٠ أيام قام أحمد جمال بردّ الزيارة إلى الديمان وسط إكرام وترحيب مبالغ بهما. وسئل البطريرك من قبل مصاحب القائد السيد ميشيل سرسق إذا كان يحتاج إلى المال أو أي مطلب آخر، إلا أن خلق البطريرك تأبى أن يطلب المال، لكنه طلب النظر في وضع العجوز «مرل» أحد الآباء اليسوعيين والرأفة به بإعادته إلى ديره في غزير، وأيضاً بشأن راهبات المحبة لإرجاعهن إلى ديرهن في برمانا، ثم بخصوص المنفيين إلى القدس والشام ضرورة إعادتهم، أجابه أحمد جمال باشا متعجباً: ولكن هؤلاء ليسوا كلهم من قومك وطائفتك (بينهم الدرزي والأرثوذكسي والمسلم). فقال له صحيح، هذا الأمر ليس فيه طائفية إنما هؤلاء كلهم من لبنان، فليس جميلاً أن يعود البعض ويبقى البعض الآخر منفياً، فأصدر القائد أحمد جمال باشا في الحال أمراً بعودتهم.

اللقاء الثاني في ١٩١٦/٥/٤: تم في سراي بيروت حيث جاء البطريرك من الديمان، وقبل وصوله إلى بيروت عرّج على بكركي لأمر، ثم تابع إلى اللقاء الذي استهله أحمد جمال باشا بسؤال يقض مضجعه حول موقف اللبنانيين من الدولة الفرنسية والدولة العلية، وعاد غبطته إلى بكركي تمام التاسعة صباحاً مع وعود من الباشا بإرسال ٣٠ طن حنطة لتوزيعها على الجياع، وصل منها ١٠ فقط. ثم عند الساعة الحادية عشرة أي بعد ساعتين يصل القائد مع حاشيته لرد الزيارة لغبطته في مدرسة الحكمة، بعد هذا اللقاء جرى القبض على الشابين الشقيقين الشيخ فيليب الخازن والشيخ فريد الخازن ولدي الشيخ قعدان الخازن بتهمة التحريض على الدولة العلية والترويج لفرنسا (أسهل تهمة يمكن تلفيقها بحق المواطنين اللبنانيين المتنورين المثقفين)، والبطريرك الياس الحويك بذل جهوداً وتوسلات لإطلاقهما وإنقاذهما من حكم الإعدام أو تخفيف الحكم وإبداله، إلا أن غيّ أحمد جمال باشا وجبروته كان أقوى، فأعدما في ٦ /١٩١٦/٦.

اللقاء الثالث في ٧/٢٥ /١٩١٧: تم في بحمدون، إلا أن جمال بعد الاستقبال مباشرة اعتذر من البطريرك لأمور عاجلة تضطره للسفر إلى دمشق، وكان مسبقاً قد أمر بتجهيز بيت لإقامة البطريرك فيه مع مرافقيه قرب سكة الحديد ريثما يعود ويستكملان مواضيع اللقاء، إلا أن عائلة «فيليب تابت» أبت أن ينزل بطريركها في بيت غير بيتها راجية أحمد جمال باشا أن يسمح لها باستضافة غبطته، وفي ١٤ آب/أغسطس سمح القائد للبطريرك بمغادرة صوفر والنزول في مقر مطرانية أبرشية قبرص المارونية في قرنة شهوان وليس إلى بكركي بعد سعي من مرافقي البطريرك المطرانين بولس عواد وعبدالله خوري، بقي في قرنة شهوان كل مدة غياب أحمد جمال باشا عن لبنان وسفره إلى المانيا واستانبول. في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر زاره متصرف جبل لبنان اسماعيل حقي بك، في اليوم التالي ١٨ تشرين الأول/أكتوبر غادر غبطته قرنة شهوان إلى بعبدا لزيارة المتصرف، بعدها قفل عائداً إلى جونيه فبكركي على صوت قرع الأجراس المرحبة بعودته.

اللقاء الرابع ١٩١٧/١٢/٣: تم في بيروت بطلب مباشر من القائد الذي وجد لدى البطريرك أثناء لقائه به الاهتمام والأذن الصاغية، وقد أباح لنفسه أن يضعه في آخر أخبار الجبهات ومعاناة الجيش العثماني ومشاكله، وبدا متبرماً من القادة العسكريين الألمان الذين أُعطوا صلاحيات واسعة انتقصت من صلاحيات القادة الأتراك. بعد ساعات قليلة يعود القائد لرد الزيارة لغبطته في مدرسة الحكمة ليطلب منه أن ينشر بين أهل الجبل أن العثمانيين لم يخوضوا الحرب إلا للتخلص من نير الأجنبي، وقد بينت لهم الايام ان النير الفرنسي والانكليزي هما أخف جداً من النير الالماني، الا ان البطريرك كان قد غادر إلى بكركي.

اللقاء الخامس: (المعلومات من جريدة الشرق العدد التاسع لشهر كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧)، ومضمونها أن جمال دعا الرؤساء الروحيين إلى تناول العشاء على مائدته بما فيهم البطريرك الذي اعتذر (المصدر: كتاب الأب ابراهيم حرفوش المرسل اللبناني، من صفحة ٥٤٣ إلى ٥٧٦، «دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلّي منار الطائفة المارونية»، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه، الطبعة الأولى ١٩٣٤).

(٩) راجع هامش اليد الحديدية (الفصل الرابع، القسم الثاني) فيه الأسماء. إلا أن معظم الأسماء وُشي بها كيداً من قبل لبنانيين مقربين من أنور وجمال بسبب التنافس على المناصب. وأنسب تهمة يمكن للمخبر أو الواشي استعمالها هي محبة فرنسا أو الاتصال بها.

(١٠) من يقرأ كتاب أسعد مفلح داغر الجزء الثالث من المجموعة ومذكرات عزيز بك سيجد تصويباً للحقائق، وكتاب ماندلستام للسكرتير الأول في السفارة الروسية في استانبول إبان الحرب الكونية الأولى، الجزء الحادي عشر في المجموعة، فيه صورة عن واقع العلاقات الثنائية الروسية-العثمانية ورؤيته للقضايا السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية داخل تركيا وولاياتها الأوروبية-الآسيوية، وحوادث ١٨٤٢ و١٨٦١ تبيّن كم وكيف كان دور الولاة العثمانيين في إثارة الفتن لتجديد مفعول إمساكهم بالأمور الداخلية اللبنانية وتشديدها.

(١١) مما كتبوه في الصحافة والملصقات ومما تفوّهوا به في اجتماعاتهم وندواتهم، يتبيّن أن المصلحين العرب في فلسطين وسوريا ولبنان دعاة إصلاح الإدارة المحلية وطلاب اللامركزية الإدارية والاستمرار في العيش تحت ظل الخلافة الإسلامية العثمانية سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وفيهم المسيحيون والمسلمون والأرمن كذلك، كانوا طلاب عدالة ومساواة فقط، قبل مجيء جمعية الاتحاد والترقي، ومع نجاح الجمعية تحت شعارات المساواة والأخوة والعدالة، ظن المصلحون العرب أن الخلاص على يد هذه الجمعية قد أتى، فأظهروا الولاء للحكومة والجمعية القابضة كل الولاء وللعثمانية كل الانتماء. إنما تلطي جمعية الاتحاد والترقي وراء الشعارات والممارسة المعاكسة النافية لمضمون الشعارات حدا بالمصلحين بعد عناء وصبر أن يتحولوا ثواراً رافضين الأخوة مع الإذلال والعجرفة التي مثّلها أبشع تمثيل أحمد جمال باشا. وهذا التلوّن عند جمعية الاتحاد والترقي وعدم وضع الشعارات موضع التطبيق وإحلال الطورانية والتتريك مكان المساواة والأخوة والحرية والعدالة هو ما لم يفهمه جمال وعصابته، أو الحق هم كانوا يعرفون وظنوا أن التخوين والإعدام قد يليّن عزيمة العرب وإلا لما اتجه بعضهم إلى الغرب. وأكثر المصلحين لم يلجأوا إلى الغرب لإنقاذ بلادهم، فمن اتصل بالغرب وكان على علاقة تجارية مالية اقتصادية مع الوكالة اليهودية هم أصبحوا رؤساء البلاد فيما بعد، وكل الذين أعدموا كانت علاقتهم بالدولة العلية أقوى ولم تك لهم علاقة لا بالإنكليزي ولا بالفرنسي، ولم تك لديهم أراض في فلسطين موارية عن الوكالة اليهودية (س. ب. ص. س).

(١٢) الطان Le Temps (الزمان): أول صدور لها كان عام ١٨٦١ في باريس، كانت مؤيدة للجمهورية الثالثة، شبه رسمية، صبّت اهتمامها على مصالح فرنسا ما وراء البحار والشؤون السياسية الدولية. تعاطفت مع المسيحيين الموارنة وحضّتهم على قيام دولة لبنان الكبير، حرر فيها شارل دباس، شكري غانم، خيرالله خيرالله، خليل زينية وسعيد عقل. وكلمة «الطان» هكذا كان شائعاً استعمالها ومتداولاً في الادبيات العربية والعثمانية.

(١٣) في الأصل العثماني للمذكرات الصادرة عن مطبعة طنين عام ١٩٢٢ في مدينة استانبول النسخة التي بين ايدينا، هكذا وردت نقطتان فوقيتان (:) ولم نجد بعد النقطتين أي كلام يستشهد به لأي مقالة أو أي كتابة أو ما يشير إلى ما ورد في جريدة Le temps فتركناها بيضاء كما هي.

الفصل الثاني

العرب ودول الحلفاء

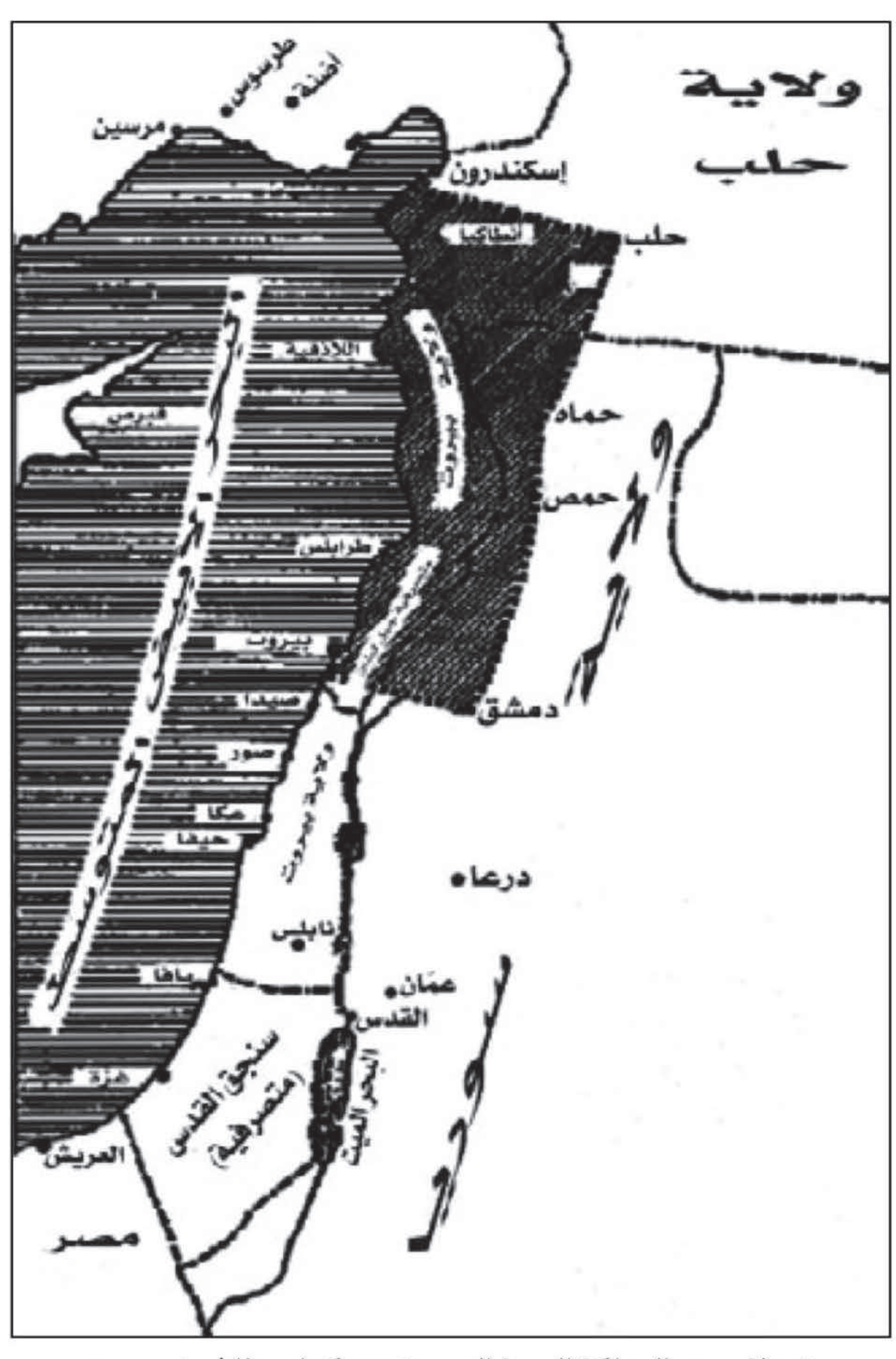
نرى أنفسنا اليوم في مركز يسمح لنا بذكر معلومات جديدة عن المفاوضات التي دارت خلال الحرب بين السلطات البريطانية وملك الحجاز - أبي الأمير فيصل - الذي يستخدم نفوذه الآن في سوريا.

أما تبادل الآراء بين الحكومة البريطانية وحسين شريف مكة - ملك الحجاز الآن - في صدد الشروط الجغرافية للصلح في شرقي البحر المتوسط فتتضمنها ثمانية خطابات تبودلت فيما بين يوليو/تموز ١٩١٥ ويناير/كانون الثاني ١٩١٦.



تتويج الحسين ملكاً عربياً

فالأول، في يوليو/تموز ١٩١٥ وفيه وعد الشريف بتقديم المساعدة الحربية إلى الحكومة الإنكليزية في مقابل وعد باستقلال بلاد العرب، بحيث تضم منطقتي مرسين وأضنة شمالاً وتمتد من خط العرض الرقم ٣٧ إلى الحدود الإيرانية، أما الحد الشرقي فيبدأ بالحدود الإيرانية وينتهي في خليج البصرة، ويكون المحيط الهندي مع استثناء عدن حدها الجنوبي، ويكون البحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسين الحد الغربي للمملكة.



خريطة وحدود المملكة العربية الموعودة من مكماهون للشريف حسين

والثاني، بتاريخ ٣٠ أغسطس/آب ١٩١٥ وفيه أجاب السير هنري مكماهون[١] المندوب السامي البريطاني في مصر جواباً غير شافٍ قائلاً: إن وقت تقرير الحدود لم يحن بعد.

والثالث، بتاريخ ٩ سبتمبر/أيلول مرسل من السير هنري مكماهون في ١٨ أكتوبر/تشرين الأول إلى وزارة الخارجية، وفيه يقول إن الشريف يصر على مناقشة مسألة الحدود في الحال، وفي الوقت نفسه بعث السير هنري مكماهون إلى وزارة الخارجية بالتصريح الذي سلّمه إليه مندوب الشريف في مصر، وهو كما يأتي: إن احتلال الفرنسيين للمناطق العربية المحصنة في حلب وحماه وحمص ودمشق سيلقى مقاومة مسلحة من العرب، أما إذا استثنيت تلك المناطق وأدخلت بضعة تعديلات في الشمال العربي فإن العرب على استعداد لقبول الحدود التي اقترحها شريف مكة.



السير آرثر هنري مكماهون
(١٩٤٣/١٢/٢٩-١٨٦٢/١١/٢٨)

دبلوماسي بريطاني عمل مندوباً سامياً في مصر من عام ١٩١٥ حتى ١٩١٧ عمل في الهند أيضاً، كما ترأس إدارة مقاطعة بلوشستان مرتين. كانت له مراسلات مع الشريف حسين وأدار المفاوضات العربية-البريطانية بشأن مستقبل الولايات العربية العثمانية ومصيرها بعد زوال الحكم العثماني عنها واحتلالها من قبل الجيش الإنكليزي مع انتهاء الحرب. كانت له مساهمات في مسألة التيبت العالقة بين الصين والهند.

والرابع، وفيه أرسل السير هنري مكماهون بناءً على تعليمات حكومته إلى الشريف الخطاب التالي في ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٥: إن منطقتي مرسين والإسكندرونة والأراضي السورية في غربي دمشق وحماه وحمص وحلب لا يمكن بحال ما اعتبارها عربية محض، لذا يجب إخراجها من تسوية الحدود التي يدور البحث حولها الآن. فمع هذا الاستثناء ومن دون التعهد بالاتفاقات التي عقدناها مع زعماء العرب نقبل الحدود المقترحة، أما المناطق التي احتفظت إنكلترا لنفسها بحرية العمل فيها من دون الاعتداء على المصالح الفرنسية فقد كلفتني الحكومة البريطانية إعطاءكم التأكيد الآتي: إن إنكلترا مع المستثنيات الآنف ذكرها لعلى استعداد للاعتراف وتأييد مطلب العرب الخاص باستقلال الأراضي داخل الحدود التي اقترحها شريف مكة.

والخامس، وفيه أجاب الشريف في ٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٥ قائلاً إنه يقبل استثناء مرسين وأضنة، ولكنه يصر على إدخال المناطق الأخرى وخصوصاً بيروت.

والسادس، في ١٣ ديسمبر/كانون الأول وفيه أخذ السير هنري مكماهون علماً بعدول الشريف عن المطالبة بمرسين وأضنة.

والسابع، بتاريخ أول يناير/كانون الثاني ١٩١٦ وفيه يقول الشريف بأنه رغبةً منه في اجتناب كل ما يكدر صفو التحالف الفرنسي - الإنكليزي لا يصر في خلال مدة الحرب على مطالبه فيما يختص بجبل لبنان، ولكنه سيطالب بها من جديد بعد أن تضع الحرب أوزارها.

والثامن، في٣٠ يناير/كانون الثاني ١٩١٦ وفيه أخذ السير هنري مكماهون علماً برغبة الشريف في اجتناب كل ما يكدر صفو العلاقات الفرنسية - الإنكليزية، وأخبر الشريف بأن الصداقة مع إنكلترا وفرنسا ستستمر إلى ما بعد الحرب.

وعلى ذلك انتهت المراسلات والمناقشات والمفاوضات بين الشريف حسين وبريطانيا العظمى بخصوص مواد الصلح الأرضية. وقد دلّت هذه الوثائق:

أولاً: على أن الحكومة البريطانية في خطابها المؤرخ في ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٥، وهو الخطاب الوحيد الذي يمكن اعتباره اتفاقاً ملزماً بينها وبين الشريف، لم تتعهد بشيء يتعارض مع الاتفاقية الفرنسية - الإنكليزية المؤرخة في مايو/أيار ١٩١٦.

ثانياً: على أن بريطانيا العظمى بعد افتتاح المفاوضات التي أنيط بالسيد جورج بيكو إجراؤها في لندن تمهيداً لاتفاقية مايو/أيار ١٩١٦[٢] لم تتعهد بشيء جديد للشريف، إذ إن المتفاوضين اجتمعوا أول مرة في ٢٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٥، ولم يشتمل الخطابان الأخيران المرسلان في يناير/كانون الثاني ١٩١٦ على تعهدات جديدة للملك حسين سوى التعهدات التي قطعت في ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٥.

وتدل هذه المعلومات بأجلى بيان على أن الشريف حسين وطّد العزم على القيام بالثورة من أوائل ١٩١٥، وأنه عرض على الحكومة البريطانية اقتراحاً لإنشاء دولة عربية مستقلة يحدها من الشمال خط ممتد من مرسين إلى أضنة إلى الموصل، فإذا قبلت إنكلترا ذلك الاقتراح تعهد الشريف بالخروج على سلطانه المعظم خليفة المسلمين.



فرنسوا ماري دينيس جورج بيكو
(١٨٧٠/١٢/٢١-١٩٥١/٦/٢٠)

كان سياسياً ودبلوماسياً فرنسياً. وقّع اتفاقية سايكس-بيكو عن الجانب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى لاقتسام مناطق النفوذ مع بريطانيا في منطقة الهلال الخصيب وأراضٍ أخرى كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية. فيما بعد كان مسؤولاً عن إلحاق مناطق المشرق العربي للنفوذ الفرنسي والتأسيس للانتداب الفرنسي على سوريا. وقّع معه الاتفاق آنذاك البريطاني مارك سايكس. وشهدت على الاتفاق روسا القيصرية ممثّلة بسرغي سازانوف.



السير مارك سايكس **Mark Saykes** (١٨٧٩/٣/١٦- ١٩١٩/٢/١٦)

عسكري إنكليزي (عقيد)، دبلوماسي، مستشار سياسي إنكليزي، رحالة. اختص بشؤون (بلاد الشام) إبان الحرب العالمية الأولى. مثّل الطرف الإنكليزي في التوقيع على اتفاق تقاسم أراضي (الرجل المريض) السلطنة العثمانية أمام فرنسوا جورج بيكو عن فرنسا في الشرق الأوسط الذي عُرف باتفاق (سايكس - بيكو). شاركت روسيا القيصرية يومذاك (قبل نجاح الثورة الاشتراكية) في التصديق على الاتفاق بهدف مشاركة بريطانيا وفرنسا.

رافق والده في سفرياته شرقاً وغرباً وداخل ولايات السلطنة العثمانية، ما أتاح له تكوين معلومات لم تتح لغيره من الأولاد وثقافة واسعة رسمت مستقبله الاجتماعي!؟ والسياسي والمخابراتي. أُخذ الى الجندية سنة ١٨٩٧ ضمن كتيبة يوركشاير للمشاة. تابع دراسته في جامعة كامبردج ما زاد في ثقافته منهجية، أصدر خمسة كتب حتى سنة ١٩٠٥ بين عسكرية ورحلات.

تقاسم مع بيكو دوراً رئيساً في تمثيل المصالح الأنكلوفرنسية عبر رسم خريطة سياسية جديدة لمستقبل منطقة الشرق الأوسط الذي شمل إلى تركيا، سوريا، لبنان، العراق، الأردن، (إسرائيل/فلسطين).

لعب دوراً هاما في اخراج وعد بلفور الى النور، ويعتبر صديقاً وفيا للصهيونية.



مشروع تقسيم بلاد الشام والعراق
حسب اتفاقية سايكس - بيكو سنة ١٩١٦

فإذا نظرنا إلى تلك الحقائق (التي تثبتُّ من صحتها فيما بعد)، وأضفنا إليها محاولات الشروع في الثورة التي اكتشفتها في أواخر يونيو/حزيران ١٩١٦، لتبين بوضوح تام أن عبد الكريم الخليل وعصابته تلقوا وقتئذٍ التعليمات اللازمة من شريف مكة، وأنهم فعلاً خطوا الخطوات الأولى في طريق تنظيم الثورة.

ومع أنني لم أثق يوماً ما بأمانة شريف مكة، ما كنت أتصور أنه في حرب كهذه يترتب عليها مستقبل الخلافة يجرؤ على محالفة الدول التي كانت تطمع إلى وضع نيرها على العالم الإسلامي بأسره، أو يذهب إلى حد بذر بذور الشقاق في طول البلاد وعرضها لتحقيق مطامعه الشخصية!.

هذا وقد استمرت المراسلات التي بدأت بيننا في ديسمبر/كانون الأول ١٩١٤ وكانت مفرغة في قالب الاحترام، ووعد الشريف بأن يشد أزر حملة القناة الثانية التي تحدد لها شتاء ١٩١٥ بفيلق من الحجاز. ومع أنني كنت موقناً أن أمثال رفيق العظم والشيخ رشيد رضا وعبد الكريم الخليل لا يترفعون عن أن يبيعوا أنفسهم للإنكليز والفرنسيين، فقد استبعدت كل الاستبعاد أن رجلاً مجرباً كالشريف حسين شابت لحيته وأصبحت قدمه على حافة القبر تصل به الأثرة وتدفعه الأنانية والمطامع الشخصية إلى المغامرة بمشروع سيؤدي تطوره حتماً إلى إذلال العرب، بل العالم الإسلامي. وفي ذلك الوقت هاجم البدو بحارة الطرادة الألمانية آمدن[٣] قرب جدة على أثر نزولهم بشاطئ الحجاز قريباً من العسير، فوقع في قلبي وقتئذٍ أن هؤلاء البدو ما هجموا هذا الهجوم إلا بإيعاز من الشريف حسين، وأنه أراد بذلك العمل التقرب من الإنكليز والتظاهر للعرب برغبته في منع الكفار من دخول الأماكن المقدسة.

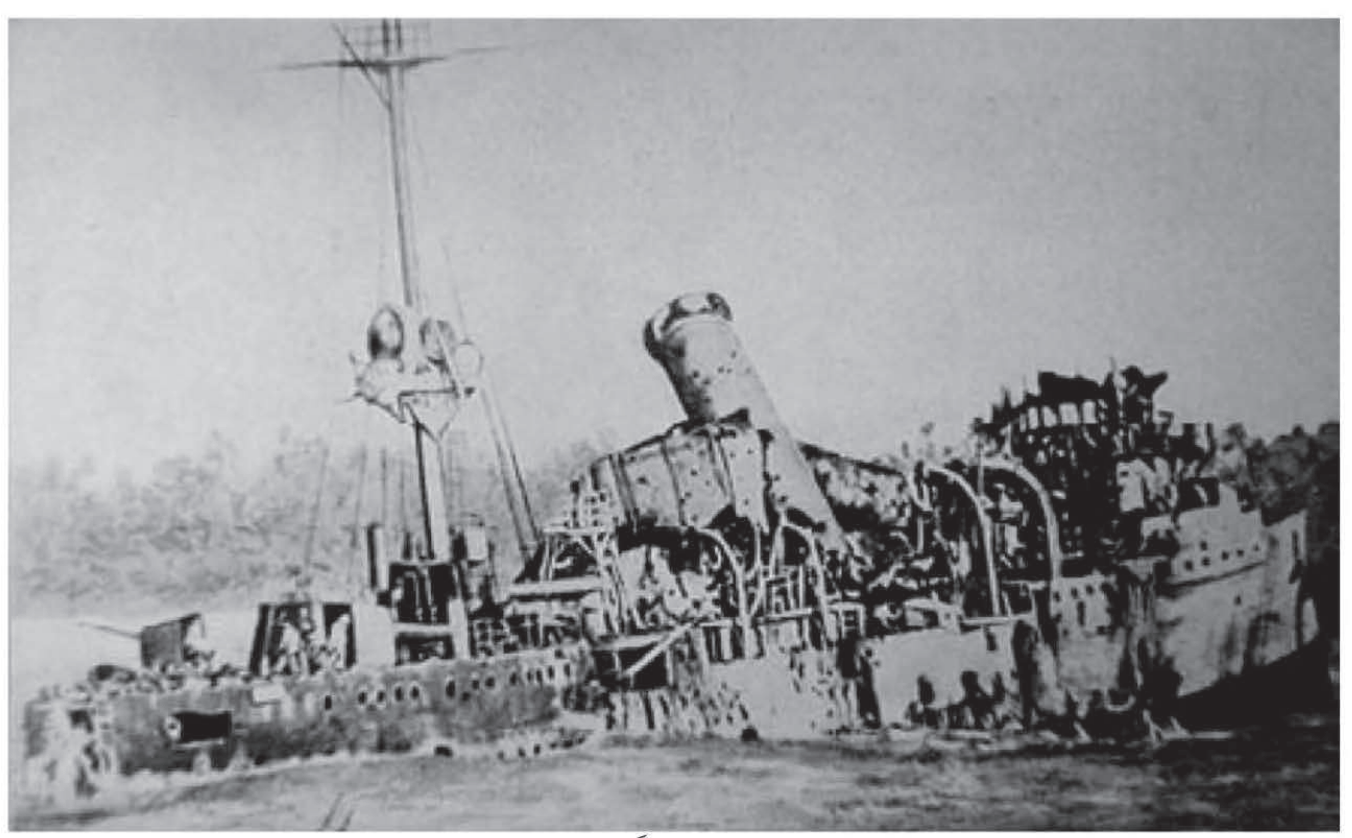
وكان الإنكليز وقتئذٍ محاصرين سواحل الإمبراطورية جمعاء ما خلا شاطئ الحجاز، فقد سمحوا بواسطته للعرب أن يستوردوا من الموانئ المصرية كل ما أرادوه من الأطعمة والحنطة، فلم أرَ غضاضة في ذلك بسبب المجاعة التي أوشك أن يقع فيها بدو الحجاز وأهلوه وسكان الأماكن المقدسة وزال بهذه الطريقة قلقي عن عاتق سوريا التي لا تكاد تكفي لسد حاجة سكانه عبء إرسال المؤن إلى بلاد الحجاز. وقد كنت أحسب أن الإنكليز لم يعاملوا أهل الحجاز تلك المعاملة الاستثنائية إلا حرصاً على اكتساب صداقة مسلمي الهند وأفريقيا، وأن الشريف حسين إنما أراد اجتناب تنفير الإنكليز منه، بل لقد اعتبرت الدافع الأول إلى مهاجمة بحارة آمدن محض الرغبة في عدم إغضاب الإنكليز. ولكني أرى الآن أن هذه كلها كانت أوهاماً، وأن الشريف حسين قد غدر بي وخان حكومته، بل غدر بخليفة الإسلام المعظم بطريقة لا يأتيها إلا أخبث المنافقين، فهو لم يحجم عن أن يتحالف مع أعداء الإمبراطورية العثمانية ولا عن بذر بذور الشقاق ودسّ الدسائس بين المسلمين بلا حياء ولا خجل ولا خشية ولا رهبة.

أما محاكمة عبد الكريم الخليل وعصابته فقد استمرت طوال شهري يونيو/حزيران ويوليو/تموز، وكلما أوغلنا في المحاكمة تبينت تدريجياً أغراض الثوار الجنائية وتكشفت للملأ سوءاتها، ولقد دهشت كل الدهشة لعظم شبكة الدسائس التي نسجوها ونصبوها.

ولم يكن في سوريا إذ ذاك من الجنود سوى الكتائب العربية، فلو خطرت لها فكرة التمرد لما كان لدي ثمة وسيلة لكبح جماح الثورة، وكانت معركة الدردنيل دائرة إذ ذاك بمنتهى الشدة والعنف، فكان سحب كتيبة فضلاً عن فرقة من تلك الجبهة غير ممكن.



طراد آمدن



مدمّراً



كارل فون مولتر قبطان الطراد آمدن

ولما كانت الحال تقضي عليّ بتحذير كل العاملين لخلق القلاقل والساعين فيها رأيت من الضروري، نظراً إلى الحالة العامة وبالنسبة إلى السلطة المخولة لقائد الجيش في الظروف الاستثنائية، أن أؤيد الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية وآمر بتنفيذه في الحال، غير منتظر التصديق الهمايوني إذ إنه يمكن الحصول عليه فيما بعد، وقد حصلت بالفعل على تصديق وزيري الحربية والداخلية(٤).

ولقد اطّلعت على محاضر المحكمة العسكرية، وبعد الفراغ منها واستشارة قاضي القضاة أيدت حكم الإعدام الذي نفذ في بيروت في اليوم التالي، وكان هذا في نهاية أغسطس/آب ١٩١٥، وقد أحدثت هذه الأحكام ذعراً كبيراً في نفوس العصاة وأدخلت الفزع في قلوبهم.

ولم يكتف الشريف ببدء المفاوضات بينه وبين الإنكليز، بل لقد بلغت به الوقاحة أن يبعث إليّ بابنه الشريف فيصل لينقل إليه مجريات الأحوال في سوريا.

وفي سبتمبر/أيلول ١٩١٥ حضر الشريف فيصل إلى سوريا ومن ثمّ واصل سيره إلى استانبول، فما أن حظي بمقابلة جلالة السلطان طفق يدلي بولائه وولاء أبيه وأهله بعبارات تشف عن الخضوع التام، حتى إن جلالته لم يداخله الشك في إخلاصه. ثم عاد فيصل إلى سوريا بعدما أكد لسائر الوزراء تلك التأكيدات، وقد قابلته عند عودته بالتجلة والاحترام، وفي خلال إقامته القصيرة قرّ رأينا على أن يرسل أبوه إلى فلسطين فرقة من متطوعي الجمالة عدده ١٥٠٠ بقيادة فيصل للاشتراك في القتال.



استقبال جمال باشا للشريف فيصل في دمشق، أيلول/سبتمبر ١٩١٥

وقبل أن يغادر فيصل القدس ألقى خطبة مسهبة على موظفي مركز القيادة، وأقسم فيها بأغلظ الأيمان وبروح المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يعود في أمد قريب على رأس محاربيه للمساعدة على قتال أعداء الدين إلى أن يموتوا شهداء.

ويُذكر أن الشريف حسين في هذه اللحظة نفسها التي كان ابنه فيصل يحلف فيها هذه الأيمان الفاجرة قد كتب بالفعل خطابي ٩ سبتمبر/أيلول و٥ نوفمبر/تشرين الثاني إلى الإنكليز، وأخذ يعد العدة لضرب الخلافة ضربة الغدر والخيانة، ولكني ما كنت أعرف وقتئذٍ شيئاً عن أعماله القبيحة. وكذلك كشفت محاكمة عبد الغني العريسي الستار عن حقائق عدة خطيرة الشأن، فلاح لي أن الوقت قد حان لاستخدام الوثائق المهمة التي ضبطت في القنصلية الفرنسية في دمشق في أوائل الحرب، وطلبت فعلاً إلى وزيري الحربية والداخلية تخويلي السلطة اللازمة فقاما بذلك بعد تبادل الرسائل المطولة، ولقد عزوت ترددهما ذلك إلى كون الأشخاص الذين تدينهم الوثائق المضبوطة من ذوي المناصب العالية.

أما أنا فكنت أرى عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي أن يكون مناسباً للمركز الاجتماعي الذي يشغله، لأنه لا يتأتى في هذه الحال أن تعزى أعمال ذلك الرجل الجنائية إلى جهله أو حمقه، وكذلك النتائج التي تترتب عليها فإنها تكون بطبعها أشد خطراً وأعظم ضرراً، فخيانة ذي المقام الرفيع إذاً هي من قبيل تعمّد الأذى. لذلك بعدما أبدى وزيران مسؤولان موافقتهما على إجراءاتي في تلك المسألة، دفعت إلى المحكمة العسكرية بأدلة الاتهام التي يمكنها بواسطتها الحكم على أناس ظلوا خلال سنوات عديدة يضعون المشروعات الثورية المختلفة بدعوى المطالبة بالإصلاح وتقرير المصير والاستقلال للعرب.

وفيما محاكمة تلك العصابة العربية الثانية المتهمة بتهمة الخيانة العظمى جارية، واصلت سلسلة الرسائل الودية بيني وبين الشريف حسين، وفي يناير/كانون الثاني وصل الشريف فيصل إلى دمشق يتقدم خمسين فارساً من مكة، وقد اتخذ داري مقاماً له لمساعدتي في تجهيز الـ ١٥٠٠ متطوع الموعود بهم وفي إرسال المهمات اللازمة إلى مكة، وحضرت المحكمة العسكرية القضية بكل عناية ودقة، وفي فبراير/شباط حضر أنور باشا إلى سوريا لزيارة الجيش الرابع ومعاينة نظام خط مواصلات سيناء، فاقترحت أن يذهب أيضاً إلى المدينة، فتوجهنا إليها ومعنا الشريف فيصل، وخلال تلك الزيارة وصلت إلينا جملة من الهدايا المختلفة من الشريف حسين وبينها سيف الشرف، وهو عند العرب أكبر دليل على الصداقة، ولكنه في الوقت الذي كان يظهر فيه ولاءه بهذه الأساليب كان منهمكاً في تقديم مقترحات معينة للقيام بثورة ضد الخلافة في الخطاب المرسل في أول يناير/كانون الثاني ١٩١٦ الذي سبقت الإشارة إليه. وما كنت في حاجة إلى ذكر كل هذه التفاصيل لولا أني أريد أن أظهر للملأ سفالة الشريف حسين وخبث طويته، وليكون في ذكرها الرد الكافي على قصار النظر الذين يعزون عصيان الشريف إلى سوء إدارتي.

ولقد استمرت المحاكمة حتى بعد عودة أنور باشا إلى استانبول، وعندئذٍ ظهر الشريف حسين بمظهره الحقيقي، فإن أنور باشا عقب عودته أرسل إليّ برقية بالشيفرة وصلت إليه من الشريف، ويمكن تلخيصها فيما يأتي بعد إغفال المغالطات المنطقية التي وردت في صدرها:

«إذا كنت حقاً ترغب في التزامي الهدوء والسكينة فينبغي الاعتراف باستقلالي في سائر الحجاز - من تبوك إلى مكة - وجعلي أميراً وراثياً فيه. كما ينبغي أيضاً العدول عن محاكمة العرب المتهمين، وإعلان العفو العام في سوريا والعراق».

وكان معنى البرقية غامضاً إلى حد أن أنور باشا أخبرني أنه عجز عن فك طلاسمها.

وفي الوقت نفسه رجاني فيصل - وربما كان ذلك بناءً على تعليمات من أبيه - أن أظهر للمسجونين شيئاً من السخاء والتسامح. فأرسلت في طلب فيصل إثر وصول برقية أنور باشا، وطلبت إلى علي فؤاد بك رئيس أركان حربي أن يكون شاهداً المحادثة بيني وبينه. وبعد بضع كلمات تمهيدية قلت للشريف ما نصه:

«لما سمعت عند عودتي من المدينة بأن أخاك علي بك أخذ يتدخل في سلطة حاكم المدينة ويدّعي لنفسه حقوقاً قال إنها جزء من سلطته بصفته إماماً، عزوت أعماله هذه إلى حداثة سنّه وعدم تجاربه، وقد كلفت الحاكم أن يطلب إليه الكف عن هذه الأعمال في المستقبل. وسألت أباك أيضاً أن يطلب إليه الطلب نفسه. وفي محادثاتنا العديدة السالفة أعلمتك بأنني شخصياً لن أدخر وسعاً في سبيل المحافظة على حقوق الإمام، وأنه إذا اعتدى أحد بصفة غير قانونية على حق من حقوقك مددت إليك ما استطعت من المساعدة حتى لو أدى ذلك إلى الاصطدام بأشخاص آخرين ولو كانت مراكزهم من أسمى المراكز. وقد أخبرت أباك بذلك كتابةً في ظروف عديدة وجاءتني منه بالتالي خطابات أعرب فيها عن عظيم شكره وامتنانه. وأحسبك في الوقت نفسه تعترف بأن لأبيك أعداءً غير قليلين من أسرته، وبعض هؤلاء الأعداء



أحمد جمال باشا والشريف علي حيدر (ابن عم الشريف حسين ومنافسه على شرافة الحرمين والحجاز) في المقدمة وخلفها من اليسار عزت باشا وعلي فؤاد وتحسين بك

هم الآن في استانبول يعملون صباح مساء لإثارة الشكوك في الحكومة ضده. فإذا كان كذلك فخير طريقة لكم هي اجتناب القيام أو التفوه بكل ما من شأنه أن يعطي أعداءكم حجة للوشاية بكم. فإذا قرأت هذه البرقية علمت أن أباك إنما يسير في الطريق العوجاء وأنه بعمله هذا يسلم أعداءه سلاحاً يحاربونه به».

فقرأ فيصل البرقية بلهفة شديدة ثم امتقع لونه. وأخيراً قال:

«أفندم! لا يمكنك أن تتصور مقدار الغم الذي أثارته فيَّ هذه البرقية. ولا شك عندي في أنها نتيجة سوء تفاهم كبير. وإني أؤكد لك بصراحة أن أبي لا يقصد شيئاً ضاراً بها. إنك تعرف أنه لا يحسن فهم اللغة التركية. فمن المحقق أن هذه البرقية إنما كتبت بيد كاتب عجز عن فهم النص العربي فترجمها هذه الترجمة المحرفة. ومعاذ الله أن يخطر لأبي هذا الخاطر!».

وظهرت على وجه فيصل علامات الاضطراب. فرأى أن يكتب في الحال إلى أبيه يسأله العدول عن نياته. وأخذ يتلمس ما شاء من المعاذير.

وبناءً على هذه المحادثة أرسلت إلى الشريف حسين البرقية الآتية:

«لقد نُميَ إليّ خبر برقيتك إلى أنور باشا. فأن تطلب أن تكون الإمارة وراثية في أسرتك وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهاني بعدما قامت البراهين على خيانتهم للوطن والملة. وليس في المستطاع إجابة هذا الطلب الثاني وإلا أدى ذلك إلى ضرر شديد في مسألة لها علاقة وارتباط بالمصلحة العامة. فإن الحكومة التي تصفح عن الخونة خليقة بأن يتهمها الجمهور بالضعف. بل قد يغري ذلك الصفح الكثير من الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء. فلو عرفت محتويات الوثائق التي ظهرت في المحكمة لرأيت إلى أي حد من الخيانة قد تسفّل إليه أولئك المتهمون. أما فيما يختص بمسألة جعل الإمارة وراثية في أسرتك فإني يخيل إليّ - وأظنك تسامحني في ذلك الرأي - أن الفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك الطلب.

فإني في وقت الحرب الذي تتعرض فيه كل قوى الإنسان العقلية والجسدية لأشد العناء والتعب أراك تعترف معي بأن الإعراب عن تلك الرغبات من شخص يشغل مركز إمام، وفي أهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية - بقعة هي أكثر تعرضاً للأخطار عما عداها - لا بد أن يكون له أسوأ وقع في نفوس الجمهور.

والذي أعتقده أنه ما كان ينبغي لك أن تطلب ذلك الطلب حتى ولو كان لك الحق في طلبه. فإن موارد الأمة كلها ينبغي أن تحشد اليوم لغرض واحد لا ثاني له ألا وهو إحراز النصر النهائي.

ويجب أيضاً أن ألفت انتباهك إلى الوجهة التالية من وجهات النظر إلى المسألة. وهي أننا نفرض جدلاً أن الحكومة لبّت طلبك لمجرد الرغبة في الابتعاد بك عن المشاغبة في هذه الأوقات العصيبة التي نقطعها. وفرضنا أيضاً أن النصر كان في النهاية حليفنا. فما الذي يمنع الحكومة أن تعاملك بمنتهى الشدة بعد أن تضع الحرب أوزارها؟ إن الرجال الذين يكوّنون الحكومة الحاضرة والذين تجرأوا على القيام في وجه عبد الحميد الذي أمضّك استبداده لن يصفحوا عمن يجترئ على شلّ أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الإسلامي. ومن جهة أخرى لن يقعدوا عن أن يحصلوا من جلالة الخليفة على جزيل الإحسان وعظيم المكافأة لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله لتحقيق غايتنا المقدسة».

وفيما كنا نتبادل تلك الرسائل كانت المحكمة العسكرية في عاليه أصدرت حكمها. فجاهد فيصل أشد جهاد للحصول على العفو عن المجرمين. وصار يحضر إليّ كل يوم وقد حوّل الدفة في المناقشة إلى جهة العفو. وكنت أسمع بين آن وآخر أنه عنّف الأعيان الذين ذهبوا لزيارته ووبّخهم على عدم قيامهم بشيء ما لإنقاذ مواطنيهم. واستمر في تأنيبهم إذ يقول لهم إنه كان في استطاعتهم أن يشفعوا لهم عندي على الأقل.

ويوم الجمعة سألني أن أتغدى معه في قابون[٥]، وهي مزرعة تبعد عن دمشق ساعة، فذهبت إليها وبرفقتي بضعة ضباط، وبعد الفراغ من الطعام نوقش الموضوع نفسه، فسألته: «هل تعلم عظم جريمة المتهمين؟»، فأجاب بأنه لا علم له بها، فقلت له: «لو عرفت التفاصيل لأسفت أشد الأسف على توسطك في الصفح عنهم».

وفي اليوم السابق لتنفيذ حكم الإعدام حضر إلى داري الشيخ بدر الدين[٦] تلبيةً لرجاء فيصل، وهو رجل أجلّه الإجلال التام، وقد جاء ليشفع للمجرمين، وكان معه الشيخ عبد القادر الخطيب[٧] خطيب الجامع الأموي، وهو رجل يتعذر على الإنسان أن يعثر على رجل مثله خبثاً وخيانة وعدم أمانة، لا في دمشق فحسب بل في سائر أنحاء المعمورة. فخيانة أهل المدينة الذين باءوا بغضب الرسول عليه الصلاة والسلام لا تُذكر بجانب خيانته وخبثه وسفالته، وقد رأيت أن الصواب إرجاء معاقبته إلى وقت لاحق.



الشيخ بدر الدين الحسيني (١٨٥١-١٩٣٥)

محمد بن يوسف بن عبد الرحمن المغربي البياني، محدث الشام في عصره، وُلد في دمشق لعائلة دينية ملؤها الورع والزهد، من أحفاد الشيخ الجزولي صاحب «دلائل الخيرات». انتقل أسلافه من المغرب (مراكش) إلى مصر ثم الشام التي وُلد فيها صاحب الترجمة. كان حافظاً للقرآن والصحيحين منقطعاً للعبادة وللتدريس، رافضاً الإفتاء أو التصنيف، مبتعداً عن ترف الدنيا وبهرجها. تقرّب إليه الولاة والحكام، مع ازدياد جور الاتحاديين الأتراك وتسلطهم قامت العامة تطالبه بقيادة الثورة على الأتراك وإعلانه خليفة لمكانته الدينية إلا أنه رفض. زاره القائد أحمد جمال لأخذ فتوى منه تجيز إعدامه للشهداء وتبرر الإجراءات العرفية بصبغة شرعية، لكن الشيخ رفض ذلك وطرده من حضرته. اشتهر عنه كراهيته للفرنسيين وانتدابهم على سوريا فكان يحرّض عليهم وضرورة التصدي لهم. ابنه الشيخ تاج الدين «نقيضه تماماً»، كانت دائرة جمال باشا قد اختارته مسؤولاً في إدارة وتحرير جريدة الشرق، وفي زمن الاحتلال (الانتداب) الفرنسي اختاره الفرنسيون رئيساً للجمهورية السورية (١٩٤١-١٩٤٣).

فطلبت إلى الشيخ أسعد شقيري أن يترجم لي ما يقول الشيخ بدر الدين، الذي كان ينتقي الألفاظ ويصوغها في عبارة مؤثرة، وهي مزية اختص بها، وتكلم بصفة مجملة عن الدسائس الجنائية التي تهدد سلامة الإسلام من دون أن يشير بكلمة ما إلى المحكمة العسكرية أو إلى المتهمين.

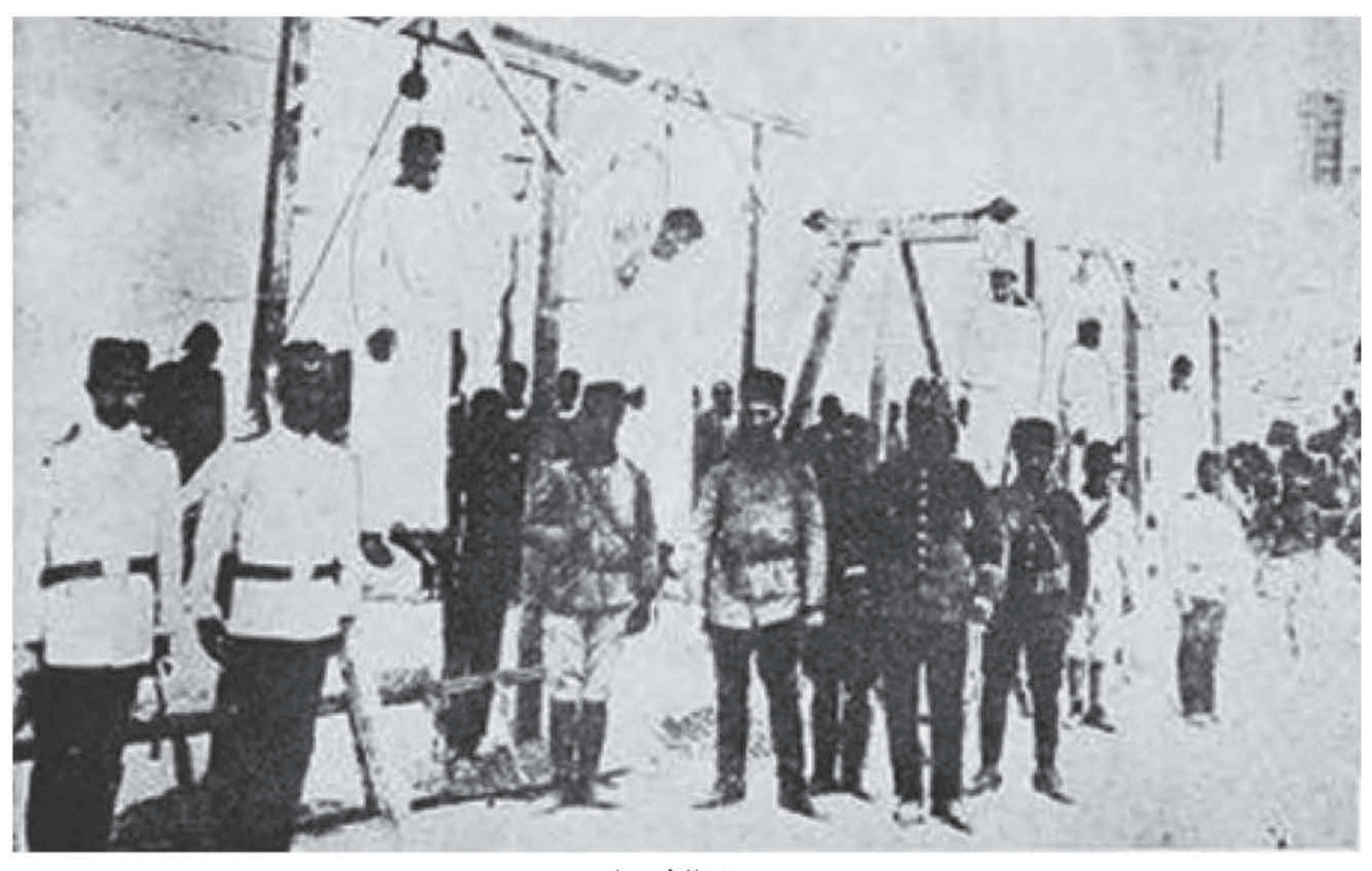
وبعدما استشهد بكتب عدة ختم كلامه بالعبارة الآتية: «لقد جعل الله عزوجل لمن يعمل لإيجاد الشقاق والفوضى في صفوف المؤمنين والسعي بالفساد في الأرض ثلاث عقوبات: القتل والصلب وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض، فقال جلّ ثناؤه في كتابه العزيز: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض}(المائدة:٣٣)، فالعقوبة تكون مناسبة لحال الجريمة وما يترتب عليها من الضرر بالمسلمين ومن في حكمهم والفساد والاضطراب اللذين يلحقان بالأمة والدولة. ونحن الآن نخوض مع العالم الإسلامي غمار حرب تطحن الناس طحناً، وما القوم الذين يكيدون للإسلام والمسلمين ويدسون الدسائس لتمزيق الجماعة وتفريق الكلمة وشق عصا الاتحاد وإضعاف الأمة وكسر الشوكة، ويعصون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بإيجاد الفتنة بين المسلمين حتى يقتل بعضهم بعضاً، إلا وباء خطر يجب درؤه. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشفاعة في الحدود، فقال لأسامة بن زيد رضي الله عنهما وقد كلّمه في شأن المخزومية: «أتشفع في حدّ من حدود الله، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت شيئاً لقطعت يدها»[8]، إلا أن من يشفع لخائن لدى قاضٍ لهو خائن لنفسه ولدينه ولوطنه ولأمته، لأنه إنما يساعد على الفتنة، عَلِمَ أو لم يعلم».

وما إن انتهى الشيخ بدر الدين من كلامه حتى التفتُّ إلى الشيخ أسعد وعبد القادر الخطيب وقلت مبتسماً: «لقد جئتما إليّ بهذا الشيخ الموقر للشفاعة فيمن أدانتهم المحكمة العسكرية، فكان كل ما عمله هو أن استحسن حكم المحكمة وبيّن لي أني بمقتضى أحكام الدين الحنيف لا يجوز لي العفو عن هؤلاء الخونة وأمثالهم، أليس كذلك يا بدر الدين أفندي؟».

فنظر إلينا وهز رأسه أن نعم، وصاح الشيخ أسعد شقيري قائلاً: «إلهي! لقد قضيت علينا أيها الشيخ، إذ كيف يمكننا التوسل مرة أخرى بعد الذي نطقت به، فإنه عملاً بفتواك سيعاملنا معاملة الخونة فيأمر بشنقنا أيضاً بلا تردد»، وبهذا انتهى الحديث.

وفي اليوم الثالث نفذت أحكام الإعدام في بيروت ودمشق، ويقول بعضهم كان ينبغي ألاّ ينفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان.

ورداً على هؤلاء أقول: أولاً لقد خُوِّلتُ السلطة القانونية أن أفعل ما فعلت، وثانياً إن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدي الخونة. وفي بلاد العرب يرى الإنسان لأرباب الحيثيات نفوذاً كبيراً، حتى إن وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق. فإن أراد قائد مثلي ليس له إلا القليل من الموارد أن يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سممتها الدعاية الإنكليزية والفرنسية بضع سنين، كان من أهم الأمور أن يكون بحيث يؤمن الأهالي بمقدرته على الأخذ بناصية أي شخص كائناً من كان ومعاقبته أشد معاقبة بلا استئذان المراجع العليا في استانبول.



بعض الشهداء

ويقيناً، إن الفضل في عدم حدوث ثورة ما في سوريا خلال العامين ونصف العام اللذين أعقبا إعلان الشريف حسين لاستقلال بلاده إنما يرجع إلى أحكام الإعدام التي وقعت في أبريل/نيسان ١٩١٦. وبقطع النظر عن ذلك فإن أنور باشا وهو وزير الحربية، وطلعت باشا وهو وزير الداخلية، قد وافقا على تنفيذ أحكام الإعدام بلا استئذان المراجع العليا. ثم أرسلت إلى استانبول تقريراً بما أجريته، وهناك راجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية، ثم أرسلته بناءً على قرار من مجلس الوزراء إلى القصر للتصديق الشاهاني، وهكذا أيد الخطاب الشاهاني الأحكام التي قضى بها الجيش ونفذها، وبذا ختمت هذه الرواية.

وهناك أيضاً من يقول إن الأشخاص الذين أجرموا وظهرت إدانتهم وشنقوا في سوريا قد شملهم العفو العام الصادر في ١٩١٣، فمحاكمتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني.

وقد بينت في الكتاب الأحمر[٩] المسمى «حقيقة المسألة السورية» أن أولئك الأشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام بأعمال جنائية جديدة، وأن إدانتهم ترجع إلى جرائمهم بعد ذلك العفو. وإذ كانت الوثائق الخاصة بإدانتهم قبل العفو تعدّ قرينة قوية، بدا للمحكمة أن تفحصها وتنشرها لتبين للملأ مبلغ شناعة خيانتهم. فإذا وجد الآن حتى بعد نشر الكتاب الأحمر من لا يزال يردد تلك المزاعم، فمن البديهي أن غرضهم هو أن يبرهنوا أن الحكومة مخطئة في كلتا الحالتين.

ولقد أصدر الجيش يوم تنفيذ أحكام الإعدام منشوراً ضمّنه بعض هذه الوثائق لإظهار جريمة الذين دينوا. وبعد تنفيذ الحكم بساعتين أو ثلاث، جاءني فيصل فقال: «قسماً بحرمة الأجداد، لو علمت أن

جريمة الجناة كانت بهذه الشناعة لما أحجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت أن تمزق أوصالهم ليطول عذابهم. ألا لعنة الله عليهم أجمعين».

وفي اليوم نفسه حضر إليّ محمد العظم باشا مبعوث دمشق وقال: «إني ليدركني العار الشديد كلما تذكرت أن أولئك الأشخاص هم من أعضاء أسرتي. إنك قد أحققت الحق. فليكلأك الله ورسوله بعين الرعاية».



محمد فوزي باشا العظم

أحد مرشحي لائحة الاتحاديين وعضو مجلس المبعوثان عن مدينة دمشق. كان نجاحه في الانتخابات التي جرت في الولايات العثمانية نتيجة لعمليات الغش والترهيب. كان معادياً لأبناء العم (حقي، رفيق، شفيق) وأفكارهم.
درس في مدارس دمشق العثمانية وعيّن مديراً لرسائل مجلس إدارة سوريا في عهد الوالي حمدي باشا. تقلد محمد فوزي باشا عدة مناصب أهمها وزارة الأوقاف العثمانية في سنة ١٩١١، والنيابة عن دمشق في المجلس النيابي العثماني في سنة ١٩١٦، وتوفي سنة ١٩٢٠. وكان محمد فوزي باشا في دمشق صاحب كلمة نافذة. مثّل دمشق في المؤتمر السوري العام الذي عقد عامي ١٩١٩ و١٩٢٠.

ثم مرّ شهر على هذه الحوادث وجاءني رد الشريف حسين على البرقية التي أرسلتها إليه. فاستنتجت من جوابه أن كلماتي كان لها أثر سيئ في نفسه. فقد أشار بإصدار العفو العام لمصلحة الحكومة. ثم شكا مرّ الشكوى من حاكم المدينة قائلاً إنه يأبى أن تسلب منه بلا مسوغ حقوق منحها إياه الخليفة العثماني. وأصبح في ذلك الوقت سلوك الشريف علي بك حيال بصري باشا في المدينة مما لا يطاق. لذلك أرسلت في الحال في طلب الشريف فيصل وأطلعته على رد أبيه. ثم أنذرته بحدة بأنه إذا لم يكفّ عن تدخله فلا بد من استعمال القوة الحربية ضده. ثم قلت:

«وأرى أن أخبرك يا فيصل بك بأنني لم أستطع إدراك الغرض من تلك اللهجة التي استعملها أبوك في الأيام الأخيرة. ولا المسلك الذي سلكه أخوك في المدينة. لقد كانت علاقاتنا بك ودية هنا. فبماذا يمكننا أن نفسر مسلك أخيك علي بك في المدينة؟ إنهم من جهة مشتغلون بتجهيز قوة من المتطوعين تبلغ ١٥٠٠

لحملة القناة. والحكومة باذلة جهدها في إمدادهم بالمال والرجال. ولكن من جهة أخرى قد بدأت نزعات الانفصال من ناحية أبيك. كل هذا في حين أن أخاك علي بك ينهج منهجاً يتفق ودعاوى أبيك. وإني أريد أن تدرك أنكم إن أردتم أن تظلوا أصدقاءنا فعليكم مراعاة قوانين الصداقة. أما إذا كنتم ذوي غايات أخرى فالأولى أن تلجأوا إلى السلاح وتجنحوا إلى ثورتكم في الحال. وبذلك تنتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدواً للآخر ظاهر العداوة. وحينئذٍ يصبح الأمر بيد الله! أما إذا كنتم لا تريدون الثورة ولا تضمرون الشر فاكتب إلى أخيك علي بك ليحضر إليّ في الحال. وليكفَّ في المستقبل عن الاعتداء على سلطة الحاكم».

ولقد كاد خطاب الشريف حسين الأخير إليّ ينطق بأنه إنما كان يتلمس ذريعة ما للقيام بالثورة. وهذا هو الذي حداني إلى أن أستعمل في خطابي للشريف فيصل تلك اللهجة الصريحة الحاسمة.

وقد امتقع لون فيصل من كلماتي هذه وعلا وجهه الاصفرار. فقام من مقعده والتفت إليّ ويده على قلبه فقال: «عفواً يا صاحب السعادة! كيف يخطر لك أن تعزو إلينا هذه التهم؟ وكيف يليق بنا أن نكون خونة ونحن تلك الأسرة التي هي من سلالة الرسول والتي ترى من أكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين الموالين للخليفة؟ فأبي وأخي وأنا لسنا خائنين للشعب أو الحكومة. بل نحن الخدام الأوفياء الأمناء لسلطاننا الأمجد الذي لطالما غمرنا بإنعاماته. فلتكن موقناً أني سوف أسوّي الخلاف بين أخي والحاكم بصري باشا. وسأكلفه الحضور لتقبيل يديك!».

وكان علي فؤاد بك رئيس أركان الحرب شاهداً ذلك الحديث.

وقد أخبرني الشيخ أسعد شقيري فيما بعد أن الشريف فيصل ذهب إلى دار رئيس أركان الحرب في حالة انفعال شديد وبكى بكاءً مراً. وأخبره أنه يخشى بفعل الغضب الذي كان مستولياً عليّ أن آمر بالقبض على أخيه وإعدامه في دمشق.

كل ذلك حدث في أوائل أبريل/نيسان ١٩١٦. وقد كان جلياً من المقالة التي نشرتها Le Temps (الطان) وسبقت الإشارة إليها أن الشريف حسين كان منذ أول يناير/كانون الثاني ١٩١٦ على أتم اتفاق مع الإنكليز. وظل يرقب الفرصة الملائمة لرفع علم الثورة.

وإني. وأيْمُ الله. لو علمت ذلك وقتئذٍ لكنت أمرت من دون تردد بالقبض على فيصل في دمشق. وعلى أخيه في المدينة. ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة إلى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده والقضاء على تلك الثورة المشؤومة في مهدها. ولكن ماذا عساي كنت أفعل في تلك الظروف ولم تكن لديّ بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك الأشخاص؟.

وكان تحت تصرف الشريف حسين وقتئذٍ ما ينيف على خمسين أو ستين ألف جنيه ذهباً لتجهيز فرقة المتطوعين البالغة ١٥٠٠ شخص لحملة القناة. وكذلك كنت أرسلت البنادق اللازمة إلى المدينة أواخر أبريل/نيسان. وكان مقرراً أن ترسل منها إلى مكة. بيد أن تغيّر لهجة الشريف حسين جعلت الحذر لازماً. فاعتذرت بصعوبة النقل وكتبت إليه أخبره أنني أرى من الصواب أن يرسل المتطوعين لديه إلى المدينة مشياً من دون سلاح. وهناك تُصرف إليهم البنادق.

وفي ذات يوم قرابة منتصف مايو/أيار جاءني الشريف فيصل وأخبرني أن أخاه تلقى الأوامر من أبيه بالانضمام إلى جيش سيناء، وأنه هو (فيصل) نفسه يرغب - بعد استئذاني - في الذهاب إلى المدينة ليجيء بأخيه إلى القدس، وأكد لي أن ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيراً حسناً.

فأدركت من فوري أنه يحاول أن يخدعني بتلك الحيلة، ولما كنت قد تعودت الخديعة من الشريف حسين وأولاده آثرت أن أكون أنا الغالب. ففكرت قليلاً ثم قلت: «حسن جداً، لقد صرحت لك. فاغدُ إلى المتطوعين في المدينة واستقبلهم باسمي ثم ائتني بهم هنا، وسآمر مصلحة السكة الحديد بنقل الجنود وأرسل معك بعض العلماء من دمشق ليكونوا في ركابك، وبذلك تستطيع أن تؤلف وفداً خاصاً لاستقبال المجاهدين».

وما كدت أفرغ من هذه الكلمات حتى أبرقت أسارير وجهه وكاد فؤاده يطير فرحاً. فتجلت لي الحقيقة كلها وتكشفت، حتى لقد التفتُّ إلى علي فؤاد بك رئيس أركان حربي قائلاً: «إنني موقن أن الثورة سيشبّ ضرامها في الحجاز في القريب العاجل، فإني قد رأيت الشريف فيصل قد فرح أشد الفرح لخديعتي، حتى إنه لم يستطع إخفاء شعوره».

وكان علي فؤاد بك يرى رأيي، وقد وافق على الخطة التي رسمتها لتعذّر اتخاذ خطة أخرى.

ووصلت من استانبول إلى المدينة في ذلك الوقت قوة قوامها ثلاثمئة رجل كانت قد أرسلت لتكملة الكادر في فيلق اليمن، وقد بذل الحاكم قصارى جهده في خلال الأسبوعين السالفين للحصول على الجمال اللازمة لنقلها. فأخبرني بصري باشا أن هناك شائعة بأن تلك القوة التي كانت ناقصة التمرين والتي لا يكاد عدد المقاتلين في كل فصيلة من فصائلها يزيد على ٥٠ رجلاً وضابطاً من ضباط الاحتياطي، سيسوقها البدو إلى شرك أعدّ لها فيما بين مكة والمدينة على أثر الخطب المثيرة التي ألقاها الشريف حسين. فأرسلت رداً إلى الحاكم وفيه تعليمات دقيقة بأن يبقي تلك الكتيبة في المدينة إلى أن تصدر إليه أوامر أخرى، وأن يقوم الضباط هناك بتمرين الجنود وتسليحهم بالبنادق التي كان في النية إرسالها إلى متطوعي مكة. وقلت له فيه (الرد): نظراً إلى السلوك الباعث على الريبة الذي سلكه الشريف علي كن على حذر واستعداد تام للدفاع عن المدينة في حالة مهاجمتها، وأخبرته أن الشريف فيصل قد اتخذ طريقه إلى المدينة.

وبعد أن غادرنا الشريف فيصل تصحبه حاشيته، رأيت من باب الاحتياط أن أرسل فخري باشا إلى المدينة، وكان دون سائر قادة الفرق القائد الوحيد بإمرتي وكان مشهوراً بوطنيته وثباته. فشرحت له الحالة ورأيي فيها وأخبرته أنني متوقع أن يثور الشريف حسين قريباً، ثم طلبت إليه أن يذهب إلى المدينة بحجة زيارة الروضة الشريفة وأن يرتب مع بصري باشا وسائل الدفاع اللازمة عنها إذا احتاج الأمر إلى ذلك. وكان بصري باشا حاكم المدينة ولا ريب، مقداماً أميناً شديد الغيرة الوطنية، ذا دراية تامة بعقلية العرب، بيد أنه لم يكن ذا تجارب حربية مما جعلني أخشى ألاّ يعمل بالشجاعة والحزم اللذين يستلزمهما الموقف العصيب. وأعطيت كلاً من بصري باشا وفخري باشا التعليمات السرية نفسها، وهي تقتضي أن يتسلم فخري باشا عند أول إنذار بقيام الثورة قيادة القوات لمواجهة أولاد الشريف وأن يقوم بصري باشا

بأعباء الإدارة الرسمية. وكنت على يقين تام أنه لن يحدث أي خلاف في ذلك الوقت بين هذين القائدين التركيين الباسلين اللذين غلب حب الوطن فيهما كل عاطفة أخرى.

واحتياطاً للطوارئ أمرت أن تبقى كتيبتان أو ثلاث وبطاريتان جبليتان في دمشق على استعداد تام للزحف في الحال على المدينة. ولم يعلم أولئك الجنود شيئاً عن الجهة التي سيرسلون إليها. ولكنهم كانوا دائماً متأهبين بحيث يمكن إرسالهم بعد نصف ساعة من وصول أول إشارة.

ولما وصل الشريف فيصل إلى المدينة. كتب إليّ من فوره يخبرني بمقدار سروره لأن أخاه علياً سيقابلني قريباً. وبما أن الشريف حسين قد سألني أن أرسل إليه قدراً من المال لتغطية نفقات المجاهدين لديه الذين كانوا على استعداد للزحف. طلبت إلى حاكم المدينة أن يسلم الشريف علي المبلغ المطلوب. فانظر كيف أن الشريف حسين الذي جرى التعاقد بينه وبين الإنكليز منذ أول يناير/كانون الثاني ١٩١٦ لم يخجل أن يطلب زوراً وبهتاناً أموالاً من الحكومة قبل خروجه عليها بيوم أو اثنين من أواخر مايو/أيار ١٩١٦.

وفيما أنا في بيروت في اليوم الثاني من يونيو/حزيران زائراً. إذا بفخري باشا يدعوني من المدينة لمحادثتي هاتفياً. فوقع في نفسي أنه سيفضي إليّ أخباراً سيئة. فقلت له: «هات ما عندك». فقال: «من يوم وصولي إلى هنا ما زالت علاقاتي حسنة بكلٍّ من الشريف علي وفيصل بك. وقد دعواني قبل يومين إلى زيارة مقام سيدي حمزة حيث معسكر المجاهدين. فتغدينا معاً. وجعل المتطوعون يلعبون ألعاب سكان البوادي وأخذوا يترنمون بالأغاني الحماسية والضربات القاصمة التي سينزلونها بالإنكليز. وفي مساء الأمس دعيت إلى منزل علي بك وفيصل بك. وكان قد تقرر أن تذهب إلى درعا في خلال يومين أول كتيبة من المجاهدين».

ولكني صباح اليوم رأيت الحالة قد تغيرت تغيّراً غريباً. فقد جاءني أحد رجال الشريف علي ودفع إليّ ثلاثة خطابات. الأول لي والثاني من الشريف حسين لك والثالث منه أيضاً للصدر الأعظم. وإذ كان الأخيران مكتوبين بالشيفرة قد عجلت بإرسالهما إليك.

أما الخطاب المرسل إليّ فقد كتب علي بك فيه ما نصه: بناءً على الأوامر الصادرة من أبي سيقف نقل المتطوعين إلى فلسطين. ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين إلى مكة بدلاً من ضياع الوقت هنا. وإني آسف لاضطراري إلى الرحيل من دون أن أودعك. فالمرجو قبول عذري!.

أما الخطابان اللذان أرسلهما الشريف حسين مكتوبين بالشيفرة فلم أستطع قراءتهما. وقد أرسلت في الحال كتيبة إلى المكان الذي أقام فيه المجاهدون بالأمس. فوجدته خاوياً على عروشه. وقد أخبرني علي بك أنه ذاهب إلى مكة. ولكن المعلومات التي استقيتها من شيوخ العرب الموالين تدل على أنه قسم قوته إلى ثلاث كتائب وأنه أرسلها إلى جهات مختلفة. وإني لأظن أنها ستهاجم السكة الحديد هذه الليلة أو في صباح الغد على أكثر تقدير. وأن علي بك سيعطل مواصلاتنا بين المدينة وسوريا وسيقوم ومعه قوته كلها بهجمة فجائية على المدينة. لذلك. وبناءً على تعليماتك. تسلمت قيادة الجنود المرابطة في المدينة. وأعددت جميع معدات الدفاع استعداداً للطوارئ. فالأمل ألاّ تتركنا بلا إمدادات!».

فأجبت فخري باشا بأني سآمر بلا تأخر أن يذهب الجنود فوراً إلى المدينة ويأخذوا الأماكن التي خصصت لهم، وسألته هل يريد إمدادات أخرى.

ثم أمرت بفك رموز الخطابين المرسلين من الشريف حسين إليّ وإلى الصدر الأعظم، فإذا هو يعتذر في أولهما عن عدم استطاعته الاشتراك في الحملة على القناة إلى أن تجاب الطلبات التي طلبها في برقيته المرسلة إلى الصدر الأعظم، وإلى أن نكف عن اتباع خطة الإبهام والغموض حياله.

أما خطابه إلى الصدر الأعظم فقد قال فيه إنه لا يعرف أي الرجلين يصدق، أهذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرةً ولطالما أظهر له المجاملة والود، أم ذاك الذي استعمل معه ألفاظاً جارحة مهينة؟ فهو يرى نفسه مضطراً إلى قطع العلاقات بالحكومة حتى تجاب المطالب التي طلبها من أنور باشا قبل شهرين.

وكنت أنا المقصود بالسياسي الذي عامله بالمجاملة، أما الآخر الذي يقول إنه عامله بغلظة فيريد به أنور باشا، لأنه كان أرسل قبل ذلك بثلاثة أسابيع برقية إلى الشريف حسين لفته فيها إلى وجوب تغيير سلوك ابنه علي حيال حاكم المدينة.

وينبغي لنا أن نقرّ هنا أن الشريف حسين لما لم يجد ذريعة أخرى للثورة اعتزم أن يستغل مسألة لهجة الخطابات إلى أقصى حد، فإن الخطابات التي أرسلتها إليه كانت قد كتبت بلهجة لا تدع مجالاً للخلاف، ومن جهة أخرى لم تك ثمة كلمة جارحة في خطاب أنور باشا ولو أنني أسلم أنه لم يكن مكتوباً كله بعبارات المجاملة، ومن هذا نرى أن لهجة خطاب أنور باشا كانت سبب رفع الشريف حسين علم الثورة!!.

وكنت قد سلمت إلى الشريف فيصل قبل ذهابه إلى المدينة مفتاحاً للشيفرة لاستعماله إذا جدّ أمر غير عادي يريد إخباري إياه، فوردتني منه الرسالة الآتية بالشيفرة:

«لقد أصدر أبي الأمر بوقف نقل المتطوعين إلى سوريا لأسباب آمل أن أشرحها لك شخصياً متى تشرفت بلقائك قريباً. إن الحالة التي نشأت الآن أساءتني جداً، ولما كان من بواعث الألم إليّ أن تقع عليّ عيناك مرة ثانية قبل تسوية الأمور تسوية مُرضية فأتشرف بإخبار سعادتك أنني ذاهب إلى المدينة لتمضية بعض الوقت».

ومما يثبت خيانة الشريف حسين وجنايته هو مهاجمة رجاله للسكة الحديد في شمالي المدينة بعد نشوب الثورة بيومين أو ثلاثة.

ولما كانت الحوادث التي وقعت بعد ذلك تتعلق بالقتال بين العصاة والجنود لا أرى ضرورة لبحثها في مذكراتي، وأرجو عند عودتي إلى الوطن إن شاء الله أن أتمكن من نشر ما دار بيني وبين الشريف حسين من الرسائل التي حرصت عليها، وإذ وقع نظري على كتاب ماندلستام[١٠] ونصّ الترجمة الفرنسية للمنشور الذي رأى الشريف حسين نفسه مضطراً إلى إصداره لتبرير ثورته، أرى أن الغاية التي أرمي إليها في كتابي هذا تقتضي درس الأسباب الواردة في ذلك المنشور.

ويمكن أن ألخص فيما يلي أسباب الثورة التي أتى عليها الشريف حسين في منشوره الصادر بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤ الموافق ٢٧ يونيو/حزيران ١٩١٦، والمنشور في صيغته الأصلية أصدق شاهد على نفاق العرب الكتابي، في صفحة ٢٦٠ من كتاب ماندلستام، وهاك ملخصه:

السبب الأول: منذ أن تولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الأمور (لعله يقصد يوم ٢٣ يوليو/تموز ١٩٠٨ عندما أعلن الدستور) ساءت إدارة البلاد إلى حد أن الإمبراطورية فقدت شطراً كبيراً من أرضها وسكانها ونفوذها.

السبب الثاني: خلال الحروب الأجنبية العديدة الناشئة عن تلك الإدارة السيئة حلّ البؤس بالأهالي - وعلى الأخص أهالي الحجاز - إلى حد أنهم اضطروا إلى بيع الدور التي تؤويهم.

السبب الثالث: وكأنما ذلك لم يكن كافياً فأهملت قوانين الديانة الإسلامية. ففي استانبول مثلاً وعلى مرأى ومسمع من الحكومة وشيخ الإسلام بلغت الجرأة بصحيفة تسمى الاجتهاد إلى حد الكتابة عن المصطفى عليه الصلاة والسلام بلهجة لا تتفق والتبجيل التقليدي المتبع عند المسلمين عند إشارتهم له.



غلاف صحيفة الاجتهاد

صدرت في استانبول. صحيفة سياسية اجتماعية. لصاحبها «عبدالله جودت» طورانية الاتجاه تدعو إلى التتريك وتحرض بمقالاتها على العرب والأرمن. جعلت من تنفير الأتراك من الدين الإسلامي والتحامل على العرب وتراثهم وأعلامهم هدفاً رئيسياً لها. فكانت معادية للقضية العربية ومطالبهم الإصلاحية. ليست مصادفة أن كتّابها من يهود الدونمة ممن تسمّوا بأسماء إسلامية. حاولت الترويج لقرآنٍ جديد (الكتاب القويم) وأناشيد قومية وضعت فيها جنكيز خان وهولاكو في مقام الأنبياء. وأن محمداً... والإسلام... والقرآن... هذا الاتجاه حاول الاتحاديون تعميمه داخل تركيا نفسها بواسطة الصحافة اليومية والأسبوعية وفي الجامعات والمدارس الحربية وفي البرامج التعليمية.



الدكتور عبدالله جودت (١٨٦٩-١٩٣٢) ناشر مجلة «الاجتهاد»

مثقف كردي عثماني، دكتور في طب العيون، ناشط سياسي، شاعر، أديب، مترجم، مفكر حر علماني. من «أرابكير» من خربوط. ابن طبيب ومسؤول ديني إسلامي. من عائلة بهائية المذهب، كان لها دورها الاجتماعي والسياسي وسط الأكراد في ديار بكر. هذا المذهب المنحوت من الإسلام أتاح له أن يفكر منطلقاً متحرراً من قيود الأفكار المحنطة الجامدة. أثناء دراسته الطب في استانبول تعرف إلى الأفكار المادية، الأفكار العلمية، العملية القائمة على التجربة والنظر. اطّلاعه على الفكر العلمي وبالأخص الفكر العلمي لـ(أوغست كومت) والروحية والمادية لـ(فيليكس إزاندر) وقوة المادة لـ(لودفيغ بوخنر) والداروينية الاجتماعية (هربرت سبنسر) والفكر الاشتراكي الفرنسي المادي (فوريه) و(بابوف) وأفكار الثورة الفرنسية (جان جاك روسو) و(مونتيسكيو) و(فولتير) و(فيخته) عن الأمة والقومية والمادية الديالكتيكية (لماركس/أنجلز) إلى جانب الأفكار الاقتصادية. وأوروبا تعيش مجتمع الثورة الصناعية العلمية وتراكم الرأسمال الصناعي العسكري، إلى الحروب والاستعمار والعالم الجديد الذي يتشكل ويعيش مخاضاً. كل هذا عاشه وغرف منه وبلورت فكره. كل هذا أين منه تركيا؟؟ التي تعيش حروباً لا تنتهي تستنزفها بشراً وأموالاً. أفكار كلها أكسبته عمقاً للتفتيش عن مخرج لأزمات السلطنة المتخلفة عن التطور والتمدن. عبدالله جودت مثله مثل آلاف العثمانيين الرافضين لأحوال التخلف والجهل والمرض. الحل لكل هذا موجود في المدنية الأوروبية وحضارتها. مستنتجاً أن الدين الاسلامي والنظام السياسي الخلائفي هما عقبتان رئيسيتان للتخلف والجهل. لذا أفكاره والتفتيش عن مخرج للأوضاع العثمانية الداخلية جعلته يلتقي وينسجم مع مجموعة شبان في الكليّة الطبية في ١٨٩٠ تشاركه بحثه عن المخرج وتدعو إلى إصلاح يحرر مجتمع الإمبراطورية العثمانية. مع ثلاثة تلامذة أطباء في الأكاديمية الطبية العسكرية تتقاطع أفكاره مع أفكارهم. ابراهيم تيمو وإسحق سكوتي وحسين علي زادة أيضاً مثله غير أتراك شكلوا تجمعاً (نواة) سنة ١٨٨٩ «جمعية تركيا الفتاة». تغير اسمها مرات عدة لتصبح مستقبلاً «جمعية الاتحاد والترقي» سنة ١٨٩٢ أوقفتهم الشرطة السياسية. حالهم كحال بقية انتلجنسيا الأعراق الطامحة إلى التحرر الباحثة عن الحل. فظهرت أحزاب وجمعيات وأندية، أرمنية، عربية، كردية، البانية، يونانية، شركسية، بلغارية، رومانية متمردة على استمرارية الاحتلال العثماني التعسفي. وفي سنة ١٨٩٦ نفي إلى طرابلس حيث خدم هناك كطبيب عيون في مستشفى عسكري. فمن الطبيعي أن النظام الأوتوثيوقراطي سيعتبرهم مهدّدين للنظامه. وبسبب مواصلته لنشاطه السياسي وملاحقته أجبر على الهرب إلى تونس ومنها إلى أوروبا. سنة ١٩٠٠ وافق جودت على العمل كطبيب ضابط في السفارة العثمانية في جنيف/سويسرا بشرط إطلاق رفاقه السياسيين المنفيين في طرابلس. مساومة كانت مع السلطان عبدالحميد نفسه. نشاطه السياسي لم يفتر وهجومه على النظام والسلطان لم يتراجع فحوكم غيابياً. ذهب إلى مصر، وهناك انضم إلى رفاق «تركيا الفتاة» فيما بعد «اللامركزيين» متابعاً مطالبته بالاصلاح عبر جريدته «الاجتهاد» التي سبق له ان أصدرها في سويسرا (توقفت عن الصدور لدى وفاته) لترويج أفكاره في المدنية والحداثة والعلمانية المادية وسط الجماهير الاسلامية. بقي في مصر حتى سنة ١٩١١. عاد إلى استانبول موقناً أنه في ظل نظام جديد وسلطة جديدة يستطيع مواصلة نشاطه الفكري والمطالبة بالاصلاح. محاربته للفساد كانت تطغى عليها شخصية إلحاده ومحاربته لِلدين الإسلامي. موقفه هذا أربك حكومة الاتحاديين. كان معارضاً لدخول تركيا الحرب العالمية ما أثر على علاقته بأرباب النظام. حتى بعد الحرب عين مديراً للصحة العامة. منذ ١٩٠٨ حتى ١٩١٨ وهو يقود (حركة الأوربة) في السلطنة العثمانية. أفكاره الالحادية أبرزته وكأنه صاحب بدعة منافية للدين الاسلامي ما دعا البعض إلى المطالبة بتقديمه إلى المحاكمة. وها هو يواجه من جديد السلطة المفترضة انها حليفته. فيواجه المحكمة في زمن الجمهورية كما في زمن السلطان. لم يحكم انما سنة ١٩٢٦ منع من إصدار منشوراته. تعرض الدكتور عبدالله جودت للملاحقة والنفي والسجن. كثير غيره عانى مرارة الحكم المتسلط. مثل رضا نور وعلي كمال بك فكانت باريس ولندن وسويسرا اماكن آمنة لنشاطهم السياسي الثقافي الاجتماعي. الدكتور جودت لم يشارك الاتحاديين في أي موقع في السلطة أو منصب. ولم يتورط في جرائم حرب. لذا وجد بريئاً ولم توجه له أي تهم. شارك في تأسيس «جمعية التشكيلات الاجتماعية الكردستانية» جمعية كردية علمانية. وقد جمعت تحت لوائها جميع فئات الشباب والطلبة الكرد الموجودين في المعاهد العلمية في استانبول وأوربا الذين أبدوا معارضتهم للارتباط بنظام استانبول. كان موجهها العقائدي وأنشط أعضائها.

- له ديوان شعر في أربعة مجلدات نشرها سنة ١٨٩٠ بالتركية والفرنسية وهو كان متأثراً بشعر كل من حميد ونامق كمال ومحمود أكرم بالاضافة إلى الشعر الفرنسي.
- ترجم إلى التركية كتاب المستشرق الهولندي راينهارت دوزي (تاريخ المسلمين History of the Muslims) وكتب مقدمة الكتاب الأمر الذي أثار نقمة شديدة عليه من مخلفات الفكر (الأوتوثيوقراطي).
- في جنيف أصدر جريدة «العثمانلي» بالتركية والفرنسية معارضة لسلطة حكم الفرد.

رؤيته المادية العلمية إلى الكون والمجتمع والسياسة والاخلاق والإنسان وأنظمة الحكم كانت النافذة التي يرى من خلالها. فتوزعت مقالاته وأبحاثه على مجموعتين:

- الأولى: العلم والفلسفة سنة ١٩٠٦.
- الثانية: سبر عالم الاسلام من وجة نظر فلسفية وتاريخية سنة ١٩٢٢.

السبب الرابع: بل إن تلك الصحيفة تقترح إحداث تغيير في الشريعة الإسلامية فيما يختص بالمواريث بأن تتساوى النساء والرجال في الحقوق.

السبب الخامس: وقد تذرعت الحكومة بوجود حالة حرب فأصدرت منشوراً أعفت فيه الجنود المرابطين في المدن كدمشق والمدينة ومكة من الصوم.

السبب السادس: لقد نقضت سلطة الخليفة وضيّقت دائرة الامتيازات التي منحتها إياها أحكام الشريعة بتجريد جلالته من حق انتخاب رئيس مجلس الوزراء أو الوزراء.

السبب السابع: لقد انكشف الأمر وتبين أن الإمبراطورية أصبحت في أيدي أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا يتحكمون فيها كيفما شاؤوا واختاروا.

السبب الثامن: وأغرب برهان على ذلك الأمر الذي صدر حديثاً إلى أحد قضاة المحاكم بأن يبني أحكامه على مجرد الشهادة التي تسمعها المحكمة في أثناء حضوره وأن لا يحفل بشهادة المسلمين في الجهات الأخرى البعيدة عن تلك المحكمة. وهذا يناقض النصوص الواردة في سورة البقرة.

السبب التاسع: وهناك برهان آخر وهو شنق هؤلاء الوجهاء: الأمير عمر الجزائري والأمير عارف الشهابي وشفيق بك المؤيد (العظم) وشكري بك العسلي وعبد الوهاب (لا أدري لماذا لم يذكر الشريف حسين كلمة «الإنكليزي» (وهو اللقب الذي عرف به عبد الوهاب) وتوفيق بك البساط وعبد الحميد الزهراوي وعبد الغني العريسي وأمثالهم.

السبب العاشر: ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل إن سائر أصدقائهم وأقاربهم قد نُفُوا وصودرت ممتلكاتهم.

السبب الحادي عشر: وقد حطموا ضريح أخي الأمير المبجل عبد القادر الجزائري الحسني.



الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧-١٨٨٣)





ثالوث قادة الاتحاد والترقي

تلك هي قائمة الأعذار التي جادت بها قريحة الشريف حسين تبريراً للثورة في خلال الخمسة والعشرين يوماً. بين اليوم الثاني من يونيو/حزيران وهو يوم بدء الثورة واليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه عندما أعلن نفسه ملكاً.

وإني أناشد العالم الإسلامي بما جُبل عليه من حب العدل هل في الأسباب الثمانية الأولى شيء ما ولو بسيط يبرر أن يقوم مسلم يدين بالدين الحنيف وعلى الأخص رجل يدّعي أنه من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام ويرفع علم الثورة ضد خليفة المسلمين؟ إن الحوادث التي يشير إليها الشريف حسين في الأسباب الثلاثة الأخيرة وقعت بعد يوليو/تموز ١٩١٥. أي بعد أن بدأت المفاوضات بينه وبين الإنكليز. وقد صارت الحكومة بعدما داخلتها الريبة في إخلاص الشريف حسين مضطرة إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لصون مصالح العالم الإسلامي. وعلى ذلك فليس للشريف أي حق في أن يتذرع بها ويتخذها أسباباً لثورته.

ولقد قرأت في أحد أعداد جريدة القبلة[١١] سنة ١٩١٧ التي تصدر في مكة المكرمة خطاباً للشريف حسين. ولا أستطيع لسوء الحظ أن أذكر سائر محتوياته لأنه ليس معي في هذه اللحظة. ففيه كتب الشريف إلى سيد من سادة العرب لم يذكر اسمه فقال:

«منذ أن تبوأت الإمارة وضعت نصب عيني هذا الغرض الأسمى ألا وهو تحرير العرب. فلم أدخر وسعاً لتحقيق تلك الغاية. وقد كان لأجلها أنني وطدت العلاقات بيني وبين كبريات القبائل العربية. ومما يدلك على عظم جهودي هو مشاركتي في حملة العسير حين أرسلت قوة مسلحة بقيادة ولدي عبد الله لرد الغزوة التي قام بها الأمير ابن الرشيد بإيعاز من الأتراك على الأمير ابن السعود...».

ولعمري إن هذا هو ما يسمى الاعتراف غير القهري!.

فالحقيقة كما يسلم بها الشريف نفسه هي أنه كان يفكر في الخروج على سلطانه منذ اليوم الذي أصبح فيه إماماً. وأن سائر ولاة الحجاز كانوا على علم بمقاصده وأهدافه وبعثوا بها إلى استانبول. وقد برهن وهيب باشا بصفة خاصة على أصالة الرأي في ما يتعلق بهذه المسألة. فإنه رأى لزاماً إرسال فرقتين على الأقل إلى مكة لخلع الشريف وتولية خلف له. ولكن الحكومة رفضت اتخاذ هذه الإجراءات الشديدة خيفة أن تؤدي عبثاً إلى فضيحة جديدة ربما كانت سبب إثارة للقلاقل. فبعد انتهاء الحرب البلقانية استصوبت تنفيذاً لسياستها الداخلية أن تصل بالحسنى إلى اتفاق ودي مع العرب.

ومتى سنحت لي الفرصة نشرت الرسائل التي تبودلت في خلال عام أو يزيد. وسيقدر الجمهور قدر الجهود التي بذلتها - وخصوصاً بعد دخولنا الحرب العالمية - لكيلا أدع للشريف سبباً ما ولأجرده من كل المعاذير لمخاصمتنا.

إن الشريف حسين يعد جناية منا أن حكمنا بالإعدام على بعض وجهاء سوريا. ومع أنني نشرت من قبل الوثائق الرسمية في كتاب آخر سميته «حقيقة المسألة السورية». وهي وثائق تثبت إدانة المتهمين. فليس عبثاً أن اعرض بعضها هنا.

القنصلية الفرنسية في دمشق
تحريراً في ١٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٣
بشأن قضية نخلة المطران باشا البعلبكي
من القنصل العام إلى صاحب السعادة السيد بومبار

أتشرف بإخبار سعادتكم أن نخلة المطران باشا من ذوي النفوذ في بعلبك قد زار هذه القنصلية مرتين في خلال الأسابيع الأخيرة. وقد كان ذلك السيد منذ عامين سكرتير السفارة التركية في باريس وله معرفة بمعظم رجالنا السياسيين وهو من رعية الكنيسة الكاثوليكية وعضو في حزب الاتحاد والترقي، ولو أنه كذب ذلك في أحاديثه معي عندما أشار إلى «إخفاق سياسة اللجنة ووقاحة الاتحاديين».

فلقد انتهز نخلة المطران باشا فرصة السفر إلى دمشق لطلب إعادة محاكمة أحد أصدقائه وحضر لزيارتي للمناقشة - كما قال - «في مسألة تهم الدولة التي اختارتها الطبيعة لحماية لبنان وسوريا». ثم أكد لي أن زعيم الساسة الفرنسيين شافهه في الموضوع نفسه.

ومما قاله: «إن الحالة الحاضرة أصبحت لا تطاق وإننا عزمنا على إدماج بعلبك وسهل البقاع في لبنان لارتباط تلك الجهات جغرافياً، بيد أننا نفتقر لتحقيق هذه الغاية إلى مساعدة وحماية الحكومة الفرنسية. وقد وطدنا العزم - نحن المسلمين والمسيحيين - على إدراك النجاح. وإنّا لنعرف كيف نحقق غايتنا إذا فكرت الحكومة العثمانية في مقاومتنا بالسلاح. وينتمي إلى حزبنا فريق من أهالي بعلبك وعلى هذا فمدينتنا لها مركز خاص، فهي مفتاح قلب سوريا والطرق المؤدية إلى الداخل. فأنا وأسعد بك حيدر رئيس المتاولة[١٢] وأكبر الرجال نفوذاً في تلك الجهة وعبد الغني بك الرفاعي الزعيم السنّي قد عقدنا النية على أن تكون جهتنا جزءاً من لبنان. وقد قررنا أن نذهب إلى بيروت لنخبر السيد كوجيه بنياتنا لأنه على الدوام مهتم اهتماماً شديداً بكل ما يتعلق بلبنان. ولأن بعلبك هي في دائرة قنصليتك كان عليّ أن أطلعك على هذه الأمور بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن أسعد بك وعبد الغني بك».

وإني طبعاً أتقبل تأكيدات نخلة المطران باشا كلها بكل احتياط. هذا بقطع النظر عن أنني قابلته بالحفاوة التامة. وقد زارني مرة أخرى وأكد لي من جديد إخلاصه لفرنسا ووعد بأن يقدم إليّ أي خدمة يستطيعها في بلاده.

بيروت في ١٢ مارس/آذار ١٩١٣
إلى جانب السيد كوجيه قنصل فرنسا العام في سوريا
سيدي القنصل العام

لأن فرنسا هي الحامية الطبيعية للمسيحيين العثمانيين والوطن الثاني لمسيحيي سوريا نتشرف نحن الموقّعين هذا، الأعضاء المسيحيين في اللجنة التنفيذية في الجمعية العمومية المنتخبين بواسطة مجالس النقابات في ولاية بيروت لوضع مشروع إصلاح لتلك الولاية بأن نعرض على أنظار قنصل فرنسا العام في سوريا الملاحظات التالية بخصوص:

- موقف المسيحيين العثمانيين.
- الإصلاحات التي اقترحتها اللجنة التنفيذية.
- أماني وآمال المسيحيين السوريين.

ولنا وطيد الأمل في أن يعرض جناب القنصل العام هذه الملاحظات على حكومة جمهورية فرنسا ويؤيدها بكل نفوذه.

بيروت في ١٨ مارس/آذار ١٩١٣

سلم إليّ السيد خليل زينية محرر جريدة الصلاح العربية بالنيابة عن الموقعين صورة منشور أتشرف بإرسالها إلى سعادتكم طي هذا لأهميتها السياسية.

وهذا المنشور إنما وضع بعد موافقة زعماء اللجنة التي تعمل سراً لتنفيذ الإصلاحات في سوريا كما أخبرتكم بذلك مراراً، وقد وقّعه أكبر أولئك السادة نفوذاً، فالمحامي السيد بترو طراد وسكرتير القنصلية السيد تويني (روم أرثوذكس)، والسيد هاني من أصحاب الأملاك ماروني، والدكتور ثابت (بروتستانت)، السيد زينية من (أصحاب الأملاك)، السيد أرقش (روم كاثوليك).

ولقد أظهروا في خطابهم المرسل إليّ بالنيابة عن الطوائف الدينية التي يمثلونها اهتماماً شديداً بتحقيق أماني المسيحيين، كما أكدوا تعلقهم الشديد بفرنسا. إن هذه الوثيقة الجديدة هي بمثابة دليل آخر على مبلغ ما يشعر به نحونا مسيحيو تلك الجهة، وهي تبرهن من جهة أخرى على عظم الأثر الذي أحدثته الوعود الفرنسية والآمال الكبيرة التي أثارتها في نفوس تلك الطوائف.



بترو طراد



أيوب ثابت

هوامش الفصل الثاني:

(١) مراسلات حسين/مكماهون: تمت هذه المراسلات في إطار ما كانت تجريه الاستخبارات البريطانية في مكتبي مصر والهند حول إمكان قيام ثورة عربية على الأتراك العثمانيين من جهة، ولطمأنة رعايا بريطانيا المسلمين إلى الأماكن المقدسة من جهة أخرى. وجرت على مرحلتين:

- الأولى بواسطة (الأمير) الشريف عبدالله الابن الثاني لـ(الملك) للشريف حسين، الذي حاول معرفة موقف الحكومة البريطانية في حال اضطراره إلى الدفاع عن الحجاز وحمايته من تعديات الأتراك. تمت الاتصالات العربية الإنكليزية في القاهرة بين الأمير عبدالله وسكرتير القسم الشرقي بالمعتمدية البريطانية في مصر السيد رونالد ستورز، وفيما بعد التقى اللورد كتشنر.

- الثانية بدأها السير وينغيت بواسطة السيد علي الميرغني الذي اقترح على الشريف حسين، ما يلي:

أ- إعادة الخلافة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية.

ب- جعل مركز الخلافة في الحجاز.

ج- يتولى الخلافة الشريف حسين لتحدّره من آل البيت.

ثم تابع الاتصالات السيد مكماهون المعتمد البريطاني الجديد في مصر وعُرفت باسم (مراسلات حسين- مكماهون) وجرت في الفترة بين ١٤/٧/١٩١٤-١٠/٣/١٩١٦ وأسفرت عن عشر رسائل، خمس منها كتبها الحسين، وخمس كتبها مكماهون (عرضت بريطانيا على الوفود العربية المجتمعة في لندن لبحث قضية فلسطين نسخاً فوتوغرافية مصورة لسبع رسائل فقط باستثناء ١ و٣ المرسلتين من الشريف إلى مكماهون، والرسالة الثامنة الصادرة من مكماهون إلى الشريف) وكل ما نُشر عن الرسائل هو «المضمون» ملخصاً، ومما سمحت به وزارة الخارجية للجمهور، ومما لخّص:

مطالبة الشريف حسين بـ:

أ- أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود(...).

ب- على بريطانيا أن توافق على إعلان خلافة عربية.

واعتبر الحسين قضية الحدود نقطة جوهرية، وأبدى مكماهون استعداد بريطانيا للاعتراف باستقلال العرب وتحفظ من الموافقة على الحدود التي يرى أنه ليس لبريطانيا حرية التصرف فيها لئلا تمس مصالح حليفتها فرنسا. وأذعن الشريف حسين مجيباً إنه حالياً يتجنب ما من شأنه أن يؤثر في موقف فرنسا، «ولنا بعد الحرب مطالب» (يقظة العرب الكبرى لجورج أنطونيوس. الموسوعة السياسية، مج٢ ص٥٤٥. الحركة العربية، سليمان موسى. حول الحركة العربية، دروزة).

(٢) مفاوضات السيد جورج بيكو مع السيد مارك سايكس: ما نتج من هذه المفاوضات أُطلق عليه اتفاقية سايكس-بيكو. اعتبرت الاتفاقية تتويجاً للتفاهم البريطاني-الفرنسي وحسماً للصراع الجاري على الممتلكات الآسيوية للإمبراطورية العثمانية (الرجل المريض) إبان الحرب العالمية الأولى بموافقة روسيا القيصرية على تقسيم ممتلكاتها فيما بينهم. بقي الاتفاق سرياً حتى قيام الثورة البلشفية في أكتوبر ١٩١٧، التي كشفت للعالم أسراره ووثائقه وتواطؤ الدول الاستعمارية ودور بريطانيا وفرنسا في التآمر، ونتائج الاتفاق في توزيع الحصص. فلسطين والعراق وإمارة شرق نهر الأردن لبريطانيا، وسوريا ولبنان لفرنسا، ولاحقاً قيام دولة يهودية (حق قومي لليهود) في فلسطين غرب نهر الأردن. سمّيت الاتفاقية بهذا الاسم نسبة للمفاوضَين، البريطاني مارك سايكس والفرنسي فرنسوا جورج بيكو.

* اتفاقية سايكس-بيكو-سازانوف: عام ١٩١٦ كانت تفاهماً سرياً بين فرنسا وبريطانيا ومصادقة روسيا على اقتسام الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا لتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا بعد تهاوي الإمبراطورية العثمانية المسيطرة على هذه المنطقة في الحرب العالمية الأولى.

تم الوصول إلى هذه الاتفاقية بين تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٥ وأيار/مايو عام ١٩١٦ بمفاوضات سرية بين الدبلوماسي الفرنسي فرنسوا جورج بيكو والبريطاني مارك سايكس، وكانت على صورة تبادل وثائق تفاهم بين وزارات خارجية فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية آنذاك.

تم الكشف عن الاتفاق بوصول الشيوعيين إلى سدة الحكم في روسيا عام ١٩١٧، ما أثار الشعوب التي تمسّها الاتفاقية وأحرج فرنسا وبريطانيا، وكانت ردة الفعل الشعبية-الرسمية العربية المباشرة قد ظهرت في مراسلات حسين مكماهون.

تم تقسيم الهلال الخصيب بموجب الاتفاق، وحصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الجناح الغربي من الهلال، سوريا ولبنان وجزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل في العراق، أما بريطانيا فامتدت مناطق سيطرتها من طرف بلاد الشام الجنوبي متوسعاً بالاتجاه شرقاً لتضم بغداد والبصرة وجميع المناطق الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة الفرنسية في سوريا. كما تقرر أن تقع المنطقة التي اقتُطعت فيما بعد من جنوب سوريا وعُرفت بفلسطين تحت إدارة دولية يتم الاتفاق عليها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، لكن الاتفاق نص على منح بريطانيا مينائي حيفا وعكا على أن تكون لفرنسا حرية استخدام ميناء حيفا، ومنحت فرنسا لبريطانيا في المقابل استخدام ميناء الإسكندرونة الذي كان سيقع في حوزتها.

لاحقاً، وتخفيفاً للإحراج الذي أصيب به الفرنسيون والبريطانيون بعد كشف هذه الاتفاقية ووعد بلفور، صدر «كتاب تشرشل الأبيض» عام ١٩٢٢ ليوضح بلهجة مخففة أغراض السيطرة البريطانية على فلسطين، إلا أن محتوى اتفاقية سايكس-بيكو تم التأكيد عليه مجدداً في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠، بعدها أقر مجلس عصبة الأمم وثائق الانتداب على المناطق المعنية في ٢٤ حزيران/يونيو عام ١٩٢٢.

* الدول والكيانات السياسية التي ورثت الحدود المرسومة بموجب هذه الاتفاقية أو الاتفاقيات الناجمة عنها:

< العراق، استقل عام ١٩٣٢ بجهد إنكليزي.

< منطقة الانتداب الفرنسي على سوريا:

- سوريا، استقلت فعلياً عن فرنسا عام ١٩٤٣.
- لبنان، استقل عن فرنسا عام ١٩٤٣.

< منطقة الانتداب البريطاني على فلسطين:

- الأردن، أنشئ ككيان مستقل عن سوريا الكبرى وبعدها عن فلسطين عام ١٩٤٦ بجهود إنكليزية (كانت منطقة حكم ذاتي منذ عام ١٩٢٢).
- فلسطين، انتهى مفعول صك انتداب عصبة الأمم على فلسطين يوم ١٤ أيار/مايو عام ١٩٤٨ وجلا البريطانيون عنها، لكن في اليوم التالي أُعلن قيام إسرائيل فوق أجزاء كبيرة من حدود الانتداب البريطاني على فلسطين وبدأ الصراع العربي-الإسرائيلي، وفي عام ١٩٩٤ قامت السلطة الوطنية الفلسطينية كسلطة شبه مستقلة تأسست وورثت أجزاء ضيقة من حدود الانتداب البريطاني السابق على الضفة الغربية لنهر الأردن ومنطقة غزة التي كانت تتبع مصر إدارياً.

تقسمت منطقة الانتداب الفرنسي في سوريا إلى وحدتين سياسيتين: سوريا ولبنان في عشرينيات القرن العشرين، ثم استقلتا وأصبحتا دولتين في أربعينيات القرن العشرين.

تقسمت منطقة فلسطين، التي خضعت للانتداب البريطاني في عام ١٩٢٢، إلى وحدتين سياسيتين: فلسطين وشرق الأردن. في عام ١٩٤٦ أصبح شرق الأردن مملكة مستقلة (اليوم المملكة الأردنية الهاشمية)، وفي عام ١٩٤٩ (إثر حرب عام ١٩٤٨ وبعد إلغاء الانتداب البريطاني) تقسمت فلسطين إلى ثلاث وحدات سياسية: إسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة، وفي عام ١٩٩٤ تأسست السلطة الفلسطينية التي تمتد صلاحياتها على الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن المحتمل أن تصبح هذه السلطة دولة فلسطينية مستقلة.

(٣) آمدن: طراد ألماني صغير، سريع، كان تابعاً لأسطول الأميرال «فون سبي» في المحيط الهندي وبحر الصين، والذي راح عند إعلان الحرب يعيث في سفن الحلفاء العسكرية والتجارية، الإنكليزية منها والروسية والفرنسية، تدميراً وإغراقاً فصار فريداً في تاريخ البحار لا يدانيه آخر، إنزل الرعب في قلوب بحارة الحلفاء، ما كبّد التجارة الإنكليزية البحرية (٢٠ سفينة إنكليزية) خسائر فادحة وتوقفت لفترة، أخيراً تمكنت البوارج الإنكليزية بعد أن عيل صبرها من تدمير أسطول الأميرال «سبي» ومعه الطراد (آمدن)، بعدها سادوا البحار.

أما بشأن البدو الذين هاجموا بحارة الطراد (آمدن)، فالصحيح أن عناصر عند الشريف حسين بتنسيق مع القيادة الإنكليزية طاردوا البحارة ومنعوهم من الرسوّ على السواحل العربية.

(٤) تصديق الإعدامات من وزيري الحربية والداخلية: لم ينتظر وصول الجواب من العاصمة استانبول من وزير الداخلية طلعت باشا ووزير الحربية أنور باشا، وهو بنفسه يقول إنه أمر بالتنفيذ، وفي الأجزاء ٥-٧-٨ من المجموعة نجد على لسان كاتبيها المسؤولين الأتراك استشهادات بتفرد أحمد جمال باشا بقرارات الإعدام، وعدم اهتمامه بجواب رئيس المحكمة أو موقف القاضي.

(٥) القابون: الآن هي من ضواحي دمشق. كان لآل البكري فيها دارةٌ كبيرة. استضافوا فيها الامير فيصل وهناك التقى باعضاء حزب العربية الفتاة.

(٦) في الأصل ورد اسم «كامل بدر الدين» ولم يُذكر الحسيني. ولم يُعرف عن الشيخ بدر الدين الحسيني أنه أتى إلى القائد أحمد جمال باشا وقابله. الحقيقة أن القائد ذهب بنفسه إلى الشيخ بدر الدين الحسيني لأخذ فتوى منه وموافقة على الإعدامات. إنما الشيخ رفض ذلك.

(٧) عبد القادر الخطيب (١٨٧٤-١٩٣٢): خطيب الجامع الأموي، مدير الأوقاف. عبد القادر بن أبي الفرج الحسني، الجيلاني. تلقّى العلم عن والده وأعمامه. قرأ على علماء الشام ومصر ودرس مادة المعقول والمنقول والحديث على ابن خالته الشيخ بدر الدين الحسني. تصدّر للتدريس مبكراً في الجامع الأموي وشهد أحد دروسه الشيخ محمد الخضر التونسي. بعد وفاة حافظ دار الكتب الوطنية الظاهرية عمه الشيخ أبو الفتح الخطيب، وقع اختيار المسؤولين على الشيخ عبد القادر أن يقوم بمسؤولية إدارة المكتبة. عمل في التجارة مع صديقه إبي الفرج. انتخب رئيساً لغرفة التجارة بدمشق، وعضواً في المجلس البلدي. ثم في مجلس إصلاح المدارس وفي المجلس العام لولاية سوريا. عيّن واعظاً عاماً للجيش العثماني. اختير عضواً في البعثة العلمية إلى استانبول وهناك وُلّيَ خطبة الجمعة في جامع الحميدية ثم في جامع الفتح في اسكدار. بعد ذلك صدرت إرادة سنية بتوليته خطابة الجامع الأموي في دمشق. التقى الأمير فيصل سراً في دمشق لبثّ الفكرة العربية ومقاومة الأتراك. حاول أحمد جمال باشا أن يستصدر فتوى من الشيخين بدر الدين الحسني وعبد القادر الخطيب بتجريم أحرار العرب لإعدامهم وتبرير أحكام الديوان العرفي في عاليه. بعد دخول الأمير فيصل دمشق فاتحاً عيّن الشيخ عبد القادر رئيساً لبلدية المدينة ثم واعظاً عاماً للجيش السوري والبلاط الملكي. سنة ١٩٢٢ عيّن عضواً في مجلس الشورى العربي، ثم مفتشاً عاماً للأوقاف الإسلامية في الولايات السورية. انتخب عضواً في الجمعية التأسيسية عن دمشق، ثم مديراً للأوقاف الإسلامية في الشام وحاول إصلاح ما يجب إصلاحه كعادته في كل المناصب. إنما أعداء الإصلاح ترصدوا له وحملوا عليه (تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر (الحافظ، أباظة، فيصل). دار الفكر، ج١، ص ٤٦٠-٤٦٤).

(٨) الحديث رواه البخاري في باب أحاديث الانبياء والحدود، ورواه مسلم في باب الحدود، أبو داود رواه في باب الحدود، الترمذي رواه في باب الحدود، النسائي في باب قطع السارق، ابن ماجة في باب الحدود، وورد في سنن البيهقي في كتاب السرقة، وعند ابن حبان أيضاً.

(٩) الكتاب الاحمر: القسم الثالث من هذا الكتاب «المذكرات».

(١٠) كتاب أندريه ماندلستام هو الجزء الحادي عشر في المجموعة.

(١١) القبلة: جريدة دينية سياسية اجتماعية. صدرت لخدمة الإسلام والعرب. أصدرها الحكم الهاشمي في ١٩١٦/٨/١٥ على مدى ثماني سنوات من دون انقطاع. حرر فيها فؤاد الخطيب، أحمد الخطيب، خير الدين الزركلي، أحمد شاكر الكرمي. كانت ناطقة بلسان الشريف حسين وبإشراف مباشر ومتابعة منه على سياستها. تُعتبر سجلاً عن تلك المرحلة السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الأدبية (المصدر: الموسوعة العربية الميسرة، الموسوعة السياسية مج٣، ص١١٠).

(١٢) المتاولة: تسمية ما زالت شائعة الاستعمال حتى الآن في لبنان خصوصاً. تُطلق على أبناء الطائفة الشيعية أو الجعفرية «الاثنا عشرية» المعنى الشائع لها لأنهم تولّوا علياً وأهل بيته (المنجد، ط٣٧، ص٩١٩). والحقيقة أنها أُطلقت عليهم بسبب تأويلهم وتفسيرهم لآيات القرآن...

الفصل الثالث

موقف المسيحيين العثمانيين

لقد كانت حالة المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية سيئة على الدوام، بل محزنة، وربما تزداد الحالة سوءاً عقب الحرب البلقانية والهزائم التركية لأن النتائج المباشرة لتلك الهزائم هي:

أولاً: زيادة الضرائب.

ثانياً: بعث روح التعصب الديني بين المسلمين.

ثالثاً: حمل مسيحيي سوريا من جديد على الهجرة.

أما من حيث زيادة الضرائب فإن الحكومة التركية على أثر ضياع ممتلكاتها في أوروبا ستسعى - بل هي ساعية الآن فعلاً - إلى نقل العبء الذي كان على كاهل الولايات الأوروبية (البلقانية) إلى كاهل الولايات الآسيوية. وإن العارفين بحيل الإدارة التركية ووسائل إرهاقها في فرض الضرائب، يعلمون جيداً أن الأعباء الجديدة لن تقع إلا على كواهل الأهالي المسيحيين وحدهم.

أما بشأن التعصب الإسلامي فكان أقوى وأنفع سلاح في أيدي الساسة العثمانيين، لذلك لم يحجموا عن استعماله في الحوادث الأخيرة في البلقان. فقد كان المسلمون يعتبرون الحرب البلقانية حرباً دينية بين الهلال والصليب، وتألبت فيها الدول المسيحية على الإسلام، وعلى ذلك ليس أيسر على المسلمين من أن يظنوا أن وجود المسيحيين في الدولة العثمانية هو السبب الرئيسي في هزيمتهم وتضعضعهم، والمسيحيون العثمانيون هم في نظر المسلمين أصل الشر وسبب البلايا التي نزلت بالدولة. فهم أعداؤها الطبيعيون، إذاً فمن المحتم أن يصيروا في المستقبل موضع الإهانات والاضطهاد، ونحن بالطبع لا نقصد ذلك الاضطهاد الظاهر الملموس الذي قد يترتب عليه تدخّل دولة من الدول - كلا، إذ التركي من أشد الناس مكراً وأحرصهم في ذلك - بل نقصد ذلك الاضطهاد البطيء الخفي الذي تفوقت فيه السلطات العثمانية اعتماداً على ما في القوانين التركية من المرونة.

أما من حيث هجرة مسيحيي سوريا فينبغي ألا يغرب عن البال أن عدداً عظيماً من المسلمين هاجر منذ الحرب البلقانية من مقدونيا وتراقية إلى سوريا، ولا تزال حركة الهجرة آخذة في الازدياد وتؤيدها فيها السلطات التركية، ومعنى هذا، ويا لسوء الحظ، أن التوازن العددي بين مسلمي سوريا ومسيحييها قد اختلّ ومال إلى غير مصلحة المسيحيين. إن المسلمين مستبدون فعلاً بمقتضى دينهم، فينتظر أن تزداد أنانيتهم وإثرتهم بعدما تضاعف عددهم.

ولقد ثارت ثائرة مسيحيي سوريا لهذا، حتى إن كثيراً منهم نزح إلى أميركا. فيمكن إذاً القول بأن الحالة هذه تساعد في الهجرة المزدوجة، هجرة المسلمين إلى سوريا وهجرة مسيحيي سوريا إلى أميركا. فإذا استمرت الهجرة ولو إلى أمد قصير فإن نتيجتها زوال العنصر المسيحي في سوريا.

المشروع الإصلاحي

على أثر الخطاب الذي ألقاه الرئيس بوانكاريه[1]، ذلك السياسي النافذ، وطالب فيه تركيا بإدخال الإصلاحات في ولاياتها الآسيوية، أجابت الحكومة التركية بالإيجاب وكلفت الولاة وضع مشاريع الإصلاح في ولاياتهم. وكان المسيحيون العثمانيون يعرفون بسبب التجارب الماضية ما يتوقعونه من وراء تلك النيات الخالصة من الحكومة، فقد كان الغرض الوحيد من وضع تلك المشروعات هو منع أوروبا من الإلحاح في طلب إدخال الإصلاحات المعينة في تركيا. وكانت الحكومة التركية تريد أن تتخذ تلك المشاريع - التي كانت في الظاهر كأنها من وضع الأهالي في حين أنها في الواقع من وضع الحكومة - وسيلة لرفض الإصلاحات التي تطلبها أوروبا وادعاء أنها لا تتفق وروح المشاريع التي وضعها الطرفان المختصمان.

على أن مسيحيي بيروت أبدوا على الرغم من كل ذلك رغبتهم في العمل بالاتفاق مع المسلمين لتنفيذ تلك الإصلاحات لسببين هما:

الأول: إحباط نيات الحكومة التركية ومنعها من الاستئثار بوضع المشروع بالطريقة التي تريدها.

الثاني: وضع المشروع مبدأ المراقبة الأوروبية في كل فرع من فروع الإدارة.

فلو قبل هذا المبدأ جميع أعضاء اللجنة، لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم، لقام الدليل الحاسم على أن السكان كلهم يرون أن الإصلاح في تركيا من الأمور المستحيلة ما لم يكن بمساعدة أوروبا.

آمال المسيحيين العثمانيين في سوريا وطموحاتهم

ولو افترضنا أنه يمكن الوصول إلى الإصلاحات بلا مساعدة أوروبا لما كان هذا بمطفئٍ غلّ مسيحيي سوريا، ذلك لأنهم متحدون مع فرنسا اتحاداً لا انفصام له، وأنهم لن ينسوا مطلقاً فرط إعجابهم بها وبمدنيتها العالية، ولا ما هم مدينون لها به من المساعدة في أوقات الشدة. فأقصى ما يبتغيه مسيحيو سوريا هو أن تحتل فرنسا الشام.

فلهذه الأسباب يعرض الموقعون أسماءهم من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيي بيروت بحسب مراتبهم المقترحات التالية التي يعتقدون أنها الوحيدة الكفيلة بتلافي الحالة السياسية الحاضرة في سوريا:

أولاً: احتلال فرنسا لسوريا.

ثانياً: استقلال ولاية بيروت استقلالاً تاماً بحماية فرنسا ووصايتها.

ثالثاً: إدماج ولاية بيروت في لبنان الذي يكون تحت سيادة فرنسا عملياً.

التوقيعات

يوسف هاني، بترو طراد، ميشيل تويني، رزق الله أرقش، خليل زينية، الدكتور أيوب ثابت

الجمهورية الفرنسية

القاهرة في ٢٨ مارس/آذار ١٩١٣

إلى الإدارة السياسية التجارية في أوروبا وأفريقيا والشرق في وزارة الخارجية

الرقم ١٣١

سوريا - اللجنة اللامركزية العثمانية

صورة

من السيد دوفرانس سفير جمهورية فرنسا المفوض في القاهرة

إلى السيد بيشون وزير الخارجية

في هذه الساعة يبدي السوريون المقيمون في القاهرة كثيراً من النشاط أو على الأقل يحضّ بعضهم بعضاً على العمل. ففي برقيتي الرقم ١٧ المرسلة إليكم في الثاني والعشرين من الشهر الماضي أخبرتكم باجتماع اللجنة اللامركزية الذي حضره السيد ميشيل تويني السكرتير المساعد في قنصليتنا في بيروت. ويظهر من المعلومات التي أمكنني الوقوف عليها فيما بعد أن قرارات اللجنة لم تكن معينة ولا بالإجماع كما ظن السيد تويني. وهو يعمل لا بصفته الرسمية بل بصفته الشخصية - أي كأحد أعيان سوريا - ولكنه يبدي في المشكلة السورية غيرة تكاد تكون مبالغاً فيها ويسعى للوصول إلى قرار جوهري سريع.

والمهم أن نلاحظ أيضاً أن ما ظهر من مطامح اللجنة اللامركزية يؤيد المعلومات التي وصلت إليّ منذ أمد قريب بصدد آراء مسلمي سوريا في مصير بلادهم. وقد بعثت إليكم بهذه المعلومات في خطابي في ٢٣ مارس/آذار رقم ١٢٣.



أنور وأحمد جمال في استقبال السنوسي

ويظهر أن السوريين - لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم - أو على الأقل السوريين المقيمين في القطر المصري الذين عدلوا في مطالبهم إلى الاقتراحات المشار إليها في خطابي بتاريخ ٢٣ مارس/آذار القاضي جعل سوريا دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً برئاسة أحد الأمراء المسلمين. وقد نُميَ إليّ أن كامل باشا - المقيم في القاهرة الآن - أثار الآمال في صدور أعضاء اللجنة التنفيذية وقال إنه موافق كل الموافقة على مشروع الإصلاحات ووعدهم بتحقيق أمانيهم كلها عند عودته إلى منصة الحكم. ولكن جميع الذين سمعوا تلك التأكيدات لا يرتابون لحظة في أن ذلك السياسي الهرم لن يحجم عن تجديد تلك الوعود لو عاد إلى الصدارة. كذلك هم من جهة أخرى واثقون بأن الوعود ستهمل وأن السوريين سيُضحك منهم مرة أخرى بالكلمات الخلابة. هذا هو السر في أن المشروع الأول القاضي بإيجاد نظام ذي إدارة لامركزية باسم «اللامركزية الإدارية» أصبح غير مقبول.

ثم هناك نقطة أخرى ألا وهي الدولة التي يرغب السوريون - إذا اقتضى الأمر - أن يضعوا إمارتهم المقبلة تحت حمايتها. فالآراء التي أشرت إليها في خطابي الرقم ١٢٣ تتناقض - كما يدل على ذلك تقرير تويني - والمطامح التي بدت في اجتماع اللجنة. وتدل التقارير التي تسلمتها هذا الأسبوع على أن السوريين يفضلون الحماية الإنكليزية على ما عداها من الحمايات. ولكن السيد تويني أكد لي أن أعضاء



الكبار الذين دخلوا الحرب. حين وقعت فاجعة سيراجيفو كان السيد بوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا قد وصل إلى بطرسبرغ في زيارة رسمية لقيصر روسيا توطيداً للصداقة بين الدولتين.. ويُشاهد في الصورة وهو يستعرض ثلة من حرس الشرف بصحبة قيصر روسيا.

اللجنة، المسلمين منهم والمسيحيين، مُجْمعون على طلب الحماية الفرنسية وحدها. ويحسن أن أذكر أن مخبري في الحالة الأولى هو أحد موظفي الحكومة الإنكليزية المصرية، فيما السيد توبني هو صديق فرنسا الحميم. ويخيل إليّ أن الحقيقة هي فيما بين هذين الطرفين. فإذا قدّر أن تكون سوريا تحت الحماية الأجنبية فإن المسيحيين على بكرة أبيهم أو معظمهم يرغبون من الآن في أن تكون الحماية فرنسية. وبين المسلمين الذين يفضل معظمهم الحماية الإنكليزية عدد لا يقبل الحماية الفرنسية، لأنهم أصدقاء فرنسا. أما الباقون فيقبلون الحماية الفرنسية أو الإنكليزية على السواء متى اختارتها لهم العوامل الخارجية.

وإذ أعلنت اللجنة رغبتها في الاستقلال الذاتي لسوريا أصبح بالطبع محتماً عليها أن تبحث عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن يعهد إليهم حكم الإمارة المقبلة. وتدل المعلومات التي وردتني أن هذه المسألة لم يتناولها البحث في اجتماعات اللجنة، ولكنّ كثيراً من الأعضاء أصبح مهتماً بها.

وقد أشرت في خطابي السابق الرقم ١٢٣ إلى أن رئيس اللجنة رفيق بك العظم يرى أن حاكم سوريا المنتظر لا يمكن أن يكون سوى زعيم أسرة العظم ألا وهو شفيق بك المؤيد العظم. بيد أن أعضاء اللجنة الآخرين يقولون إن السوريين لن يعترفوا بأحد منهم ملكاً عليهم لأن الجميع يرون أنهم متساوون في الدرجة. فهم يريدون انتخاب أمير من الأسرة الخديوية. وهذا الرأي الأخير هو رأي السيد توبني الذي جاءني ليطلعني على آرائه. وقال إن كثيراً من السوريين يشاركونه فيها.

فالمشروع في طوره الحاضر يرشح الأمير يوسف كمال باشا ابن عم الخديوي ليكون ملكاً على سوريا. والأمير رجل واسع الثروة مستقل في علاقاته. ولما سئل عن رأيه أعلن أنه يقبل الانتخاب على هذا الشرط الأساسي، وهو أنه إذا لم يكن بد من وضع سوريا تحت حماية دولة أجنبية فيجب أن تكون فرنسا هي الدولة الحامية. وينبغي لها أن تنبذ تماماً كل حماية أخرى عداها، وخصوصاً الحماية الإنكليزية.

ويعلل ما تقدم ما يُشاهد من الاضطراب السائد الآن بين الزعماء المسلمين والمسيحيين. ولكنْ بين القول والعمل بونٌ شاسع. ويخيل إليّ أن السوريين في القاهرة الآن غير قادرين على العمل ما لم تمتد إليهم من الخارج يدُ المساعدة القوية.

فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الإنسان بسهولة أن الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق لضم سوريا بحجة حماية العرب. فهل ثمة من يشك في نيات إنكلترا نحو العراق وفلسطين؟ لعمْري إن الذين يدّعون أنهم لا يعرفون شيئاً عن تلك المناورات إما أن يكونوا قصار النظر وإما أن يكونوا قد باعوا ضميرهم وشرفهم!

فلنفرض جدلاً أن الشريف حسين كان يجهل أثناء مفاوضاته مع الإنكليز إلى يوليو/تموز ١٩١٥ نيات فرنسا، وأنه كان معتقداً أن ساعة زوال الدولة العثمانية حانت، وأنه ثار ليؤدي للعالم الإسلامي أجلّ خدمة بأن يبعث الدولة العربية من رقدتها، وأنه كان يسعى لأن يؤسس في شبه جزيرة العرب على أنقاض تركيا البالية مملكة عربية تضم - حسب الوعود التي منته بها إنكلترا - كل الأراضي الواقعة في جنوبي الخط الممتد من مرسين إلى أضنة ثم إلى الموصل. فما باله لم تنبّهه الحوادث على ذلك؟



يوسف كمال باشا

ألم يكن رد السير هنري مكماهون في ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٦ كافياً له في إثارة شكوكه؟ أولم تفتح عينيه أكثر من كل ما أثبتته هنا تلك الوثائق التي نشرتها في سوريا على أثر إعدام الخونة وكانت كل واحدة منها دليلاً ناطقاً على مناورات فرنسا؟ ألم تكن كلها حججاً قاطعة وإنذارات كافية لأنْ تُريه عظم الجناية التي يوشك أن يرتكبها؟ ليس صعباً أن نتنبأ بما كان يجول في خاطر السير هنري مكماهون حتى في ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٦ عندما ذكر في ردّه أن بعض المناطق في الشواطئ السورية ولبنان لا يمكن أن تكون عربية محضة.

فإنكلترا لم تجد بداً من احترام المطامع الفرنسية في تلك المناطق المذكورة. ولا يمكن غير من أعماه التعصب السياسي أن يعتقد بأن إنكلترا إنما انتزعت العراق من تركيا لإعطائه هديةً للعرب.

ولقد أخبرت الشريف فيصل بكل ذلك أثناء وجوده في مركز القيادة في سوريا. وأفهمته أن العرب سيقعون في اليوم الذي يقطعون فيه صلتهم بالأتراك غنيمة باردة في أيدي الإنكليز والفرنسيين. وبذلك يُحْرَمون بتاتاً حماية خليفة المسلمين.

والآن وقد وضعت الحرب أوزارها، وتمكّن الإنكليز بفضل ثورة الشريف حسين من هزيمة الجيش التركي في فلسطين، وأتمّوا احتلالهم لسوريا وفلسطين. فما هي حالة البلاد الإسلامية؟ لقد أصبحت فلسطين والقدس - تلك المنحة الثمينة التي أهداها الخليفة عمر إلى العالم الإسلامي - في قبضة الإنكليز الذين يبغون إنشاء دولة يهودية[٢] فيها، وقد تنازلوا لفرنسا عن منطقة تسمى «لبنان الكبير» تشمل لبنان الولاية وطرابلس وبيروت ومدينتي صور وصيدا وجهة بعلبك وسهل البقاع. وأصبح العراق بأسره تحت الحماية الإنكليزية. ونظراً إلى اجتنابهم ضم الحجاز المعترف باستقلاله أرادوا أن ينشئوا تحت الحماية الفرنسية ولاية عربية تشمل مدن دمشق وحماه وحمص وحلب. ويظهر أن الفرنسيين معارضون في ذلك.

ولكي يقف الإنسان على مبلغ تقدير الإنكليز للفوائد الجليلة التي عادت عليهم من ثورة الشريف حسين الذي كان يلقّب بالأمير العظيم وحامي العرب إلى غير ذلك من الألقاب العريضة. أثبت هنا ما نشرته جريدة الفيغارو في ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٩ بتوقيع شكري غانم رئيس اللجنة السورية المركزية. وإليك نص المقال المذكور:

سوريا وحقوق الحجاز

يظهر أنهم ما زالوا «مترددين» وممانعين في تمتّع الأمير فيصل بحقوق الملك في مملكة سوريا. فإن صحت أقوال الأمير فتلك الحقوق معترف بها من معظم الجهات المختصة. فلننظر إلى ماهية تلك الحقوق فهي قائمة على الوعود التي أعطتها إنكلترا في عام ١٩١٥.

وفي الواقع يظهر من مجرد تلاوة المراسلات التي تبودلت بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون أن إنكلترا وَعَدَت الحجاز بأهم قسم من سوريا المشتمل على دمشق وحمص وحماه وحلب. إن لم نقل بسوريا كلها. إذاً فعلى هذا الأساس تقوم حقوق الشريف - الذي أصبح ملكاً الآن - وولده فيصل! تلك هي

الوعود (ولا يميل أحد إلى استعمال كلمة «تعهدات») التي يرتكن إليها الأمير في دعواه والتي تخوله - كما يظن - حق إبداء الرأي عند وضع اتفاقات أو قرارات بل عند اجتماع مؤتمر الصلح نفسه.

فما هي تلك الخطابات أو الوعود أو التعهدات؟ وهل في القرن العشرين يسمح لشخصين مهما كانت حيثيتهما - وخصوصاً إذا كانا أجنبيين - أن يبتّا مصير مملكة بأسرها أو شعب برمته؟

أيمكن اتخاذ سلسلة خطابات سرية تعقبها اجتماعات تكميلية ذريعة للمطالبة بحقوق قانونية ثابتة؟ وهل مجرد إصدار صك بهذه الطريقة وبهذا الثمن الفادح وباسم شخص ثالث يجهل جهلاً تاماً ما جاء فيه وليس هو مديناً لأحد يمكننا أن نصبح دائنين فعلاً؟

إذاً فلماذا نقول إن هذا الادعاء مدعّم أكثر من الذي قبله؟ إن اتفاقات سنة ١٩١٦ بين إنكلترا وفرنسا وروسيا[٣]، وإن كانت مستهجنة، لها قيمة عظمى نظراً إلى أهمية الأطراف المتعاقدين. وفضلاً عن ذلك إن الدول التي كانت قد جعلت تلك البلاد قسمة بينها تستطيع أن تبرر عملها بحجة الرغبة في نشر لواء السلام بين تلك الشعوب وإنهاضها. ولكن ليت شعري ماذا عسى أن يجود به الحجاز مع شدة افتقاره المزمن إلى التثقيف العقلي على سوريا الفتية؟!.

بيد أن فيصل إذا كان قد أغرم إلى هذا الحد ببلادنا وأنه يبغي حقاً صونها فلماذا لا يرفض سائر الاتفاقات التي عقدت طوعاً واختياراً بلا استثناء؟ وما السر في تشبّثه حينما تكون الاتفاقية في مصلحته؟ بل بالعكس يقول لمندوب رويتر: «إننا لا نعترف باتفاقية ١٩١٦». ثم يردف ذلك بقوله: «إنني لا يهمني كثيراً ما تظنه تلك الحكومة أو تلك».

فهل هو موقن؟ وهل هو لا يعبأ حقاً بآراء الحكومة التي تسلم منها تلك الخطابات التي يستند إليها في تأييد دعواه؟ ومع ذلك إن هذا السياسي الحريص خريج المعاهد التركية، الذي حاول قبل احتلال الحلفاء لسوريا بأربعين يوماً أن يبرم الصلح مع تركيا لأنه أحس بضعف مركزه، يقول إن هذه الاتفاقية الأولى (في عام ١٩١٥) تتفق ورغبات أهالي سوريا! ولو سلّمنا بذلك فما الذي كان يعرفه هو أو الكولونيل لورنس، ذلك الرجل الخبير بالعاديات أو السير هنري مكماهون عنها؟ لا بد أنهم علموا أن الحقيقة هي على نقيض ما قالوا، إذ كان أقصى غرض الأمير وكاتمي أسراره بعد وصولهم إلى سوريا أن يحُولوا دون ظهور كذب دعاواهم. فبدرة المال المصحوبة بالوعود والتظاهر بالثراء والقوة، وتدبير الدسائس التي من قبيل نشر الدعوة، حتى ضد فرنسا الحليفة، والوعيد والقتل، كل ذلك جُرّب بلا انقطاع، ومثّل بأشخاص عديدين.

فقد أعدم حفيد عبد القادر ونُفي شقيقه سعيد الدمشقي وقبض عليه فيما بعد، وأعقب ذلك القبض على منجب بك حاكم حلب الذي كانت كل جريمته أنه هو و٨٠ عضواً من حزبه جعلوا أصواتهم لفرنسا (ولولا ضيق المقام لشرحت هذه الحادثة تفصيلاً)، وقد قبض على كثير من وجهاء بعلبك وصدرت عليهم أحكام الإعدام ونفذت فعلاً، لا لجريمة سوى التصويت لفرنسا. وفي دمشق نفسها التي أصبحت من حين الهدنة مقر سيادة الحجاز الأوتوقراطية والإلهية قضى ذلك النظام على البعض بالصمت، في حين أنه أفاض الذهب على البعض الآخر لحل عقدة ألسنتهم!.



الكولونيل توماس إدوارد لورنس (١٨٨٨-١٩٣٥)

من مقاطعة ويلز. تخرج في أكسفورد. عمل في قلم الاستخبارات البريطانية برتبة عقيد. اقترن اسمه بأحداث الثورة العربية إبّان الحرب العالمية الأولى. جاء إلى سوريا وفلسطين بحجة الدراسات التاريخية والكشوف الأثرية. أقام مدة في جبل لبنان (١٩١١) تعلم فيها اللغة العربية. زار شبه جزيرة صحراء سيناء مستطلعاً ووضع لها خرائط لاستعمال القوات البريطانية في مسيرها. عمل في مكتب الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة.

كان ضابط الاتصال بين السلطات البريطانية والشريف حسين لدى إعلان ثورته على العثمانيين. عمل مباشرة (تمويلاً وتدريباً وتوجيهاً) مع الأمير علي بن الحسين. رافق الأمير فيصل بن الحسين على مدى سنتين ونصف سنة ودخل معه على رأس القوات العربية مدينة دمشق في ٣٠ أيلول/سبتمبر في مطاردة القوات العثمانية.

بعد الحرب سافر مع الأمير فيصل إلى باريس لحضور جلسات مؤتمر الصلح ١٩١٩.

أقام في عمان بصفة رئيس المعتمدين الإنكليز. ثم اعتزل العمل السياسي وسافر إلى الهند وباكستان. عام ١٩٣٥ تقاعد. توفي إثر حادث دراجة نارية. من آثاره: أعمدة الحكمة السبعة. الثورة العربية.

ولم يستطع ابن الشريف وحامل اللواء المقدس وبشير البعث الديني - في نظر جهلاء الشعب وعامته - أن يهمل وسيلة من الوسائل للرمز إلى السيادة التي وعد فيصل المؤمنين بها. فإن كانت سوريا تطلبه حقاً فلماذا التجأ إلى ارتكاب الحرمات على سائر أنواعها والمساومة والرشوة والفساد والإرهاب والإجرام؟.

إذاً فماذا بقي من الحقوق التي يزعمها لنفسه ابن بابا المسلمين الذي من أجل ثورته على سلطانه التركي كوفئ ابنه بلقب ملك وبإعطائه سلطة زمنية تتفق والروح العسكرية السائدة في العصر الحاضر؟.

إلا أن الأمر الواضح هو ذلك الشيء الذي لم يَفُهْ به الأمير ويمكن التعبير عنه بلغة السياسة. وهو أن الحق - في نظر أهالي هذه البلاد - مثله كمثل سيدة مسلمة لا يجوز لغير المحارم رؤيتها بلا حجاب. وربما توجد في فرنسا أيضاً الرغبة في عدم مس شعور الجيران والحلفاء الذين تزعجهم تسمية الأشياء العادية البسيطة بأسمائها الحقيقية. وهكذا ننمق ونتهرب ونتغمز غمزة العارف.

ولكن هذا كله لا يؤثر فتيلاً في الحقيقة السابقة. وهي أن دعاوى الأمير القانونية لا تستند إلا إلى رغبات من أشرت إليهم وحدهم. فهو مدين بكل شيء لتلك الرغبات التي أضحت ذات صبغة رسمية منذ ١٩١٥ وأوحت باتفاقية عام ١٩١٦ التي ظهرت آثارها في تعهد ٣٠ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٨ (أي في اليوم التالي لمقتل حفيد عبد القادر ونفي أخيه) وكانت سبباً في اتفاقية ١٩ سبتمبر/أيلول الموقتة. إن الأمر ليس إلا أداة للسياسة التي جعلته كما نراه اليوم وجاءت به إلى سوريا. وقد اعتزمت هذه السياسة إبقاءه هناك ليكون رهين إشارتها عند توافر الفرصة الملائمة.

وقد تم كل شيء بصورة لا تثير الشكوك. وربما كان من الخطأ المحض أن يقول الإنسان إن إنكلترا أو وكلاءها ارتكبوا أمراً ما يناقض آداب المجاملة. فهي لم تنتهك في الظاهر حرمة شيء من الأشياء بهذه المشاريع التي حولت السوريين إلى أعراب وقلبت الجغرافيا والتاريخ رأساً على عقب. فهذه الاستقامة المطلقة في اختيار الوسائل وطرق استعمالها هي من خصائص السياسة الحاذقة.

وبهذا أصبح الأمير فيصل الذي كان يوماً ما قائد كتيبة لا تتجاوز ٢٠٠ مقاتل حاكم سوريا المطلق الآن!! وما كنا لنجرؤ على الشكوى من تلك المصيبة التي لا نستحقها لو أن فرنسا - التي لا تزال جروحها نازفة - أدركت شيئاً من المزايا من وراء هذا النظام الجديد. ولكن هل يمكن التحدث بالمزايا وقد حرمت الأراضي التي كانت سبباً في زيادة نفوذها في الشرق وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي. هذا عدا مصالحها المادية العظيمة..؟.

كلا! إن «بلف» الحجاز لو نجح - لأن فيصل ليس إلا مجرد «دمية» صورة - أو لو ظل في سوريا أو على الأقل في دمشق وحمص وحماه وحلب وظلت إنكلترا مسيطرة على حيفا وعكا وفلسطين وقبرص ومصر والعراق وبلاد العرب وفارس وسائر الأماكن الإسلامية المقدسة - نقول لو نجح ذلك - لأصبحت المصالح الفرنسية في سوريا وكذلك اللغة الفرنسية نفسها والمطامع الفرنسية مهددة أشد تهديد ولتغيّرت معالم

سوريا- تلك البلاد التي شرعت تتحول طبق الأنموذج الفرنسي - إلى الأبد بحيث يصعب تمييزها. فمن ذا الذي كان يستطيع أن يقول إن هذه النتيجة ستكون ثمرة تغلّب المدنية على الوحشية؟ لعمري إن ذلك ما يستحيل تصوره.

إن علينا أن ندفع عن أنفسنا مثل تلك النتيجة. إنها لحلم العذاب. بل هي التخبط العقلي. إن الحقيقة هي على العكس. وينبغي أن تكون كذلك.

إن إنكلترا ليست فقط الحليفة التي لا عوج في سلوكها بل هي ذات نزعة قانونية ودستور حر. فهي سديدة الرأي حكيمة السياسة وكريمة إلى أقصى حد. فلا يمكنها أن تحيد عن الخطة المثلى بمثل هذه الرغبات الأنانية فتجعل نفسها موضعاً للعذل. وهو ما لا مناص من وقوعه إذا أدى خطؤها إلى تمزيق وحدة سوريا وتسليمها إلى أيدي الحجاز أو إلى أحد رجال الحجاز.

فسوريا ستبقى إلى الأبد من دون أن تشوبها شائبة ما في داخل حدود لا تغيير لها كالصورة الجميلة في داخل إطارها. وكما قال الرئيس بوانكاريه للجنة اللامركزية في سوريا: «على فرنسا وحدها يقع عبء توطيد مستقبل سوريا وبذل مساعدتها الأخوية لتحقيق أمانيها الوطنية العالية».

فمن هذا المقال يتبين جلياً أن دعاوى ملك الحجاز الشريف حسين في مدن دمشق وحماه وحمص وحلب لا ينظر إليها بعين الارتياح. فقد استخدم هو وابنه فيصل مجرد آلات صماء. فالحسن حفيد الأمير عبد القادر الجزائري (الذي طالما ناداه الشريف بـ«أخي المبجل») يتهم الشريف بقتل الأمير خيانةً وغدراً!

وقد قيل في رسالة طالعتها في إحدى الصحف الإنكليزية أن الشريف حسين يعمل في مكة بأموال الإنكليز ولا يرتاب الذين يعلمون طبيعة الحجاز ومناخه في أن هذه الحال ستبقى كذلك إلى ما شاء الله. فالنتيجة هي أن خادم الحرمين الشريفين اليوم هو جلالة الملك جورج الخامس ملك إنكلترا وذلك كله بفضل ثورة الشريف حسين!.

وظاهر أن إنكلترا تريد أن تجعل فيصل أميراً على ولاية عربية مكونة من مدن دمشق وحماه وحمص وحلب. وبهذا يتم لها وضع يدها على تلك المنطقة التي تشتمل على أشهر مدن العالم الإسلامي.

تلك هي الصورة الحقيقية للكارثة التي انتابت العالم الإسلامي من جراء ثورة الشريف حسين. وعندي أن الضربات التي وجّهها زعماء المغاربة إلى صميم الإسلام بانضمامهم إلى الدول المسيحية ليست شيئاً يذكر إذا قيست بالمحن التي نزلت بالخلافة من الشريف حسين.

وإذا أصبحت استانبول - موطن الخلافة - في قبضة عصبة الأمم لا قدّر الله (كما تريد أوروبا) تم عمل الخيانة الذي بدأه الشريف. فجوابنا عن الذين يقولون لنا «لو لم تشتركوا في الحرب العالمية لما تطورت الأمور هذا التطور» هو أننا لو تجنبنا الاشتراك فيها لما كانت النتيجة غير ذلك. لأن شَرَه الاستعمار الإنكليزي والفرنسي والروسي ليس ابن الأمس بل هو وليد القرون العديدة. فهذه الدول الثلاث

كان من المحتم أن تشرع في تمزيق أوصالنا عقب خروجها من الحرب ظافرة لأن أملاك الضعيف والعاجز هي على الدوام عرضة للتقسيم، ولأكرهنا وقتئذٍ على تحمّل العار والمذلة إذ نرى أنفسنا - بلا مقاومة ما - نجرد مما عهد به المولى إلينا ليكون تحت رعايتنا.

على أن الأتراك إن شاء الله لظافرون بإنقاذ استانبول العزيزة وأزمير الجميلة لهذا الوطن، وسيكون الفضل كل الفضل في ذلك للبعث الأخير الذي قام بزعامة مصطفى كمال باشا. فإذا هم تذرعوا بالوسائل اللازمة فازوا بسعادة الشعب ورخاء البلاد في داخل حدودها الطبيعية.

هوامش الفصل الثالث:

(١) ريمون بوانكاريه: رجل دولة فرنسي، سياسي، محام، نائب عام ١٨٨٧، وزير للتعليم ١٨٩٣، وفي عام ١٩١٢ ترأس وزارة تحالف عملت على تقوية مركز فرنسا الدولي. زار روسيا للتحالف معها في وجه ألمانيا.
عام ١٩١٣ انتخب رئيساً للجمهورية على مدى سبع سنوات ضمنها سنوات الحرب. وعام ١٩٢٢ تولى رئاسة الوزراء، له مذكرات «في خدمة فرنسا» توفي في عام ١٩٣٤ (كيالي، الموسوعة السياسية).

(٢) إنشاء دولة يهودية: القائد أحمد جمال باشا بدأ كتابة مذكراته بعد عام ١٩١٧ وكان «وعد بلفور» قد سبق وأُعلن للملأ، إن أحمد جمال باشا هو الأكثر من غيره دراية وعلماً بمخططات اليهود (الصهاينة) والإنكليز، فهو من الصف الأول لقيادة حزب الاتحاد والترقي وهو عضو فيها منذ كان في المدرسة الحربية، هو من مدينة سيلانيك مهد يهود الدونمة ومركز المحفل الماسوني، ومنطلق الاتحاد والترقي.
وما نجاح الصهاينة في فلسطين إلا من نجاح الاتحاد والترقي في تفتيت السلطنة وتعاظم النفوذ الصهيوني داخل السلطة العثمانية ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية والأمنية والحربية، ومحاضر مجلس المبعوثان وخطب شكري بك العسلي نائب دمشق إلى جانب خطب نائب القدس روحي بك الخالدي في فضح الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة المستوطنات وشراء الأراضي المحاذية لخط سكة حديد الحجاز، وتأجيرهم أراضي زراعية خصبة تعود ملكيتها إلى السلطنة العثمانية (الجفتلك) وأحياء بكاملها عليها أعلام يهودية، والتراسل البريدي بطوابع عليها صورة هرتزل ونوردو، وإنشاء محاكم مستقلة، ولهم قضاؤهم المختص بهم ومصارفهم، والتسلح فيما بين اليهود المهاجرين، كل ذلك يجري على مرأى ومسمع من المسؤولين العثمانيين المحليين للولايات والسناجق والأقضية في فلسطين وبمعرفة طلعت وأنور وخليل وجاويد وأحمد جمال، ويلقى اللوم على الإنكليز.
ولا ننسى ما ذكره عزيز بك في مذكراته عن اللقاءات بين جمال ومسؤولي الوكالة الصهيونية والصداقة التي استمرت بتسهيل من مومس يهودية-إنكليزية وتنسيق قسم الشؤون المصرية في الجيش الرابع.

(٣) اتفاقات سنة ١٩١٦: يقصد بها (اتفاق سايكس-بيكو).

القسم الرابع

الفصل الأول

المسألة الأرمنية

مقدمة تاريخية

نفضّل نحن رجال تركيا الفتاة بلا جدال الأرمن، وخصوصاً الثوار منهم، على اليونانيين والبلغار، لأنهم أصفى خُلُقاً وأشد بأساً وأكثر صراحة من العنصرين الآخرين، وهم فوق ذلك أوفياء في الصداقة والعداوة. وفي يقيننا أن سياسة روسيا هي وحدها المسؤولة عن وجود العداوة بين العنصرين التركي والأرمني. فقبل ستين عاماً، أي قبل الحرب الروسية - التركية في ١٨٧٧-١٨٧٨ بعشر سنوات، لم يسمع أحد مطلقاً بنزاع ديني بين هذين العنصرين، أي اختلافات مذهبية بين المسلمين والمسيحيين. ولقد عاش الأرمن والأتراك في الأناضول والروملّلي[١] واستانبول، لا بل في طول الدولة التركية وعرضها، متجاورين وساد بينهم الوفاق، حتى إن تاريخ ذلك العهد خلا بتاتاً من ذكر المسألة الأرمنية، وكانت الصداقة بين الأتراك والأرمن والمصاهرة وعلاقات النسب لا حدّ لها. فمن ذلك أن التركي كان إذا غادر قريته في آسيا الصغرى لشؤون خاصة ومصلحة شخصية عهد إلى جيرانه الأرمن برعاية أسرته ومباشرة شؤونه والعناية بحقوقه فقاموا بذلك خير قيام، لذا كان الأرمن يبادلون من جهتهم هذه الثقة نفسها بجيرانهم الأتراك.

ولم يكن في الأناضول ولا في الروملّلي ولا في استانبول أرمنيٌّ واحد يتكلم الأرمنية، لأن اللغة التركية كانت تُعلَّم في المدارس بالحروف الأرمنية وفي الكنائس نفسها كان القداس يقام باللغة التركية، وكانت المناصب الحكومية الرفيعة مفتوحة للأرمن وكنا نعدّهم أكثر الرعايا العثمانيين ولاءً وأشدهم إخلاصاً.

فلما أفل نجم بكوات كردستان[٢] على أيدي الأتراك لم ينشئ الأرمن الذين كانوا تحت سيادتهم ولاية مستقلة لأنفسهم، والحق أنهم ذاقوا الأمرَّين تحت الحكم الكردي. فليتقوَّل السفير مورغنتو ما يشاء وليجهد نفسه ما أراد - كما يفعل الآن - لإخفاء الوقائع التاريخية. ولكن الحق الذي لا جدال فيه هو أنه كما كان العدل وعدم التعصب سر تكوين الدولة العثمانية واتساع أطرافها في زمن وجيز، كذلك كانت المروءة والصداقة اللتان أبدتهما تركيا حيال الأرمن السبب في اكتساب ثنائهم وعرفانهم للجميل، فكانت نتيجة ذلك كله أن الشعبين لبثا خمسة قرون من دون أن ينشب بينهما نزاع ما، كما أن كل أرمني جعل اللغة التركية لغته واتّبع التقاليد والعادات القومية التركية.

وعندما سمح السلطان الفاتح محمد خان للبطريركية الأرثوذكسية بالبقاء في استانبول بعد سقوطها في أيدي العثمانيين، ومنح اليونانيين (لا بتأثير ضغط خارجي بل بدافع المروءة وعلو الهمة والكرم المحض) حقوقاً عدة تسمى الامتيازات الدينية. أنشأ أيضاً بطريركية أرمنية في عاصمة مملكته ليمكن ضمان حقوق الأمة الأرمنية - التي كانت تعتبر أقلية - بين مسلمي الأناضول، بل منح الأرمن مثل الحقوق والامتيازات التي خولها اليونانيين.

ويعتمد ماندلستام في الصفحة ١٩٠ من كتابه على ملاحظات أحد المؤرخين الذي بلغت به الوقاحة أنه عزا كرم أخلاق الأتراك ونخوتهم، برغم الحقائق التاريخية التي لا جدال فيها، إلى ازدرائهم بكل ما هو مسيحي لأنهم كانوا يعتبرونه رجساً!.

ففي عام ١٤٦٢ ميلادية، أي في الوقت الذي لم تكن تكوّنت في أي جهة من جهات أوروبا فكرة حقوق الأقليات، سمح أحد السلاطين[3] المسلمين وهو في أوج عزه ببقاء البطريركية اليونانية في استانبول، ثم منح اليونانيين كامتيازات دينية سلسلة من الحقوق الشخصية تتعلق بالزواج والوراثة والتعليم! بل إنه أنشأ في عاصمة ملكه بطريركية أخرى لأمة أخرى (الأرمن) كانت ترسف في الأصفاد والأغلال إبان الحكم الكردي، ومنحها مثل تلك الحقوق والامتيازات! وبالرغم من كل ذلك لا يستحي أناس أمثال ماندلستام من أن يعزو ذلك السخاء والتسامح إلى شعور الازدراء والاحتقار لكل ما هو مسيحي! فيا لله من هذا التعصب والظلم!!.

ولم تكن تلك الحقوق التي منحها سلطان تركي ذو شوكة وصولة وكلمة نافذة في القرن الخامس عشر من المثل العليا لتطبيق مبادئ حقوق الأقليات التي سعى الرئيس ولسون[4] طويلاً للحصول على اعتراف العالم المتمدن بها؟.

وهل أصبحت تلك المبادئ معترفاً بها في معاهدة سان جرمان[5] (التي ترفض حكومتا رومانيا ويوغوسلافيا قبولها) إلى الحد الذي تنطوي عليه تلك الحقوق التي منحها الفاتح الإسلامي للأقليات المسيحية؟.

إن الأرمن ليدركون أنهم مدينون لهذه الامتيازات وحدها في بقاء ملّتهم وقوميتهم، فقد أمكنهم بدلاً من الخسف والذل اللذين ذاقوهما على يد الأكراد أن يعيشوا على أتم صفاء مع الأتراك، وخصوصاً مع الحكومة التركية. فلماذا يستشهد ماندلستام الذي يستقي معلوماته مما كتبه زارزسكي وآخرون بالآلام والكوارث التي كان الأرمن عرضة لها قبل القرن التاسع عشر على عهد الاضطهاد الإقطاعي في زمن بكوات الأكراد؟ ولماذا لا يتذكر بؤس الأمة الفرنسية في عهد الاضطهاد الإقطاعي قبل نشوب الثورة الفرنسية؟ وقد لا يكون لزاماً أن يذهب الإنسان إلى ذلك العهد البعيد. فهل كانت حالة فلاحي روسيا أكثر رخاءً من حالة الأرمن في تركيا؟.

إن ماندلستام لا يتردد في الاعتراف بأنه من أشد أنصار الثورة الروسية تحمساً. فهل غاب عنه أننا أنفسنا نعرف كثيراً عن الكتابات الثورية الروسية وعن جور أصحاب الأموال الروس على فلاحيهم إلى عهد قريب؟ فإذا بلغت به الوقاحة إلى حد الادعاء بأن تلك الكتابات كان مبالغاً فيها. ففي وسعنا أن نثبت له بلا تردد بأنه إنما يتكلم عن الهوى.

وإني أكرر مجدداً أن الأتراك والأرمن عاشوا جميعاً إلى ما بعد حرب القرم في ١٨٥٣-١٨٥٥ متجاورين معاً على أتم صفاء. ولم يعرف عن الأتراك أنهم ارتكبوا أمراً مخلاً بحق جيرانهم الأرمن.

فلما نظر الروس إلى المملكة العثمانية بعين الجشع أخذوا يحسبون أن من حسن السياسة أن يجعلوا العناصر المسيحية في الروم‌للي آلات صماء لقضاء وطرهم.

وإني أحسب أن الإنسان ليعجب إذ يرى ماندلستام بعدما قال في الصفحة ٣٠٠ من كتابه: «إن الحكومة الثورية الروسية تؤيد كل التأييد جميع الإجراءات التي اتخذتها روسيا القيصرية لمساعدة الأمم المسيحية ضد العسف التركي»، يقول: «إن الفلاح الروسي الذي هو نفسه ضحية أكبر جور لطالما ذهب إلى ميدان القتال لإنقاذ اليونانيين والبلغاريين والصربيين».

ولم يكن ذلك كله إلا نتيجة تلك السياسة المشهورة التي أثارت ثائر الخوف والكراهية في سائر جهات المعمورة. وهي السياسة التي نرجو من صميم أفئدتنا لخير الإنسانية أن يختفي شبحها وشبح القيصرية إلى الأبد.

وينبغي لنا أن نعترف قطعاً بأن النزاعات القومية التي أخذت تتطور وتنتشر في منتصف القرن التاسع عشر تقريباً كانت سبباً مباشراً في أن الشبان الأرمن النازحين إلى أوروبا وأميركا طلباً للعلم أو الرزق غذت نفوسهم تلك الحالة العقلية. فجعلت الكثيرين منهم يسعى لتصبح أمته في حال أكثر رخاءً وأكثر استقلالاً في نشاطها السياسي.

فإلى ذلك التطور جعل نظر الساسة الروس ينظرون كأنه هبة من الهبات الإلهية. ومن ذلك الحين لم يدعوا وسيلة من الوسائل لتحريض الأرمن على حكومتهم.

وما بزغ فجر القرن التاسع عشر حتى شرع السلطان محمود الثاني في اتخاذ إجراءات شديدة لإعادة النظام في مملكته حتى يُقضى على الفوضى الإدارية والعسكرية التي ضربت أطنابها على أثر الأحكام السيئة التي خلت في المئتي عام السالفتين. فألغى الانكشارية(٦) وضيّق سلطة بكوات الأناضول والروم‌للي حتى انمحى أثرها. كما أنه حدد سلطة بكوات كردستان.

ولكن بينما كان ذلك السلطان المنكود الحظ جديد في إعادة النظام إلى بلاده رأى نفسه وجهاً لوجه تجاه مصاعب لا عدَّ لها. فرأى اليونانيين قد أصبحوا طوع دسائس الأتنيكي هيتريا(٧)، وهي جماعة قامت بمساعدة الذهب الروسي. فعانى السلطان المتاعب الكثيرة في سبيل إرضائهم. ووجد نفسه أيضاً، بعدما هاجمه الروس والفرنسيون والإنكليز وأغرقوا أسطوله في ميناء نفارين(٨)، مضطراً إلى الاعتراف باستقلال اليونان. وكذلك محمد علي باشا حاكم مصر العام الذي ثار ضده بإيعاز من الفرنسيين. إذ كان يحدّث نفسه بالعرش التركي. وقد نجح في الاستيلاء على قسم كبير من البلاد حتى كوتاهية(٩)!.

فمن الذي يستطيع إذاً أن يوجّه قوارص اللوم إلى حكومة كانت هذه متاعبها في الداخل وفي الخارج، أو أن يتهمها بالتراخي والتقصير في اتخاذ الوسائل اللازمة لصون مصالح رعاياها كافة فضلاً عن الأرمن؟.



السلطان محمود الثاني (حكم ١٨٠٨، توفي ١٨٣٩)

ولد عام ١٧٨٤، مؤسس تركيا المعاصرة. ترتيبه بين السلاطين «٣٠». نصّب على العرش وعمره ٢٣ سنة، وبقي في الحكم مدة ٣٠ سنة. أطلق عليه «كاوورشاه» أي السلطان الكافر بسبب إدخاله الأساليب الأوروبية في كل مجالات الحياة التركية، ودام حكمه ٣٠ سنة. في عهده تم القضاء على الإنكشارية ١٨٢٦، واستقلت اليونان ١٨٣٠، وجيش محمد علي باشا بقيادة ابنه إبراهيم يهزم الجيش العثماني في نصيبين ١٨٣٩.



محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩)
والي مصر (١٨٠٥-١٨٤٩)

من مواليد «قولا» الألبانية سابقاً اليونانية اليوم. جاء إلى مصر ضمن حملة عثمانية لطرد نابوليون منها. شارك في معركة «أبو قير» البحرية في ٢٥ تموز/يوليو سنة ١٧٩٩. ثم عاد إليها قائداً لكتيبة ألبانية سنة ١٨٠٥. وفي عام ١٨٠٧ انتصر على حملة فريزر وكانت نقطة تحوّل في حياته وحياة مصر. فاكتسب رضى السلطان عنه. بعدها تقدم الأعيان بطلب إلى السلطان لإيلائه سلطة الولاية بدلاً من خورشيد باشا. سنة ١٨١١ استطاع أن يتخلص من أمراء المماليك المنغّصين عليه الاستفراد بالسلطة في مذبحة القلعة. استعان بالفرنسيين في بناء وتنظيم وتدريب وتسليح جيش جديد. وإعادة تنظيم التعليم ومناهجه وإقامة معهد تعليمي للبحرية وترسانات لصناعة وبناء السفن. وتنظيم الري وتطوير الزراعة (استولى على أكثر الأراضي الزراعية خصوبة) حتى أنه أصبح أكبر وأغنى ملاّك في مصر للأرض (الزراعية) وخصوصاً القطن والأشجار المثمرة. أرسل البعثات التعليمية والعسكرية وشجع البعثات الاستكشافية الجغرافية. لبّى أوامر وطلبات السلطان العثماني في تصفية القائمين على الدعوة الوهابية في عقر دارهم (١٨١١-١٨١٩). اتجه إلى جنوب مصر فاتحاً بلاد السودان. وأرسل أسطوله لإخماد ثورة اليونانيين في المورة (١٨٢٤-١٨٢٦) ما أثار عليه حفيظة الإنكليز والفرنسيين والروس الذين تصدوا له ونفخوا في كور أوروبا عليه. محمد علي لم يقدم المساعدة التي طلبها منه السلطان في الحرب العثمانية-الروسية (١٨٢٨-١٨٢٩). وجّه محمد علي أنظاره نحو سوريا فطمع بضمها إلى أملاكه. أرسل ابنه إبراهيم على رأس قيادة الجيش المصري قاصداً بلاد الشام عابراً فلسطين ولبنان وسوريا وصولاً إلى «كوتاهية» على مشارف العاصمة استانبول بعد معارك مذلّة للجيش العثماني أُسر فيها الصدر الأعظم نفسه. وأبرمت معاهدة صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣ موقتاً لتكرّس معاهدة لندن ١٨١٤ سلطة محمد علي نهائياً على مصر له ولأولاده من بعده. في عهد محمد علي عاشت مصر أزهى أيامها. استتب الأمن فيها. أعاد رسم الأراضي الزراعية وتوزيعها على الأبناء والأحفاد والأمراء والضباط الكبار والباشاوات. وانتظم الري بعد بناء السدود والترع والبرك والقناطر. وتطوير الصناعة الخفيفة والثقيلة. في عهده تقدمت مصر في ركب الحضارة شوطاً مهماً. بعد وفاة محمد علي تولّى الحكم ابنه إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٩) لأقل من سنة وتوفي.

ولكن حكومة السلطان عبد المجيد الأول منحت الأرمن برغم ذلك امتيازات واسعة. حتى إن ماندلستام نفسه لم يسعه إلا الاعتراف بتلك الحقيقة وإطراؤها. فقد قال في الصفحة ١٩٠ من كتابه ما نصه:

«إن الأرمن حصلوا في عام ١٨٦٣ على دستور تام يخوّلهم حق انتخاب مجلس أعلى يكون مقره في استانبول مؤلف من ٤٠٠ عضو ينتخب الأهالي ١٤٠ منهم».

فهل من المستطاع أن يخطر للرئيس ولسون وسيلة أنجع من هذه لحفظ حقوق الأقليات؟.



السلطان عبد المجيد الأول (بدأ حكمه ١٨٣٩. توفي ١٨٦١)

ولد عام ١٨٢٣. السلطان الـ٣١. هو وأباه السلطان محمود الثاني وأخوه عبد العزيز يمثلون آخر السلاطين العظام لبني عثمان بسبب التنظيمات والتجديد والمراسيم التي أقروها وأدخلوها إلى بلادهم. عهده حفل بأحداثٍ أسست لمتغيرات نوعية في المنطقة داخل تركيا نفسها ومستعمراتها التي استقلت فيما بعد. أدت إلى إصلاحات إدارية. نهضة فكرية واجتماعية وسياسية وعسكرية عرفت بالتنظيمات. وأصدر خط شريف ١٨٣٩. خط همايون ١٨٥٦. وفي عهده جرت حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٥.



السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) بن عبد المجيد الأول (١٨٦١-١٩٢٦)

تولى العناية به أخوه السلطان عبد الحميد الثاني بعد وفاة والديه ورعاه حتى سنة ١٩٠٩.
بعد وفاة ولي العهد يوسف عز الدين، آلت الولاية إلى الأمير محمد وحيد الدين الذي خلف أخاه محمد رشاد على العرش باسم محمد السادس السلطان الـ٣٦ في ١٩١٨/٧/٣، وبعد بضعة أشهر أعلنت تركيا استسلامها ووقف حالة الحرب، واحتلت القوات الإنكليزية العاصمة استانبول باستثناء الأناضول الشرقي لأن روسيا كانت قد وصلت إلى حدودها الجنوبية المتاخمة للولايات الأرمنية العثمانية، ولولا ذلك التفاهم الروسي البريطاني لما توقفت القوات البريطانية عن احتلال كل الأراضي التركية. أما القوات التركية التي انسحبت من سوريا تابعت انسحابها شمالاً إلى حلب، ثم إلى جنوب تركيا، وقسم منها التحق بالقوات في جبهة القوقاز والوحدات الأخرى فاتجهت نحو الأناضول الشرقي بقيادة مصطفى كمال الذي أعلن رفضه للاحتلال الإنكليزي وشروطه، علماً أن حكومة استانبول وافقت على شروط هدنة مودروس واستسلامها في ١٩١٨/١٠/٣٠. وسميت حركة مصطفى كمال في ما بعد بحرب الاستقلال (الحرب الوطنية) وانضم إليه خلق كثير وجعل من انقرة مقراً لقيادته. وكان السلطان محمد وحيد الدين في زمن ولايته للعهد اتخذ من مصطفى كمال مرافقاً ومستشاراً عسكرياً له رافقه لدى زيارته إلى برلين سنة ١٩١٧ وفيينا عندما توفي الإمبراطور فرنسوا جوزيف سنة ١٩١٨. تطورت العلاقة بين الجنرال مصطفى كمال وولي العهد إلى صداقة وثقة وتبادل الرأي، يجمعهما الكره للاتحاديين كان السلطان يعلق آمالاً عظيمة على مواقف القائد مصطفى كمال.
في استانبول تحت وطأة الاحتلال الانكليزي تغيرت الأهواء والرؤى ما بين المصالح الشخصية والعائلية في العرش والسلطنة وبين قوى المصلحة السياسية الوطنية (القومية) في أنقرة تمتشق السلاح لتحرير الوطن وبناء نظام جديد ومعظم كبار القادة العسكريين والجنود ينضمون للمشاركة في معركة التحرير. السلطان أمر بحل البرلمان في ٢١ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٢٠. تألفت حكومة جديدة في استانبول في ظل الاحتلال وطلبت من مصطفى كمال ايقاف القتال والتسليم للقوات الاجنبية. كان الرد بتأليف حكومة موقتة في انقرة وافتتاح جمعية تشريعية كبرى في ١٩٢٠/٤/٢٣.
تبرم حكومة استانبول «معاهدة سيفر» في ١٩٢٠/٨/١٠ التي قلصت الحدود الطبيعية لدولة تركيا الجديدة، وكانت المعاهدة تكملة لما رسمه قبلاً تفاهم «سايكس- بيكو» ويجري التصدي للغزو اليوناني ويتم تطهير الاناضول من الأجنبي الغازي. ويزداد التعاطف الشعبي مع نضال القوات الكمالية ويحرز قائدها على صعيد تركيا كلها التفافاً جماهيرياً حوله وانتصارات عسكرية قربته من العاصمة ما شجعهم على إعلان إلغاء السلطنة في ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٢ لتواطؤها مع قوات الاحتلال وكونها جهاز إداري رجعي متخلف. الامر الذي دفع بالسلطان محمد وحيدالدين ان يطلب من قائد قوات الاحتلال الإنكليزي الحماية والعمل لإخراجه من البلاد. فيجري نقله إلى مالطة في ١٩٢٢/١١/١٧ وبعد ٣٧ يوماً يسافر إلى مكة المكرمة بدعوة من أميرها. من هناك قام السلطان محمد وحيد الدين بمساعي لاستعادة منصبه على رأس الدولة التركية واسترجاع موقعه الدستوري. هذه المساعي والجهود التي بذلها باءت بالفشل. انتقل إلى اوروبا وتوفي في سان ريمو في إيطاليا في ١٩٢٦/٥/١٥. وتلبية لوصيته تم دفنه في دمشق في تكية السلطان سليم حيث الكثير من قبور الأمراء العثمانيين هناك.
إن ابنته السلطانة منيرة كانت متزوجة من محمد صالح ابن الصدر الأعظم الأسبق خير الدين التونسي وأعدمه الاتحاديون سنة ١٩١٣ بتهمة التآمر على الحكم وضلوعه باغتيال الصدر الأعظم محمود شوكت باشا.



السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول
السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، وآخر من احتكر السلطة
عرف، بـ(أولو خاقان) أي (الملك العظيم)

تمهيد: ولد عام ١٨٤٢ وبدأ حكمه في ١٨٧٦، خلع عام ١٩٠٩ وتوفي في منفاه عام ١٩١٨. ترتيبه ٣٤. أبوه السلطان عبد المجيد الأول وأخوه مراد الخامس. خضع لمطالب الإصلاحيين بتطبيق مبادئ الدستور (المشروطية الأولى) عام ١٨٧٦ وتعيين مدحت باشا صدراً أعظم، تميز حكمه بالنزعة الأوتوقراطية، مارس حكمه من خلال خلوته في قصر «يلدز» بواسطة نظام المخبرين السريين (سر خفية). في عهده تم بناء دار الفنون ١٩٠٠ صارت فيما بعد جامعة استانبول إلى جانب شبكة مدارس ابتدائية ومتوسطة، عسكرية ومهنية. السلطان عبد الحميد (السلطان الأحمر) وشبكة تلغراف ولإنشاء شبكة سكك حديد الحجاز أُشير عليه من مستشاريه بفكرة جمع التبرعات لأجل تسهيل انتقال الحجيج إلى مكة والمدينة. عارض فكرة بيع أو تأجير الاراضي لليهود في فلسطين، وعارض مشروع هرتزل بعناد وإصرار، ما دفع باليهود إلى التعجيل بإنهاء حكمه. ولعب يهود الدونمة دوراً رئيساً في الإنقلاب العثماني والسيطرة على الجيش وتوجيهه والتستر بقضية الدستور والحريات والعدالة والمساواة تحت اسم الاتحاد والترقي. ولا زالت هذه الحالة مستمرة حتى الساعة. عزل عن العرش عام ١٩٠٩ بتهمة مخالفة الدستور، وتم نقله للإقامة في سالانيك، ثم نقل ليعيش بقية ايامه في استانبول حتى وفاته في ١٠ فبراير/شباط ١٩١٨. تلقى السلطان عبد الحميد تعليمه بالقصر السلطاني واتقن اللغتان: الفارسية والعربية ودرس التاريخ والأدب.

حياته الشخصية: والده السلطان عبد المجيد أحد حملة النهج الإصلاحي للدولة، توفي والده وعمره ١٨ عاماً، صار ولي عهد ثان لعمه «عبد العزيز الأول الذي تابع نهج أخيه في مسيرة الأوربة والتحديث، واستمر في الخلافة ١٥ عاماً. رافق عمه السلطان عبد العزيز في زيارته إلى النمسا وفرنسا وإنكلترا في ١٨٦٧، وفي بعض سياحاته ورحلاته إلى أوروبا ومصر، قبل ان يتولى العرش بتسع سنوات، والتقى ضيوف استانبول من ملوك وأمراء أجانب. كان عبد الحميد نجارا ماهرا، وكان يملك مشغلا صغيرا في حديقة قصره (يلديز) في اسانبول، قدم بعضاً منه هدايا، ولا يزال بعضاً منه معروضاً حتى الآن محتفظاً به. تولى السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة، في ١١ شعبان ١٢٩٣هـ، الموافق ٣١ آب /أغسطس ١٨٧٦، والدولة في حالة غير مستقرة.

الوضع الداخلي: سنة ١٨٧٦ نجح العثمانيون الإصلاحيون (الجدد) بإطاحة السلطان عبد العزيز بالتعاون مع بعض رجال القصر. اتسم عهده بالاسراف وبهدر المال العام وتفاقم الاوضاع الاقتصادية وازدياد الفقر وزيادة الضرائب وتواصل الحروب واستنزافها لموارد الدولة المالية والبشرية. اعتلى العرش بعده مراد الخامس شقيق عبد الحميد. إلا انه عُزل بعد نحو ثلاثة أشهر. موافقة عبد الحميد الثاني على إصلاح الادارة ونظام الحكم وإتباع سياسة عثمانية متحررة. كانت الشرط مع العثمانيين (الإصلاحيين) الجدد على توليه العرش. فكلف مدحت باشا بالصدارة العظمى. أحد زعماء الإصلاح والتجديد وبادر السلطان عبدالحميد إلى إعلان الدستور والعمل بشروطه (المشروطية الأولى) وكان الدستور العثماني مقتبساً عن الدستور البلجيكي والفرنسي وفيه تحددت صلاحيات السلطان ودوره. وحقوق القوميات وحرية الرأي والقول والاعتقاد وتم تشكيل مجلسي (المبعوثان) أي مجلس نواب منتخب من الشعب ومجلس أعيان يعين أعضاؤه السلطان. انما بعد مضي ٤٨ يوماً أقيل الصدر الاعظم وعطل المجلسين. وحصر السلطان عبدالحميد السلطات كلها بنفسه. فحجر على الدستور. وابعد مدحت باشا ثم جرت تصفيته خنقا في الطائف وتنفس الصعداء حينما ارسل اليه رأسه.

العلاقات الخارجية: لطالما كانت الدول الاوروبية وروسيا طامعين في الاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية المترامية. ما دفع بالمسؤولين إلى اتخاذ تدابير حماية اطرافها بارسال الحاميات العثمانية للذود عنها. ما نتج عن ذلك تبعثر قوتها العسكرية لحماية هذه الاملاك. ما شجع اوروبا على الاستفادة من هذه الحال التي أسموها «تركة الرجل المريض». التوصيف للقيصر الروسي نيقولاي وان الوقت حان لتقاسمها. إضافة إلى الثورات في البلقان. فالبوسنة والهرسك هزمت الجيش العثماني وحاصرت وحداته في الجبل الأسود. اعلان الصرب الحرب على السلطنة. واشتعال الجبهة التركية - الروسية سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م. المعارك البحرية ضد الاسطول العثماني في المتوسط والتدخل الاوروبي كل ذلك سبقه التسلل الاوروبي إلى بلاد الشام في القرن السادس عشر باسم التجارة انتهت إلى امتيازات سياسية اقتصادية وبعثات دينية/ثقافية تعليمية. توجت بانزال عسكري في بلاد الشام واثارة النعرات الطائفية بين السكان (أحداث ١٨٤٢) و(١٨٦٠) في جبل لبنان. وانتفاضات الاكراد أحياناً والارمن تارة أخرى. وملاحقة اوروبا وضغوطها على السلطنة لإعلان الدستور والاسراع بتحقيق الإصلاحات في البلاد. إضافة إلى قيام الثورات في (حوض البحر الاسود) بلغاريا ورومانيا ومولدافيا والقوقاز بمساعدة روسية. ان تكرار حروب السلطنة وما تستنزفه من المال والانسان والبنيان مع حياة الاسراف والتبذير للسلطان وعائلته وحاشيته أدى إلى إفلاس خزينة الدولة وتراكم الديون عليها. حيث بلغت الديون ما يقرب من ٢٥٠ مليون ليرة ذهبية. الامر الذي دفع بالسلطان ان يذعن لشروط الدول الدائنة بأن يكون لها مفتشين داخل ادارات الدولة لمراقبة وارداتها ومصاريفها. فتوزعت المراقبة بين فرنسا وبريطانيا على (الامتيازات الاجنبية) ليرفعوا تقاريرهم إلى دولهم إلى حدود انهم في ما بعد صاروا مباشرة يتدخلون في سير أعمال الدواوين. ولهم الافضليات في الحصول على التزامات الدولة في الانشاءات او الصادرات.

المتغيرات الثقافية والاجتماعية في المنطقة:

- قيام حركة سياسية اقتصادية ثقافية اجتماعية تنويرية مع أسرة محمد علي في مصر: شق قناة السويس. بعثات علمية إلى اوروبا. نشاطات فنية منوعة. هجرة مثقفون شوام إلى مصر وقيام حركة ثقافية واسعة من تأسيس صحف ومجلات. ومسرح ودور نشر. انتشار المطابع وصدور الكتب المختلفة المواضيع والابواب.
- تأسيس مدارس وكنائس ومستوصفات في بلاد الشام ثم جامعات وارساليات.

تأسيس جمعيات أهمها جمعية «الاتحاد والترقي» التي هدفت إلى إصلاحات سياسية واجتماعية اقتصادية معارضة لحكم السلطان عبد الحميد. نجحت الجمعية بعد لقاءات ومؤتمرات في حشد وتنظيم صفوف المعارضين من عسكريين ومدنيين وتوجيههم في مظاهرات وكتابات هجومية في الصحف ومئات الوف البرقيات إلى قصر يلديز وسرايا المابين مطالبين بوضع مواد الدستور موضع التطبيق لعام ١٩٠٨ انقلابا على السلطان عبد الحميد تحت شعار (حرية. عدالة. مساواة). وتعهد الانقلابيون بالمساواة في الحقوق والواجبات بين السكان مهما كان دينهم وعرقهم.

الاتحاد والترقي في السلطة: تنامي الشعور القومي والدعوات القومية والجمعيات الإصلاحية اللامركزية ذات الأهداف السياسية التي تفاعلت بمجيء جمعية الاتحاد والترقي الداعية للحرية والمساواة والاخوة. ما شجع على قيام جمعيات واندية وصحف في: بيروت «الجمعية الإصلاحية البيروتية». في استانبول «النادي او المنتدى العربي» الجمعيات العربية السرية والعلنية من قبل نواب أو ضباط عرب (العربية الفتاة). (القحطانية). (العهد). في القاهرة «الجمعية اللامركزية». جمعيات البانية تدعو للاستقلال عن السلطنة. تنامي حزبي «الطشناق والهنشاق».

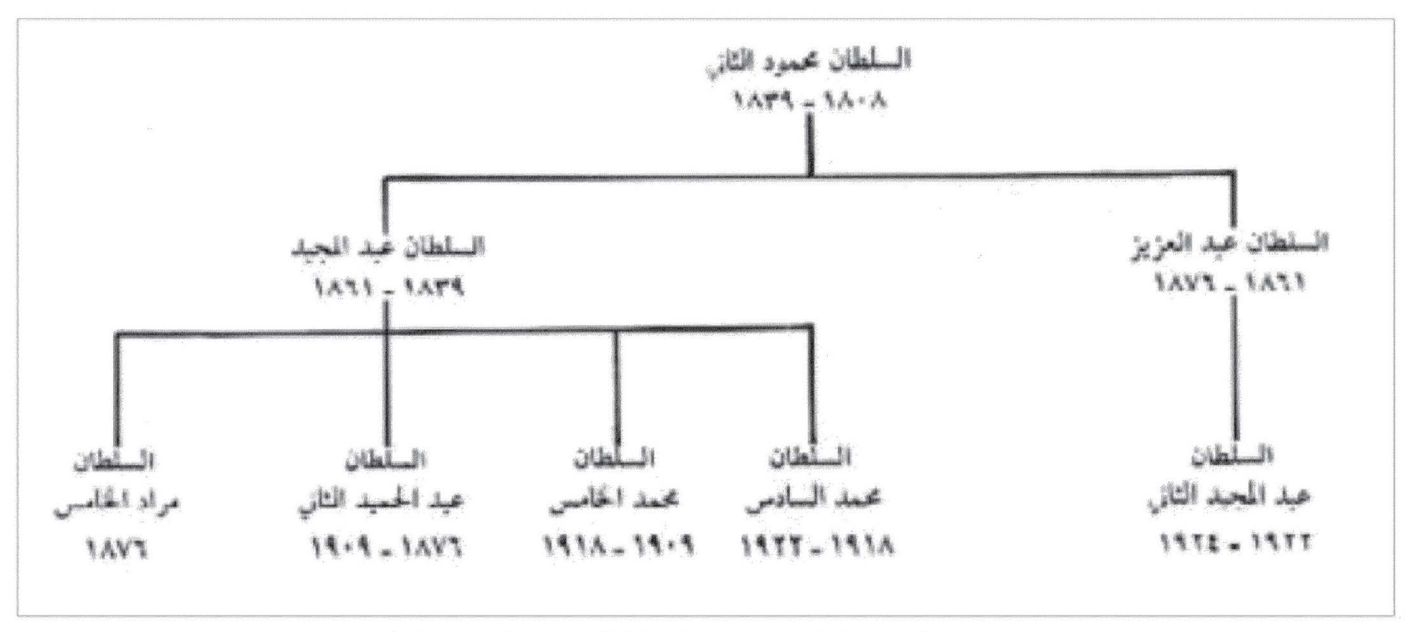
دور السلطان عبد الحميد في الحكم: بدأ في العمل وفق السياسة الآتية:
- حاول كسب بعض المناوئين له واستمالتهم إلى صفه بكل ما يستطيع.
- دعا جميع مسلمي العالم في آسيا الوسطى وفي الهند والصين وأواسط أفريقيا وغيرها إلى الوحدة الإسلامية والانضواء تحت لواء الجامعة الإسلامية، ونشر شعاره المعروف «يا مسلمي العالم اتحدوا»، وأنشأ مدرسة للدعاة المسلمين.
- قرَّب إليه الكثير من رجال العلم والسياسة المسلمين (خيرالدين التونسي وجمال الدين الافغاني) واستمع إلى نصائحهم وتوجيهاتهم.
- عمل على تنظيم المحاكم والعمل في «مجلة الأحكام العدلية» وفق الشريعة الإسلامية.
- قام ببعض الإصلاحات مثل القضاء على معظم الإقطاعات الكبيرة المنتشرة في كثير من أجزاء الدولة، والعمل على القضاء على الرشوة وفساد الإدارة.
- عامل الأقليات والأجناس غير التركية معاملة خاصة، كي تضعف فكرة العصبية، وغض طرفه عن بعض إساءاتهم، (محاولة اليهود باسم الارمن اغتياله سنة ١٩٠٥ لدى خروجه من المسجد بعد صلاة الجمعة)، ولكن السلطان نجا، وألقي القبض على الجاني، ولكن السلطان عفا عنه، وذلك لكي لا يترك أي ثغرة تنفذ منها الدول الأجنبية للتدخل في شؤون الدولة.
- عمل على سياسة الإيقاع بين القوى العالمية آنذاك لكي تشتبك فيما بينها، وتسلم الدولة من شرورها، ولهذا حبس الأسطول العثماني في الخليج (في القرن الذهبي) ولم يخرجه حتى للتدريب.
- اهتم بتدريب الجيش وتقوية مركز الخلافة، واستقدمت بعثة عسكرية المانية لتدريب وتأهيل الجيش العثماني.
- حرص على إتمام مشروع خط السكة الحديدية التي تربط بين دمشق والمدينة المنورة لِمَا كان يراه من أن هذا المشروع فيه تقوية للرابطة بين المسلمين، تلك الرابطة التي تمثل صخرة صلبة تتحطم عليها كل الخيانات والخدع الإنجليزية، على حد تعبير السلطان نفسه (الحقيقة انه يستطيع ارسال قوات عسكرية بزمن أقل إلى مناطق متمردة في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام). والشيء نفسه يقال عن الاتحاديين الذين استعملوا الاسلوب نفسه.
- أنشأ قصر النجمة (يلديز)..
- تم إنشاء مسرح قصر النجمة بأمر السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٨٨٩.

موقفه من الأرمن: بدأت قضية مذابح الأرمن في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، في اماكن متفرقة، وبذرائع مختلفة. منها ان روسيا تقوم بإثارة الأرمن الروس القاطنين قرب الحدود الروسية العثمانية، وإمدادهم بالمال والسلاح والقيام بتدريبهم في أراضيها وتشكيل الجمعيات المسلحة، وبريطانيا تقدم لتلك المنظمات والجمعيات المال والسلاح لأنها كانت تريد تفتيت الدولة العثمانية. وتوزعت المجازر بحقهم في مدن وقرى الاناضول الشرقي وفي منطقة كيليكيا وصولا إلى استانبول العاصمة. كان عدد الأرمن في الدولة العثمانية نحو الثلاث ملايين نسمة.

لم يعبأ السلطان بالضغوطات الخارجية ولا بتهديد إنكلترا وقيامها بإرسال أسطولها إلى جناق قلعة.

موقفه من مطالب اليهود (الصهيونية): لما عقد اليهود مؤتمرهم الصهيوني الأول في (بال) بسويسرا عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، برئاسة ثيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) رئيس المؤتمر الصهيوني، اتفقوا على تأسيس وطن قومي لهم يكون مقراً لأبناء طائفتهم، وتكون فلسطين هي الوطن القومي لهم، فنشأت فكرة الصهيونية، وقد حاول هرتزل الاتصال بالسلطان عبد الحميد مراراً ليسمح لليهود بالانتقال إلى فلسطين، ولكن السلطان كان يرفض، انما بعد محاولات حثيثة من هرتزل تمكن بواسطة أصحاب النفوذ في الدولة العثمانية أخيراً من زيارة السلطان عبد الحميد بصحبة الحاخام (موسى ليفي) ورئيس الجالية اليهودية في سلانيك (عمانيول قره صو)، وبعد مقدمات التملق والمديح، أفصحوا عن مطالبهم، وقدَّموا له الإغراءات المتمثلة بتسديد ديون الدولة الخارجية مع تقديم هدية خاصة للسلطان مقدارها خمسة ملايين ليرة ذهبية، وايقاف حملات الدعاية المسيئة التي ذاعت ضده في صحف أوروبا وأميركا. لكن السلطان رفض بشدة وطردهم من مجلسه وقال: (إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فلن أقبل، إن أرض فلسطين ليست ملكي إنما هي ملك الأمة الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يباع، وربما إذا تفتت إمبراطوريتي يوما، يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين من دون مقابل). ثم أصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين. ومما قاله: (انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، ولقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ السهود بملايينهم، وإذا مزقت دولة الخلافة يوما فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا أمر لا يكون، إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة).

عزله: تم عزله وخلعه من منصبه عام ١٩٠٩ وتم تنصيب شقيقه محمد رشاد خلفاً له. توفي السلطان عبد الحميد الثاني في استانبول في قصر اقامته الجبرية في ١٠ فبراير/شباط من عام ١٩١٨.



حقبة حكم سلاطين تنظيم الدولة العثمانية وتحديثها

فالحكومة العثمانية من دون أي ضغط من الخارج منحت الأرمن ذلك الدستور لأن الولاء الذي أظهروه في الماضي أكسبهم عطف الحكومة، حتى إنها لم تتردد لحظة واحدة في منح الدستور إلى الأمة الأرمنية المخلصة. وكان منتظراً أن يكون عملها ذلك فاتحة عهد سعيد جديد. ولكن روسيا اتخذت ذلك الدستور ذريعة للتدخل في الشؤون الأرمنية.

وكان بعض عصاة الأرمن قدموا مساعدتهم إلى الروس إبان الحرب الروسية - التركية عام ١٨٥٣[١٠]. ما ترتب عليه احتفاظ الروس فيما بعد بعلاقاتهم بأرمينيا وعدم إهمالهم فرصة ما في تشجيع الثوار الأرمن. فأخذت النتيجة تظهر بسرعة مدهشة، حتى إنه لم يمض على منح الدستور أكثر من أربع سنين حتى نشبت الثورة الأرمنية الأولى في الزيتون[١١] في عام ١٨٦٧. وطبعاً كان لهذه الثورة المسلحة الأرمنية الأولى أسوأ وقع في نفس الحكومة العثمانية. ومما زاد الطين بلة وضع أرمن روسيا والأناضول المصاعب في طريق الجيوش التركية خلال الحرب الروسية - التركية عامي ١٨٧٧-١٨٧٨.

ويعتبر نرسيس أفندي بطريرك الأرمن، الذي ذهب إذ ذاك إلى سان استيفانو[١٢] للحصول على مساعدة القيصر لقضية الاستقلال الأرمني، أكبر مسؤول عن فقدان الثقة بالأرمن منهم، وضياع اللقب الذي لقّبهم به الأتراك وهو «الأمة الصادقة».

وأدرك ساسة الروس إدراكاً تاماً أن كل أمل في التدخل في شؤون تركيا الداخلية قد انقضى بعد إعلان استقلال بلغاريا. ولكن حكومة روسيا الإمبراطورية رغبةً منها في الاحتفاظ بذلك الحق وضعت في معاهدة سان استيفانو مادة خاصة لمصلحة الأرمن وضمّنتها بشكل آخر في معاهدة برلين[١٣].

ثم توترت العلاقات بين الأرمن والأتراك والأكراد. وأنشأت اللجنة الثورية الأرمنية فروعاً سرية منظمة لها في كل مدن المملكة العثمانية، بل في جميع القرى الصغيرة. فظلت هذه الفروع السرية تعمل بلا ملل ولا انقطاع لإثارة الأرمن على الأتراك والأكراد وجعلت تطالب بإنشاء وطن أرمني ممتاز من ست ولايات

(أرضروم، ديار بكر، سيواس، خربوط، بتليس، فان-وان) من ولايات الأناضول الشرقية، وكانت الحكومة والأهالي الأتراك والأكراد على علم تام بتلك الدسائس.

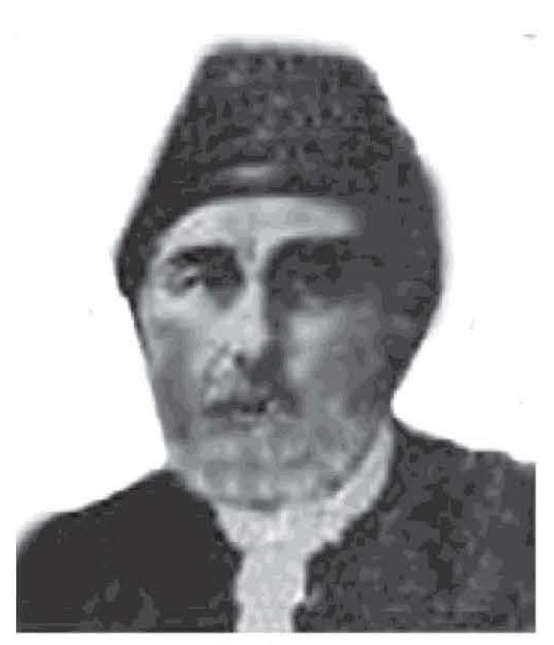
وإذ كان الأرمن مصرّين على إنشاء دولة مستقلة يملون فيها إرادتهم على الأتراك والأكراد الذين فاقوهم عدداً، كان من الأمور الطبيعية أن يبذل هؤلاء كل ما في استطاعتهم لإحباط ذلك المشروع. أي أن الأكراد والأتراك أيقنوا أن هذه الخطة بحذافيرها ليست إلا ذريعة من جهة روسيا لالتهام شطر كبير من الأناضول آهل بالكثرة الكردية التركية، لذا جعلوا ينظرون إلى أرمينيا كأنها الأفعى وقد أطلقتها روسيا عليهم.

وفي يناير/كانون الثاني ١٨٨٠ قدّمت الدول الأوروبية إلى الباب العالي، بضغط متوالٍ من روسيا وعلى أثر ثورات أرمنية كثيرة، مذكرة خاصة بالإصلاحات الأرمنية، واتفق أن البلغاريين كانوا إذ ذاك مُجدّين في ضم الروملي الشرقي، وكلما حاولت الحكومة تسوية إحدى المشكلات المهمة، داخلية كانت أم خارجية، كانت روسيا تضرب على نغمة المسألة الأرمنية، فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني إلى تسوية النزاع بالتسليم ببعض الأمور.

ثم بلغت المشكلة الأرمنية أشدّها بين سنتي ١٨٩٤ و١٨٩٦[١٤]، إذ ظهرت القلاقل والاضطرابات في كل الجهات، ما أدى إلى زيادة الأحقاد بين العناصر الثلاثة التي عاشت في صفاء تام جنباً إلى جنب ستة قرون، حتى إنها كانت تصبح وتمسي وهي متحفزة للانقضاض بعضها على بعض وتلطيخ أرض الأناضول، لا بل استانبول، بدمائها.

ولا يمكن لماندلستام وأمثاله الذين يبغضون الأتراك أن ينكروا أن الأتراك في ذلك الوقت العصيب لم يشعروا بأي حقد على الأرمن، حتى إن كثيراً منهم جعل ينافس بعضهم بعضاً في حمايتهم. وفي استانبول نفسها أظهر كثير من الأسر التركية صداقة كبرى لجيرانهم الأرمن بإيوائهم في منازلهم لإنقاذهم من مخالب الموت، بل إن عدداً ليس قليلاً من وجهاء الدولة أبدوا امتعاضاً شديداً للمذابح الأرمنية في استانبول التي أقدم عليها الحمالون في الجمرك ولم يدّخروا وسعاً في سبيل وقفها وصدّها.

وإن العالم بأسره يعلم جيداً الإجراءات الشديدة التي اتخذها المشير فؤاد باشا لحماية الأرمن في حي قاضي كوى، حتى إن ماندلستام نفسه أقرّ بأن فؤاد باشا لم يبؤْ بغضب رؤسائه فيما بعد إلا بسبب صداقته للأرمن! ولكن ليس في استانبول واحد إلا ويعرف أن هذه الدعوى محض افتراء. وفي خلال هذه السنوات الثلاث التي جرت فيها المذابح قتل الأرمن عدداً غير قليل من الأكراد والأتراك، وأصبح الفريقان يتسابقان إلى ابتكار أشد الوسائل للتعذيب والانتقام، ولم تتم الغلبة للأتراك إلا لقلة عدد الأرمن. ولو كانت لهؤلاء الكثرة العددية لأربى عدد القتلى الأتراك والأكراد على قتلى الأرمن، وأوضح دليل على ذلك عدد الأتراك الذين ذبحهم اليونانيون في شبه جزيرة المورة. ولما لم تكن المذابح إلا في أولئك التعساء المنكودي الحظ، أعني المسلمين الأتراك وغيرهم، لم يقم شاعر كلورد بايرون[١٥] أو شاتوبريان[١٦] ينوح ويندب مقتلهم! ثم انقضت تلك الحوادث الدامية من دون أن تترك وراءها سوى ذكرى في التاريخ العثماني.



المشير فؤاد باشا (دلي) (١٨٣٥-١٩٣١)
fuat pasa (deli) müsir

ولد فؤاد في مصر عام ١٨٣٥ اثناء خدمة والده حسن باشا (الشركسي) الموظف العثماني المنتدب في القاهرة. انهى دراسته الابتدائية والثانوية في مصر والتحق بالجيش المصري وتدرج إلى رتبة عقيد في سلاح الفرسان. انتقل إلى استانبول سنة ١٨٧٢ وكعسكري انضم للجيش العثماني وشارك في الحرب العثمانية – الروسية في البلقان (١٨٧٧-١٨٧٨) وبسبب شجاعته وتخطيطه الحكيم المجرب بوجه الجيوش القيصرية نال شهرة عظيمة وصلت إلى السلطان مامنحه اوسمة ولقب باشا وتوصل إلى رتبة (مشير) مارشال في الجيش العثماني. إلى جانب مشاركته في الحرب البلقانية الاولى في الدانوب (الطونة). كانت له اهتمامات حثيثة بقضايا الشركس في شمال القوقاز وصعوبات انتقالهم إلى تركيا. وبعد الحرب تابع اهتمامه بشؤون المهاجرين الشركس إلى تركيا من القوقاز. وتزعم اللجنة المشرفة على اللاجئين السياسيين منهم سنة (١٩١٥-١٩١٩) وسعى بدأب ومثابرة على اطلاق الشركس المسجونين في روسيا. كانت له مواقف مؤيدة للأرمن من المجازر المفتعلة ضدهم خصوصا حادث الحمالين وحارات الارمن. الامر الذي سبب له نقمة من قاطني قصر (يلديز) ولم يك على علاقة جيدة مع السلطان عبدالحميد. في ما بعد وجهت له تهمة ضلوعه في مؤامرة بحق السلطان. حوكم وصدر الحكم عليه بنفيه إلى دمشق. رحب بقيام المشروطية الثانية سنة ١٩٠٨ وعاد إلى تركيا كغيره من عشرات الآلاف المبعدين والمهاجرين إلى اوروبا والدول العربية. انتخب لعضوية مجلس المبعوثان. وإبان (حرب التحرير) كان من المؤيدين لحكومتها في انقرة وداعماً لها. رشح للصدارة العظمى قبل حسين حلمي باشا. أيد حكومة الصدر الاعظم الداماد فريد باشا بشأن الدفاع عن الحريات ومحاكمة قيادة الاتحاد والترقي. توفي سنة ١٩٣١ ودفن في مقبرة مسجد السلطان أيوب في استانبول.

وقد استنكرت تلك الحوادث أيما استنكار واعتبرتها تتضارب وما كنت أعتقده من الآراء بخصوص الإدارة السياسية، لأني كنت أستهجن فكرة استخدام الجماهير لقمع الحركات الثورية وتدبير المذابح، إذ مثل تلك الأعمال من شأنها أن تشوه سمعة الأمة التي تلجأ إليها وتلطخ تاريخها. ويشترك في هذا الرأي جميع الوطنيين الملقبين بثوار تركيا الفتاة، فإنهم استنكروا حوادث ١٨٩٤-١٨٩٦ في أرمينيا[17]، وعدّوها غلطة سياسية خطيرة ارتكبها عبد الحميد الثاني على أمل إطالة مدة حكمه الاستبدادي بهذه الطريقة القاسية، وهذا ما حدا بأحمد رضا بك وإخوانه الذين كانوا مشردين في أوروبا وقتئذٍ على مدّ ثوار الأرمن بمساعدات فعلية. أما الثوار الآخرون - مثلي - الذين كانوا في تركيا فكان هذا رأيهم أيضاً، فإنهم لم يترددوا في إبداء سخطهم على عبد الحميد للضرر البليغ الذي لحق القضية التركية، وخصوصاً العثمانية، من جراء تلك المذابح.



أحمد رضا (١٨٥٩-١٩٣٠)

هو من جملة الشباب الاتراك اللاجئين إلى أوروبا هرباً من الـ«سر خفية» مخابرات السلطان عبد الحميد. يعتبر رضا بك من مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي وصقورها. رافقها في الانقلاب وشارك في الحكومة والنيابة في حالة الحرب والسلم. في باريس شارك المفكر اللبناني الصحافي شكري غانم في اصدار جريدة «مشورت» وتحريرها باللغة التركية. وابان المناقشات في مؤتمر حزب تركيا الفتاة الذي عقد في منزل الامير صباح الدين في باريس عام ١٩٠٥ كان أحمد رضا على رأس المتشددين الرافضين منح أبناء القوميات الغير تركية حريتهم حاملاً على التوجه الديمقراطي للبرنس المنفتح على القوميات الارمنية والعربية وغيرها. قاد أحمد رضا التيار القومي العصبوي المطالب بقيام حكم مركزي وحصر السلطات بيد الاتراك فقط. أفكار احمد رضا صارت اساسا لبرنامج الاتحاد والترقي في ما بعد.

رضا حمل على أفكار البرنس الانسانية حملة ضارية في الصحف والمجالس. في شهر تشرين اول سنة ١٩١٣ انتخب عضوا في اللجنة المركزية واعلنت جمعية الاتحاد والترقي عن نفسها حزبا سياسيا.

في فترة الصدر الاعظم حسين حلمي باشا ١٩٠٩ احتل احمد رضا منصب منصب رئيس مجلس النواب العثماني ولطالما تصدى للمعارضة إما برفع الجلسات او شطب مطالب وكلمات واغلاق المجلس (أحمد رضا في ما بعد صار مغضوباً عليه من قبل الاتحاديين. ولينجو من الاغتيال اضطره الامر الى مغادرة تركيا سراً الى باريس).

ثم أخذت الحالة في شكلها الحقيقي تبدو لبعض النابهين من الثوار الأرمن. فإنهم رأوا أرمن القوقاز يسامون الخسف في الوقت نفسه الذي لم تدخر روسيا وسعاً للحصول على استقلال الأرمن المقيمين في تركيا! وفي مقابل التعهد بعدم إنشاء خطوط حديد في شرقي الأناضول. وعد القيصر السلطان عبد الحميد فعلاً بمنع الأرمن الذين فروا إلى القوقاز بعد ثورة ١٨٩٦ من العودة إلى تركيا!!.

وليس أدل من ذلك على نيات روسيا حيال تركيا. ولا جدال في أن التعليم والرخاء المادي هما الركنان الأساسيان لسعادة الأمم. ولا يقوم الرخاء إلا على المواصلات كالسكك الحديدية والطرق. فالروس كانوا يطالبون بإدخال الإصلاحات لسعادة الولايات الآهلة بالأرمن وصونها. وفي الوقت نفسه كانوا يلحّون علينا بعدم إنشاء السكك الحديد التي بها تتحقق المطالب التي طلبوها منا!.

فماذا كان رد ماندلستام على مسلك روسيا هذا؟ إن كل رده لم يتجاوز الطعن المسهب على الكاتب الأوروبي الذي لفت أنظار المنصفين إلى خطة روسيا. وما قال أحد إن الشتائم تقوم مقام البراهين وإنما يلجأ إليها السفهاء إذا أعوزتهم الأدلة.

فالألعوبة المزدوجة التي كان الساسة الروس يلعبونها حدت بعقلاء الأرمن إلى إعمال الروية. فلم يجدوا مندوحة من سؤال أنفسهم الآتي: «لو حصلت أرمينيا على استقلالها الذاتي ألا تقع كالسائمة تحت نير روسيا الذي هو أسوأ من الحكم التركي أضعافاً مضاعفة؟». ثم بذلت الجمعيات الثورية التركية أقصى جهدها في حمل جمعية الطشناق[١٨]، وهي أكثر الجمعيات الأرمنية اعتدالاً وأحسنها نظاماً. على الاعتراف بالإصلاحات اللازمة لجميع الجنسيات في المملكة العثمانية. وهي الإصلاحات التي كانت سائر الجمعيات تعمل للحصول عليها.

ولا يجرؤ ماندلستام أن يقول إنني اختلقت تلك العبارات. فإن جمعية الطشناق اشتركت في المؤتمر العام الذي عقده حزب الاتحاد والترقي في باريس سنة ١٩٠٧[١٩]، ونشرت برنامجها فظهر أنه مشابه للإصلاحات التي كنا ننشدها. ووعدت الجمعية أن تعمل بجد واجتهاد مع جمعية الاتحاد والترقي. وكثيراً ما حادثني مالوميان أفندي (حجنوني) أحد زعماء جمعية الطشناق في استانبول في عام ١٩٠٨ عن الخطر الروسي المحلق فوق رؤوس الأرمن. ولكن كانت بين الجمعيات الثورية الأرمنية جماعة يسمون الهنشاق[٢٠]، والهنشاق المصلحين - وأغلب زعمائهم أجراء روسيا - رفضوا كل تفاهم مع الجمعيات التركية. وراحوا يسعون لإنشاء دولة تحميها روسيا.

وإلى ممثلي تلك الجماعات الروسية وللنقود التي بذرها شمالاً ويميناً قناصل روسيا الذين كان لهم ضلع كبير في التشكيلات الثورية. يعزى السبب في أن الحزب الديني نفسه شرع يقول إن حماية القيصر الروسي خير من حماية الخليفة الإسلامي!.

تلك كانت حالة الثوار الأرمن والأتراك عندما نشبت ثورة ١٩٠٨. وقد اعتمدت جمعية الاتحاد والترقي السرية المكونة في سيلانيك برنامجاً لسياستها الداخلية الدستور الذي وضعه مدحت باشا على أساس الاعتراف بالتبعية العثمانية وجعل الإدارة لامركزية في الوقت نفسه. ولكن الجمعيات المقدونية البلغارية



مدحت باشا (١٨٢٢ــ ١٨٨٤/٥/٦)

من أهم رجالات الدولة العثمانية. أبو الأحرار. أبو الدستور العثماني ١٨٧٦. ابن حاجي حافظ. من مواليد استانبول. أتقن اللغات العربية والفارسية والإنكليزية. وُلّيَ الدانوب (الطونة). تمكّن من القضاء على ثورات البلغار. عيّن رئيساً لمجلس شورى الدولة. مشيراً (تعادل رتبة وزير). عيّن والياً على بغداد. ووالياً على دمشق. السلطان عبد الحميد الثاني ولاه الصدارة العظمى. وبعد خلاف على تطبيق الدستور وصلاحيات الصدر أقاله السلطان. الإقالة ليست فقط بسبب أن السلطان لا يحب ميوله التحررية، بل أيضاً شكّه بتورطه في مؤامرة مقتل عمه السلطان عبد العزيز عام ١٨٧٦. حاول مدحت باشا تكملة مسيرة إصلاحات السلاطين محمود الثاني وعبد المجيد الأول وعبد العزيز الذي اغتيل وتطويرها. في أي مكان يحلّ فيه مدحت باشا تنشط حركة سياسية فكرية أدبية اجتماعية متحررة. في بغداد والشام وأزمير. إنما الأذن السمّاعة للوشايات والافتراءات للموظفين الفاسدين. من دون التحقق والتبصر. سياسة أدّت بمدحت باشا أن يُنفى إلى الطائف ويُخنق في فراشه. ويرتاح بال عبد الحميد عندما يرى رأس مدحت في كيس. عاش حياته معارضاً للظلم والتسلط مؤيداً للحريات الدينية والعرقية والرأي والفكر (المصادر: الموسوعة السياسية. كيالي. لمحات اجتماعية. علي الوردي. الموسوعة البريطانية. العرب والترك. توفيق برو).

من جهة أخرى كانت ميالة إلى اللامركزية السياسية من دون التقيد بالتبعية العثمانية. وحذت حذوها الجمعيات المقدونية اليونانية بزعامة الأتنيكي هيتريا وجمعية الحرب الوطنية المقدونية والجمعيات الثورية الألبانية والأرمنية والعربية. فالإدارة اللامركزية كان المراد بها الاستقلال الذاتي الإداري داخل المملكة العثمانية لسائر الجهات الآهلة بالجنسيات الوطنية المختلفة. فلو أن جمعية الاتحاد والترقي كانت تعتقد كرأي أعدائنا في الخارج وجلّ همّ هؤلاء تمزيق المملكة العثمانية. حتى إنهم لم يقفوا عند حد سبيل تدبير الدسائس. لما أحجمت لحظةً واحدة عن قبول مبدأ الاستقلال السياسي أو القضائي الذي يُعتبر الأمير صباح الدين من أكبر أنصاره.

ولكن فرنسا كانت تمني نفسها بسوريا. وإنكلترا تؤمل الاستيلاء على العراق وعلى شبه جزيرة العرب بأسرها. وروسيا تتحيّن الفرص المناسبة لازدراد ولايات الأناضول الشرقية. والبلغاريون والصربيون

يطمحون إلى تقسيم مقدونيا، والنمسويون والإيطاليون يرغبون في تجزئة ألبانيا، واليونانيون يحلمون بإدماج جزر الأرخبيل في مملكتهم.

فهل كان صعباً على تلك الأمم لو أن تلك الجهات كلها أعطيت اللامركزية السياسية ابتلاعها الواحدة بعد الأخرى؟ هل كان مبدأ اللامركزية عندما يقوى على صدمات الحوادث أكثر من اللامركزية في النمسا؟ فهل فقدت عناصر التشيكوسلوفاك أو الكروات أو السلافيين الأمل في الانسلاخ بتاتاً من النمسا؟ هل كان سلطان حكومتنا المركزية ونفوذها يكونان أشد فعلاً وأعظم أثراً من سلطان الحكومة النمسوية ونفوذها في حماية الولايات المستقلة ضد أعداء أكثر عدداً وأشد جشعاً؟ ليس ثمة جهة تمتعت بقسط كبير من الاستقلال الإداري كما تمتعت به جزيرة كريت، ومع ذلك هل نجحنا في حمل الكريتيين على العدول عن السعي للانضمام إلى اليونان؟ لقد كان لجزيرة قبرص مركز خاص قبل الاحتلال الإنكليزي، ومع ذلك ألم نسمع الحكاية نفسها عاماً بعد عام ونرى تلك الرغبة القديمة، رغبة الانضمام إلى اليونان؟.

وهل استطعنا أن نمنع البلغار من الاستيلاء على الروميلي الشرقي مع أنه كان متمتعاً بنصيب كبير من الاستقلال الذاتي الإداري؟ وهل لقيت إنكلترا أي صعوبة في احتلال مصر التي كانت في مصاف ولاياتنا الممتازة؟ هل أحجم الإنكليز عن وضع أيديهم على الكويت - التابعة للخلافة العثمانية منذ قرون عديدة - بعدما أعلنوا أن الشيخ مبارك الصباح قبِلَ الحماية الإنكليزية؟ أم هل وجدت إنكلترا أي صعوبة في اعتبار العراق واقعاً في دائرة نفوذها بدعوى أن الأهالي المحليين متشوقون إلى الحماية الإنكليزية؟ أفلا يمكن أن يقال القول نفسه عن فرنسا حيال سوريا؟ وهل نستطيع أن ننظر إلى مقدونيا وألبانيا بغير العين التي نظرنا بها إلى الروميلي الشرقي أو إلى البوسنة والهرسك؟.

ولا أظن أن المتشيعين لفكرة اللامركزية السياسية يستطيعون أن يجيبوا إجابة منطقية مُرضية عن كل هذه المسائل، وإنني لأؤكد لهؤلاء الذين يتهموننا بالعمل على اتباع سياسة تركية محضة بأن سياستنا لم تكن تركية بل سياسة الاتحاد العثماني، ولو كانت اللامركزية مبدأنا لاتّبعت جمعية الاتحاد والترقي السياسة التركية، لأننا كنا نطالب يومئذٍ بالاستقلال الذاتي المحلي لكل الولايات التي يتغلب فيها العنصر التركي أسوة بالولايات الأخرى.

إذاً فالذين يسمون أنفسهم أتراكاً فقط ليسوا في الواقع إلا من أنصار اللامركزية لأنهم في الحقيقة إنما يؤيدون السياسة التركية المحضة، ومن جهة أخرى نحن الذين كانت سياستهم تهدف إلى الاتحاد العثماني، وكان مبدأنا الأساسي بقاء سلطة الحكومة المركزية على الولايات على ما كانت عليه من دون نقص ما، مع منح الإدارة المحلية في الوقت نفسه أوسع سلطة ممكنة، طبعاً مع عدم المساس بوحدة الجيش مطلقاً.

وقد أدركت تركيا الفتاة أن الأتراك وحدهم - من دون الجنسيات العثمانية المختلفة التي كانت تجاهد لترقية شؤونها - كانوا في عزلة تامة وبلا زعماء مطلقاً، فبدأوا هم أيضاً - أسوة بالعناصر الأخرى - يعملون للبعث القومي الكبير، فخطوا خطوات واسعة في سبيل نشر التعليم والتربية والأخلاق، وطبعاً

ما كان لجمعية الاتحاد والترقي أن تقيم العقبات في طريقهم. ولا أظن أن أنصار اللامركزية يرغبون من جهتهم في مقاومة جهود الأتراك.

فهل يمكن إذاً الادعاء بأن تتريك الأمم المختلفة كان المقصود من الطلب القاضي بجعل اللغة التركية اللغة الرسمية في المملكة العثمانية؟ وهل كنا عاملين لتتريك الأمم الأخرى عندما قلنا إنه ينبغي لنا تحسين إدارة التعليم العام في جميع أنحاء المملكة ووضعه بإشراف الحكومة؟.

لقد أسست في استانبول عقب إعلان الدستور جمعيات وطنية عدة مثل إخاء العرب والجمعية التعاونية الشركسية والنادي الكردي والنادي الألباني وغيرها. فلماذا يقال إن إنشاء وطن عثماني معناه أن حكومة الاتحاد كانت لها مآرب في تتريك الأمم الأخرى؟.

فمثلاً إذا تكلمت عن نفسي شخصياً قلت إنني عثماني أولاً. ولكن ذلك لا ينسيني أنني تركي. ولا يمكن لشيء مطلقاً أن يزعزع اعتقادي أن الشعب التركي هو العمود الفقري للمملكة العثمانية. فإن العامل الأخلاقي والتمديني التركي هو الذي يوثّق وحدة المملكة ويقوّيها. هذا لأن الإمبراطورية لم تكن بادئ عهدها إلاّ من صنع الأتراك. وإن أردت برهاناً على ذلك فانظر إلى الحالة المحزنة التي نرى أنفسنا فيها الآن. انظر إلى العرب الذين ثاروا علينا أملاً في الحصول على استقلالهم. فأين هم اليوم؟ وقد أشرت إلى هذه المسألة من قبل.

ألم تقع مصر تحت السيطرة الإنكليزية[٢١] على أثر خروجها من الاتحاد العثماني؟ أوَلم تروا مصر الفتاة كلما جأرت بالاحتجاج على تلك السيطرة هوت عليها يد إنكلترا الحديد؟ وليست منطقة الساحل السورية أو اللبنانية بكافية لسد جشع فرنسا لأنها ترغب في احتلال المنطقة الداخلية أيضاً.

فهل يجترئ أحد في تلك البلاد أن يفوه بكلمة العثمانية؟ كلا! بل الأمر على النقيض. إنك لتسمع دوماً عبارة «لقد تخلصنا بحمد الله من النير التركي»! تجري على ألسنة لفيف من الخونة يعيشون من فضلات الحكومة. ولكن الصوت الذي انبعث أخيراً من أنحاء الأناضول - تلك البلاد التي يقدسها الأتراك ويمجدونها - ليصيح بأن الإمبراطورية العثمانية ما زالت في الحياة وأن أبناءها الأمجاد المقيمين في تراقية الغربية - ذلك الركن التركي الصغير - لم يسأموا الجهاد في سبيل العودة إلى حظيرة الوطن. وكل الأتراك بالجملة - أينما كانوا - يكافحون ويناضلون لإثبات قوميتهم ويجدون ملاذاً في الاسم العثماني الجليل. وإننا نناشد كل راغب في الاحتفاظ بالوحدة العثمانية أن يعرف الواجب المفروض عليه أداؤه. وهو معاضدة الأتراك ومؤازرتهم وتنمية عددهم وإعطاؤهم مكانهم الخليق بهم في الشمس.

وأرجو ألاّ يعتبر ذلك الخروج البسيط عن الموضوع لغواً وحشواً. لأنني إنما أردت به نشر آرائي الخاصة.

فعملاً بالدستور أعربت جمعية الاتحاد والترقي المركزية عن رغبتها في إدماج كل الجمعيات السياسية الثورية المختلفة في الإمبراطورية في جمعية واحدة يطلق عليها اسم «جمعية الاتحاد العثماني السياسية». ولإدراك تلك الغاية وجّهنا أولاً اهتمامنا إلى الجمعيات الثورية البلغارية. ففتحنا باب المفاوضات مع ساندنسكي وشرنوبويف وإخوانهما. وأردنا أن يكون الاعتراف بالتبعية العثمانية قاعدة



وفد من الاتحاد والترقي مع قادة بلغار مناهضين للحكم الملكي: ساندنسكي وديموحاجي وثيودور باينتس



طلعت باشا

للتفاوض. فرفض الفريق الآخر بتاتاً التحول عن خطته وطالب باستقلال مقدونيا الذاتي. ولا يعلم إلا الله مقدار ما اعترضنا من المصاعب في تلك المؤتمرات التي اشتركت فيها أنا وطلعت بك بصفتنا مندوبين. ولن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذي قضيته مع ساندنسكي في القرى البلغارية (منليك. بتريك. عثمانية. جمعة البالا) وقت الانتخابات الأولى. ولكن بالرغم من ذلك أمكننا التفاهم معهم أكثر من الجمعيات الثورية الأخرى. لأن الجمعية البلغارية المقدونية رفضت بتاتاً العدول عن برنامجها. واقترح يوناني حضر إلى سيلانيك للمفاوضة باسم جمعية الأتنيكي هيتريا ضمّ جزيرتي كريت وساموس إلى اليونان. ومنح الجزر الأخرى استقلالاً إدارياً ذاتياً. وما يسمى بمقدونيا اليونانية امتيازات واسعة. وتعويض تركيا عن ذلك بمعاهدة تعقدها اليونان معها. فرفضنا تلك المقترحات طبعاً لأننا لم نطالب بعقد معاهدة تركية - يونانية. بل طلبنا انضمام يونانيي تركيا إلى جمعية الاتحاد والترقي لتتحقق

فكرة الاتحاد العثماني.

وفي أغسطس/آب ١٩٠٨ انتقلت جمعية الاتحاد والترقي المركزية موقتاً إلى استانبول، حيث بدأنا المفاوضات مع الدكتور رشاد نهاد ممثل الأمير صباح الدين، ومالوميان أفندي وشاريكيان أفندي نائبين عن الأرمن، والجمعية الأرمنية (الطشناق) على قاعدة المبادئ السابقة. وكنت أنا وطلعت بك وبهاء الدين شاكر بك نمثل حزبنا فبيّن لهم كل منا مضارّ مبدأ اللامركزية على المملكة العثمانية، وكانت



بهاء الدين شاكر (١٨٧٧-١٩٢٢)

من القيادات العليا (الصف الاول) لحزب الاتحاد والترقي، طوراني متعصب، كانت له مشاركة مباشرة في التخطيط والقيادة في عمليات الابادة للشعب الارمني، في استانبول وغيرها من المناطق الآهلة بالارمن. اشرف على توجيه المجموعات للعمليات الخاصة وتمويل التشكيلات الخاصة وامدادها الى جانب ناظم بك وانور وطلعت وغيرهم كثر. تميز منذ انتسابه للحزب بتعصبه لتركيّته، تمّت تصفيته الجسدية في المانيا الى جانب طلعت باشا.

ممن ساهموا بتأسيس الاتحاد والترقي، طبيب درّس الطب في الكلية الملكية، ثم عضو لجنتها المركزية فيما بعد من ١٩١٢ حتى ١٩١٨. اشتهر اسمه لمشاركته السياسية القيادية في المنظمة السرية (التشكيلات المخصوصة) والتخطيط لأعمالها (خطة قيادة حزب الاتحاد والترقي) في ابادة الشعب الارمني في ولايات الاناضول الشرقية حيث ارمينيا التركية. شارك الى جانب الدكتور ناظم السيلانيكلي في قيادة وعقد اجتماع سري في ارضروم لولاة (بتليس، وان، سيواس، ارضروم، طرابزون)، بالتعاون مع الضباط الالمان. وانبثق عن الاجتماع هيئة تشرف على عمليات الابادة الجماعية للأرمن في المدن بواسطة الشرطة والدرك وعصابات السجناء المجرمين ومجموعات اللحامين وخلال مسير قوافل الارمن المبعدين. وذاعت شهرته كرئيس لإحدى الوحدات العاملة في المقاطعات الشرقية في (خربوط) ومذبحتها الشهيرة، ما أعطى للمحكمة العسكرية أدلة جنائية ومبرراً لإدانته بجرائم ضد الانسانية وحكمت عليه غيابياً بالاعدام. في ١٩٢٢/٤/١٧ جرت عملية اغتيال الدكتور بهاء الدين شاكر في برلين الى جانب جمال عزمي الذي أصيب مباشرة على يد «ارشاوير شيراغيان» وبهاء جرح ما دفع «بآرام يرغانيان» ان يجهز على بهاء الدين ويصيب في وجهه مقتلاً.

آراء ممثل الأمير صباح الدين مشابهة لآراء جمعية الطشناق. وكادت أجوبة كل منهما أن تكون متماثلة.

والمدهش أن الدكتور نهاد طلب إلينا منح امتيازات أوسع مما طلبته الجمعية الثورية الأرمنية. وأبى الاعتراف بمضارّ الامتيازات المنشودة. وأخيراً اقترح مالوميان أفندي باسم جمعية الطشناق الاقتراح الآتي: «أن تعمل جمعية الطشناق يداً بيد مع جمعية الاتحاد والترقي للمحافظة على دستور الإمبراطورية العثمانية. أما عدا ذلك فإن كلاً من الجمعيتين تحتفظ بحريتها في العمل. سواء أكان لتحقيق برنامجها الأساسي أو في اختيار الوسائل. أي أن تحتفظ جمعية الطشناق بتشكيلاتها الثورية في تركيا. مع هذا الفارق الوحيد وهو أن تلك التشكيلات التي ظلت سرية إلى الآن تصبح علنية كجمعية سياسية. ويعمل أعضاؤها في رابعة النهار جهراً».

ولم تكن لنا يومئذٍ مندوحة عن قبول ذلك الاقتراح. وباختصار لم ننجح بعد مساعٍ مستمرة وتضحيات هائلة استغرقت ثلاثة أشهر أو أربعة في إدماج الجمعيات الثورية للفرق الأخرى في جمعية الاتحاد والترقي، لأن أماني الطرفين كانت متناقضة وغاياتهما متباينة.

فقد أرادت الجمعيات أن تنشر جهاراً نهاراً دعوتها الخبيثة إلى طلب الاستقلال الذاتي ثم الاستقلال الكلي. وهي الدعوة التي كان يُدعى إليها حتى الآن في الخفاء وكانت عرضة لأكبر الأخطار. وقد كان الداعون إليها يعللون أنفسهم بها كي يصلوا إلى تحقيق غاياتهم في أقرب وقت. ولكنّا أردنا من جهة أخرى أن نُكسب جمعية الاتحاد والترقي نفوذ الجمعية المشتركة التي تمثل سائر الجمعيات الثورية للعناصر العثمانية. محتذين حذو المملكة العثمانية التي لم تصر إلى ما صارت إليه إلا باشتراك هذه العناصر. فلقد رغبنا أن يتحقق اعتراف العناصر المختلفة بالاتحاد العثماني ليصبح الدستور في مأمن من أي خطر.

فكما أن الجمهوريين في فرنسا ينبذون اختلافاتهم الحزبية ويتحدون جميعاً حتى يكونوا صفاً واحداً ضد العدو متى رأوا الجمهورية مهددة بالخطر. كذلك أرادت جمعية الاتحاد والترقي المؤلفة من كل الجمعيات الثورية السابقة[22] أن تطلب إلى جميع أعضائها القيام صفاً واحداً ضد أي اعتداء ولو بسيطاً على الدستور. وكما أن الجمهوريين في فرنسا يضمون رجالاً اختلفت آراؤهم ومذاهبهم السياسية ومنهم أشياع الأحزاب المتباينة. أرادت جمعية الاتحاد والترقي أن تكون من مختلفي الآراء السياسية بحيث تمثل فيها الأحزاب بأسرها من دون أن يكون في ذلك ضرر ما على نزعات أعضائها القومية أو الدينية. ولم يكن بين الأحزاب السياسية المختلفة التي كانت أمانيها وطنية محضة حزب واحد قبل هذا البرنامج الأعلى. لأن هذه الأحزاب كانت حقاً تتلقى التعليمات والوحي من الخارج. ولم يكن الأشخاص الذين فاوضونا إلا صوراً.

وبهذه الطريقة ظلت جمعية الطشناق التي كانت أكثر الجمعيات ميلاً إلينا. وكانت تخشى فعلاً سقوط أرمينيا في أيدي روسيا محتفظة بتشكيلاتها. وأعلنت نيتها مواصلة الجهاد لتحقيق أمانيها السياسية. أما جماعة الهنشاق الأرمن والهنشاق المصلحين فقد رفضوا بتاتاً مفاوضتنا أو مفاوضة زعمائهم لنا في

استانبول. وفضّلوا أن تكون علاقاتهم بالسفارة الروسية علنية.

وفي عام ١٩٠٩ قررت وزارة حسين حلمي باشا بإيعاز من جمعية الاتحاد والترقي إرسال لجنة تحقيق إلى الولايات الشرقية لتسوية الخلافات الزراعية التي نشبت في تلك الولايات بين الأرمن والأتراك والأكراد. وعيّن غالب بك العضو في مجلس الأعيان وفي المحكمة الإدارية العليا رئيساً لتلك اللجنة التي تكونت منه ومن عضوين تركيين وآخرين أرمنيين. وكان الصاغ زكي بك التابع لهيئة أركان الحرب أحد العضوين التركيين، وكانت صلاته بجمعية الطشناق حسنة أثناء إقامته في أوروبا. وكنت أنا العضو الثاني. وطلب زعماء الطشناق مرة أخرى أن أكون أحد أعضاء تلك اللجنة. ذلك لأنهم عرفوا من المفاوضات السابقة أن آرائي كانت معتدلة لا تحيّز فيها. ووَقر في نفوسهم أن قراراتي ستكون انطلاقاً من كوني عضواً في الجمعية المركزية بمنجاة من انتقادات الجمعية. فارتحت لاقتراحهم ذلك وغادرت سيلانيك قاصداً استانبول. ومع ذلك قوبل اقتراح الحكومة بالمعارضة العنيفة في مجلس المبعوثين من مندوبي الولايات الشرقية، الذين حاجّوا بأن إرسال لجنة تحقيق كهذه هو بمثابة اعتداء على سلطة الحاكم العام الدستورية. وإذ أظهر وزير الداخلية وقتئذٍ فريد باشا ضعفاً متناهياً في المجلس في الدفاع عن خطة الحكومة. لبثت أقتل الوقت في استانبول إلى أن وقعت حوادث ١٣ أبريل/نيسان ١٩٠٩ المشهورة.

فبعد هذه الحوادث وضع الاقتراح في زوايا النسيان نهائياً. وفي نهاية مايو/أيار ١٩٠٩ عيّنت متصرفاً



يحيى غالب بك



الصدر الأعظم حسين حلمي باشا (١٨٥٥-١٩٢٢/١٩٢٣)
Hüseyin Hilmi Pasha

رجل دولة عثماني. صدر أعظم مرتين في فترة المشروطية الثانية:
- الأولى في ١٤/٢/١٩٠٩-١٣/٤/١٩٠٩.
- الثانية في ٥/٥/١٩٠٩-٢٨/١٢/١٩٠٩.

وُلد في ليبسوس (ميديلي) من عائلة مسلمة يونانية الأصل. درس الفرنسية في سن مبكرة في ليبسوس. عمل في دواوين الدولة، تسلق بسرعة سلم الوظائف. أصبح حاكم أضنه سنة ١٨٩٧، أيضاً في اليمن ١٩٠٢. في السنة نفسها عين مفتشاً إدارياً عاماً مطلق اليد في مقاطعات البلقان المضطرب المتضمن ولايات (سيلانيك وكوسوفو ومناستير). مؤسس جمعية الهلال الأحمر التركي. بعد إعلان العودة للعمل بمبادئ/بشروط الدستور (المشروطية الثانية) عين وزيراً للداخلية، ثم صدراً أعظم في ١٤ شباط ١٩٠٩ حتى حصلت حوادث ضد الدستور والاتحاديين من قبل الأصوليين!!! واحتلوا شوارع العاصمة استانبول في ١٩٠٩/٣/٣١ أو بالتقويم الميلادي ١٣/٤/١٩٠٩، قدم استقالته مع دخول الجيش العاصمة القادم من سيلانيك بقيادة محمود شوكت باشا الذي أعلن الاحكام العرفية. ثم أعيد تكليف حسين حلمي باشا بعد ٢٢ يوماً مرة ثانية بالصدارة العظمى من ٥ أيار/مايو حتى ٢٨ كانون الأول/ديسمبر. كان آخر صدر أعظم في حقبة السلطان عبدالحميد الثاني. في تشرين الأول/أكتوبر في حكومة الصدر أحمد مختار باشا عين وزيراً للعدلية. بعد هذا الموقع شغل سفيراً للسلطنة في العاصمة النمسوية فيينا حتى سنة ١٩١٨. بقي في النمسا بسبب تدهور صحته. توفي سنة ١٩٢٢. دفن في بِشكتاش.

هوامش الفصل الأول:

(١) الروملي/الروم ايلي/الروم لي: معناها بلاد الروم كانت تشمل الولايات العثمانية الأوروبية الست:
- أدرنة فيها البلغار أكثرية، اليونان أقلية.
- سيلانيك فيها اليونان أكثرية، البلغار أقلية.
- مكدونيا / مناستير فيها اليونان أكثرية، البلغار أقلية.
- قوصوه (آسكوب) الصرب أكثرية.
- يانيا الألبان أكثرية، أقلية صربية.
- أشقودرة الألبان أكثرية، اليونان أقلية.
كلها تعني ما يشمل مكدونيا وأجزاء من جنوب بلغاريا وشمال اليونان.

(٢) بكوات كردستان: كردستان منطقة شاسعة يقطنها الشعب الكردي، تشمل المناطق الشمالية للعراق وإيران وغرب افغانستان وجنوب شرق تركيا وقسماً من بلاد القوقاز، تكبر احياناً وتصغر بحسب نفوذ الزعماء الأكراد. الأتراك لم يحبوا الأكراد يوماً وكل ما متّ اليهم بصلة.
كانت حكومة الباب العالي تؤلب الأكراد وزعماءهم المحليين في صراعات قومية وطائفية ضد الأرمن والآثوريين وضد الحكام الإيرانيين. وإذا ما تمكنوا من توحيد قبائلهم الممزقة المتناحرة وتنظيم صفوفهم في قيادة واحدة، أقاموا دولة استتب فيها الأمن واستقرت أوضاعهم حتى يبادرون إلى إعلان استقلالهم عن السلطنة العثمانية، التي توجه إليهم جيشها لتأديبهم وإعادتهم إلى بيت الطاعة العثماني. والتاريخ مليء بالشواهد .

(٣) المقصود به السلطان محمد الثاني (الفاتح): حكم ١٤٥١- توفي ١٤٨١. ترتيبه السلطان السابع. ولد عام ١٤٢٩. حارب البيزنطيين وحطم صمودهم. فاحتل العاصمة قسطنطينية نسبة إلى مؤسسها (كونستانتين الكبير) واحتل الجزر الأيونية. أعطى هذه المنح وهو المنتصر.
حرص السلطان محمد الفاتح على مراعاة شعور رعاياه غير المسلمين. بدليل أنه بعد فتح المدينة المسيحية المقدسة «قنسطنطينية» (قسطنطينية أو الأستانة فيما بعد أو استانبول) وسيطرة القوات العثمانية عليها. دعا السلطان رجال دين الكنيسة الأرثوذكسية لتنتخب بطريركها المسكوني كأول تدبير أقره بعد دخول المدينة، فانتخبوا جورج سكولاريس وقدموه عليهم وصدق السلطان على إجماعهم، حتى أنه طالبهم بإقامة شعائرهم الاحتفالية المتبعة في هكذا مناسبة بانتخاب بطريركهم (نشوء القومية العربية، زين نورالدين زين، ص١٨١).

(٤) مبادئ ولسون بشأن حقوق الأقليات: الرئيس ولسون يعتبر من أهم الشخصيات العالمية التي تركت بصماتها على مجريات السياسة الدولية حتى الآن. كان له مأثرته وأثره ليس فقط على الولايات المتحدة الأميركية والعالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً، ويكفي أنه صاحب فكرة إنشاء عصبة الأمم. حاول في مؤتمر فرساي أن يضع أسساً جديدة لعالم من دون حروب يقوم على حرية الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. عام ١٩١٣ صار رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة الأميركية عن الحزب الديمقراطي، تقدم بمشاريع إصلاحية داخلية، اصطدم بأطماع الشركات والمؤسسات الاحتكارية. هو من طبّق مبدأ الثماني ساعات في العمل وشجع قيام تعاونيات زراعية. ألّف كتباً في السياسة والتاريخ. وضع قواعد الأربعة عشر برنامجاً للسلام نواتها خمسة مبادئ:
١- اتباع الدبلوماسية العلنية في عقد المعاهدات.
٢- احترام حرية البحار أثناء السلم والحرب.
٣- إزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب قدر الإمكان.

٤- خفض التسلح إلى القدر الكافي للمحافظة على الأمن الداخلي.
٥- تسوية المنافسات الاستعمارية مع مراعاة رغبات السكان ومصالحهم (المصدر: الموسوعة السياسية، مج٧).

(٥) معاهدة سان جرمان: أفرزتها الحرب العالمية الأولى، كأحد شروط الصلح والتسوية، بنودها:
أ- فصل النمسا عن ألمانيا.
ب- استعادة مناطق من النمسا وضمّها إلى دول أخرى.
ج- فرض غرامة مالية على النمسا.
د- قبول النمسا بميثاق عصبة الامم.
هـ- السماح لموظفين نمسويين الاشتراك في التحقيق والملاحقة (المصدر: الموسوعة العربية الميسرة).

(٦) الإنكشارية: كان لهم الفضل الكبير في توسع الإمبراطورية العثمانية الشاسعة خصوصاً في القرنين الـ١٧ و١٨. ففي عهد السلطان مراد الأول تزايدت الفتوحات والغزوات واتسع النفوذ التركي في الأراضي الأوروبية، وبسبب الحاجة إلى المحاربين أفتوا بشرعية الخمس من الأسرى (بنجيك قانون)، وتعطي هذه الأسرى (الفتيان) إلى الأسر التركية في الأناضول وتشغيلها في الزراعة والحرف، في وسط العائلات التركية مع الوقت يتعلمون مبادئ الدين واللغة والعادات والتقاليد الإسلامية، وبعد ٧-٨ سنوات يتم إلحاقهم بمدرسة خاصة بهم (أوجات عجمية) في غاليبولي، وقسم من هؤلاء الفتية يخضع للحاجات العسكرية، وقسم للإدارة والخدمات فيرسل إلى مدرسة (الأندرون) في استانبول. وفي أواخر القرن ١٨ صاروا عبئاً على الدولة والسلطان، ضباطاً وجنوداً، فعاثوا في البلاد فساداً، إلى حدّ أنهم صاروا يعزلون السلاطين والصدور والضباط، لهذا صاروا عبئاً على الدولة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأمنياً، ومن الضروري وضع حدٍّ لذلك. ففي عهد السلطان محمود الثاني وبعد فشل أساليب التنبيه والتحذير معهم، بإشرافه وحنكته تمكّن من التضييق عليهم، وجرت ضدهم (جنوداً وضباطاً) مذبحة رهيبة استأصلت شأفتهم عام ١٨٢٦، ومن بقي منهم توارى.

(٧) الإتنيكي هيتريا: جمعية أو منظمة قومية، لعبت دوراً مهماً في تنظيم وتوحيد أناس من شرائح اجتماعية ومناطق جغرافية مختلفة (بلاد الروم‌للي) من أجل الاستقلال عن السلطنة العثمانية. الجمعية رفعت شعارات قومية/دينية لأجل إعادة إحياء الإمبراطورية البيزنطية القديمة، ضمّت أعضاء محبين للثقافة والحضارة اليونانية «الهيلينية الإنسانية» في ظروف لا وجود لثقافة يونانية قديمة ولا لغة لها ولا أبطال الميثولوجيا الإغريقية. بدأت أعمالها تحت حماية القيصر الروسي مباشرة، وخلال مدة قصيرة استطاعت أن تستقطب مئات آلاف الناس من رومانيا وبلغاريا ومولدافيا والصرب والبلقان ومقدونيا وكرواتيا، منهم رجال دين وفلاحون ورعاع وإقطاعيون وحرفيون ومثقفون، وتمكنوا من استعادة الولايات الأوروبية العثمانية، وكانت بداية الثورة ١٨٢١. وتعرّضَ مسلمو وسط اليونان وجنوبه لمجازر خاصة في المورة، وعلى أثرها اتُهم البطريرك ومطارنته بالضلوع في التخطيط للمذابح، فاتهموا بالخيانة العظمى وأعدموا في ٢٣ نيسان/أبريل ١٨٢١.

(٨) معركة نفارين: وقعت في ١٨٢٧/١٠/٢٠، معركة أو غارة بحرية ذهب ضحيتها ٨٠٠٠ جندي قتيل عثماني ومصري وغرق ٧٥ سفينة عثمانية مصرية، قامت بها سفن أساطيل بريطانيا فرنسا روسيا (أساطيل دول الاتفاق) تحت قيادة الأميرال الإنكليزي cadington داخل البحر اليوناني التي شوهدت أمام ميناء نافارين في رأس مورة ضد الأسطولين العثماني والمصري وكانا بقيادة الأميرال أوغلو طاهر باشا، يومها سفن أسطول دول الاتفاق لم تك رافعةً على صواريها رايات الحرب المتعارف عليه خلافاً لبروتوكول القانون الدولي للبحار، ما جعل الأتراك يطمئنون إلى أنهم في حالة صلح مع الدول الثلاث وإنما هذا مجرد عرض عضلات، فناموا على أحلام الصلح ولم يستيقظوا بسبب أن مدافع سفن أسطول دول الاتفاق المقابلة فتحت نيرانها من دون سابق إنذار فأغرقتهم نياماً، مدمرةً سفن الأسطولين. فأصبحت الدولة العثمانية من دون قوة بحرية حربية، بعد ذلك اضطر السلطان محمود الثاني إلى إعطاء اليونان الاستقلال الذاتي بعد استرداد المورة، وكان يخشى أن تصبح اليونان نموذجاً تقتدي به الولايات البلقانية.

(٩) كوتاهية: مدينة اشتقّ اسمها من كوتيوم المدينة التاريخية، فيها قلعة بيزنطية جددها السلاجقة ثم العثمانيون، عاصمة ولاية، مركز تجاري تمر فيها سكة حديد تصل إلى بورصة.
اشتهرت منذ القرن الـ١٥ بإنتاج الخزف التركي المزين بالزهور والأوراق النباتية. احتلها المصريون في ١٨٣٣/٢/٢ بقيادة ابراهيم باشا، وسمّيت معاهدة الصلح بين السلطنة العثمانية ومصر محمد علي باشا باسم المدينة سنة ١٨٣٣ في ٤ أيار/مايو، وتضمنت فرمانا يثبت سلطة محمد علي وذريته على مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت وتعينه حاكما على

فلسطين وسوريا وكيليكيا. وتقضي بأن يجلو عن الأناضول واعترافه بتبعيته للسلطان العثماني بالرغم من انتصارات محمد علي وهزائم العثمانيين.

(١٠) الحرب الروسية-التركية ١٨٧٧-١٨٧٨ التي أنتجت معاهدة سان استيفانو: بدأت في ١٨٧٧/٤/٢٤ اشتهرت في التاريخ العثماني بـ(حرب٩٣) استمرت حتى ١٨٧٨/١/٣١.

في ٢٤ نيسان/أبريل أحاطت روسيا الدول الأوروبية الكبرى علماً بأن الاضطرابات في الشرق تعوق تطورها السلمي. فهي مضطرة إلى أن تتدخل ميدانياً. أي الدول التي شاركت في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ (فرنسا. بريطانيا. سردينيا. النمسا. بروسيا. روسيا) كانت قد ضمنت استقلال السلطنة العثمانية ووحدة أراضيها وعدم سير السفن الحربية في البحر الاسود وعدم بناء التحصينات على ثغوره. هذه الدول أعلنت حيادها إزاء إعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية. الروس وجدوا أن الأوضاع تسمح بمد نفوذها على شبه جزيرة البلقان وأن الاضطرابات الداخلية (ثورات) في بلغاريا والجبل الأسود وصربيا سنة ١٨٧٥ تفرض عليها التدخل ولهم مبرراتهم. فأرسلت جيوشها نحو رومانيا عابرة نهر الدانوب منتهكةً حيادها. وبدوره الجيش العثماني فعل الشيء نفسه. إلا أن ضعف قدرات رومانيا العسكرية لم تسمح لها بالتصدي لأي من الطرفين. أو أن تحول دون مرورهم في أراضيها. فرأت أنه من مصلحتها أن تعقد ميثاقاً عسكرياً مع روسيا يقضي بتسخير جميع موارد رومانيا ووسائل نقلها لصالح الروس. وفي ١٣ أيار/مايو أعلنت رومانيا الحرب على الباب العالي. وفي ٢١ منه أعلن مجلس نوابها الاستقلال. فارسلت السلطنة جيشين اثنين: الأول (نحو ٢٢٥٠٠٠-٣٠٠٠٠٠ جندي) إلى رومانيا أوكلت مهامه إلى المشير عبد الكريم باشا (عبدي) ليتشعّب إلى ثلاثة جيوش لمواجهة الروس الذين اخترقوا حياد رومانيا واجتازوا الدانوب والجيش الثاني (نحو ٢٠٠٠٠٠ جندي) باتجاه القوقاز للتصدي للجيش الروسي المهاجم باتجاه باطومي وطرابزون (السواحل الشمالية الشرقية لتركيا) وتمكنت الجيوش الروسية التي احسنت الاستفادة من نقاط الضعف لدى الجيوش العثمانية (تشرذم الفرق والكتائب. انعدام التعاون والتنسيق بين قادة الجيوش الثلاثة. انعدام الاتصال بين الوحدات لتنسيق الاهداف وحقول النيران. البطء في وصول المعلومات ومعرفة المتغيرات لتقدير الموقف وتقويمه) و(للروس أيضاً كان نقاط ضعف وكانت كثيرة انما سارعوا إلى إصلاحها وتداركها) ولذا لم يفوّتوا الفرص ففرضوا شروطهم واجبروا الباب العالي على عقد معاهدة (سان استيفانو) الضاحية الاستانبولية التي وصلها الجيش الروسي.

(١١) الثورة الأرمنية الأولى في الزيتون سنة ١٨٦٧: الزيتون تعد من كبريات الولايات في غرب الأناضول (كيليكا). فيها أكثرية أرمنية. جرت فيها مجازر بحق الأرمن. تاريخيا وجغرافيا هي جزء من سوريا انما حسبت من ضمن لواء الاسكندرون بمقتضى معاهدة «سيفر».

كل محاولات السلطات العثمانية للإصلاح السياسي والتنظيم الإداري (قسّمت المناطق الأرمنية عام ١٨٦٤ إلى ست ولايات: ارضروم. ديار بكر. وان. خربوط. بتليس وسيواس) لم تعط الأرمن شيئاً من حقوقهم أو تقنعهم بصدقية سعي السلطة وجديتها للحد من مشاكلهم السياسية الإدارية الدينية والثقافية القومية المطمئنة على مصيرهم وأمنهم. وعدم تعرضهم بين فترة واخرى لحروب إبادة. فكل الإجراءات السابقة للدولة باسم الإصلاح الإداري وتنظيم مؤسسات الدولة وتفعيلها على مدى ١٤ سنة منذ ١٨٦٤ حتى سنة ١٨٧٧ التي عدّل فيها التقسيم والتنظيم الإداري بدمج هذه الولايات في أربع: وان. ديار بكر. أرضروم. خربوط. هذه التقسيمات التي لم تعطِ ما يدل على حسن النوايا غير الوعود الجوفاء والتي دلت على أنها جاءت خوفاً من تنامي الشعور القومي لدى الأرمن والنهضة الثقافية الاجتماعية. بل كانت إجراءاتها تدل على محاولات الغاء كل ما يدل على وجودهم كمجموعات اثنية اجتماعية معينة لها تاريخها وثقافتها المميزة أو مجموعات دينية. وطمس كل ما يمت اليه بصلة. حاولت تذويب ما تعتبره أقليات قومية ضمن ما تعتبره أكثرية قومية. وبما أن الأرمن شعب حيّ. خلاّق. مبدع ونشيط ومتحضر. من الصعب ترويضه. رأت السلطات أن الحل في إبادته. فجرى السماح للشركس بالهجرة إلى الريف الأرمني والاستيطان في أراضي الأرمن الزراعية ورعي ماشيتهم فيها. وجرى غض الطرف عن هجمات الأكراد وسفكهم للدماء الأرمنية. فنهبت بيوت «موش» و«وان» و«أرارات» وتعرض سكانها للمجازر وفلتان الأمن لانتشار رعاع السلطة الذين يعيثون في الارض فساداً. الأمر الذي دفع بآلاف الأرمن أن ينتقلوا (ينزحوا) إلى المدن الكبرى استانبول وأرمينيا الروسية ومدن كيليكيا ظناً منهم انهم سينعمون بالأمن والنظام والاستقرار والقانون والعدالة فيها. الزيتون من جملة المناطق ذات الكثافة الأرمنية التي عصت على زمر رعاع السلطة. وهي منطقة جبلية زراعية خصبة تقع وسط تركيا ضمن منطقة كيليكيا رفضوا الإذعان لنفوذ السلطة الطائفية التي تميز بين أبناء البلد الواحد اما بسبب الدين أو العرق واللغة والثقافة. وهو ما رأت فيه السلطة خروجا على قانونها.

سيّرت الحكومة حملة عسكرية ضخمة ضمت ٣٠ ألف جندي مع مدفعية ثقيلة لتأديب سكان بلغ عددهم ١٨٠٠٠ فرد وأدى إلى سقوط أكثر من ١٠٠٠٠ ضحية أرمنية بين قتيل وجريح. ما دفع بالقيادات السياسية الأوروبية إلى أن تتدخل وتوقف

المجزرة (المصدر: جان شرف: القضية الأرمنية في السلطنة العثمانية، ص١٣٥، مركز الدراسات الأرمنية، ١٩٩٧ بيروت. مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص٣٩٥، مكتبة الحياة ط١٩٨٢. كرسام اهارونيان: القضية الأرمنية أمام الرأي العام العربي، ص١٧، بيروت ١٩٦٥).

(١٢) معاهدة سان ستيفانو: عقدت في ١٨٧٨/٣/٣ بين روسيا والسلطنة العثمانية، بهذه المعاهدة حاولت روسيا فرض شروطها على السلطنة العثمانية المغلوبة فتسحقها قبل أن تتدخل الدول العظمى، وتصبح روسيا سيدة البلقان.
وقّع المعاهدة عن الجانب التركي صفوت باشا وزير الخارجية والى جانبه سعد الله بك السفير العثماني في برلين. وعن الروس الجنرال اغناتيف ومعه نيلدوف.
تتألف المعاهدة من ٢٩ مادة.
أهم مواد المعاهدة:
* تعديل حدود الدولة العثمانية والجبل الاسود وإعلان استقلاله وتبادل المجرمين بين كلا البلدين، وتحكيم روسيا والنمسا في حال نشأت خلافات.
* إعلان استقلال الصرب وتعديل حدودها برعاية روسية، وللمسلمين حق تقرير مصيرهم بالبقاء أو المغادرة.
* إعلان استقلال رومانيا بولايتيها (الافلاق والبغدان) مع ضمانات. اعطاء بلغاريا شبه استقلال وخروج الجيش العثماني وازالة تحصيناته، على أن يستمر التواجد عسكري الروسي في بلغاريا ويراقب تحركات المسلمين فيها وعلى المواصلات البرية والسلكية.
* هدم القلاع على ضفة الدانوب (الطونة) دفع تعويضات للشركات النقل النهري/البحري، تنظيم المواصلات والنقل في الدانوب.
* عدم مطالبة البوسنة والهرسك بالضرائب إلى آذار/مارس من عام ١٨٨٠.
* فرض غرامات مالية وتعويضات (١٣٠٠ مليون روبل) عطل وضرر للروس.
لم يعمل بمعاهدة سان ستيفانو لأن معاهدة برلين وقّعت بعد أربعة أشهر و١١ يوماً وألغتها.
لم تُرد الدول الأوروبية أن يتعزز الموقع الجيوبوليتيكي للروس فيقوى نفوذهم إذا ما خرجت إلى مياه المتوسط الدافئة بموجب معاهدة سان ستيفانو، ولا أن تسقط العاصمة استانبول تحت رحمة الروس أو تكون السلطنة العثمانية قوية.
* المادة ١٦ من المعاهدة نصّت على «مطالبة الباب العالي بإجراء تحسينات وإصلاحات فورية في الولايات الآهلة بالأرمن، حسب حاجاتها المحلية، وكذلك تأمين سلامة الأكراد والشركس تجنباً لتجدد الاضطرابات وعودة الاشتباكات إلى مناطق أرمينيا في حال انسحب منها الجيش الروسي الذي سيبقى كضمان لتحقيق الإصلاحات الموعودة فوراً». هذه المادة ادخلها ممثل الروس لأن مطالب الأرمن في ذلك الوقت مناسبة لان يُناوَر بها لابتزاز الأتراك.
إلا أن دزرائيلي ما إن عرف بمحتويات اتفاق سان استيفانو، حتى بذل كل ما لديه من نفوذ وإمكانات لتغيير مادتين من اهم مواد الاتفاقية المتعلقتان بالبلغار والأرمن، وتحرك على ثلاث محاور سراً:
الأول: مع النمسا التي أمّن تعاونها مع إنكلترا مقابل اعتراف نهائي باحتلال البوسنة والهرسك.
الثاني: مع روسيا التي لوح لها بالحرب ضدها فاقنعها بالاكتفاء باحتلال بسارابيا وقارص واردهات، وبالتخلي عن مشروع بلغاريا الكبرى وعن أراضي أرمينيا.
الثالث: مع عبد الحميد الذي انتزع منه جزيرة قبرص (مفتاح الغرب) مقابل إعطائه تطمينات ضد روسيا ومطالب الأمن. وبعد الحصول على هذا كله، توجه دزرائيلي إلى برلين ليدعو إلى تمزيق اتفاقية سان استيفانو وعقد مؤتمر آخر لإنتاج اتفاقية بديلة، وكان بسمارك المستشار الألماني سياسياً محنكاً الأكثر عدائية للأرمن رئيساً للمؤتمر (وبالمناسبة ذهب البطريرك الأرمني نرسيس إلى برلين لمتابعة تداعيات المسألة الأرمنية وعلى الباب للقصر بدلاً من استقباله من قبل لجنة تشريفات، يقوم الحارس برفس البطريرك بين فخذيه الذي يسقط أرضاً متألما مذهولاً بين يدي وامام نظر مرافقيه) وهذا يبرهن عن مدى اهتمام الألمان واحترامهم للمسألة الأرمنية ولا ننسى ما قاله زعيمهم بسمارك عن عدم استعداده لمساواة كل القضية الشرقية بعظام جندي بروسي.
وفي اجتماع برلين وقفت الدول المؤتمرة كلها ضد روسيا، فمزقت خريطة بلغاريا وأبدلت المادة ١٦ الواردة في سان استيفانو بالمادة ٦١ «التي تقضي بانسحاب الجيوش الروسية من الولايات الأرمنية المحتلة وترك شأن تنفيذ الإصلاحات لأمر السلطان عبد الحميد». وهكذا فإن موقف إنكلترا الممالئ لتركيا وحوّل المادة ١٦ إلى المادة ٦١ ما سمح للسلطان عبد الحميد أن ينظم الميليشيا الكردية وتنظيم حملات الإبادة ضد الشعب الأرمني على مراحل (وتابع حزب الاتحاد والترقي حملات الابادة في العقد الثاني من القرن العشرين) وتم اجتماع برلين (مؤتمر) بمتابعة وإشراف المستشار الألماني بسمارك وبمشاركة وتوقيع كل من ألمانيا، إنكلترا، فرنسا، النمسا، المجر وإيطاليا إلى جانب روسيا وتركيا. وبحصول إدارة

السلطنة العثمانية على معاهدة برلين بعد أربعة اشهر تكون تجاوزت الشروط الروسية المذلة (يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية/ج٢ / ص١٢١. كرسام اهارونيان، القضية الأرمنية امام الرأي العام العربي، ص٢١ بيروت ١٩٦٥. يوسف ابراهيم الجهماني، تركيا والأرمن، ص٢٤ ط١، ٢٠٠١ دار حوران).

(١٣) مؤتمر برلين ١٨٧٨ (اتفاقية/معاهدة): دعت إليه الدول الموقّعة على معاهدة باريس (١٨٥٦) لإعادة النظر في شروط معاهدة سان ستيفانو التي فرضتها روسيا على السلطنة العثمانية قبل أربعة أشهر، وكانت بريطانيا والنمسا/المجر قد أصرت على التعديل ولم تعرض روسيا المعاهدة للتعديل إلا بعد التهديد بالحرب. تقدم بسمارك للوساطة ورأس المؤتمر بحضور ممثلي بريطانيا والنمسا/المجر وفرنسا وروسيا وإيطاليا وتركيا. المؤتمر صدر عنه اتفاقية قضت بتعديلات جغرافية سياسية كبيرة في حياة شعوب المنطقة ومستقبلهم، ومصير معاهدة سان ستيفانو.
اعترف باستقلال الجبل الأسود وصربيا ورومانيا التي أجبرت على التنازل عن بسارابيا الجنوبية لروسيا مقابل دوبروجا، وقسمت بلغاريا إلى:
- إمارة بلغاريا الشمالية تحت السيادة التركية اسمياً
- الروملي الشرقي تحت حكم أمير مسيحي يعينه الباب العالي
- مقدونيا مع أدرنة تحت السيادة التركية المطلقة
- النمسا/المجر تعطى البوسنة والهرسك
- روسيا حصلت على قارص وباطومي واردهات
- بريطانيا حصلت على قبرص ووعدت كريت بحكومة دستورية
وتضمنت الاتفاقية تعديلات مهمة بخصوص الحدود اليونانية-التركية ونزع السلاح في المنطقة السفلى للدانوب وحماية الأراضي وحماية الاقليات الدينية في تركيا.
وإبدال المادة ١٦ من معاهدة سان استيفانو بالمادة ٦١ القاضية بانسحاب القوات الروسية من أراضي أرمينيا المحتلة وترك أمر الإصلاحات فيها للإرادة السلطانية.

(١٤) المسألة الأرمنية بلغت اشدها بين سنتي ١٨٩٤-١٨٩٦ ودور الحمالين: قام مئات الأرمن بالتظاهر في ١٨٩٥/٩/٣٠ أمام الباب العالي ضد الحكومة، فقمعتهم القوى الأمنية في منطقة «السلطان أحمد»، فانتقلوا إلى حي "كادوغا» الأرمني، فتصدى لهم الجنود الأتراك وكتائب «الخيالة الحميدية»، واستمرت مقاومة المتظاهرين (المجزرة) ثلاثة أيام ونصف اليوم حتى آخر متظاهر، سقط نتيجتها أكثر من ٣٠٠٠ شهيد أرمني.
ويتكرر الامر في العاصمة في ٢٦ آب/أغسطس ١٨٩٦ أي بعد سنة، عندما احتلت مجموعة شباب أرمنية البنك العثماني وهددت بتفجيره إذا لم تلبَّ مطالبها، إلا أن الشرطة قبضت عليهم، وجرى تنفيذ عصيان للأرمن في استانبول فيما بعد واطلاق نار على الصدر الاعظم خليل رفعت باشا (يقال إنه من تدبير «سر خفية» مخابرات السلطان عبد الحميد) وحاولت القوى الأمنية التركية التدخل لضبط الأمن في الأحياء الأرمنية والسيطرة على الموقف إلا أنها جُبهت بإطلاق النيران والحجارة من أسطح البيوت وشرفاتاتها، القوى الأمنية الرسمية تلقّت امرا بالانسحاب، وترك واجب تسوية الأمر للحمالين الأكراد والرعاع المنتشرين في المرفأ والأزقة المزوّدين بآلات حادة (السكاكين، الخناجر، السواطير، السيوف، الفؤوس والهراوات) فجرى نهب محال الأرمن وتحطيمها واقتحام منازلهم وسلبها واغتصاب نسائها ومهاجمة المارة وكانت النتيجة مقتل أكثر من ٥٠٠٠ شهيد أرمني ذبحاً وتحطيم جماجم، بعدها تم ابعاد البطريرك أزميرليان إلى القدس (راجع الجزء الثالث، فصل «المسألة الأرمنية»).

(١٥) اللورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤): شاعر إنكليزي، أحد أهم شعراء الحركة الرومانسية، كان صديقاً لمواطنه الشاعر شيللي، ييتس، پوشكين، توماس مور، خوسيه ديلغادو، يوجين ديلا كروا، غوستاڤ فلوبير والعالم غودوين.

(١٦) شاتوبريان فرنسوا رينيه (١٧٦٨-١٨٤٨): كاتب ورجل دولة فرنسي، ولد في بريتاني شمال غرب فرنسا. من رواد الحركة الأدبية الرومانسية في فرنسا وأوروبا. ناقد ومؤرخ وقف ضد سياسة نابليون. شارك في معارك وجُرح. بعد سقوط نابليون وانقسام الفرنسيين مع وضد، ترك فرنسا إلى أميركا لئلا يحارب مع طرف ضد طرف آخر. بعد فترة أُرسل سفيراً إلى بريطانيا، ثم وزيراً للخارجية. من مؤلفاته: مذكرات من وراء القبر، العبقرية المسيحية، الدليل من باريس إلى أورشليم.

(١٧) حوادث أرمينيا ١٨٩٤-١٨٩٦: يذكر هنا أن تركيا الفتاة ما قبل سنة ١١ هي غير تركيا الفتاة عمّا بعدها (التفاصيل في الجزء الثالث).

(١٨) الطشناق: حزب سياسي أرمني قومي. منذ تأسيسه عام ١٨٩٠ في أرمينيا تحمّل عبء النضال القومي سياسياً وعسكرياً وثقافياً دفاعاً عن المصالح والحقوق القومية ومستقبل الشعب الأرمني. حالياً بفضله حازت القضية الأرمنية على التعاطف الدولي بعد أن نقلها إلى المحافل الإقليمية والأممية. يعتبر أقوى الأحزاب الأرمنية وأهمها في أرمينيا والشرق الأوسط وأوروبا وأميركا.

(١٩) حضور الطشناق المؤتمر ١٩٠٧ في باريس: يتشدق أحمد جمال باشا كعادته بما هو كان يعارضه دائماً للعرب والأرمن. كانت مشاركة الأرمن في المؤتمر بضغط من الأمير صباح الدين وأخيه صالح والدكتور نهاد رشاد والدكتور رفعت و(الأميرالاي) الزعيم نامق زكي والدكتور صبري وحسين طوسون وأحمد فضلي. وبضغط وترحيب من الجناح المتنور في جمعية تركيا الفتاة ومعارضة جناح فريق أحمد رضا بك الذي هيمن على السلطة فيما بعد (يلماز أوزتونا، ج٢، ص١٧٤. توفيق برو، العرب والترك، ص٥٤-٥٥).

(٢٠) الهنشاق: حزب أرمني يساري اشتراكي، نسّق وتعاون مع الروس السوفيات. حزب صغير انتشاره محدود في أرمينيا وحيث ينتشر الأرمن في بلدان الاغتراب. ناضل إلى جانب حزب الطشناق ضد الجزارين الأتراك.

(٢١) تمّت السيطرة البريطانية على مصر على مراحل، ففي عام ١٨٨٢ نزلت القوات الإنكليزية على الشواطئ الشرقية والشمالية لمصر وتمكنت قوة أساسية من أن تنزل في الإسكندرية وتقمع تمرد أحمد عرابي قائد الجيش المصري بطلب من الخديوي توفيق، فدكّت قلعة الإسكندرية على المدافعين عنها المحتمين فيها. وجرت معركة التل الكبير وتمّ لبريطانيا احتلال مصر، واستسلم عرابي وكبار ضباطه فنُفي أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وحمد الباسل والقائد محمود فهمي خارج مصر. وحتى نهاية عام ١٩١٤ أعلنت وزارة الخارجية البريطانية عملياً سلخ مصر عن السلطنة العثمانية واخضاعها للحماية الإنكليزية وجعل أراضيها قاعدة عسكرية في ظل الاحكام العرفية ضد الوطنيين المصريين (المصادر: لوتسكي، التاريخ الحديث للبلاد العربية ٢٧٤-٤٤٥. عادل اسماعيل).

(٢٢) الجمعيات الثورية: الجمعية العثمانية الحرة، الاتحاد العثماني، العثمانيون الجدد، جمعية تركيا الفتاة، الجمعية العثمانية السرية (مصطفى كمال).

الفصل الثاني

حادث أضنة وما بعده

في الوقت الذي نشبت ثورة ١٣ أبريل/نيسان للقضاء على زعماء جمعية الاتحاد والترقي وأشياعهم، كانت أضنة تعج بمذبحة تركية أرمنية مروعة.

وإذ عيّنت والياً لأضنة نحو منتصف أغسطس/آب ١٩٠٩ - أي بعد ذلك الحادث بأربعة أشهر - أستطيع أن أقول إني أكفأ إنسان على تحري الأسباب السيكولوجية التي أدت إلى تلك المذبحة التي تعدّ من أسوأ المآسي في تاريخ الدستور العثماني.

فإن الأهالي في كل أرجاء المملكة أصبحوا بعد إعلان الدستور من العناد والتمرد بحيث صار متعذراً على كل إنسان عظيماً كان أم حقيراً، حتى الحاكم العام نفسه، أن يكبح جماحهم. فإن لفظة «حرية» فسّرها الجمهور والصحف على غير وجهها، وحسب كل إنسان أنه صار في حل من ارتكاب ما يشاء أينما شاء بلا حساب ولا عقاب، وإذ ذاك أصبح كثير من الولاة وعدد من رجال الشرطة والموظفين القضائيين الذين ساموا الأهالي الخسف والإرهاق خلال الحكم الحميدي عرضةً للاعتداءات الشنيعة غير القانونية.

وكم طاف الشوارع والطرق رجال لم يسمعوا من قبل إعلان الدستور حتى باسم جمعية الاتحاد والترقي مدّعين أنهم «أبطال الحرية». وذهبوا إلى أبعد مدى، حتى إنهم منعوا موظفي الحكومة من القيام بما عليهم، وإن مذكراتي إبان كنت عضواً في الجمعية المركزية عن الأيام الأولى التي أعقبت إعلان الدستور مشحونة بتلك الحوادث.

ولم تتراخَ الجمعية في بذل كل ما في وسعها لوقف تلك الادعاءات وحماية كل إنسان مذنباً كان أم بريئاً من الانتقادات غير القانونية، ولكي تسيّر الجمعية الجمهور على القانون الأصلي في منهاجها عهدت إلى بعض المبعوثين المندوبين للسفر لتكوين فروع في الجهات التي لم تكن أنشئت فيها بعد فروع لها، إلا أنه لم يحسن، ويا لسوء الحظ، اختيار أولئك المبعوثين، فإن بعضهم وجد نفسه في تيار الفوضى الذي جرف الأهالي ونسي المهمة الأساسية التي انتدب إليها رسمياً، ألا وهو الاحتفاظ بسمعة الحكومة ونفوذها في الأرياف.



الجماهير الثائرة الفرحة (المشروطية الثانية) إعلان الدستور



مسيرات متواصلة احتفاءً بإزالة السلطان عبد الحميد بعد ١٣ نيسان/أبريل ١٩٠٩

وعقب ذلك ظهور لفيف من الساسة سمّوا أنفسهم معارضي جمعية الاتحاد والترقي فاتخذوا من التأويل الغريب الضارّ الذي أوّلت به لفظة «الحرية» في الصحف سلاحاً لمهاجمة الجمعية وإيقاع البلاد في الفوضى التامة، ولما كانت الحكومة مجردة من كل نفوذ وسلطة في عاصمة المملكة نفسها كان سهلاً تقدير الحال في الأرياف. فإن الأشخاص الذين أخفقوا في الحصول على مراكز مهمة في الجمعيات المحلية التي أنشأتها جمعية الاتحاد والترقي أنشأوا فروعاً للجمعيات السياسية المختلفة التي تكونت تدريجياً في استانبول، وأخذوا يثأرون لأنفسهم بتلك الطريقة.

وفيما المسلمون والأتراك منشقون على أنفسهم، إذا بالطوائف المسيحية تعمل بلا انقطاع بواسطة جمعياتها لتحقيق مناهجها.

وإنك لترى في ولاية أضنة الأغلبية للأتراك ويليهم الأرمن ثم العرب العشاقي[1] ثم اليونانيون. ويبلغ عدد سكان الولاية ٥٥٠ ألفاً ومنهم ٦٠٠٠٠ أرمني و٢٠٠٠٠-٢٥٠٠٠ عربي عشاقي و١٠٠٠٠-١٥٠٠٠ يوناني والباقون أتراك. وقد لبث أولئك الأقوام الذين تنحصر أعمالهم في الزراعة قروناً عدة في سلام ووئام. ولا جدال أن ولاية أضنة هي ولاية تركية حتى قبل مجيء العثمانيين بزمن بعيد. فإن هؤلاء أخذوها عنوة من الأسرة التركية التي كانت تحكمها وقتئذٍ المسماة أسرة رمضان أوغلي.

ومع أن التاريخ يذكر أن مملكة أرمنية يقال لها كيليكيا كانت في تلك الجهة على عهد الصليبيين يقول المحققون أيضاً إن عدداً كبيراً من الأتراك استوطن تلك البلاد في ذلك الوقت. وإن بكوات الأتراك الإقطاعيين لم يستمرئوا مرعى تلك المملكة.

فمعظم الأرمن القاطنين في ولاية أضنة الآن أصلهم من ديار بكر وسيواس ومعمورة العزيز. وقد تركوا ديارهم في القرن التاسع عشر طمعاً في الرزق والكسب. أما الأرمن الذين يصح أن يقال حقاً إنهم مولودون في أضنة فيجدهم الإنسان في مدينة حجن الواقعة على حدود الولاية الشمالية وفي بضع قرى قرب سيس أشهر سنجق قوزان وفي دورت يول وعلى شواطئ خليج الإسكندرون وبعض القرى المجاورة.

أما العرب العشاقي فهم فريق من الأهالي الذين انتقلوا من سنجق اللاذقية على عهد حكومة السلطان عبد العزيز لزراعة سهل أضنة الذي كان وقتئذٍ في غاية الخصوبة ولم يكن آهلاً بالسكان.

وقد لبث الأتراك والأرمن - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - كما لبثت بقية السكان بعضهم مع بعض على أتم صفاء، ولم يكن أحد يتوقع أن يحصل أي خلاف بينهم، ولم يقع شيء ما في ولاية أضنة إبان الاضطرابات والمذابح التي حدثت في ١٨٩٤-١٨٩٦. وعمل الأتراك والأرمن جميعاً لمنع انتشار الفتن إلى إقليمهم، ولم تخلُ جهودهم من النجاح.

وما كاد الدستور يعلن حتى أنشأ أرمن أضنة فروعاً لجمعيات الطشناق والهنشاق والهنشاق المصلحين معارضة للجمعيات السياسية التركية التي كانت في دور التكوين. أو بعبارة أخرى واصلت تلك الفروع العمل علناً ما كانت تقوم به الجمعيات سراً.



الهنشاق الإصلاحيين



الطشناق



الهنشاق



السلطان عبد العزيز (ولد عام ١٨٣١ - قتل عام ١٨٧٦)

حكم من ١٨٦١ حتى خُلع. ابن السلطان محمود الثاني خلف شقيقه في الحكم السلطان عبد المجيد الاول. تابع اصلاحات أبيه واخيه السياسية والادارية والاقتصادية المالية للسلطنة/التنظيمات. في عهده صدر القانون العثماني المدني وقانون نشر التعليم على النمط الفرنسي والتنظيمات الإدارية للولايات وتمّ إنشاء مجلس دولة. فكان أول سلطان يزور فرنسا، بريطانيا، بلجيكا والمانيا. الاصلاحات قام بها بمساعدة الوزيرين المتنورين فؤاد باشا وعالي باشا. اول سلطان عثماني يزور مصر بعد السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧. اعطى الخديوي اسماعيل صلاحيات واسعة. في عهده استقلت رومانيا والصرب عن السلطنة، واندلعت الفتن في بلغاريا والبوسنة والهرسك. وفي عهده سعى الصدر الاعظم مدحت باشا الى إصدار الدستور العثماني (المشروطية الاولى) انما القوى المحافظة تصدّت له وافشلت سعيه. الا ان المؤامرات الداخلية ادت الى خلع السلطان وقتله بعد أيام. كان مسرفاً مبذرا في عهده ازدادت تركيا ضعفاً واوقفت سداد ديونها الى المصارف الاوروبية. الامر الذي دفع بالاوروبيين الى فرض رقابة على اعمال الحكومة المالية (يلماز اوزتونا، ص...، الموسوعة الميسرة، ص١١٨٣).

وكان قسُّ أضنة وقتئذٍ شاباً كثير الأطماع يدعى موشيغ أفندي، وكان أيضاً زعيم جماعة الهنشاق المصلحين، وكان معروفاً بين الأرمن بالدعارة والفسق، ولو صدّق الإنسان ما تقوله فيه الأرمن لحكم بلا مبالغة بأن الرجل كان جمّاع الغرائز الذميمة.



موشيغ سيروبيان
١٨٦٩-١٩٥١

اسم ديني اتخذه في الرهبنة، اسمه الحقيقي أرداشيس. عُيّن في مطرانية أضنه في شباط سنة ١٩٠٥، ثم مسؤولاً لأبرشية قبرص بعدها غادرها الى لبنان مودعاً سلك الكهنوت ويتخذ من مدينة عاليه مقاماً له سنة ١٩١٩.

عند مجيئه الى أضنه فوجئ بسكانها الارمن يتكلمون التركية في كل مكان عوضاً عن «لغتهم الام» الارمنية بسبب المنع المفروض عليهم. حاول موشيغ من خلال موقعه ووظيفته ان يعيد الحياة للغة الارمنية بطلبه من التلاميذ والمؤمنين استعمال اللغة الارمنية في حياتهم اليومية في المدرسة وفي المنزل لأنه بزوال اللغة، فيه ضياع تراثهم وزوال امتهم وقوميتهم اذا ما اندمجوا بشعب آخر وذابوا فيه.

بعد سنتين وفي مقابلة بين موشيغ والمحافظ بحري باشا الذي صرّح له بانه لم يك يعلم بوجود سكان ارمن في اضنه وانهم لا يقبلون بوجود شعب ذي قومية أخرى غير التركية، وان الروح القومية الارمنية بدأت حينما قدمتم الى اضنه. كان له نشاط خطابي مؤثر والقى محاضرات في تاريخ الشعب الارمني وتراثه.

ترك مؤلفات عدة نذكر منها ما نشر في لبنان: الاهداف والقرار، القضية الارمنية ومراحلها، الاصلاحات في الكنيسة الوطنية الارمنية، في ضوء الحقيقة، التثقيف القومي وخصائصه، القومية واللغة.

أما المخطوط منها ولم ينشر: مسائل اجتماعية، ناسك من لبنان، رسالة من زوج، الغريزة الجنسية والجمال، الحاجة للحضارة الجديدة. كان حاصلاً على الجنسية اللبنانية (المصدر: السيد ارداشيس قيومجيان، باحث ارمني).

فعلى أثر إعلان الدستور جعل المونسنيور موشيغ يعتبر نفسه زعيم أضنة الديني والسياسي. ولقد سمعت أن ذلك القس استخفّه الطيش ودفعته الوقاحة إلى توهّم ضعف الحكومة. فأتى أمراً نكراً في حضرة الحاكم العام في اجتماع عقده المجلس الإداري. وغادر القاعة وهو يحتدم غضباً بعدما هدد بلطم وجه قائد جندرمة الولاية. ولقد أخبرني كثير من الأرمن أن عدداً من خدمة الكنائس أتباع المونسنيور موشيغ وصلت بهم الوقاحة وقتئذٍ إلى أن يعلنوا جهاراً بأنه لن يمضي زمن طويل حتى يتخلص الأرمن من النير التركي.

وإن من العدل أن أقول إن مندوب الطشناق لم يكن له ضلع في الأعمال التي أتاها المونسنيور موشيغ. وما برح يلفت انتباه مبعوثي جمعية الطشناق في استانبول إلى نتائج أعماله السيئة.

ولم يقنع المونسنيور موشيغ بكل ذلك. بل أرسل إلى أوروبا في طلب البنادق والمسدسات اللازمة لتسليح الأرمن. وكانت الحكومة في ذلك الوقت قد أباحت الإتجار بكل شيء حتى الأسلحة وجلبها من الخارج. وقد صرح المونسنيور موشيغ في جميع الجهات «بأن الأرمن وقد أصبحوا مسلحين لا يخيفهم تكرار مذابح ١٨٩٤. وأنه لو حدث شيء لأحدهم لقتل مقابله عشرة أتراك». فهذه التصريحات مضافة إليها أعمال المونسنيور هذا اضطرت الأتراك إلى اتخاذ إجراءات مماثلة.

وهنا تبدأ مسؤولية حكومة أضنة في ذلك الوقت. فإن الاعتذار بالضعف لا يمكن قبوله من أي حكومة. إذ إنها متى تبيّن لها أن عصياناً بهذا الحجم الذي يقوم به المونسنيور موشيغ أخذ يؤثر تأثيره السيئ في الأهالي المحليين. وجب عليها أن تلقي القبض عليه وعلى أتباعه فوراً. وأيضاً على كل تركي يُظنّ أنه يرغب في إحداث القلاقل. وأن تشرع تواً في عمل تحقيق قانوني. وأن تهدد - إذا اقتضت الحال - بإعلان الحكم العرفي في الولاية كلها.

ولكن الصدر الأعظم حسين حلمي باشا لم يكن ليجرؤ على اتخاذ وسائل شديدة في استانبول. ولذلك كان هو أول من وجّهت إليه الإهانات الجارحة من أعضاء الجمعية المحمدية[٢] في الطريق المؤدي إلى الباب العالي أثناء تشييع جنازة الصحافي حسن فهمي بك[٣]. فأول ما يجب على الحكومة هو أن تُفْهِم الشعب أن ثمة بوناً شاسعاً بين الحرية والفوضى. ولكن المملكة العثمانية لم تكن لها. ويا لسوء الحظ. حكومة كهذه في أواخر ١٩٠٨ وأوائل ١٩٠٩.

وكان جواد بك هو الحاكم العام لأضنة آنذاك. ولقد كان والحق يقال مثال الاستقامة. بيد أنه كان أيضاً لسوء الحظ مثال الضعف الإداري. فلم يكن كفؤاً لتحمّل الأعباء التي تُلقى على عاتق والٍ كوالي أضنة. أما قائد الفرقة فكان مصطفى رمزي باشا. وهو جندي خبير بلغ في صباه بعظيم جهوده درجة رفيعة وظل طوال حياته متمسكاً بالتقاليد الوطنية الشريفة. بيد أنه ليس في الإمكان أن يقال إن ذلك الضابط الطاعن في السن والمجرد من كل سلطة شرعية كان حائزاً الصفات المطلوبة في شخص حاكم أضنة العسكري. وكان آصف بك متصرف جبل بركات. وكان شديد الخوف رعديداً. حتى إنه ليفزع من ظله. ولطالما أدهشني أن أرى ذلك الشخص في منصب وكيل الحاكم.



جواد باشا (كوبانلي) (١٨٧٠-١٩٣٨)
مع ضباط أركان جيش الشرق

وُلد في العاصمة استانبول. أنهى دراسته الثانوية في الليسيه في غلطة سراي. تخرج من الأكاديمية الحربية سنة ١٨٩٣ برتبة نقيب وأُلحق بصفوف الحرس السلطاني. حيث تسلق بسرعة وحظي برتبة جنرال.

سنة ١٩٠٨ وكجزء من عملية إصلاح الجيش العثماني بإشراف الألمان وإعادة تنظيمه وتحديثه (نقل. إقالة. تنزيل رتب. تسريح. اغتيال. إعادة تأهيل. ترقيات. أو دمج أو نقل وحدات أو استحداثها. تسميات جديدة لها. تسليحها. تخصيصها) وجواد باشا أحد الذين أصابهم سهم خفض الرتبة.

قبل حرب البلقان الثانية كان مديراً لأكاديمية أركان الجيش. وعندما اندلعت عيّن رئيساً لأركان جيش الشرق وسُمّي جنرالاً من جديد.

كان جواد باشا يعرف أفضل من أي شخص آخر مدى متانة التحصينات الدفاعية في تلال غاليبولي وقدرتها الهندسية على الصمود في وجه مدفعية البوارج الإنكليزية الثقيلة عندما دخلت تركيا في الحرب إلى جانب ألمانيا. فأخذ على عاتقه مسؤولية القيادة لمنطقة (جنا قلعة). والاستعدادات التي قام بها حمت المدينة والمضائق وكان دوره المميز أحد أسباب نصر الأتراك على الحلفاء في ١٩١٥/٣/١٨ وإفشال محاولاتهم في احتلال التلال وكسر حصارهم وإجبارهم على الانسحاب.

بعد معركة غاليبولي. خدم في غاليسيا (جنوب رومانيا) وفلسطين تحت قيادة أحمد جمال باشا. ثم ألقيت عليه مهمات قيادة الجيش السابع. بعد الهدنة واحتلال الحلفاء للعاصمة استانبول. أُخذ كأسير حرب إلى مالطا. وبعد أن أُطلق عاد الى بلاده. عيّن عضواً في ما بعد في المجلس العسكري الأعلى. توفي جواد باشا في استانبول سنة ١٩٣٨.

وفي أوائل ١٩٠٩ راجت إشاعة بأن الأرمن سيثورون على الأتراك ويبيدونهم على بكرة أبيهم في القريب العاجل، وأنهم يتحيّنون الفرصة المناسبة، ومتى حانت سمحوا لفصائل من أساطيل الدول الأوروبية باحتلال الولاية، وعندئذٍ يشرعون في إنشاء دولة أرمنية. ولقد تأكد الأتراك من حقيقة تلك الإشاعات إلى أن أدت بهم الحال إلى أن كثيراً من عليتهم نقلوا أسرهم إلى أمكنة حريزة حصينة. وقد سمعت أن بعض أعضاء الجمعية المحمدية أرسلوا خصيصاً من استانبول إلى أضنة يحذرون الأهالي من الثورة الأرمنية المنتظرة، ولكن لم أوفق قط في التيقن من صحة تلك الإشاعة.

وما وافى شهر أبريل/نيسان ١٩٠٩ حتى صارت العلاقات بين الفريقين متوترة، وبات كل فريق يخشى أن ينقضّ عليه الفريق الآخر في أي لحظة. واستمر الأمر كذلك حتى بزغت شمس ١٤ أبريل/نيسان، فبدأت حادثة أضنة بإيعاز من المونسنيور موشيغ باعتداء الأرمن، وغدت أضنة وطرسوس وحميدية وميسيس وأرزين ودورت يول والعزيز، بل كل الجهات التي يقطنها الأرمن، مسرحاً لمذبحة مروعة يعجز القلم عن وصف هولها. وقد ظهرت الحكومة بمظهر العجز المتناهي حتى في عاصمة الولاية، فذهبت في ساعة حيرتها هذه إلى حد إثارة الغوغاء في تلك الجهات لمنع اعتداء الأرمن على الأتراك. فلما وصلت الأنباء بأن أرمن دورت يول المسلحين أخذوا يقتربون من أرزين أشهر مدن سنجق جبل بركات، لم يجرؤ المتصرف آصف بك على مغادرة غرفته، بل أخذ يبرق إلى سائر قرى اللواء بالبرقيات المثيرة، مثل قوله:

«لقد أصبح المسلمون مهددين بخطر الإبادة، فعلى كل رجل يحب وطنه وأمته أن يهرع إلى السلاح وأن يبادر في الحال إلى سنجق جبل بركات».

ولا ريب في أن أرمن دورت يول كانوا يريدون الزحف على أرزين لذبح الأتراك القاطنين في جبل بركات، بيد أنه كان خطأ لا يمكن تجاوزه أن يحبس المتصرف نفسه في حجرته ويوحي للأهالي بأن يفعلوا ما يشاؤون، لأن الناس حين يرون الخطر محدقاً بهم لا يكتفون بمدافعة المعتدين والإثخان فيهم قتلاً وجرحاً، بل قد يتناولون العزّل من السلاح والعجزة كالنساء والشيوخ والأطفال، ثم يختمون بإحراق المدن والقرى والضياع، وذلك لعمري هو ما قد حصل.

تلك كانت أسباب الحوادث الأولى في أضنة، أما الحوادث التي وقعت بعد ذلك بعشرة أيام وكانت قاصرة على مدينة أضنة فسببها طلقات نارية أطلقها بعض شبان الأرمن على معسكر الجنود، فترتب على ذلك أن ازدادت المذبحة سوءاً.

والذي أراه أن المونسنيور موشيغ هو المجرم الحقيقي، ولكن الحاكم يشاركه في الجريمة لأنه لا بد من أن يكون قد عرف مبلغ خطر ذلك الرجل فلم يتخذ العدة اللازمة لكبح جماحه. فقد كان خطأً بيّناً أن يسمح بانتزاع زمام الحكم من يده في ذلك الوقت العصيب، وأن يظهر ذلك الضعف الشائن حيال غوغاء أفحشت في القتل والسلب. أما الأمر الثابت فهو ما رسخ في نفوس الأتراك والمسلمين قبل تلك الحوادث بشهرين أو ثلاثة واستقر في أذهانهم، لا فرق في ذلك بين طبقات الجمهور والدوائر السياسية في ولاية أضنة، وهو أن الأرمن كانوا كل يوم تصل إليهم أسلحة جديدة لمذبحة أخرى، ومن أجل ذلك يرون أنهم أمسوا في خطر شديد، ومما أعان على رسوخ تلك العقيدة لهجة التحدي والتطرف التي استعملها المونسنيور موشيغ.



مقاتلون أرمن في الأناضول الشرقي

وليست الأسباب السيكولوجية التي بسطتها هنا هي رأيي الخاص، بل شاركني فيها الميجور دوين ويلي القنصل الإنكليزي في أضنة، وإني لشديد الأسف من أن ذلك العظيم الشريف الذي أظهر منتهى البسالة في وقائع الدردنيل وضحّى بحياته خدمةً لبلاده ليس هنا الآن فيؤيد أقوالي.

ولقد قصّ عليّ السيد تشامبرز المبشر الأميركي والسيد كريستين مدير كلية طرسوس الأميركية نبأ الفظائع المروعة التي ارتكبها الأتراك وعرب العشاقي في أثناء المذابح، بيد أنهما أثبتا لي بأن المونسنيور موشيغ هو المحرض الأول والأصل الفعال في المذبحة.

وقد قُتل في تلك المذبحة ١٧٠٠٠ أرمني و١٨٥٠ تركياً، وإن هذه الأرقام لتدل على أن الأرمن لو كانت لهم الأغلبية لانعكست الآية، ولفاضت أرواح الأتراك على شفار سيوف الأرمن وتساوى الفريقان في ارتكاب الفظائع، ولم يحجم الأرمن لحظة عن الفتك بالنساء وذبح الأطفال، وقد قابلهم الأتراك بالمثل وتملكت الشعبين سورة الغضب فتساووا في الانتقام.

ولما عيّنت والياً لأضنة وضعت الحكومة بتصرفي ٢٠٠٠٠٠ جنيه مجيدي، وقد تقرر أن ينفق نصفها في إعادة بناء بيوت الأرمن والأتراك في المدن والقرى المحترقة، وأن يعطى النصف الآخر قرضاً لتجار الأرمن وفعلتهم وزراعهم لمساعدتهم على استئناف أعمالهم، على شرط ألاّ تسدد تلك القروض قبل مضي عشرة أعوام. فأنشأت في أضنة لجنة للتعمير برئاستي، وكانت مشتملة على عدد من الأجانب كالمبشر الأميركي السيد تشامبرز وكثير من الوطنيين، وأغلبهم من الأرمن. وبفضل الإجراءات التي



إحدى المقابر الجماعية الأرمنية لضحايا المذابح على يد الجيش العثماني وعصابات جمعيات الدراويش و«الكتائب الحميدية» والجمعية المحمدية عام ١٩٠٩ (٣٠ ألف ضحية) بإشراف أحمد جمال باشا

اتخذتها لم يمض سوى أربعة أشهر من يوم وصولي إليها حتى تم بناء جميع البيوت الأرمنية في الولاية، ولم تبق ثمة دار لأسرة صغيرة إلا وقد فرغ من بنائها. وعموماً ما كادت تنقضي خمسة أو ستة أشهر حتى عاود الأرمن أعمال التجارة والزراعة والصناعة، وانمحى ولو ظاهراً كل أثر للعداوة السالفة بينهم وبين الأتراك.

وإن ماندلستام لكاذب في الدعوى التي ادّعاها وخطها في الصفحة ٢٠٥ من كتابه، إذ يقول إن مذنبي المسلمين لم يشنق منهم سوى تسعة أشخاص ممن لا حيثية لهم، وهي دعوى لا ترتكز إلا على ما خطه أحد متحيزي اليونانيين المسمى أدوسيديس(٤) المعروف بشدة حقده على الأتراك.

إذ إنني بعد وصولي إليها بأربعة أشهر أمرت بإعدام ما لا يقل عن ثلاثين من المسلمين أثبتت المحكمة العسكرية إدانتهم، وبعد يومين أعدم في أرزين سبعة عشر شخصاً آخرين كان منهم أعضاء أسر عريقة معروفة في أضنة، مثل مفتي قضاء باغيس الذي أحبه الأتراك المقيمون في حيّه حباً جماً.

وقد نجح المونسنيور موشيغ بعد هذه الحوادث بيومين في الهرب إلى الإسكندرونة على متن باخرة أجنبية، وإني لشديد الأسف على فراره من يدي، ولقد استحق أن يحكم عليه غيابياً بالإعدام، ولو وقع في يدي لأمرت بشنقه أمام مفتي باغيس.



مدينة أضنة في ظل ولاية أحمد جمال باشا



كان يضج بالحياة قبل مجيء أحمد جمال باشا

ولم ينكر الأرمن أنفسهم قدر ما بذلته من الجهود في مصلحتهم وإعادة أملاكهم إليهم وقتما كنت والياً على أضنة. ولقد شهد بذلك أجانب من فرنسيين وإنكليز وأميركيين وروس جاؤوا إلى أضنة وهنأوني بما فعلت. ولا تزال الدار التي أنشأتها لقبول الأطفال الذين يتّمتهم حوادث أضنة وتربيتهم قائمة.

هوامش الفصل الثاني:

(١) العرب العشاقي: من أصول عربية، من الطائفة العلوية المنتشرة في شمالي سورية وجنوب وسط تركيا.

(٢) الجمعية المحمدية: تألفت في استانبول بعد إعلان الدستور العثماني (المشروطية الثانية) في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨ بمدة قصيرة، تعاظمت صفوف الجمعية التي تلطت وراء شعارات دينية، بينما في الواقع هي لخدمة أهداف سياسية، عملت لمحاربة العهد الدستوري الجديد ورجالاته وإعلان الشريعة الإسلامية بدلاً منه. من ابرز رجالات الجمعية المتصوف الدعي (درويش وحدتي) الذي عمل باسم الغيرة على الدين واستطاع أن يؤثر في الجنود بواسطة اعوانه الدراويش ورجال الدين، بدعوى أن الدستور مخالف للشريعة الإسلامية وأنه لا دستور غير القرآن الكريم وأن السلطان غير راضٍ عنه وأن موافقته السابقة تمت بالإكراه، لذا وجب إلغاء الدستور وإعلان الشريعة المحمدية بديلاً منه. لقيت هذه الدعوة رواجاً في اوساط الدهماء (المصدر: لمحات، علي الوردي، ص١٤٠، مج٣).

(٣) في اوائل نيسان/أبريل ١٩٠٩ نشر الصحافي حسن فهمي بك خبراً صغيراً في جريدة (سربستي)، مفاده أن الأتراك يجب أن يلبسوا القبعة، فُهِم من الخبر أن الأتراك سوف يتشبهون بالكفار. بعد أيام قُتل الصحافي حسن فهمي برصاص شخص كان يرتدي بذلة ضابط من العهد الجديد. هاجت الخواطر لهذا الحادث المدبر. فقدم ستة من أعضاء مجلس النواب استجواباً إلى وزير الداخلية عن الحادث. تفاقمت الاضطرابات في العاصمة واغتنم الناقمون فحولوا تشييع الجنازة إلى مظاهرة ضد العهد الجديد (٣٠,٠٠٠) مشارك، رافعين شعارات مؤيدة للشريعة المحمدية ومطلقين هتافات معادية لحزب الاتحاد والترقي. هذا العمل حضّر الأجواء لـ١٣ نيسان/أبريل في استانبول التي استيقظت على دوي قرع الطبول وأزيز الرصاص (في الجزء الثالث من المجموعة توضيح حول القتل المدبر للصحافي. المصدر: توفيق برو).

(٤) أدوسيديس، قسطنطين (١٨١٨-١٨٩٥): يوناني الأصل (رومي) بلغة تلك الأيام. وُلد في استانبول وتوفي في «بير غويس». تولى حاكمية جزيرة ساموس مرتين: ١٨٧٣-١٨٧٤ و١٨٧٩-١٨٨٥. كان محبوباً من سكان الجزيرة بسبب تنظيمه لتقديمات الخدمات الاجتماعية وخفض الضريبة العشرية عنهم، وكان صارماً بالحق والعدل.
ملاحظة: أدوسيديس توفي قبل المجزرة بـ١٤ سنة.

الفصل الثالث

الإصلاحات

عندما تركت إدارة ولاية بغداد في أغسطس/آب ١٩١٢ (وكنت قد أرسلت إليها من أضنة) وعدت إلى استانبول، كانت المملكة العثمانية تجتاز أحد أشد الأدوار في تاريخها. فقد كنا أولاً في حرب طاحنة مع إيطاليا، وثانياً كانت بلغاريا والصرب والجبل الأسود واليونان قد تحالفت علينا وجعلت تتحرش بنا وتتلمس سبباً لإعلان الحرب علينا، وثالثاً كانت ألبانيا ثائرة، ورابعاً كانت الصحف العربية تقذف الحمم على الحكومة مطالبة بالإصلاحات في الولايات العربية، وخامساً كان البطريرك الأرمني يرسل إلى الباب العالي المذكرة تلو المذكرة مطالباً بالإصلاحات في أرمينيا، وسادساً - وكان أشد ما واجهنا من الأخطار - تألفت جمعية من الضباط أطلقت على نفسها جمعية الضباط الأحرار[١] وجعلت غايتها نشر الفوضى والاضطرابات في الجيش، ومن أجل هذا يمكن أن يقال حقاً إن الجنود المرابطين في الدردنيل وفي أزمير وألبانيا تمردوا واضطرب نظامهم، وكان على رأس الحكومة وقتئذٍ وزارة الغازي مختار باشا[٢].

وبين هذه المتاعب كلها نشبت الحرب البلقانية، فانتهز ساسة روسيا وفرنسا فرصة هزائمنا وشرعوا في العمل، فحرضت فرنسا العرب للمطالبة بالإصلاحات في سوريا، وبعث البارون فون جيرس سفير روسيا في استانبول المسألة الأرمنية من مرقدها مرة أخرى، وأرسل إلى وزير الداخلية المذكرة التالية في ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٢، وهي:

> *«منذ حوادث ١٨٩٤-١٨٩٦ التي لا تزال عالقة في الأذهان إذ كانت الأناضول واستانبول تنزفان دماً جراء المذابح الأرمنية الوحشية لم تتحسن الحالة بشكل ما، فلم تنفذ بعد الإصلاحات التي أقرها السلطان عبد الحميد في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥ الأول بناءً على إلحاح روسيا وفرنسا وإنكلترا. وقد أخذت المشكلة الزراعية تزداد حرجاً من يوم إلى آخر، ذلك أن معظم القرى قد استولى عليها الأكراد، وأن السلطات بدلاً من منع تلك المصادرة غير القانونية تحمي المغتصبين وتساعدهم، وقد أجمعت التقارير الواردة من قنصلياتنا على ارتكاب الأكراد أعمال السلب كما تشير إلى الابتزاز الذي لا مثيل له وقتلهم الأرمن وتحويلهم النساء الأرمنيات عنوة عن دينهن، أما الأشرار فقلما يعاقبون كما يقضي القانون، وإن المذكرة التي قدمها بطريرك الأرمن في استانبول إلى الباب العالي وإلى وزير الداخلية لهي صورة حقيقية للبؤس والاضطهاد اللذين يتعرض لهما رعايا السلطان الأرمن.*



الصدر الأعظم الغازي أحمد مختار باشا (١٨٣٩-١٩١٩)

رجل دولة وقائد عسكري. ولد في بورصه سنة ١٨٣٩ تخرج من المدرسة الحربية وتدرج في سلك الجندية (مشير). مارس التعليم في المدرسة وصار رئيساً لها. سنة ١٨٥٦ شارك في حرب القرم. سنة ١٨٦٢ في البوسنة والهرسك في (الحملة المونتنيغرية) وسنة ١٨٧٠ -١٨٧١ شارك في قمع العصيان في اليمن. نال سمعة طيبة في اوساط الجيش والدولة ورقي الى رتبة مشير. سافر الى انكلترا وفرنسا والنمسا بمعية السلطان عبدالعزيز وولي العهد يوسف عز الدين. سنة ١٨٧٣ سلم قيادة الجيش الثاني. سنة ١٨٧٥ خلال انتفاضة البوسنة والهرسك أحكمت قوات الجيش التركي سيطرتها على الموقف وفرضت الأمن.

وولي مسؤولية العمليات العسكرية في أرضروم (الجبهة الروسية) بسبب انتصاراته هناك أكتسب لقب «الغازي». سنة ١٨٧٩ عين قائداً للجبهة التركية/اليونانية. سنة ١٨٨٥ شغل منصب ممثلاً لتركيا في مصر. آخر موقع عمل فيه كان الصدارة العظمى في تموز ١٩١٢. استقال منها في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٢. طيلة حياته العسكرية كان النصر الى جانبه. اما في الحرب البلقانية الثانية التي خسرتها تركيا حُمِّل مسؤوليتها وسمع لوماً. توفي المشير أحمد مختار باشا عن ثمانين عاماً. له مؤلفات في علوم الفلك وكتب عسكرية عدة عن الحروب والمعارك التي خاضها في الجبهات.

فدوام هذه الحال هو السر في أن الشعب الأرمني أصبح الآن أكثر تطلعاً إلى روسيا. وأن القنصليات الروسية في أرمينيا تشهد على حقيقة الشعور العام هناك. فالأرمن يطالبون بإدخال الإصلاحات بإشراف روسيا. بل هم يطلبون الاحتلال الروسي. ويتوسل الأرمن الكاثوليك بروسيا (حامية المسيحيين في الشرق من قديم الزمان) ويسألونها باسم العلي الأعلى أن تأخذ تحت حمايتها الأهالي الأرمن البؤساء المقيمين في أرمينيا التركية. وعندي أن المسألة الأرمنية لعظيمة الأهمية بالنسبة إلى روسيا. وأطلب أن تعمل الحكومة كل ما ينبغي عمله لمعالجة الأحوال. وإني أرى أن الاحتلال سابق لأوانه وأشير بإدخال الإصلاحات. ولكن ذلك لا ينسيني الإهمال المخزي الذي عومل به الأمر العالي الصادر في ١٨٩٥. وعلى ذلك إني ألحّ بأن يكون إدخال الإصلاحات بإشراف روسيا الفعلي أو الموظفين الأوروبيين. وبسبب الفوضى السائدة في تركيا اليوم ينبغي ألا يغفل ذلك الاحتمال. وهو أن الإصلاحات قد لا يكون لها الأثر المطمئن المطلوب. فيضطر جنودنا وقتئذٍ إلى احتلال تلك الجهة».

وقد كان كاثوليك أتشميازين في روسيا أرسلوا بوغوص نوبار باشا في أوائل ١٩١٢ إلى الحكومات الأوروبية بمهمة المطالبة بالاستقلال الذاتي الإداري لأرمينيا التركية. ولم تكن هذه الإجراءات إلا جزءاً من السياسة الروسية.

فما أقرب أوجه الشبه بين المنحى الذي نَحَتْهُ روسيا (الذي أرادت به إخفاء نياتها الحقيقية حيال الأرمن) والسياسة التي كانت فرنسا تتبعها في سوريا!.



كاتدرائية أتشميازين

مدينة أرمنية صغيرة للغرب من يريفان. يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد. من الثاني ميلادي حتى الرابع كانت عاصمة المملكة الأرمنية لأهميتها الدينية. إلى جانب أنها صارت مركزاً لحركات قومية ومنظمات سياسية ودينية. وشكّل الدير الأثري (الكاتدرائية) مركزاً للجاثليق رأس الكنيسة الأرمنية فيها «بيتاً لكل الأرمن» المرجع والمحور في كل شاردة وواردة.



بوغوص نوبار باشا (١٨٥١-١٩٣٠)

أو بوغوص باشا نوباريان. ولد في استانبول لعائلة أرمنية ثرية. أجداده من غاراباخ. اشتهروا لكونهم قاتلوا إلى جانب داڤيد بك البطل الرمز للتحرر القومي في القرن الثامن عشر. ما سمح للعائلة أن تحتل موقعاً اجتماعياً (برجوازية وطنية متنورة) وسياسياً مرموقاً. تابع دراسته في باريس فتخرج مهندساً من جامعة ساندرا. ذهب إلى مصر وعمل بجد كرئيس لشركة زراعية (٨١-١٨٩١) في منطقة البحيرة. ثم مديراً لسكة الحديد. ساهم بفعالية في تأسيس شركة لجر المياه إلى القاهرة. وشارك في قيام مدينة هليوبوليس . وشركة الكهرباء في الإسكندرية. سنة ١٩٠٦ أسس جمعية خيرية لعموم الأرمن.

لسنوات طويلة عمل وسط الجالية الارمنية في القاهرة والإسكندرية. عام ١٩١٢ اضطلع بأعباء النضال القومي الأرمني وبدأ باجراء اتصالاته بالفاعليات الارمنية مؤسسات والشخصيات اينما وجدوا في ولايات السلطنة وبلدان الاغتراب ما أدخله إلى عالم السياسة. في أكتوبر/تشرين الأول من السنة نفسها عُقد في تبيليسي (تفليس) مؤتمراً تشاورياً لبحث المسألة الأرمنية حضره مندوبون ووفود من باكو. يريڤان. اخلتسي. ناخيتشيڤان. أرمڤير. باطومي وغيرها من المدن والمناطق الارمنية. خيمت على المؤتمر أجواء الحرب البلقانية الثانية المستعرة وبحثوا بتطبيق مقررات مؤتمر برلين. انبثق عن المؤتمر هيئة من ٧ أشخاص لتتابع الاتصالات وتمثل الأرمن في الخارج. ولدى لقاء الوفد ببطريرك عموم الارمن فوجئوا بتسمية بوغوص نوبار باشا رئيساً للوفد ومباركته وان يكون مركزه باريس. ولقي دعما قويا من حزب «رامغافار» في المهمة الموكولة اليه.

كان له تصريح مع جريدة (التايمز) سنة ١٩١٣. أوضح فيه أن الوفد الذي يعمل على القضية الارمنية لم يأتِ للمطالبة بالانفصال عن السلطنة العثمانية بل لتنفيذ مقررات مؤتمر برلين.

بين الأعوام ١٩١٤-١٩١٨ عمل لأجل انشاء دولة ارمنية مستقلة بمساعدة دول الاتفاق (فرنسا. بريطانيا. روسيا). أسس مستشفيات ومستوصفات في الجبهات المشتعلة (المصدر: جون غيراغوسيان. الحرب العالمية الأولى وأرمينيا الغربية. ص١١٢. يريڤان ١٩٦٥ بالارمنية والروسية. كرسام اهارونيان. القضية الارمنية. بيروت-نيسان ١٩٦٥ بالعربية).

فقد صرح أحد مسلمي بيروت (أحمد مختار بيهم) العضو في المؤتمر العربي الذي التأم في باريس في أول ١٩١٣ للسيد بيشون وزير الخارجية بما نصه:

«إن غرضنا الوحيد، برغم عقدنا المؤتمر في باريس، ما زال الحصول على الإصلاحات للولايات العربية من الحكومة العثمانية وحدها، فنحن لا نريد في سوريا احتلالاً أو حماية فرنسية!».



أحمد مختار بيهم عضو المؤتمر العربي في باريس

أحد مؤسسي الجمعية الإصلاحية البيروتية، عضو بلدية ولاية بيروت، مثقف، ثري، وجيه إسلامي بيروتي. مارست عائلته تجارة المواد الغذائية والاستيراد والتصدير وإقامة المشاريع، وكانت لها أراضٍ زراعية في فلسطين.

ولكي يبين أن فرنسا ليس لها مآرب خفية في سوريا، أبرق السيد بيشون بنص ذلك التصريح إلى السيد بومبار السفير الفرنسي في استانبول، وفي الوقت نفسه صرح الروس في ١٥ مارس/آذار ١٩١٣ بمثل هذا التصريح بألفاظ تكاد تكون مشابهة لبوغوص نوبار باشا.

على أن ما قلته هنا يؤيده الخطاب التالي المؤرخ في ١٣ مارس/آذار الذي أرسله السيد أيزدولسكي سفير روسيا في باريس إلى السيد سازانوف وزير خارجية روسيا، إذ جاء فيه:

«إن بوغوص نوبار باشا أكد مراراً أن أرمن تركيا لا نية لهم مطلقاً في الخوض في مسألة الاستقلال أو في التغييرات الدستورية، بل إن غرضهم الوحيد هو الحصول على الإصلاحات التي أوصت بها روسيا وفرنسا وإنكلترا والمنصوص عليها في معاهدة برلين، وهي إصلاحات ظلت حتى الآن مهملة».

وعندي أن هذا التوارد العجيب في خواطر المصلحين العرب والأرمن لدليل كافٍ على السياسة التي كانت روسيا وفرنسا ينتهجانها بغية تمزيق تركيا.

وأخيراً لم يحل ٢٢ مارس/آذار ١٩١٣ حتى أخذ وزير خارجية روسيا يخطو أول خطوة في مسألة الإصلاحات الأرمنية، ففي البرقية المرسلة في ذلك التاريخ إلى السفير الروسي في برلين طلب السيد سازانوف إلى الحكومة الألمانية أن تنضم إلى الدعوة الدولية المراد إرسالها إلى الباب العالي، ويوافق تاريخ تلك الدعوة اليوم الذي وجدت الحكومة العثمانية نفسها - بعدما أضحت عاجزة عن استمرار القتال - مضطرة إلى توقيع الصلح الابتدائي في لندن والاعتراف بخط إينوس ميديا حدوداً بين تركيا وبلغاريا.

وفي ذلك الوقت أيضاً بدأت المناسبات القومية الأرمنية في استانبول تأخذ شكلاً غير مألوف، فإن الأرمن احتفلوا احتفالاً كبيراً بذكرى اختراع أحرف الأبجدية الأرمنية[٣]، وقد بلغت بهم الوقاحة إلى حد أن ينثروا في الشوارع ورق الكوتيون - ذلك الورق الملوّن الذي ينثر في الأعياد والأفراح - وعليه علمهم الوطني، فاحتملنا ذلك كله بصبر وثبات وأخذنا العدّة اللازمة لمنع حوادث مكدرة، وكنت وقتئذٍ محافظاً لاستانبول فذهبت بناءً على دعوة من الأرمن إلى ميدان تقسيم وألقيت فيه خطبة مسهبة أثنيت فيها أطيب الثناء على الأمة الأرمنية.

أما الطريق الذي سلكه وزير خارجية روسيا فهو أنه سلم إلى مندوبي الدول العظمى في استانبول صورة عن مشروع جديد أساسه المشروع الذي أقرته الحكومة العثمانية في ١٨٩٥، فوافقت عليه فرنسا وإنكلترا بلا تردد ولا توانٍ، وكانت ألمانيا الدولة الوحيدة التي اقترحت أن ترسل إلى الباب العالي دعوة إلى تعيين مندوبين مفوضين يشتركون في أعمال اللجنة التي تؤلف من ممثلي السفراء، بيد أن روسيا ضربت بذلك الاقتراح عرض الحائط. وفي النهاية أمكن الحصول على موافقة ألمانيا على إنشاء لجنة من سكرتيريّ السفارات تُنشأ لدراسة المسألة الأرمنية، وبهذه الصفة منعت الدولة المختصة الوحيدة (تركيا) من إبداء رأيها!.

وقبل أن تبدأ اللجنة أعمالها كانت روسيا قد جهزت فعلاً مشروعاً للإصلاحات وضعه السيد ماندلستام السكرتير الأول للسفارة الروسية، وإني أترك لضمير واضع المشروع وذمته الحكم في ما إذا كان في استطاعته - وهو يتذرع بالاحتفاظ بحقوق إحدى الأقليات في مملكة عظيمة - أن يوفق بين حياده وبين تقديم مشروع كهذا إلى دولة مستقلة!.

ولعظم أهمية المشروع الروسي أثبته هنا بنصه:

المشروع الروسي
(الكتاب البرتقالي الرقم ٥٠)
استانبول (دار السعادة) في ٨ يونيو/حزيران ١٩١٣

مشروع الإصلاحات الأرمنية لواضعه م.أ.ماندلستام السكرتير الأول للسفارة الروسية في استانبول المستند إلى ما يأتي:

أولاً: المذكرة التي قدّمها سفراء فرنسا وروسيا وإنكلترا في استانبول بشأن الإصلاحات الأرمنية في أبريل/نيسان ١٨٩٥.

ثانياً: مشروع الإصلاحات الإدارية لولاية أرمينيا لواضعيه سفراء فرنسا وإنكلترا وروسيا في أبريل/نيسان ١٨٩٥.

ثالثاً: الأمر العالي السلطاني الخاص بالإصلاحات الأرمنية الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥.

رابعاً: مشروع قانون الولايات التركية الأوروبية الذي وضعته اللجنة الأوروبية في ١١-٢٣ أغسطس/آب ١٨٨٠.

خامساً: قانون الولايات الصادر في ١٩١٣.

سادساً: النظام والبروتوكول الخاص بجبل لبنان[٤].

-١-

أولاً: تتألف ولاية واحدة من الولايات الست الآتية وهي: أرضروم ووان وبتليس ودياربكر وخربوط وسيواس، مع استثناء بعض جهات الحدود مثل حِكارى والقسم الجنوبي من جهات سيرتس وبشريك وملاطية والجهات في الشمال الشرقي لسيواس.

ثانياً: تنقسم الولاية إدارياً إلى ثلاثة أقسام، سنجق وقضاء وناحية.

ثالثاً: ترتب الأبرشيات بما يسمح بتكوين الجماعات الوطنية المتجانسة من الوجهة العرقية.

(راجع المادة الأولى في مذكرة السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة السابعة من مشروع الحلفاء في ١٨٩٥)

-٢-

ينبغي أن يكون الحاكم العام لولاية أرمينيا من الرعايا المسيحيين العثمانيين، ويحسن أن يكون أوروبياً يعيّنه جلالة السلطان لمدة خمسة أعوام وتقرّه الدول العظمى.

(راجع المادة ١٧ من معاهدة برلين والمادة الأولى من النظام الكريدي لسنة ١٨٩٦ ونظام البروتوكول الخاص بجبل لبنان والمادتين ٢ و٧ من مذكرة السفراء الثلاثة الموضوعة في سنة ١٨٩٥ ومقدمة الأمر السلطاني بالإصلاحات في أرمينيا الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥ البند الأول)

-٣-

أولاً: الحاكم العام هو رئيس السلطة التنفيذية في الولاية، وله الحق التام في تعيين واستبدال كل السلطات الإدارية المحلية، وهو الذي يعينّ أيضاً قضاة الولاية.

ثانياً: يكون رجال الشرطة والجندرمة رهن أوامر الحاكم العام.

ثالثاً: تبقى القوات العسكرية في تصرف الحاكم العام - لو أراد ذلك - لحفظ النظام في داخل الولاية.

(راجع المادة الأولى من نظام لبنان سنة ١٨٦٤ والمواد ٢٧ و٣٢ و٤٤ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد ٢٠ و٢٥ و٢٦ من قانون إدارة الولاية سنة ١٩١٣)

-٤-

يساعد الحاكم العام للولاية مجلس إدارة ذو سلطة استشارية تامة مؤلف من:

أ- رؤساء الأبرشيات الإدارية للجمعيات الدينية.

ب- والرؤساء الروحانيين للجمعيات الدينية.

ج- والمستشارين الفنيين الأوروبيين المعيّنين من الحكومة الشاهانية لمساعدة رؤساء الأبرشيات الإدارية.

د- وستة مستشارين قضائيين (ثلاثة مسلمون وثلاثة مسيحيون) ينتخبون من بين أعضاء مجلس الولاية.

(راجع المادة ٤٩ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة ٦٢ من قانون إدارة الولاية سنة ١٩١٣ والبند ٦ من الأمر السلطاني أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-٥-

أ- يتساوى عدد الأعضاء المسلمين والمسيحيين في مجلس الولاية.

ب- ينتخب أعضاء مجلس الولاية بالاقتراع السري في القضاء بواسطة الكليات الانتخابية التي ستتكوّن فيما بعد.

ج- في كل قضاء من أقضية الولاية يحدد عدد المقاعد المعينة للعنصرين الإسلامي والمسيحي، وينبغي أن يكون هذا العدد - بقدر ما يتفق مع المبدأ المنصوص عنه في الفقرة الأولى من هذه المادة - مناسباً لعدد أهالي القضاء.

(راجع المادة الثانية من الأوامر والمفاوضات الخاصة بإعادة تنظيم لبنان سنة ١٨٦١ والفقرة (د) من المادة ٣ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة ٦٩ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة ١٠٣ من قانون سنة ١٩١٣)

-٦-

١- ينتخب مجلس الولاية لمدة خمسة أعوام على أن يجتمع مرة كل عام ويظل مجتمعاً شهرين ويمكن مد أمد الاجتماع إذا شاء الحاكم العام.

٢- تمكن دعوة المجلس إلى اجتماع فوق العادة إما بناءً على إشارة الحاكم العام مباشرة وإما على طلب ثلثي الأعضاء.

٣- للحاكم العام حق حل المجلس، وفي هذه الحالة ينبغي إجراء الانتخابات في غضون شهرين وأن يجتمع المجلس الجديد خلال أربعة أشهر من تاريخ الأمر بالحل.

٤- يصدر الأمر بحل المجلس أو انعقاده باسم جلالة السلطان.

(راجع المواد ٧٣-٧٥ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد ١١١-١١٥ و١٢٥ من قانون الولاية سنة ١٩١٣)

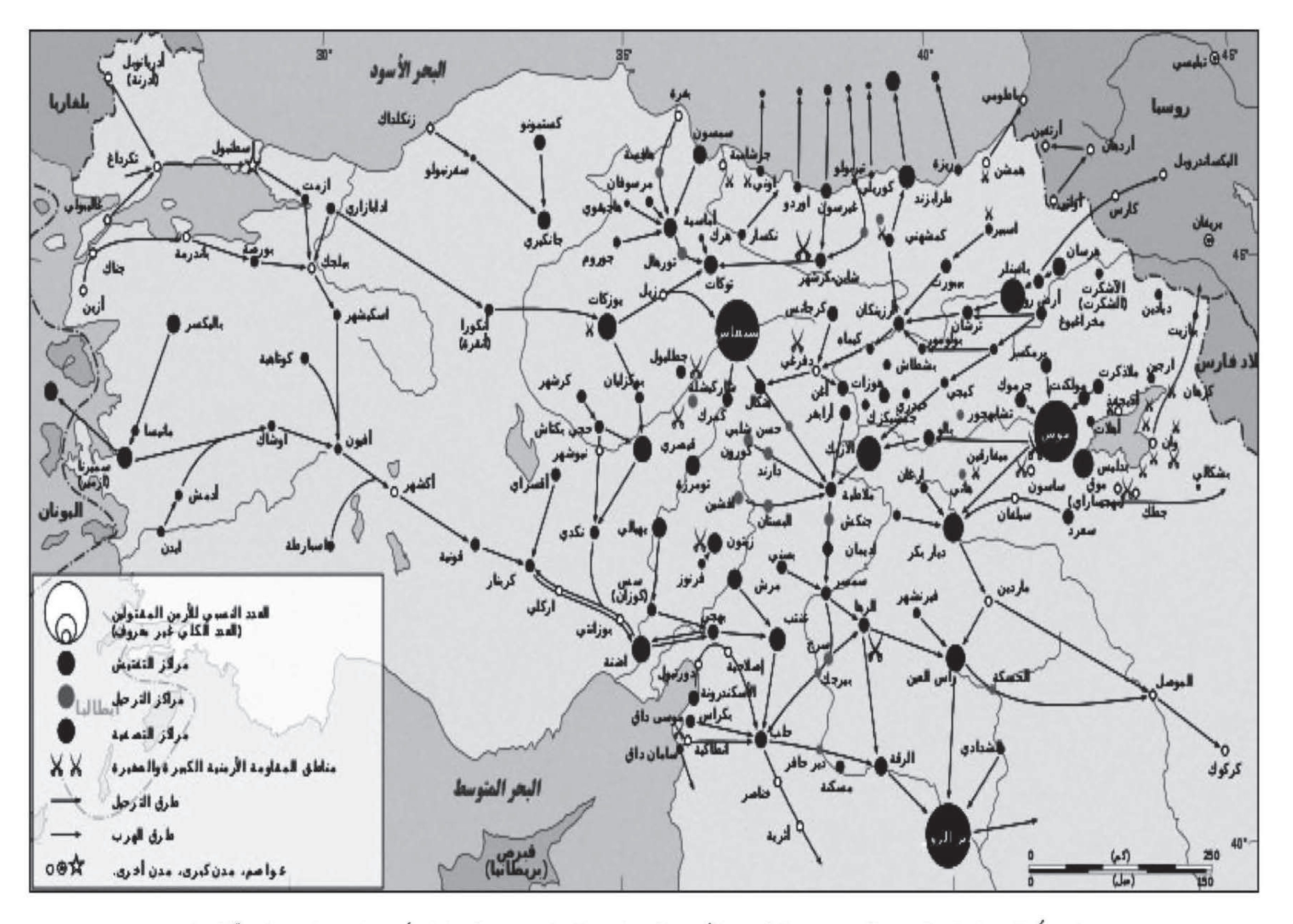
-٧-

١- مجلس الولاية هو السلطة التشريعية لجميع مصالح الولاية.

٢- تكون سلطة مجلس الولاية في المسائل التشريعية والمالية مماثلة على الأقل للسلطة المنصوص عنها في المواد ٨٢ و٩٣ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠.

٣- ترسل القوانين التي يسنّها المجلس إلى الأعتاب السلطانية للمصادقة عليها. وينبغي أن يصادق عليها أو تُرفض في غضون شهرين وإلا كان سكوت الحكومة دليلاً على الموافقة.

(راجع المواد ٨٢-٩٣ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد ١٢٣-١٢٤ و١٢٨-١٣٥ من الأمر الصادر من إدارة الولاية سنة ١٩١٣)



خريطة توزُّع المجازر في المدن والقرى بحق الشعب الأرمني الذي استطاع في بعض المناطق أن ينظم مقاومته لصدّ الجزارين

-٨-

١- يكون المتصرف رئيساً لمجلس إدارة السنجق، ويتألف هذا المجلس من زعماء السنجق الإداريين والرؤساء الروحانيين للعناصر المختلفة وستة أعضاء (ثلاثة مسلمون وثلاثة مسيحيون) ينتخبون من مجالس إدارة الأقضية.

٢- يكون القائمقام رئيساً لمجلس إدارة القضاء، ويتألف هذا المجلس من زعماء القضاء الإداريين والزعماء الروحيين للعناصر المختلفة وأربعة أعضاء (اثنان مسلمان واثنان مسيحيان) ينتخبون من مجلس إدارة الناحية.

٣- تعيّن سلطة تلك المجالس طبقاً للمواد ١١٥ و١١٦ و١٣٩ و١٤٠ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠.

(راجع المواد ١١٤-١١٥-١١٦ و١٣٨-١٣٩-١٤٠ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمادة ٦ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-٩-

١- تعيّن حدود النواحي على نحو يضمن بقدر المستطاع تكوين ناحية قائمة بذاتها من القرى التي تقطنها طائفة واحدة.

٢- يعيّن لكل ناحية مدير يساعده مجلس ينتخب الأهالي أعضاءه بحيث لا ينقصون عن أربعة ولا يزيدون على ثمانية، والمجلس هو الذي ينتخب المدير ومساعده للعضوية، ويتعين أن يكون المدير من الطائفة التي تكوّن الغالبية العرقية، أما مساعده فيكون من الطائفة الأخرى.

٣- وفي النواحي التي فيها أخلاط من السكان تمثل الأقليات بنسبتهم العددية بشرط ألاّ يقل عددها عن ٢٥ أسرة.

٤- تعيّن سلطات النواحي طبقاً للمواد ١٦٣- ١٦٨ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠.

(راجع المواد ١٦٢-١٦٨ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والمواد ٧-٨-٩ من مشروع الإصلاح الذي وضعه السفراء الثلاثة في ١٨٩٥ والمواد ٧-٨-٩ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-١٠-

١- ثمة في كل ناحية قاضٍ للصلح يعينه الحاكم العام ويكون من أبناء دين أكثرية سكان الناحية.

٢- ويفصل هذا القاضي:

أ- في القضايا الجنائية (من دون استئناف) في الجرائم التي تدخل ضمن دائرة العقوبات البسيطة التي هي من اختصاص الشرطة مع حق الاستئناف في الجرائم التي لا تزيد عقوبتها على ٥٠٠ قرش أو ثلاثة أشهر سجناً.

ب- وفي القضايا المدنية (من دون استئناف) في جميع القضايا المدنية والتجارية التي لا تتجاوز قيمتها ١٠٠٠ قرش مع حق الاستئناف في مثل تلك القضايا متى كانت القيمة لا تتجاوز ٥٠٠٠ قرش.

٣- وفي محكمة قاضي الصلح تكون في الوقت نفسه محكمة تحكيم، ولها أن تعيّن محكمين - إذا طلب المتخاصمان منها ذلك - للفصل في الدعاوى التي تتجاوز ٥٠٠٠ قرش. ويكون حكم المحكمين غير قابل للاستئناف.

٤- وتشتمل محاكم السناجق على محكمة مدنية واحدة من رئيس وقاضيين تدفع الحكومة رواتبهم (أحدهما مسلم والآخر مسيحي) ويعيّنهما الحاكم العام. وتكون محكمة السنجق: (أ) بمثابة محكمة أول درجة في القضايا المدنية والتجارية التي تزيد قيمتها على مبلغ ٥٠٠٠ قرش. (ب) بمثابة محكمة استئناف في القضايا المدنية والتجارية التي فصل فيها قاضي الصلح في محكمة الناحية.



أرمينيا العثمانية بولاياتها الست الكبرى

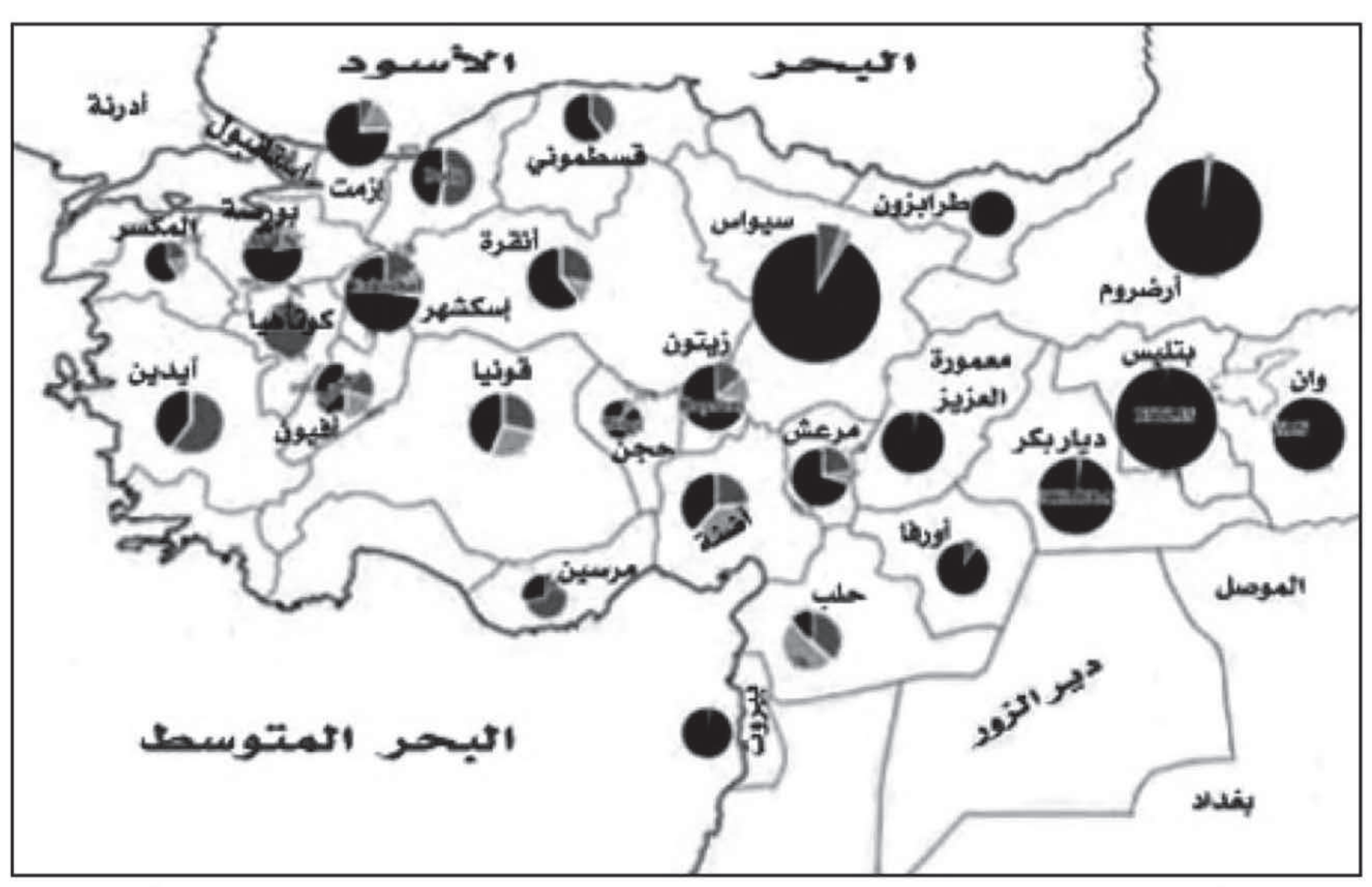
٥- يستبدل القسم الجنائي من محكمة السناجق بمحكمة جنايات عليا متنقلة. وتتكون هذه المحكمة من رئيس (ينتخب من أعضاء محكمة الاستئناف الأسمى من محكمة السنجق) وعضوين (أحدهما مسلم والآخر مسيحي) تنتخبهما محكمة الاستئناف نفسها من قضاة الصلح في السنجق.

٦- تلتئم تلك المحاكم الجنائية العليا بالتوالي في الأقضية التي تستدعي وجودها.

٧- يوجد قاضٍ للتحضير في كل قضاء. فبمجرد وصول رئيس محكمة الجنايات العليا في القضاء يعرض عليه قاضي التحضير الوثائق الخاصة بالقضايا التي حضرها القاضي وكانت صالحة للحكم وكذلك الوثائق الخاصة بالقضايا المنظور فيها والقضايا التي لم تتم بعد. فإذا رأى الرئيس خللاً أو إهمالاً لا مبرر له عليه أن يخطر رئيس محكمة الاستئناف في الحال.

٨- تفصل محكمة الجنايات العليا - مع حفظ الحق في الاستئناف - في الأحكام التي حكم بها قضاة الصلح في القضايا الجنائية وتكون بمثابة محكمة أول وآخر درجة فتفصل في القضايا المتعلقة بالجرائم أو الجنح المعاقب عليها بغرامة تزيد على ٥٠٠ قرش أو الحكم بالسجن أكثر من ٣ أشهر.

٩- يجب أن تنشأ على الأقل ست محاكم استئناف. تتألف كل منها من رئيس وأحد القانونيين المتمرنين يعيّنهما الحاكم العام وعدد من الأعضاء يكفي للنظر في المسائل المدنية المعروضة عليها ولمدّ محاكم الجنايات العليا بالرؤساء. ولمحكمة الاستئناف حق الفصل متى حضر العدد القانوني وهو الرئيس وعضوان من الأعضاء.



انتشار الأرمن في تركيا والتوزّع الديمغرافي. مجموع ضحايا المجازر خلال خمس سنوات فقط مليون وستمئة ألف إنسان

١٠- تنشأ المحاكم التجارية حيثما تقضي الضرورة. وفي الجهات التي فيها تلك المحاكم لا يحق للمحاكم المدنية الفصل في القضايا التجارية.

١١- تعيّن سلطات المحاكم الشرعية بدقة. وعلى الحاكم العام أن يحول دون اعتداء هذه المحاكم على السلطات القضائية الأخرى في الولاية. ولا يجمع قضاة المحاكم الشرعية بين وظيفة القضاء فيها والرئاسة في المحاكم الأخرى في الولاية.

(راجع المواد ٢٩-٣٩ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمواد ١٢٥-٢٦٣ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠)

-١١-

١- تؤلف قوة من الشرطة والدرك في الولاية ويكون نصف المجندين من الأهالي المسلمين والمسيحيين.

٢- يعهد بتنظيم تلك القوة ورئاستها إلى الضباط الأوروبيين الذين هم في الخدمة التركية.

٣- تؤلف قوة من الرتباء في النواحي ويعيّن الحاكم العام هؤلاء ولكنهم يكونون بإمرة المدير.

(راجع المواد ١٨-٢١ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة ٢٤ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-١٢-

يؤدي المجندون من أهالي الولاية خدمتهم العسكرية في الولاية في زمن السلم. وتحل كوكبة الفرسان الخفيفة الكردية (حميدية سابقاً).

(راجع المادة ٢٥ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة ٢٨ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-١٣-

١- يجب أن يكون انتخاب موظفي الإدارة والقضاء على قاعدة المساواة في العدد بين المسلمين والمسيحيين.

٢- عند تعيين حكام السناجق (المتصرفين) والأقضية (قائمقام) يجب مراعاة الطوائف ومصالحها.

(راجع المادة ٥ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-١٤-

للأهالي المستوطنين حق التصويت ويمكن انتخابهم.

(راجع المادة ٢٤ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة ٢٧ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-١٥-

١- كل القوانين والأوامر والبرامج والنشرات الرسمية والبيانات ينبغي أن تنشر بلغات الولايات الثلاث التركية والأرمنية والكردية.

٢- كل الطلبات والعرائض وجميع الوثائق الموجهة إلى السلطات الإدارية أو القضائية يجب أن تكون بإحدى لغات الولاية الثلاث بناءً على رغبة الجماعات المطلقة.

٣- يجوز للخصم استعمال لغته في الدفاع عن نفسه أمام المحاكم.

٤- تصدر الأحكام باللغة التركية وتلحق بها ترجمتها بلغة الخصم المختص.

(راجع المادة ٤٠ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة ٢٢ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠ والنشرة التي أرسلتها وزارة الداخلية إلى الولايات بخصوص اللغة العربية في ٦ أبريل/نيسان ١٩١٣)



انتشار العنصر التركي الطوراني في آسيا الوسطى وغربها، وأحلام القوميين الأتراك بتوحيدهم تحت عرش واحد

-١٦-

١- لكل طائفة في الولاية حق إنشاء المدارس الخاصة وتعهدها على اختلاف أنواعها.

٢- ويجوز لها فرض الضرائب على رعاياها لفائدة تلك المدارس.

٣- يكون التعليم في تلك المدارس باللغة الوطنية.

٤- للحاكم العام حق الإشراف على تلك المدارس عملاً بمقتضى القواعد المنصوص عليها في قوانين الولاية.

٥- يكون إجبارياً تعليم اللغة التركية في جميع المدارس الخصوصية.

(راجع المادة ١٤ من مشروع اللجنة الأوروبية سنة ١٨٨٠)

-١٧-

تضع لجنة خاصة برئاسة الحاكم العام الشروط التي تعاد بمقتضاها الأراضي التي انتزعت من الأرمن بلا حق أو يعوضون عنها إما بأراضٍ أخرى وإما بثمنها.

(راجع المادة ٢٦ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥ والمادة ٢٩ من الأمر السلطاني الصادر في ٢٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-١٨-

حقوق الأمة الأرمنية وامتيازاتها المخولة لها بموجب الأمر الأساسي الصادر في سنة ١٨٦٣ والإرادات السلطانية يعترف بها كلها.

(راجع المادة ١١ من مشروع السفراء الثلاثة سنة ١٨٩٥)

-١٩-

لا يسمح لمهاجري المسلمين بالتوطن داخل حدود الولاية.



أرمينيا الروسية وأرمينيا التركية

-٢٠-

تصدر بناءً على القواعد السالف ذكرها قواعد خاصة تكفل مصالح الأرمن القاطنين خارج الولاية وخصوصاً في كيليكيا.

(راجع المادة ١٢ من مذكرة السفراء سنة ١٨٩٥ والمادة ٤ من مقدمة الأمر السلطاني الصادر في أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥)

-٢١-

تضع لجنة خاصة من ممثلي الحكومة العثمانية والدول العظمى نص أمر التشكيل للولاية وكذلك القواعد الخاصة المشار إليها في المادة العشرين من المشروع.

-٢٢-

على الدول العظمى مراعاة تنفيذ هذا المشروع.

(راجع المادة ٨ من مذكرة سنة ١٨٩٥ والمادة ٣٢ من الأمر السلطاني الصادر في أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٥ والمادة ١٤ من الأوامر الصادرة لجزيرة كريت ١٨٩٦)

ولا أظن أن أحداً يرتاب في أنه لا يمر على قبول ذلك المشروع عام واحد حتى تقع ولايات أرضروم وسيواس ووان وبتليس وديار بكر ومعمورة العزيز تحت حماية روسيا، أو على الأقل تصير مرتعاً لجيوش الاحتلال الروسية.

ولطالما بذل المندوب الألماني جهده في المفاوضات للاحتفاظ بحقوق الحكومة العثمانية ووجهة نظرها، فيما كان المندوب الروسي يسعى لإحباط تلك الجهود. وكان ممثلا فرنسا وإنكلترا يؤيدان زميلهما الروسي في آرائه، كما كان الممثل الإيطالي والممثل النمسوي يتظاهران بتأييد الممثل الألماني في نظرياته.

وقد ظلت اللجنة منعقدة من ٣ يوليو/تموز إلى يوم ٢٣ منه، وبالرغم من اجتماعاتها المتتالية لم تبرم أمراً لأن غرض روسيا الأكبر كان إنفاذ المشروع بلا تغيير ولا تبديل، فيما ألمانيا كانت ترغب في حماية الحكومة العثمانية إلى أقصى حد مستطاع. وفي سبتمبر/أيلول ١٩١٣ تمكّن البارون جيرس سفير روسيا من حمل البارون فانغنهايم السفير الألماني في استانبول على قبول مشروع أساسي يحتوي على ست نقاط، ثم بدأت المفاوضات بين سعيد حليم باشا الصدر الأعظم وزير الخارجية والسفيرين السالف ذكرهما. ولما اطّلعنا على هذه النقاط الست تبين لنا أن الحكومة العثمانية تستطيع تنفيذها بلا حاجة إلى ضغط من الخارج، وعلى ذلك وضعنا برنامجاً واسعاً للمملكة جمعاء وأخطرنا به بواسطة سفرائنا لدى الدول العظمى. وبمقتضى ذلك البرنامج تقسم المملكة إلى ست مفتشيات عامة، اثنان منها للولايات الأناضولية الشرقية.

ولإحباط الدسائس الروسية أردنا أن يشرف الإنكليز على هاتين الجهتين، فطلبنا إلى توفيق باشا سفيرنا في لندن أن يسأل السير إدوارد غراي هل توافق إنكلترا على هذا الرأي وهل تستطيع أن ترسل موظفين إنكليز؟ فأجاب بأن إنكلترا توافق على ذلك، فبادر الصدر الأعظم إلى تقديم الطلب رسمياً. وقد كان محققاً أن يقضى على الدسائس الروسية متى وافقت إنكلترا على ذلك الاقتراح، غير أنّا لم نلبث أن ورد إلينا أن إنكلترا لا تستطيع من دون موافقة روسيا تعيين موظفين لشرقي الأناضول فاضطررنا إذ ذاك إلى العدول عن ذلك، إذ تهدّم ما بنيناه من الآمال التي علّلنا بها أنفسنا وتحققنا أن إنكلترا قد تخلت عنّا وتركتنا ضحية للمطامع الروسية، فعدنا أدراجنا لاستمرار المفاوضات مع سفيري روسيا وألمانيا.

وفي ٨ فبراير/شباط ١٩١٤ وُقّعت بين سعيد حليم باشا والسيد غولغفيتش القائم بأعمال السفارة الروسية الاتفاقية النهائية الآتية:



إدوارد غراي وزير خارجية بريطانيا عن حكومة المحافظين

الاتفاقية الروسية - التركية المؤرخة في ٢٦ يناير/كانون الثاني - ٨ فبراير/شباط ١٩١٤ (الكتاب البرتقالي الرقم ١٤٧)

اتفق كل من سعادة السيد قسطنطين غولغفيتش القائم بأعمال السفارة الروسية وصاحب الدولة الأمير سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ووزير الخارجية على أنه في الوقت نفسه الذي يعيّن مفتشان لولايات الأناضول الشرقية يرسل الباب العالي إلى الدول العظمى المذكرة الآتية:

«يعهد إلى المفتشين الأجنبيين بإدارة الإقليمين اللذين سيتكوّنان من ولايات الأناضول الشرقية، فيشرف أحدهما على ولايات أرضروم وطرابزون وسيواس ويشرف الآخر على ولايات وان وبتليس وخربوط وديار بكر».

ولهما الإشراف على الإدارة المدنية والقضاء والشرطة والدرك في هذين الإقليمين، وإذا لم تكفِ الشرطة لحفظ النظام فللمفتش - إذا أراد - أن يستخدم القوة العسكرية هناك للقيام بشؤون وظيفية.

ولهما إذا اقتضت الحال أن يفصلا الموظفين غير الملائمين إما لعدم كفاءتهم أو لسوء سلوكهم وأن يسلما إلى العدالة الموظفين المتهمين بارتكاب الجرائم، ولهما الحق في ترشيح الموظفين الكبار قبل أن يعيّنهم جلالة السلطان، وفي حال فصل الموظفين عليهما أن يرسلا تلغرافياً في الحال إلى الوزراء المختصين تقريراً بملخص أسباب الفصل ثم تقريراً وفي خلال أسبوع ويكون مصحوباً بالأوراق الرسمية اللازمة.

وفي المسائل المهمة التي تقتضي بتاً سريعاً يكون لهما الحق في وقف الموظفين القضائيين الذين لا يمكن فصلهم، على شرط أن يبادرا إلى إحالة المسألة على وزارة الحقانية (العدلية).

وفي القضايا التي تقع المسؤولية فيها على الوالي وتقتضي اتخاذ قرارات حاسمة على المفتشين إخطار وزير الداخلية برقياً، وهذا الأخير يبادر إلى عرض الأمر على مجلس الوزراء ليبتّ الموضوع في أربعة أيام على أكثر تقدير من وصول البرقية.

الخلافات الزراعية تُبتّ بإشراف المفتش شخصياً.

بعد تعيين المفتشين توضع بمساعدتهما مذكرتان شاملتان عن واجباتهما وحقوقهما.

إذا ظلت وظيفة المفتش خالية لمدة عشرة أعوام فحق للباب العالي الاعتماد على معونة الدول العظمى في تعيين مفتش جديد، وتكون القوانين والأوامر السلطانية والمنشورات العامة بلغة كل من الإقليمين السالفين، وللخصوم الحق - بحسب ما يتراءى للمفتش - في استعمال لغاتهم أمام المحكمة أو أي سلطة إدارية، وتصدر الأحكام باللغة التركية مصحوبة - بقدر ما يستطاع - بصورة ترجمتها بلغة الخصم.

مقادير التبرعات للمدارس التي تقدمها العناصر الوطنية المختلفة تحدد طبقاً للضرائب التي كانت مفروضة على المدارس من قبل، ولا تضع الحكومة السلطانية أي عقبة في سبيل الطوائف الدينية إذا أرادت الاشتراك في مساعدة مدارسها.

على كل عثماني في زمن السلم أن يقضي مدة خدمته العسكرية ضمن دائرة المفتشية الموجود فيها منزله، ويجند الباب العالي - إلى حين صدور إعلان آخر - فصائل من القوات الحربية في نواحي المملكة للخدمة في أطراف اليمن وعسير ونجد بنسبة عدد سكان تلك الجهات، وسيجند فوق ذلك من سائر أرجاء المملكة للخدمة في الأسطول.

تحوّل كتائب الحميدية إلى فرسان احتياطية، وتبقى أسلحتها في المستودعات الحربية ولا تصرف إلا لدى التعبئة أو المناورات، وتكون الكتائب بقيادة قائد الإقليم، وفي زمن السلم ينتخب قادة الكتائب والفصائل والسرايا من الضباط العاملين في الجيش العثماني السلطاني، ويؤدي رجال هذه الكتائب عاماً واحداً في الخدمة العسكرية، وعليهم أن يجيئوا إلى الكتيبة بخيلهم وسروجهم تامة، وكل رجل - مهما كانت نسبته ودينه - يكون في دائرة التجنيد هذه وتتوافر فيه الشروط السابقة يمكن إلحاقه بالكتائب السالفة الذكر، وفي زمن الحرب والمناورات يعاملون معاملة الجنود النظاميين.

سلطة المفتش تكون مطابقة لنصوص القانون الصادر في ١٣ مارس/آذار ١٩١٣.

تجري عملية الإحصاء العام تحت إشراف المفتشين في أقرب فرصة - وفي غضون سنة من الآن إذا تيسر - لمعرفة حقيقة الأحوال في ما يختص بالدين والجنسية واللغة في كل من الإقليمين، وإلى حين حلول ذلك الميعاد يتألف المجلس العمومي ولجان الولاية لكل من وان وبتليس من عدد متساوٍ من المسلمين وغير المسلمين، وإذا لم يتم الإحصاء في ولاية أرضروم في خلال عام ينتخب أعضاء المجلس العمومي فيها بالطريقة نفسها المتبعة في الولايتين الأخريين.

أما في ولايات سيواس وخربوط وديار بكر فينتخب الأعضاء بنسبة عدد الأهالي. ولتسهيل تنفيذ هذه الإجراءات يحدد عدد الناخبين المسلمين - إلى حين إتمام الإحصاء الجديد - طبقاً للكشوف القديمة وعدد الناخبين غير المسلمين طبقاً لكشوف الأبرشية. وفي الوقت نفسه إذا حالت أي صعوبة دون اتّباع ذلك النظام الانتخابي المحلي فللمفتشين الحق في أن يقترحا تقسيم الناخبين إلى المجالس العمومية في ولايات سيواس وخربوط وديار بكر بطريقة تكون أكثر ملاءمة لحاجات وأحوال الولايات المذكورة الحاضرة. وفي سائر الولايات التي تنتخب فيها المجالس العمومية بواسطة التصويت النسبي لا بد من ممثل الأقليات في لجان الولاية.

أما مجلس الإدارة فيكون عدد أعضائه المسلمين مساوياً لعدد غير المسلمين كما في الماضي. ويترك للمفتشين اتخاذ ما يريانه ملائماً لانتخاب الشرطة والتجنيد للدرك بمثل تلك النسبة في كل من الإقليمين. وتراعى مسألة النسبة بقدر المستطاع عند التعيين للوظائف الرسمية الأخرى.

واعترافاً بهذه الاتفاقية نضع نحن الموقعين على هذا إمضاءاتنا وأختامنا.

(الإمضاء) غولغفيتش

(الإمضاء) سعيد حليم

حرر في استانبول في ٢٦ يناير/كانون الثاني- ٨ فبراير/شباط ١٩١٤

ولقد هللت روسيا لتلك الاتفاقية واعتبرتها فوزاً سياسياً مبيناً. ويكفي لقدر أهميتها أن نثبت الفقرات الآتية من البرقية المطولة التي أبرقها غولغفيتش إلى السيد سازانوف وزير الخارجية. وهي:

«فقانون ٤ فبراير/شباط ١٩١٤ يدل إذن ولا ريب على افتتاح عهد جديد وسعيد في تاريخ الشعب الأرمني. ويمكن مقارنته من حيث الأهمية السياسية بفرمان ١٨٧٠ [٥] الذي أسست بمقتضاه أكسرخسية (نيابة) بلغاريا وحرر البلغاريون من الإشراف اليوناني. ولا بد أن يشعر الأرمن أن هذه الخطوة الأولى قد اتخذت في سبيل تحريرهم من النير التركي. أما اتفاقية ٨ فبراير/شباط ١٩١٤ فإنها في الوقت نفسه مهمة جداً بالنسبة إلى مركز روسيا الدولي. فقد وقّعها الصدر الأعظم شخصياً ومندوب روسيا. وتحتّم على تركيا أن تقدم إلى الدول العظمى مذكرة وضعت محتوياتها بإحكام. فموقف روسيا في المسألة الأرمنية أصبح معترفاً به رسمياً. كما أن المادة ١٦ من معاهدة سان ستيفانو قد صودق عليها إلى حد ما. وستؤثر هذه الظروف ولا شك تأثيراً حسناً في موقف روسيا الدولي. بل إنها لتضع هالة حول رئيس قيصرها في عيون مسيحيي الشرق الأوسط. وقد تغلب السفير الإمبراطوري (الروسي) على مصاعب غير عادية في سبيل الوصول إلى الاتفاق مع الباب العالي. إذ كان عليه أن يحسب من جهة حساب رغبة الأرمن الطبيعية في إدخال أوسع ما يستطاع من الإصلاحات. ومن جهة أخرى حساب معارضة الباب العالي الشديدة وكان قد بذل أقصى جهد لإحباط الإصلاحات المنشودة وقاوم كل النقاط المهمة في المشروع. أما ألمانيا فإن تفاهمها معنا يحقق غايتين: الأولى أنها ستقنع الباب العالي بأنها بموافقتها على الإصلاحات المعتدلة التي لا حيف فيها عليه قد دفعت عن الحكومة العثمانية سلبيات إصلاحات أبعد غوراً من الإصلاحات السابقة. والثانية أنها ستسعى لاكتساب عطف الأرمن الذي يهمّها جداً من أجل كيليكيا التي يعتبرها الأرمن في دائرة نفوذهم. فمنهج ألمانيا إذا كانت تعوزه الصراحة. وليست مساعدتها للأرمن إلا مجرد «بلف». أما الحقيقة فهي أن الساسة الألمان كانوا نصحاء لتركيا وأوفياء».

(الإمضاء) غولغفيتش



الكتائب الحميدية (حميدية آيلري) أو فرسان الحميدية

أطلقت هذه التسمية على تشكيلات (ميليشيا) تألفت في الشرق من أكراد وشركس (أوهموهم أنهم يدافعون عن أعراضهم وأملاكهم وأراضيهم) لتعمل ضد الأرمن في الأناضول شرق تركيا ووسطها وكيليكيا والمدن حيثما وجدوا وانتخب ضباطها من بكوات الأكراد وأعيانهم. وأطلقت أيضاً على كتائب من الألبان لتعمل غرب تركيا في بلغاريا والروملي. وأعطت ثمارها في المجازر التي نفذت.

تم إنشاء هذه الكتائب على إثر معاهدة برلين (١٨٧٨) بأمر من السلطان عبد الحميد عام ١٨٩١ الذي خاف من قيام بلغاريا أرمنية. فالأرمن خطر يجب أن يُستأصل من جذوره. فوجد أنه لتنفيذ مشاريعه المستقبلية عليه أن يأمر بتشكيل فرق خاصة تأتمر بأمره وتعمل ببنود خطته. وحجته في تأليفها هو تأديب العصاة وقمع حركات التحرر الوطنية في أرمينيا والبلقان. فجرى تدريبها وتسليحها وتنظيمها إلى كتائب (أورطة) وبلغ تعداد الكتيبة بين ٣٠٠-٥٠٠ عنصر حسب المهام وجغرافية المنطقة. شهرتها لهذه الخيالة الحميدية وصلت أوروبا وآسيا الى حد أن الأتراك انفسهم باتوا يخشونها. بدأت بالخفوت والانحلال بدءاً من عام ١٩٠٨ إلى أن ألغيت عام ١٩١٢ وجرى ضمّ أفرادها إلى الدرك (يلماز أوزتونا. تاريخ الدولة العثمانية. ج٢. ص١٣١-١٣٢).

وتكررت الطريقة نفسها مع جمعية الاتحاد والترقي عندما أنشأت التشكيلات الخاصة واستفيد من خبرات من تبقّى من الكتائب الحميدية. .جرى ضمهم للعمل ضد الأرمن.



وحدات أرمنية مقاتلة

فأنت ترى أن القائم بأعمال السفارة الروسية يعتقد أن مشروع الإصلاح الأرمني ليس إلا الخطوة الأولى في سبيل احتلال روسيا لأرمينيا، وإني لأظنه قد أصاب كبد الحقيقة فيما رآه. ولا يسعني أن أكتم استغرابي ودهشتي لنشر تلك الفقرات في الكتاب البرتقالي مع أنها تنمّ تماماً عن أهداف روسيا حيال أرمينيا. ألست محقاً إذا قلت: «لقد شاء المولى أن يعترف المذنب بذنبه؟».

أما هي تجاه أرض القوقاز فقد غيّرت أخيراً سياستها معهم تغييراً تاماً، فإنها بعدما رأت أن الإرهاق الذي نزل بالأرمن هناك لم ينتج إلا إثارة الشك والارتياب في صدور الثوار الأرمن الحقيقيين ضدها اضطرت إلى العدول عن تلك السياسة الخرقاء، وردّت الأملاك التي صادرتها إلى دير أتشميازين وأعلنت العفو العام عن جميع مجرمي الأرمن السياسيين وتظاهرت بالصداقة الكبرى للأرمن، وقد نجحت تلك السياسة الجديدة في اكتساب ثقة أولئك الثوار من الأرمن الذين كانوا حتى الآن يبغضون روسيا.

وبعد حركة بوغوص نوبار باشا في أوروبا وعلى الأخص قبيل منتصف ١٩١٣، طلبنا بإلحاح إلى زعماء جمعية الطشناق أن يشدوا أزرنا في سبيل مقاومة مساعي روسيا لإصلاح أرمينيا، فإن الحرب البلقانية كانت قد وضعت أوزارها وأصبح في وسعنا ألا نمكّن الأكراد من مجاوزة الحد ونضمن للأرمن حياة السلام في بلادهم، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: «الآن وقد تدخلت الدول العظمى في المسألة لا يمكننا الوقوف على الحياد».



بإشراف وتوجيه الضباط الألمان تمّت عمليات التطهير العرقي على يد الاتحاد والترقي

أما الحكومة العثمانية فقد عقدت النية على تنفيذ الشروط التي تضمنتها اتفاقية ٨ فبراير/شباط ١٩١٤ كلها بتمام العناية والاجتهاد، مع كونها مؤلمة ممضّة لها ومُرضية لروسيا وعلى هواها، ولكن الحكومة الروسية لم يكن ليعجزها أن تُوجِد مصاعب جديدة، فإن غايتها ألا يستتب السلام مطلقاً في شرقي الأناضول، وللوصول إلى تلك الغاية تجدّ وتسعى أولاً لبسط حمايتها على أرمينيا، وبعد ذلك تثير في أوروبا روح العطف على الأرمن ثم تثير حفيظة بكوات الأكراد، وعلى الأخص ذوي النفوذ من شيوخ العشائر، وتدفعهم إلى مقاومة الحكومة والأرمن على السواء، وبناءً على هذه الخطة التي أحكم وضعها أيّدت الحكومة الروسية من جهة عبد الرزاق بك بدرخان الشهير وأمدته بالأموال الطائلة ومنّته بإعادة الحكم الكردي في كردستان، ومن جهة أخرى توصلت بواسطة قنصلها في بتليس إلى تحريض الشيخ ن. ن. والخروج على الحكومة، فليختلق السيد ماندلستام ما يشاء، ولكنه لا يستطيع إخفاء تلك الحقائق.

وفيما مسألة الإصلاحات الأرمنية آخذة منحى متطوراً إذا بالحرب العالمية تندلع شرارتها، فأدركت الحكومة العثمانية أن تحالفها مع ألمانيا لا بد وأن يجرّها عاجلاً أو آجلاً إلى امتشاق الحسام، وإذ توقعت استحالة المضي في الإصلاحات الداخلية والاشتغال بالأمور الثانوية خلال سني الحرب العصيبة، رأت أن إطالة أمد إشراف المفتشين الأجنبيين اللذين سبق تعيينهما لولايات الأناضول الشرقي صارت غير لازمة.



عبد الرزاق بدرخان

أحد ثلاثة أخوة لأب زعيم كردي إقطاعي تنازعوا الزعامة. شخصية قومية متعصب لكرديته. كانت له مواقف معادية للأرمن وقضاياهم. ترأس حركة تحرر وطني كردية وسعى لإقامة دولتها في إقليم كردستان. تمتد من شمال إيران والعراق إلى جنوب شرقي تركيا وشمالاً إلى جنوب روسيا. انطلق بثورته من شمال إيران لتعمّ الإقليم كله.

اتصل بالروس في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩١٠ عارضاً عليهم خطة تقضي بتقديم المساعدة له مقابل إنشاء قاعدة لهم في شمال الإقليم. الروس من جهتهم لهم حساباتهم الخاصة والرؤية للأمور مختلفة عنه. سمحوا له بالإقامة في يريفان مع حرية حركة محدودة. في أواسط شهر شباط من سنة ١٩١٢ شارك عبد الرزاق في مؤتمر لحزب الحرية والائتلاف المناوئ لحكومة الاتحاديين التي حاربت الأكراد في أرضروم والتي استعملتهم في فترة ما ضد الأرمن. عبد الرزاق دعا الى توحيد جميع القوى الكردية المعارضة للاتحاديين والقيام بثورة كردية شاملة على جميع الأراضي العثمانية (جليلي جليل. الحركة الكردية في العصر الحديث. ص٢٧).

ومما لا ريب فيه أن أملنا الأوحد كان تحرير أنفسنا عن طريق الحرب العالمية من كل القيود والامتيازات التي طالما هدمت استقلالنا وجعلته اسماً بلا مسمى. لنعيش في المستقبل أحراراً مستقلين كسائر الشعوب الحرة المستقلة. فندخل في بلادنا وبمحض إرادتنا الإصلاحات التي تحتّم المقتضيات المحلية إدخالها. كما أن الغرض الأسمى الذي كنا نرمي إليه إنما هو أن نلغي الامتيازات ونقذف بنظام جبل لبنان الأساسي إلى الهاوية. كذلك كنا نريد بمسألة الإصلاحات الأرمنية أن نتخلص من الاتفاقية التي حملنا ضغط روسيا على إبرامها.

وقد ذكرنا في فصل سابق أننا إنما خضنا غمار القتال أملاً في أن نحيا في المستقبل حياة حرة مستقلة خليقة بشعب أبيّ.

وإذ كانت هذه نياتنا، لم يكن لاتفاقية الإصلاحات التي انتزعتها منا انتزاعاً روسيا عدوتنا التاريخية أي معنى آخر. ولا أقصد بذلك أننا لم يكن في نيتنا إدخال الإصلاحات في بلادنا كلا، بل كنا على النقيض قد قررنا الإصلاحات الأساسية بعدما ثبت لدينا أننا لا نستطيع الحياة من دونها. ولكننا نظرنا إلى مسألة الإصلاحات من هذه الوجهة وهي أنه يجب القضاء على القيصرية التي ظلت قرنين كالحسام المُصْلت فوق رؤوسنا لتخمد نهائياً نار الدسائس التي كانت تتأجج خفية في داخل بلادنا. وهذه الغاية لا يمكن إدراكها ما لم نخض غمار الحرب العالمية بكل ما استطعنا من قوة وبطش. وعلى ذلك قررنا إرجاء الإصلاحات الداخلية إلى ما بعد انتهاء الحرب وتوجيه كل قوى الشعب إلى الحرب نفسها. ولم نغفل إبلاغ زعماء جمعية الطشناق وجهة نظرنا هذه.

وفي النهاية اشتركنا في الحرب اشتراكاً فعلياً، وبعد إعلانها بأيام عُيّنت لقيادة الجيش الرابع، ثم غادرت استانبول قاصداً سوريا. ومذ ذاك صرت لا أعرف شيئاً ما عن أحوال ولايات شرقي الأناضول ولا ما هي الأسباب التي رأت الحكومة نفسها إزاءها مضطرة إلى نفي الأرمن كافة. ولم يكن لي دخل في المفاوضات التي جرت في استانبول بل لم يؤخذ رأيي فيها. وكان بيان الحكومة للولايات هو أمل ما نمي إليّ من الأخبار بأن الأرمن قد نفوا موقتاً إلى العراق، حيث كلفوا الإقامة فيها إلى أن تضع الحرب أوزارها.

وقد وردتني من القائد العام تعليمات تقضي اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الأرمن من كل اعتداء أثناء اجتيازهم للمنطقة الواقعة تحت قيادتي. وقد كان نفيهم بإشراف السلطات المدنية. ذلك هو كل ما علمته عن تلك المسألة. وكنت إذ ذاك مشغولاً بتنظيم خط المواصلات بين بوزانتي وحلب لأنه الطريق الأوحد الذي يمكن أن يسلكه الجنود المراد إرسالهم إلى سوريا في أواخر ١٩١٥ للاشتراك في حملة القناة الثانية. وكذلك كان متعيناً عليّ اتخاذ الإجراءات الناجعة للحصول على المؤن اللازمة. وقد غضبت بشدة إذ علمت أن الأرمن المنفيين سيجتازون بوزانتي في طريقهم عن جبال طوروس وأضنة إلى حلب خشية أن يحصل عبث بخط المواصلات. لأن أقل عبث به ربما كان له أسوأ أثر وأكبر ضرر بحملة القناة. ولا تزال الخطابات بيني وبين القائد العام في ذلك الشأن محفوظة في سجلات الجيش. وسيعرف الخاص والعام متى نشرت أنني آثرت توطين الأرمن في إقليم قونية وأنقرة وقسطموني على إرسالهم إلى العراق. ولما كنت لا أستطيع معارضة الحكومة في قرار وافق عليه مجلس المبعوثان. فضلاً عن ورود تعليمات صريحة إليّ بألاّ أقيم العقبات في طريق اجتياز مهاجري الأرمن لأضنة وحلب إلى العراق، رأيت نفسي مضطراً إلى الإذعان.

ولقد سمعت بين آن وآخر بحوادث اعتداء على أولئك المهجّرين في معمورة العزيز وديار بكر، ولكن الهجرة كانت بإشراف السلطات المدنية ولم تكن للجيش أي علاقة بها. ولم تقع اعتداءات في منطقة نفوذي كما في المناطق الأخرى تطبيقاً للأوامر المشددة التي أصدرتها بهذا الشأن. وإذ وصلت إليّ شكاوى عديدة بأن السلطات المدنية فيما بين بوزانتي وحلب أصبحت عاجزة عن إمداد المهاجرين بالمؤونة اللازمة، حتى إن كثيرين منهم بات في عسر شديد على متابعة باقي الطريق، سافرت تواً من حلب قاصداً بوزانتي لمعاينة الحالة بنفسي، وأمرت بأن يصرف للمهجّرين الخبز من مستودعات الجيش، وكلفت أطباء خط المواصلات تعهد مرضاهم.



جنرالات ألمان وأتراك يخططون للمجازر الأرمنية

وعموماً بذلت أقصى ما في استطاعتي لمساعدتهم مدة نفيهم، وهم بذلك يشهدون كما يشهد غيرهم من منصفي الأجانب. وأرى أن أكتفي الآن بالإشارة إلى ما وضع من الأوامر والمفاوضات التي سجلت في كتاب ليبسيوس الذي يتضمن شيئاً من التقارير الرسمية من وزارة خارجية ألمانيا بشأن المسألة الأرمنية، فإن كل البرقيات التي أرسلتها إلى استانبول أو إلى حكام الجهات أو إلى الولايات قد جمعت في سجلات الجيش الحربية، وسيعلم الجمهور متى اطّلع عليها الشيء الكثير عن أعمالي وكيف كانت كلها قائمة على الاعتبارات الإنسانية الخالصة.

ولما وصلت إلى السلطات المدنية - بعد نفي أرمن الأناضول - الأوامر بنفي جميع الأرمن من أضنة وحلب عارضت فيها معارضة شديدة، ولم أكتف بذلك بل كتبت تقريراً مفصلاً عن هذه المسألة وبعثت به إلى استانبول، وقد ذكرت فيه أنني لا أرى ضرورة ما لذلك العمل الذي لا بد أن يؤثر تأثيراً سيئاً في المركز الاقتصادي والمركز الزراعي خصوصاً في المنطقة التي يرابط فيها الجيش الرابع، ولكني وقد أُمرت بألاّ أتعرض لما لا يعنيني أو أدخل في شؤون السلطات المدنية بل أمدها بالمساعدة فقط، هل كنت أستطيع أن أحول دون تنفيذ هذه الأوامر أو أن أوقفها؟.

ولما كنت موقناً بأن نفي جميع مهاجري الأرمن إلى العراق سيذيقهم البؤس ألواناً رأيت أن أحوّل كثيرين منهم إلى ولايتي بيروت وحلب، فنجحت بعد الاحتجاجات الشديدة التي أرسلتها إلى استانبول في الحصول على الإذن بما طلبت، وبهذه الوسيلة استطعت أن أبقي في هاتين الولايتين زهاء ١٥٠٠٠٠ مهاجر.

وأقسم أنني لأمقت التحدث عن نفسي وأكره الإطناب في المساعدة التي قدمتها إلى أولئك الأيامى واليتامى، فإني أعد ذلك تشدقاً بالمناقب وتباهياً بالمزايا الأدبية لتلك الأعمال التي لم يدفعني إلى القيام بها إلا باعث الإنسانية المحضة، ولكني وأعداؤنا الأجانب لا يزالون يعتبرونني - بالرغم مما بذلته من المساعدة - المسؤول أدبياً عن تلك الحوادث، بل إن تلك الحكومة الهزلية التي أنشئت في استانبول منذ عقد الهدنة ذهبت إلى حد الحكم عليّ بالإعدام بتهمة المسؤولية الأدبية عن المذابح والنفي، أرى أن الواجب يقضي عليّ الدفاع عن نفسي بذكر بعض التفاصيل لحقيقة الواقع.

فالرأي العام يعلم علم اليقين أن لا علاقة لي مطلقاً بحوادث النفي أو المذابح الأرمنية، كما أنني لم تكن لي أي صلة بالمفاوضات السالف ذكرها الخاصة بنفي الأرمن، كذلك كنت بريئاً براءة الذئب من دم ابن يعقوب من إصدار أوامر الذبح، بل كثيراً ما حلت دون وقوعها وقدمت ما استطعت من المساعدة إلى المهاجرين وقت نفيهم.

ولربَّ سائلٍ يقول: لو كنت في استانبول وقتئذٍ واشتركت في المحادثات التي دارت وعلمت بما كان يجري خلف جيشنا في شرقي الأناضول أفلا كنت توافق على النفي؟

وهو سؤال لا أستطيع الإجابة عنه الآن، ولكن أعتقد أن زملائي عندما قرّ قرارهم على نفي الشعب الأرمني، وهو ما أثار عليهم سخط العالم المتمدن بأسره، لم يفعلوا ذلك إلا مدفوعين بعوامل قوية، ولا أرتاب في أنهم سيقنعون غلتنا ويزيلون ما علق ببعض النفوس من الريب والشكوك حين ينشرون للملأ صحيفة أعمالهم قريباً.



يوهان ليبسيوس

راهب ألماني رئيس الجمعية الألمانية الشرقية (الجمعية الألمانية الآسيوية)، قام بالاستطلاع والتحقق بنفسه بعد أن تجمعت لديه مجموعة معلومات متضاربة عن حصول مجازر منظمة بحق الشعب الأرمني نفذتها وحدات الفيالق التركية التابعة للجيش الرابع المنتشر في حلب وبلاد الشام والجيش السابع المنتشر في الأناضول والقوقاز مع المجموعات الكردية المسلحة والمجموعات المحمدية (الدراويش). وفي الوقت الذي تحاول فيه الحكومة الألمانية تبرير نكرانها وتجاهلها بالتخفيف من أهميتها ودافعة عن نفسها تهمة التواطؤ، كانت بعض الصحف الألمانية بتوجيه من الحكومة الألمانية تنشر ما تكتبه الصحف التركية من دون تعليق. والسفارتان في كل من جنيف وواشنطن تقومان بنفي الأنباء الواردة عن قيام الأتراك بأعمال غير إنسانية بحق الأرمن. وإزاء الحملة العالمية المنددة بالمجازر قدّم السفير الألماني في واشنطن تقريراً صادراً عن القنصل في طرابزون يسوّغ المجازر بسبب خيانة الأرمن ولجوء بعضهم إلى طلب المساعدة من الروس والغرب. في طريقه إلى استانبول مرّ يوهان ليبسيوس بسويسرا ورومانيا وبلغاريا وتمكّن هناك من الحصول على معلومات جديدة عن المجازر من مصادر أرمنية. وفي ١٥ تموز وصل إلى العاصمة استانبول. وطلب لقاء وزير الحربية أنور باشا الذي تمّ بعد لأي ورفض لطلبه. إنما الباشا رفض وقف عمليات النفي الجماعية أوحتى تقديم العون للجوعى والمرضى مصرّاً على مواصلة التنكيل بحق الشعب الأرمني. ما حتّم على ليبسيوس العودة الى ألمانيا واستنهاض الرأي العام الألماني صحافةً وأحزاباً. ورفعت الأوساط البروتستانتية عريضة إلى رئيس الوزراء والكاثوليك تبعوهم. في صيف ١٩١٦ تبلورت المعطيات والحقائق لدى ليبسيوس فقام بنشر تقرير سري حول المجازر ووزّع منه في ألمانيا ٢٠ ألف نسخة. وأعيد طبع التقرير وتوزيعه داخل ألمانيا وخارجها. وفيه شهادات وتقارير لسفراء وقناصل أوروبيين من حلب. أرضروم. طرابزون. واستانبول. كلها تدين حزب الاتحاد والترقي العنصرية.



أرمن صمدوا على الرغم من مخطط الإبادة المنظم. صمدوا رغم التهجير والشتات



رحلة النفي في موازاة قطار الشرق السريع

مهاجرون أرمن في شوارع حلب يساقون ارتالاً الى منطقة ما بين النهرين وفي الطريق أبيدت مئات الألوف على مرأى ومسمع وبتدبير مسبق واشراف من (قادة الاتحاد والترقي) وزير الداخلية طلعت باشا والحربية انور باشا ومنطقة انتشار قوات أحمد جمال باشا وتحريض ألماني عنصري.



مثقفون أرمن معلقين، أطباء شعراء، محامون، تجّار، كتّاب، أدباء



عائلات أرمنية هُجّرت من قراها إلى مصير مجهول



بعض العائلات الأرمنية الناجية من المذابح على يد عصابات الجيش العثماني الرابع. اشتد بها الجوع وفتكت بها الأمراض اثناء اقتلاعها من موطنها الاصلي في الاناضول وتهجيرها إلى الموصل مروراً بحلب وصحراء شمال سوريا والعراق في عهد واشراف حزب الاتحاد والترقي.

وإني أعتقد جازماً أن الأرمن كانوا قد دبروا ثورة من شأنها تعريض مؤخرة جيشنا في القوقاز لأشد الأخطار لو وقعت، بل ربما أدت في ظروف خاصة إلى إبادته على بكرة أبيه. ولذلك آثر زملائي نقل الشعب الأرمني أجمع إلى جهة أخرى لكي يؤمَن شرّه، على أن يعرّضوا المملكة العثمانية للمحن والخطوب الفادحة ويجلبوا عليها الطامة الكبرى. فيكون احتلال روسيا لآسيا الصغرى بأسرها أولى رزاياها.

أما ما وقع من الحوادث في خلال النفي فينبغي أن يعزى إلى الأحقاد التي تغلغلت في نفوس الأتراك والأكراد والأرمن في أثناء سبعين عاماً، وتبعةُ ذلك على السياسة الروسية التي حولت الشعوب الثلاثة التي عاشت القرون الطويلة معاً في صفاء وهناء إلى أعداء ألداء بعضهم لبعض.

حقاً أثارت الآثام التي ارتكبت خلال النفي في سنة ١٩١٥ ثائر السخط الشديد. ولكن ما ارتكبه الأرمن في غضون ثورتهم على الأتراك والأكراد لا يقل عنها قسوة بل يفوقها فظاعة وغدراً. على أنه مهما يكن الباعث على ارتكاب تلك الجرائم فقد كان ينبغي الحيلولة دونها بكل وسيلة. لذلك رأت الحكومة أن النفي العام هو الوسيلة الفعالة المعجلة لصون الأهالي الأتراك والأكراد والجيش، بل لحفظ كيان الولايات العثمانية السياسي، ولكنها من جهة أخرى مهدت بهذه الوسيلة للأتراك والأكراد طريق الآثام والإجرام.

ألم يكن في الإمكان تسوية المسألة بطريقة أخرى؟ ألم يكن في الاستطاعة حماية المنفيين من أن يعتدي عليهم معتدٍ في الطريق؟ إننا لا يمكننا أن نبتّ في هذه الأمور إلا بعد معرفة ما استند إليه أولئك الذين دبروا أمر النفي والذين نفذوه.

وعلى كل حال إني أستطيع أن أقيم واضح الدليل على أن المنطقة التي كان جيشي مرابطاً فيها لم يرتكب فيها شيء من هذه الجرائم، ولم يقع فيها سوى بضع حوادث شاذة معدودة.

أما من حيث الأثر الذي أحدثته حوادث الاعتداء فلم يكن لعمري منظر فرار الأتراك من ديار بكر عن طريق حلب وأضنة إلى قونية ومن أرضروم وأذربيجان إلى سيواس من وجوه الروس والفظائع والآثام التي ارتكبها الأرمن ضدهم بأقل سوءاً ووحشية منه، ولكن أولئك التعساء المنكودي الحظ لم يكونوا إلا مسلمين، ولم يكُ ثمة مبشر ألماني أو أميركي يشهد مصرعهم فيرسل إلى بلاده التقارير الضافية بالآلام التي تكبدوها والأهوال التي قاسوها والغصص التي تجرعوها!!.

فلنفرض جدلاً أن الحكومة العثمانية نفت مليوناً ونصف مليون من الأرمن من ولايات الأناضول الشرقية، وأن نحو ٦٠٠٠٠٠ منهم قد مات أو قتل في الطريق أو سقط ضحية الجوع والتعب. فهل يدري أحد كم قتل من الأكراد والأتراك في ولايات طرابزون وأرضروم ووان وبتليس بطريقة تقشعر منها الأبدان بأيدي الأرمن حين زحف الجيش الروسي على تلك الولايات؟

إني لأقر هنا بأن عدد الأكراد والأتراك الذين قتلوا ليربو كثيراً على مليون ونصف مليون، فإن جاز أن يكون الأتراك مسؤولين عن المذابح الأرمنية فلماذا لا يكون الأرمن مسؤولين عن المذابح التركية؟ ألأنّ الأتراك والأكراد ليسوا في نظر الإنسانية أو في نظر ماندلستام ومورغنتو وأضرابهما أكبر قيمة من الذباب؟.

* * *

والآن أيها القراء المنصفون، ماذا عساكم أنتم قائلون في إنسانية الأرمن؟.

كلا! كلا! إني أناشدكم الله ألا تجوروا في الحكم على هذين الشعبين.

فلم يكن الذنب ذنبهم بل ذنب السياسة الروسية التي حرضتهم بعضهم على بعض. فالسياسة الروسية كان أقصى غايتها ذبح التركي، حتى إذا قضت على ذلك المجد الوطني القديم الذي ينيف على ألف عام سلبته تراثه.

تلك السياسة التي طالما اشتهت السباحة في بحار الدم وتحريض الأرمن على الأتراك. فماذا كانت نتيجة ذلك كله سوى أن الأتراك قد رسخت في أفئدتهم هذه العقيدة، وهي: «يلزم ذبح الأرمن على بكرة أبيهم لنأمن على حياتنا». فيما قال هؤلاء لأنفسهم: «للتخلص مما نحن فيه ينبغي أن نخنق الأتراك كلهم أجمعين حتى تعود إلينا الأغلبية». وهو الذي مهد الطريق للحوادث المفجعة التي عرفناها، والتي ذهب ضحيتها ٦٠٠٠٠٠ أرمني و١٥٠٠٠٠٠ تركي وكردي. والآن أقول إن السياسة الروسية وأذنابها البلهاء أمثال مورغنتو ومن على شاكلته هي التي تحاول بلا خجل وبلا حياء إلقاء اللوم كله على عاتق الأتراك بما تملأ به صحف العالم من الضغائن والأحقاد. وتودّ لو أتيح لها القضاء على ذلك الشعب المجيد.

إن ماندلستام يؤكد أن الأرمن فيما عدا ولاية وان لم يحاولوا بتاتاً الشروع في الثورة! ولقد قلت آنفاً إنني لا علم لي بما وقع من الحوادث في ولايات الأناضول الشرقية ولا في مؤخرة جيشنا في القوقاز. ولكني من جهة أخرى كنت على علم تام بمجريات الأمور في المنطقة التي كانت بقيادتي.

فالحوادث التي وقعت في منتصف سنة ١٩١٥ في جهتي الزيتون وأورفة لم تكن سوى عصيان أرمني مسلح. ولم تكن القلاقل التي حدثت في جهة موسى بابا إلا جزءاً من تلك الثورة المنظمة. وعندي أن الأمور التي لا تقبل جدلاً هي أنه في الوقت الذي بلغت حملة الدردنيل منتهى الشدة نزع الأرمن إلى الثورة بناءً على أوامر القائدين العامين الإنكليزي والفرنسي في شرقي البحر المتوسط. ولا ريب في أنهما حسبا أن الثورة الأرمنية إذا بدأت من رأس الخنزير في خليج الإسكندرونة وانتشرت إلى دورت يول ومن ثمّ إلى موسى بابا، حلب، عينتاب، أورفة، وزيتون فلا بد أن تفضي حتماً إلى سلخ سوريا عن آسيا الصغرى! وفضلاً عن ذلك إن الأرمن الذين أعدوا العدة للثورة في تلك الجهات قبل ذلك الوقت بزمن طويل لم يُقعدهم عن تنفيذ خططهم إلا انتظار وصول التعليمات إليهم بالشروع في التمرد.

فهل في استطاعة السلطات المسؤولة في الحكومتين المذكورتين الادعاء بأن أقوالي هذه لا أساس لها؟ وإنني أرى بعدما وضعت الحرب أوزارها أن من الشجاعة أن توضع الحقائق الخاصة بهذا الموضوع كما هي أمام الملأ. وإذا كان ماندلستام لا يزال مصرّاً على رأيه بأن الحوادث لم تكن قط محاولة للشروع في الثورة بل كانت مجرد مقاومة والتجاء إلى السلاح للدفاع المسوغ عن النفس. فلا مندوحة لي من أن أؤكد له أن حلفاءه الضباط الإنكليز والفرنسيين الذين دبروا تلك الثورة سيحسبون كلامه هذا مجرد لغو وهذيان! ذلك هو رأيي واعتقادي في المذابح الأرمنية. على أن الحرب إذا كانت انتهت بفقد السلطنة العثمانية لسوريا والعراق وشبه جزيرة العرب، وهي أثمن درر التاج العثماني. فإن تركيا تعاود الجهاد من جديد للحيلولة دون ضياع الأناضول. تلك الأراضي المقدسة التي أصبحت كل ما تبقى للشعب التركي. فإن كان ثمة تعزية لتركيا البائسة على ما ضحّته في الحرب العالمية من الضحايا التي تزيد على ثلاثة ملايين. فهذه التعزية هي أن القيصرية عدوتنا التاريخية قد تلاشت من الوجود وانمحى أثرها.

وعلى أثر ما وقع في القوقاز نشهد اليوم بين الدول التي أنشئت حديثاً تكوين جمهورية أرمنية. ولكنّا واثقين من جهة أخرى بأن الأرمن الأتراك، وعلى رأسهم زافن أفندي بطريرك استانبول. لن يقفوا عند حد إثارة خواطر الأتراك الذين لا يعارضون بحال ما في إنشاء جمهورية أرمنية مع اتخاذ أتشميازين ويريفان قاعدتين لها. شرط بقاء الجمهورية المذكورة في صفاء تام مع جمهوريتي أذربيجان والكرج (جورجيا) اللتين تكوّنتا من العناصر الوطنية المختلفة في جنوبي القوقاز. وكذلك مع المملكة العثمانية بصفتها المالك الوحيد لآسيا الصغرى الذي لا جدال في ملكيته وعدم التطلع بعين الطمع إلى ما هو ملك ثابت لتلك المملكة. وفوق كل شيء إني أنصح للأرمن الأتراك إذا أرادوا العيش في سلام وهناء. وعلى الأخص لمصلحة الأتراك. أن يعدلوا نهائياً عن تلك الأماني المستحيلة التي لطالما عللوا نفوسهم بها. وهي أن تصبح ولايات أرضروم وبتليس ووان وديار بكر ومعمورة العزيز يوماً ما جزءاً من أرمينيا.

ففي اليوم الذي يقوم فيه الدليل على أن الأرمن عدلوا فعلاً عن تلك الأماني المستحيلة يستطيعون العيش في صفاء ووئام مع مواطنيهم الأتراك والأكراد. ولعمري إن الطريق دائماً مفتوحة لمن يريد منهم التجنس بالجنسية الأرمنية فقط شرط أن يبقى في الجمهورية الأرمنية في القوقاز. أما الذين يؤثرون منهم التوطن في تركيا فعليهم أن يبرهنوا قبل كل شيء على أنهم عثمانيون صادقون وأن يحجموا عن القيام بالمساعي التي قد تثير الشكوك في ولائهم. ولا معنى كذلك من الآن فصاعداً لوجود جمعية الطشناق أو جمعية الهنشاق أو الجمعيات الأخرى بين أرمن تركيا، لأن وجود مثل تلك التشكيلات في نظري مضرّ بالأرمن القوقاز.

والآن أرى أن واجب جمهوريات القوقاز الثلاث [أرمينيا، الكرج (جورجيا)، أذربيجان] والمملكة العثمانية، كذلك هو أن تعاون كل منها الأخرى وأن يوجه الجميع اهتمامهم إلى تعمير الأراضي المخربة وإعادة تنظيم الإدارة وتوطيدها. وثمّ واجب آخر أمام تلك الدول الأربع ألا وهو اتخاذ كل الوسائل اللازمة لمنع السيل الروسي من غمر جبال القوقاز وهو ما يمكن صده إذا عقدت هؤلاء الولايات بينها تحالفاً دفاعياً. وإن زافن أفندي بطريرك الأرمن يعلم أكثر من أي شخص آخر مقدار ما أكنّه في صدري من شعور الصداقة حيال الأرمن.

وبهذه المناسبة أذكر أن زافن أفندي جاء إلى زيارتي في فندق سراي بيرا عند عودتي إلى استانبول في ديسمبر/كانون الأول ١٩١٥ وسلمني مذكرة من البطريركية شكرني فيها باسم الأمة الأرمينية بأسرها.

وإني وقد نُمي إليّ أنه سمح لنفسه بأن يستعمل كآلة في الدسائس التي يدسها البطريرك اليوناني في استانبول، أناشده بصفتي صديقاً للأرمن أن يمعن النظر في النصيحة التي ذكرتها هنا، فقد تمنعه دراسته للمزايا التي تعود على الأرمن من تنفيذ اقتراحاتي هذه من أن يصبح ألعوبة في أيدي ذلك البطريرك.

فإذا لم نعقد - كما قلت آنفاً - نحن أمم الشرق الأدنى الأربع محالفة دفاعية رسمية ضد روسيا، وإذا لم نتعاون في إنشاء جمهورية في شمال القوقاز وضمّها إلى تحالفنا فلا ريب في أننا سنقع تحت نير روسيا التي ما فتئت منذ سنين تمني نفسها بوضعنا تحت سلطانها. وما يدرينا، لعل اليوم الذي يفلت فيه العرب والفرس التاعسين الذين وقعوا تحت سلطان الإنكليز والفرنسيين من قبضة حكامهم الحاضرين وينضمون إلى تحالفنا يكون قريباً.

إن أمم الشرق الأدنى لا يمكنها أن تعيش حرة إلا إذا أصبحت مطلقة التصرف في مصيرها. وإني لعلى يقين من أن هذه الأمنية السياسية التي أبسطها أمام ساسة تركيا وأرمينيا وجورجيا وأذربيجان متى تحققت تحول في أقل من عشرين عاماً الشرق الأدنى - الذي يعتبر حتى الآن في مهد الدسائس والقلاقل - إلى فردوس من الفراديس، وصار في مركز يصبح معه مستقلاً تماماً عن الأجنبي. وعندي أن هذه الأمنية لعظيمة الأهمية للأتراك الذين هم الأغلبية في المملكة العثمانية، فإذا أرادت الأقلية الأرمنية أن تظل عثمانية فكل ما عليها هو إقامة الدليل على أنها - مثل أرمن قبل ٧٠ عاماً - ليست مدفوعة إلا بشعور الولاء والأماني العثمانية الصحيحة. هذه هي في اعتقادي الطريقة المثلى الوحيدة التي يمكن اقتراحها لدفن الماضي الملوث بالدماء ولإحياء مستقبل باهر سعيد. وإني ومواطني لعلى استعداد للمناقشة مع من يشير بتسوية أنجع من هذه.

هوامش الفصل الثالث:

(١) سبقت الإشارة إليهم في الفصل الأول للقسم الأول (الهامش ١٥).

(٢) لم تعمر وزارته طويلاً ١٩١١-١٩١٢.

(٣) يصادف الآن مرور ١٦٢٠ سنة على اختراع الأبجدية الأرمنية على يد ميسروب ماشطوطش المضطلع بالفارسية والآشورية والعربية والتي أنجزها بتكليف. وفي ٤٠٥ وصلت إلى البلاد.

(٤) نظام لبنان أو بروتوكول (نظام) المتصرفية الخاص بجبل لبنان: أثمرت الجهود الدولية لوضع حل للمشكلة اللبنانية بما عرف بنظام المتصرفية.

الخطوط العريضة (باختصار، يتألف من ١٧ مادة وملحقاً) لهذا النظام:

-١ يحكم جبل لبنان متصرف مسيحي يعينه السلطان بعد موافقة الدول الغربية.

-٢ يكون هذا الحاكم برتبة مشير وتكون مدة ولايته ثلاث سنوات.

-٣ يسكن في دير القمر.

-٤ يكون هذا المتصرف مستقلاً استقلالاً تاماً عن والي صيدا، ويرتبط مباشرة بالباب العالي

-٥ تلحق زحلة بالجبل .

-٦ توضع تحت تصرف هذا المتصرف قوات تركية تبقى خارج الجبل في مكان يحدده المتصرف ولا تتدخل إلا بناء على طلبه.

-٧ توضع الضمانات الكفيلة لتأمين مالية الجبل.

وكانت هذه الوثيقة، بعد نظام شكيب آفندي، اول النصوص الدستورية في لبنان تنظم الشؤون العامة للجبل. وفيها اعتراف صريح وواضح للدول الغربية المذكورة (إنكلترا، فرنسا، روسيا، بروسيا، إيطاليا، النمسا) بحق التدخل في شؤون السلطنة العثمانية الداخلية. وهكذا فهي شهادة على انتقاص السيادة العثمانية في جزء من أجزاء السلطنة. وهي من جهة مقابلة، تقوي وقار القناصل الأوروبيين ودورهم في بيروت. ألغيت هذه الامتيازات في ١٩١٤/٩/٩ بعد إعلان تركيا دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا.

(٥) الفرمان لعام ١٨٧٠: هو جزء من الإصلاحات التنظيمية الإدارية للولايات العثمانية وتطبيق القوانين العصرية الملائمة للمتغيرات وفيها طابع انساني حضاري بدءاً منذ عهد السلطان محمود الثاني وابنه عبد المجيد، وكل ذلك بفضل الوزراء رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا استكملت في عهد السلطان عبد العزيز والصدر الاعظم مدحت باشا في ما بعد. هذا الفرمان لم يك بفائدته وقفاً على منطقة واحدة بل شمل كل الأقضية والسناجق والولايات العثمانية.

الملاحق

١- سلاطين بني عثمان

٢- الصدور العظام

٣- ولاة دمشق

٤- متصرفو جبل لبنان

٥- متصرفو سنجق بيروت

٦- التقسيمات الإدارية في ولاية سوريا حتى سنة ١٨٨٥

٧- ولاة صيدا

٨- ولاة طرابلس

الملحق (١)

السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم

١- عثمان ١ بن أرطغرل	١٢٨١ـــ ١٣٢٤
٢- أورخان بن عثمان	١٣٢٤ـــ١٣٦٠
٣- مراد ١ بن أورخان	١٣٦٠-١٣٨٩
٤- بايزيد (يلدرم) الصاعقة بن مراد	١٣٨٩-١٤٠٢
٥- محمد ١ بن يزيد (٣ فترات)	١٤٠٣-١٤١٣-١٤٢١
٦- مراد ٢ بن محمد (٤ فترات)	١٤٢١-١٤٤٤-١٤٤٦-١٤٥١
٧- محمد ٢ الفاتح بن مراد (٣ فترات)	١٤٤٦-١٤٥١-١٤٨١
٨- بايزيد ٢ بن محمد	١٤٨١-١٥١٢
٩- سليم ١ بن بايزيد	١٥١٢-١٥٢٠
١٠- سليمان ١ بن سليم	١٥٢٠-١٥٦٦
١١- سليم ٢ بن سليمان	١٥٦٦-١٥٧٤
١٢- مراد ٣ بن سليم	١٥٧٤ ١٥٩٥
١٣- محمد ٣ بن مراد	١٥٩٥-١٦٠٣
١٤- أحمد ١ بن محمد	١٦٠٣-١٦١٧
١٥- مصطفى ١ بن محمد (مرتين)	١٦١٧-١٦١٨
١٦- عثمان ٢ بن أحمد١	١٦١٨-١٦٢٢
١٧- مراد ٤ بن أحمد ١	١٦٢٣-١٦٤٠
١٨- إبراهيم بن أحمد ١	١٦٤٠-١٦٤٨
١٩- محمد ٤ بن إبراهيم	١٦٤٨-١٦٨٧
٢٠- سليمان ٢ بن إبراهيم	١٦٨٧-١٦٩١
٢١- أحمد ٢ بن إبراهيم	١٦٩١-١٦٩٥
٢٢- مصطفى ٢ بن محمد ٤	١٦٩٥-١٧٠٣
٢٣- أحمد ٣ بن محمد ٤	١٧٠٣-١٧٣٠
٢٤- محمود ١ بن مصطفى	١٧٣٠-١٧٥٤
٢٥- عثمان ٣ بن مصطفى	١٧٥٤-١٧٥٧
٢٦- مصطفى ٣ بن أحمد	١٧٥٧-١٧٧٤

٢٧- عبد الحميد ١ بن أحمد ٣	١٧٨٩-١٧٧٤
٢٨- سليم ٣ بن مصطفى ٣	١٨٠٧-١٧٨٩
٢٩- مصطفى ٤ بن عبد الحميد١	١٨٠٨-١٨٠٧
٣٠- محمود ٢ بن عبد الحميد ١	١٨٣٩-١٨٠٨
٣١- عبد المجيد ١ بن محمود ٢	١٨٦١-١٨٣٩
٣٢- عبد العزيز بن محمود ٢	١٨٧٦-١٨٦١
٣٣- مراد ٥ بن عبد المجيد ١	١٨٧٦-عزل

(مذكرات أحمد جمال باشا تبدأ من حقبة السلطان عبد الحميد الثاني)

٣٤- عبد الحميد ٢ بن عبد المجيد١	١٩٠٩-١٨٧٦
٣٥- محمد ٥ رشاد بن عبدالمجيد ١	١٩١٨-١٩٠٩
٣٦- محمد ٦ وحيد الدين بن عبد المجيد ١	١٩٢٢-١٩١٨
٣٧- عبد المجيد ٢ بن عبد العزيز	١٩٢٤-١٩٢٢ الأخير

الملحق (٢)

الصدور العظام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

١- محمود نديم باشا	(ثاني مرة)	١٨٧٥-١٨٧٦
٢- مترجم محمد رشدي باشا	(رابع مرة)	١٨٧٦
٣- مدحت باشا	(ثاني مرة)	١٨٧٦-١٨٧٧
٤- أدهم باشا		١٨٧٧-١٨٧٨
٥- أحمد حمدي باشا		١٨٧٨
٦- أحمد وفيق باشا		١٨٧٨
٧- صادق باشا		١٨٧٨
٨- مترجم محمد رشدي باشا	(خامس مرة)	١٨٧٨
٩- صفوت باشا		١٨٧٨
١٠- خير الدين التونسي		١٨٧٨-١٨٧٩
١١- عارف باشا		١٨٧٩
١٢- سعيد باشا	(أول مرة)	١٨٧٩-١٨٨٠
١٣- قدري باشا		١٨٨٠
١٤- سعيد باشا	(ثاني مرة)	١٨٨٠-١٨٨٢
١٥- عبد الرحمن باشا		١٨٨٢
١٦- سعيد باشا	(ثالث مرة)	١٨٨٢
١٧- أحمد وفيق باشا	(ثاني مرة)	١٨٨٢
١٨- سعيد باشا	(رابع مرة)	١٨٨٢-١٨٨٥
١٩- كامل باشا	(أول مرة)	١٨٨٥-١٨٩١
٢٠- جواد باشا		١٨٩١-١٨٩٥
٢١- سعيد باشا	(خامس مرة)	١٨٩٥
٢٢- كامل باشا	(ثاني مرة)	١٨٩٥
٢٣- خليل رفعت باشا		١٨٩٥-١٩٠١
٢٤- سعيد باشا	(سادس مرة)	١٩٠١-١٩٠٣
٢٥- فريد باشا		١٩٠٣-١٩٠٨
٢٦- سعيد باشا	(سابع مرة)	١٩٠٨

٢٧- كامل باشا	(ثالث مرة)	١٩٠٨- ١٩٠٩
٢٨- حسين حلمي باشا	(أول مرة)	١٩٠٩
٢٩- توفيق باشا	(أول مرة)	١٩٠٩
٣٠- حسين حلمي باشا	(ثاني مرة)	١٩٠٩-١٩١٠
٣١- إبراهيم حقي باشا		١٩١٠-١٩١١
٣٢- سعيد باشا	(ثامن مرة)	١٩١١-١٩١٢
٣٣- أحمد مختار باشا		١٩١٢
٣٤- كامل باشا	(رابع مرة)	١٩١٢-١٩١٣

عهد حزب الاتحاد والترقي

٣٥- محمود شوكت باشا	١٩١٣
٣٦- الأمير سعيد حليم باشا	١٩١٣-١٩١٧
٣٧- طلعت باشا	١٩١٧-١٩١٨

مرحلة انتقالية ما بعد الاتحاد والترقي

٣٨- أحمد عزت باشا		١٩١٨
٣٩- أحمد توفيق باشا	(ثاني مرة)	١٩١٩
٤٠- فريد باشا (داماد)	(أول مرة)	١٩١٩
٤١- علي رضا باشا		١٩١٩-١٩٢٠
٤٢- خلوصي صالح باشا		١٩٢٠
٤٣- فريد باشا (داماد)	(ثاني مرة)	١٩٢٠
٤٤- توفيق باشا	(ثالث مرة)	١٩٢٠-١٩٢٢

بداية الجمهورية التركية

الملحق (٣)

ولاة دمشق العثمانيين في عهدالسلطان عبد الحميد الثاني

١- أحمد حمدي باشا	١٨٧٥ -١٨٧٦
٢- أحمد باشا	١٨٧٦-١٨٧٨
٣- كجك عمر فوزي باشا	١٨٧٨
٤- علي حيدر مدحت باشا	١٨٧٨-١٨٧٩
٥- حمدي باشا	١٨٨٠-١٨٨٥
٦- شريف محمد رؤوف باشا	١٨٩٣-١٨٩٤
٧- حاجي عثمان نوري باشا	١٨٩٤-١٨٩٥
٨- حسن باشا	١٨٩٦-١٨٩٧
٩- ناظم باشا	١٨٩٧-١٩٠٦
١٠- شكري باشا	١٩٠٦-١٩٠٩
١١- إسماعيل فاضل بك	١٩٠٩-١٩١١
١٢- إسماعيل غالب بك	١٩١١-١٩١٢

عهد الاتحاد والترقي

١٣- ناظم باشا	١٩١٢-١٩١٣
١٤- عارف بك	١٩١٣-١٩١٥
١٥- عزمي بك	١٩١٥-١٩١٦
١٦- تحسين بك	١٩١٦-١٩١٨

الملحق (٤)

متصرفو جبل لبنان في عهدالسلطان عبد الحميد الثاني

١- داود باشا	١٨٦١-١٨٦٨
٢- فرنكو باشا	١٨٦٨-١٨٧٣
٣- رستم باشا	١٨٧٣-١٨٨٣
٤- واصا باشا	١٨٨٣-١٨٩٢
٥- نعوم باشا	١٨٩٢-١٩٠٢
٦- مظفر باشا	١٩٠٢-١٩٠٧
٧- يوسف باشا	١٩٠٧-١٩١٢

عهد الاتحاد والترقي

٦- أوهانس باشا	١٩١٢-١٩١٥
٧- علي منيف بك	١٩١٥-١٩١٦
٨- إسماعيل حقي بك	١٩١٦-١٩١٨
١٠- ممتاز بك	١٩١٨

الملحق (٥)

متصرفو سنجق بيروت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

المتصرف:

١- قبرصلي كامل باشا ١٨٧٦

٢- رئيف أفندي ١٨٧٧

٣- نسيب أحمد باشا ١٨٧٨

٤- إبراهيم حقي باشا ١٨٨١

٥- عبد الرحمن باشا ١٨٨٥

الوالي:

١- حسين رضا أفندي ١٨٨٧

٢- علي باشا ١٨٨٨

٣- حسين فوزي باشا ١٨٨٨

٤- أحمد عزيز باشا ١٨٨٩

٥- أحمد نوري باشا ١٨٩٠

٦- إسماعيل كمال باشا ١٨٩١

٧- خالد بك ١٨٩٢

٨- نصوحي بك ١٨٩٤

٩- ناظم حسين باشا ١٨٩٦

١٠- رشيد بك ١٨٩٧

١١- رضا بك ١٨٩٨

١٢- خليل بك ١٨٩٩

١٣- أدهم آفندي ١٩٠١

١٤- خليل باشا ١٩٠١

١٥- ناظم باشا ١٩٠٨

١٦- نور الدين بك ١٩٠٩

١٧- أدهم بك ١٩١١

١٨- أبو بكر حازم بك ١٩١٢

عهد الاتحاد والترقي

١٩- بكر سامي بك ١٩١٣

٢٠- عزمي بك ١٩١٥

٢١- إسماعيل حقي بك ١٩١٧

الملحق (٦)

التقسيمات الإدارية في ولاية سوريا حتى سنة ١٨٨٥

لواء الشام
قضاء بعلبك
قضاء البقاع
قضاء وادي العجم
قضاء حاصبيا
قضاء راشيا
قضاء دوما
قضاء نبك

لواء عكا
قضاء عكا
قضاء حيفا
قضاء صفد
قضاء ناصرة
قضاء طبريا

لواء بيروت
قضاء بيروت
قضاء صيدا
قضاء صور
قضاء مرجعيون

لواء حماه
قضاء حماه
قضاء حمص
قضاء حميدية
قضاء سلمية

لواء طرابلس
قضاء طرابلس
قضاء عكار
قضاء صافيتا
قضاء حصن
قضاء السلط

لواء البلقاء
قضاء البلقاء
قضاء جنين
قضاء بني صعب
قضاء جماعين

لواء اللاذقية
قضاء اللاذقية
قضاء جبلة
قضاء صهيون
قضاء مرقب

لواء حوران
قضاء حوران
قضاء عجلون
قضاء جبل الدروز
قضاء قنيطرة
قضاء درعا
قضاء بصرى الحرير

الملحق (٧)

ولاة صيدا حتى سنة ١٩١٥

والي صيدا بعد ١٨٨٥ صار يسمى قائمقام:

حسن فهمي باشا	١٨٨٥
عبد الغني أفندي	١٨٨٦
مصطفى حكمت أفندي القنواتي	١٨٨٦
إبراهيم جوهري بك (بالوكالة)	١٨٨٨
إحسان بك (مرة ثالثة)	١٨٨٨
محمود بك	١٨٩٢
أحمد بك شكري (مرة ثانية)	١٨٩٣
بكر سامي أفندي (بالوكالة	١٨٩٥
يحيى أفندي (بالوكالة)	١٨٩٥
إبراهيم جوهري بك (بالوكالة)	١٨٩٦
رضا صلح بك	١٨٩٦
عبد القادر الدنا أفندي (بالوكالة)	١٨٩٧
أحمد جميل أفندي (بالوكالة)	١٨٩٨
عبد اللطيف أفندي	١٨٩٨
إبراهيم بك (بالوكالة)	١٩٠١
محمود ماهر بك	١٩٠١
كامل بك	
عبد الحليم أفندي	
سعد الدين أفندي رمضان (بالوكالة)	
محمد جمال بك	
سعيد بك	
محمد جمال بك	

الملحق (٨)

ولاة طرابلس حتى سنة ١٩١٥

شاكر بك	١٨٧٧
شفيق بك	١٨٧٨
أدهم باشا	١٨٧٨
إبراهيم باشا	١٨٧٩
ضيا باشا	١٨٧٩
محمد باشا	١٨٧٩
عارف بك	١٨٨٣
إبراهيم حقي باشا	١٨٨٧
محمد أفندي	١٨٨٨
خالص باشا	١٨٨٩
حسن بك	١٨٩١
ذهني بك	١٨٩٣
نسيب بك	١٨٩٤
ضيا باشا	١٨٩٤
بدري باشا	١٨٩٥
عزت باشا	١٨٩٨
جلال باشا	١٨٩٨
عبد الغني باشا	١٨٩٨
حسني باشا	١٨٩٩
عبد القادر باشا	١٩٠٠
عزيز بك	١٩٠٧
عزمي بك	١٩٠٩-١٩١٥

١- (ص ٣٠٨-٣١٧ من كتاب «تاريخ لبنان الحديث»، القسم الأول، للدكتورين عادل ومنير إسماعيل، طبعة ١٩٩٠)
٢- (من كتاب «تاريخ صيدا» للشيخ أحمد عارف الزين)





اشتُهر جمال باشا بهذا الاسم
بينما هو في الهوية أحمد جمال
باشا. وهو الاسم المستخدم في



أحمد جمال باشا وزوجته



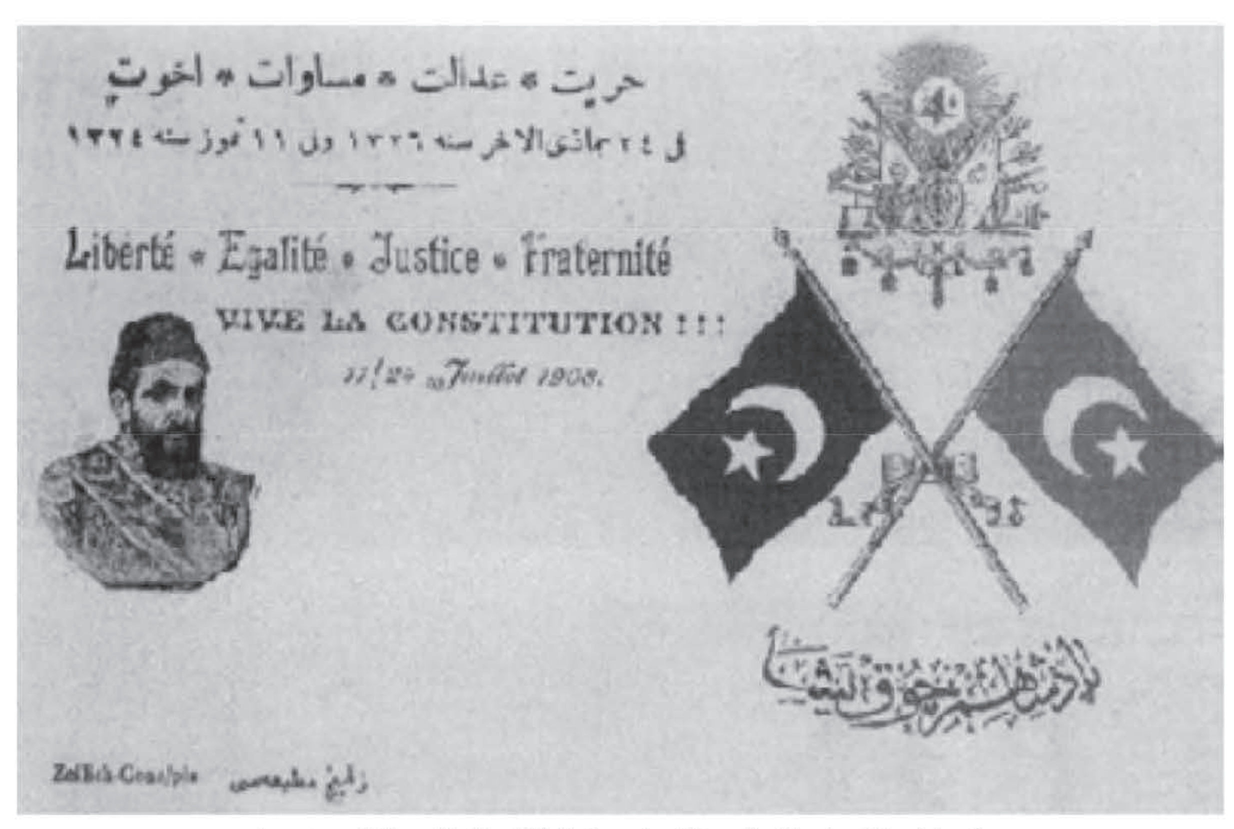
على ضفة البحر الميت



أحمد جمال باشا وعائلته مع المربيات والخادمات
بيروت ١٩١٥



مع سيدة أميركية

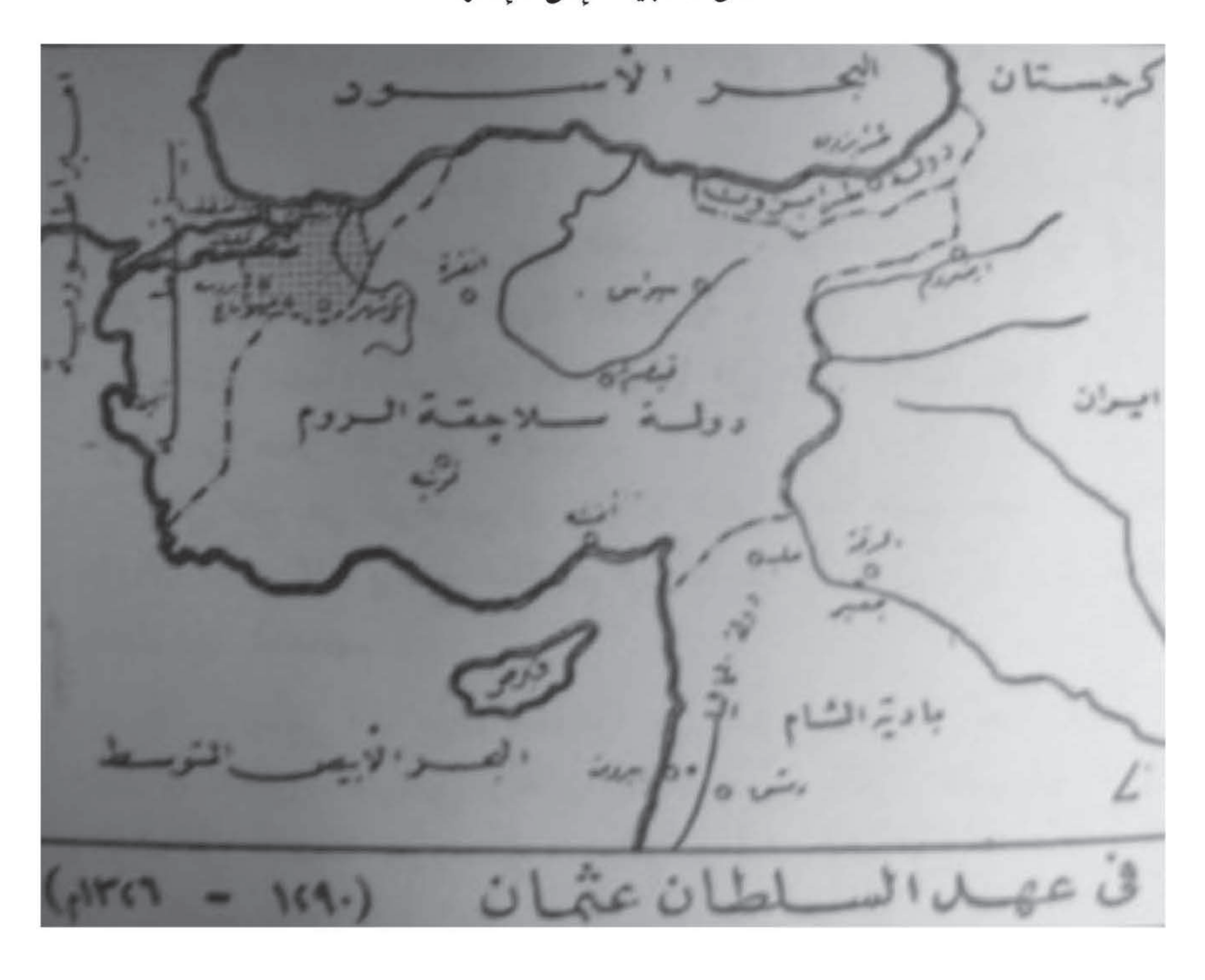


شعارات الاتحاد والترقي «للمشروطية الثانية» الحياة الدستورية

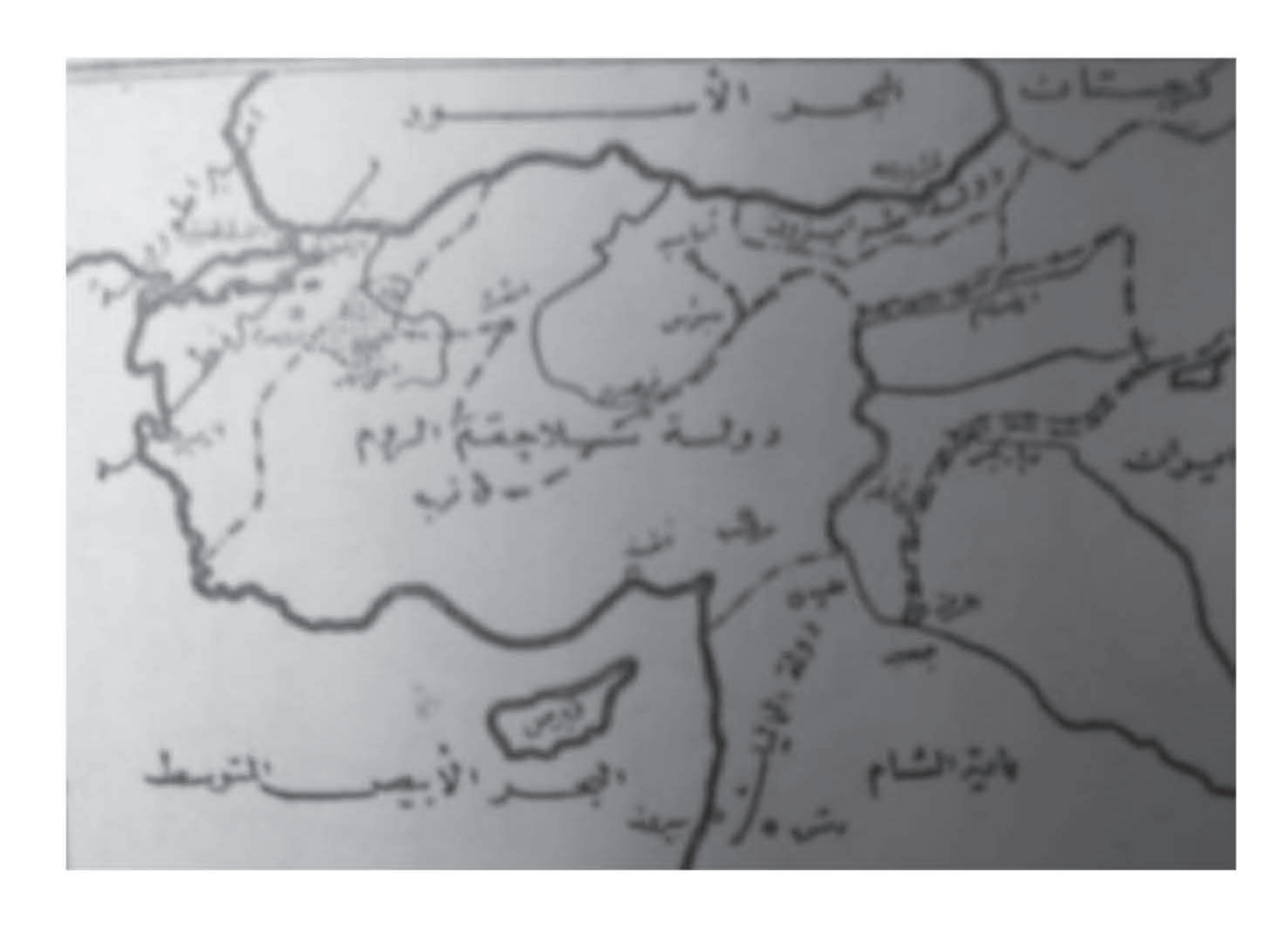
Devrim sürecinde kadınlar için hazırlanan bir afiş

شعارات الثورة

بدايات تأسيس الدولة العثمانية
من القبيلة إلى الإمارة



من الإمارة إلى الدولة



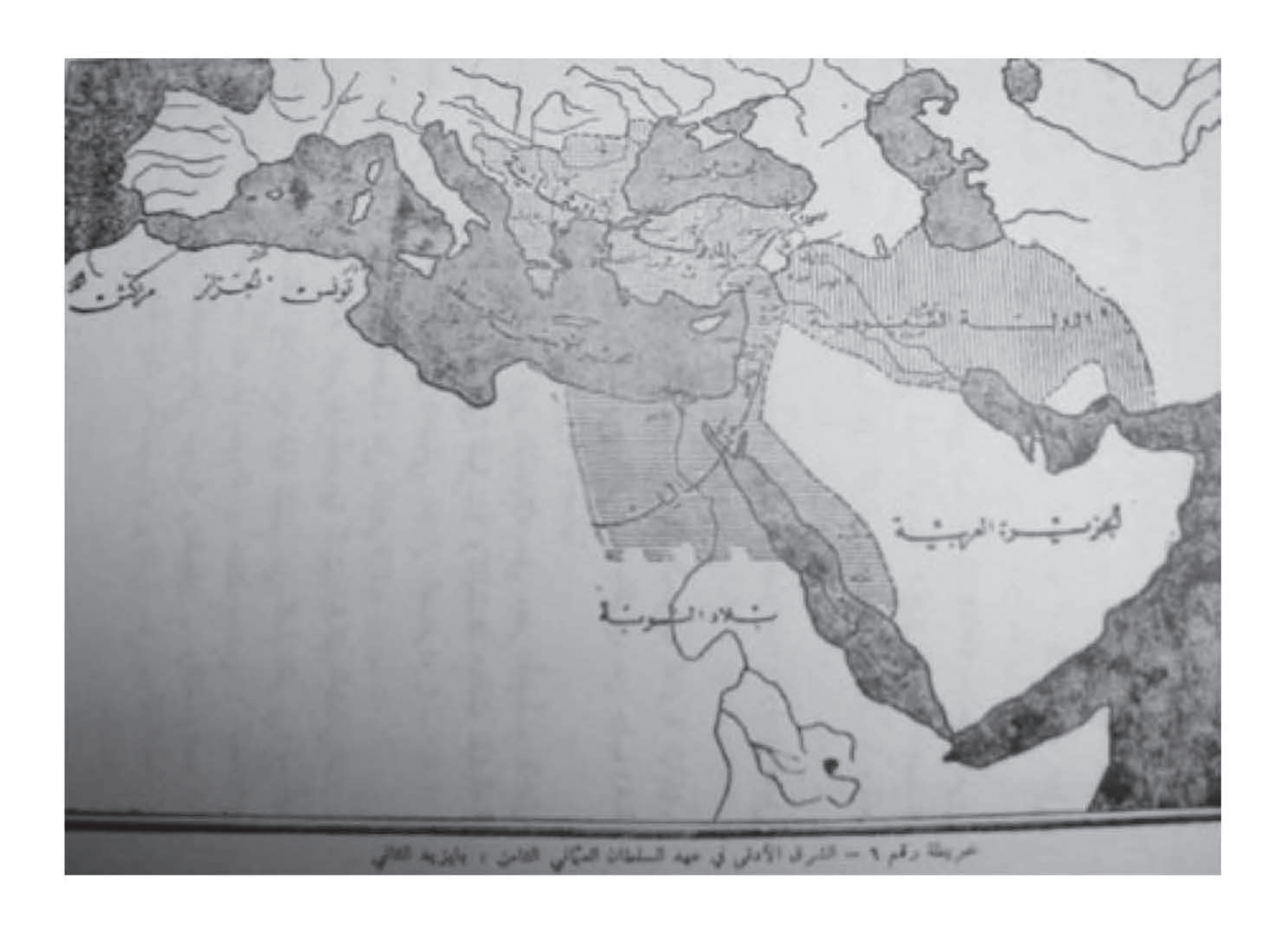
الإطلالة على أوروبا



غزو أوروبا


البحر الأسود
الروميلي
الأناضول
البحر الأبيض المتوسط
في عهد السلطان محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١م)

بدايات السلطنة



خريطة رقم ٦ – الشرق الأدنى في عهد السلطان العثماني الثامن : بايزيد الثاني

خريطة السلطنة العثمانية

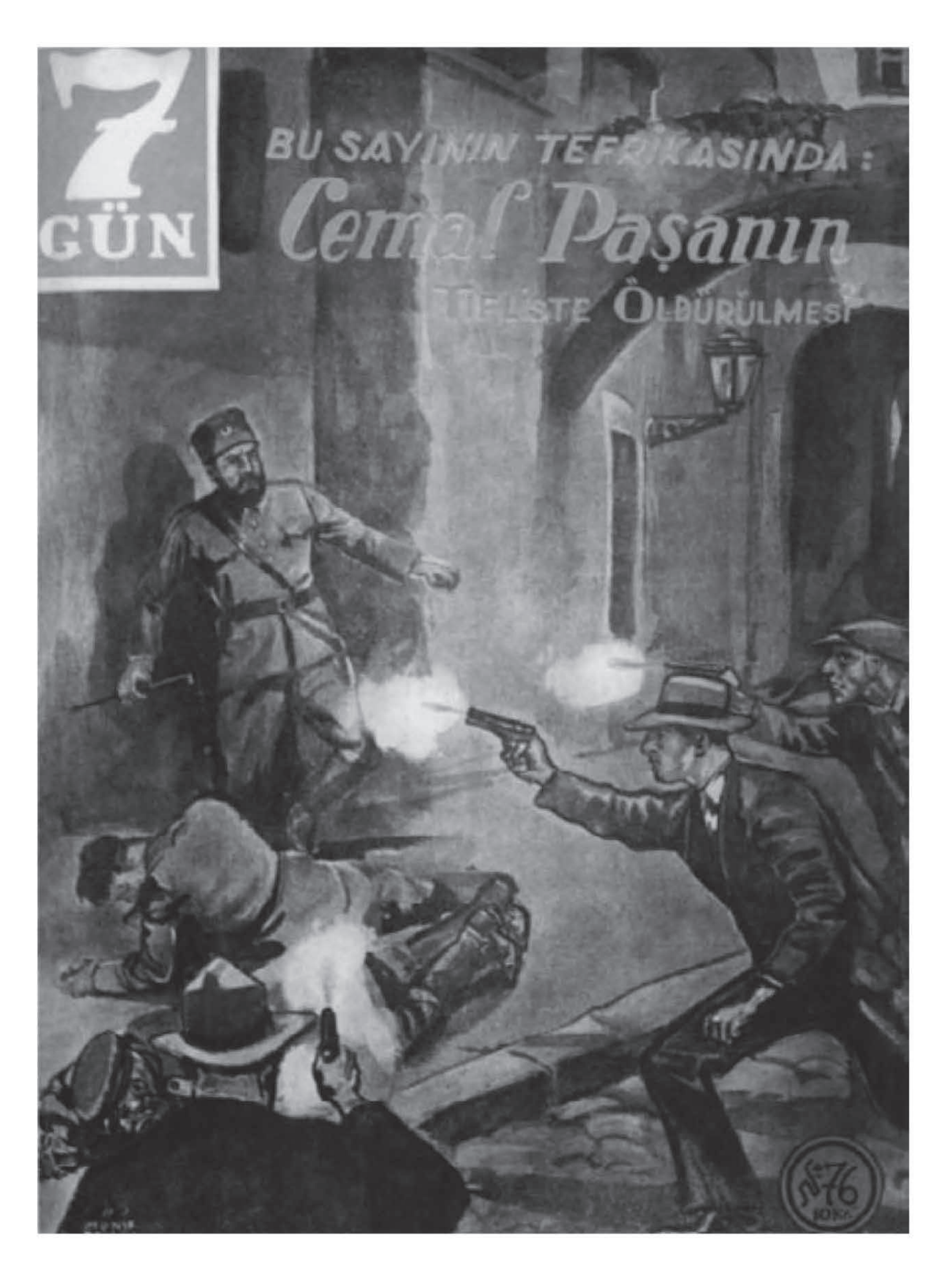




تقاسم الرجل المريض بين بريطانيا وفرنسا






7
GÜN
BU SAYININ TEFRİKASINDA:
Cemal Paşanın
TİFLİSTE ÖLDÜRÜLMESİ

